

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد ١٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي



دار
الكتاب
القديم



الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الخامس عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروني

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فودان - بناية شيارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

● المراهق - ٢ -

● قصص

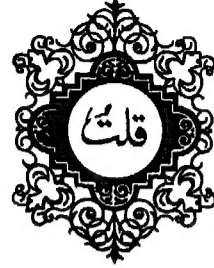
- بوبوك
- الطفل عند سوع
- الفلاح ماري
- عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
- العزبة
- حلم رجل مضحك
- خطاب عن بوشكين

جميع الحقوق محفوظة

المدرسة
٢

الفصل السادس

١



عازما أمرى وأنا أعود الى البيت مسرعا :
 « واضح • يجب أن أذهب إليها • يجب أن
 أذهب إليها فوراً • ومن الجائز جداً أن أجدها
 وحدها ، وحدها أو مع غيرها ، سيان : ففى
 وسعى أن أدعوها ، وسوف تستقبلنى ، ستدهش لكنها ستستقبلنى ، وإذا لم
 تستقبلنى ألححت عليها أن تستقبلنى مرسلًا من يقول لها ان على أن أراها •
 حتمًا فتعتقد أن لمجيئى صلة بالوثيقة ، فتستقبلنى ، فأعلم كل شيء عن
 أمر تاتيانا • • • ثم ماذا ؟ إذا ثبت أننى على خطأ ، كفرت لها عن
 خطئى ، وإذا ثبت أننى على حق وأنها على خطأ ، انتهى كل شيء • وقد
 انتهى كل شيء على كل حال • ماذا الذى أخسره ؟ لا شيء ! هلم • • •
 هلم ! • • •

ولكننى لم أذهب • لن أنسى هذا أبدًا ، وسأظل أتذكره بفخر
 واعتزاز • لن يعلم بذلك أحد ، سيطل مجهولًا ، ولكن يكفى
 أن أعرفه أنا ، يكفى أن أعرف اننى فى تلك اللحظة استطعت أن أكون
 نبيلًا نبلاً لا نهاية له ! قلت لنفسى بعد تفكير : « هى محاولة اغواء •
 لكننى سأغض النظر عنها • وقد أريد لى أن أرتاع ، ولكننى لم أصدق ،
 ولم أفقد ايمانى بطهارتها ! علام أذهب إليها ؟ وعم أسألها ؟ لماذا يكون
 عليها أن تثق بى كما أثق بها ، أن تؤمن بطهارتى ، ألا تخشى
 « حرارة اندفاعى » ولا تهتمى بتاتيانا بافلوفنا ؟ اننى لم استحق بعد شيئاً

من ذلك كله فى نظرها • فلتجهل أنتى أستحق ذلك ، وأنتى لا انقاد
للاغواءات ، واننى لا أصدق ألسنة السوء ! لتجهل هى ذلك كله •
ولكننى سأعلمه أنا ، فازداد احتراماً لنفسى • سأحترم عاطفتى • صحيح
أنها جعلتنى أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا ، كانت تعلم أن
تاتيانا هناك وأنها تتصنت (لا يمكن الا أن تتصنت) ، وكانت تعلم أن
تاتيانا تسخر منى ••• آه ••• شئ فظيع ! شئ فظيع ! ••• ولكن لعلها
كان يستحيل عليها أن تتجنب ذلك ! ماذا كان فى وسعها أن تعمل اذا
استحال عليها أن تتجنب ذلك ؟ كيف يمكننى أن أتهمها ؟ أفلم أكذب
عليها أنا نفسى بصدد كرافت ؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنتى استحال على
أن أتجنب ذلك ؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير
ارادة منى •

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمر وأشعر بألم شديد : رياه ! رياه !
ما هذا الذى فعلته أنا ؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها ؟
ألم أقصص كل شئ على فرسيلوف ؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسى ؟ ان
هناك فرقاً ضخماً • لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب • والحق أنتى لم
أحدث فرسيلوف الا عن الوثيقة ، اذ لم يكن ثمة شئ آخر أحدثه عنه ،
ولا يمكن أن يكون ثمة شئ آخر أحدثه عنه • أأست أنا الذى بادرت
الى ابلاغه ، وصحت أقول « انه لا يمكن أن يكون ثمة شئ آخر » ؟
هذا رجل يدرك الأمور ••• هم ••• ولكن ما هذا الكره الشديد لا يزال
يحملة قلبه لهذه المرأة حتى الآن ! ما عسى تكون القصة التى جرت بينهما
فى الماضى ؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شئ • • هذا رجل
لا يقدر أن يحسن الا عاطفة واحدة هى حبه لذاته حباً لا حدود له •
(بالفرنسية) •

نعم ، أفأنت منى هذه الفكرة حتى اننى لم أنتبه اليها • تلكم هى

الخواطر الى تلاحقت فى ذهنى سريعة ، وكنت عندئذ صادقاً مع نفسى ؛
لم أكن أخادع ، ولم أكن أحاول أن أغشّ نفسى . واذا كان ثمة شئ
لم أستطع أن أدركه فى تلك اللحظة ، فانما مرد ذلك الى فقدان الفهم
لا الى مخادعة النفس .

وعدت الى البيت مهتاجاً شديداً ، وكنت مرح المزاج برغم
الاضطراب القوى ، لا أدرى لماذا ! ولكننى كنت أخشى أن أحلل نفسى ،
وكنت أبذل كل ما أملك من قوة فى سبيل أن أسلو . فسرعان ما ذهبت
الى المؤجرة . فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً .
انها امرأة موظف مصابة بداء السل اصابة قوية ، وهى طيبة القلب ،
لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة . فأسرعت أصلح بينهما .
ثم ذهبت الى المستأجر الشرس ، وهو موظف فى بنك ، غليظ القلب ،
فظ الطبع ، أناى ، مجدور الوجه ، اسمه ثيرفياكوف ، كنت لا أحبه
كثيراً ولكن العلاقات بينى وبينه كانت حسنة ، لأننى كنت أستعذب أن
أستهزئ معه ببطرس هيبوليتوفتش . فسرعان ما أفغسته بالأ يترك
المنزل الى مسكن آخر ، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال . وأفلحت
فى تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة ، واستطعت عدا هذا أن أسوى لها
مخدتها . فقالت فى مكر : « ذلك ما لا يستطيع بطرس هيبوليتوفتش
أن يفعله أبداً » . ثم عكفت فى المطبخ على الاهتمام بكمداتها ، فصنعت
لها يدي كمادتين رائعتين . فكان المسكين بطرس هيبوليتوفتش ينظر الى
حاسداً ، ولكننى لم أسمح له حتى بلمس الكمادات ! وقد كوفئت على
صنعي بامتان عبّر عن نفسه بدموع صادقة . ثم لم ألبث أن شعرت
بضجر من هذا كله على حين فجأة - لا أزال أتذكر هذا - وأدركت
أننى لم أعن بالمریضة بدافع الشهامة والأريحية قط ، وانما غيت بها
هكذا ، لا أدرى لأى سبب ، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة
ولا الأريحية !

وأخذت أنتظر ما تنقضي نافذ الصبر : كنت قد قررت في ذلك المساء أن أجرب حظي مرة أخيرة • وعدا الحظ ، كنت أشعر بحاجة شديدة الى المقامرة • والا لم يكن في وسعي أن أصبر • فلو استحالت على أن أشغل نفسي بالقمار ، لكان من الجائز جدا ألا أستطيع مقاومة الرغبة في الذهاب اليها • وكان على ماتقني أن يصل بعد قليل • ولكن الباب فتح فجأة ، ودخلت على زائرة لم أكن أتوقع أن تجيء الى ، وهي داريا أوسيموفنا • فقطبت حاجبي وبانت دهشتي • كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن ، لأنها جاءتني برسالة من أمي في أحد الأيام • وأجلستها ، ونظرت اليها مستفهما • فلم تقل شيئا ، ولم تزد على أن أخذت تنظر الى محدقة وتبسم بخضوع ومذلة • فخطر ببالي فجأة أن ليزا هي التي أوفدتها ، فسألتها :

- أليست ليزا هي التي أرسلتلك ؟

فأجبت :

- بل جئت هكذا ••• من تلقاء نفسي •••

فأبانتها بأنني خارج بعد قليل ، فعادت تقول مرة أخرى انها جاءت « هكذا » ، من تلقاء نفسها ، وانها منصرفه حالا • فأحسست فجأة بنوع من الشفقة • يجب أن أذكر هنا أن أمي ، وتانيا بافلوفنا خاصة ، هما اللتان ، من بيننا جميعا ، عطفنا عليها ، ولكن جميع ذواتنا قد نسوها تقريبا بعد أن وضعت عند ستوليفافا ، ربما باستثناء ليزا التي كانت تزورها في أحيان كثيرة • ويرجع ذلك ، فيما أظن ، الى داريا نفسها ، لأنها كانت تتصف بالميل الى الابتعاد والغياب ، رغم كل مذلته وكل ابتساماتها المستجدة المستعطفة • أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تمنعني كثيرا ، اذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير

وجهها اصطناعا زائفا ، حتى لقد خطر ببالي ذات يوم أنها لم تبك عزيزتها
أوليا مدة طويلة . ولكننى فى هذه المرة شعرت بشفقة عليها ، لا ادرى
لماذا !

وهاهى ذى تنحنى فجأة دون أن تقول كلمه ، وتخفض عينها ،
وترمى ذراعها الى أمام ، فتمسك بخاصرتى ، وتميل بوجهها على
ركبتى ، ثم تتناول يدى ، فأظن أنها تريد أن تقبلها ، ولكنها رفعتها
الى عينها ، فاذا بسيل من الدموع يسيل عليها . وأخذت تنسج نسيجاً
قوياً يهز جسمها كله ، دون أن يُسمع لبكائها صوت . فانقبض صدرى
ألماً ، رغم أننى أحسست ببداية حنق . ولكنها أخذت تقبلنى بثقة كاملة ،
لا تخشى أن أغضب ، على حين أنها كانت منذ قليل تبسم ابتسامات فيها كثير
من الوجع وكثير من المدلة . فرجوتها أن تهدىء نفسها . فأخذت تتكلم
فقلت :

- سيدى الطيب ، لقد أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى .
فما ان يهبط الفلام ، حتى تنفد طاقتى على الاحتمال . اننى أفقد قدرتى
على الصمود متى حل المساء ، فأرانى مدفوعة الى الخروج الى الشارع فى
العتمة . والحلم هو الذى يجذبنى خاصة . لقد نبت فى رأسى حلم هو أننى
متى خرجت فسألقاها فى الشارع . فأسير ، وأظن أننى أراها . أقصد
أن الناس بسبيرون ، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسى : أليست هذه
هى ؟ نعم ، ها هى ذى ، انها ابنتى أوليا . وأفكر ، وأفكر . وأصبحت
فى النهاية مجنونة من كثرة الجرى بين الجمهور . وصرت أشعر من ذلك
بعثان . اننى أصدم الناس كسكرى ويقذفنى بعضهم بشتائم . لكننى
أحتفظ بهذا كله لنفسى ، ولا أذهب الى أحد . ثم اننى لا أذهب الى مكان
الأجد حالتى أسوأ مما كانت . وقد مررت منذ قليل أمام بيتك ،

فقلت لنفسى : « ماذا لو دخلت ؟ انه خير من الاخرين » ثم انه رأى
الأمر بعينه « • سيدى الطيب ، اغفر لى ازعاجك ، أنا منصرفه حالا • •
ونهضت بحركة مباغتة ، وهمت أن تسارع الى الانصراف •
ووصل ماتشى فى تلك اللحظة • فأركتبها الى جانبى فى العربة ، وأوصلتها
الى منزل ستوليافا •

أصبحت فى الآونة الأخيرة أتردد الى صالة الروليت التى يملكها زرشتشيكوف . وكنت أذهب قبل ذلك الى ثلاثة بيوت ، فى صحبة الأمير الذى كان « يدخلنى » الى تلك الأماكن . ففى أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصةً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة . فكنت لا أحس هنالك بارتياح ، اذ كنت أرى أن المرء يحتاج فيها الى مال كثير ، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين ، وعدد كبير من الشبان الذين يشتمون الى أسر عالية ، وتمتلئ جيوبهم بأموال طائلة . وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير . كان الأمير يحب أن يقامر ، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين . وقد لاحظت أنه اذا دخل معى فى بعض الأحيان جنباً الى جنب ، ابتعد عنى طوال السهرة ، ولم يقدمنى الى أحد من « صحبه » . وكانت هيئة انسان متوحش تماماً ، حتى لقد كان ذلك يلفت الى الانتباه أحياناً . وكان يتفق لى أن أتحدث على مائدة القمار الى هذا أو ذاك من اللاعبين ، ولكن وقع لى ذات مرة أن حاولت التكلم فى ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت اليه بالأمس ، ضحكت معى جالساً الى جانبه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب) ، فاذا هو لا يتصرفنى ، واذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقى على نظرة دهشة مصنوعة ، ثم يعضى مبتسماً ابتسامة ساخرة . لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت ، وأخذت أرتاد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه الا ماخوراً قدرأ . انه صالة روليت حقيرة ،

صغيرة ، نديرها امرأة « مومس » كانت لا تظهر في الصاله مع ذلك ابدا .
 الناس هنالك يتعاملون بدون كلفه ولا حرج ، فكانهم اسرة واحدة ،
 رغم ان بينهم ضباطا وجارا ، فكان هذا يجذب كثيرا من الرواد .
 ولكننى انقطعت عن ارتياد ذلك المكان فى اعقاب قصه قذرة حدثت ذات
 يوم انشاء اللعب ، وانتهت بتضارب بين اثنين من القامرين . وبعد ذلك
 انما أخذت اجدى الى صالة زرششيكوف التى قادنى اليها الأمير أيضاً .
 ان زرششيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد ، وان جو
 سهرائه جو محتمل جداً . وهو رجل عسكرى قليلاً فى سلوكه ،
 حريص على التنفيذ بالأصول ، سريع وعمل . من ذلك مثلاً أنه كان
 لا يقبل فى صالته أناساً يسيئون المزاج أو يسرفون فى القصف واللهو .
 ثم ان اللعب نفسه لم يكن فيه عنده مزاج . وكان القامرون يتعاطون
 البكاراه والروليت . وكنت فى ذلك المساء ، مساء ١٥ تشرين الثانى
 (نوفمبر) ، قد جئت الى هذا المكان قبلئذ مرتين لا أكثر . وكان
 زرششيكوف يعرف وجهى فيما أظن ، ولكن لم يكن قد قام بينى وبينه
 أى تعارف . وشاعت المصادفة التى تشبه العمد أن جاء الأمير فى ذلك المساء
 نفسه مع دارزان عند منتصف الليل عائداً من لعب البكاراه مع أولئك
 الشبان الطاشيين أبناء المجتمع الراقى الذين هجرتهم : هكذا كنت فى
 ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء .

لو كان لى قارئ فقرأ كل ما سبق أن رويته من أحداث حياتى
 لما كان على حتماً أن أشرح له أننى أمرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع
 أياً كان هذا المجتمع . أنا أولاً لا أعرف كيف أمكث بين الناس . فإذا
 ذهبت الى مكان فيه ناس كثير ، بدا لى أن جميع الأنظار تنصب علىّ فتلسعنى
 كاسح الكهرباء ، فأجد نفسى متوتر الأعصاب ، منهكاً انهاكاً جسياً ، حتى
 فى مكان كالمرح ، فاهيك عن البيوت الخاصة . وفى جميع صالات

الروليت هذه وفى جميع تلك المحافل اشعر بعجز عن السيطرة على سلوكى : فتارة أجلس حتى لألوم نفسى على فرط الرقة والأدب والتهذيب ، وتارة أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات . وأنظر حولى فأرى أى وغد من الأوغاد الحقييرين أقدر منى على التصرف فى المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة ، فيزيدنى هذا حقاً ، فإذا أنا أفقد هدوئى مزيداً من فقدان . ويجب أن أقول بصراحة اننى ، لا اليوم فحسب ، بل حتى فى ذلك الحين ، كانت تلك السهرة كلها ، وكانت أرباح القمار نفسها (اذا وجب أن أقول كل شيء) قد أومت فى النهاية تبدو لى باعثة على الاشتزاز ، مثيرة للألم . نعم ، حتماً : مثيرة للألم . صحيح أننى كنت أشعر بمتعة قصوى ، ولكن تلك المتعة كانت تضىء من خلال الألم . كان ذلك كله ، أقصد الناس والقمار وأنا خاصة معهم ، كان ذلك كله يبدو لى قدراً قذارة فظيعة . « ألا فلأربح مرة واحدة » ، ثم أركل ذلك كله برجلي الى الأبد ! .. كذلك كنت أقول لنفسي دائماً حين أستيقظ فى الصباح بعد لعب الليل . الربح مثلاً : اننى لم أكن أحب المال البتة . لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبذولة وهى أننى كنت أقامر من أجل القمار نفسه ، من أجل الاحساسات القوية ، من أجل لذة المجازفة ، من أجل متعة المصادفة ، وما الى ذلك ، وليس من أجل الربح . لقد كنت فى حاجة ملحة الى المال . ولاشك أن هذه الطريق لم تكن طريقى ، لاشك أن هذا لم يكن فكرتى ، ولكن ذلك لا يمنع أننى كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة . هناك فكرة قوية كانت تحاصرني ، كنت أقول لنفسي : « لقد خلصت الى هذه النتيجة : وهى أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك ارادة قوية ! وقد برهنت على قوة ارادتك . فهلم برهن هنا أيضاً على أنك قوى الارادة : ان الروليت تقتضى من قوة الارادة أكثر مما تقتضيه فكرتك ! .. »

ذلك ما كنت اردده لنفسى • ولما كنت مقتنعا حتى هذه الساعه بأن المرء فى ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامل الذى يتيح له أن يحتفظ بذقة تفكيره ، أن يتغلب على المصادفة العمياء ، وأن يربح حتماً ، فقد كان لابد لى فى ذلك الأوان من أن يزداد حقيقى ويشدد حين كنت أرانى أفقد هدوئى واندفع اندفاع صبى صغير • « أنا الذى استطعت أن أتحمّل الجوع ، كيف أعجز عن تحمّل نفسى فى أمر تافه هذه التفاهة ؟ » ذلك ما كان يفيظنى • أضف الى ذلك أن شعورى بأننى أملك فى قرارة نفسى ، مهما أبدت للناس مضحكاً وحقيراً ، كنزاً من قوة سيحبرهم على أن يفيروا حكمهم علىّ فى ذات يوم ، أقول ان هذا الشعور - الذى لازمنى منذ سنّى طفولتى الدليلة - كان فى ذلك الحين هو التبع الوحيد الذى يروى حياتى ، وكان ضيائى ، وكان ترانى وكان سلاحى وكان عزائى ، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن كنت طفلاً • فهل كان فى وسعى ألا أغضب من نفسى حين أرى المخلوق التافه الذى كنت أصير اليه أمام مائدة القمار ؟ ذلك هو السبب فى أننى أرى اليوم هذا رؤية واضحة • وعدا هذا السبب الرئيسى ، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً : كانت الخسارة فى القمار تخفض قدرى فى نظر الأمير ، وتخفض قدرى فى نظر فرسيلوف ، (وان يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شيئاً عن هذا) وتخفض قدرى فى نظر الجميع ، حتى فى نظر تاتيانا بافلوفنا - ذلك ما كان يترأى لى على الأقل ، ذلك ما كنت أحسه • وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلى به : كنت قد فسدت • أصبح صعباً علىّ أن أتخلّى عن عشائى المؤلف من سبعة أطباق فى المطعم ، وأن أتخلّى عن ماتفى ، وعن التجز الانجليزى ، وعن رأى بائع العطور الذى أشتري منه عطورى ، أصبح صعباً علىّ أن أتخلّى عن هذا كله • ولقد وعيت هذا حينذاك ، لكننى أغمضت عينيّ • والآن حين أدوّن هذه الحقائق انما احمر منها خجلاً •

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهور غريب ، فجلست أول الأمر الى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صغيرة . ولبت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك . ساعتين راكدين ركوداً رهيباً : فلا حظ ولا سوء حظ . وأفلتت مني فرص رائحة ، فحاولت ألا أغضب ، وأن أنتصر بهدوني وثقتي . وكان حاصل الحساب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر . فالثلاثمائة روبل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبلات او خمسة عشر روبلا . واحتقتني هذه النتيجة التافهة ، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حقاً . انني أعلم أن المرء يلقي حول موائد الروليت هذه لصوصاً ، لصوصاً لم يجيئوا من الشوارع ليسرقوا ، ولكنهم من بين المقامرين المعروفين . فأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق . وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف . وقد رأيته منذ مدة قصيرة مع فرسين . ولكن هذا لا ينفي انه سارق ، وأنه سرقني . على أن لهذه الحادثة حديثاً سيجيء حينه فيما بعد . أما ذلك المساء فلم يكن الا مقدمة : لقد ظلمت طوال تينك الساعتين جالساً الى ركن من المائدة ، وكان الى يساري مفزور صغير ، أتيق الهندام ، أظن أنه يهودي ، هو عضو في جماعة لا أدرى ما هي ، كما أنه يكتب ويُنشر له ما يكتب . كنت قد ربحت في آخر لحظة عشرين روبلا على حين فجأة : فكانت أمامي ورقتان حمراوان ، فاذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب اليه احدي الورقتين بأكبر هدوء ممكن . فهممت أن أوقفه ، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون

أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو ، فقد حظ و ربح . حتى أنه لم يشأ ان يتابع الحديث معي ، بل أدار لي ظهره . و شأت المصادفة التي تشبه العمد أن أكون عندئذ في أسند حالتي النفسية حماقة ، اذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة . فلم أزد على أن بصقت ، ثم نهضت بسرعة وانصرفت ، دون ان أنافس ، مهدياً اليه ورقتي النقدية الحمراء . وكان من الصعب على كل حال أن أسوى الأمر مع وغد حقير مثله ، فقد فعل فعلته وانقضى وقت ، واستمر اللعب . لكن سكوتى كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائج وبيلة : فان ثلاثة أو أربعة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة ، ورأوا تراجعى السريع فلا بد أنهم اعتقدوا اننى غشاش . وكان الليل قد انتصف . مضيت الى الغرفة المجاورة ، ووضعت خطة جديدة ، ثم رجعت فبدلت أوراقي النقدية من البنك قطعاً ذهبية . فأصبح بين يديّ أكثر من أربعين قطعة جعلتها عشرة أنصاف وقررت أن أحط عشر مرات متتالية على « الصفر » ، أى أربعة أنصاف من الليرات الامبراطورية فى كل مرة ، خطة بعد أخرى ، قائلاً لنفسى : « ان ربحت كان هذا حظى وان خسرت فهذا أفضل : فلن ألعب بعد اليوم أبداً » . يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرة واحدة ، حتى أصبح لا يحط أحد عليه .

كنت ألعب واقفاً ، صامتاً ، مقطباً حاجبى كازاً أسناني . ومذا زرشتشيكوف يعلن فى المرة الثالثة بصوت عال عن خروج « الصفر » بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة . ففقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية . بقيت لى سبع خطوات . واستمرت ، وكان كل شئ فى أثناء ذلك يضطرب من حولى ويتراقص .

— تعال الى هنا ، تعال الى هنا ، فهنا هنا الخبط !

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة ، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدى رداء رسمياً ، وكان

يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر في كل مرة ، فيصبر صبراً
لا يمكن وصفه • فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألني بدهشة
فيها تهديد :

- أ اياى تنادى ؟

فقلت :

- نعم ، اياك أناذى ، فهناك ستخسر كل شىء !

فقال :

- هذا ليس شأنك ، فدعنى ولا تزعجنى !

ولكننى كنت قد فقدت سيطرتى على نفسى • وكان يجلس أمامى
فى الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن ، فلما رأى حطتى على الصفر ،
دمدم يقول لجاره :

- غريب : الصفر • لا ، لا ، لن أخط على الصفر أبداً •

فصحت أقول له وأنا أخط مرةً أخرى :

- بل تجراً يا كولونيل !

فانبرى يقول لى بعنف :

- أرجوك ألا تزعجنى أيضاً • لست فى حاجة الى نصائحك •

انك تحدث صخباً كثيراً هنا •

- اننى أسدى نصيحة حسنة • هل تريد أن تراهن على أن
الصفر الذى سيطلع فى هذه المرة أيضاً ؟ أتراهن على عشر قطع
ذهبية ؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ذهبية • فقال لى

بلهجة خشنه قاسية :

- عشر قطع ذهبية ؟ أراهن ؟ مستعد ! أراهن على ان الصفر لن يطلع هذه المرة !

- عشرة دنائير لويس يا كولونيل !

- ما عشرة دنائير لويس ؟

- أى عشرة أنصاف ليرات ذهبية ، وهى تسمى فى اللغة النيلة عشرة دنائير لويس •

- قل اذن عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ، ولا تمزح معى !

ولم أكن آمل أن أربح الرهان طبعاً : فان حظ الصفر فى الطلوع لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً • ولكننى انما عرضت هذا الرهان أولاً من أجل أن « أثير الدهشة » وثانياً من أجل أن اجتذب الى مودة الآخرين • كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحببى وأنهم يجدون لذة فى اشعارى بذلك • وأخذت الروليت تدور ، فما كان أشد ذهول الجميع حين طلع « الصفر » مرة أخرى ! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة • وذهبت نشوة الانتصار بصوابى ! ونقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية • وسألنى زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض جزءاً من المبلغ أوراقاً نقدية ، فأجبته بغمغمه غير مفهومة ، لأننى أصبحت عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح • كان رأسى يدور ، وكانت ساقاى تصطلكان • وأحسست فجأة بأننى سأعرض الآن لخطر رهيب • وكنت أرغب فى أن أقوم بعمل آخر ، أن أعرض رهاناً جديداً ، أن أنقد أحداً آلاف الروبلات • لمت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدي دون وعى ، ولم أستطع أن أعدّها • وفى تلك اللحظة لاحظت الأمير وداوزان وراثى فجأة ، وكانا آتئين من لعب البكاراه بعد أن خسرا هنالك كل شيء كما علمت ذلك فيما بعد •

صحت أقول لدارزان :

- هيه دارزان ! هنا حظك ! حطّ على الصفر •

فأجابني قائلاً بخشونة :

- خسرت كل شيء فليس معي مال •

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً ، وبأنه لم يعرفني • فصحت

أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي :

- اليك المال ، فخذ ما شئت • كم تريد ؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً :

- غريب أمرك • أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن !

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي :

- هناك من يناديك •

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات ، وكاد يشفع نداءاته بشتائم ،

منذ خسر رهائي معه على عشرة أنصاف الليرات الامبراطورية • وها هو ذا

يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب :

- خذ ! لست مضطراً أن أنتظرك ! سوف تقول عني انني لم أدفع

الرهان • اعدد •

- أصدّقت يا كولونيل ، أصدّقت ، أصدّقت بدون أن أعد •

لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني ، أرجوك ألا تزعل •

ولمعت كدسة ذهبية بيدي • فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف :

- أيها السيد العزيز ، أرجو أن تتجه بحماسك هذه الى غيبي ،

فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام ، وليس بيني وبينك سابق

علاقة •

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت :

- انه لأمر غريب أن 'يسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز !
من هذا ؟ فنى صغير ؟

ولكننى لم أكن أصغى ، وطفقت أحط بغير روية ، ولكننى لا أحط
على الصفر ، وجعلت حطائى أعداداً من أوراق مالية .

قال الأمير ورائى :

- هياً بنا ننصرف يا دارزان !

فقلت وأنا التفت اليهما :

- الى البيت ؟ انتظرانى فننصرف معاً . انتهيت .

لقد ربحت . فكان ربحى ضخماً . فصرخت أقول :

- كفى !

وبيدى مرتعشتين لمت الذهب وسكبته فى جيوبى دون أن أعده ،
وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعى أريد أن أدسها
جميعاً فى جيب جانبى من سترتى ، فإذا بيد سمينة يزينها خاتم ، هى يد
أفردوف الذى كان الى يمينى وكان قد حطَّ مبالغ ضخمة ، اذا بيده تطبق
على ثلاث من أوراقى وتغطيها براحتها . وقال يخاطبني بخشونه مقطعاً
كلماته مرققاً صوته :

- اسمح لى ، هذه ليست لك !

كانت هذه هى المقدمة التى تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام .
انى لأقسم اليوم بشرفى أن تلك الأوراق الثلاث (وهى من فئة المائة روبل)
كانت لى ، ولكن شاء سوء حظى أن ظلاً من شك قد ساورنى حينئذ رغم
اقتناعى الكامل ، وذلك شىء له خطورته عند من يحرص على أن يكون

انسانا شريفا ، وأنا انسان شريف ، ولا سيما أننى كنت لا أعلم فى ذلك
 الحين علم اليقين ان افردوف لص ، بل كنت أجهل حتى اسمه ، فلم يكن
 فى وسعى أن أصدق حقا أننى لست مخطئا وأن هذه الأوراق الثلاث
 ليست من الاوراق التى عدت لى • ولقد كنت طوال السهرة لا أعد
 كدسة اموالى ، بل اقتصر على لمها بيدى ، اما افردوف فكان يرتب ماله
 أمامه معدودا محسوبيا بجانب مالى • وكان افردوف عدا ذلك معروفا فى
 هذا البيت ، وكانوا يعدونه هنالك رجلا واسع الثراء ، وكانوا يعلمونه
 باحترام : فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته على ، فاذا أنا أسلّم
 مرة أخرى بغير اعتراض • يا للغلطة الفظيعة ! وأنكى ما فى الأمر كله
 أننى كنت فى حماسة شديدة • فلم أزد على أن قلت مرتعش الشفتين من
 الاستياء :

— يؤسفنى أننى لا أتذكر تذكراً دقيقاً ، ولكن يخيّل الىّ أن هذه
 الأوراق لى أنا •

فسرعان ما أثارت كلمائى هذه دمدمات تدمر • وقال آفردوف بلهجة
 فيها استعلاء لا يطاق :

— لكى يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون « واثقا » ، وأنت
 تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً •

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة :

— من هذا الفتى ؟ كيف 'يسمح بمثل هذه الأمور ؟

وارتفع صوت وبش يقول بجانبى :

— ما هذه أول مرة • فمنذ قليل اراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة

عشر روبلات من مال رخبريج •

فصحت أقول :

- طيب ، كفى ، كفى ! لست أعترض . خذ ما تشاء ! يا امير .
ولكن أين الامير و دارزان ؟ انصرفا ؟ يا سادة ، ألم تروا من أى جهه
خرج الأمير و دارزان ؟

ولمعت أخيرا مالى كله . وبدون أن أثرى لآدم فى أحد جيوبه
عدداً من أنصاف الليرات الامبراطورية كان بيدى ، اندفعت الألق الأمل
و دارزان . ان القارى يرى الآن رؤية واضحة أننى لا أستر عيوبى
وأننى أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالى فى تلك اللحظة ، وكيف كنت
أحمق غاية الحماسة ، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك .

كان الأمير و دارزان قد بلغا أسفل السلم ، ولم يوليا ندائى وصيحاتى
أىّ انتباه . وقد وصلت اليهما ، لكننى تلبثت لحظة أمام البواب السويسرى
فدسست فى يده ثلاثة أنصاف من الليرات الامبراطورية ، لا أدري لماذا
فنظرت الى البواب متحيراً ، حتى أنه لم يشكرنى ، ولكننى لم أكتف
بذلك ؟ ولو كان مافئى هناك ، اذن لناولته قبضة من القطع الذهبية حتماً .
فأننى كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً ، ولكن ما ان وضعت قدمى على
درج الباب حتى تذكرت فجأة أننى صرفت مافئى . وفى تلك اللحظة
كانت عربة الأمير تتقدم نحو الباب ، فركبها الأمير ، فصحت أقول وأ:
أمسك وقاء العربة وأرفعه لأجلس بجانبه :

- أنا آت معك يا امير !

ولكن دارزان مرّ أمامى فجأة ، فوثب يركب العربة ؟ وانتزع منى
الحوذى الوفاء فغطى به سيّديه ، فصحت أقول خارجاً عن طورى :

- يا للشيطان !

لكننى ما رفعت الوفاء الا ليركب دارزان ، مثلما بفعل خادم . وصاح
الأمير يهيب بالحوذى قائلاً :

- الى البيت !

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة :

- قف !

ولكن الحصان جرداً العربة ، فتدحرجت على الأرض • ثم لم ألبث أن
نهضت ، ووثبت أركب أول عربة رأيته ، وطرقت الى منزل الأمير وأنا
أستحث الخوذي في كل لحظة ، فأنهك الحصان المسكين •

٤

الحصان يجرى بطيئاً كأنما ليزيد حنقى ، والحوذى لا يبرح يضربه بسوطه لأننى وعدته بروبل مكافأة • وقلبى يخفق خفقاناً شديداً • أخذت أكلّم الحوذى ، ولكن الكلمات لا تخرج من فمى ، فكنت أتمتم متممةً بسخافات لا أدرى ما هى • تلك كانت حالى حين هربت الى الأمير • وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان الى بيته • فهو الآن وحيد ، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة • يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر فى القمار كثيراً • وها هو ذا ينظر الى فى حيرة وذهول ، ثم يقول مقطباً حاجبيه :

- أ أنت أيضاً ؟

فقلت وأنا أختق :

- جئت لأنهى صلتى بك • كيف تجرأت أن تعاملنى هذه المعاملة ؟ فرشقتنى بنظرة مستفهمه • قلت :

- اذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان ، فما كان عليك الا أن تقول لى انك ستصطحب دارزان ، ولكنك أجريت الحصان ، فاذا بى ... • آ ... نعم ... أظن أنك وقعت أنت فى الثلج •

قال ذلك وطفق يضحك • قلت :

— هذه أمور يكون الرد عليها بدعوة الى مبارزة ، ولذلك سنصفي
أولاً حساباتنا ...

واستلكت أموالى بيد مرتعشة ، فوضعت بعضها على الديوان ، وبعضها
على المنضدة الرخامية ، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح ، وكنت
أتناولها بقبضة يدي ملأى ، وألقيها حزمًا وأكداًساً ، حتى لقد تدرجرت
قطع ذهبية كثيرة على السجادة • قال :
— ها ... نعم ... أظن أنك ربحت كثيراً ؟ يدرك المرء ذلك من
لهجة كلامك •

انه لم يكلمنى بمثل هذه الوقاحة فى يوم من الأيام وكان وجهى
شاحباً شحوباً شديداً •

— يوجد هنا ... لا أدرى كم يوجد ... يجب أن نعد ... اننى
مدين لك بثلاثة آلاف ... أم ماذا ؟ أكثر أم أقل ؟
— أظن أننى لا أجبرك على أن تدفع لى شيئاً •
— بل أنا الذى أريد ذلك • ولابد أنك تعرف لماذا • خذ !
وطفقت أعد المال بيد مرتجفة ، ولكننى ما لبثت أن عدلت عن العد ،
قائلاً له :

— لا يهمنى أن أعرف المجموع معرفة دقيقة • أنا أعرف أن ههنا
ألف روبل • فسأخذ هذه الألف لنفسى ، وأخذ أنت الباقي كله ، خذ هذه
الأكداًس جميعها ، سداداً لديك على " أو لبعض دينك على " : أظن أن
الباقي يبلغ نحو ألفى روبل وقد يزيد •
قال الأمير مبتسماً :

— وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك ؟

- أأنت في حاجة اليها ؟ اذن ... أعطيك اياها ... كنت أظن
أنك قد لا تريد أن ... ولكن خذها اذا وجب أن تأخذها ...
- لا ، لا أريد .

قال ذلك وأشاح عنى باحتقار ، وعاد يذرع الغرفة ذاهباً آيماً . ثم
التفت الى فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدى والاستفزاز :

- ولكن ما الذى جعلك تفكر فى سداد ديونك ؟
فأردت أقول أنا أيضاً :
- انما أرد اليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت !
- اذهب الى الشيطان أنت وألغازك الضخمة وإشاراتك الأبدية !
وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره ، وأضاف يقول :
- اننى أريد منذ مدة طويلة أن أطردهما كليهما أنت وصاحبك
فريسيلوف .

صرخت أقول :

- هل 'جنت ؟

وكان كمن 'جنّ فعلاً . وتابع كلامه قائلاً :

- لقد عذبتنا تعذيباً رهيباً بجملكما المتفخمة . دائماً جمل ،
جمل ، جمل ! فيما يتعلق بالشرف مثلاً ! أف ! اننى أريد منذ مدة
طويلة أن أقطع صلتى بكما . ويسرنى ، يسرنى أنه آن الأوان . كنت
أظن أننى مرتبط ، وكنت أحمر خجلاً من أننى مضطر أن أستقبلكما ...
كليهما ! أما الآن فأرى أننى غير مرتبط بشئ ، غير مرتبط بشئ ،
ألا فاعلم ذلك ! لطالما حضنى صاحبك فريسيلوف على أن أهاجم
أخماكوف ، وأن ألتطخ شرفها بالعار ... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم

عندى أبداً ! كلاكما غير شريف ، كلاكما غير شريف ! وأنت ، ألم
تستح أن تأخذ مالى ؟

زاغ بصرى • وقلت متمتماً برفق :

- أنا اقترضت منك كما يقترض رفيق من رفيقه • وأنت الذى
عرضت علىّ أن تقرضنى فصددت حسن نياتك •••

- ما أنا رفيقك ! لقد أعطيتك مالاً ، ولكن لغير هذا الغرض • أنت
تعلم لماذا أعطيتك •

- أعطيتنى من حساب فرسيلوف • وذلك غباء طبعاً ، ولكن •••

- لم يكن فى إمكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون اذنه ،
ولا كان فى إمكانى أن أعطيك ماله بغير اذنه ••• فانا انما أعطيتك من
مالى ، وكنت أنت تعرف ذلك • كنت تعرفه وكنت ترضاه • ولشدهما قاسيت
أنا فى بيتى من تمثيل هذه المسرحية الكريهة •

- ما الذى كنت أعرفه ؟ عن أية مسرحية تتكلم ؟ ولماذا كنت
تعطينى اذن ؟

- لجمال عينيك يا ابن عمى ! •

قال هذه الجملة الساخرة بالفرنسية • وطفق يضحك أمامى •
فصرخت معولاً أقول :

- اذهب الى الشيطان ! خذ كل شئ • اليك هذه الألف أيضاً !
هاقد سددت دينى كله الآن ، وغداً •••

ورميت له كدسة الأوراق المالية التى كنت قد احتفظت بها لنفسى ،
فسقطت على صديرتة ، وتدحرجت الى الأرض • فاذا هو يتقدم منى

ثلاث خطوات سريعة واسعة ، ويقول لى بفتةً بلهجة وحشية وكلمات مقطعة :

- هل تجرؤ أن تدعى أنك حين كنت تأخذ منى المال طوال هذا الشهر ، كنت تجهل أن أختك حبلى منى ؟
- ماذا ؟ كيف ؟

كذلك هتفت أسأله . وارتخت ساقاي فأصبحت لا تستطيعان حملي فتهاويت على الديوان خائر القوى .

لقد ذكر لى هو نفسه فيما بعد أن وجهي اصفر اصفراراً شديداً يشبه أن يكون بياضاً كيباض منديل .

اضطرب ذهني . وأذكر أن كلاً منا قد حدّق الى عيني صاحبه صامتاً . وألمّ بوجهه هو نوع من ذعر . ومال على فجأة ، فأمسكني من كفيّ . يسندني . اني أتذكر ابتسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح . لقد قرأت فيها معاني الشك والدهشة . نعم ! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث في نفسى هذا الأثر ، لأنه كان موقناً بأننى على علم بالأمر ، وبأننى كنت آثماً .

وأغمى على اخيرا ، غير أن الاغماء لم يدم الا دقيقة واحدة . فلما أفقت وقفت على قدمي ونظرت اليه وفهمت . لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكري الذي طال نومه ! لو قد حكى لى الأمر من قبل وسئلت ما عساني صانعا بالرجل ، اذن لأجبت حتماً بأننى سأمزقه تمزيقاً . ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً ، وقد حدث بغير ارادتي أبداً : فأننى لم ألبث أن دفنت وجهي بيديّ فجأة ، وأخذت أذرف دموعاً حارة . مرة . ذلكم ما حدث . لقد انبعث الطفل الصغير في الرجل الشاب . معنى ذلك أن الطفل

الصغير كان لا يزال حياً في نفسى ، وتهالكت على الديوان وطفقت انشج
منتحياً : « ليزا ! ليزا ! ليزا المسكينة ! » ♦

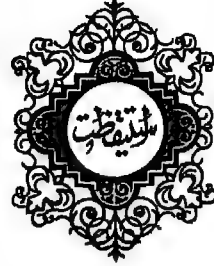
وعندئذ صدقنى الأمير تصديقاً تاماً ♦ فهتف يقول بحزن عميق :
- آه ! ما أكبر الذنب الذى ارتكبته فى حقك ! ما أبشع الأشياء
التي صورتها عنك ! سامحنى يا آرКАДى ماكاروفتش !

فانتفضت ، وأردت أن أقول له شيئاً ، وتسمرت أمامه ، ولكن دون
أن أنطق بكلمة ، ثم لم ألبث أن ولّيت هارباً من الغرفة ومن البيت ♦

رجعت الى مسكنى سائراً على القدمين ، ولا أكاد أتذكر كيف
وصلت ♦ ارتيميت على سريرى ، مكباً بوجهى على الوسادة فى الظلام ،
ورحت أفكر وأفكر ♦ ان الأفكار فى مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقةً
منسجمة أبداً ، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجع
ويتراقص ♦ أذكر أننى أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه ،
بل بأشياء لا يعلم الا الله ما الذى جعلها تخطر ببالى ! ولكن حزنى وشقائى
ما يلبثان أن يدركانى مؤلمين موجعين ، فأعقف يديّ كمدأ ، وأصبح قائلاً :
« ليزا ! ليزا ! » ، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة ♦ لا أدري كيف
نمت ولكننى نمت نوماً عميقاً هادئاً ♦

الفصل السابع

١



فى نحو الساعة الثامنة من الصباح ، فسارعت
أقبل بابى بالمتساح فوراً ، وجلست أمام النافذة ،
وعدت أحلم من جديد . وبقيت على هذه الحال
حتى الساعة العاشرة . وقد قرعت الخادمة الباب
مرتين ، لكننى طردتها . وبعد الساعة العاشرة 'قرع الباب مرة' أخرى ،
فأوشكت أن أصرخ أيضاً ، لولا أن عرفت أنها ليزا . وقد دخلت الخادمة
معها : جاءتنى بقهوتى ، واستعدت لاشعال المدفأة . فكان يستحيل أن
أطردھا . فكنت طوال الوقت الذى قضته فى وضع الحطب واشعال النار
أذرع غرفتى الصغيرة بخطى واسعة ، دون أن أشرع فى الحديث ،
متحاشياً أن أنظر الى ليزا . وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد ، وتتعمد هذا
البطء تعمداً ، كما تفعل جميع الخادومات فى مثل هذه الحالة ، حين يلاحظن
أن أسيادهن متخرجون من الكلام بحضورهن . وكانت ليزا جالسة على
المائدة أمام النافذة تتابعنى بنظرھا . فقالت فجأة :

— توشك قهوتك أن تبرد .

فنظرت اليھا . لم أر فى وجهھا أثراً لاضطراب ، فوجهھا هادىء
هدوءاً تاماً ، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيھا .

قلت محدثاً نفسى وأنا أرفع كفى : هذه هى النساء !

وانتهت الخادمة أخيراً من اشعال المدفأة ، وشرعت فى تنظيف الغرفة

وترتيبها • ولكننى طردتها طرداً صارماً ، وأفقلت الباب بالمفتاح من جديد •
سألتنى ليزا :

— قل لى ، من فضلك ، لماذا أغلقت الباب ثانية ؟

فتسمرت أمامها ، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر
ببالى أن تكون هذه بداية كلامى :

— ليزا ، كيف أمكن أن تظنى أنك ستظلين تخدعينى ؟

لم أذرف فى هذه المرة دموعاً ، وإنما اجتاحت قلبى عاطفة تشبه
أن تكون شراً ، حتى اننى لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسى • فاحمرت ليزا
ولكنها لم تعجب ، وإنما ظلت تحددق الى عينيّ •

— انتظرى يا ليزا ، انتظرى ! آه ••• ما أغباني ! ولكن هل كنت
غيباً الى هذا الحد من الغباوة حقاً ؟ ان التلميحات كلها لم تتجمع حزمةً
واحدة الا بالأمس ، أما قبل ذلك فكيف كان يمكننى أن أحزر ؟ أكان
يمكننى أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين الى ستوليبافا أو الى ••• داريا
أويسيموفنا هذه ؟ لقد كنت أعدك شمساً يا ليزا ، فكيف كان يمكن أن
يخطر ببالى ••• ؟ انك تذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده ،
وكيف مضينا نتنزه فى الشمس معاً ، وكيف سررنا أعظم السرور • هل
كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين ؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم •

— اذن كنت تخدعينى منذ ذلك الحين يا ليزا ! لا ، يا ليزا ، لم يكن
ذلك منى غباءً ، بل كان أنانية • ليس الغباء هو المسئول ، وإنما أعمتى
الأنانية ، وأعمتى تقى الكبيرة بقداستك • كنت لا أنظر الا فى نفسى •
وعلام أنظر فيكم أتم ؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً ، وكنت أعهدكم أعلى

منى كثيراً ! وأمس ، فى البيت ، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيل
الغشاوة عن بصرى ، وكنت عدا ذلك مشغول البال بأمر أخرى ، فلم
أستطع أن أدرك شيئاً ، رغم جميع الاشارات والتلميحات .

وتذكرت فى تلك اللحظة كاترين نيقولايفنا فجأة . فأحسست مرة
أخرى بأنم يشبه أن يكون وخز ابرة فى القلب ، واحمر وجهى احمراراً
شديداً . فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً .

قالت ليزا بصوت رقيق لكنه جازم :

- ولكن عمّ تعتذر يا أوكادى ؟ يبدو لى أنك تحاول أن تعتذر عن
شئ ، أن تبرئ نفسك من شئ ، ولكن عمّ تعتذر ؟ مم تبرئ نفسك ؟

- ما الذى يجب علىّ أن أفعله الآن ؟ لو لم يكن ثمة الا هذا السؤال
لكفى . فكيف تقولين ممّ تبرئ نفسك ؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف
أتصرف ! لست أعلم ماذا يفعل الاخوة فى مثل هذه الحالة . . أعلم أن
منهم من يجبر الجاني على الزواج مشهراً عليه المسدس وسوف
أتصرف كما يجب أن يتصرف رجل شريف . لكننى أجهل كيف ينبغى
أن يتصرف رجل شريف ! لماذا ؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء . انه أمير .
وهو يصنع حياته ويهيئ مستقبله ، فلن يرضى حتى أن يصغى اليها نحن
الشرفاء . وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً ، وانما نحن ولدا زنا بغير اسم ،
نحن من أولاد الأقنان . هل يتزوج الأمراء بنات أقنان ؟ آه ياللعار !
وتظلمين تنظرين الىّ وندھشين ؟ . . .

فاحمرت ليزا من جديد ، وقالت :

- أظن أنك معذب ، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذى نفسك . .
- أفسرع ؟ أفى رأيك اذن أننى لم أتاخر ؟ أنت تقولين هذا الكلام
يا ليزا ؟ (أخيراً نشط خيالى) . ما أكثر ما تكدس علىّ من عار مع ذلك ،

وما اسد الاحتقار الذى لابد ان هذا الأمير قد حمله لى ! اه . . . الان أصبح كل شيء واضحاً . الان أصبحت اللوحة كلها ماله امامى : لقد تصور اننى عرفت صلته بك منذ مدة طويلة ، ولكننى سكت عليها ، أو حتى سمحت بأنفى تباهياً « بالشرف » العظيم - ذلك ما تصوره عنى . وتصور أننى كنت آخذ ماله فى سبيل أختى ، تصور أننى كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختى . وذلك ما كان يشمئز منه . وانى لأعذره ، أعذره كل العذر : فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنىء يُضطر أن يلقاه مرة بعد مرة كل يوم لا لشيء الا أنه « أخوها » ، وأن يسمعه - فوق ذلك - متحدثاً عن الشرف . . . ذلك خليف بأن يقسى قلب المرء ، أن يقسى حتى قلب رجل مثله ! وقد ارتضيت أنت هذا كله ، ولم تبهينى ! لقد بلغ من شدة احتقاره لى أنه كان يحدث عنى ستييلكوف ، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس انه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف . وهذا اذن ما جعل ستييلكوف يقول : « ان أنا آندرييفنا أختك مثل الزابت ما كاروفنا سواء بسواء » ، حتى لقد صرخ يقول ورائى : « مالى أنا أفضل » . وكنت أنا استلقى فى بيت الأمير على دواوينه مسترخياً ، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً ! وسمحت أنت بهذا كله ! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن ، كما تدل على ذلك لهجته فى مساء أمس . . . جميع الناس عارفون بالأمر ، جميعهم عارفون به ، الا أنا ! . . .

قاطعتنى ليزا تقول :

- لا أحد يعرف . انه لم يتحدث الى أحد من أصدقائه ، انه لم يستطع أن يتحدث الى أحد منهم . أما ستييلكوف هذا ، فأنا أعرف أنه يعذبه ، وأن ستييلكوف قد استطاع أن يشبه اشتباهاً فى أكثر تقدير . . . أما أنت فقد كلمته عنك مراراً ، وصدق ما قلته له تصديقاً كاملاً . . .

لقد قلت له انك تجهل كل شيء ، ولكننى لا أدرى لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس •

– الحمد لله على اننى دفعت له دينه أمس ، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذى يجثم على قلبى ! ليزا ، هل ماما على علم بالأمر ؟ ولكن كيف لا تكون على علم به • انها بالأمس ثارت على ! آه يا ليزا ! ولكن هل يمكن أن تعتقدى بأنك على حق ؟ ألا تتهمين نفسك بشيء ؟ اننى لا أدرى كيف يُحكم على هذه الأمور اليوم ، ولا أدرى ما هى آراؤك ، أقصد ما هى آراؤك فى ؟ فى أمك ، فى أخيك ، فى أبيك ! هل فرسيلوف على علم ؟

– لم تقل له ماما شيئاً • وهو لا يسأل عن شيء • لاشك أنه لا يريد أن يسأل •

– يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم • هذا هو الأمر • ذلك فى طبيعته • طيب ، وفى وسعك أن تسخرى من أخيك ، من أخيك الغبى ، اذا هو تكلم عن مسدسات ، ولكن هلا فكرت فى أمك ؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك ؟ لقد عذبتنى هذه الفكرة طوال الليل • ان الفكرة الأولى عند ماما اليوم هى هذه : « لقد أئمت ابنتى لأننى أئمت أنا أيضاً • هل تلد الحية الا الحية ؟ » •

ما ان سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها ، وهتفت تقول :

– آه ما أقسى هذا الذى تقوله وما أسوأه !

ثم نهضت وسارت بسرعة نحو الباب ، فقلت لها :

– قفى قفى !

وأمسكتها ، وأجلستها من جديد ، وجلست بقربها دون أن أسحب
يدي . قالت :

— كنت أقدر ، وأنا آتيه الى هنا ، أن هذا كله سيحدث ، وأنت
ستكون في حاجة الى أن أتهم نفسي حتماً . فاعتبط : هأنا ذى أتهم نفسي .
اننى لم اصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام الا كبرياءً ولكننى أشفق
عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسي . . .

ولم تكمل ليزا جملتها ، وانما انفجرت تبكى . فقلت لها :
— كفى يا ليزا ! لا ، لست فى حاجة الى شئ . ما أنا لك بالقاضى
يا ليزا . ولكن قولى لى : هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة ؟
فأجابت ليزا برقة وهى تخفض عينيها :

— أظن . ولكننى لم أذكر لها أنا متى وقع « الأمر » الا منذ
زمن قصير .

— فماذا كان منها ؟

— قالت : « احتفظى به » .

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة . فقلت لها :
— نعم يا ليزا ، « احتفظى به » . لا تحاولى أن تصنعى بنفسك
شيئاً . حماك الله من مثل ذلك !

قالت بثبات :

— لن أفعل شيئاً .

ورفعت بصرها الى من جديد . ثم أضافت تقول :

— اطمئن . ليس الأمر هذا !

— ليزا ، عزيزتى ! كل ما أراه هو أننى لا اعلم شيئاً . لكننى علمت

الآن أننى اجبت • هناك شيء واحد لا افهمه يا ليزا : لقد اصبح كل شيء واضحا لى يا ليزا ، ولكننى لن افهم فى يوم من الأيام ، فمما كاملا ، لماذا افتنت به يا ليزا ؟ كيف أمكن أن تحبى رجلا مثله ؟ ذلك هو السؤال .

فأجابت ليزا وهى تبسم ابتسامة رقيقة عذبة :

- ولا شك أن هذه الفكرة أيضا قد عذبتك فى الليل ، أليس كذلك ؟

- انتظرى يا ليزا ، هذا سؤال سخيف ، وأنت تستهزئين بى • استهزئى بى ، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش : أنت و « هو » نقيضان ! لقد درست طبعه : انه رجل قائم المزاج ، كثير الشك ، قد يكون طيبا ، ولكنه ميل كثيرا الى رؤية الشر فى كل مكان • (هنا على الأقل يشبهنى تماما) • وهو يحترم النبل احتراماً شديداً ، أعترف بهذا أيضا وأراه ، ولكننى أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى • وهو ميال الى الندم طول حياته بغير انقطاع ، وهو ينحى على نفسه باللائمة دائما ، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضا يشبهنى على كل حال) • فى رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية ، وألف معنى من المعانى الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ! يسعى الى المآثر الكبرى ، لكنه لا يزيد على أن يراكم دناءات فوق دناءات • معذرة يا ليزا ، اننى أمسى الى شعورك • والحق أننى غبى : فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك ، وأعلم أننى أقل ذلك ؟ اننى أفهم هذا ...

قالت ليزا مبتسمة :

- الصورة التى رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة ، ولكنك مسرف فى السخط عليه ، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة • لقد ارتاب فيك منذ البداية ، ولم تستطع أن تراه كاملا ، أما معنى أنا فانه منذ أن كنا فى لوجا ... انه لم ير أحداً غيرى منذ أن كنا فى لوجا ... نعم انه

كثير الشك مهياً للمرض ، ولولاي لفقد عقله • وسوف يفقده اذا هو
تركى أو سوف ينتحر •

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة :

- أظن أنه يدرك ذلك وأنه يعرفه •

وتابعت كلامها فقالت :

- صحيح أنه ضعيف ، ولكن أمثال هؤلاء الضعفاء قادرون أحياناً
على أشياء قوية قوة هائلة • ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادى:
لا حاجة الى شيء من هذا البتة ، وأنا أعرف ما سوف يحدث • لست أنا التي
الأحقه وأطارد ، بل هو الذى يجبرى ورائى • ان ماما تبكى وتقول :
« اذا تزوجته فسوف تشقى ، لأنه سيكف عن حبك » • أما أنا فلا أصدق
هذا الكلام • قد أشقى ، ولكنه لن ينقطع عن حبنى • ليس هذا هو السبب
الذى حملنى على تأخير موافقتى ، وانما هنالك سبب آخر • لبثت شهرين
لا أوافق على الزواج • ولكننى أجبتة اليوم قائلة : « نعم ، أتزوجك » •
هل تعلم يا أركادى (هنا سطعت عينها وطوقت عنقى بذراعيها فجأة) انه
ذهب أمس الى آنا أندريفنا ، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع
أن يتزوجها ؟ نعم ، لقد أفصح عن نفسه ، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن !
وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال ، وانما كان ذلك حلم الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، وكان ذاك الجلادان ، ستيلكوف وشخص آخر ، يضغطان
عليه ضغطاً شديداً • فكان أن كافأته اليوم بجوابى : « نعم ، أتزوجك » •
لا تجرحك قصة الأمس يا عزيزى أركادى • انه يدعوك اليه ، وهو اليوم
مريض ، وسيبقى طول النهار فى البيت • حقاً انه مريض يا أركادى •
لا تظن أن هذا تمل • لقد أوفدنى اليك خصيصاً ورجانى أن أقول لك
انه « محتاج » اليك ، وان فى نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك ،
وان هذه الأشياء لو قالها لك هنا فى مسكنك هذا لكانت فى غير محلها •

هيّا ، الى اللقاء ! آه يا أركادى ، اننى استحى أن أقول لك هذه الحقيقة ،
وهى أننى فى طريقى اليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك
لى قد زال • فكنت أرسم اشارة الصليب طوال الطريق • ولكننى أحمد
الله على أنك طيب جداً ، ولطيف جداً ! لن أسى هذا فى حياتى • أنا ذاهبة
الى ماما • حاول أن تحبه قليلاً ، هه ؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها :

— أعتقد يا ليزا أنك قوية الارادة • نعم ، أصدق أنك لست أنت
التي تجرين وراءه ، بل هو الذى يجرى وراءك • ولكن ، رغم
كل شيء ...

فقالت ليزا تكمل جملتى :

— ولكن رغم كل شيء ، « لماذا افتتنت به ؟ هذا هو السؤال » •

قالت هذه الجملة وهى تضحك ضحكة مأكرة كما فعلت من قبل ،
ونظت بعبرة « هذا هو السؤال » مقلدةً لهجتي تقليداً تاماً ، رافعةً ابهامها
الى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا •

وتمايقنا ، ولكن قلبى انقبض ثانية بعد انصرافها •

أريد أن أسجل هذا للنفسى : بعد انصراف ليزا تلاحت فى خاطرى أفكار غريبة كثيرة أورتتنى ارتياحاً كبيراً • فكنت أقول للنفسى مثلاً : « لماذا أقحم نفسى فى هذه الشئون ؟ فىم يعيننى هذا الأمر ؟ ان هذه الأشياء تحدث لجميع الناس أو لجميعهم تقريباً • وقد حدثت لليزا • فماذا ؟ هل على أن أنقذ شرف الأسرة ؟ هل على أن أمحو عار الأسرة ؟ • اننى أسجل هذه الخطرات الحقة لآبين مدى ما كنت عليه فى ذلك الأوان من ترجع فى فهم الخير والشر • وال عاطفة وحدها هى التى أنقذتنى : كنت أعرف أن ليزا شقية ، وأن ماما سقية ؟ كنت أعرف ذلك بال عاطفة حين أفكر فيهما ، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً •

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث ، منذ هذا اليوم الى يوم كارثة مرضى ، قد تلاحت بسرعة تبلغ من الشدة أننى أدهش أنا نفسى - حين أفكر فيها اليوم - من أننى استطعت أن أصمد ، ومن أن القدر لم يسحقنى • لقد تعرض عقلى وتعرضت عاطفتى للمخاطر أثناء تلك الأحداث ، فلو قد نفذت طاقتى فى آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن ارتكبها) ، لكان من الممكن جداً أن يهرثنى المحلفون • ولكننى سأحاول أن أقص كل شىء بترتيب محكم ، رغم أن فكرى أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شىء من ترتيب • انى لأنبئ الى هذا • لقد هاجمتنى الأحداث كعاصفة ، فدارت الأفكار فى رأسى كأوراق الأشجار اليابسة فى أعاصير

الخريف . لقد كنت متشبعا حينذاك بافكار الآخرين ، فأين أجد فكرة نابعة من نفسى فاتخذ قراراً حراً ! ولم يكن نعمة من يرشدنى .

قررت أن أذهب فى المساء الى الأمير ، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة ، والى أن يحين المساء بقيت فى البيت . ولكننى حين حل الفسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيلكوف ، مؤلفة من ثلاثة أسطر ، يطلب الى فيها بالحاح وبلهجة « مقنعة » الى أبعد حد أن أزوره غداً فى الساعة الحادية عشرة من الصباح « لأعمال ذات شأن هام ، وسترى بنفسك ما هى » . فقررت ، بعد تفكير ، أن أتصرف وفقاً للظروف ، فالغد لا يزال بعيداً .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة . وكان يمكن أن أمضى الى الأمير منذ مدة طويلة ، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف : فان هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبرَّ له عنها ، وكان قلبى يحترق احتراقاً . ولكن فرسيلوف لم يجرى ، وقد أصبحت لا أستطيع فى تلك اللحظة أن أظهر عند أمى وليزا ، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار . فخرجت سيراً على القدمين ، وفيما أنا فى الطريق خطر ببالى أن ألقى نظرة على حانة الأمس التى تقع تحت مستوى الأرض . فوجدت فرسيلوف هناك ، فى المكان الذى كان فيه البارحة .

قال وهو يتسهم ابتسامة غريبة ، ويحدجنى بنظرة عجيبة :

ـ كنت أعرف أنك ستأتى .

كانت ابتسامته خالية من الطيبة ، لم أر مثلها فى وجهه منذ مدة طويلة .

جلست الى المائدة ، ورويت له من البداية الى النهاية جميع الوقائع التى تتصل بالأمر وليزا ، وقصصت عليه المشهد الذى وقع لى أمس مع الأمير بعد الروليت ، ولم أمس أن أذكر له أننى أصبت فى القمار ربحاً

كبيراً • فأصغى الىّ باتباه شديد ، وسألنى عن القرار الذى اتخذته الأمير
فى تزوج ليزا • وقال :

– « يا للطفلة المسكينة ! لعلها لن تجنى من هذا ربحاً • ولكن
أغلب الظن أن الأمر لن يتم ••• رغم أن الشاب قادر على أن •••
– قل لى كما يقول صديق لصديقه : هل كنت تعلم ؟ هل كانت
نفسك تحدثك بشيء ؟

– يا صديقى ، ماذا كان فى وسعنى أن أعمل ؟ ذلك أمر من أمور
العاطفة والوجدان ، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل • أكرر
لك ما سبق أن قلته : لقد طالما تدخلت فى شئون غيرى فى الماضى ، ثم
أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ ! هذا لا ينفى
طبعاً اننى لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً اذا ألم به شقاء ، أن أساعده
فى حدود طاقتى ، بشرط أن أفهم شيئاً مما يحدث • ولكن قل لى :
ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة ؟
فقلت وقد اشتعلت نفسى غضباً :

– ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت فى أننى أعرف علاقة ليزا
بالأمير – ولو أقلّ اشتباه – ورأيت فى الوقت نفسه أننى أقبل أن آخذ من
الأمير مالا • كيف أمكنك أن تتحدث معى ، وأن تجالسنى ، وأن
تصافحنى ، أنا الذى لابد أنك كنت تعدنى شخصاً حقيراً ؟ أراهن على
أنك كنت تشبهه حتماً فى أننى أعرف كل شيء ، واننى كنت آخذ المال من
الأمير ثمناً لأختى وأنا عالم بالأمر كل العلم !

قال وهو يتسهم :

– أقول لك مرةً أخرى ان هذا شأن من شئون الوجدان والضمير •
ثم أضاف يقول وقد لاح فى وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملفزة :

- ومن أدراك أنني كنت لا أخشى - كما خشيت أنت ، في حالة أخرى - أن أفقد مثلي الأعلى ، وأن اكتشف في ابني النزق الشريف وغدا حقيرا ؟ لقد كنت أخشى هذا ، فكنت أؤجل لحظة المعرفة الاليمة . لماذا لا تفترض فيّ ، بدلا من الكسل والدناءة ، شيئا أقرب الى البراءة ، بل شيئا من الغباء أيضا ، والغباء أنبل على كل حال . على أنني كثيرا ما أكون غيبيا بغير نبل . بأي حق يمكن أن أكون متشدداً في محاسبة ابني ؟ هذا عدا أن اصلاحك بالاكراه لا قيمة له في نظري .

- وليزا ؟ ألا تشفق عليها ؟ ألا ترثي لحالها ؟

- أشفق عليها كثيرا يا عزيزي . من قال لك انني خال من الاحساس ؟ ... بالعكس ، انني أحاول بجميع الوسائل ... وأنت ؟ كيف تسير أمورك ، أنت ، ؟

- دعنا من أموري . لم يبق لي ، أنا ، أمور . اسمع ! لماذا تشك في أنه سيتزوجها ؟ لقد ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأعرب لها عن عدوله اعراباً واضحا ... أفصد عن هذه الفكرة السخيفة ... التي قامت في ذهن الأمير يقولوا ايفانوفتش ... فكرة أن يزوجها . لقد عدل عن هذه الفكرة عدولا صريحا .

- صحيح ؟ متى حدث هذا ؟ ممن علمته ؟

ألقى علىّ هذه الأسئلة مستطلعا باهتمام . فحكيت له كل ما كنت أعرفه . فقال واجماً كمن يفكر بينه وبين نفسه :

- هم ... اذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة . هم ... نعم ... جائر جداً أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما . . رغم أن شيئا لم يقل ولم يعمل هناك أبداً حتى ذلك اليوم ، لا من هذا

الجنب ولا من ذاك .. أنا أعرف هذا • نعم ... حتماً ... تكفى كلمتان
اثنتان للعرض • ولكن ...

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة ، وتابع كلامه فقال :

- ولكن اسمع ... سأذكر لك نبأً خارقاً لا شك أنه سيهمك :
لو أن صاحبك الأمير طلب من آنا أندريفنا أن يتزوجها (وذلك عرض
كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه ، لما فى ذهنى من
شبهات عن العلاقة التى بين الأمير وبين ليزا ، أقول لك هذا سرّاً بينى
وبينك) لرفضت آنا أندريفنا طلبه فوراً • على كل حال أظن أنك تحب
آنا أندريفنا كثيراً ، وتحترمها ، وتقدرها ، أليس كذلك ؟ هذا لطف كبير
منك ، ولسوف تبتهج لها اذن : فاعلم يا عزيزى أن آنا أندريفنا مقبلة
على زواج ، وإذا صدق ما أعرفه عن طبعها ، فانها ستزوج حتماً ،
وسأبارك أنا زواجها طبعاً •

هتفت أقول مدهوشاً :

- ستزوج ؟ من الذى ستزوجه ؟

- أحزر • هيّا ، لا أريد أن أعذبك • ستزوج الأمير نيقولا
ايفانوفتش ، شيخك العزيز •

حملت • وتابع كلامه بقول بتراخ ووضوح :

- من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبتت فى ذهنها منذ مدة
طويلة : ولاشك أنها سقلتها صقلاً فنياً على جميع وجوهها ، وفى تقدرى
أن الأمر قد تم بعد زيارة « الأمير سرجويا » بساعة تماماً (هذا مثال على
غزواته التى تصبى فى غير الأوان) • لقد جاءت الى الأمير نيقولا ايفانوفتش
بساطة وعرضت عليه أن يتزوجها •

- كيف ؟ هي عرضت عليه أن يتزوجها ؟ تقصد : عرض عليها أن يتزوجها ؟

- هو ؟ دعك من هذا ! هي التي عرضت عليه ، هي ! وواقع الأمر الآن أنه ممثلي حماسه • ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله • ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً ، من فرط الحماسة أيضاً ••• في أغلب الظن •

- اسمع ••• انك تتكلم بسخرية شديدة • فلا أكاد أصدقك • كيف تعرض عليه أن يتزوجها ؟ ماذا قالت له ؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جد مدهش على حين فجأة :

- ثق يا صديقي اننى مبتهج ابتهاجاً صادقاً • صحيح أنه شيخ ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج • أما عنها هي ، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير ، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقي • ثم انها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها الخاص بها • وأما عن التفاصيل ، وعن الكلمات التي استعملتها في مخاطبتها ، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقي • ولكنها دبرت أمرها على كل حال ، كما لا نستطيع أن نفعل نحن ، لا أنا ولا أنت يا صديقي • وخير ما في المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة ، فهو في نظر جميع الناس سليم كل السلامة ، هو • كما يجب • جداً • واضح أنها أرادت أن تنشئ لنفسها مركزاً في المجتمع ، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز في المجتمع • تلك كلها أمور راجحة في المجتمع • ولا بد أن العرض الذي تقدمت به قد صاغته بعبارات رائعة فائنة • ان لها طبعاً قاسياً يا صديقي ؟ هي راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة • لاحظ أنها ربيته قريباً ، وأنها خبرت طيبته كثيراً • وطالما أكدت لي أنها تحمل له • كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة ! ، ، الخ ، لذلك كنت شبه منتهى

تلقي النبأ • هذا كله قد نقله الى اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابني آندره
آندريفتش ، أخوها ، الذي لا تعرفه ، والذي أراه مرة واحدة كل ستة
أشهر تماماً • وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم •

— اذن أذيع النبأ ؟ ما أشد دهشتي !

— لا ، لم 'يذع بعد ... ولن يذاع الا بعد مدة • متى ؟ لا أدري •
على كل حال ، أنا لا دخل لي أبداً • ولكن كل ما قلته لك صحيح •

— ولكن ما عسى أن يكون موقف كاترين ايفانوفنا الآن ؟ لاشك
أن هذا الأمر لن يسر بيورنج !

— ذلك ما أجهله • ولكن ممّ يمكن ألا يسر ؟ صدقني على كل
حال ان آنا آندريفتنا سوف تعرف كيف تحسن التصرف في هذا المجال
أيضاً • يا لآنا آندريفتنا هذه ! لقد سألتني في صباح أمس هل أحب السيدة
آخماكوفا • هل تذكر ؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً : ألا يمكنها
أن تزوج الأب اذا تزوجت أنا البنت ؟ هل تفهم الآن ؟

هتفت أقول :

— آ ... فعلاً • ولكن هل يخطر ببال آنا آندريفتنا حقاً أنك يمكن
أن تريد تزوج كاترين نيقولايفنا ؟

— طبعاً يا صديقي • على كل حال ، على كل حال ، آن الأوان
لأن تذهب الى حيث كنت تريد أن تذهب • انني أشعر بألم في رأسي •
سوف أطلب أن 'تعرف « لوسيا » • أحب عظمة الضجر والسأم • أظن
أنني قلت لك هذا قبل الآن • ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفر ! قد
أنصرف من هنا مع ذلك • أحبك يا صديقي ، ولكن استودعك الله ! حين
أحس بألم في الرأس أو في الأسنان فأنني أشتاق دائماً الى الوحدة •

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم • اننى أصدقه الآن • لقد كان
يشعر بألم فى رأسه ، فى رأسه خاصةً •••

قلت :

- الى الغد •

- ما تعنى بقولك الى الغد ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟

وابتسم ابتسامة شذراء •

- أجيء اليك أو تجيء الىّ •

- لا لن أجيء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ • كان فى وجهه

سوء وشر ، ولكننى لم أتبه الى هذا • ياله من حادث !

كان الأمير مريضاً بالفعل : فهو ملازمٌ بيته ، معصوب الرأس بخرفة مبللة • وكان ينتظرني نافذ الصبر • ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً ، بل كان شخصه كله يعانى من ألم نفسى • تنبيه آخر : اننى فى هذه الآونة الأخيرة ، وحتى وقوع الكارثة ، لم ألق الا أناساً مهتاجين احتياجاً شديداً ، فكان لابد أن تسرى عدواهم الىّ رغم ارادتى •

يجب أن أعترف بأننى حين وصلت اليه كانت نفسى زاخرة بعواطف سيئة ، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أننى بكيت عنده أمس • لقد بلغا من خداعى ، هو وليزا ، أننى كنت أقدرّ أنهما يعدانى غيباً ولاشك • الخلاصة أن قلبى كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه • ولكن هذا كله كان سطحياً ، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر • يجب أن أنصف الأمير فأقول : انه متى خفت حدة تأذيه أو زالت ، فتج نفسه لك صادقا ، فاذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل ، من حنان وثقة ومحبة • لقد قبلنى والدموع تترقرق فى عينيه ، ثم سرعان ما شرع يتحدث فى الأمر ••• نعم ، لقد كان فى حاجة الىّ حقاً • وكان فى أقواله وفى تتابع أفكاره اضطراب كبير •

أعلن لى جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا ، وعلى أن يتزوجها فى أقرب وقت • وقال لى : « ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء ، فذلك أمر لم يهمنى لحظة واحدة • لقد تزوج جدى فتاة من الأتقان كانت

مغنية فى مسرح خاص للملاك مجاور • صحيح ان اسرتى تعقد على امالاً
من نوع خاص ، ولكنها ستذعن الان مضطرة ، وسيتم هذا بغير
صراع • اريد أن اقطع صلتى بكل مجتمع هذا الزمان ! اريد شيئاً اخر ،
شيئاً جديداً ! لا أدري لماذا أحببتى أختك ، ولكن لعل السبب هو اننى
لولها لكنت قد بارحت هذا العالم • أحلف لك صادقاً كل الصدق أننى أعد
لقائى لها فى لوجا رحمة الهية • أعتقد أنها أحببتى بسبب « فداحة
سقوطى » ، ... ولكن هل تفهم هذا يا أركادى ما كاروفتش ؟

فأجبهه بصوت يعبر تعبيراً واضحاً عن الاقتناع :

— كلّ الفهم •

كنت جالساً على المقعد الذى يواجه المائدة ، وكان هو يسير فى
الغرفة طويلاً وعرضاً •

— يجب أن أروى لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفى شيئاً • لقد بدأ
كل شئ بسرٍ خاص عرفته وحدها ، لأننى لم أبح به الا لها ، ولا يعرفه
أحد حتى الآن • لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً ، وأقيمت عند
متوليافا ، لا أدري الآن لماذا ! لعلنى أردت أن أنشد أكمل عزلة •
لقد تركت الجيش منذ قليل • وكنت قد دخلت الجيش عند عودتى من
الخارج بعد ذلك اللقاء فى الخارج مع آندره بتروفتش • وكنت أملك فى
ذلك الحين ثروة ، وكنت أبديّ المال تبديداً ، وأعيش حياة بذخ ولهو •
ولكن رفاقى كانوا لا يحبوننى • ومع ذلك كنت أحاول ألا أسئ اليهم •
يجب أن أعترف لك بأن أحداً لم يحببى فى يوم من الأيام • وكان هناك
حامل علم اسمه ستيانوف ، وهو فى الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد
يكون أبله • الخلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات • ولكنه كان رجلاً
شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه • وقد تشبث هذا الرجل بى • فكنت

لا أضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه • كان يأتي الى • فيجلس في ركن من الاركان اياما كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة • ولكن بوقار وكرامة • فلا يزعجني أى ازعاج • وقد قصص عليه في ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفها بسخافات كثيرة : وهى أن ابنة الكولونيل تحمل لى عاطفة حب • وأن الكولونيل يعول على فأسطيع أن أحركه كيف أشاء • ولا حاجة الى ذكر التفاصيل • فانما المهم أنه قد نشأت عن كلامى هذا شائعات وأقاويل معقدة غاية التعقيد • قدرة الى أبعد حدود القذارة • وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستيانوف • وانما كان مصدرها خادمى الذى سمع كل شيء وحفظ كل شيء • لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة • فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت فى الناس سَمى ستيانوف بل ذكر أننى الذى رويتها لستيانوف • وكان يستحيل على ستيانوف أن ينكر أنه سمعها • فهذه مسألة شرف • ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثي الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا فى بيته لتوضيح الأمور ووضعها فى نصابها • وهناك ألقى هذا السؤال على ستيانوف بحضور الجميع : أسمعت أم لم تسمع ؟ فقال ستيانوف الحقيقة • فكيف كان تصرفى أنا الأمير الذى أتسبب الى سلاله أمراء عمرها ألف سنة ؟ لقد أنكرت • وقلت أمام ستيانوف انه كذب • أو بتعبير مهذب : « لم يحسن فهم ما قلت » • النخ • هنا أيضاً لا داعى الى ذكر التفاصيل • وانما المهم أن أشير الى أن موقفى يمتاز على موقف ستيانوف بأننى كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيانوف على المجيء الى بيتى • أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن ثمة تواطؤاً قد تم بين ستيانوف وبين خادمى لتحقيق بعض المنافع • وذلك شيء يمكن أن 'يصدق' • وذلك ما كان • فلم يزد ستيانوف على أن نظر الى وهز منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة • اننى أنذكر

نظرت له ولن انساها ما حيت • ولم يلبث ستيانوف ان قدم استقالته فوراً • ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث • ان جميع الضباط • من أولهم الى آخرهم • قد زاروه وناشدوه ألا يرحل • حتى اذا مضى اسبوعان كنت أنا الذي أنترك الجيش : لم يطردني أحد • ولم يدعني أحد الى الرحيل • وانما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتى • هكذا انتهت القضية • وقد بقيت فى أول الأمر غير مكترث • حتى لقد كنت غاضباً منهم • وأقمت فى لوجا • وتعرفت الى اليزابت ماكاروفنا • ولكننى أخذت بعد انقضاء شهر واحد • أنظر الى مسدسى وأفكر فى الموت • اننى أرى الأمور سوداء دائماً يا أركادى ماكاروفتش • وأعددت رسالة الى الكولونيل والى رفاقى فى الجيش لأعترف بكذبتى ولأرد إلى ستيانوف اعتباره • وحين انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسى هذا السؤال : « أأرسلها وأعيش أم أرسلها وأموت ؟ » • وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء الى اجابة • لكن مصادفة من المصادفات • مصادفة عمياء • قربتني فجأة من اليزابت ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بينى وبينها • كانت حتى ذلك الحين تختلف الى ستوليباف • فكنا نلتقى أحياناً • وتبادل التحية • ولا تتخاطب الا فى القليل النادر • فاذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شئ • وعندئذ انما مدت لى يدها •

— وكيف حلت المشكلة ؟

— لم أبعث الرسالة • هى التى قررت ذلك • وسوّغت قرارها على هذا النحو : اذا بعثت الرسالة فلا شك أن عملى يكون نبيلاً يفصل عارى ولكن هل أطبق أنا نفسى احتمال هذه الخطوة ؟ وكان رأيها أن أحداً لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة • لأن كل مستقبل يكون قد ضاع • وكل انبعاث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلًا • ثم ان ارسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيانوف قد أودى وتالم • ولكن

ستييانوف قد ردَّ اليه الضباط اعتباره ، وهو معهم على أحسن حال •
الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة • ولكنها صدتنى عن بعث الرسالة ،
وانقذت لها انقياداً تاماً •

هتفت أقول :

- ولقد اتخذتُ قراراً على غراز ما يفعل يسوعى ، ولكن على غراز
ما تفعل امرأة أيضا • كانت تحبك منذ ذلك الحين •
- وهذا بعينه هو ما بعثنى الى حياة جديدة • حلفت لأغيرن نفسى
ولا بدلن حياتى ، ولا كسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها • فأنظر الى أى
شئ انتهى ذلك كله ! ركضنا أنا وأنت الى بيوت القمار ، لعبنا الباكراه ،
أطاش الميراث صوابى ، لم أفطن الا الى اللذة ، لم أتنبه الى ضمان
مستقبلى وعملى ، وعاشرت الأوغاد من الناس ، وحفلت بمظاهر الأبهة
والفخامة واندفعت فى ثرعات المجتمع الراقى • وعذبت ليزا • آه •
يا للعار !

قال ذلك وفرك جبينه بيده ، وراح يذرع الغرفة ، ثم أردف يقول :
- نحن كلانا مصابان بالداء الروسى المؤلف يا أركادى ماكاروفتش :
فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل ، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل •
ان الروسى متى خرج عن الطريق الذى رسمته له العادة أصبح لا يعرف
ماذا يجب أن يعمل • فى الطريق المرسوم كل شئ واضح : دخل ،
ورتبة ، ومركز فى المجتمع ، ومركبة ، وزيارات ، ومصعب ، وامرأة •
ماذا يبقى منى عند أول انحراف عن الطريق الممهد ؟ ورقة تذروها
الريح ! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل ! لقد حاولت فى هذين الشهرين
أن أبقي فى الطريق المرسوم ، وأردت أن أحب الطريق المرسوم ، وغصت
فى هذا الطريق المرسوم • انك لا تعرف حتى الآن الهاوية الجديدة
التي سقطت فيها : لقد كنت أحب ليزا ، كنت أحبها حباً صادقاً ، وكان
فكرى فى الوقت نفسه ينصرف الى السدة أخمأكوفا !

هتفت أقول مثلاً :

- أهذا ممكن ؟ قل لى بالنسبة يا امير : ماذا ذكرت لى أمس عن فرسيلوف ؟ هل قلت لى انه كان يحضك على ارتكاب دناءة فى حق كاترين ايفانوفنا ؟

- لعلنى بالغت • ولعلنى بسبب ما أتصف به من سرعة التأذى فدأذبت فى حقه مثلما أذبت فى حقتك • ولكن دعنا من هذا الآن • هل تصور أننى طوال هذه المدة • وربما منذ أيام لوجا • لم أكن وفيّاً لأى مثل أعلى فى الحياة ؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقنى قط • بل كان دائماً أمامى • ولم يفقد شيئاً من جماله فى نظرى • كنت أذكر العهد الذى قطعته على نفسى لاليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعت بشأً جديداً • وحين حدثنى آندره بتروفتش بالأمس هنا عن النبى فانه لم يقل لى شيئاً جديداً • ثم بذلك • ان مثلى الأعلى ثابت راسخ : بضع عشرات من الهكتارات (بضع عشرات لا أكثر • اذ لم يسبق من الميراث شىء تقريباً) • وقطعة تامة • تامة اطلاقاً • مع المجتمع الرافى وعالم المناصب • ومسكن ريفى • وأسرتى • وأنا • • • أحرث الأرض أو أقوم بعمل من هذا القليل • وليس هذا فى سلالتنا شيئاً جديداً : ان عمى كان يدفع سكة المحراث • وكذلك كان جدى • نحن أمراء منذ ألف سنة • ونبلاء مثل آل روهان • ولكننا فقراء • واليك ما كنت سأقوله لأولادى : « تذكر طول عمرك يابنى أنك نبى • وأن الدم المقدس • دمُ الأمراء الروس • يجرى فى عروقك • ولكن لا تحمرّ خجلاً من أن أباك دفع سكة المحراث : فهو انما فعل ذلك كما يفعله أمير • • • ولن أترك لأولادى ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض • ولكننى فى مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عالياً • سوف أجعل ذلك واجباً يقع على عاتقى ولا أتخلى عنه أبداً • وستساعدنى ليزا فى ذلك • ليزا • الأولاد • العمل ! آه • • • لكم حملنا بهذا كله • أنا وهى • فى

هذا البيت نفسه ! وفى الوقت نفسه كان فكرى ينصرف الى آخماكوفاء ، دون أن أحبها أبداً ، وكنت أفكر فى زواج ثرى رافى ! ولم أقرر أن أذهب الى آنا أندريفنا الا بعد ذلك النبأ الذى حملة ناشتوكين بالأمس من بيورنيج ذاك •

- ولكنك ذهبت اليها لتسحب • هذه خطوة شريفة فيما أرى •
- أظن ذلك ؟

ألقى هذا السؤال ، ووقف أمامى متسماً ، ثم استأنف كلامه قائلاً :

- بل انك لا تعرف طبيعتى بعد • أو قل ... أو قل ان هاهنا شيئاً لا أعرفه أنا نفسى ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب • اننى أحبك صادقاً يا آرКАДى ماكروفتش ، وعدا هذا فقد أئمت فى حقك اثماً عميقاً خلال هذين الشهرين ، لذلك أريد أن تعرف كل شئ • من حيث أنك أخو ليزا : أنا انما ذهبت الى آنا أندريفنا لأخطبها ، لا لأسحب •
- أهذا معقول ؟

- لقد خدعت ليزا •

- اسمح لى : أخطبت آنا أندريفنا خطبة رسمية ورفضت ؟ نعم ؟
أهذا ما حدث ؟ ان التفاصيل تهمنى كثيراً يا أمير •

- لا ، لم أقدم بخطبتها ، ولكن السبب هو أننى لم يتح لى ذلك •
وهى التى أفهمتنى ، لا بالفاظ الرفض طبعاً ، ولكن بكلمات واضحة شفافه مع ذلك ، أفهمتنى • برقة ، أن هذه الفكرة أصبحت بعد الآن مستحيلة •

- فكانك اذن لم تخطبها ، وبقيت كرامتك سليمة لم يمسسها
أذى •

- كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير ؟ وحكم ضميمي ، وليزا التي خدعتها ... والتي أردت أذن أن أهجرها ؟ والعهد الذي قطعته على نفسي وعلى سلالة أسلافي جميعاً ، وهو أن أبعث بشأ جديداً وأن أكفّر عن دناءاتي الماضية ؟ أتوسل إليك : لا يتحدثها في هذا الأمر . فلعل هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تغفري لي ! انني من ذلك مريض منذ الأمس . ويخيّل اليّ خاصّةً أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكي سيودع في السجن ! مسكينه ليزا ! لقد انتظرتك نافذ الصبر ، يا أركادي ما كاد وفئتس ، لأكشف لك ، بصفتك أخا ليزا ، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن . انني مجرم من مجرمي الحق العام ، أشارك في صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية .

- ما هذا أيضاً ؟ ماذا تقول ؟ تودع في السجن ! ...

قلت له ذلك منتفضاً وبألمته مذعوراً . كان وجهه يعبر عن مرارة عميقة قائمة لا مخرج منها . قال :

- اجلس !

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالي . وشرع يتكلم :

- أعلم أولاً هذا : منذ أكثر من سنة ، في ذلك الصيف ، صيف امس وليديا وكاترين ايفانوفنا وباديس بعد ذلك ، يوم أردت أن أذهب الى باريس لقضاء شهرين ، وفي باريس بطبيعة الحال ، كنت في عوز . وحينذاك انما جاني ستيلكوف ، وكنت أعرفه على كل حال ، فأعطاني مالاً ووعدي بمزيد ، ولكنه سألتني أن أساعده : كان في حاجة الى أحد يكون فنانا رساما حفاّراً طباعاً وهلم جرا . . . كيميائياً وتكنيكياً ، وذلك لأغراض معينة . وقد جعلني أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى

ادركا واضحا • لقد كان يعرف طبيعى • فلم يزد ذلك كله على ان
أضحكنى وسلاى • وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد الدرس ،
شخصاً هو الآن مهاجر روسى ، لا روسى الأصل على كل حال ، يقيم فى
مكان بمدينة هامبورج • كان هذا الرجل قد شارك ابان اقامته بروسيا
فى قصة تزيف أوراق • وعلى هذا الرجل انما كان يعول ستييلكوف ،
ولكنه كان فى حاجة الى من يوصى به لديه ، فاتجه الىّ يلتبس منى هذه
التوصية • فكثبت له سطرين بخط يدى ثم لم أفكر فى هذا الموضوع •
وقد رآنى بعد ذلك مراراً ، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل • ولقد
نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً • وصرت افترض منه هنا من حين الى حين ،
على رهون أو بسندات ، وكان يتلوى أمامى ذليلاً كما يتلوى عبد •
وعلمت منه أمس فجأة ، لأول مرة ، اننى معجرب من مجرمى الحق العام •

— أمس ؟ أية ساعة ؟

— ساعة كنا نتصارخ فى مكتبى قبيل وصول ناشتشوكين • لأول
مرة ، وبألفاظ صريحة فى هذه المرة ، تجرأ أن يكلمنى عن آنا أندريفنا •
وقد رفعت يدى لأضربه ، لكنه نهض فجأة ليعلن أننى متضامن معه ، وأن
علىّ أن أتذكر أننى كنت شريكه فى الجرم ، وأننى وغد مثله • ذلك
ما قاله لى ، ان لم يكن بنصه فبمعناه •

— ما هذه السخافات ؟ أهذا حلم ؟

— لا ، ليس حلماً • ولقد جاءنى اليوم ، فزادنى ايضاحاً • ان هذه
الأشهم المزيفة هى الآن فى التداول ، وسينزل غيرها الى التداول • ويظهر
أن عدداً منها قد صودر هنا وهناك • وأنا ليس لى فى الأمر أى دخل
طبعاً • ولكن ستييلكوف قال لى : « أما تكرمت فأعطينى كتاب التوصية هذا
فى ذلك الحين ؟ » •

— ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف ؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً :

— كنت أعرف ، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف • لقد ضحكت وسلّاتنى الأمر • ولم أفكر وقتئذ فى شيء ، لا سيما وأننى لم أكن أنا فى حاجة الى أسهم مزيفة ، ولم أكن أتهايأ أبداً لصنع أسهم مزيفة • ولكن الثلاثة آلاف روبل التى أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً علىّ ، وقبلت أنا ذلك • ثم ما أدراك ؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً ! لم يكن فى الامكان ألا أعلم ، ما أنا بطفل • ولكن الأمر سلّاتنى وأضحكنى ، وساعدت مجرمين ••• ساعدتهم طمعاً فى مال ! واذن فأنا أيضاً مزيف !

— لا ، لا ، انك تبالغ ! صحيح أنك مذنب ، ولكنك تبالغ !

— الخطير فى الأمر أن هناك شاباً اسمه جيلسكى يعمل كاتباً فى القضاء وتحوم حوله الشبهات ، قد شارك أيضاً فى حكاية الأسهم المزيفة هذه ، ثم جاءنى بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورج ، جاءنى لثراعات وسفاسف طبعاً ، بل اننى لا أعرف لأى غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءنى ، ولكنه يحتفظ برسالتين منى ، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو احدهما سطرين ، غير انهما تشهدان علىّ • اليوم أدركت هذا • ويقول ستيلكوف ان جيلسكى هذا مزعج : فقد سرق لا أدري ماذا ، سرق مالا من الخزينة فيما أظن ، وهو ينتوى أن يسرق المزيد ثم يهاجر ؟ ومن أجل أن يهاجر يجب أن يتزود للسفر بشماسة آلاف روبل ، لا أقل من ذلك • ان نصيبى من الميراث يكفى ستيلكوف • ولكن ستيلكوف يقول ان علينا أن نرضى جيلسكى أيضاً • الخلاصة أن علىّ أن أتنازل عن حصتى من الميراث وأن أدفع فوق

ذلك عشرة آلاف روبل • هذه كلمتهم الأخيرة • فاذا نفذت هذا الشرط
ردوا الى الرسائلين • وواضح أنهم متواطئون •
- يا للسخافة ! انهم اذا وسوا بك كانوا يستلمون أنفسهم ! فلا يمكن
أن يشوا بك •

- أعرف هذا • ثم انهم لا يهددون بأن يشوا بي • بل يقولون :
« نحن لن نشي بك » ولكن افضح الأمر » • ذلك ما يقولونه • ذلك
كل ما يقولونه • وأظن أنه كاف • ولكن ليس هذا هو الأمر : هبني
استرددت الرسائل • فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد
متضامناً معهم ؟ آه •• كيف يمكنني أن أبقي الى الأبد رفيقهم ؟ أكذب
على روسيا ، أكذب على الأطفال ، أكذب على ليزا ، أكذب على
ضميري ؟

- هل تعلم ليزا ؟

- لا ، لا تعلم كل شيء • لو علمت ، وهى على ما هى عليه من
حال ، لماتت من هول الصدمة • اننى أرتدى الآن بزة الجيش ، فكلما
صادفت جندياً من الجيش ، شعرت شعوراً كاوياً بأننى لا أستحق ارتداء
هذه البزة •

هتفت أقول فجأة :

- اسمع ! لا حاجة الى الاكثار من الكلام • ليس أمامك الا طريق
واحدة للخلاص • اذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، وخذ منه
عشرة آلاف روبل ، اسأله ان يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن
شيء ، ثم استدع هذين الوغدين ، وصّف حسابك معهما تصفية نهائية
بافتداء رسائلك •• فينتهى كل شيء ! ينتهى كل شيء ، وتمضى تحرث
الأرض ! دع الأوهام وثق بالحياة !
قال مؤكداً :

- لقد فكرت فى هذا • فكرت فيه طول هذا اليوم ، واتخذت
أخيراً قرارى • وكنت لا أنتظر الا أن تجيء أنت • سوف أذهب اليه •
هل تعلم اننى لم يسبق لى أن اقترضت فى حياتى كلها قرناً واحداً من
الأمير يقولوا ايفانوفتش ؟ انه طيب فى معاملة أسرتنا ، حتى انه ... أظهر
اهتماماً بنا • • ولكننى • • شخصياً • • لم أطلب منه أى مال فى يوم من
الأيام • وهأنذا الآن أرتضى لنفسى أن أطلب منه • لاحظ أن فرعنا أقدم
من فرع الأمير يقولوا ايفانوفتش : انهم هم الفرع الحديث ، الفرع الهجين ،
الفرع المشكوك فيه تقريباً • • ولقد تناصب أسلافنا العداء • وفى بداية
عهد الإصلاح ، أيام بطرس الأكبر ، كان أبو جدى ، واسمه بطرس
أيضاً ، كان راسكولنيكا وظل كذلك وطُوف فى غابات كوستروما •
فهذا الجد تزوج زوجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هى أيضاً ،
وعندئذ انما تقدمنا آل سوكولسكى هؤلاء • • ولكن عمّ كنت أتكلم ؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه •

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتى :

- هدىء نفسك • ثمّ قبل كل شيء • أما الأمير يقولوا ايفانوفتش
فانه لن يرفض حتماً ، ولا سيما الآن ، فى غمرة فرحه • هل تعرف
القصة ؟ لا ! غير معقول ! لقد بلغنى نبأ عجيب : أنه سيتزوج • هذا سر ،
ولكن لا ' يكتم عنك أنت طبعاً •

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتى أهمّ بالانصراف • لم
يكن على علم بالأمر • فجعل يسألنى عن تفاصيل ، ويسألنى خاصة عن
الزمان والمكان وحظ النبأ من امكان التحقق • فلم أخف عنه طبعاً أن
الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته أنا أندريفنا بالأمس فوراً • لا أستطيع
أن أصوّر لكم الأمر الأليم الذى أحدثه هذا النبأ فى نفسه • فقد تشوه
وجهه وتخذّد ، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب ، واصفر أخيراً ، ثم

خفض عينيه وغاص في تفكير حالم عميق • لقد رايت رؤيه واضحه ان
رفض انا اندريفنا كان قد جرح كبرياءه جرحا بالغا عميقا • ولعله وهو
فيما هو فيه من حالة مرضيه قد غلا وأسرف الآن في تصور الدور المضحك
الذليل الذي قام به امس امام تلك القنسة النى كان يتوقع موافقتها بثقه
تامة كما طهر ذلك واضحا • ولعله اخيرا قد تصور الدناءة التى ارنكبها
فى حق ليزا ، وهى دناءة لم تمد عليه بطائل ! انه لأمر طريف نائق أن
يرى المرء ما هى آراء أبناء المجتمع الراقى بعضهم فى بعض ، وعلى أى
أساس يحترم بعضهم بعضاً : لقد كان فى امكان هذا الأمير مع ذلك أن
يفترض أن آنا اندريفنا على علم بالصلة التى بينه وبين ليزا ، اختها
مهما يكن من أمر ، وأنها ان كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً
فى يوم من الأيام • ولكنه رغم ذلك كان لا • يخالجه شك فى قراره !

وحَدَّق الى فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال :

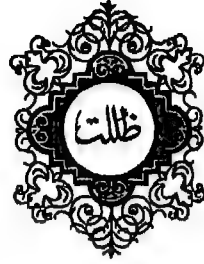
— فكيف أمكنك أن تظن أنني أرضى ، « أنا » أن أذهب الى الأمير
يقولوا ايفانوفتش أسأله مالا بعد نبأ كهذا النبأ ؟ أذهب الى خطيب الخطيبة
التي رفضتني ؟ ان هذا يكون استجداء ، وذلاً ، وعبودية ! لا ، لا ، ضاع
الآن كل نبي • اذا كانت معونة هذا الشيخ هى آخر أمل ، فليهلك هذا
الأمل أيضاً !

كنت فى قرارة نفسى موافقاً على ما يقول • ولكن كان ينبغي على
المرء مع ذلك أن ينظر الى الأمور نظرة أوسع : هل الأمير المعجوز رجل
حقاً ؟ هل هو خطيب حقاً ؟ وتحركت فى رأسى أفكار كثيرة • وكنت
قد قررت أن أزوره فى الغد • فحاولت ، بانتظار ذلك ، أن أخفف وقع
النبأ فى نفس الأمير المسكين ، وأن أحضه على النوم قائلاً له : « سوف

تقضى ليلة مريحة ، فتكون أفكارك غداً أوضح • لسوف ترى ذلك ! •
فصافحني بحرارة ، ولكن دون أن يقبلني • وقطعت له على نفسي عهداً
لأجبتنَّ اليه مساء غد وقلت له : « سوف نتحدث ، سوف نتحدث ، هناك
كلام كثير سوف نقوله » • فحين سمع هذه الكلمات أملت بشفتيه ابتسامة
مشؤومة •

الفصل الثامن

١



طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب
وسداد الديون • كنت كاجالس الى مائدة القمار
احسب مبالغ الخط واحتمالات الربح ، فقضيت
ليلتي كلها فريسة كابوس ساحق • سأقول
الحقيقة : اننى طوال النهار السابق ، رغم جميع تأثيراتى المارقة ، كنت
أذكر من حين الى حين ، الربح الذى جنيته بالقمار عند زرتشتيكوف •
صحيح أننى كنت أطرده الفكرة ، ولكننى لم أستطع أن أدفع عن نفسى
الشعور والعاطفة ، فكنت أرتعش كلما وافتنى ذكرى • كان هذا الربح
قد ملك على نفسى • أترانى خلقت مقامراً ؟ لاشك على كل حال فى اننى
أملك صفات المقامر • فحتى فى هذا اليوم ، وأنا أكتب هذه الأسطر ،
أحب أحياناً أن أفكر فى القمار ! وربما اتفق لى أن أقضى ساعات كاملة
أجرب فى الصمت حسابات قمار ، وأتخيلنى فى الحلم لاعباً ورايحاً • نعم ،
اننى أنصف « بصفات » كثيرة التنوع ، وليست نفسى هادئة مطمئنة •

لقد كنت أنتوى الذهاب الى ستيبلكوف فى الساعة العاشرة سيراً على
القدمين • فصرقت مائفتى منذ جاء • وفيما كنت أحسو قهوتى حاولت أن
أنعم النظر فى الأمور • فلاحظت أننى مسرور ، فلما انكفأت الى نفسى
لحظة أدركت أن سرورى انما يرجع خاصة الى « أننى سأكون هذا اليوم

فى منزل الامير نيقولا ايفانوفتش ، • ولكن ذلك اليوم من حياتى كان يوما مشؤماً ، ولم يكن فى الحسبان ، وقد ابتدأ بمفاجأة •

فى الساعة العاشرة تماماً ، رأيت بابى يفتح على مصراعيه ، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخل على كهبوب الريح • كان يمكن أن أتوقع كل شئ • الا هذه الزيارة ، فوثبت مدعورا • كان وجهها وحشياً ، وكانت حركاتها واشاراتها مشوشة ، وأغلب الظن أنها ما كانت تستطيع أن تجيبني لو سألتها ما الذى جاء بها الى هذا المجرى المبالغ • ويجب أن أشرح سلفاً فأقول : انها قد تلقت منذ هنيهة نبأ خارقاً ساحقاً ، وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير الانفصال الأول ، وكان النبأ يمسنى أنا أيضاً • على أنها لم تقض عندى الا نصف دقيقة ، أو دقيقة ان شئت ، ولكن من المحقق أنها لم ترد على الدقيقة • وقد بادرتنى فوراً بقولها وهى تتسمر قدامى مائلة الى أمام :

— آ • • • هانت ذا اذن ! هانت ذا ايها الوغد ؟ ما هذا الذى فعلت ؟ ماذا ، ألا تدري ؟ انه يشرب قهوته ! آه ! يا نرنار ! يا طاحونة حكي ! يا ماضع ورق ! • • • يجب أن تجلد بالسوط ، أن تجلد ، أن تجلد ، • • •

— تاتيانا بافلوفنا ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ما ؟

فقلت مهددة متوعدة وهى تولى هاربة :

— ستعرف !

وغابت • وانطلقت ألاحقها طبعاً ، ولكن فكرة طارئة أوقفتنى ، بل قل ان ما أوقفتنى ليس فكرة ، وانما هو قلق غامض : لقد أحسست أن الشئ الأساسى فى صراخها انما هو قولها « يا ماضع ورق » • وما كان لى أن أكتشف سبباً بنفسى طبعاً ، ولكننى خرجت مسرعاً لأفرغ من سنيلكوف بأقصى سرعة ، ثم أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قائلاً لنفسى بغريزتى : « هنالك مفتاح الأمور كلها » •

فسرعان ما عرفت أن ستيلاكوف كان عالماً بقصة آنا أندريفنا كلها ، بل كان يعرف تفاصيلها • نىء غريب • لن أروى الآن حدينه ولن أصف اشاراته وحركاته ، وحسبى أن أذكر أنتى رأيته يتدفق افتناً وحماسة « لما لهذه المأثرة من قيمة فنية » • قال صائحاً :

— يالها من امرأة شجاعة ! هذه امرأة شجاعة ! لا ، لا ، انها ليست مثلنا • نحن نبقى فى مكاننا ساكنين ، أما هى فقد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق ، وقد شربته من منبعه الحق • هذه • • • هذه تمثال قديم لمينيرفا ، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدى فساتين حديثة !

ورجوته أن ينتقل الى الموضوع • فاذا الأمر كله ، كما أدركت ذلك من قبل ، هو ضرورة اقناع الأمير بأن يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة ، « والا فان العاقبة ستكون وخيمة عليه ، وخيمة جداً ، وليس الذنب ذنبى • صحيح أم لا ؟ » •

كان يجتدق الى صنىء ، ولكنه كان فى أغلب الظن لا يفترض أنتى أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحة • ولم يكن فى امكانه أن يفترض ذلك : فأنا لم أدع له طمعاً ، لا بالتصريح ولا بالتلميح ، أن يعرف اننى على علم بأمر « الأسهم » • ولم يطل الحديث بيننا : فقد أسرع يعدننى ، على الفور تقريباً ، بمبلغ من المال ، قائلاً انه « مبلغ كبير ، مبلغ كبير ، وانما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة ، وان الأمر مستعجل ، مستعجل جداً ، وان كل شىء يتوقف على السرعة ، فالأمر مستعجل الى حد رهيب ! » •

لم أثنأ أن أدخل فى مناقشات معه كما فعلت البارحة ، وهمت أن أنصرف ، قائلاً له عرضاً « انتى سأحاول » • ولكنه أدهشنى على حين فجأة ادهاشاً لا سبيل الى وصفه : كنت قد اتجهت الى الباب ، فاذا هو

يحضنتى بفتنه فى رقه وحنان ، ويأخذ يقول لى أشياء تستعصى على الفهم
الى اقصى حد •

سوف أهمل التفاصيل ، فلا أذكر سلسلة كلامه كلها ، حتى
لا أتعيب القارىء • ولكن اليك فحوى ما قاله : لقد عرض علىّ « أن أصله
بالسيد درجاتشيف ، ما دمت أتردد على ذلك المنزل » •

أصخت اليه بسمعى ، محاولاً بكل قواى ألا أفصح نفسى بأية
إشارة • وأجبت على الفور قائلاً اننى لا أعرف أحداً هناك ، واننى ان
ذهبت الى ذلك المنزل مرة فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة • قال :

— ولكن ما دمت قد « قبلت » مرة ، ففى وسعك أن تذهب مرة
أخرى ، أليس هذا صحيحاً ؟

فسألته صراحةً ، ولكن برودة شديدة ، فيم يعنيه هذا • وحتى
هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السداجة
كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغنياء ، بل يلاحظ أيضاً
أنهم « عمليون » كما وصفه بذلك فاسين • ولقد شرح لى بصراحة تامة أن
شبهاته توحى اليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف ، شيئاً لا بد أنه محرم
قطعا ، محرم أقصى التحريم فيكفى أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع
أن يجنى من ذلك نفعاً • قال لى ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم •

لم أجبه بشيء يؤكد أننى سألبى رغبته ، ولكننى تظاهرت بالتفكير ،
ووعده بأن « أفكر فى الأمر » ، ثم سارعت الى الانصراف • ان الأمور
تعتقد • وطرت الى فاسين ، فوجدته فى بيته •

— ها ! ... أنت أيضاً !

انه منذ رآنى استقبلنى بهذه الجملة الملفة • ولكننى لم ألتفت على

جملته ، بل انتقلت الى الموضوع رأساً ، وقصصت عليه القصة ، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البتة ، وساءلنى فى جميع التفاصيل .
وقال :

- يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم !

- بل فهمت أحسن الفهم • لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً •

فأضاف يقول بصدق :

- على كل حال ، أشكرك أجزل الشكر • نعم حقاً ، اذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو ، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لآغراء مبلغ من المال •

- انه عدا ذلك يعرف حالى ، فلقد كنت أقامر كثيراً ، وكانت سيرتى سيئة يا فاسين •

- سمعت عن هذا •

قلت :

- وما يحيرنى أكثر من أى شيء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد الى ذلك المنزل •

فقال فاسين ببساطة كبيرة :

- هو يعلم علماً تاماً أنني لاصلة لى بالأمر • وهؤلاء الشبان جميعاً انما هم ثرثارون لا أكثر • وانك لتذكر هذا أكثر من أى انسان آخر على كل حال •

بدا لى انه يضرر نوعاً من سوء الظن بى ، أو نوعاً من الحذر منى •

قال :

- اننى أشكرك أجزل الشكر على كل حال •

وحاولت أن أسأله مزيداً من الاسئلة فقلت :

- سمعت أن أمور السيد ستيلكوف لا تجرى مجرى حسناً ، سمعت

على الأقل كلاماً عن اسهم ***

- أية أسهم تعنى ؟

لقد تعمدت أن أذكر الأسهم ، ولكننى لم أفعل ذلك من أجل أن
أكتشف له عن سر الأمير . كل ما أردته هو أن ألمح الى الأسهم لأتبين
من النظر الى وجهه الى عينيهِ هل يعلم عن هذا الامر شيئاً . وقد وصلت
الى هدفى : استطعت أن أدرك ، من حركة سريعة خفيفة فى وجهه ، أنه
ربما كان على علم بشئ . ولم أجب عن سؤاله : « أية أسهم ؟ » ، بل
صمت . ومن الغريب أنه لم يلح .

سألنى باهتمام :

- كيف حال اليزابت ماكاروفنا ؟

- هى بخير . ان أختى تكن لك الاحترام دائماً ***

فسطعت عيناه سروراً ورضا : كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه

يحمل لأختى عاطفة ما ***

وقال لى فجأة :

- زارنى فى هذه الأيام الأخيرة ، الأمير مرجى شروفتش .

فهتفت أسأله :

- متى ؟

- منذ أربعة أيام .

- لا أسس ؟

— لا ، لا أمس •

وألقى على نظرة مستفهمة • واردف يقول :

— قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديثاً فيه مزيد من التفصيل ، أما الآن فأعتقد أن من الضروري أن أنبّهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفمها السر) الى أنني لاحظت أن حالته النفسية ... بل حالته العقلية ... غير طبيعية • وقد زارني شخص آخر أيضاً ••

قال ذلك وهو يتسم فجأة ، ثم تابع كلامه :

— زارني شخص آخر منذ هنية قصيرة ، قبل وصولك بلحظة ، وقد اضطرت أن استخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هي أيضاً •

— هل جاءك الأمير منذ قليل ؟

— لا ، لا الأمير ، لا أتكلم الآن عن الأمير • لقد زارني ، منذ برهة ، آندره بتروفتش فرسيلوف ، و •• ألا تعرف شيئاً ؟ ألم يحدث له شيء ؟

أسرعت أسأله :

— ربما حدث له شيء ، ولكن ماذا جرى هنا ، عندك ؟

— يجب على أن أكتّم السر طبعاً ••• ما أعجب هذا الحديث بيننا ! ان مداره كله على أسرار •••

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى • ثم أردف :

— على أن آندره بتروفتش لم يطلب مني كتمان السر • ثم انك ابنه ؟ ولعلمي بما تحمل له من عواطف ، يخيل الى أنني أحسن صنماً

إذا أنا نبهتك في هذه المرة • تصور أنه ألقى علىَّ هذا السؤال : « إذا
اتفق لي في يوم قريب ، قريب جداً ، أن وجدتني مضطراً الى مبارزة ،
فهل تقبل أن تكون شاهدي ؟ » • ولقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً
بطبيعة الحال •

دهشت دهشة شديدة • ان هذا النبأ هو أشد الأنباء إقلاقاً • لقد حدث
شيء • لا بد أن حادثاً ما زلت أجهله قد وقع ! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف
قال لي أمس : « لست أنا الذي سأجىء اليك ، بل أنت الذي ستهرع الى » •
وطرت الى الأمير يقولان ايغانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القوة
أن مفتاح السر هناك • وقد شكرني فاسين مرةً أخرى حين فارقه •

كان الأمير العجوز جالساً أمام مدفأته ، مدثراً ساقيه بغطاء . وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام ، كأنه دهش من زيارتي ، مع أنه كان يرسل من يدعوني اليه كلَّ يوم تقريباً . على أنه قد حيَّاني بلطف ، لكنه أجاب عن أسئلتى الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب . وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً ، ويحدِّق الىَّ بنظرة ثابتة ، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم اذا هو يتذكره الآن . فقلت له بصراحة انني أعرف كل شيء ، واني سعيد بما حدث . فسرعان ما بانث على شفثيه ابتسامة فيها مودة وسرعان ما اتمش وزال تحفظه واحتفى حذره ، حتى لكأنه نسيهما ، بل لا شك في أنه نسيهما . قال :

- صديقي العزيز ، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتي ، حتى لقد سألت نفسي أمس : « من ذا الذي سيتهج ؟ » ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً : « هو الذي سيتهج » . نعم ، لا أحد غيرك ، حتماً . ولكن لا ضير . ان السنة الناس السنة سوء ... ولكن لا قيمة لهذا ! ... « يا بني العزيز » (بالفرنسية) ، ذلك كله سام كل السمو ، لذيذ كل اللذة . ولكنك تعرفها معرفة جيدة ، أنت . ثم ان آنا آندريفنا ترى فيك أحسن رأى . هي ذات وجه قاس أسر أخاذ ، وجه صورة انجليزية . انها أحلى الصور الانجليزية قاطبة . لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور ... ان هذه النية كانت في نفسي دائماً ، دائماً . وانما يدهشني أنني لم أفكر في هذا الأمر أبداً .

- ولكنك أحيت أنا آندريفنا دائماً ، وقدرتها دائماً ، طوال المدة التي أذكرها .

- يا صديقي ، انسا لا نريد أن نلحق ضرراً بأحد . ان الحياة مع أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هي الجنة . نحن جميعاً شعراء ...
الخلاصه : هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ . اسمع ، سوف نقضى الصيف أولاً بمدينة سودن ، ثم بمدينة بادجاستاين ! أين ذهبت ؟ كنت أنتظرك . ما أكثر الأحداث التي مرت منذ ذلك الوقت ، ما أكثرها ، اليس كذلك ؟ وانما المبحزن أنني لست هادئاً : فمتى خلوت الى نفسى شعرت بأننى قلق . هذا هو السبب فى أنني يجب ألا أبقي وحيداً ، أليس كذلك ؟ هذا واضح وضوح النهار . آه يا صديقي ، انها لم تقل الا كلمتين ... ولكن كان كلامها أروع قصيدة . ولكن ... أنت أخوها تقريباً ، أليس كذلك ؟ يا عزيزى ، ليس غريباً أنني أحبتك ذلك الحب كله ! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك . ولقد قبّلت يدها ، وبكيت .

واسئل مندبله من جيبه ، كأنه بهم أن يبكى من جديد . كان متأثراً جداً ، بل أظن أنه كان فى حالة من تلك الحالات « المحزنة » ، التى أتيج لى أن أراها فيه مدة معرفتى به . انه فى العادة ، بل فى جميع الأوقات تقريباً ، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن . وتمتم يقول :

- سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقي . أحب أن أغفر للجميع الناس ، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد . الفن ، الشعر فى الحياة ، مساعدة البؤساء ، وهى ، ذلك هو جمال التوراة . ما أروعها من انسان ، هه ؟ « أناشيد سليمان » لا . ليس هو سليمان ، بل هو داود الذى أضجع فتاة جميلة فى سريرى طلباً للدفء فى شيخوخته . أوه . . . داود ، سليمان ، هذا كله يدور فى رأسى دوران اعصار

حقاً • ان تلك الحسناء فى شيخوخه داود ، لهى قصيدة • ، أما بول
دوكوك فليس له ذوق ولا احساس بالتوازن ، رغم أنه صاحب موهبة • •
ان كاترين نيقولايفنا تبتسم • ولقد قلت لها اننا لن نضايقها • اننا بدأنا
روايتنا ، فليسمح لنا بأن نتمها • سئم حلمنا ان شئت ، ولكن فليتركوا
لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا •

– كيف تقول انه حلم يا أمير ؟

– كيف أقول انه حلم ؟ فليعدوه حلماً ، ولكن فليتركوا لنا أن
نموت مع هذا الحلم •

– آه ••• أمير ••• لماذا الموت ؟ ان الحياة هى الواجبة الآن !

– وماذا كنت أقول ؟ لست أقول غير هذا ! حقاً اننى لا أدرى لماذا
الحياة قصيرة هذا القصر كله • اغلب الظن أن الغاية من قصرها هى
ألا تكون مملة ، ذلك أن الحياة هى أيضاً عمل فنى من أعمال الخالق
الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين • ان الایجاز
أول شروط الفن • ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن
يمشوا مدة أطول •

– قل لى يا أمير ، هل أذيع النبأ فى الناس ؟

– لا ، لا يا عزيزى ، لم 'يدع تماماً • انه محدود بحدود
الأسرة ، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن • لم أبح بما فى نفسى بوحاً
كاملاً الا لكاترين نيقولايفنا ، لأننى أعد نفسى آتماً فى حقها • ذلك أن
كاترين نيقولايفنا ملاك ، ملاك •

– نعم ، نعم •

– نعم ؟ أنت أيضاً تقول نعم ؟ كنت أظنك عدواً لها • آه •••

بالمناسبة : لقد طلبت منى ألا أستقبلك بعد اليوم • تصبور أننى نسيت ذلك منذ دخلت علىَّ •

انتفضت وسألته :

- ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا طلبت منك ذلك ؟ ومتى ؟

(لم يكذبنى احساسى • ان شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بأفلوفنا !) •

- أمس يا صديقى ، أمس • لا أدري كيف استطعت أن تدخل • ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنع من الدخول • كيف دخلت ؟

- ببساطة •

- هذا هو الأرجح • فلو أنك دخلت بالكر والحيلة لأوقفوك حتماً ، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل • البساطة يا عزيزى ، البساطة هى أمكر المكر •

- لست أفهم شيئاً • هل قررت اذن ، أنت أيضاً ، ألا تستقبلنى بعد اليوم ؟

- لا يا صديقى • لقد أجبت بأن هذا ليس شأنى ••• أقصد أننى وافقت موافقة تامة • ثق يا بنى العزيز أننى أحبك حباً كبيراً • ولكن كاترين يقولاننا طلبت ذلك بكثير من الالحاح • آه ••• هى ذى !

فى تلك اللحظة ظهرت كاترين يقولاننا على العتبة • كانت مرتدية ثياب الخروج ، وقد جاءت الى أبيها لتقبله على عاداتها دائماً من قبل • فلما رأته توقفت واضطربت ، ثم استدارت وخرجت • فصاح الأمير مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال :

- كذلك هى !

فهمت آقول :

- هو سوء تفاهم لا أكثر • ذيقه واحدة يا أمير ••• سوف •••

سوف أرجع فوراً يا أمير !

وركضت وراء كاترين نيقولايفنا •

ان كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعة بلغت من الشدة اننى لم أستطع التفكير ، بل لم أستطع أن أهىء سلوكى أقل تهيه • فلو اننى استطعت أهىء سلوكى لتصرفت تصرفاً آخر حتما • ولكننى كنت قد طاش صوابى كصبي صغير • هرعت الى حجراتها ، غير أن الخادم قال لى ان كاترين نيقولايفنا قد خرجت فى هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها • فاندفعت أهبط السلم الكبير منكس الرأس • فرأيت كاترين نيقولايفنا تنزل على السلم ، مرتدية معطفها ، ورأيت ضابطاً فارح القد حسن القامة بزة عسكرية من غير معطف يسير الى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذى يتدلى على جنبه • وكان خادم يحمل له معطفه وراءه • هذا هو البارون • انه كولونيل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، نموذج الضابط الأنيق الجاف ، له وجه بيضوى كثيراً ، وله شاربان أحمران ، بل ان حاجبيه أحمران أيضاً • ليس وجهه جميلاً ألبتة ، ولكن هذا الوجه يعبر عن الجزم والتحدى • اننى أصفه الآن على عجل ، كما رأيته فى تلك اللحظة • لم أكن قد اقيته حتى ذلك الحين • وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف • فأبصرتنى كاترين نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست فى أذنه بشئ •• فالتفت ، وسرعان ما أوما للخادم والبواب السوسرى بإشارة من رأسه • فتقدم الخادم منى خطوة أمام الباب ، ولكننى دفعته يدي ووثبت الى درج الباب فى اثرهما • أجلس بيورنح صاحبه فى العربية • وصحت أنا قائلآ بغباء (كما يفعل أبله ، كما يفعل أبله ! آه ! اننى أتذكر كل شئ • كنت بغير قبعة) :

– كاترين نيقولايفنا ! كاترين نيقولايفنا !

فالتفت بيورنيج مرةً أخرى غاضباً ، وصاح يقول للخدام كلمه او كلمتين لم اميزهما . واحسست اننى امسكت من الكوع . وانطلقت العربيه فى تلك اللحظه . فصرخت صرخه واندفعت اجرى وراء العربيه . كانت كاترين نيقولايفنا تنظر من نافذه العربيه – رايت انا ذلك – وكانت تبدو قلقه قلقاً شديداً . ولكننى بحركتى السريعه حين انطلقت أعدو وراء العربيه قد صدمت بيورنيج صدمه فويه دون أن أفكر فى هذا البتة ، وأظن أننى دست على رجله أيضاً . فصرخ صرخه صغيره ، وصرّ بأسنانه ، وأمسك كتنفى بيد قويه ودفعنى دفعه بلغت من شدة الغضب والحنق أننى تقهقرت ثلاث خطوات . وفى تلك اللحظه 'مدّ' اليه معطفه ، فارتداه ، وركب عربته الزلاجه ، ومن هناك صرخ صرخه تهديد أخرى وهو يشير للخدام وللبناب الى . فأمسكوا بى ، وثبتونى فى مكانى ، وألقى الى أحد الخدم معطى ، ومدّ الى خادم ثان قبعتى ؛ لست أتذكر الآن ماذا قالوا لى : لقد كانوا يتكلمون ، وكنت أصغى اليهم دون أن أفهم شيئاً . ولكننى تركتهم فى مكانهم فجأة ، ووليت هارباً .

ظلمت أركض دون أن أميز شيئاً ، وأصدم المارة أثناء ركضى
 يمنة ويسرة ، حتى وصلت أخيراً الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، ولم يخطر
 ببالي فى الطريق حتى أن أستقل عربة • لقد دفعنى بيورنيج بحضورها
 « هى ! صحيح أننى دست على قدمه فدفعنى عنه بفريزته كما يفعل شخص
 ديس على قدمه فانتزع ثفن من أصبعه (يجوز فعلاً أن أكون قد سحقت
 له ثفن فى رجله !) • ولكنها رأت ، رأت الخدم يقبضون على • هذا كله
 حدث بحضورها ، أمامها !

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع فى أول الأمر أن أنطق بكلمة •
 كانت فكى السفلى ترتعش من الحمى • لقد اجتاحتنى حمى فعلاً • وكنت
 عدا ذلك أبكى • • • فالى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة !

— هه ! طردوك اذن ؟ أحسنو صنعا ! أحسنوا صنعا !
 كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا • وتهاويت على الديوان دون أن أقول
 شيئاً ، ونظرت اليها •

قلت وهى تحددق الى :

— ولكن ماذا أصابه ؟ خذ ، خذ هذه الكأس ، ابلع قليلاً من
 ماء ، اشرب ! وقل لى ما الحماقة الجديدة التى ارتكبتها •

تمتمت قائلاً اننى ' طردت ' ، وان بيورنيج دفعنى فى الشارع •

- هل تمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً ؟ اقرأ اذن ، ولينشرح
فؤادك •

قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وتناولت من على المائدة ورفه ومدتها الى
وتسمرت أمامي • فسرعان ما تعرفت خط فرسيلوف • لم يكن ثمة
الا أسطر قليلة : انها رسالة الى كاترين نيقولايفنا • ارتعشت • ولكن
القدرة على الفهم لم تلبث أن وافقت أقوى ما تكون • واليكم نص تلك
الرسالة الفظيعة ، الفاضحة ، المستحيلة ، الاجرامية ، اليكم نصها
كلمة كلمة :

الى السيدة كاترين نيقولايفنا

« رغم علمي بما أنت عليه من فساد الخلق سواء اكان هذا الفساد طبيعة
فيك ام كان فناً تعدينيته ، فلقد كنت الصور انك تستطعين ان
تسيطري على اهوائك ، وانك في اقل تقدير لن تلجئي اذى باطفال •
ولكنك لم تتورعي حتى عن هذا • انني ابلغك ان الوثيقة التي تعرفين
لم تحرق على لهب شمعة حتما ، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام ،
فلن تجني لهما مما تلعللين • فلا تفسدي اخلاق شاب في غير طائل •
كفى اذاك عنه ، فانه لا يزال قاصراً ؛ بل انه ليكاد أن يكون طفلاً لما يبلغ
بعد كمال نموه العقل والجسمي • ليم يفيده ؟ التي اهتم بامره ،
ولذلك جازفت فكتبت اليك هذه الكلمات ، رغم انني لا ارجو لها اي
نجاح • ويشرفني أن ابلغك التي ابعث بنسخة من هذه الرسالة الى
البارون بيورنيج • »

اصفر وجهي أثناء القراءة ، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاي
استياء وسخطاً • وصحت أقول غاضباً :

- اياي يقصد ؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول !

- ذلك لأنك بحت له به !

واتزعزت تاتيانا الرسالة من يدي •

- ولكن ... ليس هذا ما كنت أقوله له ! آه ... رباه ! ما عسى

يكون ظنها بى الآن ؟ ولكن هل هو مجنون ؟ انه مجنون . لقد رأيته
أمس . متى بعث الرسالة ؟

- أمس نهاراً . وقد وصلت فى المساء ، فأعطيتها اليوم بنفسها .

- ولكننى رأيته أمس . انه مجنون ! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف
هذا . هذا عمل رجل مجنون ! من ذا الذى يكتب كلاماً كهذا الكلام الى
امرأة ؟

- يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم الغيرة ويجعلهم الغضب
صباً عمياً ويتحول الدم فى عروقهم الى زاج . انك لم تكن تعرفه بعد !
ولكنه سيدفع الثمن غالباً . لسوف يسحق سحقاً . انه يضع نفسه بنفسه
تحت الساطور . ألا ان من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة الى خط نيقولا ،
فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً ،
مادام يستثقل حمله ! وما الذى حملك على التحدث اليه ؟ ما كانت حاجتك
الى مذاكرته ؟ أردت أن تزهو بنفسك ؟

- يا له من كره ! ما أشد هذا البغض ! كذلك هتفت وأنا ألطم
رأسى يدي . وتابعت أسما :
- ولماذا ؟ لماذا ؟ يسى ، هذه الاساءة الى امرأة ؟ ماذا صنعت ؟ أى ذنب
جنت ؟ ما العلاقات التى كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه ؟

- كره ! بغض !

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنا وهى تقلد لهجتى وحركاتى بسخرية
حائقة .

وازدحم الدم فى وجهى من جديد : بدا لى فجأة انى أفهم شيئاً
جديداً كل الجدة . نظرت الى تاتيانا بافلوفنا نظرة مستفهمة ، أودعتها

كل ما أملك من قوة • فزعقت تاتيانا بأفلوفا وهي تدبر لي ظهرها وتهدّني
بيدها ، قائلة :

- اذهب من هنا ! كفاني ما لقيت منكم جميعاً ! حسبي ! في وسعكم
أن تغيّروا كلّكم ... الوحيدة التي ما أزال أشفق عليها هي أمك •
ركضت الى فرميلوف طبعاً • ولكن ما أقبحه من عذر ! ما أقبحه
من عذر !

٤

لم يكن فرسيلوف وحيداً • يجب أن أذكر سلفاً انه بعد أن أرسل تلك الرسالة الى كاترين نيقولايفنا أمس ، وأرسل نسخة منها (لا يعلم الا الله لماذا !) الى البارون بيورنيج ، كان ينتظر أنشاء النهار « عواقب » الخطوة التى قام بها ، فلذلك اتخذ بعض التدابير : فنقل ماما وليزا منذ الصباح الى فوق ، الى « التسابوت » (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت فى الصباح عند عودتها فرقدت فى سريرها) ، كما عنى بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة ، ولاسيما « الصالون » • وما وافى الساعة الثانية بعد الظهر فعلاً ، حتى جاء الى الدار بارون اسمه « ر • • » ، وهو عسكري برتبة كولونيل ، فى نحو الأربعين من عمره ، ألمانى الأصل ، طويل القامة ، جاف الهيئة ، قوى الجسم جداً فيما يبدو ، أحمر البشرة هو أيضاً ، مثل بيورنيج ، لكنه أصلع قليلاً • انه واحد من البارونات « ر • • • » ، الكثير عددهم فى الجيش الروسى ، وهم جميعاً أناس شديداً التأذى فى كل ما يمس الشرف ، ليس لهم ثراء ، وانما هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً • لم أشهد بداية الحديث الذى جرى بينهما • كانا كلاهما فى أوج النشاط والاندفاع • وكيف لا يكونان كذلك ؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة ، وكان البارون جالساً فى مقعد الى جانب • وكان فرسيلوف شاحب اللون ، ولكنه يتكلم برصانة ، ويزن أقواله ، وكان البارون يرفع صوته ، ويهم أن يحرك يديه باشارات عنيفة ، ولكنه يكبح جماحه • وكانت نظرفته قاسية

فيها تعال بل فيها احتقار ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشة • فحين
رأني قطب حاجيه ، ولكن فرسيلوف كاد يفتبط لرؤيتي • وقال يحييني :

— يومك سعيد يا عزيزي •

وأضاف يخاطب البارون :

— يا بارون ، هذا هو الشاب الذي عنيت في رسالتي • صدق أنه
لن يضايقنا وجوده ، حتى لقد يفيدنا •

رمقني البارون بنظرة شزاء فيها احتقار • وأردف فرسيلوف
قائلا لي :

— يا عزيزي ، يسعدني أنك جئت • تلبث في ركن ، أرجوك ،
إلى أن تنتهي •

ثم قال للبارون :

— اطمن يا بارون ، سيقى في ركن ...

لم يهمني ذلك • كنت قد عزمت أمري • وكان كل شيء عدا هذا
يدهشني ويذهلني • وجلست في ركن لا أنطق بكلمة ، ولبت هنالك
لا تطرف لي عين ، ولا أتحرك ، إلى آخر الحديث •

قال فرسيلوف مقطعا جميع الكلمات تقطعا قويا :

— أكرر لك مرة أخرى يا بارون انني أعد كاترين نيقولايفنا
آخماكوف ، التي كتبت إليها تلك الرسالة الدينية الحسيسة ، أنبل المخلوقات
طرا ، بل أعدها ذروة الفضائل الكاملة !

فزأر البارون يقول :

— ان هذا الدحض لأقوالك ، كما قلت لك من قبل ، أشبه
بتأكيد لها • فتعابيرك تخلو من الاحترام خلوا واضحا •

- ان الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالى بالمعنى الذى يدل عليه نصها
حرفاً حرفاً • اننى أصاب أحياناً بنوبات تستبد بى وتسيطر علىّ ، حتى
اننى مضطر الى معالجة نفسى ومداواة مرضى ، وقد اتفق لى فى أثناء نوبة
من تلك النوبات أن •••

- هذه الايضاحات والاعذار لا يمكن قبولها • أكرر لك مرة أخرى
أنك لا تزال تصر على ضلالتك اصراراً عنيداً ولعلك تتعمد أن تعذب
نفسك • لقد نبهتك منذ البداية الى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة ، أعنى
رسالتك الى الجنرالة آخماكوكفا ، يجب اقضاؤها من الحديث الذى نحن
بصدده ، ولكنك لا تزال تعود الى تلك المسألة • لقد رجائى البارون
بيورنج وكلفنى أن أوضح ما يتعلق به هو وحده ، أعنى ما اجترحت من
وقاحة اذ بعثت اليه تلك « النسخة » من الرسالة ، ثم الحاشية التى أضفتها
قائلاً انك « على استعداد لتحمل المسؤولية أمام أى انسان ، وبأية
طريقة » •

- ولكن يبدو لى أن هذه النقطة الأخيرة جلية لاحتجاج الى مزيد
من الايضاح •

- أفهم ، أعلم • انك تنهرب حتى من الاعتذار ، وتظل تؤكد
أنك « مستعد لتحمل المسؤولية أمام أى انسان وبأية طريقة » • ولكن
سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخص ثمن • لذلك أجد أن من
حقى ، بسبب ما أراه من اصرارك على توجيه الايضاح هذه الوجهة ،
أن أفصح لك عن رأيى بغير تحرج : لقد وصلت من تفكيرى فى الأمر الى
النتيجة التالية : ان البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون
له معك قضية ••• فكأنكما ندان •

- أرى أن هذا الحل أنفع للحلول لصديقك البارون بيورنج • وانى
لأعترف لك بأنك لا تدهشنى البتة : فلقد كنت أتوقع هذا الأمر •

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أنني لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسعى الى احداث انفجار ، فكان يستفز ويتحدى ويناكذ هذا البارون الذى من طبعه الاحتياج ، ولعله كان يمتحن صبره امتحاناً قاسياً . فكان البارون كالجالس على الشوك فناد صبر .
- كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة فى الفكاهة ، ولكن هذا ليس هو الذكاء .

- هذه ملاحظة عميقة الى أبعد حدود العمق يا كولونيل .

صرخ البارون يقول :

- لست فى حاجة الى مدحك ، ولا جئت هنا لالتكلم فى الهواء سدى . اسمعنى من فضلك : ان البارون بيورنج ، حين تلقى رسالتك ، احتار حيرة سديده ، اذ كانت نفوح منها رائحة مستشفى مجانيين . ولقد كان فى الامكان طبعاً أن تلتبس الوسائل .. لتهدئك فوراً . ولكن أسباباً خاصه حملتهم على مراعاتك ، وقد سألوا عنك ، فأتضح أنك كنت تنمى الى المجتمع الراقى ، وأنت فى الماضى قد عملت فى « الحرس » ، غير أنك أقصيت من ذلك المجتمع ، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل أكثر من مشبوهة . ورغم ذلك انتقلت اليك لأستطلع الأمر بنفسى ، وهأت ذا تسبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن ، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات ... كفى ! ان مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورط فى هذا الأمر . والخلاصة أبها السيد اننى مكلف بأن أعلن لك أنك اذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع ، فسوف تلتبس لتهدئك وسائلها على الفور ، وهى وسائل أوكد لك أنها مضمونة جداً وسريعة جداً . انسا لايش فى الغابات ، بل فى دولة لها شرطة !

- هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزى الطبيب البارون ؟ ر ٩ .

- أف ...

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال :
- انك تفرينى بأن أبرهن لك حلالاً على اننى لست « عزيزك
البارون الطيب » .

نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال :
- أنبّهك مرة أخرى الى أن زوجتى وابنتى ليستا بعيدتين ، لذلك
أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً ، لأن صرخاتك تصل اليهما .
- امرأتك ... هاه ! لئن بقيت أتحدث اليك هذه المدة كلها ، فممن
أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة ...

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضباً حانقاً ، ولم يخفض
صوته أى خفض . ثم صرخ يقول ساخطاً :

- كفى ! انك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب ، بل أنت
كذلك رجل مهووس ، مهووس حقاً ، رجل مختل العقل ؛ وهذا بعينه
ما وصفوك به ! انك لا تستحق التسامح ، وانى لأعلن لك أن تدابير معنية
سوف تتخذ فى هذا اليوم نفسه ، وانك ستستدعى الى مكان ترد فيه
الى الصواب ... وستخرج من المدينة !

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة . ولم يشيعه فرسيلوف ،
بل ظل واقفاً ينظر الى فى ذهول كأنه لا يلاحظنى . وابتسم فجأة ، وهز
شعره ، وتناول قبعته ، واتجه نحو الباب هو أيضاً . فأمسكت يده .
فتوقف أمامى وقال :

- ها ... حقاً ... أنت هنا ! هل ... أصغيت ؟
- كيف أبحث لنفسك أن تتصرف هذا التصرف ؟ كيف أمكنك
أن تشوه وأن تلتطخ بالعار ... وأن تغدر هذا الغدر كله ؟

حَدَّق الىَ بِنظرة ثابتة ، ولكن ابشامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء ،
حتى صارت الى ضحك حقاً •

صحت أقول خارجاً عن طوري :

- لكنني أنا الذي لطّخت بالعار •• أمامها ! أمامها ! 'هزنت على
مراى منها • لقد دفعتني دفعاً مهيناً •

قال :

- هل هذا ممكن ؟ آه يا بني المسكين ، لكم أشفق عليك ! هزموك ؟

- أنضحك ، أنضحك مني ؟ أترى هذا داعياً الى الضحك ؟

استل يده من يدي مسرعاً ، وتناول قبعته ، وخرج من البيت
ضاحكاً ، ضاحكاً الآن ضحكاً حقاً !

ألحق به ؟ علام ؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة !
وأبصرت ماما فجأة • كانت قد نزلت ، وهي تلقى على الآن نظرة وجلة •

- هل خرج ؟

قبّلتها في صمت ، وقبلتني بقوة ، بقوة ، ملتصقة بي التصاقاً •

- ماما العزيزة ، كيف يمكنك أن تبقى هنا ؟ لترحل فوراً ،
سوف أؤويك ، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال
الشاقة ، من أجلك ومن أجل ليزا • لنتركهم جميعهم ، جميعهم ،
ولنرحل • سنكون وحدنا • ماما ، هل تتذكرين يوم جئت تزوريني عند
توشار ورفضت أن أعرفك ؟

- أتذكر يا بني • طوال حياتي كنت آئمة في حقك • ولدتك ثم
لم أعرفك •

- هو الآثم يا ماما • هو سبب كل شيء • لم يجئنا فى يوم من الأيام •

- بلى • أحبنا •

- لنرحل يا ماما •

- كيف أتركه ؟ هل هو سعيد ؟

- أين ليزا ؟

- فى السرير • ما ان عادت حتى مرضت • أنا خائفة • ما بالهم حائقين عليه هذا الحق كله ؟ ماذا يريدون به ؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده ؟

- لن يقع له سوء يا ماما • لن يقع له سوء أبداً • لن يقع له سوء أبداً • ولا يمكن أن يقع له سوء • هكذا خلق ! ولكن ما هى ذى تاتيانا بافلوفنا • أسأليها ان كنت لا تصدقيني •

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا • وتابعت أقول :

- الى اللقاء يا ماما ، سأعود حالاً ، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى •••

ووليت هارباً • كنت لا أطيق أن أرى أحداً ، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا • كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً • كنت أريد أن أخلو الى نفسى ، وحيداً ، وحيداً •

٥

ولكن ما ان وصلت الى الشارع التالى حتى أحسست أنى عاجز عن السير . وكنت أصطدم اصطداماً غيباً بأولئك الناس ، الغرباء ، غير المكترئين . الى أين أذهب ؟ من هو فى حاجة الىّ ، وما الذى احتاجه أنا الآن ؟ وسرت سيراً ألباً حتى وصلت الى بيت الأمير سرجى بتروفتش دون أن يخطر على بالى البتة . لم يكن الأمير بالبيت . فقلت لبطرس (خادمة) اننى سأنتظر فى مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً) . انها غرفة واسعة ، عالية السقف جداً ، ملأى بأثاث كثير . مضيت الى أعم ركن ، وجلست على ديوان ، ووضعت كوعى على المائدة ، وأسندت رأسى الى يديّ . نعم ، كان هذا هو السؤال : « ما الذى أنا فى حاجة اليه الآن ؟ » . ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال ، فلقد كنت عاجزاً عن الاجابة عنه كل العجز .

ولكننى كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل . سبق أن ذكرت من قبل أننى فى نهاية تلك المرحلة كانت « الأحداث قد سمحتنى » . والآن ، فيما أنا جالس ، كان شىء كالسديم يدور فى رأسى اعصاراً . « نعم ، اننى لم أر من هذا الرجل شيئاً ، ولم أفهم عنه شيئاً » . تلك هى الفكرة التى كانت تشرق فى خاطرى فى بعض اللحظات . « لقد ضحك منى فى وجهى منذ قليل ؟ ولكن لا ، انه لم يضحك منى أنا ، بل كان لا يزال يضحك من بيورنيج ، لا منى أنا . أمس الأول ، أثناء العشاء ، كان يعرف كل شىء . وكان قائم النفس . لقد استولى على اعترافى الغيبى فى

المطعم ، فشئوه كل شيء ، على حطام الحقيقة • ما حاجته الى الحقيقة ؟
انه لا يصدق نصف كلمة مما كتبه اليها • كانت حاجته كلها هي أن
يجرح ، أن يجرح لغير سبب ، بل دون ان يعرف لماذا ، متشبهاً بأية
حجة ، وقد قدمت انا اليه تلك الحجة • • • هذه فعلة كلب مسعور ! • • •
هل ينوى الآن أن يقتل بيورنيج ؟ لماذا ؟ لأى سبب ؟ ان قلبه يعرف السبب !
أما أنا فأتنى أجهل ما فى قلبه • • • نعم ، مازلت أجهل هذا حتى الآن •
هل يجبها هذا الحب المشبوب كله ؟ لا أدري • وهل يدري هو نفسه ؟
لماذا قلت لأمى • انه لا يمكن أن يقع له سوء • ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟
أترانى فقدته أم لم أفقده ؟ • • • •

• • • • لقد رأيت كيف 'دفعت' • • وضحكت أيضاً • • أم أنها لم
تضحك ؟ لو كنت أنا فى مكانها لضحكت ! الجاسوس هو من 'ضرب' ،
الجاسوس ! • • • •

• وما الذى عناه (واتتني هذه الفكرة فجأة) ، ما الذى عناه حين
دسّ فى رسالته الدنيئة تلك أن الوثيقة لم 'تحرق' ، وأنها لا تزال
موجودة ؟ • • • •

• لن يقتل بيورنيج • هو الآن فى المطعم قطعاً ، يصنى الى أغنية
لوسيا ! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضى يقتل بيورنيج • لقد دفعنى بيورنيج ،
بل ضربنى قريباً • هل ضربنى ؟ ان بيورنيج يأبى حتى أن يسأل
فرسيلوف : فهل ينازلنى أنا ؟ ، • قد يكون على أن أقتله فى الغد
برصاصة مسدس ، وأن أتربص به فى الشارع • • • نشأت هذه الفكرة
فى ذهنى من تلقاء نفسها تماماً ، ولم أتلبث عليها البتة •

وفى بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيفتح فتدخل كاترين
نقولاً يفنا : تدخل فتدلى يدها وتنفجر ضاحكين كلانا • • آه • • عزيزى ،

الطالب ! ان هذه الفكرة بل فل هذه الرغبة انما عرضت لى حين ساد الظلام
 الغرفة تماماً . ولكن هل وقفت أمامها مدة طويلة أودّعها بينا هي تمد
 الى يدها وتضحك ؟ كيف يمكن هذا : فى برهة وجيزة من الزمن ،
 على مثل هذه المسافة الرهيبة ! ألا فلأذهب اليها ببساطة فلأناقشها حالاً ،
 ببساطة ، ببساطة ! رباه ! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ ، جديد كل
 الجدة ، كل الجدة . . . ليزا ، الأمير ، لا يزال هذا هو العالم القديم . . .
 أنا الآن عند الأمير . وماما ، كيف أمكنها أن تعيش معه اذا صدق الأمر ؟
 أنا كان فى امكانى ، أنا فى امكانى ، ولكن هي ؟ ما الذى سيحدث
 الآن ؟ . . . وأخذت أطياف ليزا ، وآنا أندريفنا ، وستيلكوف ، والأمير ،
 وآفردوف ، والجميع ، تتلاحق كاعصار دون أن تترك أثراً فى ذهنى
 المريض . وأصبحت الصور تزداد ابهاماً وتستعصى على الادراك مزيداً من
 الاستعصاء . فأسعدنى أن أفهم واحدة منها وأن أمسك بها .

قلت لنفسى فجأة : « ان لى » فكرتى ، ، ولكن هل هذا صحيح
 حقاً ؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب ؟ ان فكرتى هي العتمة
 والعزلة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعتمة الماضى تلك ؟ آه ! يارب !
 ولكن السبب هو أننى لم أحرق « الوثيقة » ! لقد نسيت أن أحرقها
 أمس الأول . سأرجع الى بيتى فأحرقها على لهب الشمعة ، نعم ، على
 لهب الشمعة . ولكننى لا أدري هل حسن ما أفكر فيه الآن . . .

ساد الظلام منذ مدة طويلة وجاء بطرس بالشموع . وقف أمامى
 وسألنى هل أكلت ؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدي . ومع ذلك جاءنى
 بعد ساعة بشاى ، فشربت كأساً كبيرة بشراة . ثم سألته كم الساعة ؟
 كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف . لم يدهشنى حتى أن أكون قد
 قضيت هنا خمس ساعات . قال بطرس :

– جئت ثلاث مرات ، ولكننى أعتقد أنك كنت نائماً .

لم أتذكر أنه دخل على . ولكنى لا أدري لماذا رَوّعنى فجأة أن
أكون قد . نمت ، ، فاذا أنا أنهض وأخذ أمشي فى الغرفة طويلاً وعرضاً
حتى لا أنام . وأخيراً أحسست بصداع فى رأسى . حتى اذا كانت الساعة
العاشرة تماماً دخل الأمير ، فأدهشنى أننى انتظرتة . كنت قد مُسيتة
كل النسيان ، كل النسيان .

قال لى :

— أنت هنا ، وأنا ذهبت أبحث عنك فى بيتك !

كانت هيئته مكفهرة قاسية خالية من أيسر ابتسام . وكانت عيناه
تعبران عن فكرة ثابتة ثاوية فى قرارة ذهنه .

تابع يقول :

— كافحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل ، ولكن كل شئ ،
أخفق فأصبح وضعى الآن رهيباً . (ملاحظة : لم يذهب الى الأمير
يقولوا ايفانوفتش) . رأيت جييلسكى . انه انسان فظيع . اسمع : لابد
أولاً من الحصول على المال ، ثم نرى ما يكون من الأمر . واذا لم نظفر
بالمال ، فمستدئذ . . لكننى قررت ألا أفكر اليوم فى هذا . اليوم يجب
أن نحصل على المال ، وفى غد نرى ان المبلغ الذى ربحته أنت أمس
الأول لا يزال كاملاً . هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات .
فاذا طرحنا دينك يبقى على أن أرد اليك ثلاثمائة . فخذها وأضف
اليها سبعمائة لتصبح ألفاً ، وأخذ أنا الألفين . ثم نمضى معاً الى
تسرسنشيكيوف ، فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة
آلاف ، ففى أن نصل الى شئ . . والا . . هذا هو المخرج الوحيد
الذى بقى لى .

وألقى على نظرة يائسة .

هتفت أقول فجأة كأنتى بعثت بعثاً جديداً :

- نعم نعم ! هيا بنا ! لم أكن أنتظر إلا أن تجيء ..

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالى لحظة واحدة طوال تلك
الساعات كلها .

وقال الأمير يسأل على حين فجأة :

- والدانة ؟ وحقارة الفعل ؟

فهتفت أقول :

- ماذا ؟ ذهابنا الى الروليت ؟ ولكن هذا هو المخرج . ان المال هو
كل شيء . نحن القديسان أنا وأنت ، على حين أن بيورنج باع نفسه ،
وأن أنا آندريفنا باعت نفسها ، وأن فرسيلوف .. هل تعرف أن فرسيلوف
مختل ؟ مختل ، مختل ! ...

- ألسنت مريضاً يا آرКАДى ماكاروفتش ؟ ان عينيك غربتسان .
- هل تقول هذا لتذهب الى الروليت دون أن تصطحبني ؟ لن أتركك
بعد الآن . ليس عبثاً أنتى حلمت بالقمار طول الليل . هيا بنا الى الروليت !
هياً بنا !

كذلك صحت كأنتى اكتشفت حل اللغز فجأة .

- طيب ، هياً بنا ، رغم أن بك حمى ، وهناك ...

لم يكمل الأمير جملة . كان فى وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا .
قال لى فجأة وهو يقف على العتبة :

- هل تعلم أنه لايزال هناك مخرج آخر غير القمار ؟

- ما هو ؟

- مخرج جدير بامراء •

- ما هو ؟ ما هو ؟

ستعرفه في المستقبل • ولكن أعلم أنني الآن لا أستحقه ، لقد
فات الأوان • هلمّ ، وتذكر أقوالى هذه • لنجرب المخرج الجدير بعامة
الناس • هل يمكن أن أجهل أنني أتصرف تصرف خادم ، بوعى واضح
وارادة كاملة ؟

طرت الى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك ، وكأن الروليت هي الحل الوحيد . ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت ببالي قبل وصول الأمير ، كما سبق أن ذكرت . على أنني لم أذهب مقامراً لنفسى ، وانما ذهبت مقامراً ببال الأمير ومن أجل الأمير . اننى لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبنى ، ولكننى كنت منجذباً انجذاباً لاسييل الى مغالبتها . لا ، لا ، ان هؤلاء الناس ، وهذه الوجوه ، وأولئك القوامين على مائدة الروليت ، وتلك الصرخات التى يطلقها المقامرون ، وتلك الصالة الحظيرة كلها ، صالة تسرشتشيكوف ، ذلك كله لم يد لي فى يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجحامة والفظاظة والحزن كما بدا لي فى هذه المرة ! اننى أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذى كان يعض قلبى أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار . ولكن لماذا لم أبارحها ؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يدعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة ؟ يمكننى أن أقول شيئاً على كل حال : هو أننى لا أستطيع أن أقطع حقاً بأننى كنت أملك عقلى كاملاً حينذاك . ومع هذا لم أقامر فى حياتى بتعقل كما قامر فى ذلك المساء . كنت صامتاً متركز التفكير شديد الانتباه بارعاً فى الحساب الى حد رهيب ، وكنت صبوراً وبخيلاً ، وكنت فى الوقت نفسه حازماً فى اللحظات الحاسمة . جلست من جديد أمام الصفر ، أى مرة أخرى بين تسرشتشيكوف و أفردوف الذى يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف .

لقد كنت أشمئز من هذا المكان ، ولكننى أردت أن احط على الصفر
 حتماً ، وكانت جميع الأماكن الأخرى حول الصفر محتلة . فامرنا قرابة
 ساعة . وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه الى الطرف
 الذى كنا فيه ، ويقف أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة : كان قد خسر
 كل ما معه ، فهو ينظر الى لعبى صامتاً ، ربما دون أن يفهم منه شيئاً
 بل دون أن يفكر فى اللعب . وكنت قد أخذت أربع ، وكان
 تسرشتشيكوف قد نقدنى مبلغاً . فاذا أنا أرى آفردوف يتناول ورقة من
 أوراقي بمائة روبل ، فيضمها الى الكدسة التى كانت أمامه . فصل هذا
 فجأة ، دون أن يقول كلمة ، على مرأى منى ، بأكبر وقاحة . فصرخت
 وأمسكت يده . حدث لى عندئذ شيء لم أتوقعه أنا نفسى : ان جميع الأهوال
 والاهانات التى قاسيت منها فى النهار قد تجمعت فجأة فى هذه اللحظة
 الوحيدة ، فى سرقة هذه الورقة . لكأن كل ما تراكم وانضبط فى نفسى
 كان لا ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر . فهأنذا أصرخ خارجاً عن طورى
 ناظراً فيما حولى :

— هذا لص . لقد سرق منى ورقة بمائة روبل .

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولفظ . ان
 حادثة كهذه هى فى هذا المكان شيء جديد كل الجدة . ان الناس فى صالة
 تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً ، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة .
 ولكننى كنت قد فقدت صوابى . وهذا صوت تسرشتشيكوف يعجل على
 الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة :

— اختفت فعلاً ، ليس فى ذلك شك . كانت هنا . أربعمائة

روبل !

هذه قضية أخرى : ان كدسة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من
 « البنك » تحت أنف تسرشتشيكوف . وأخذ تسرشتشيكوف يبتين المكان

الذى كانت فيه الكدسة فانلاً : « كانت هنا منذ لحظة » ، وكان هذا المكان قريباً منى كل القرب ، بل كان يلاصقنى ، كان يلاصق الموضع الذى فيه مالى ، كان أقرب الىّ منه الى آفردوف كثيراً •

وهتفت أقول مشيراً الى آفردوف :

– اللص هنا ! هو الذى سرق أيضاً ! نبشّوه !

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول :

– مرجع هذا كله الى أنه 'يسمح لأى شخص بالدخول الى هنا •

أناس لم يوص بهم أحد • من أتى به ؟ من هو هذا ؟

– رجل يقال له دولجوروكى •

– الأمير دولجوروكى •

وصرخ أحدهم يقول :

– الأمير سوكولسكى هو الذى أتى به •

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابى :

– اسمع يا أمير : يظنون أننى أنا السارق مع أننى 'سُرقت فى هذه

اللحظة نفسها ! فقل لهم ، قل لهم من أنا !

عندئذ حدث شئ هو أفظع من كل ما سبق حدوثه فى ذلك اليوم كله ... بل فى حياتى كلها : أنكرنى الأمير • رأيت يرفع منكبيه ، ويجب عن الأسئلة التى كانت تنهمر عليه قائلاً بصوت واضح قاطع :

– أنا لست مسؤولاً عن أحد • أرجوكم أن تدعونى وشأنى •

وفى أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن نبشّوه ، وأخذ يقلب جيوبه ، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته

صائحة : • لا ، لا ، السارق نحن نعرفه ، • وكان قد نودى خادمان ،
فاذا هما يمسكان ذراعىَّ من خلف •

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلّص يديَّ :

- لن أسمح لأحد بأن ينبشني ، لن أسمح لأحد بذلك •

ولكننى جررت جرّاً الى غرفة مجاورة ، وهناك نبشت ثيابى كلها
دون أن تغفل منها ثنية واحدة ، فكنت أصرخ وأتخبط محتجاً • قال
أحدهم :

- لا بد أنه رمى ما سرقه الى الأرض •

فأجاب آخر :

- ولكن أين نبحت عنها الآن فى الأرض ؟

- تحت المائدة • لاشك أنه رماها تحت المائدة •

- لم يبق لها أثر حتماً ••

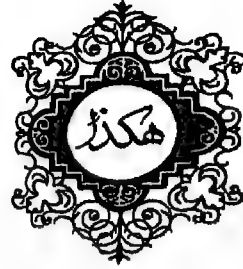
واقنادونى ، لكننى استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على العتبة وأن
أصرخ فى حلق مجنون :

- الروليت تحظرها الشرطة • سأشى بكم جميعاً فى هذا
اليوم نفسه •

- أنزلونى على السلم ، وألبسونى معطفى و ••• فتحو الى باب
الشارع •

الفصل التاسع

١



انتهى النار بكارثة • وبقي الليل • فاليكم ما أتذكركم
عن تلك الليلة :

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسي في الشارع • كانت الليلة صافية هادئة باردة • وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً ، متعجلاً تعجلاً محمواً ، لكنني لا أتجه الى البيت • « علام الرجوع الى البيت ؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن ؟ ان المرء في البيت يحيا فاذا ذهب الآن الى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا : فهل هذا الآن ممكن ؟ لقد انتهت الحياة ، فيستحيل على بعد اليوم أن أحيا • • هكذا ظلمت أهيم على وجهي في الشوارع ، لا أرى أين أمضي ، بل اني لأجهل هل كنت أريد أن أمضي الى مكان • وكنت أحس بحرج شديد ، حتى لأحل أزدار معطفي في بعض اللحظات ، ويتراءى لي أنه « ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية » • شيء غريب : كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي ، حتى الهواء الذي أتنسمه ، انما ينتمي الى سيارة أخرى غير الأرض ، وكأنني وجدت نفسي فجأة على سطح القمر • كل شيء : المدينة ، المارة ، الرصيف الذي أركض عليه ، ذلك كله لم يبق لي أنا فكنت أقول لنفسي : « هذا ميدان القصور ؟ وهذه بحيرة اسحاق ، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن ، لا علاقة لي بهما الآن ! » • أصبح كل شيء غريباً عني ، كف كل شيء عن أن يكون لي • « ان لي ماما و ليزا !

ولكن ماذا تستطيع ماما ولينا أن تصنعا لى الآن ؟ انتهى كل نبي ، انتهى كل نبي دفعة واحدة ، الا شيئاً واحداً : أننى سارق الى الأبد .

• كيف أبرهن على أننى لست سارقاً ؟ هل يمكن الآن هذا ؟ أسافر الى أمريكا ؟ ولكن ما الذى أستطيع بذلك أن أبرهن عليه ؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصدق أننى سرفت ! « الفكرة » ؟ « آية » فكرة ؟ « ما « الفكرة » الآن ؟ بعد خمسين سنة ، بعد مائة سنة ، حين سأمر ، سيوجد دائماً من يشير الى « باصبعه قائلاً : هذا سارق ، دشّن « فكرته » بسرقة مال فى الروليت . » •

هل سمعت بحقد ؟ لا أدري • لعلنى سمعت بحقد • غير أن هناك صفة غريبة أنصف بها ، ربما منذ نعومة أظفارى : اذا نالنى أحد باسادة ، اذا بلغت هذه الاسادة حدّها الأقصى ، اذا أهاننى أحد اهانة شديدة ، فأننى أشعر دائماً برغبة نهمة فى تحمّل الاهانة دون رد ، بل فى أن أستبق رغبات المسء ، فكأننى أقول له : « خذ ، انك تذلى ، فهأنذا أذل نفسى مزيداً من الاذلال • فانظر الى » واعجب بى ! • • كان توشار يضربنى وكان يريد أن يظهر أننى خادم ، اننى لست ابن عضو من أعضاء مجلس الشيوخ • فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم ، فلا أقصر على أن أناوله ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسى ، وأخذ أنفض عن ثيابه أيسر غبار عالق بها ، دون أن يكون قد طلب منى ذلك أو أمرنى به ، وكنت فى بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم ، لأزيل عن رداى آخر ذرة من غبار ، الى أن يوقفنى من تلقاء نفسه قائلاً : « كفى كفى يا أركادى ، هذا كافى ! » • وكنت اذا عاد بعد خروج ، فنزع معطفه ، أخذ أنظف المعطف بالفرشاة ، وأطويه بعناية تامة ، وأعطيه بغطاء من حرير ذى مربعات • كنت أعرف أن رفاقى يسخرون منى ويحتقروننى ، كنت أعرف هذا حق المعرفة ، ولكن ذلك بعينه هو ما كان

يرضيني ، فكأننى أقول لهم : « أردتم لى أن أكون خادماً ، فاظفروا كيف
أنتى خادم . ما دمت خادماً فلاأكن خادماً تماماً ! » . وقد احتفظت بهذا
الكره السلبي وهذا الحقد الخفى سنين طويلة . وعند تسرشتشيكوف ، حين
صرخت قائلاً لجميع من فى الصالة وقد ثارت ثائرتى وخرجت عن طورى :
« سوف أنتى بكم جميعاً ، فالروليت تحظرها الشرطة » ، فبينما ان عاطفة
من هذا النوع هى التى كانت تحركنى : لقد أذلونى وبشونى ووصفونى
على رموس الأشهاد بأننى لص ، أى قتلونى قتلاً ، فكأننى رددت على
ذلك قائلاً : « طيب .. اعلموا جميعاً أنكم عرفتمونى على حقيقتى ، اعلموا
أنتى لست لصاً فحسب ، بل أنتى أيضاً. واش ! » . حين أتذكر اليوم
ما حدث ، فأننى أفسره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص . ولكن الأمر
حينذاك لم يكن أمر تحليل ، فأطلقت صرختى تلك بغير نية ، وقبل ذلك
بثانية واحدة كنت أجهل أنتى سأطلقها . لقد خرجت الصرخة من تلقاء
نفسها ، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التى أنصف بها كانت قائمة فى
نفسى .

لاشك أن هدياننى كان قد بدأ حين أخذت أركض ، ولكننى أتذكر
تذكراً واضحاً كل الوضوح أنتى كنت أتصرف داعياً . كل ما هنالك -
وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً - أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات
كان موصداً دونى : فحتى فى ذلك الوقت كنت أشعر بينى وبين نفسى أن
« ثمة أفكاراً يمكن أن توافينى ، وأن ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عنى
اطلاقاً » . وكذلك كانت بعض قراراتنى ، فهى وإن اتخذت بوعى واضح
وشعور كامل ، كان يمكن أن تخلو حينذاك من أى منطق داخلى . بل
أكثر من ذلك أنتى أتذكر تذكراً واضحاً أن قراراً من قراراتنى كان
يمكننى فى بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحالة ثم أشرع مع ذلك
فى تنفيذه على الفور واعباً كل الوعى . نعم ، لقد كانت الجريمة

تربص بى فى تلك الليلة ، ولئن لم أرتكب جريمة فان الفضل فى ذلك يرجع الى الصدفة وحدها .

وفجأة وافتنى الكلمة التى قالتها تاتيانا بافلوفنا عن فرسيلوف :
 « ليذهب الى خط نيقولا فيضع رأسه على السكة الحديدية ، فينفصل رأسه عن جسمه على نحو مناسب » . وسيطرت هذه الفكرة لحظة على جميع مشاعرى ، ولكننى لم أثبت أن طردتها من ذهنى على الفور متأماً ، اذ قلت لنفسى : « أضع رأسى على السكة الحديدية وأموت ؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً : هو السارق اذن ، شعر بالحزى والعار فانتحر . لا ، لن أفعل هذا أبداً ! » . وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت فى قلبى فى تلك اللحظة . قلت : « ماذا ؟ يستحيل على بعد اليوم أن أبرئ نفسى ، يستحيل على أن أبدأ حياة جديدة . فيجب اذن أن أخضع ، يجب أن أجعل نفسى خادماً ، يجب أن أكون كلباً ، أن أكون ذبابة ، أن أكون واشياً ، أن أكون الآن واشياً بالفعل ، وفى أثناء ذلك أستعد بهدوء ورفق ، حتى اذا آن الأوان فى ذات يوم دمرت كل شئ ، أبدت كل شئ ، أفنيت العالم كله ، المجرمين فيه والأبرياء . وسيعلم الناس جميعاً حينذاك ، على حين فجأة ، أن الذى فعل ذلك انما هو الرجل الذى اتهموه بأنه لص ، ومعدئذ انما انتحر » .

لا أذكر الآن كيف أفضى بى السير الى زقاق صغير قريب من شارع « الفرسان الحرس » . ان هذا الزقاق تحفه فى الجانبين ، على طول مائة متر تقريباً ، جدران عالية هى حواجز تحجب وراءها أبنية منازل . وأبصرت خلف أحد هذه الجدران ، على اليسار ، كومة كبيرة من حطب ، كومة عالية جداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين . فوقفت فجأة وأخذت أفكر . كان فى جيبى أعواد كبريت من شمع ، محفوظة فى علبة من فضة . أكرر مرة أخرى أننى كنت عندئذ أعى وعياً واضحاً

ما أفكر فيه وما أريد أن أعمله ، ومازلت أذكر هذا الى اليوم ، ولكن لو سألتني لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البتة . كل ما أتذكره هو أن هذه الرغبة قد استبدت بى وملكت على مشاعرى فجأة . قلت لنفسى : « ان تسلق الجدار ممكن جداً » . لقد كان هناك ، على بعد خطوتين ، باب كبير لاشك أنه مغلق منذ أشهر طويلة . وتابعت تفكيرى قائلاً لنفسى : « اذا وضعت قدمى على حرف أسفله ، كان فى امكانى أن أتشبث بأعلاه ، فأتسلق الجدار ، ولن يرى أحد شيئاً . لا أحد سيرا شيئاً ! صمت كامل ! وهناك فى أعلى الجدار ، سأستقر مرتاحاً ، فأشعل النار فى الحطب . هذا سهل ، حتى بدون أن أنزل الى الفناء ، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار . وبسبب البرد ستسرى النار فى الحطب سريعة . ليس علىّ الا أن أسحب يدي حطبة سندر . . بل لماذا الحطبة ؟ أستطيع رأساً ، وأنا جالس على الجدار ، أن أتزع يدي قليلاً من القش ، فأشعله بلهب الكبريت ، أشعله ثم أدسه فى وسط الحطب ، فيشب الحريق . وأنب أنا الى أسفل الجدار وأنصرف . ولا داعى حتى الى الركض ، لأن الحريق لن يلاحظه أحد الا بعد مدة أدركت هذا كله فى رأسى ، ثم عزمتم أمرى تماماً على حين فجأة . وشعرت بلذة قصوى ، بلذة قصوى وتسلفت . كنت أجيد التسلق اجادة عظيمة : اننى منذ كنت فى اللبسيه كنت متفوقاً فى الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً . ولكننى كنت أتعل حذاءين من كاوتشوك ، فكان ذلك عقبة . ومع ذلك استطعت أن أمسك باحدى يديّ حافة لا يكاد يرى بروزها ، وأن أصعد . وهممت أن أقذف يدي الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار ، فإذا بقدمى تنزلق فأسقط منقلباً . أظن أن رقبتي اصطدمت بالأرض . ولاشك أننى بقيت مفضياً علىّ مدة دقيقة أو دقيقتين . فلما أفقت من غيوبتى ، عقدت أزرار معطفى بغير شعور ، لأننى أحسست ببرد لا يحتمل ، وجررت نفسى جراً الى حيث

الباب الكبير ، فلطوت هناك وأنا لا أعنى ما أفعل وعياً واضحاً ، وتجمعت
على نفسى فى تجويف بين الباب وتواء الجدار • كانت الأفكار فى ذهنى
مضطربة ، وأغلب الظن أنتى سرعان ما غفوت • انتى أذكر الآن ،
كما لو كنت فى حلم ، أن صوت نواقيس ، عميقاً ثقيلاً ، قد ترجّع فى
أذنىّ فجأة ، وأنتى أصغيت الى ذلك الصوت متلذذاً •

كان النافوس یرن مرةً كلّ ثانيتين ، بل كل ثلاث ثوان ، ولكن صوته ليس صوت نافوس الخطر ، بل هو صوت ممتع بهيج عريض ، ولم ألبث أن ميزته فجأةً : انه نافوس كنيسة القديس يقولوا ، الكنيسة الحمراء التي تقع في مواجهة منزل توشار ! - هي كنيسة موسكوبية قديمة ، ذكرها في خيالي واضحة ، شيدت في عهد ألكسي ميخائيلوفتش ، بمسئلتها وقبابها الكثيرة وأعمدتها . وقد انتهى أسبوع الفصح منذ برهة قصيرة ، وعلى أشجار السندر النحيلة في حديقة آل توشار ، أخذت تهتز الأوراق الخضراء الجديدة منذ الآن . والشمس المتألقة عند الأصيل تسكب أشعتها المائلة في صفنا بالمدرسة ، وأنا في غرفتي الصغيرة التي تقع على اليسار ، والتي أقصاني إليها توشار بعيداً عن « أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ » ، عندى زائرة . نعم ، أنا الولد الذي لا يُعرف له منبت ، عندى زائرة ، أتنى أول مرة منذ أن أودعت في مدرسة توشار . ولقد تعرفتها منذ دخلت : انها أمى . تعرفتها رغم اننى منذ العهد الذى كانت تقودنى فيه الى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس ، وهى الكنيسة التى كانت الحمامة تجتاز قبتها ، لم أرها مرةً واحدة . نحن الآن جالسان معاً . وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً . ولقد عرفت فيما بعد ، عرفت بعد سنين كثيرة ، أنها فى ذلك الحين ، وقد بقيت وحيدة اذ تركها فرسيلوف وسافر الى الخارج فجأةً ، جاءت الى موسكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها ، مستعينةً على ذلك بما تملك من مال زهيد ، كاتمة

امر سفرها تقريبا عن اولئك الذين عهد بها اليهم ، وذلك كله من أجل أن ترانى لا أكثر . شئ غريب أيضاً : انها حين دخلت قد تحدثت الى توشار ، أما أنا فلم تقل لى انها أمى . هى الآن هنا على مقربة منى ، وانى لأذكر أنني قد أدهشنى أن أراها لا تتكلم الا قليلاً جداً . وهامى ذى تفض صرّة كانت تحملها : ان فى الصرة ست برتقالات ، وبضعة أقراص من الحلوى ، ورغيفين من خبز أبيض . وقد سسأنى الخبز ، فأجبت أمى متجهمة الهيئة بأننا نطعم هنا أحسن الطعام ، وأنا نعطي كل يوم مع الشاي رغيفاً كاملاً . فقلت لى أمى :

- لا بأس يا عزيزى ، لقد قلت لنفسى بسداجة : « لعلمهم فى هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة » . لا تؤاخذنى يا حبيبى .

قلت :

- وسوف يُجرح شعور أنطونين فاسيلينا (زوجة توشار) ، وسوف يسخر رفاقى منى ***
- ألا تريده اذن ؟ قد تأكله مع ذلك !
- اتركيه ، اذا شئت .

ولم أُمسس الهدايا . فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة أمامى ، وبقيت أنا جالساً خافضاً عيني ، ولكن على وقار . من يدري ؟ لعلنى كنت أتمنى ألا أخفى عنها أن زيارتها تُخجلنى أمام رفاقى ، وأن أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم ، كأن أقول لها : « انك تخجليننى ولا تدركين ذلك من تلقاء نفسك » . نعم ، أقول لها ذلك أنا الذى فى تلك اللحظة ذاتها كنت أجري وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفض عن ثيابه أقل غبار ! وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التى سيصبها على الصبية الآخرون متى انصرفت ، وقد يصبها على توشار نفسه ، فلم يهتز قلبى بأية عاطفة طيبة نحو أمى . كنت أنظر شزراً الى فستانها القاتم العتيق ، والى يديها

الغليظتين اللتين تشبهان يدي نغالة ، وإلى حذاءيهما الثقيلين ، وإلى وجهها الذي نحل نحولاً شديداً . ان جبينها قد اتخذ منذ الآن بفضون صغيرة ، مع أن آنطونين فاسيلينا قالت لي بعد ذلك في المساء ، بعد انصرافها : « لابد أن أمك كانت في الماضي جميلة جداً » .

وفيما كنا على هذه الحال اذا بأجاثي تدخل علينا بصينية فوقها فنجان مهوة . الوقت بعد الظهر . وآل توشار ، في هذه الساعة ، يحسنون القهوة دائماً عندهم في الصالون . ولكن ماما شكرت ولم تتناول الفنجان . وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً ، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً في القلب . وآل توشار ، في قرارة أنفسهم ، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتهم هو منتهى التسامح والكرم منهم ، وأن فنجان القهوة الذي أرسلوه إليها هو ذروة الانسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأفكارهم الأوروبية . ولكن أمي رفضت القهوة بمصادفة تشبه أن تكون عمداً .

ونوديت الى عند توشار . فطلب مني أن آخذ جميع دفاتري وجميع كتبتي وأن أظهر عليها أمي « لترى مدى ما أجنبي من فائدة في مدرسته » . وانبرت آنطونين فاسيلينا عندئذ فقالت لي بلهجة ساخرة وهي تزم شفيتها : — أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك .

وجمعت دفاتري لأحملها الى أمي التي كانت تنتظر . ومررت أمام « أبناء الكوتات وأعضاء مجلس الشيوخ » الذين احتشدوا في الصف وأخذوا يرقبونا كلينا . وسرّني أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً . فكنيت أفتح دفاتري فتحاً منظماً ، وأخذ أشرح لأمي قائلاً : « هذه دروس قواعد اللغة الفرنسية . وهنا نصوص الاملاء . وهذا تصريح الفعلين المساعدتين ، فعل avoir وفعل être ، وهنا الجغرافيا ، وصف المدن

الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم ، الخ ، . ظلت نصف ساعة أو أكثر أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيّ كما يفعل ولد أحسن تأديبه . وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب شيئاً ، وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وهذا هو السبب في أن الدور الذي قمت به أعجبني . ومع ذلك لم أفلح في أن أتعبها ، فكانت تصني إلى دون أن تقاطعني ، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع ، حتى اعتراني أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي . وكانت نظرتها حزينة ، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة .

ونهضت أخيراً لتصرف . فاذا بتوشار يدخل بنفسه بقتة ، ويسألها بوقار مصطنع غبي هل هي راضية عن النجاح الذي حققه ابنها . فأخذت أمي تتمتم معبرةً عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة . ثم دخلت آنطونين فاسيلينا . فرجتهما أمي ألا يتركا اليتيم ، « لأنه الآن في حكم اليتيم ، فاستمرا في احسانكما اليه ونعمكما عليه . . » . وحيتهما مغرورة العنينين بالدموع ، حيث كلا منهما على حدة ، بانحناء شديد ، كما يفعل العامة من أبناء « الشعب » حين يجيئون الى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً . وكان توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله ، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك ليناً واضحاً ، ولاشك أنها سرعان ما غيرت رأيها فيما يتعلق بفنجان القهوة . وازداد توشار اصطناعاً للوقار ، وأجاب قائلاً بلهجة انسانية « انه لا يفرّق بين الأولاد ، وانهم هنا جميعاً أولاده ، وانه هنا أبوهم كافة ، واني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكونتات وأبناء أعضاء مجلس الشيوخ ، وان هذا شيء يجب أن يقدر حق قدره ، ، الخ ، الخ . فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار . وتفاقم اضطرابها ، فالتفت إلى والدموع تلتصع في عينيها وقالت : « استودعك الله يا بني » .

وقبّلتني بل قل انني سمحت لها أن تقبّلتني . وكان واضحاً

أنها ودَّت لو تَبَلَّتني مزيداً من التَّقبيل ، وأن تعانقني وأن تحضنني وأن
تشدني إليها ، ولكنها أمسكت عن ذلك إما لأنها استحت من الحضور ،
وإما لأنها شعرت بحزن ، وإما لأنها أدركت أنني أشعر بخجل ، فهامى
ذئ تحبى توشار وامراته تحية أخيرة ، وتسرع متجهةً الى باب الخروج .
وبقيت أنا مسمراً في مكاني .

قالت آنطونين فاسيليفنا :

— « هلاًّ تبعت أمك ! ان هذا الولد لا قلب له ! » .

ورفع توشار منكبيه ، كأنه يقول لها : « ليس عبناً أنني أعامله كما
يعامل خادم » .

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا ، فنزلت وراء أمي ، وخرجنا الى
درج الباب . وكنت أعلم أن الآخرين ينظرون إلينا الآن من النافذة .
والتفتت أمي الى الكنيسة ، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع ،
وكانت شفتاها تحتلجان . ورنَّ جرس جهر في أعلى برج الناقوس رنات
قوية منتظمة . فالتفتت أمي الىّ ، ثم لم تطق صبراً فأذا هي تضع يديها
على رأسي وتجهش باكياً بكاء غزيراً .

— كفى ياماما ، هذا يخرجنى . . . انهم يروننا من النافذة . . .

فارتدت أمي الى وراء ، وأسرعت تريد الانصراف وقالت :

— طيب ! .. الرب .. الرب معك ! .. ملائكة السماء تحرسك ،
ومريم العذراء والقديس نيقولا . . .

وظلت تردد بسرعة ، وهي لا تزال ترسم إشارة الصليب ،
وتحاول أن تضع علىّ مزيداً من الصلبان بمزيد من السرعة :

- الرب .. الرب .. حبيبي .. عزيزي .. ولكن انتظر قليلاً ...

وأسرعت تدس يدها في جيبها فتستل منها منديلاً .. منديلاً أزرق ذا مربعات قد عقد في طرفه عقداً قوياً .. وأخذت تحاول حلّ العقدة .. ولكنها لم تفلح ، فقالت :

- طيب .. لا بأس .. خذ المنديل أيضاً .. انه نظيف كل النظافة .. قد تستعمله .. ان في العقدة أربعة نقود كبيرة فيما أظن ، فسي أن تنتفع بها في شيء .. لا تحقد علىّ يا بنى ، ليس معي أكثر من ذلك .. لا تزعل مني يا حبيبي ..

أخذت المنديل .. وقد أردت أن أنبّسها الى « أن مسيو توشار وآنطوين فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة ، وأننا لا يعوزنا شيء » ، ولكنني أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل ..

ورسّمت علىّ إشارة الصليب مرةً أخرى ، وتمتمت أيضاً بدعاء لا أدري ما هو ، ثم اذا هي تحييني بانحناءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجأة ، تماماً كما حيّت توشار وامراته فوق .. لن أنسى هذه التحية ما حييت ! لقد ارتعشت من قمة رأسي الى أخمص قدمي ، لا أدري أنا نفسي لماذا ! ماذا قصدت من هذه التحية ؟ أكانت « تعترف بخطيئتها أمامي » كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد ؟ لا أدري .. ولكنني شعرت حينذاك بمزيد من الحجل والحزى ، « لأنهم كانوا هناك في أعلى ينظرون ، وقد يضربني لامير بعد قليل » ..

وانصرفت أخيراً ..

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهمها أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود ، وسرعان ما انتزع مني لامير النقود

الأربعة الكبيرة • فاشترؤا بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوه من عند بائع الحلوى ، ولم يذيقونى شيئاً مما اشترؤا •

انقضت ستة أشهر • نحن الان فى سهر تشرين الاول (أكتوبر) • رياح وأمطار • نسيت أُمى نسياناً تاماً • والكراه والكراه الأسود العميق لكل شيء ، قد نفذ الى قلبى واستولى عليه استيلاء كاملاً • ومازلت أنفض الغبار عن ثياب توشار بالفرشاة ، لكننى أكرهه الآن بكل ما أملك من قوى ، ومازال كرهى يزداد شدة وتأججاً • وذات يوم ، فى ساعة الفسق الحزينة ، بينما كنت أبش علبتى ، اذا أنا أبصر المنديل الأزرق فى الركن الذى دسسته فيه منذ أعطيته أُمى • فأخرجته وأخذت أتأمله باهتمام • ان طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة ، بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة تفديده مستديرة • ولكننى لم ألبث أن أعدت المنديل الى مكانه وأغلقت العلبة • كان ذلك فى عشية عيد ، وقد أخذت الأجراس تقرر مؤذنة بقداس الليل • وكان التلاميذ قد ذهبوا الى أسرهم بعد الغداء ، ولكن لاميير قد بقى فى هذه المرة ، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه • انه لا يزال يضربنى كما كان يفعل من قبل ، ولكنه أصبح يروح لى بأشياء كثيرة ، وأصبح فى حاجة الى • لبثنا طوال السهرة نتكلم عن مسدسات لوباج التى لم يسبق لأحد منا أن رآها ، وعن السيوف الشركية ، وانتقل لاميير أخيراً الى حديثه المفضل ، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغى اليه رغم ما أشعر به من دهشة بينى وبين نفسى • ولكننى فى هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لا يطاق ، فقلت للاميير اننى أشعر بصداغ فى رأسى ، ومضينا الى النوم • فغمسرت رأسى بالغطاء ، واستلكت المنديل الأزرق من تحت المخدة : كنت قد عدت الى اخراجه من العلبة قبل ساعة ، فما ان رنَّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة • شددت المنديل الى وحيى وأخذت أقبله • وهمست أقول وقد استولت على ذكرى أُمى وانقبض

صدرى كأنه مضغوط بين فكي ملزمة : « ماما ، ماما » • وتراعى لى وجهها وأنا مغمض عينيّ ، تراعى لى بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها إشارة الصليب أمام الكنيسة ، ثم ترسم إشارة الصليب علىّ أنا ، فأقول لها : « انتى أشعر بخجل ، انهم يروننا » • وتابت هتافى لماما : « ماما ، ماما الحبيبة ، لقد جئت الىّ مرةً على الأقل •• أين أنت الآن يا زائرتى البعيدة ؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذى جئت تزورينه ؟ •• تعالى الىّ مرةً أخرى ، تعالى الىّ فى الحلم على الأقل ، لأقول لك اننى أحبك حباً عظيماً ، واننى أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزى ، واننى كنت أحبك فى ذلك الوقت أيضاً ، وان قلبى كان يتألم حين كنت أقبع هناك كخادم ! لن تستطيعى أبداً يا ماما أن تقدرى كم كنت أحبك حينذاك ! ماما الحبيبة ، أين أنت الآن ؟ هل تسمعينى ؟ ماما ، ماما ، هل تذكرين الحمامة ، فى الكنيسة ؟ ••• •

دمدم لاميير من قرارة سريريه يقول :

- شيطان يأخذه ! ماذا دهاه ؟ انتظر قليلاً ! انه يمنع الناس من النوم •••

وها هو ذا يشب عن سريريه أخيراً ، فيركض الى سريرى ، وينزع عني الغطاء ، ولكننى أتشبث بالغطاء تشبثاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتى به • - تبكى ؟ ماذا دهاك حتى أخذت تشن يا أبله ؟ خذ هذه لك !

قال ذلك وأخذ يكيل لى الكلمات على ظهري وعلى أضلاعى ، ويؤلمنى مزيداً من الايلام عند كل ضربة •• وفجأة فتحت عينيّ •••

النهار قد طلع تملأاً ؟ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار ••• وأنا جالس متجمع على نفسى نصف ميت ، متخدر فى معطفى • وهذا رجل يقف أمامى يحاول أن يوقظنى من نومى بشتائم مقدعة ، ويركلنى

على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى • فأنهض وأنظر : هو رجل يرتدى معطفاً ثميناً من جلد الدب ، ويدنر رأسه بقبعة من الفراء ، له عيشان سوداوان ، وأسنان بيض مسددة الى • انه أبيض اللون ، محمر الحدين ، يشبه وجهه أن يكون قناعاً • • • لقد مال على حتى كاد وجهه يلامس وجهي ، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد :

- لقد تجمدت من البرد يا سكير ، يا أبله ! لسوف تفتس هنا من التجلد كما يفتس كلب ا قم ا قم ا

صرخت أقول :

- لاميير •

- من أنت ؟

- دولجوروكي •

- أيُّ دولجوروكي ؟

- دولجوروكي فحسب ! • • ذلك الذي غرزت في فخذة شوكة • •

فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة ، ابتسامة من يتذكر :

- آ • • آ • • آ • • هذا أنت اذن ؟ أنت ؟

(أترأه نسيني ؟) •

وأنهضني ، وأوقفني على قدمي ، فكنت أترنح وأجد في الوقوف والحركة مشقة ، فقادني وهو يسندني بيده • كان ينظر في عيني كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم ، وكان ينصت الى كلامي بكل ما أوتي من قوة ؛ وكنت أنا أتمم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً ، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع ، وأشعر بسرور لأنني أتكلم ولأنه لاميير • لأنه بدا لي • خلاصاً ،

مما أنا فيه ، أم تراني ارتميت عليه ارتمائي على انسان من عالم آخر ؟
لا أدري . لم أكن في ذلك الوقت أفكر . لقد ارتميت عليه بغير تفكير .
ماذا قلت ؟ لا أتذكر البتة . ولا شك أن ما قلته كان مفككاً . بل لا شك
أن نطقي لم يكن واضحاً . ولكنه كان يصفى الى اصغاء شديداً . واستوقف
أول عربة مرت بنا ، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت في دفة غرفته .

ان كل انسان ، أياً كان ، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية
يعدّها أو يميل الى أن يعدّها غير مألوفة ، خارقة ، كأنها تنتمي الى عالم
الخيال ، كأنها معجزة من المعجزات ؛ وهذه الحادثة تكون حتماً رآه أو لقاء
وقع له ، أو نبوءة تنبأ بها ، أو احساساً سابقاً بأمر سيقع ، أو شيئاً من
هذا القيل . واني محمول حتى الآن الى اعتبار لقائي هذا بصاحبي لامير
مشتتلاً على شيء من ذلك ... على الأقل اذا نحن نظرنا الى ظروف هذا
اللقاء والى ما كان له من نتائج ضخمة . ولقد حدث هذا كله حدوثاً بسيطاً
غاية البساطة ، من أحد الجواب على الأقل : لقد كان لامير عائداً من
احدى مهماته الليلية (سنرى ماذا كانت تلك المهمة) ، وكان نصف
سكران ، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب ، أبصرنى . ولم يكن
قد انقضى على وجوده بطرسبرج الا بضعة أيام .

الغرفة التى نقلت اليها غرفة صغيرة ، أثاثها بسيط جداً ، مزودة
بما تزوّد به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية . أما لامير نفسه
فكان يرتدى ثياباً فاخرة باذخة . وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا
الا من نصف ما فيهما . وكان ركن من الغرفة محجوباً بحاجز يخفى
وراءه السرير .

صاح لامير منادياً :

- ألفونسين !

فأجاب من وراء الحاجز صوت نسوى مرتعش يقول بلغة فرنسية
باريسية اللهجة :

- نعم !

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين ، وما هي الا لحظة
حتى ظهرت « مدموازيل ألفونسين » بقميص النوم • انसानة عجيبة • طويلة
القامة نحيلة كعود يابس ، فتية ، سمراء ، طويلة الوجه ، عيناها
تنظنان ، وخداها خاسفان • مخلوقة بالية بلى رهيباً •

- أسرعى ! (أنا الآن أنرجم لأنه كلمها بالفرنسية) • لابد أن
عندهم سماءاً يميرونه • أسرعى • هاتى ماءً ساخناً وتبيذاً أحمر وسكرآ ،
وقدحاً ، وأسرعى ، فانه متجلد من البرد • هو صديقى وقد قضى الليل
فى الثلج •

فهتفت تقول بالفرنسية وهى تلوى يديها بحركة مسرحية :

- مسكين !

- هلمى ، هست ...

كذلك صرخ لاميير كأنه يكلم كلباً ، ولوَّح لها بأصبعه مهدداً •
فسرعان ما كفت عن حركاتها ، وركضت تنفذ ما أمرها به •

وأخذ لاميير يفحصنى ويمسنى ويجس نبضى ويلمس صدغى • ثم
جمعهم يقول : « غريب أنك لم تتجمد تجمداً تاماً ... ولكنك كنت
مدفوناً فى معطفك مع رأسك ، فكان لك معطفك كججر ... » •

ووصل كأس الماء المغلى ، فابتلعت بهشاشة ، فسرعان ما أنعشنى ،
وعدت أتمتم • كنت مضطجماً فى الركن على الديوان نصف اضطجاع ،
وكت أنكلم نشوان بالكلام ، ولكننى لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول ،

بل ان هناك صفحات من ثرثرتي قد امحت الان من ذاكرتي امحاء تاما •
 هل فهم من كلامي شيئا؟ لا أدري • ولكنني أدركت فيما بعد انه لابد أن
 يكون قد فهم على الاقل أن لقاءه هذا بي امر لا ينبغي له أن يهمله ، وأن
 الابقاء على علاقته بي يمكن أن يجلب منه منافع • وسأشرح فيما بعد ما لعله
 أجراه من حساب •

لم أتمتعش انتعاشاً قوياً فحسب ، بل أظن أنني كنت في بعض
 اللحظات مرحاً • انني أتذكر الشمس التي أضاءت الغرفة فجأة حين
 أزيحت الستائر ، وأتذكر المدفأة التي طقطقت نيرانها حين أشعلت •
 أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدري • وأتذكر الكلب الصغير
 الأسود الذي كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده الى قلبها
 بغنج ودلال • لقد سلاني هذا الكلب وأضحكني كثيراً ، حتى انني انقطعت
 عن الكلام ومددت اليه يدي مرتين ، ولكن لامير أوماً ايماءة فاذا
 بآلفونسين وكلبها يخفیان فوراً وراء الحاجز •

وكان لامير شديد الصمت ، وكان جالساً أمامي ينصت الى كلامي
 انصاتاً قوياً وقد مال على فلا يتعد عني • وكان يتسم في بعض الأحيان
 ابتسامة طويلة بطيئة ، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينه كمن يبذل جهداً
 من أجل أن يفهم وأن يحزر • أذكر أنني حين رويت له قصة
 « الوثيقة » لم أفلح في أن أعبر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة متسقة ،
 فكنت أرى في وجهي أنه لا يستطيع أن يفهم عني • حتى لقد جازف مرة
 فألقي سؤالاً ، وكان هذا شيئاً خطراً ، لأنني كنت أغير موضوع الحديث
 متى ألقى على سؤال ، وأتسى ما كنت بصدد الكلام عنه • كم قضينا من
 الوقت على هذه الحال مسترسلين في الحديث ؟ لا أدري ، وهاهو ذا ينهض
 فجأة وينادي آلفونسين فيقول لها :

— انه في حاجة الى هدوء • وقد محتاج الى استدعاء طبيب • افعل

كل ما يطلب ، أعنى ... » تفهمين يا بنيتى ؟ هل معك مال ؟ لا ؟
خذى اذن !

قال ذلك وأخرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات ، ثم همس
يقول لآلفونسين وهو يلوح لها باصبعه مهدداً ويقطب حاجبيه بقسوة :

– « هل تفهمين ؟ هل تفهمين ؟ » •

ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً • وأردف يقول :
– سأرجع •

ثم اتجه الى فقال لى مبتسماً :

– أما أنت فعليك أن تنام • هذا خير ما تفعله •

وتناول قبعته • فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية :

– « ولكنك لم تنم البتة يا موريس ! » •

فأجابها بقوله :

– « اسكتى ! سأنام فيما بعد » •

• وخرج •

همست تقول لى بنبرة التأثر وهى ترى ظهرها :

– 'أنقذت !

وسرعان ما أخذت تخطب قائلة وقد انتصبت فى وسط الغرفة
(بالفرنسية) :

– سيدي ، سيدي ، ما من رجل كهذا الرجل كان قاسياً هذه
القسوة كلها ، وكان بسماركاً الى هذا الحد ، فنظر الى المرأة نظرتة الى

فاذوره ، ما امرأة في عصرنا هذا ؟ « اقلها ! » هذه هي الكلمة الأخيرة التي قالتها اكاديمتنا الفرنسية !

حملت عيني . انتى أرى الشخص شخصين . انتى ارى ألفونسيتين اثنتين . لاحظت فجأة أنها تبكى . فارتعشت وأدركت أنها كانت تكلمنى منذ مدة طويلة وأنتى كنت اذن نائماً طوال ذلك الوقت ، أو كنت مغشياً على .

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية) :

- . . . « وا أسفاه يا سيدى ، فيم كان يمكن أن يفيدنى أن اكتشفه فى وقت مبكر . . . أفلم يكن من الخير لى أن أظل كلمة عارى طوال حياتى ؟ قد لا يشرّف فتاة أن تشرح ما يدور فى نفسها بمثل هذه الحرية أمامك يا سيدى ، ولكننى أعتز لك بأننى اذا سمح لى أن أريد شيئاً ، فسوف يكون هذا الشيء هو أن أغمد فى قلبه خنجرى ، ولكن على أن أشيع عنه بصرى ، مخافة أن أرى نظراته فترتعش ذراعى وتتجمد عزيمتى ! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسى يا سيدى ، وثقب لحيته الحمراء من أجل أن يبيعها لفنان عند « جسر المارشالات » بقرب متجر مسيو آندريو - أزياء راقية ، بضائع باريسية ، ملابس داخلية ، قمصان أنيفة ، تعرف يا سيدى ، أليس كذلك ؟ آه يا سيدى ، حين تضم الصداقة ، على مائدة واحدة ، زوجةً وأولاداً وأخوات وأصدقاء ، ويشتعل فى القلب فرح قوى . . . هل هناك يا سيدى سعادة أفضل من هذه السعادة التى بنعم بها جميع الناس ؟ ولكنه يضحك يا سيدى ، هذا الشيطان الكريه العجيب الذى لا يتصوره العقل . يمتأ يا سيدى ، لولا وساطة مسيو آندريو ، لما . . . آه . . . مستحيل ، لما كنت . . . ولكن ماذا يا سيدى ، ماذا بك ؟ ماذا بك يا سيدى ؟

كذلك هتفت تسألنى ، ثم اندفعت الى . . . لعلنى كنت أرتعد ، بل

لعلنى قد اغمى على • لا استطيع ان اصف الشعور انشاق الأليم الذى
 احدثته فى نفسى هذه المخلوقة نصف المجنونة • ولعلها تخيلت ان عليها
 أن تسلينى وتسرى عنى • المهم أنها لم تتركنى لحظة واحدة • ولعلها كانت
 تمثل فى الماضى • لقد كانت تنشد للامها اشداً ، وتدور على نفسها ،
 وتكلم بدون انقطاع ، على حين كنت قد صمت منذ مدة طويلة • كل
 ما استطعت أن أفهمه من أقوالها هو أنها كانت لها « علاقات وثيقة
 بمتجر مسيو آندريو - أزياء راقية ، بضائع باريسية ، الخ » ، وأنها
 لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو » ، ولكن « هذا الشيطان الحائق
 الذى لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو آندريو الى الأبد » ، وتلك
 هى مأساتها • • انها تشهق وتنتحب ، ولكن بدا لى أنها لا تفعل ذلك
 كله الا تقيداً بالشكل • وشعرت فى بعض اللحظات أنها توشك أن تهاوى
 متهشمة كهيكل من عظم • وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط ،
 فالألف الممدودة تخرج من حلقها كأنها نغاء شاة • وحين أفقت من غيوبتى
 رأيته تستدير فى وسط الغرفة على رجل واحدة ، ولكن دون أن
 ترقص ، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها • واندفعت
 فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن ، كان بالغرفة ، ففتحته وأخذت
 تنقر على أصابعه وتغنى • • • • • أظن أننى غبت عن وعيى عشر دقائق أو أكثر ،
 وأننى نمت ، ولكن الكلب الصغير نبج ففتحت عينى ، وعاد الى شعورى
 كاملاً فأضاءنى بنوره كله لحظةً ، فانتفضت مذعوراً ، وأنا أقول لنفسى :
 « لاميير ، اننى عند لاميير » ، وتناولت قبعتى وارتيمت على معطفى •

قالت لى آلفونسين اليقظة :

— « الى أين تذهب يا سبدي ؟ » •

فأجبته :

— أريد أن أنصرف ، اريد أن أذهب ، لا تمنعنى !

فقال آفوسين مؤيدةً بقوة وهي تندفع لتفتح لى باب الدهليز :

- نعم يا سيدى !

ثم هتفت نقول بصوت عالٍ حتى 'يسمع كلامها فى الدهليز كله :

- « ولكن المكان ليس بعيداً يا سيد ، فلا داعى الى ارتداء الفروة •
انه قريب يا سيدى ! » •

فلما خرجت من الغرفة ، انعطفت 'يمنه' • فصاحت آفوسين تقول
بشكل ما تملك من قوة وهي تتشبث بمعطفى بأصابعها الطويلة المروقة
وتدلى باليد الأخرى على مكان فى يسار المر لم أكن فى حاجة الى
الذهاب اليه البتة :

- « من هنا يا سيدى ، المكان من هنا ! » •

ولكننى أقلت منها وركضت الى باب الخروج نحو السلم • فأخذت
آفوسين تصرخ قائلة بصوت مكسّر وهي تركض ورائى :

- « انه ينصرف ! انه ينصرف ! ولكنه سيقتلنى يا سيدى ،
سيقتلنى ! » •

ولكننى صرت على السلم ، واستطعت أن أفتح الباب فى أسفل
رغم أنها كانت تلاحقنى على الدرجات ، ووثبت الى الشارع ، وسارعت
أرمنى فى أول عربة ، ذاكرًا للحوذى عنوان أمى ...

ولكن شعورى ما ان أضاء لحظةً حتى انطفأ . فلا أكاد أذكر الآن كيف 'نقلت الى بيت أمى ، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعى على الفور تقريباً . وفى الغد ، كما قيل لى هذا فيما بعد (واننى لأتذكر ذلك أنا نفسى على كل حال) أضاء عطفى مرةً أخرى لحظة . فرأيتنى فى غرفة فرسيلوف على ديوانه ، ورأيت حولى وجوه فرسيلوف و ماما و ليزا . واننى لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمنى فرسيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير ، وكيف أرانى رسالةً وحاول أن يهدئنى . وقد رروا لى فيما بعد أننى كنت لا أنفك ألقى أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لاميير ، ولا أنفك أسمع نباح كلب صغير . ولكن هذا الشجاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم ، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثانى كانت الحمى قد اجتاحتنى اجتياحاً تاماً . ولكننى أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أننى لم أستطع أن أعبها على الفور .

فى ذلك المساء الذى 'طردت فيه من عند تسرشتشيكوف ، وحين هدأ فى الصالة كل شىء ، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب ، أعلن فجأة بصوت مدور ، أن خطأ مؤسفاً قد وقع : فاللالم المفقود ، أى الأربعمائة روبل ، قد عثر عليه فى كومة أخرى من المال ، وأجريت حسابات البنك فأتضح أنها كاملة لم ينقص منها شىء . فاذا بالأمير ، وكان قد بقى فى الصالة ، اذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتى على رموس الأَشهاد ، وأن يعبرّ لى عدا ذلك عن اعتذاره كتابة . وراى

تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع ، وتمهد امام الجميع بان يبعث الى
فى الغد رسالة ايضاح واعتذار . وقد زدّوه الأمير بعنوان فرسيلوف منذ
الغد فعلاً ، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالة "موجهة" الى ،
ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل ، هو مالٌ لى نسيتة على مائدة
الروليت . كذلك اتهمت قضية تسرشتشيكوف . وقد أسهم هذا النبأ المفرح
فى ابلالى من المرض حين عاد الى شعورى .

أما الأمير فانه حين رجع من صلالة القمار قد كتب فى تلك الليلة
رسالتين ، احدهما الى والثانية الى الكتبية التى كان ينتمى اليها والتى
وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية سيبانوف . وقد بعث الرسالتين
ككتبيهما فى صباح الغد . وبعد الرسالتين كتب تقريراً الى رؤسائه ، وجاء
الى الكولونيل فى الصباح حاملاً تقريره بنفسه ، فأعلن للكولونيل أنه
« مجرم من مجرمى الحق العام ، وشريك فى جنائية تزيف أسهم ، فهو
لذلك يستلم نفسه للعدالة ، ويطلب بأن يحكم عليه القضاء » ، وفى
الوقت نفسه سلم التقرير الذى يعرض فيه كل شئ كتابةً ، فأودع
السجن .

واليكم نص الرسالة التى كتبها لى فى تلك الليلة كلمة كلمة :

عزيزى الغالى آر كادى ماكاروفتش !

« اننى ، وقد جربت المخرج « العالمى » ، قد فقدت الحق فى أن
أواسى نفسى أية مواساة بأننى استطعت أخيراً أن أعزم أمرى على القيام
بعمل شجاع وعادل . اننى مجرم فى حق الوطن وفى حق السلالة التى
أنحدر منها وأنتمى اليها، لذلك أعاقب نفسى بنفسى، أنا آخر أفراد هذه
السلالة . لست أفهم كيف أمكننى أن أتشبث بفرصة البقاء الدنيئة ، وأن

أفكر لحظةً في أن أفدى نفسي بمالٍ أدفعه لشركائي في الجريمة •
 فلو فعلت ذلك لبقيت في نظر نفسي مجرمًا رغم كل شيء • ولو رددت إلى
 أولئك الناس رسائلي لظلمت قلوباً طوال حياتي ، فلا راحة ! ماذا يبقى لي
 لو فعلت ذلك ؟ أعيش معهم ، وأرافقهم طوال عمري : ذلك هو المصير
 الذي كان ينتظرني ! فما كان لي أن أرضى بهذا • وأخيراً وجدت في نفسي
 من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لي أن أفعل ما أفعله الآن •

« لقد كتبت إلى كتييتي السابقة ورفاقي القدامى مبرئاً ستيانوف •
 وليس في هذا أي مائدة تكفر عن ذنبي ، ولا يمكن أن يكون فيه أي
 مائدة تكفر عن ذنبي : وإنما هي وصية رجل سيموت غداً • هكذا يجب
 أن يفهم عملي » •

« اغفر لي أنني أشحت عنك في صالة القمار • ذلك أنني لم أكن
 في ذلك الوقت واثقاً بك • الآن وأنا رجل ميت ، أستطيع أن أدلي بهذه
 الاعترافات ... من العالم الآخر » •

« مسكينة ليزا ! إنها لم تعرف شيئاً عن هذا القرار • فقل لها
 ألا تلعنني ، بل أن تفكر • أنني لا أستطيع أن أبرئ نفسي ، ولا أجد
 كلمات أشرح لها بها أي شيء • واعلم أيضاً ، يا أركادي ماكاروفتش ،
 أنني في صباح أمس ، حين جاءت تزودني آخر مرة ، كشفت لها عن
 خداعي ، فاعترفت بأنني ذهبت إلى آنا أندريفنا خاطباً • لم أستطع أن
 أبقي هذا السرّ حملاً ثقيلاً على ضميري قبل قراري الأخير الذي كنت
 قد اتخذته ، فلم يسعني إلا أن أكشف لها عنه حين رأيت حبها • وقد

غفرت لي ، غفرت لي كل شيء ، لكنني لم أصدقها • ليس هذا منها
غفراناً • فلو كنت في مكانها لما غفرت •

• تذكرني •

صديقك الأمير الأخير التمس

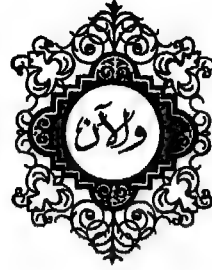
سوكولسكي

وقد بقيت في سريري بلا شعور تسعة أيام تماماً •

الجزء الثالث

الفصل الأول

١



فلنتكلم عن غير هذا تماماً •
 الحق أننى أقول دائماً « فلنتكلم عن غير هذا » ،
 ثم اذا أنا أعود الى الكلام عن نفسى • كنت قد
 أعلنت مع ذلك ألف مرة أننى لا أنتوى أبداً أن
 أحكى عن نفسى ، وكنت قد عزمت أمرى على ذلك جازماً حين بدأت
 تدوين هذه الأمور : اننى أدرك حق الادراك أن ما يحدث لى لا يهم
 القارىء فى شيء • فأنا أصف غيرى وأريد أن أصف غيرى ، فاذا كان
 شخصى يعود فيندس تحت قلعى دائماً ، فليس ذلك الا خطأ يؤسف عليه ،
 ويستحيل الافلات منه رغم كل ما أملك من ارادة ورغبة • ومما يحز فى
 نفسى خاصة أننى حين أروى أحداث حياتى بمثل هذه الحرارة المتأججة
 كلها أوهم القارىء بذلك أننى لا أزال الآن كما كنت فى ذلك الوقت •
 ولكن القارىء يتذكر على كل حال أننى هتفت أقول غير مرة : « آه ... »
 ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضى وأن يبدأ كل شيء بداية جديدة ! ،
 فما كان لى أن أهتف ذلك الهتاف لولا أننى قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً ،
 ولولا أننى أصبحت شخصاً آخر يختلف عن الشخص الأول كل
 الاختلاف • ذلك واضح وضوحاً قوياً • ولكن ليت القارىء يستطيع أن
 يتصور مدى ما أشعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه الاعتذارات
 وهذه المقدمات التى أضطر أن أدسها كل لحظة فى وسط هذه الصفحات
 التى أدونها •

ولا تتقل من بعد الى الوقائع •

أفقت من غيبوتي بعد تسعة أيام ، أفقت وقد 'بعثت بعثاً جديداً ، ولكننى لم أصلح • وكان انبعائى حيوانياً على كل حال ، اذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع ، ولعل الأمر لو تمّ الآن لجرى مجرى آخر • وكانت فكرتى أو عاطفتى لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصب على ضرورة أن « أتركهم » كلهم تركاً تاماً ، تركاً حاسماً مطلقاً ، لا كما حدث من قبل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أفصح فى تنفيذه أبداً • يمينا لم أكن أريد أن أنتقم من أحد ، رغم أننى كنت اشتكى منهم جميعاً • وكنت أهيم نفسى للرجل دون اشمئزاز ، ودون لحن ، وانما أنا أريد أن تكون لى قوتى الشخصية ، قوتى الحقيقية فى هذه المرة ، قوتى المستقلة « عنهم » جميعاً وعن العالم بأسره ! اننى لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كاحساس عارم لا يغالب سيطر علىّ فى ذلك الوقت • وكنت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم فى كلام ما بقيت راقداً فى السرير • كنت أحس وأنا مريض خائر القوى راقداً فى غرفة فرسيلوف مهجور « منهم » جميعاً ، كنت أحس مدى ما هويت اليه من عجز ، فيؤلمنى ذلك ايلاًماً شديداً : كنت قشّة ملقاة على سرير ، لا انساناً ! ولم يكن المرض وحده سبب ذلك ، فما أشد ما أورتنيه هذا من عذاب ! هكذا أخذ يصعد من أعماق كيانى احتجاج قوى ، فكنت أخفق فى قرارة نفسى نوعاً من وقاحة مغالبة وتحدٍ شديد • لا أذكر أن عهداً من عهود حياتى قد حفل بمشاعر الاستعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتى ، أعنى الفترة التى كانت فيها القشة ملقاة على السرير •

ولكننى كنت بانتظار تحقيق حلمى ألترم الصمت ، حتى لقد قررت ألا أفكر فى شيء ! كنت أسبر وجوههم محاولاً أن أحزر فيها كل ما كنت فى حاجة اليه • وكان واضحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن

يسألونى ، ولا ان يظهروا بمظهر المستطلعين ، وانما هم يكلمونى فى أمور ليست بذات بال • فكان هذا يرضينى ويحزننى فى أن واحد • ولن أحلل هذا التناقض • وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما ، رغم أنها تحبى الى كل يوم ، وربما جاءت فى اليوم مرتين • وقد استخرجت من شذرات من أحاديثهم ومن هيشهم كلها أن ليزا هموماً ومتاعب كثيرة ، وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جداً بسبب مشاغلها ، فكان مجرد تفكيرى فى أن لها « مشاغل » خاصة بها يجرح شعورى ويؤذى نفسى • ولكن هذه الاحساسات كانت احساسات مرضية على كل حال ، احساسات فزيولوجية صرفاً ، فلا داعى الى وصفها • وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تحبى الى كل يوم تقريباً ؛ ولئن لم تكن تعاملنى برقة ولطف ، فانها لم تكن تشتمنى كما كانت تفعل من قبل ، وهذا أمر أعاظنى كثيراً ، حتى لقد عبرت لها عن غيظى بسذاجة فقلت لها : « أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملة مضجرة اذا لم تعطنى بشئاً ! » فاذا هى تحببى بلهجة قاطعة : « لن أجىء اليك اذن ! » • وانصرفت • فسررتنى أنا أنى طردت واحدة على الأقل •

ولكننى كنت أعذب أُمى خاصة • كانت أُمى هى التى تحفنى أكثر من غيرها • كانت قد استبدت بى شهوة الطعام استبداداً قوياً ، فكنت أنذر تدمراً شديداً من أن وجبتى تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث فى يوم من الأيام) • وكانت أُمى تتفنن فى تخيل ما يرضينى • وقد جاءتى مرة بالحساء ، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتها ، فكنت أنذر وأنا ألتهمه • وفجأة خجلت من تدمرى وقلت لنفسى : « ربما كانت هى الوحيدة التى أحبها ، ومع ذلك فهى التى أسومها سوء العذاب » • ولكن فظاظتى لم تهدأ ، ثم اذا بهذه الفظاظلة تتحول الى بكاء فجأة • فظنت المسكينة اننى أبكى حناناً ورقة ، فمالت على وطفقت تقبلنى • فصبرت ، وتركت

للزوبعة أن تنقضى ، ولكننى فى تلك اللحظة قد كرهت أمتى فى الواقع •
والحق أننى قد أحيتها دائماً ، وحتى فى تلك اللحظة كنت أحبها ، فليس
صحيحاً أننى كرهتها ، وإنما حدث عندئذ ما يحدث دائماً : ان الذى
نحبه أكثر من غيره نعبه قبل غيره •

والشخص الذى كنت أبغضه حقاً فى تلك الأيام الأولى انما هو
الطبيب • كان هذا الطبيب شاباً متعجرف الهيئة ، شرس اللهجة ، بل
قليل التهذيب • ان أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق فى
العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب ، ولا يكون الأمس القريب
قد شهد شيئاً ذا بال • ولكن هذا شأن « التافهين » و « العامين » • وقد
صبرت عليه طويلاً ولكننى انفجرت أخيراً على حين بئسة ، فأعلنت له
أمام جميع من فى الدار أنه يزعم نفسه فى غير طائل ، واننى سأشفى بدون
أن يكلف نفسه عناء مداوائى ، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه
واقعى، محشو العقل بالأوهام، وأنه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف
أحداً من مرضى فى يوم من الأيام ، وأنه فى أغلب الظن جاهل جهلاً
فاحشاً ، « كسائر اختصاصى هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً » •
وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته) ، ولكنه ظل
يمودنى • وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أننى ، اذا لم ينقطع الطبيب عن
زيارتى ، فلأقولن له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة أضعاف •
فأجبنى ان قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل ، فما بالك بكلام
أغلظ عشرة أضعاف ! فسررتنى ملاحظة فرسيلوف هذه •

يا له من انسان على كل حال ! أقصد فرسيلوف • لقد كان وحده
سبب كل شئ • ومع ذلك كان الوحيد الذى لم أغضب منه • وليس
معاملته وحدها هى التى فتنتى ، وإنما كان كل منا يحسن أن عليه ايضاحات
يجب أن يقدمها لصاحبه ، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضع أحد لأحد

شيئاً قط . انه لشيء ممتع فى ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً ! سبق أن قلت ، فى الجزء الثانى من روايتى ، مستبقاً الأمور ، ان فرسيلوف كلمنى بايجاز شديد عن رسالة بعثها الى الأمير المعتقل ، وعن سرشتشيكوف واعتذاره لى ، النخ . واذ أننى كنت قد أزعمت الصمت ، فقد ألقيت عليه ، بأشد ايجاز ممكن ، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة ، فأجاب عنها اجابات واضحة دقيقة ، ولكن دون أن تشتمل اجاباته على كلمات زائدة ، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة ، وهذا أعلى قيمة أيضاً . ان العواطف الزائدة هى ما كنت أخشاه فى ذلك الحين .

ولست أقول شيئاً عن لامير ، ولكن لاشك أن القارىء قد حزر أننى كنت أفكر فيه كثيراً . لقد تكلمت عن لامير أثناء الهذيان مراراً . ولكن حين أفقت من غيبتى ، وألقيت بضع نظرات حولى ، فأننى سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامير لا تزال سراً ، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً ، حتى فرسيلوف . فاشتبطت لهذا وانقضى خوفى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين علمت فيما بعد أننى كنت مخطئاً فى اعتقادى : لقد جاء لامير أثناء مرضى ، غير أن فرسيلوف لم يحدثنى عن معيجه بشيء ، فاستنتجت من ذلك أننى الآن فى نظر لامير قد انتقلت الى العالم الآخر . ومع ذلك كنت أفكر فيه فى كثير من الأحيان ، أفكر فيه بغير اشمزاز منه ، بل أفكر فيه بمودة له ، كأننى أحس فيه شيئاً جديداً يلبي ما أخذ ينشأ فى نفسى من مشاعر جديدة وخطط جديدة . الخلاصة أننى قررت أن أفكر فى لامير قبل أن أفكر فى أى شيء آخر متى عقدت العزم على الشروع فى التفكير . شيء غريب : لقد نسيت نسياناً تاماً أين يسكن ، وفى أى شارع جرى كل الذى جرى . كنت أتذكر كل شيء : الغرفة ، آلفونسين ، الكلب الصغير ، الدهليز ؛ حتى لقد كان يمكننى أن أرسم هذا كله لو شئت . ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها ؟ فى أى شارع ؟

فى أية عمارة ؟ لا أدرى ! نسيت نسياناً تاماً • والأغرب من هذا اننى
لم أدرك ذلك الا فى اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعورى الى ، أى
بعد انقضاء مدة طويلة على شعورى بالقلق من لامبير •

تكلم هى اذن احساساتى الأولى بعد انبعائى ، لم أذكر منها الا أكثرها
سطحية ، ولعلنى لم أستطع أن أذكر منها الشئ الأساسى • والحق أن الشئ
الأساسى لعله تحدد وتبلور فى قلبى فى ذلك الأوان نفسه ؛ اننى لم أقص
وقتى كله فى الغضب والحنق من تأخر وصول حسائى • آه • • اننى
لأتذكر كم كنت حزينا ، وكم كان يستبد بى السأم أحيانا ، ولا سيما حين
أبقى وحيداً خلال مدة طويلة • كانوا قد لاحظوا ، هم ، أننى أضيق
ذرعاً بهم وبشفقتهم ، فكانوا يتركوننى وحيداً فترات ما تنفك تزداد :
افراط فى الذوق !

٢

في اليوم الرابع من صحوى الكامل ، كنت راقداً على سريري في نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يكن معي أحد . كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات ، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سيسقط على زاوية جداري ، فيضيئها بقعة متوهجة . كنت أعلم هذا من الأيام السابقة ، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً ، فكان يقيني من ذلك يستخطني الى حد الحلق الشديد . ولذلك رأيتني أنقلب الى الجهة الأخرى بحركة متشنجة ، فاذا أنا فجأةً ، في الصمت العميق ، أسمع هذه الكلمات سماعاً واضحاً : « يا ربنا يسوع المسيح ، يا الهنا ، ارحمنا » ، نطقت هذه الكلمات بما يشبه الهمس ، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة ، ثم عاد كل شيء الى الصمت . فأنهضت رأسي بسرعة .

وكنْتُ فبِئْسَ ذلك ، أمس ، بل أمس الأول ، قد لاحظت أن في غرفنا الثلاث ، تحت ، شيئاً خاصاً . فلا بد أن الغرفة الصغيرة التي كانت تقيم فيها ماما وليزا ، على الجهة الأخرى من الصالة الكبيرة ، تضم الآن شخصاً آخر . وكنت قد سمعت بعض الأصوات عدة مرات ، في النهار وفي الليل ، ولكن خلال لحظات قصار دائماً ، فسرعان ما كان الصمت يخيم من جديد ساعات عدة ، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتبهت اليه . وخطر ببالي أمس أن فرسيلوف هو الذي أحدث تلك الأصوات ، لا سيما وأنه جاء الى بعد لحظة . ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن

فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضى الى غرفة أخرى يبيت فيها • أما ماما وليزا فكنتم أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلاتهما (من أجل هدوئى وراحتى فيما اعتقدت) الى الطابق الأعلى ، الى « تابوتى » القديم ، حتى لقد تساءلت بنى وبين نفسى ذات يوم : « كيف أمكنهما أن تقيما فيه كلاتهما ؟ » • ثم هأنذا أتبين فجأة أن غرفتهما التى كانتا تقيمان بها انما يسكنها اليوم شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف • وهأنذا ، بخفة لم أكن أظنهما فى نفسى (اذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أننى لا أملك أية قوة) ، « أخرج ساقى » من السرير ، وأدسهما فى بابوجين ، وألقى على كنفى ثوباً للمنزل رمادى اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة منى (ضحى به فرسيلوف) ، وأسير عبر الصالون متجها الى الغرفة التى كانت تسكنها أمى من قبل • ان ما رأيته هناك قد شدهنى وأذهلنى • لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت ، فوقفت فى العتبة كالمتسممر •

ان فى الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً ، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً ، كان واضحاً أنه مقيم هنا منذ مدة طويلة • ولم يكن الشيخ جالساً على السرير ، وانما هو جالس على كرسى ماما ، مستند الى السرير بظهره فحسب ؟ وكان عدا ذلك منتصب الجذع فى جلسته ، فكأنه ليس فى حاجة الى أى استناد رغم ما به من مرض بين لا يخفى • وكان يرتدى فوق قميصه سترة مبطنة بفراء خروف ، ويغطى ركبتيه بشال لأمى ، ويتنعل بابوجين • لا بد أنه طويل القامة • وهو عريض المنكبين ، تدل هيئته على شكيمة قوية ، رغم مرضه ورغم شئ من الشحوب والنحول ؛ وهو يعضو الوجه ، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً ؛ ويبدو أنه تتجاوز السبعين من عمره • وعلى مقربة منه ، فوق مائدة صغيرة فى متناول يده ، ترقد ثلاثة كتب أو أربعة ، ونظارتان من فضة • فما ان أبصرته حتى حزرت من هو ، رغم أننى لم يخطر ببالى لحظة واحدة أن ألقاه ، ولكننى

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يقضى هذا الوقت كله بجوارى مستخفياً هذا الاستخفاء الذى بلغ من الشدة أننى لم يدر فى خلدى وجوده •

لم يتحرك حين رأتى ، وانما نظر الى ملياً بصمت ، ونظرت اليه أنا كذلك ، مع فاروق واحد هو أننى أظهرت دهشة شديدة ، أما هو فلم يظهر أية دهشة • حتى انه بعد أن تفرس فى خلال خمس نوان أو عشر ، ابتسم فجأة ، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك ، ضحكة سرعان ما انقضت ، ولكن بقى أثرها المضى الفرح فى وجهه ، ولا سيما فى عينيه ، الزرقاوين جداً ، المشعتين ، الواسعتين ، اللتين يعلوها حاجبان منتفخان متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غصون صغيرة لانهاية لعددها • ان ضحكته خاصة هى التى أثرت فى نفسى •

أننى أرى أن الانسان حين يضحك يكون منظره منفراً فى أكثر الأحيان • فالضحك يبرز فى المادة لدى الناس نوعاً من العامة والتدنى ، وان كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذى يحدثه فى نفوس الآخرين • انه يجعل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم • فمن النائمين من تبقى وجوههم ذكية ، ومنهم من تصبح أثناء النوم غيبة فمضحكة رغم أنهم أذكىاء • لا أدري سبب هذه الظاهرة • كل ما أريد أن أقوله هو أن الضاحك ، كالتائم ، لا يعرف عن وجهه شيئاً فى أكثر الأحيان • هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة • والحق أن الأمر ليس أمر اجادة يحصلها المرء بالمران ، وانما الضحك موهبة يؤتاها المرء فطرة ، فاذا أراد أحد أن يحصل هذه القدرة على اجادة الضحك كان عليه أن يربى نفسه تربية جديدة ، وأن يحسن ذاته ، وأن ينتصر على غرائزه السيئة ، فاذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه • ومن الناس من يفضحهم ضحكهم ، فمتى رأيتهم ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه بطونهم • فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هى تنفرك مع ذلك أحياناً • ان

الضحك يقتضى الصراحة قبل كل شيء : فإين الصراحة فى البشر؟ والضحك يقتضى نفساً طيبة كريمة ، والناس فى أكثر الأحيان انما يصعدرون فى ضحكهم عن خبث وشر . والضحك الصريح الذى لا شر فيه فرح : فأين الفرح فى زماننا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون ؟ (هذه الملاحظة عن الفرح فى زماننا انما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها) . فرح الانسان هو السمة التى تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته ، الى جانب رجليه ويديه . هناك طباع لا تستطيع أن تنفذ اليها ، فاذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة ، رأيت طبعه مبسوطاً أمام بصره فوراً . لا أحد الا أولئك الذين ينعمون برقى رفيع سعيد ، يمكن أن يفرح فرحاً معبراً سارياً ، فرحاً طيباً لا سبيل الى مقاومة فنتته . ولست أقصد هنا رقى الذكاء والعقل بل رقى الطبع والخلق ، أعنى رقى الانسان كله جملة . لذلك اذا أردت أن تدرس امرأ وأن تعرف نفسه فلا تنبته الى طريقتها فى الصمت ، أو فى الكلام ، أو فى البكاء ، أو حتى فى تأثره بأبل المعانى والأفكار ؟ وانما انظر اليه حين يضحك . فاذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب . وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة : يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غيباً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً . فمتى لأحظت فى ضحكه أية علامة من علامات الغباء فاعلم أنه انسان محدود العقل ، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة . واذا لم يكن ضحكه غيباً ، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجأة ، فاعلم أن هذا الانسان لا يحترم نفسه احتراماً حقيقياً ، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً . واذا كان هذا الضحك معبراً وسارياً ولكن بدا لك عامياً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية ، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو انما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه ، وأن الرجل سيرتد حتماً الى

طبيعته السيئة ، فيهتم بما يعود عليه « بارباح » ، وينبذ أراءه السمجى
الكريمة نبدأ لا هودة فيه ولا رحمة ، ويعدّها من أخطاء الشباب
وحماسته .

اذا كنت أسهب هذا الاسهاب الطويل فى الكلام عن الضحك مضحياً
بمواصلة سرد قصتى فلست أفعل ذلك استطراداً بغير نية . اننى أعد هذه
الآراء نتيجةً من أئمن النتائج التى استخلصتها طوال حياتى . واننى أوصى
بها الفتيات المخطوبات اللواتى يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن
مازلن يتفرسن فيه بشك وحبيرة ولما يعزمن أمرهن بعد . ألا لا تسخرن
من مراهق يتصدى لاعطاء دورس فى أمور الزواج التى لا يفهم منها شيئاً .
اننى أعرف شيئاً واحداً لا أكثر : هو أن الضحك أضمن مقياس 'تعرف به
النفس . انظروا الى الأطفال : ان بعضهم يحسنون الضحك احساناً تاماً ،
وهذا هو السبب فى أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتنتهم . ان الطفل البكاء
كرهه الى نفسى ، أما الطفل الذى يضحك ويبتهمج فانه شعاع من الجنة ،
واطلالة على المستقبل الذى سيصبح فيه الانسان آخر الأمر طاهر طهارة
طفل ، ساذجاً سذاجة طفل .

ولقد كان فى الضحكة المارضة التى ضحكها ذلك الشيخ شىء
من طفولة لا حدود لفتنتها . فسرعان ما دنوت منه .

قال لى بلطف وهو يشير الى مكان بقربه ، ويرمقنى بتلك النظرة المشعة نفسها :

- اجلس ، اجلس لحظة ، فلا تزال سافاك ضعيفتين .

فجلست الى جانبه وقلت له :

- انتى أعرفك . أنت ماكار ايفانوفتش .

- نعم يا عزيزى . حسن أنك تقف الآن على قدميك . انك شاب .
هذا حسن لك . للشيخ القبر ، وللشباب الحياة .

- هل أنت مريض ؟

- نعم يا صديقى ، السافان خاصة . حملتنى سافاى المسكينتان حتى وصلت الى هنا ، ولكن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست . بدأ هذا يوم الخميس الماضى ، حين وقف الترمومتر (ملاحظة : يقصد حين تبجلد من البرد) . كنت قبل ذلك أدنههما بمرهم . الدكتور لشتن ادموند كارلوفتش هو الذى وصف لى ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث سنين ، وكان ذلك المرهم ينفعنى كثيراً . ومنذ أمس ، سرى الوجع الى الظهر ، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهرى نهشاً وصرت لا أنام الليل ..

قاطعته سائلاً :

- وكيف لا 'يسمع لك صوت هنا البتة ؟

فنظر الىّ وبدأ مفكراً ، ثم أضاف يقول كأنما وافته ذكرى
مباغتة :

- حذار أن توقظ أمك • لقد ظلت تضطرب حولي طول الليل ،
ولكن بدون أن يُسمع لها أى صوت ، كما لا يسمع صوت لفراشة •
وهي الآن ترتاح •
وتنهد قائلاً :

- نىء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً • لا أدري بمن تشبث
روحي ، ولكنها لا تزال صامدة ، وهي سعيدة بأن تبقى في هذا العالم ،
بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من
ذلك • ولكن لعل مثل هذه الفكرة اثم •

- لماذا تكون اثمًا ؟

- هذه الفكرة حلم ، وعلى الشيخ أن يمضي الى نهايته • نعم ان
استقبال الموت يتدمر أو استياء اثم كبير • على كل حال ، اذا كان حب الحياة
ناشئاً عن فرح روحى ، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ • يصعب
على الانسان أن يعزف الفرق بين ما هو اثم وما ليس باثم • هذا سر يفوق
العقل الانسانى • وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى ، وأن يموت مغموراً
بضياء روحه ، سعيداً بما قضى من أيام ، متطلعاً الى ساعته الأخيرة ،
فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل ، بعد أن حقق سرّه •

- أراك تتكلم دائماً عن السر • فما الذى تعنيه بقولك :
« حقق سره » ؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقى نظرة على الباب • كنت سعيداً بأنسا
وحيدان ، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء • وكانت الشمس تسطع قوية
على النافذة قبل أقولها • وكان الشيخ يتكلم بشيء من التفخيم وبدون دقة

كأنه كان فرحاً بوجودى حقاً • ولكننى لاحظت أنه يعانى من حمى لا شك فيها ، بل يعانى من حمى قوية • وكنت مريضاً أنا أيضاً ، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه • قال :

- ما هو السر ؟ كل شيء سر يا صديقى • سر الله موجود فى كل مكان • كل شجرة • كل عشب تشتمل على سر • أن يغرد طير صغير ، وأن تسطع النجوم متألثة فى الليل ، فذلك كله سر ، ذلك كله سر واحد • ولكن ما ينتظر نفس الانسان فى العالم الآخر هو سر الأسرار ، هو أكبر الأسرار • هكذا يا صديقى !

- لا أدري ماذا تعنى •• وثق اننى لا أقول هذا الكلام مناكدة لك ، وثق أننى أوّمن بالله • ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة ، وما لم يكشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً - هذا مؤكد حتماً - وربما اكتشفه فى وقت قريب • عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة ، وعالم الفزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يغرد الطائر ، أما النجوم فقد أحصى عددها ، بل حسب كل حركة من حركاتها حتى يمكن التنبؤ بظهور أى مذنب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة • وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً • خذ مجهرأ - المجهر عدسة مكبرة تضعم الأشياء مليون مرة - وانظر فى قطرة ماء • ولسوف ترى فى قطرة الماء عالماً كاملاً يعج بال مخلوقات الحية ، وكان ذلك سرا فاكشفناه •

- سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يابنى • لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش • كل شيء 'وهب للانسان بارادة الله • ليس عبثاً أن أعطى الله الانسان نسمة الحياة : « عش واعرف » •
- هذه معان تلوكها جميع الألسن • ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم ، ما أنت كهنتوى ؟ أغنى ••• لا أدري هل تفهم •••

- لا يا بنى ، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً ، وإذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فأننى لا أناصبه العداء • مالم يوهب لنا قد وهب لآخرين • ولعل فى هذا خيراً : كل امرئ ميسر لما خلق له • ذلك أن العلم يا بنى ليس دائماً ميزة • فمن الناس من ينقاد للرغبة فى ادهاش العالم ، فلو كنت عالماً فقد أرغب فى ذلك أكثر من سائر البشر • أما وأننى جاهل فكيف يمكننى أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب ملئ ذكاء • وذلك قدرك • فعليك بالدراسة • حاول أن تعرف كل شيء ، فإذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان فى وسعك أن ترد عليه ، ولا يفرئك بأقوال باطلة تعكر عقلك الغض • أما تلك العدسة التى جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً •

قال ذلك واسترد أنفاسه وتهد • ولا شك أن مجيئى إليه قد سرّ • ضروراً عظيماً • كانت تعتمل فى نفسه حاجة قوية الى البوح ، حاجة تكاد تكون مرضية • زد على ذلك أننى لا أظننى مخطئاً إذا قلت انه كان فى بعض اللحظات ينظر الى نظرات تزخر بعاطفة قوية : كان يضع يده على يدى بخنان ، ويلعب كفتى ••• ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى لحظات أخرى يبدو كمن نسينى نسياناً تاماً ، فكأنه وحيد فى الغرفة ، فإذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه •

تابع يقول :

- ان فى دير جناديفا - بوستين ، يا صديقى ، رجلاً عظيماً الذكاء ، نبيل الأصل ، واسع الثراء ، برتبة ليوتان كولونيل • لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش فى المجتمع • وهو الآن فى الدير منذ قرابة عشر سنين ، انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية • انه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية ، ولكنه لا يريد أن يرتدى مسوح الرهبان • وما أكثر ما عنده

من كتب يا صديقى ! اننى لم ار هذا القدر من الكتب فى أى مكان الا عنده ! ثمنها يبلغ نمائة آلاف روبل • هو قال لى ذلك • اسمه بطرس فالريانتش • وقد علّمنى أشياء كثيرة فى فترات مختلفة • فطالما كنت أجب أن أصنى اليه • قلت له ذات مرة : « كيف يا سيدى وأنت رجل عظيم الفكر يعيش منذ عشر سنين فى طاعة النظام وهجر الارادة والتنازل عن الرغبة • كيف لا تتمنى أن ترتدى المسوح فتزداد كمالاً ؟ » فقال لى : « كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم لى فكراً عظيماً ؟ لعل فكرى هو الذى أسرنى واستعبدنى بدلاً من أن أروّضه وأسيطر عليه • وما هذا الذى تقول عن طاعتي ؟ لعلنى منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال ! وتكلم أيضاً عن هجرى ارادتي وتنازلى عن رغبتى ؟ فاعلم اذن أننى مستعد لأن أدع على الفور مالى • وأن أردّ رتبى • وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتى •• ولكن غليوبنى •• هأنذا منذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه ! فأىّ راهب يمكن أن أكون • وأين هجر الارادة الذى تمدحه فى ؟ » دهشت عندئذ من هذا التواضع • وقد مررت بذلك الدير فى الصيف الماضى يوم القديس بطرس - أراد الله لى ذلك - فماذا رأيت فى الحجرة ؟ رأيت ذلك الشيء الذى حدثتني عنه : مجبراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج وتحمل فى سبيل ذلك نفقات ضخمة • قال لى : « انتظر قليلاً • سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره فى حياتك حتى الآن • هل ترى هذه القطرة من الماء ؟ انها صافية رائقة كدمعة • فانظر اذن الى ما فى داخلها • لتجدن أن علماء الميكانيكا سيكشفون قريباً عن جميع أسرار الرب •• فلا يدعون منها واحداً » • هذا ما قاله وقد حفظته • وكنت أنا قد نظرت فى المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندوا فلاميروفتش ماجلاسوف • خال آندره بتروفتش • الذى آلت أملاكه بعد وفاته الى آندره بتروفتش • لقد كان سيداً خطير الشأن • وكان جنرالاً

كبيراً ، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد ، وقد عملت عنده صيادا بالكلاب مدة طويلة . وكان قد احضر هو أيضاً هذا المكروسكوب ، فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض ، رجالاً ونساءً ، للنظر فيه ، عارضاً تحت عدسته قملة وبقة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء . ما أكثر ما تسلينا وضحكنا ! كنا نخاف أن تقترب من المكروسكوب ، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً اذا نحن لم تقترب ، لأنه كان شديد الغضب . وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر ، فهم يغمضون أعينهم فلا يرون شيئاً . وكان آخرون يصرخون جزعاً وهلعاً . حتى ان العمدة سافين مكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً : « اصنع بى ما شئت فلن أنظر ! » ، فانطلق الضحك من كل صوت ! كنت اذن قد رأيت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة ، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، كنت قد رأيت هذه المعجزة ، ولكننى لم أقل هذا لبطرس فالريانوفتش ، اذ كان يسره سروراً عظيماً أن يريها . حتى لقد تظاهرت بأننى أدهش وأرتاع . فتركنى لحظة ثم سألتى : « فما قولك يا شيخ ؟ » . قلت وأنا انتصب : « الرب قال : كن يا ضياء فكان الضياء » . فأجابنى فجأة : « لعل الظلمات هى التى كانت ! » قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يتسم . وشعرت فى تلك اللحظة باستغراب ، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئاً .

قلت له :

- الأمر بسيط جداً ، ان صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم فى الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد ، لكنه لا يؤمن بالله ، وأنت انما وقعت عليه وهو فى لحظة من لحظات صراحته تلك . هذا كل شيء ، ثم انه شخص عجيب جداً : فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات ،

فلماذا جنَّ به في المرة الحادية عشرة ؟ هذه حساسية عصبية ... أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير .

قال الشيخ باقتناع :

— انه رجل طاهر القلب رفيع الفكر ، وليس زنديقاً . ان له عقلاً واسعاً ، ولكن قلبه قلق . وما أكثر أمثاله الذين يفقدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء . ثم اسمع ما سأقوله لك : ان الرجل يعاقب نفسه . فلاحظ هؤلاء الناس ، ولا تعذبهم ، واذكرهم في صلواتك قبل النوم ، لأنهم انما يبحثون عن الله . هل تصلى قبل أن تنام ؟

— لا . أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل فيه . ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبني : فهو على الأقل ليس خرقه بل رجلاً ، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا .

لم ينتبه الشيخ الا الى الجزء الأول من جملة . وأردف يقول :

— خطأ منك يا صديقي ألا تصلى . الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصبح وحين يستيقظ المرء في الليل . أنا أقول لك هذا . في صيف من الأصيف ، في شهر تموز (يولي) ، كنا نحت الحطب نحو دير « العذراء » احتفالاً بعيد . فكلما اقتربنا من المكان ازداد عدداً ، فإذا نحن نصبح مائتي شخص تقريباً ، مسرعين الى تقيل الرفات المقدس للشهيدين آنيكى و جريجوار . كنا قد قضينا الليل في حقل من الحنظل ، وفتحت عيني في الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة . رفعت رأسي يابني ، وشملت الأتق بنظرة وتهتدت : كان كل شيء جميلاً جمالاً لا يوصف ! كل شيء هادئ ، الهواء نسيم ، العشب ينبث — اثبت يا عشب الرب ... والظاهر

الصغير يغرد - غرَّد يا طائر الرب ... والطفل الصغير يزفرق على ذراعى أمه - ليحرسك الله أيها الرجل الصغير ، اكبر وكن سعيداً ! لعلنى أدركت الجمال يومئذ أول مرة فى حياتى ! وعدت أرقد ، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه ! العالم جميل يا صديقى ! اذا تحسنت صحتى فسوف أستأنف طوافى متى طلع الربيع . اذا كان هناك أسرار ، فمرحّباً بالأسرار . صحيح أن الأسرار ترهب القلب وتثير فيه العجب ، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً : « كل شئ متجمع فيك أيها الرب ، أنا نفسى موجود فيك ، فخذنى اليك ! » .

وأضاف يقول برقة وحنان :

- لا تملل يا فتى ! لأن يوجد سر فذلك أجمل .

- « لأن يكون سر فذلك أجمل ... » . سوف أتذكر هذه الكلمات . الأسرار ترهب القلب ، كما عبرتَ عن ذلك تعبيراً غير صحيح ، ولكننى أفهم ... ان ما يدعشنى هو أنك تعرف وتدرك أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنه . ولكن كأنك تتكلم وأنت فى حالة هذيان ...

أفلتت منى هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحموتين ووجهه الشاحب . ولكن أظن أنه لم يسمعننى .

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذى انقطع :

- هل تعرف يا بنى الصغير أن لذكرى الانسان على هذه الأرض حداً ؟ ان هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة . قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاده الذين رأوا وجهه . واذا بقيت ذكراه مدة أطول ، فانما تكون بعد ذلك ذكرى شفوية ، ذكرى عقلية ، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحى سوف يمضون وسوف يخفى العشب قبره فى المقبرة ، وتنكسر الشاهدة ، وينساه جميع الناس حتى أعقابهم ، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً ، لأن الذين

تبقى اسمائهم فى ذاكرة البشر قلة قليلة جداً • لا بأس ! فليبنى
أعزائى • ولكننى سأظل أنا أحبهم من قرارة قبرى • أيها الأولاد الصغار ،
اننى أسمع أصواتكم الفرحية ، وأسمع أصوات وقع أقدامكم على قبور
آبائكم فى يوم عيد الأموات ، وسوف أصلى من أجلكم ، وسوف أنزل
اليكم فى أحلامكم ••• ان الحب يبقى بعد الموت ! ••

كنت فى حمى مثله • وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن
يهدأ ويسكن ، أو أن أرقده فوق سريريه ، لأنه كان يبدو فى حالة هذيان
كامل ، أمسكت يده فجأةً ، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده ،
قلت له بهمس متأثر ودموع فى القلب :

- اننى سعيد برؤيتك • لعانى كنت أنتظرك منذ مدة طويلة •
لا أحب أحداً : ليس فى أحد منهم جمال •• لن أتبعهم ، ولا أعرف
الى أين أذهب ، فسأمضى معك •••

ولكن شاء حسن الحظ ان تدخل أُمى فى تلك اللحظة • فلولا ذلك
لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر • دخلت دخول شخص استيقظ
الآن وأوجس خطراً • وكانت تحمل بيدها قارورة وملعقة حساء • فلما
رأتنا صاحت تقول :

- آ آ •• توقعت هذا ! لقد نسيت أن أجرعك جرعة الكينا فهأت
ذا قد اعترتك حمى شديدة ! نمت مدة طويلة يا مكارا ايفانوفتشى ،
يا عزيزى !

نهضت وخرجت • وأعطته أُمى جرعته وأرقدته على السرير •
واندسست أنا أيضاً فى سريرى ، ولكننى كنت مضطرباً أشد
الاضطراب • لقد رجعت الى غرفتى وأنا أشعر بدهشة كبيرة ، وأخذت
أفكر فى هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة • لا أدري ماذا كنت أنتظر من

هذا التفكير • وأغلب الظن اننى كنت أفكر فى الأمور تفكيراً مشوشاً لا تسلسل فيه ، وأن ما كان يتلاحق فى ذهنى لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار • كنت فى اضطجاعى متجهاً برأسى الى الجدار ، فاذا أنا أرى البقعة المضئية المتوهجة التى أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية ، والننى كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعتى • اننى أتذكر أن نفسى كلها قد اشتعلت حماسة فى تلك اللحظة ، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ الى قلبى • اننى أتذكر تلك اللحظة العذبة ، ولا أريد أن أنساها • لم تكن اللحظة أمل جديد ، وقوة جديدة • • • كنت قد بدأت فترة النقاة طبعاً ، فمن الجائز اذن أن تلك الثوبات لم تكن الا نتيجة لا مفر منها لحالة أعصابى ، ولكننى ما زلت الى اليوم أو من بذلك الأمل المضى الذى ملأ نفسى • ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه • صحيح أننى كنت أعلم حق العلم أننى لن أصحب ماكار ايفانوفتش لأجوب الأرض مثله ، وأننى كنت أجهل أنا نفسى ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذى استولى على نفسى ، ولكننى كنت قد نطقت بتلك الجملة ، ولو فى الهديان : « ليس فيهم جمال ا » قلت أحدث نفسى مفتتاً : « انتهى الأمر ، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال ، وهم ليس فيهم جمال ، فسأتركهم » • وسمعت حقيقاً ورائى ، فالتفت • انها ماما ، تميل على وتنظر فى عينى مستطلعة على خجل • فأمسكت يدها فجأة ، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسى ماذا كنت سأقول :

— لماذا لم تقولوا لى شيئاً عن ضيفنا العزيز ؟

فاذا بقلقها كله يختفى بغتة ، واذا الفرع يضى وجهها ، ولكنها لم تجبنى الا بهذه الكلمات :

— لا تنس أيضاً ليزا ، ليزا • انك قد نسيت ليزا •

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها ، وهمت بالانصراف مستعجلة ، لأنها كانت هى أيضاً تكره أن تبسط عواطفها • انها من

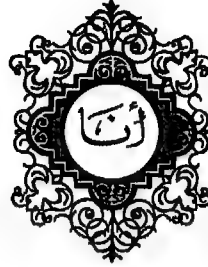
هذه الناحية تشبهني ، أعني أنها مغلقة على نفسها عفة • هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تتسرع في حديث معي عن هذا الموضوع : ماكار ايفانوفتش • كان ما استطعنا أن نتبادل من نظرات كافياً • ولكنني ، أنا الذي أكره أن أعرض عواطفني ، قد احتجزتها عنوةً بأحدى يديّ ، وأخذت أنظر في عينيها برقة ، وأضحك برفق ولطف ، والامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الحاسفتين • فعالت عليّ ، ووضعت جبينها على جيني ، ثم قالت لي فجأة وهي تنتصب مشرقة المحيا :

- أبلّ من مرضك فأكون لك شاكرة • انه مريض ، مريض جداً •• ان جيساته بين يدي الرب •• آه ! ما هذا الذي قلته ؟ مستحيل ! ••

وانصرفت • لقد ظلت طول حياتها خائفةً مرتعدة زاخرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعي ، الجوّاب ماكار ايفانوفتش ، الذي غفر لها الى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم •

الفصل الثاني

١



ما نسيت ليزا • أخطأت ماما الظن • لقد رأيت
هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين
الأخ وأخته ، ولكن هذا لم يكن وهناً طراً على
ما يربطهما من عاطفة ، وإنما كان ضرباً من
الغيرة • وهأنذا أشرح ما فى نفسى ببضع كلمات •

ان المسكينة ليزا قد انتابها مند اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء
المتفطرس ، والتكبر الشديد الذى لا يكاد يحتمل • ولكن كل من فى
البيت قد أدرك الحقيقة ، فعرف أنها تعاني عذاباً قوياً ، ولئن حزنت أنا فى
أول الأمر وقطبت حاجبى ، فأنما كان مرد ذلك الى ما أتصف به من سرعة
التأذى وفرط الحساسية ، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي ، أو هذا
ما أقدره الآن • ولكننى لم أنقطع عن حب ليزا أبداً • بالعكس : اشتد
فى نفسى ما كنت أحمله لها من حب • كل ما هنالك أننى لم أشأ أن أقوم
بالخطوة الأولى ، رغم أننى أدركت أنها هى أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى
فى حال من الأحوال ، مهما كلفها الأمر •

ان ليزا ، منذ عرفت قصة الأمير فور اعتقاله ، سارعت تتخذ منا ومن
جميع الناس موقف انسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثى أحد لحاله أو أن
يشفق عليه أو أن يسرى عنه بمحاولة تبرئة الأمير • بالعكس : أصبحت ،
مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تتجادل أحداً قط ،

تصطنع هيئة من يمجّد سلوك خطيئها المسكين ويعده بطولة ما بعدها بطولة .
 لكنّها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة ، أكرر
 هذا) : « لا أحد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً . لا أحد منكم
 يمكن أن يسلم نفسه مدفوعاً الى ذلك بدواعي الشرف والواجب . ذلك
 أنكم لا أحد منكم يملك وجدانا يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة .
 أما عن أعماله فأى إنسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات ؟
 الآخرون يكتُمون ويخفون أما هو فقد آثر أن يهلك على أن يفقد
 قيمته في نظر نفسه . ، ، ذلك ما كانت تعبّر عنه كل حركة من حركات
 ليذا تعبيراً واضحاً . وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف
 نفسه . ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قراة قلبها ،
 في أعماق نفسها : وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها ،
 في النصف المضيء ، كانت تدرك حتماً كل ثقافة « بطلها » . فمن ذا الذي
 يرفض اليوم أن يعترف أن هذا الإنسان الذي يمكن أن يعد من
 جهة أولى تعيساً شقياً ، وأن يعد من جهة أخرى شهماً كرهه النفس
 في نوعه ، قد كان في الوقت نفسه امرأ تافهاً كل الثقافة ؟ ان شدة
 تأذيتها نفسها ، وان تأهبها الدائم للتهجم علينا ، وان ما كانت
 تحسسه من اشتباه مستمر في أننا قد نرى فيه رأياً آخر ، ان ذلك
 كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر .
 ومع ذلك أسارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق ، أو على بعض
 الحق في أقل تقدير . انها تُعذر أكثر منا جميعاً اذا هي ترددت في
 استخلاص نتيجة حاسمة ورأى قاطع . أنا نفسي أعترف من كل قلبي ،
 بعد أن مضى وانقضى ذلك كله ، انني لا أدري على وجه اليقين كيف
 أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدّر تقديرأ حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا
 جميعاً أمام لنز لا نعرف كيف نحله .

على أن المنزل قد استحال بسببها الى جحيم صغير . ان ليزا التي أحبت حباً قوياً كان لابد أن تتألم كثيراً . وكانت بحكم طبعها تفضل أن تتألم صامتة . ان طبعها يشبه طبعى ، أعنى ان ينجح بها الى التحكم والتسلط والتكبر . . . وقد اعتقدت دائماً ولا ازال أعتقد الى اليوم انها قد أحبت الامير مدفوعة الى ذلك بالرغبة فى التسلط والتحكم ، لان الأمير كان بغير ارادة ، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً . ذلك كله انما يتم فى القلب من تلقاء نفسه بدون أى حساب سابق . ولكن هذا الحب الذى يحمله قوى لضعيف يكون فى بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم بين اثنين متكافئين ، ذلك لأن القوى يتحمل تبعه صديقة الضعيف رغم ارادته . أو هذا ما اعتقده أنا على الأقل . ولقد أحاطها أهل الدار منذ البداية بأكبر المراقبة وأشد المداواة ، ولا سيما ماما . ولكنها لم ترف ، ولم تستجب لهذه العاطفة ، وثابت على كل مساعدة . ولئن ظلت تكلم ماما فى أول الأمر ، فانها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً بعد يوم ، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة . وكانت تستشير فى أول الأمر فرسيلوف ، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها ومساعداً ، وهذا أمر أدهشنى حين عرفته فيما بعد . كانت تذهب كل يوم الى فاسين ، وتركض الى المحاكم ، وتقابل رؤساء الأمير ، وتراجع المحامين ووكيل النيابة . وفى النهاية صار ينقضى النهار كله دون أن يراها أحد فى البيت تقريباً . وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً ، فى قسم النبلاء من السجن الذى أودع فيه ، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة على ليزا كما علمت ذلك من بعد . صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث يمكن أن يعرف شئون حبسين معرفة تامة . ولكننى أعلم مع ذلك أن الأمير كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً فى بعض الأحيان . كيف ؟ بغيره لا تنقطع . أمر عجيب ! ان لنا الى هذه النقطة عودة . غير اننى أحب أن

أضيف هذه الفكرة : انه لمن الصعب ان يقطع المرء فى هذا السؤال :
أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد ؟ لعل ليزا التى كانت بيننا تعتر بطلها ،
لعلها كانت تعامله معاملة أخرى ، كما يجوز لى أن افترض ذلك على أساس
بعض الوقائع التى سنحجى على ذكرها فيما بعد أيضاً .

ففيما يتعلق بمواقفى وعلاقائى بأختى ليزا ، لم يكن كل ما يرى
ويلاحظ الا كذباً مقصوداً عنيداً من الطرفين كليهما ، والحق أننا لم
نتحاب يوماً كما تحابينا فى تلك الفترة . يجب أن أضيف شيئاً آخر هو
أن ليزا منذ أن جاء البناء ماكار ايفانوفتشى قد عاملته ، بعد الاستغراب
والفضول اللذين أحستهما فى اللحظة الأولى ، عاملته بنوع من الاحتقار
بل الاستعلاء ، وعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أى انتباه .

عاهدت نفسى اذن على التزام الصمت ، كما أوضحت ذلك فى الفصل
السابق ، وقد رت نظرياً ، أى فى أحلامي ، أنني سأفى بالعهد طبعاً .
نعم ، اننى لأؤثر ، مع فرسيلوف مثلاً ، أن أتحدث فى علم الحيوان ،
أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم « عنها » أو عن ذلك السطر
من رسالته ، الذى يلفتها فيه أن « الوثيقة » لم تحرق بل هى موجودة ،
وأنها يمكن أن تظهر الى النور - ذلك السطر الذى أخذت أفكر فيه
بينى وبين نفسى فوراً منذ صحوت من غيبوبتى وعاد الى رشدى بعد
الحمى . ولكن وا أسفاه ! لقد أدركت منذ الخطوات العملية الأولى بل
قبلها تقريباً ، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد
بهذه القرارات التى تصورها خياله . ان ظرفاً لم يكن فى الحسبان قد
هزنى هزاً قوياً رهيباً غداة لقائى بماكار ايفانوفتشى .

٢

كان الظرف الذى هزنى هزاً قوياً هو زيارة داريا أونيسيوفنا ، أم الفتاة اوليا التى انتحرت سنقاً . كنت قد عرفت من أمى انها جاءت مرتين أثناء مرضى ، وأنها كانت تهتم كثيراً بأبناء صحتى . أمن أجلى حقاً انما جاءت تلك « المرأة الرائعة » كما كانت تصفها أمى بذلك دائماً ، أم هى جاءت لزيارة أمى فحسب ، جرياً على عادتها ؟ اننى لم أسأل عن هذا . لقد كانت أمى تقص على أحداث المنزل دائماً ، وكانت تقص على هذه الأحداث فى العادة حين تجىء لتطعمنى حسائى (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامى بنفسى) ، وذلك تسليّة لى وتسرية عنى . وكنت أحرص فى كل مرة على أن أظهر أننى لا أحفل بما ترويه لى ، لذلك لم أسألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيوفنا .

الساعة هى الحادية عشرة . وقد دخلت على داريا أونيسيوفنا حين كنت أهم أن أنهض لأنتقل الى مقعد بقرب المائدة . فلما دخلت تعمدت أن أبقى فى السرير . كانت أمى منهمكة بالعمل فوق ، فلم تنزل لتراها ، فأمكننا أن نبقى وحيدين . جلست قبالتى ، على كرسى بقرب الجدار ، تبسم ولا تنطق بكلمة . وتوقعت أن يطول الصمت . وكان مجيئها يحدث فى نفسى ضيقاً وحنقاً واهتياجاً فى جميع الأوقات على كل حال . فلم أتجه اليها ولو بحركة من رأسى محيياً ، وظللت أهدق الى عينيها بنظرة ثابتة . ولكنها حدثت الى هى أيضاً .

- وسألتها فجأة وقد نفذ صبرى :
- لا شك أنك تضجرين الآن وحيدة بعد غياب الأمير ؟
- فأجابت تقول :
- لا ، اننى لا أقيم هنالك الآن . فأنا بفضل آنا أندريفنا ، أعنى
الآن بالطفل .
- أى طفل ؟
- طفل أندره بتروفتش .
- قالت ذلك هامسة ، بلهجة البوح ، وهى تنظر الى الباب .
- ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا ...
- بل تاتيانا بافلوفنا وآنا أندريفنا كلتاها ، وكذلك الزباث
ماكاروفنا ، وأمك ... انهن جميعاً يشاركن . وقد انعقدت الآن أواصر
صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا أندريفنا .
- هذا نبأ !
- وكانت المرأة تنتعش وتنشط أثناء كلامها . ونظرت اليها نظرة كره .
- وقلت لها :
- أرى أنك الآن أنشط مما كنت عليه ابان زيارتك الأخيرة لى
فى بيتى .
- آ ... نعم !
- وأظن أنك سمعت ؟
- فألت على نظرة غريبة . ثم قالت :
- اننى أحبها كثيراً ، كثيراً .
- من هى ؟

- آنا آندريفنا طبعاً • أحبها كثيراً • انسانة نبيلة ، عاقلة •••
- نعم ، وكيف حالها الآن ؟
- هادئة جداً ، هادئة جداً •
- كانت دائماً هادئة •
- صحيح • دائماً •

ونفذ صبرى فهتفت أقول لها فجأة :

- اذا كنت قد جئت الىّ لتروى لى أقاويل وتنقلى الىّ نعائم ،
فاعلمى أننى الآن لا أتدخل فى شىء ، واننى عزمت على أترك كل شىء
وأن أترك جميع الناس ••• لقد استوت عندى الأمور كلها : اننى راحل !

قلت ذلك وصمت اذ تاب الىّ رشدى • اننى لا أريد أن أهبط الى
حيث أشرح لها أهدافى الجديدة • وقد أصغت الىّ بدون اندهاش وبدون
اضطراب ، ولكن خيمّ صمت جديد • ثم اذا هى تنهض فجأة ، فتتجه
نحو الباب ، وتلقى نظرةً على الغرفة المجاورة • حتى اذا اطمانت الى أن
الغرفة خالية ليس فيها أحد ، وأنسا وحيدان ، رجعت بهدوء شديد ،
وعادت تجلس فى مكانها نفسه •

قلت وأنا انفجر ضاحكاً :

- شىء لطيف !

سألتنى فجأة وهى تميل علىّ قليلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو
السؤال الأساسى الذى من أجله جاءت :

- مسكنك عند ذلك الموظف ، أتنوى أن تحتفظ به أم لا ؟

- مسكنى ؟ لا أعرف • قد أتركه ••• ما يدرينى ؟

- ذلك أن السكان ينتظرونك • الموظف ينتظرك بفارغ صبر ،
وكذلك زوجته ... • ولقد أكد لهما آندره بتروفتش أنك عائد حتماً •

- ولكن فيم يهلك هذا الأمر ؟

- آنا آندريفنا أيضاً تريد أن تعرف • لقد سرّها كثيراً أن تعلم
أنك باق •

- من أين جاءت هذه الثقة باننى سأبقى فى ذلك المسكن ؟

وهممت أن أسأله : « وما شأنها هى فى هذا الأمر ؟ » ولكننى
امتنعت عن القاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء •

- أكدّه لها مسيو لامير •

- من ؟

- مسيو لامير • هو أيضاً أكدّ لآندره بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك
باق ، وطمأن كذلك آنا آندريفنا •

اضطربت اضطراباً شديداً • ما هذه القصة أيضاً ؟ اذن أصبح
لامير يعرف فرسيلوف • اذن وصل لامير الى فرسيلوف ! لامير
وآنا آندريفنا : وصل لامير حتى الى آنا آندريفنا ! واثابتنى حمى • لكننى
صمت • وأغرق نفسى سيل رهيب من صلف ، صلف أو شيء آخر •
المهم أننى كنت كمن يقول لنفسه : « اذا طلبت كلمة ايضاح واحدة ،
كنت أقحم نفسى فى هذا العالم من جديد ، فلا أتركه بعد ذلك أبداً » •
واشتعل فى قلبى كره شديد • وقررت جازماً أن أصمت ، ولبثت فى
سريرى ساكناً لا أتحرك • ولبثت هى أيضاً صامتة خلال دقيقة كاملة •

سألته فجأةً بغير تمهيد :

- كيف حال الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟

ألقيت هذا السؤال بلهجة قوية لأغير موضوع الحديث ، فاذا أنا ألقى السؤال الأسسى اعتباطاً كمن فقد عقله ، فأرجع كالمجنون الى ذلك العالم الذى كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه .

قالت :

— هو فى تساركويه سيلو • انه مريض قليلاً • المدينة ملأى الآن بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل فى تساركويه سيلو بمنزله هناك نشدانا للهواء النقى •

لم أجب • وأردفت هى تقول :

— تزوره أنا آندريفنا والجنرالة كل ثلاثة أيام • تذهبان اليه معاً •
آنا آندريفنا والجنرالة (أى « هى ») صديقتان ! تذهبان اليه معاً !

لم أقل شيئاً •

— ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً • وآنا آندريفنا تمدح كاترين نيقولايفنا كثيراً •••

بقيت صامتاً •

— عادت كاترين نيقولايفنا الى ولعها بالمجتمع ، فهى تنتقل من حفلة الى حفلة ، تتلأأ ••• بل يقال ان كثيراً من رجال البلاط بهيمون بحبها ، أما السيد بيورنج فقد انقطع الحبلى بينه وبينها ، فلن يتم الزواج • ذلك ما يؤكده جميع الناس ••• منذ تلك المرة •••

أرادت أن تقول : منذ وصول رسالة فرسيلوف • وقد ارتعدت ، لكننى لم أقل كلمة واحدة •

— ما أشد إشفاق آنا آندريفنا على الأمير سرجى بتروفتش ! وكذلك

كاترين نيقولايفنا ! انهما تتحدثان عنه دائما ، ونقولان ان القضاء
سيبرئه وسيحكم على الآخر ، ستيلكوف ..

نظرت اليها نظرة تفيض كرهاً . ونهضت فجأة ومالت على " تقول لى
بهمس :

- أوصتني آنا آندريفنا بأن أستفسر عن صحتك ، وأمرتني أن
أرجوك أن تذهب اليها متى خرجت ، فأرجو أن تبذل من المرض .
استودعك الله .

وخرجت . فجلست على سريرى . وأخذ عرق بارد يتصبب فى
جيني . غير أن ما تسعرت به لم يكن قلقاً . ان هذا النبأ الكريه الذى
لم أستطع أن أفهمه ، هذا النبأ عن لامير ومكائده ، لم يروغنى كما
كانت تروغنى أثناء مرضى وفى الأيام الأولى من نقاهتى ، ذكرى لقائى به
فى تلك الليلة . حتى اننى فى تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم
الذى أعقب انصراف داريا أونيسيوفنا ، لم يتلبث فكرى على لامير ...
وانما استولى على ذهنى ما أنبأتنى به داريا عن القطيعة التى وقعت بين
كاترين نيقولايفنا وبين بيورنج ، وعن سعادة كاترين فى المجتمع ، وعن
الحفلات التى تتنقل بينها ، وعن النجاح الذى تلقاه ، وعن تألقها . لقد
قالت داريا أونيسيوفنا « انها تنالاً » . وشعرت فجأة بأننى عاجز عن
انتزاع نفسى من هذا الاعصار ، رغم اننى استطعت أن أتجلد وأصمت ،
وألألقى على داريا أسئلة بعد الأشياء المذهلة التى روتها لى . واجتاحنى
ظماً شديداً الى تلك الحياة ، « حياتهم » ، و ... واجتاحنى كذلك ظماً
آخر لذيذ عذب ، لا أدري ما هو ، ظماً أحسسته كالسعادة وأحسسته
كالعذاب . وطفقت أفكرى تدور فى رأسى كزوبعة .. وتركت لها أن
تدور هذا الدوران ! كنت أقول لنفسى : « علام التفكير ؟ » ، ثم جعلت
أفكر تفكيراً متقطعاً لا تسلسل فيه ، فأقول لنفسى : « ان أسمى نفسها قد

أخفت عني مجيء لاميير • ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت • اتني
أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لاميير بحال من الأحوال •
ثم عدت أقول : « فرسيلوف ! فرسيلوف ولاميير ! أوه ! ما أكرر ما حدثت
من أمور جديدة عندهم ! ما أكرر فرسيلوف هذا ! لقد أخاف ذلك الألماني
بيورنيج بتلك الرسالة • لقد أذاع في حقه التائم ••• » النسيمة لا بد
أن يبقى منها شيء دائما • • خاف الرجل من الفضيحة • آه •• آه ••
درس حسن لها ! • لاميير ! ولكن ألا يكون لاميير قد وصل إليها هي
أيضاً • لا بد أنه وصل إليها حتماً ! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد
صلة به ؟ •

وهنا كفت فجأة عن إدارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة في ذهني ،
وهويت برأسي على الوسادة من شدة الكرب واليأس • ثم صحت أقول بعزم
مباغت : « ولكن لا ! ! » • ووثبت عن سريري ودسست قدمي في الباهوجين •
وألقيت على ثوب المنزل • ومضيت قدماً إلى ماكار ايفانوفتش كأن الشفاء
من هذه الأفكار التي تحاصرني إنما يجب أن ألتمسه عنده • كأن لديه
النجاة والخلاص • كأن عنده المرساة التي أستطيع أن أتشبث بها
فلا أغرق •

وأغلب الظن أنني أحسست بهذه الفكرة احساساً قوياً • والا فهل
كنت أنهض هذا النهوض الذي لا سبيل إلى مغالته • وهل كنت أسرع إلى
ماكار ايفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة ؟

لكننى وجدت عند ماكار ايفانوفتش زواراً لم أكن اتوقعهم : ماما والدكتور . ولأتنى كنت أتصور حين مضيت الى الشيخ أننى سألقاه وحيداً كما حدث أمس ، فقد وقفت فى العتبة متحيراً تحيراً غيباً . ثم ما ان قطبت حاجبى حتى وصل أيضاً فرسيلوف ، ووصلت وراءه ليزا . التأم الشمل كله اذن عند ماكار ايفانوفتش « فى وقت غير مناسب » !

قلت وأنا اتجه الى ماكار ايفانوفتش رأساً :

- جئت أسأل عن صحتك .

- شكراً يا ابنى ، كنت أعلم أنك ستأتى ! هذه الليلة أيضاً فكرت فيك .

وكان ينظر فى عبنى برقة وحنان ، فرأيت أنه ربما كان يحبنى أكثر من الآخرين جميعاً . ولكننى لاحظت فوراً برغم ارادتى أنه اذا كان وجهه فرحاً فإن مرضه قد تفاقم فى الليل كثيراً . وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصاً دقيقاً جداً . وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذى تشاجرت معه يداوى ماكار ايفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام ، وهو يشخص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسميها بلقمتهم الطبية . وقد انعقدت بين ماكار ايفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصداقة كما أدركت

ذلك منذ أول نظرة ، فلم يعجبني هذا كثيراً فى تلك اللحظة • ثم اننى
كنت آثماً معتكراً المزاج جداً •

سأل فرسيلوف قائلاً :

— فماذا يا الكسندر سيمونوفتش ؟ كيف صحة مريضنا العزيز
اليوم ؟

لولا أننى كنت مضطرباً لجلت أول همى أن أدرس ، باهتمام
شديد وشغف كبير ، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ • وقد خطر
ذلك ببالى منذ أمس • والشئ الذى خطف بصرى الآن خاصة هو ما كان
يعبر عنه وجهه فى الظاهر من لطف وبشاشة • أظن أننى سبق أن أشرت
الى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جداً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض
البساطة •

أجاب الطيب يقول :

— نحن لانفتأ نتشاجر •

— تتشاجر مع ماكار ايفانوفتش ؟ لا أصدق شيئاً من هذا :
لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه •

— لكنه لا يريد أن يطعننى : انه لا ينام الليل ...

— دعك من هذا الكلام يا الكسندر سيمونوفتش ، كفى تقريباً !

كذلك قال ماكار ايفانوفتش ضاحكاً • وتابع كلامه قائلاً
آندره بتروفتش :

— هيه آندره بتروفتش العزيز ؟ ما صنعت بأستنا ؟

ثم أضاف وهو يشير الى أمى :

— لقد ظلت مضطربة قلقة طول الصباح •

فهمت أمي تقول بقلق شديد فعلاً :

— نعم يا آندره بتروفتش ، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا المسكينة ! ماذا قرروا في حقها ؟

فقال :

— حكموا عليها •

— أوه !

— هدئي روعك ، لن تنفي الى سبيرا : حكموا عليها بدفع غرامة مقدارها خمسة عشر روبلاً • مهزلة !

قال ذلك وجلس • فجلس الطيب أيضاً • كانوا يتكلمون عن تاتيانا بافلوفنا • ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد • كنت على يسار ماكار ايفانوفتش • وجلست ليزا أمامي على اليمين • كان واضحاً أنها تعاني ألماً خاصاً جاءت نفسي به الى أمي • كان وجهها ينم عن اضطراب واستياء • وقد تبادلنا نظرة في تلك اللحظة ، فقلت لنفسي فجأة : « كلانا تلتطخ شرفه ، وعلىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها » • لقد رقت قلبي لها فجأة • وفي تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروي ما جرى في الصباح •

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا في هذا الصباح أمام قاضي الصلح مع طباحتها • وكانت القضية مضحكة جداً • سبق أن ذكرت أن الفنلندية المتعبة كانت اذا غضبت تلزم الصمت في بعض الأحيان أسابيع متصلة فما تعجيب بكلمة واحدة على أسئلة مولاتها • وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا ضعيفة تجاهها ، فهي تحتمل منها كل شيء ، ولا يمكن أن تطردها من خدمتها بحال من الأحوال • ان جميع هذه النزوات النفسية التي تلاحظ في العوانس أمور تستحق الاحتقار في نظري ولا تستحق أى اهتمام ، واذا كنت قد قررت أن أروي هذه القصة هنا ، فأنما يدفعني الى ذلك

ان هذه الطباخة سيكون لها فى روايتى دور مشئوم لا يمكن اغفاله •
وأعود الى حكايتها فأقول ان تانيانا بافلوفنا قد نفذ صبرها أخيراً وضافت
ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التى لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ
عدة أيام ، فاذا هى تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً •
وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً ألبتة بل لم يصدر عنها أى
صوت ، ولكنها اتصلت فى ذلك اليوم بنفسه بمستأجر كان يقيم فى مكان
يطل على سلم الخدم نفسه ، تحت ، وهو الملازم البحرى المتقاعد
أوستروف الذى كان يعمل وسيطاً فى جميع أنواع القضايا ، وكان يرفع
الى المحاكم قضايا من هذا النوع ، طلباً للرزق فى الكفاح من أجل البقاء •
وكانت النتيجة أن طلبت تانيانا الى المثول أمام قاضى الصلح ، واستدعى
فرسيلوف شاهداً •

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب
أن أمى نفسها أخذت تضحك • وقد قلد شخصيات تانيانا بافلوفنا والملازم
البحرى والطباخة • فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضى أنها تطالب بتعويض
مالى وكيف عقت على ذلك قائلة : « والا فلن أهيب العشاء اذا هى
'سجنت ؟ ' • وروى كيف أن تانيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضى
بكثير من التكبر حتى انها أثبت أن تبرز فعلتها وانتهت الى القول :
« ضربتها ولسوف أضربها أيضاً » ، فكان أن 'حكم عليها بغرامة قدرها
ثلاثة روبلات لعدم توقيرها القاضى • وأخذ يصف الملازم البحرى ، وهو
شاب متخلع المشى تحيل الجسم ، فذكر كيف اندفع يلقي خطاباً طويلاً
فى مدح صاحبه الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً
فأخذت القاعة كلها تضحك • وسرعان ما انتهت المناقشات فحكم على تانيانا
بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها ماري ، التى أساءت اليها
وأهانتها • فما كان من تانيانا بافلوفنا الا أن استلت محفظة نقودها فوراً

بدون انتظار ، وعدت المبلغ ، فاذا بالملازم البحرى ينبجس حالاً ويمد يده ، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت ان تضربها ضرباً ، والتفت نحو مارى تريد ان تنقدها المبلغ ، فقالت لها مارى : لا تكثرنى يا سيدتى ، وأضيفى المبلغ الى حسابى ، أما هذا السيد فساقوم أنا بدفع أجره له ، فقالت تاتيانا بافلوفنا : « رأيت يا مارى ما أغبى الرجل الذى اتخذته مدافعاً عنك ؟ » قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهى تومىء الى الملازم البحرى ، فرحةً أعظم الفرح بأن مارى قد فتحت فمها أخيراً . فأجابت مارى وهى تنظر نظرة مأكرة : « هو غبى فعلاً يا سيدتى . أظن أنك أمرتى اليوم بأضلاع مشوية وبازلأء ، أليس كذلك ؟ اننى لم أسمع كلامك حين كنا فى البيت اذ كنت استعجل المجيء الى هنا » . فأجابتها تاتيانا بافلوفنا : « بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا مارى ، وإياك أن تحرقها كما فعلت أمس ! » فقالت مارى : « سأكون شديدة الانتباه يا سيدتى ، ولا سيما اليوم . هاتى يدك » . وقبلت مارى يد مولانها دليلاً على المصالحة . فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك .

— يالها من امرأة غريبة الأطوار !

كذلك قالت ماما وهى تهز رأسها ، راضية مع ذلك بالنبا ، مقتبطة أيضاً بما قصه آندره بتروفتش . ولكنها كانت تختلس النظر الى ليزا قلقة .

قال ماكار ايفانوفتش وهو يضحك :

— هكذا كانت الأنسة منذ طفولتها .

فقال الدكتور :

— هذا من أثر الصفراء والفراغ .

— إياى تعنون ؟ عنى تجيئون على ذكر الصفراء والفراغ ؟

ان تاتيانا بافلوفنا هى التى دهمت الغرفة ، وكان واضحاً أنها راضية
عن نفسها جداً • وأردفت تقول مخاطبة الطبيب :

— يا ألكسندر سيمونوفتش ، خير لك ألا تقول هذه السخافات •
لقد عرفتنى حين لم تكن قد بلغت العاشرة من عمرك ، فلا بد أنك تعلم
هل أنا فى بطلاة وفراغ حقاً • أما عن الصفراء فانك تداوينى منذ سنة
كاملة ولا تفلح فى شفائى • كان عليك أن تخجل من هذا ! هيئاً هيئاً ،
لقد سخرتم منى سخرأً كافياً • شكرأً يا أندره بتروفتش لأنك رضيت
أن تحيىء الى المحكمة شاهداً • أما أنت أيها العزيز ماكار ، فمن أجلك
انما جئت • لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت الىّ ، ولكنها
لم تلبث أن ربت على كفتى بمودة • اننى لم أرها مشرقة المزاج الى هذا
الحد فى يوم من الأيام) •

وختمت كلامها تقول وهى تلتفت فجأة الى الطبيب وتقطب حاجبيها
مهمومة :

— فماذا يا دكتور ؟

— لا يريد أن يبقى راقداً ، وهو بالجلوس يرهق نفسه •

فجمعهم ماكار ايفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل :

— ولكنها لحظة تقضيها مع الاصدقاء ••

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

— نعم نحن نحب هذا ، نحب أن نثرثر مع الناس ؛ نحب أن
يتحلق حولنا جمهور • اننى أعرف صاحبنا ماكار •

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً الى الطبيب :

— وما أشد اصراره • انتظر قليلاً ، دعنى أتكلم : لسوف أرقد على

السريير ، ولكن المثل عندنا يقول : « من يرقد فقد لا ينهض » • ذلك بعينه هو ما يتربص بى يا صديقى -

- هوه ! هى الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش فى عقولنا « اذا رقدت فقد لا أنهض » ، ذلك ما تخشاه عامة الشعب فى أكثر الأحيان ، فيؤثر الرجل أن يقضى فترة مرضه واقفاً على أن يذهب الى المستشفى • أما أنت يا ماكار ايفانوفتش فان ما يستولى على نفسك الآن هو الضجر ، هو التحسر على الحرية ، هو الشوق الى السفر والتجول والتجواب • مرضك كله هو أنك فقدت عادة المكث فى مكان • نعم ، ان التشرذم ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا • لاحظت هذا مراراً • ان شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حياً للتشرذم •

قالت تاتيانا بافلوفنا :

- فى رأيك اذن أن ماكار متشرذم ؟

- لا ، ليس متشرذاً بهذا المعنى • لقد استعملت الكلمة بمعناها العام • ان ماكار متشرذم عن تدين وتقى ، ولكنه متشرذم على كل حال • صحيح أنه متشرذم بمعنى حسن ، بمعنى نبيل ، ولكنه متشرذم •• من وجهة النظر الطبية •••

التفت فجأة نحو الدكتور ، وقلت :

- أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا ، أولى بأن 'نعد' متشردين من هذا الشيخ الذى يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له فى حياته مبدأ ثابتاً ، أما حياتنا نحن جميعاً فتتشرذم على غير هدى فى كل اتجاه •• ولكنك فى الواقع لا تستطيع أن تفهم !

لا شك أنتى تكلمت بخشونة ، ولكن من أجل هذا انما جئت

والحق أننى لا أدرى لماذا بقيت ، ولكننى كنت خارجاً عن طورى حتى
لأننى جنت •

فنظرت الى تاتيانا وقد بدا فى هيتها الاشتباه ، وقالت تسألنى :
- ماذا أصابك ؟

ثم قالت تسأل ماكار ايفانوفتش مشيرة بيدها الى :
- كيف تجده ؟

فأجاب ماكار ايفانوفتش :

- باركه الله • ان له فكراً متقدماً •

ولكن الحضور ما أن سمعوه يصفى بأن لى فكراً « متقدماً » حتى
طفقوا يضحكون • فكلمت غيظى • وكان الدكتور أشدهم ضحكاً •
من المؤسف أننى كنت أجهل فى ذلك الحين ما كانوا قد تواطئوا عليه •
ان فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا ، قبل ثلاثة أيام ، على
أن يصرفوا أمى عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار
ايفانوفتش الذى كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاءً على المداواة مما
كنت أظن حينذاك • ذلك هو السبب فى أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا
يحاولون أن يضحكوا • غير أن الطبيب كان أحرق ، وكان بطبيعته
لا يعرف كيف يمزح • هذا هو السبب فى كل ما أعقب ذلك • فلو كنت
على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر • وكانت ليزا لا تعلم أيضاً •

ظللت أصغى بجزء من سمعى ، فكانوا يتكلمون ويضحكون ؛ أما أنا
فكان رأسى مشغولاً بشئ آخر : داريا أوينسيموفنا وما ذكرته لى من أبناء ؟
وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور فى رأسى • انها تترامى لها هناك ،
جالسة تنظر الى ، ثم قائمة بحذر لتلقى نظرة على الشرفة الأخرى •

وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة • كانت تاتيانا بافلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحد قائلة له : « هذا معروف ، ما أنتم جميعاً يا أطباء النحس الا ملاحدة ، »

فهتف الدكتور يقول منظاهراً تظاهراً غيباً بأنه أمين ، مطالباً بأن ينصف :

— ماكارايفانوفتش ! هل أنا ملحد ؟ نعم أم لا ؟

— أنت ملحد ؟ لا ، لست ملحداً !

بذلك أجابته الشيخ وهو يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وأضاف يقول هازئاً رأسه بوقار :

— لا ، الحمد لله • أنت انسان مرح •

فسأله الدكتور بسخرية :

— واذا كان الانسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً ؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك :

— هذا رأى !

فهتفت أقول على غير ارادة منى وقد فتنت بهذه الفكرة :

— رأى قوى !

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً •

فبدأ ماكارايفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً :

— هؤلاء المثقفون ، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت فى البداية أخشاهم كثيراً : كنت اذا لقيتهم أنهيهم ، لأننى لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة • كنت أقول

لنفسى : « اننى لا أملك الا نفساً واحدة ، فاذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً » ، ولكننى استرددت شجاعتى بعد ذلك فقلت لنفسى : هيا ، ما هم آلهة على كل حال ، هم بشر مثلنا ، لهم ما لنا من أهواء ! ثم استبدى بى حب الاطلاع قوياً شديداً ، فقلت لنفسى : « أريد أن أعرف أخيراً ما الاتحاد . . » ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقى .

صمت ماكار ايفانوفتش لحظة ، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام ، مبسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها . ان هناك سذجاً يركنون الى جميع الناس والى كل انسان دون أن تخطر السخريه لهم : بال . وهؤلاء يكونون 'سذجاً' فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أئمن ما تخفى . ولكن يبدو لى أن ماكار ايفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هى الشيء الوحيد الذى يدفعه الى الكلام . انه يملك شيئاً من صفات الدعاة . ولقد سررتنى أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلوا حتى من بعض المكر ، تناول به الدكتور ، وربما فرسيلوف أيضاً . وكان واضحاً أن هذا الحديث تمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع . ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشثومة التى كهربتى بالأمس ، فأهاجتى اليوم هيجاناً مازلت آسف له .

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال :

- « الملحد - الانسان » ، ربما كنت أخشاه الى الآن . ولكن هذا الملحد - الانسان ، يا ألكسندر سيمينوفتش ، لم يتفق لى أن لقيه مرة واحدة فى يوم من الأيام ، وانما أنا لقيت « الملحد - المشوش » . نعم هكذا يجب ان يسمى . أناس من كل نوع ، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم . بينهم كبار وصغار ، وبينهم حقى وعلماء ،

وبينهم حتى افراد من عامة الشعب ، وهم جميعا مشوشون ، انهم يقضون حياتهم كلها فى القراءة والاستدلال والتفكير ، وقد امتلأت نفوسهم افتئانا بالكتب ، ولكنهم يظلون دائماً فى الشك ، ولا يستطيعون أن يمزوا أمرهم على شئ . منهم من تبشروا تبشراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم ، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام . ومنهم خفاف يحسون ولا يكثرثون ولا يهتمهم الا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات . ومنهم لا يقطعون من الكتب الا الزهرة ، ولكنهم يقطعون الزهرة التى يريدون ، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال . اسمع ما سأقوله لك : ان فى هذا كله ضجراً كثيراً . الانسان البسيط يعيش فى عوز ، فهو فى حاجة الى خبز ، ولا يملك ما يقدمه للصغار ، وينام على قش خشن ، ولكن قلبه فرح خفيف دائماً . قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً ، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً . أما الانسان الذى له شأن خطير فهو يتملاً شراباً وطعاماً ، وينام على أكداس ذهب ، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر . ان بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم ، ولكن الضجر بقى فى قلوبهم . أعتقد أن الانسان كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً . انظر فى هذه النقطة : لقد وجد التعليم منذ وجد العالم . فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح ؟ بل اننى لأقول لك : انهم ليس فيهم جمال ، ولا يريدون الجمال . هم جميعاً أموات ، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته ، ولا يخطر بباله أن يتجه الى الحقيقة « الوحيدة » . أن يعيش المرء بغير اله فذلك عذاب . وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق ، حتى دون أن يفتنوا الى ما يفعلون . أين العقل والحكمة فى هذا ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود . بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الانسان نفسه . ما من أحد قادر على هذا . فإذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب ، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال . انهم جميعاً وثنيون لا ملحدون . هكذا يجب أن نسميهم . ولكن كيف لا يكون

هناك ملحدون ! ان بعض الناس ملحدون حقاً ، وهؤلاء ابعث على الخوف
والرهبة من الآخرين ، لأن اسم الله مائل في أفواههم دائماً ، سمعت عن
هؤلاء مراراً ، ولكننى لم ألق أحداً منهم يوماً ، هم موجودون يا صديقى ،
وأظن أنهم لابد أن يوجدوا •

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً :

– موجودون يا مكارايفانوفتش و « لابد أن يوجدوا » !

– موجودون حتماً و « لابد أن يوجدوا » !

أفلت منى هذه الجملة بغير ارادتى حارةً ملتتهبةً لا أدري لماذا •
ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتنى ، كما أن فكرةً فتنتنى فى قوله :
« لابد أن يوجدوا » • ما كنت أتوقع هذا الحديث أبداً • وحدث فى تلك
اللحظة شئ لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً •

٤

كان النهار مضيئاً جداً • وقد جرت العادة في غرفة ماكار ايفانوفتش أن تسدل الستارة طول النهار بأمر من الطبيب • غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً • فلم يكن أعلى النافذة مغطى • ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة • وقد بقينا معه الى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً • واذ كان منهمكاً في الحديث فانه لم ينتبه الى ذلك في أول الأمر • ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر في الكلام • لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينيه المريضين • وكانت أمي واقفةً أمامه • فنظرت الى النافذة عدة مرات في قلق • وكان ينبغي أن تغطي النافذة تماماً • ولكن أمي • من حرصها على ألا تقطع جمل الحديث • بدا لها أن تزحزح المقعد الذي كان يجلس عليه ماكار ايفانوفتش • أن تزحزحه نحو اليمين بدفعه خمسة عشر سنتميترًا أو عشرين في أكثر تقدير • وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح • اذ أبى المقعد أن يتزحزح • وأحس ماكار ايفانوفتش بجهودها • ولكن على غير شعور البتة • وذلك من شدة انجرافه في الحديث • وحاول أن ينهض عدة مرات • ولكن ساقه لم تسعفه • وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد • فاذا بهذا كله يثير حنق ليزا في نهاية الأمر • اتنى أتذكر بعض نظراتها الملتبها الساحطة • ولكنني في اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات الى سبب • هذا عدا أنني كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عده •

وفجأة دَوَى هذا النداء العنيف الذى يشبه الصراخ ، متجهاً الى
ماكار ايفانوفتش :

- ولكن هلاً نهضت قليلاً ! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد ؟

فنظر الشيخ الى ليزا بسرعة ، وفهم على الفور ، وحاول فى الحال
أن يطيعها ، ولكنه لم يفلح ، فانه ما ان ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات
حتى تهوى عليه ثانية • فقال يجب ليزا بصوت شاك وهو ينظر اليها
بمذلة :

- لا أقدر يا ابنتى !

- تقدر أن تتدفق فى كلام يملأ كتاباً بكامله ، أما أن تتحرك قليلاً
فلا تقدر ، هه ؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا :

- ليزا !

وعاد ماكار ايفانوفتش يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض •
فصاحت ليزا تقول له من جديد :

- تناول عكازتك فاستعن بها • هى ذى على الأرض !

فقال الشيخ ، وهو يسرع الى تناول عكازته :

- حقاً •

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض :

- بل نهضه وكفى !

وتحرك الطيب ، واندفعت تاتيانا بافلوفنا ، ولكنهما لم يصلا الى
ماكار ايفانوفتش الا وقد توكأ على عصاه ، ونهض فجأة ، ووقف على ساقيه

ناظراً حوله ، فرحاً بالتصاريه ، ضاحكاً في مرجه ، قائلاً بما يشبه
الظفر :

- استطعت مع ذلك • شكرأ يا ابنتي ، لقد رددتني الى الصواب
وكنت أظن أن ساقى أصبحت عاجزتين لا تصلحان لشيء !

ولكنه لم يلبث واقفاً مدة طويلة • فانه ماكاد ينهى جملته حتى
انزلت العكازة التي كان يستند اليها بكل وزنه ، انزلت على السجادة
فجأةً • فاذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله • كان المنظر رهيباً •
اننى أتذكر ذلك • صاح الجميع بصوت واحد : « أوه ! » ، وأسرعوا
يرفعونه عن الأرض • ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أى كسر •
صحيح أن ركبته قد صدمت الأرض صدمةً قويةً فأحدث سقوطه ضجة
شديدة • ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند اليها •
وأنهضوه وأرقدوه على السرير • كان وجهه شاحباً ، لا من الخوف ، بل
من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض
الأخرى) واضطربت أمى أشد الاضطراب هلعاً • واذا بماكار ايفانوفتش
الذى لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً ، ولم يك
يثوب الى نفسه ، اذا هو يلتفت الى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون
حنوناً واثراً بالمعطفة :

- لا يا ابنتي • أصبحت ساقى لا تحملانى ، كما ترين •

لا أستطيع أن أصف الشعور الذى أحسسته • ان أقوال الشيخ
المسكين لم يكن فى نبرتها أى شكوى أو ملامة • بالعكس : كان واضحاً
أنه منذ البداية لم ير فى كلمات ليزا أى سوء ، وأنه عدّ صراخها شيئاً
واجباً ، أى تقريباً يستحقه خطؤه • وقد أثر هذا فى ليزا تأثير رهيباً
أيضاً • لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع ، ووقفت فى مكانها

كالميتة ، مثالة طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث . لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الحجل والندم .

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة :

- كفى ! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث . فليرجع كل واحد الى حيث كان . ولكن ما العمل اذا كان الطبيب نفسه هو الذى يبدأ الشرثرة ؟

فقال ألكسندر سيمينوفتش وهو يسعى حول المريض منهمكاً :

- حقاً يا تاتيانا بافلوفنا . معذرة . انه فى حاجة الى راحه .

ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء : انها منذ نصف دقيقة تنعم النظر الى ليزا صامته . ثم قالت فجأة :

- تعالى يا ليزا وقبّلينى ، قبّل العجوز الحقاء ، اذا أردت

طبعاً !

وقبّلتهما ، لا أدري لماذا ، وكان هذا ما يجب فعله حقاً ، حتى اننى أوشكت أنا نفسى أن اندفع الى تاتيانا بافلوفنا فأقبّلها . كان يجب فعلاً ألا تُسحق ليزا باللوم ، وانما يجب أن تُستقبل العاطفة الطيبة الجديدة التى ستشأ فى نفسها بالمرح والتهنئات .

ولكننى لم أسلك هذا السلوك فى الواقع . لقد نهضت فجأة ، وقلت وأنا أقطع كلمائى بغية أن تكون بارزة واضحة :

- ماكار ايفانوفتش ، انك قد استعملت مرة أخرى هذه الكلمة : الجمال ، وكانت هذه الكلمة تعذبنى بالأمس ، وتعذبنى طوال هذه الأيام الأخيرة . بل انها عذبتنى فى جميع أيام حياتى ، ولكننى لم أكن أعرف فى الماضى ماذا كان عذابى . فأنا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد أعدها معجزة ... اننى أعلن هذا بحضورك .

ولكنهم أوقفوني عن الكلام • أكرر أنتى كنت أجهل ما تواطئوا
عليه بصدد ماما وماكار ايفانوفتش • وقياسا على ما عرفوا من أفعالى الماضية ،
حكموا بأننى لا أنورع عن أية فضيحة •

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضبا شديدا ، وزارت تقول :
- أسكتوه !

وأخذت ماما ترتجف • وذعر ماكار ايفانوفتش هو أيضاً حين
رآهم جميعاً مذعورين • وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة :
- اسكت يا آرКАДى •

ولكننى لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى :
- يشدنى ويقزنى يا سادتى أن أراكم جميعاً يقرب هذا الطفل
(أشرت بيدى الى ماكار) • ليس هنا الا قديسة واحدة هى ماما ، ولكنها
هى أيضاً ...

قال الدكتور ملحا :

- انك تروّعها !

فتمتت أقول :

- أعلم أنتى عدو الجميع ••

أو قلت كلاماً من هذا المذاق • ثم التفت الى فرسيلوف ألقى عليه
نظرة تحدٍ واستفزاز • فصرخ فرسيلوف قائلاً :

- آركَادى ...••• سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع •
فسيطر على نفسك الآن • أرجوك !

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التى ظهرت على فرسيلوف وهو

ينطق بهذه الجملة • لقد عبرَ وجهه عندئذ عن حزن خارق ، صادق ،
كامل • ومما يدعو الى الدهشة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة انسان
نادم : فالآن أنا القاضى وهو الجانى • فكان من شأن ذلك كله أن أخرجنى
عن طورى • فهتفت أجيبه قائلاً :

— نعم ، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسيلوف ، يوم كنت قد
انتزعته من قلبى ••• ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وُبعث الموتى •••
أما الآن فقد انتهى كل شيء ••• ولسوف ترون جميعاً ، جميعاً ، ما أنا قادر
عليه ! انكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله •

قلت ذلك ، واندفعت الى غرفتى • فهرع فرسيلوف ورائى •

٥

انتكست بعد ابلال : اتتابنتى حمى شديدة ، وفى المساء كنت أهنى . ولكن لم يكن كل شيء هديانا ، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة ، حفظت واحداً منها الى آخر حياتى ، أو قل حفظت شذرات واحد منها أرويه الآن بدون تفسير . لقد كان فى ذلك الحلم تنبؤ ، فلا أستطيع أن أغفله .

رأيتنى فى غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبى فجأة بنية عظيمة نبيلة . أين ؟ لا أدري . ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا . وأقول سلفاً : اننى أتذكر تلك الغرفة تذكراً وضحاً كل الوضوح . ورغم اننى كنت جيداً ، فقد كنت أحس - مثلاً قلماً - اننى لست جيداً وأننى أنتظر ، وأن شيئاً 'يتوقع منى' ، ففى مكان وراء الباب أشخاص ينتظرون ما سأفعله . احساس لا يطاق : « آه .. ليتنى كنت جيداً » . وها « هى » ذى تدخل فجأة . انها تنظر الى « خجلة » ، خائفةً خوفاً شديداً ، باحثةً عن عينى . و « الوثيقة بين يدي » . وابتسمت لتفرينى ، والتصقت بى . فأشفقت عليها . ولكننى أخذت أشعر باشمئزاز . وفجأة غطت وجهى بيديها ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف : « لا تسألينى شيئاً . خذى . لا أطلبك بشيء ! بالاحتمار انتقم لنفسى من كل الالهات التى تحملت » .

وخرجت من الغرفة شاعرا بكبرياء قويه واعتزاز شديد . ولكن لامير يوقننى على العتبة فى الظلام ، ويهمس قائلاً لى وهو يمسك

ذراعى بقوة : « أحقق ، أبله ! سوف تنشئ فى فاسيلي اوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعنى لتستطيع أن تجنبى رزقها اذا علم أبوها بأمر الوثيقة فحرمها من الميراث وطردها من بيته • اننى اسجل تعابير لامبير بنصها كما سمعتها فى الحلم) •

– آر كادى ماكاروفتش يسمى وراء « الجمال » •

ذلك صوت آنا آندريفنا النحيل سمعته قريباً منى على السلم • ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سخريه لاتطاق • وأعود الى الغرفة مع لامبير • فاذا « هى » ، حين تراه ، تأخذ تضحك مستهزئة • ان الشعور الأول الذى أحسسته كان ارتياحاً رهيباً ، ارتياحاً بلغ من الهول أننى توقفت ورفضت أن أتقدم • ونظرت اليها فلم تصدق عيناي ما رأيت • لكان قناعاً كان على وجهها فاتحسر القناع فجأة : لا تزال قسمات وجهها كما هى ، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها • وصاح لامبير يقول لها : « الفدية يا سيدتى ، الفدية ! » ، فاذا ضحكهما كليهما يشتد • وكف قلبى عن الحفقتان • « هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوقحة هى المرأة نفسها التى كان يكفينى أن تنظر الىّ حتى يشتعل قلبى فضيلة ؟ » •

ويهتف لامبير قائلاً :

– هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبناء المجتمع الراقى فى سبيل المال !

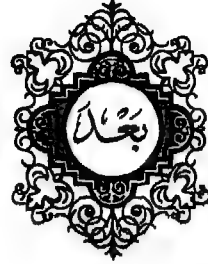
ولكن الوقحة لم تضطرب • وهى انما تضحك لأننى مروّع • آه ! انها مستعدة للفدية ، و • • • ماذا يحدث فى نفسى ! أصبحت لا أشعر بشفقة ، بل باشمئزاز • وأرتعش كما لم أرتعش فى حياتى من قبل • • • واستولت علىّ عاطفة أخرى لا سبيل الى وصفها ، عاطفة لم أعرفها فى يوم من الأيام ، عاطفة قوية قوة الكون • أصبحت لا أقوى على

الانصراف • لن أنصرف بحال من الأحوال • آه • • • • •
 أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الحلاعة ! وهانذا امسك يديها • ان ملامسة
 يديها تهز نفسى هذا اليماء • وهانذا أقرب شفتى من شفيتها الوقيتين ،
 القرزيتين ، اللتين ترتجفان ضحكاً وتناديانى •

بعداً لهذه الذكرى المخزية ! سحناً لهذا الحلم اللعين ! أحلف
 لكم أننى قبل هذا الحلم الدنىء لم يراود خيالى أى شىء يشبه هذه الفكرة
 المخجلة ! لا ، لم يراود خيالى شىء من ذلك حتى فى أحلام من هذا النوع
 بغير ارادة (وان كنت قد احتفظت « بالوثيقة » مخيطة فى جيبى ، وكنت
 أتحمسها من حين الى حين مبتسماً ابتسامة غريبة) • فمن أين جاءنى
 هذا فجأة ؟ جاءنى من أن لى نفس عنكبوت ! أعنى أن هذا كله كان قائماً
 فى نفسى منذ مدة طويلة على حال بذرة ، وكان ثاوياً فى قلبى الفاسق ،
 فكنت « أشتى » ، ولكن قلبى كان الحجل لا يزال يصد ، وكان فكرى
 لا يجسر ، بعد ، أن يتصور شيئاً من هذا القليل تصوراً واعياً • أما
 فى الحلم فإن النفس قد عرضت كل ما كان قائماً فى قلبى ، فجاءت
 هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة ، وكانت نبوءة • هل « هذا »
 ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين وُلّيت فى الصباح من عند
 ماكار ايفانوفتش ؟ ولكن كفى ! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين !
 ان هذا الحلم الذى رأيتُه هو من أغرب مغامرات حياتى •

الفصل الثالث

١



ثلاثة أيام نهضت في الصباح فشعرت فجأة ، حين
وقفت على قدميَّ ، أتني لن ألزم السرير بعد
اليوم . لقد أحسست في كيائي كله بانقراب
الشفاء . لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن
تسجل . لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شيء ذو بال ، ولكنها بقيت في
ذاكرتي بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً : هذا أمر نادر في ذكرياتي . لا أريد
الآن أن أصف حالتي النفسية . فلو عرف القارئ ماذا كانت لما صدق .
فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد . ولكنني بانتظار ذلك أقول :
ليتذكر القارئ ما هي « نفس عنكبوت » ، ما هي نفس عنكبوت لدى
إنسان يريد أن يتركهم ، « هم » والعالم كله سعيّاً وراء « الجمال » ! صحيح
أن ظمئي إلى الجمال كان في ذروته ، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ إلى
الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع ! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز
عن حله . ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشني أن يستطيع
الإنسان (الإنسان الروسي خاصة) أن يهدد في قلبه أسمى شيء
وأدنى شيء في آن واحد ، صادقاً مع ذلك صادقاً كاملاً . هل مرد هذا
إلى « راحة الفكر » التي تُعزى إلى الروسي أم مرده إلى حطة لا أكثر ؟
ذلك هو السؤال .

ولكن دعونا من هذا . المهم أنه كان ثمة هدنة . لقد أدركت أن على
أن أسترّد عافيتي بأي ثمن ، وبأقصى سرعة ممكنة ، لأبدأ العمل في أقرب

وقت ، كذلك قررت أن أعيش ملتزماً بقواعد الصحة ، وإن أطيع الطبيب (كيف كان) ، وأن أرحى نيات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه نعمة رحابة الفكر) الى أن أخرج ، اى الى ان اشفى . كيف امكن أن تجمع مشاعر المسألة ومباهج الهدنة تلك كلها مع خفقات قلبى العارمة الجامحة الاليمة ألماً لذيداً ، ومع توجس الفرارات العاصفة الهوجاء التى أزمع أن أتخذها ؟ لا أدرى . ولكننى أعزو ذلك الى « رحابة الفكر » . أصبحت لا أشعر بالقلق الذى كنت أحسه من قبل . لقد أرجأت كل شئ الى وقته المعين ، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضاً ، وانما أنا الآن أمام المستقبل رجل غنى واثق بما يملك من موارد وقوى . وكانت مشاعر الغرسة والتحدى تجاه المصير ما تنفك تزداد ، ولعل ذلك يرجع قليلاً الى شفائى الذى أصبح الآن واقعاً ملموساً ، والى اننى استرددت طاقاتى الحيوية . ومازلت الى الآن أتذكر ، بكثير من الاثراح والسرور ، تلك الأيام التى كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل .

وكانوا قد غفروا لى كل شئ ، غفروا لى اندفاعتى العنيفة وأقوالى القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف ! هذا ما أحبه فى الناس ، هذا ما أسميه ذكاء القلب . أو قل اننى افتتنت بهذا الموقف على الفور ، بعض الافتتان طبعاً . فمع فرسيلوف مثلاً ظلمت أحدث كما يتحدث صديقان قديمان ، ولكن الى حد لا تتجاوزه : فمتى أسرفنا فى اظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث) ، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً ، وشعرنا بشئ من الحجل . ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الحجل من المغلوب ، لا لشيء الا لأنه غلبه . ولقد كنت أنا الغالب طبعاً ، فكنت أحمر من ذلك خجلاً .

وفى ذلك الصباح ، أعنى يوم نهضت عن سريرى بعد الانتكاس ،

جاء فرسيلوف الى * . وعندئذ انما علمت منه أول مرة ما كانوا قد تواطوا عليه في شأن ماما و ماكار ايفانوفتش * . وقد أضاف فرسيلوف أن الشيخ تحسنت صحته ولكن الطيب لا يضمن شفاءه * . فوعده من كل قلبى بأن أكون فى المستقبل أكثر حذراً وتروياً * . وحين كان فرسيلوف يروى لى هذا كله ، لاحظت فجأة * ، أول مرة ، أنه كان هو نفسه قلقاً على الشيخ ، وأن قلقه صادق لا اصطناع فيه ، أى كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله ، ولاحظت أنه يمدد رجلاً عزيزاً ، عزيزاً عليه هو ، بغض النظر عن أمى * . وقد تساقى هذا الأمر ، بل أدهشنى تقريباً * . فأنا أعترف بأننى لولا فرسيلوف لفاتتني أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذى خُلف فى قلبى ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالة * .

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقاتى بماكار ايفانوفتش ، أو قل انه كان لا يركن الى ذكائى ولا الى كياستى ، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أننى أيضاً قادر فى بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع انسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف ، أى اننى أستطيع عند اللزوم أن أكون انساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة * . وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسى فيما أظن) بأننى وجدت فى هذا الانسان الآئى من صفوف الشعب شيئاً جديداً على كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار ، شيئاً أجهله ، شيئاً هو أوضح كثيراً وأدعى الى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبى فى فهم الأشياء من قبل * . ولكن كان يستحيل على * مع ذلك ألا أغضب فى بعض الأحيان حين كنت أراء يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها ايماناً هادئاً ويطمئن اليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع * . على أن ذلك انما يرجع طبعاً الى نقص ثقافته * . أما نفسه فقد كانت فى الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما * .

ان ما كان يجذبني اليه قبل كل شيء آخر ، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً ، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً . كان قلبه عامراً « بالفرح » ، و عامراً اذن « بالجمال » . وكان يحب كلمة « الفرحة » هذه حباً كثيراً ، وكان يستعملها في كلامه كثيراً . صحيح أنه كان ينتابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضي ، نوع من حنان مرضي لعله يرجع الى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة . ولكن ذلك كان لا يمنع الجمال الروحي من أن يتألق فيه . وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة : فالى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزنني) ، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصة في المناوشات الجدلية . كان يحب الجدال ، ولكنه يحبه بين الفينة والفينة ، ويحبه على طريقتيه الخاصة . ان المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً ، وسمع كثيراً . ولكنني أعود فأقول انه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر ، ويحب اذن كل ما يؤدي الى الحنان ، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان . وكان يحب كثيراً أن يقص . لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن أسفاره ، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك . وهذه أمور ليست معروفة عندى أو مألوفة لى ، ولكنني أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء مختلفة كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله شعبنا بالرواية . كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً . ولكن الى جانب هذه التحريفات

الواضحة او التلفيقات الينة كان يشيع فى قصصه الزاخرة بالمعاطفة الشعبية والمثيرة للحنان دائما ، شئ مضيء قوى راسخ . لقد حفظت من قصصه ، مثلاً ، تلك الحكاية الطويلة التى تسمى « حياة ماريما المصرية » . لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئاً عن حياة ماريما المصرية هذه ، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً . ولكننى أستطيع أن أقول بصراحة : انه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريما المصرية دون أن تترقق الدموع فى عينيه ، لا بتأثير ما تثيره فى النفس من حنان ، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة : ان المرء يحس فى هذه القصة بشئ خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التى تملؤها الأسود والتى كانت ماريما تجوبها . ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه ، ولست من أهل الاختصاص فى هذا الميدان على كل حال .

ومما أعجبنى فى ماكارا ايفانوفتش ، عدا الحنان ، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة فى مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس فى عصرنا هذا . ففى ذات يوم ، مثلاً ، روى لى قصة حديثة عن جندى انتهت خدمته ، وقد شهد ماكارا الحادثة بنفسه تقريباً ، فقال ان هذا الجندى حين عاد الى بلده ، ووجد نفسه بين فلاحين ، لم يعجبه ولا أعجبهم . فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شئ ، وأخذنا يشرب ويسرف فى الشراب ، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب . ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة ، ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم . وقد أخذ المحامى يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة ، فاذا بالرجل الذى كان يصنى الى دفاع المحامى ينهض فجأة فيقطع المحامى قائلاً : « لا ، انتظر قليلاً » ، ثم طفق يروى الوقائع من أولها الى آخرها ، ويعترف بذنبه باكياً نادماً . فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة ، ثم عادوا يخرجون ليمثلوا بأن « المتهم برئ » . فتعالت صيحات

الفرح من كل صوب • ولكن الجندي بقى جامداً فى مكانه كأنه استحال
عموداً ، لأنه لم يفهم شيئاً ، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين
أفرج عنه • وانصرف الجندي أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث
له • واستبد به الضجر ، وغرق فى التفكير والتأمل ، فهو لا يأكل
ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً • وبعد خمسة أيام شق نفسه • قال
ماكاز ايفانوفتش خاتماً حديثه : « فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على
ضمير المرء خطيئة » • صحيح أن القصة لا قيمة لها ، وأن أعمدة جميع
الصحف فى أيامنا هذه تمتلئ بحكايات من هذا النوع ، ولكن الشيء
الذى أعجبني انما هو اللهجة • ومما أعجبني أكثر من اللهجة أيضاً ما كان
يستعمله ماكاز ايفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً • من
ذلك أنه حين روى لى كيف لم يعجب الجندي الفلاحين عند عودته الى
القرية قال : « معروف ما الجندي : الجندي فلاح فسد » ؛ وحين
تكلم بعد ذلك عن المحامى الذى كاد يربح الدعوى قال أيضاً : « معروف
ما المحامى : المحامى ضمير للتأجير » • لقد وقع ماكاز ايفانوفتش
على هذين التعبيرين عرضاً بدون أى عشاء ، وبدون أن ينتبه هو نفسه
اليهما • ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين ، وهو
تصور ان كان لا يمثل رأى الشعب كله فانه يمثل رأى ماكاز ايفانوفتش
تمثيلاً رائماً • ان هذه الأحكام الجاهزة التى يصدرها الشعب فى موضوع
من الموضوعات تكون فى بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً •

سألته فى هذه المناسبة :

— ماكاز ايفانوفتش ، ما رأيك فى خطيئة الانتحار ؟

فأجابنى وهو يتهد :

— الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الانسان • ولكن الرب هو الحاكم

الوحيد ، لأنه وحده يعرف كل شيء ، مقاييس وحدوداً • وواجبنا نحن

هو أن ندعو الله لأمثال هؤلاء الخطاة الكبار • فإذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة ، فادع لمرتكبها دعاءً خنوئاً قبل أن تنام ، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه ، وإذا كنت لا تعرفه فإن شفاعتك تكون أجدى أيضاً •

— هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه ؟

— ما يدريك ؟ ان ناساً كثيرين لا يؤمنون ، فيضلون من لا يعلمون • فلا تستمع لهؤلاء ، فانهم لا يعرفون الى أين هم ماضون • ان صلاة صادرة عن انسان حى من أجل انسان ميت تصل الى الرب فعلاً • ولكن ما عسى يصير اليه من ليس له أحد يصلى من أجله ؟ لذلك يجب عليك ، حين تصلى قبل النوم ، أن تضيف هذا الدعاء : « ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلى من أجلهم » • ان هذا الدعاء نافع جداً ، مبهج جداً • بل صلّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء • قل « ربّ أنقذ جميع السادرين فى ذنوبهم بما تعرف من وسائل » • هذا أيضاً صلاة حسنة •

وعدته بأن أثلو هذه الصلوات ، لأننى أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً • وقد سطع الفرح فى وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسى هذا العهد • ولكن يجب علىّ أن أسارع فأضيف أن ماكارا ايفانوفتش كان فى مثل هذه الأحوال لا ينظر الىّ من عل ، كناسك يخاطب مرهقا غراً • بالعكس : كان يجب فى كثير من الأحيان أن يصغى الىّ ، وأن ينصت الى كلامى بدون كلال فى مواضع شتى ، وكان يرى أنه اذا كان يتفوق علىّ بالسن فأنى أتفوق عليه كثيراً بالثقافة • من ذلك مثلاً أنه كان يجب فى أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك ، وكان يضع « عزلة الصحراء » فى منزلة أعلى كثيراً من منزلة « جوب الآفاق » ، فكنت أوجه اليه اعتراضات شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم ، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للانسانية من خير ، لاشئ الا خلاص

أنفسهم • فلم يفهمنى فى أول الأمر ، بل لعله لم يفهمنى فى لحظة من اللحظات ، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً : « ان المرء يشفق على نفسه فى أول الأمر طبعاً (أى حين يستقر فى الصحراء) ، ثم يفتبط يوماً بعد يوم ، ولا يزال يزداد اغتباطه الى أن يرى الرب آخر الأمر » • فأخذت أصور له تصويراً كاملاً ما يقوم به الصالح والطيب وصديق الانسانية عامة من عمل مفيد ، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة ، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة ، وكان يؤيدنى فى بعض اللحظات قائلاً : « نعم يا بنى نعم ، باركك الله ، انك على حق ! » • ولكنه ، حين فرغت من كلامى ، لم يوافقنى مع ذلك موافقة تامة ، وقال متنهداً تنهداً عميقاً : « هذا كله حسن ، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين ؟ اذا لم يكن المال الهأ فهو نصف اله • انه اغراء كبير • ثم هناك المرأة أيضاً ، ثم هناك الشك ، ثم هناك الحسد • فاذا بالمرء ينسى القضية الأساسية ، ويمضى يهتم بالأمر الصغير • ولا كذلك فى عزلة الصحراء • وفى عزلة الصحراء يقوى المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة • نعم يا صديقى • أما فى العالم فماذا يحدث ؟ ، ثم هتف يقول بماطفة خارقة : « أليس العالم حليماً لا أكثر ؟ خذ رملاً وبذره على حصى ، فاذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك فى العالم • • • هذا ما يقولونه عندنا • أما عند المسيح فيقال : « امض وزرع ثروتك ، واجعل نفسك خادماً للجميع » ، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة • ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده ، ولا الثياب الثمينة ، ولا الزهو والحسد ، وانما يصنعها حب لا نهاية له • ان ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة ، ولا مائة ألف ، ولا مليوناً ، وانما أنت ستكسب الكون بأسره ! نحن الآن نجمع المال بدون شبع ، وتلفه بجنون • أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء ، لأن الجميع لى أنا ، لأن الجميع أقربائى ،

كسبتهم جميعاً ، اشتريتهم الى آخرهم • ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم ، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات • أما حينذاك فإن أيامك وساعاتك ستضاعف ألف مرة ، لأنك لن تريد أن تضيّع دقيقة صغيرة واحدة ، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك • وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها ، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه • وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس ، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه ، ولا يبقى الا جنة واحدة لا تقدر بشمن • • • • •

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يحبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً • ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة • قاطعت ماكار ايفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماسي أنا أيضاً (اننى أتذكر تلك السهرة) :

— ماكار ايفانوفتش ! ان ما تنادى به وتدعو اليه هو الشيوعية ، هو شيوعية حقيقية !

واذ كان لا يعرف أى شيء عن المذهب الشيوعى ، حتى انه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة ، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعى • اعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض ، وأننى حتى الآن لست حجةً في هذا الموضوع ، غير أن القليل الذى كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شيء • مازال يسرنى أن أتذكر التأثير الحارق الذى أحدثته فى الشيخ ، بل أستطيع أن أقول ان ما أحدثته فيه لم يكن تأثيراً بل كاد يكون هزة • وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية ، فكان لا ينفك يسألنى : «أين ؟ كيف من فعل هذا ؟ من قال هذا ؟ • •

وكنيت قد لاحظت على كل حال ان هذه خاصة من خصائص الشعب : ان الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً ، لم يكنف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل ختماً . ولقد أربكتني التفاصيل وتحت في شعابها ، واذ كان فرسيلوف يستمع الى حديثي ، فقد خجلت منه قليلاً ، ولكنني ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً . وأصبح مآكار ايفانوفتش في النهاية ، وقد ذاب خائفاً ، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله : « نعم نعم » ، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عني ولا يتابع سلسلة حديثي . وقد ضابقتني هذا ، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأةً ، ونهض معلناً أنه آن اوان النوم . وكانت الأسرة كلها مجتمعة ، وقد طالت السهرة . وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دقائق يلقي نظرة على غرقتي أسرعت أسأله عن نظرته الى مآكار ايفانوفتش ، وعن رأيه فيه عامةً . فضحك ضحكه فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية ، فانه لم يتكلم عن هذا الأمر) . أعود فأقول : ان فرسيلوف كان شديد الالتصاق بمآكار ايفانوفتش ، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتاة حين كان ينصت الى الشيخ . ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد . بادر فرسيلوف يقول :

— قبل كل شيء ، ليس مآكار ايفانوفتش فلاحاً ، وانما هو فن خادم كان أبوه فناً خادماً . فهو لاء الأثان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية ، في العهد الماضي . لاحظ أن مآكار ايفانوفتش لا يزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والارستقراطية . انك لا تعلم بعد مدى ولمه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة . هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة ؟ هذا رجل لا يكتفيه أن تحكي له كلاماً عاماً ، وانما يجب عليك أن تذكر له كل شيء : من الذي قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً ؟

ما أعظم البهجة التي هيأتها له في الماضي بأحاديث من هذا النوع ! وهو يحترم العلم كثيراً ؛ ومن بين جميع العلوم يفضل علم الفلك . عدا هذا يجب أن نذكر أن له في الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها . ان له اقتناعات ثابتة وواضحة ... ومخلصة ! ورغم جهله فانه قادر على أن يدهشك فجأة بمعرفته بأمر ما كان لك أن تتصور أن يعرفها . هو يمدح لك عزلة الصحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف في الصحراء بحال من الأحوال ، لا ولن يدخل الدير ، فانما هو خاصة " متشرد " ، كما سماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمينوفتش الذي يجب أن أذكر لك في هذه المناسبة أنك تخطيء اذا أنت آخذته وحقدت عليه . ماذا أيضاً ؟ هو كذلك فنان قليلاً ، له كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه . منطقته ليس سليماً كل السلامة . انه تارة " يسبح في عالم مجرد " وتارة يفوص في عاطفية شديدة ، ولكن عاطفيته عاطفية شعبية صافية ، أو قل انها نوبات من ذلك الحنان الذي يتصف به شعبنا ويدخله في شعوره الديني ولن أتكلم عن نقاء قلبه وطيب نفسه : فليس الحديث عن هذا من شأننا نحن ...

كى أنتهى من رسم صورة ماكار ايفانوفتش ، سأقل الآن قصة من قصصه ، مستمدةً من حياته الخاصة • ان لقصص ماكار ايفانوفتش طابعاً غريباً ، بل قل انها لا يجمعها طابع مشترك • يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهات عامة ، اللهم الا كونها مثيرة للحنان جميعاً • غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة ، حتى ان بينها قصصاً مريحة فكهة تشتمل على سخريات من بعض الرهبان الفاسدين ، وهذه قصص كانت روايتها تسيء الى فكرته ، وقد نبهته أنا الى هذا ، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول • وكان يصعب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذى كان يدفعه الى رواية هذه القصص ، حتى لقد استغربت منه هذا الاكثار من الكلام ، فعزوته الى شيخوخته والى حالته المرضية •

همس فرسيلوف يقول لى يوماً :

- ليس الآن كما كان فى الماضى • ان وفاته قريبة ، انها أقرب كثيراً مما نظن • فيجب أن نكون متأهبين •

نسيت أن أقول ان « سهرات » مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنده ؟ فعدا ماما التى كانت لا تترك ماكار ايفانوفتش ، كان يأتي فرسيلوف الى غرفته كل مساء ، وكنت آتى أنا أيضاً ، ولم يكن ثمة مكان آخر أذهب اليه على كل حال ؟ وفى الأيام الأخيرة أصبحت تأتى ليزا فى العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتظل صامتةً طول الوقت .

تقريباً ؛ وكانت تأتي تاتيانا بافلوفنا ، وكان يجيء الطيب أيضاً ولكن
مجيئه نادر . ولا أدري كيف رأيتني أصبح قريباً من الطيب . صحيح
أنتى لم أقرب منه كثيراً ، ولكننى على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما
كنت من قبل . ان ما أعجبنى فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً ، ونوع
من التعلق بأسرتنا ، فقررت أن أغفر له غروره الطبى ، وعلمته عدا
ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره ، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك
أمر لم أفلح فى أن أحمله عليه . وقد أفهمته أنتى لا أطلب منه هذا حرصاً
على الأناقة ، وتعلقاً « بالفنون الجميلة » ، وانما أنا أطلبه منه لأن النظافة
جزء من وظائف الطيب نفسها مبرهنأ له على ذلك بالحجة الدامغة . وكانت
لوكيريا تأتي من مطبخنا فى أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتة الى
ما يرويه ماكارايفانوفتش . وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس
معنا . فأعجبنى منه هذا . ولكنها انقطعت منذ ذلك اليوم عن المجىء .
ان لها طبعها !

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكارايفانوفتش وقع عليها
اختيارى عرضاً لسبب واحد هو أنتى أحفظها أكثر مما أحفظ القصص
الأخرى . هى قصة تاجر أظن أن مدنا الكبيرة والصغيرة تجرى فيها
آلاف من القصص تشبهها ، فيكفى أن نحسن النظر حتى نراها .
وللقارئ أن يقفز فوق هذه القصة اذا شاء ، لا سيما وأنتى أرويهما
بأسلوب صاحبها .

٤

حدث هذا عندما ، بمدينة آفيمافو • سأحكي لكم الآن هذه المعجزة • كان يوجد تاجر اسمه سكو توبوينيكوف ، مكسيم ايفانوفتش • لم يكن فى المقاطعة أحد أغنى منه • كان قد بنى مصنع نسيج يشغل مئات من العمال • وهذا كبر رأس الرجل • ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره • وكانت السلطات لا تضع له العصي فى المعجلات • وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسته ، اذ كان يقدم للدير هبات كثيرة ، وكان فى بعض الأحيان ، اذا بدا له أن يفعل ذلك ، يتكلم كثيراً عن الروح ، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة • وكان أرمل ، ولم يكن له أولاد • عن زوجته كانت تجرى شائعات تقول انه أساء معاملتها كثيراً فى السنة الأولى من زواجهما ، مستعملاً قبضتى يديه فى أكثر الأحيان • أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال • وكان يحب الشراب أيضاً • فاذا شرب رآه الناس يركض فى أرجاء المدينة مثلاً ، خالماً ثيابه ، صارخاً • والمدينة صغيرة ، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً • حتى اذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً ، كل رأى يراه فهو الصواب ، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصدره • مع الناس كان يصفى حساباته كما يشاء هواه • هاهو ذا يمسك عدادته ويضع نظارتيه - : « أنت يا فوما ، كم لك على ؟ » فيجيبه فوما : « لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم ايفانوفتش • لى عليك تسعة وثلاثون روبلاً » • فيقول : « لا ، هذا كثير ! هذا كثير عليك ! أنت لا تساوى تسعة وثلاثين

روبلاً • هذا لا يناسبك أبداً ! يجب أن نخصم عشرة روبلات • خذ •
هذه تسعة وعشرون ! • فلا يقول فوما شيئاً • لا أحد يمكن أن يتفوه
بكلمة • صمت عام •

- أنا أعرف كم يجب أن يدفع له • هذا هو التصرف الواجب مع
هؤلاء الناس • الناس هنا فاسدون لولاي أنا لمتوا جوعاً منذ زمن طويل •
لمتوا كلهم بدون استثناء • أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص : عيونهم أكبر
من بطونهم • وليس لهم قلوب تتحرك • زد على ذلك أنهم سكتيرون :
متى دفعت لهم راتبهم حملوه الى الحانة ثم لم يخرجوا منها الا عرياً لا يستر
جسمهم شيء • عرياً كدودة • ثم انهم أوغاد : اجلس على صخرة أمام
الحانة واسمع أنينهم وشكواهم : « لماذا ولدتنى يا أمى العزيزة » أنا السكير
المسكين ؟ لماذا ولدت هذا السكير ؟ كان الأفضل أن تخنقيه منذ ولد ! •
أهذا انسان ؟ بل هو حيوان لا انسان • يجب أن نربيه أولاً • وبعد ذلك
نعطيه مالاً • أنا أعرف متى يجب أن يعطى أحدهم مالاً •

هكذا كان يتكلم مكسيم ايفانوفتش عن أهل آفيمافو • لم يكن ذلك
حسناً منه • ولكنه ليس وحده مخطئاً • كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون
قوة الارادة •

وكان يوجد فى تلك المدينة نفسها تاجر آخر • ولكن هذا التاجر
الآخر مات • كان شاباً وطائشاً • فأفلس وفقد كل رأس ماله • كان فى
السنة الأخيرة يتخطى كسمكة على الرمل • ولكن ساعته كانت قد حانت •
وكانت علاقاته بمكسيم ايفانوفتش شجاراً مستمراً • وكان مديناً له
بمبالغ كبيرة • حتى وهو على فراش الموت • حين كان يلفظ أنفاسه
الأخيرة • كان يلعن مكسيم ايفانوفتش • ومات الرجل تاركاً زوجة
شابة وأطفالاً خمسة وأما أرملة ؟ سنونو بلا مأوى • هذه محنة قاسية •
ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم • وكان كل ما بقى

لهم بيتا صغيراً من خشب انتزعه مكسيم ايفانوفتش سداداً لديونه • واليك ما فعلته الأرملة : صَفَّت أطفالها الخمسة أمام باب الكنيسة : ان أكبرهم صبي عمره ثمانى سنين ؛ والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات • كبراهن عمرها أربع سنين ، صفراهن لاتزال ترضع • فلما انتهى القداس ، خرج مكسيم ايفانوفتش من الكنيسة ، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس) ، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً ، وانحنت الأم الى الأرض وهى تحمل الطفل الخامس على ذراعيها ، انحنت محية مكسيم ايفانوفتش قائلةً له على مسمع من جميع الناس : « يا سيدى الطيب مكسيم ايفانوفتش ، ارحم أطفالاً يتامى ، ولا تترزع منهم آخر لقمة ، لا تطردهم من عش أبيهم ! » • جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً • أحصنت الأم تعليم أطفالها الدرس • قدَّرت أن مكسيم ايفانوفتش لابد أن يخجل أمام الناس ، فيغفر ويرد البيت الى اليتامى • ولكن حدث غير هذا • وقف مكسيم ايفانوفتش وقال : أيتها الأرملة الشابة ، أنت تريدين زوجاً ، وليس من أجل الأطفال تبكين • زوجك لعننى وهو على فراش الموت ! ومضى مكسيم ايفانوفتش ولم يرد البيت • قال : « كيف تنطلى على الأعيهم ؟ اذا أنت أكرمت اللئيم تمرد ! لا يفيد هذا كله فى شىء ، ولا يؤدى الا الى فوضى ! » • وكان يتناقل الناس فى المدينة أن مكسيم ايفانوفتش ، قبل عشر سنين ، قد عرض على هذه الأرملة التى كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال ، مبلغاً ضخماً من المال ، ناسياً أن هذه الحطیئة كخطیئة تدبیر كنيسة من كنائس الرب • ولكنه لم يظفر منها بشىء • وكان قد ارتكب أعمالاً فذرة من هذا النوع فى المدينة بل فى المقاطعة كلها • ولكنه فى هذه المرة جاوز الحدود •

أخذت المرأة تعول مع صفارها • وطرد مكسيم ايفانوفتش الأيتام من البيت ، لا حباً بالشر فحسب ، بل لأن المرء فى بعض الأحيان يجهل

هو نفسه سبب غناؤه وإصراره على فكرته • وفد هبَّ بعض الناس الى مساعدة الأرملة في البداية ، ثم مضت بعد ذلك تلتبس عملاً • ولكن ما عسى يجنى المرء من العمل عندنا في غير المصنع ؟ تفسل أرضاً هنا ، وتعزف حديقة هناك ، وتوقد حماماً هنالك ، وعلى ذراعيها طفل يبكي وفي الشارع أربعة صغار يركضون عراةً الا من قميص ؟ حين أركبتهم أمام الكنيسة كانوا لا يزالون ينتعلون أجذيتهم الصغيرة ، ويرتدون معاطفهم الصغيرة ، كأولاد التجار • أما الآن فانهم يركضون حفاة • تعلمون أن اللباب تبلى بسرعة أجسام الأطفال • وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون الى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع • هم في ذلك الفصل لا يحسون بالبؤس ، بل ينطلقون سعداء ، يزقزقون كالعصافير ، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة • كانت الأرملة تقول : « سيأتي الشتاء فما عساني صانعة بكم ؟ » ليت الرب يأخذكم اليه ! » ولكنها لم تضطر الى الانتظار حتى حلول الشتاء • انتشر في مقاطعتنا سعال أطفال ، السعال الديكي ؟ فكان يسرى من طفل الى طفل • فماتت البنت الرضيع أولاً ، ومرض الآخرون فماتت البنات الأربع في ذلك الحريف نفسه • ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها في الشارع • فماذا الذي تظن أنه حدث ؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة • كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت ، فلما أخذهن الرب اليه ؟ طفقت تتحب وتشنج • هكذا قلوب الأمهات !

لم يبق لها الا ابنها البكر • فكانت ترتعش خوفاً عليه ، حتى لتكاد تخنق اختناقاً • وكان الولد نحيلاً رقيقاً ، وكان له وجه لطيف كأنه بنت • مضت بالولد الى المصنع ، فمهدت به الى عرابه الذي كان مديراً • وذهبت هي تعمل خادمةً في بيت أحد الموظفين • وفي يوم من الأيام كان الولد يركض في الحوش ، فاذا بمكسيم ايغانوفتش يصل راكباً عربته ،

وكان مخموراً كأنما بمصادفة • وكان الولد قد هبط السلم ، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته ، ووضع كلتا يديه على بطنه • فأمسك مكسيم شعر الولد ، وصاح يسأل : « لمن هذا الولد ؟ هاتوا السيّاط ! اجلدوه فوراً ، أمامى • » كاد الولد أن يموت خوفاً ، وأخذوا يجلدونه ، فكان يصرخ • قال مكسيم : « تصرخ أيضاً ؟ اجلدوه الى أن يكف عن الصراخ ! » • جلدوه مزيداً من الجلد ، الى أن أشرف على الموت فعلاً • فتوقفوا عن جلده ، وارتاعوا : أصبح الطفل لا يتنفس ، وظل راقداً مغشياً عليه • لقد قيل فيما بعد انه لم يجلد كثيراً ، ولكنه كان طفلاً شديداً الخوف جداً • وارتاع مكسيم ايّافوقتش نفسه • وسأل : « لمن هذا الولد ؟ » • فقالوا له من هو • فقال : « هكذا اذن ! احمّله الى أمه • ماذا جاء به الى المصنع يسرح فيه ويمرح ؟ » • وبعد يومين سأل : « ما أخبار الولد ؟ » • وكانت الأخبار سيئة : كان الولد مريضاً ، راقداً في ركن عند أمه ، لأن أمه تركت عملها في هذه المناسبة • كان الولد مصاباً باحتقان في الرئة • قال مكسيم : « عجب ! لماذا ؟ انه لم يضرب كثيراً • وانما خوفاً تخويفاً فحسب • لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته ، فلم يحدث شيء • • • » وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها الى القضاء • فكان يتكبر ويتعالى • ولكن أتت المرأة أن تشتكى ! لم تجرؤ • عندئذ أرسل اليها خمسة عشر روبلاً ، وأوفد لها طبيباً • فعل هذا لأنه كان خائفاً ، بل فعله هكذا ، بعد تفكير • ثم أصابته نوبة أقبال على الحمر ، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع •

وانقضى الشتاء • حتى اذا كان الفصح ، سأل في يوم العيد مرة أخرى : « ما أخبار الولد ؟ » • لقد صمت طول الشتاء لا يسأل أبداً • قيل له : « الولد شفى ، وهو عند أمه ، والأم تعمل خادمة في النهار • » ذهب مكسيم ايّافوقتش الى الأرملة ، ولكنه لم يدخل البيت ، بل استدعاها

الى المدخل ، وبقي في عربته . قال لها : « اسمعى ايها الارملة المحترمة ، اتنى أريد لابنك الخير ، أريد أن أكون المحسن اليه ، وأن أغدق عليه نعمى بغير حدود : آخذه الى منزلى منذ اليوم . فاذا أعجبني قليلاً تركت له مبلغاً كبيراً ، واذا أعجبني اعجاباً تاماً جعلته وريشى بعد موتى وتركت له كل ثروتى كأنه ابنى ، ولكننى أقفل هذا بشرط واحد : أن لا تجيئى الى بيتى أبداً ، الا فى الأعياد الكبيرة . قال هذا وانصرف . وبقيت الأم كالمجنونة . سمع الناس كلام مكسيم ، فقالوا للأُم : « حين يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ » . فظلت الأم تبكى ابنها طول الليل ، حتى اذا طلع الصبح اصطحبته الى مكسيم . فكان الولد أقرب الى الموت منه الى الحياة .

ألبسه مكسيم ايفانوفتش كما يلبس سيد صغير ، وأستأجر له معلماً ، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة . أصبح لا يحولّ عنه بصره ، ويجلسه الى جانبه دائماً . فمضى تتأهب الطفل انبرى يقول له : « خذ كتاباً وادرس ! أريد أن أجعلك رجلاً » . ولكن الولد كان ضعيفاً هزلياً منذ المرة الأولى ، منذ جُلد بالسياط . وكان يسعل . فكان مكسيم ايفانوفتش يقول مدهوشاً : « اذن فالحياة عندى لا تروقه . كان عند أمه يركض حافى القدمين ، ولا يأكل الا كسرات خبز ، ثم ها هو ذا الآن أشد هزالاً مما كان » . فقال له المعلم : « الأطفال يحتاجون الى الركض ، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله فى الدرس ، فلا بد لهم من الحركة . . . » . شرح له ذلك كله مدعوماً بالحجج . فقال مكسيم ايفانوفتش : « ما تقوله حق » . المعلم هو بطرس ستيانوفتش حفظه الله . رجل طيب يشبه أن يكون « مجذوباً » . كان يحب الشراب ، بل كان يسرف قليلاً فى الشراب ، لذلك طرد من جميع الوظائف التى عين لها ، فكان يعيش على الصدقات تقريباً . ولكنه كان دماغاً كبيراً ، كان قوياً فى

العلوم • حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه : « هذا ليس مكانى ، فاما يجب أن أكون استاذاً بالجامعة • أما هنا فأنا فى الوحل • حتى صارت ثيابى تتقزز منى • • وهذا مكسيم ايفانوفتش ينادى الطفل صارخاً فيقول له : « هيا اركض » ، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس . أمامه • حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتل صوته • فأخذ يرتجف • فازدادت دهشة مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل » وألبسته ناعم الثياب • وعلته بأحسن الجلد • وجعلت له قميصاً مطرزاً • وعاملته كما يعامل ابن جبال • ثم هو لا يزال غير متعلق بى ا ما باله ينظر الى كما ينظر صغير الذئب ؟ • • منذ مدة طويلة أصبح لا يندهش أحد من صدور أى شىء عن مكسيم ايفانوفتش • ولكن الناس عادوا يدهشون : انه مرتبط بالولد أشد الارتباط • لا يستطيع أن يفارقه • ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله • وكان يقول : « انى أفضل أن 'أشوق على أن أعجز عن تشير طبعه • لقد لعننى أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس • انه صورة أبيه ! » •

لم يجلبده مرة واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى)
وكان الطفل مروّعاً بدون جلد • فما الحاجة الى جلد ؟

حينئذ حدث الحادث • ففى ذات يوم • بعد أن خرج مكسيم من الغرفة • ترك الطفل كتابه وصعد على كرسى • اذ كانت كرتة قد وقعت على خزانة ملابس • فأراد أن يلتقطها • ولكن كره اشبكت بمصباح من الحزف كان على الخزانة • فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة • دوى صوت سقوط المصباح فى المنزل كله • وكان المصباح تحفة ثمينة من خزف ساكس • سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من الغرفة الثالثة • فأخذ يزأر • زعر الولد ذعراً شديداً • وأسرع يولى هارباً الى الشرفة • ثم اجتاز الحديقة • وخرج من الباب الخلفى حتى

صار على رصيف النهر • كان هناك شارع تزيينه شجيرات مزهرة • مكان رائع الجمال • وهرع الولد الى الماء ، ورأه الناس ، حتى اذا صار على حافة النهر ، فى الموضع الذى ترسو فيه معدية ، باعد ذراعيه ، ثم لعله خاف من الماء فبقى جامداً فى مكانه • المكان عريض ، والنهر سريع ، والقوارب تمر ؛ وفى الجهة الأخرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب من ذهب يسطع • وفى تلك اللحظة كانت الكولونيله فرتسنج تهبط نحو النهر مع ابنتها • كان بمدينتنا كتبية مدفعية • وابنة الكولونيله صبية فى الثامنة من عمرها هى أيضاً ، ترتدى فستاناً أبيض • نظرت الى الولد وضحكت • وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ • قالت لأُمها : « انظرى الى الصبى كيف يتطلع الى قنفذى يا ماما » • فقالت الأم : « لا بل هو خائف من شىء ما • لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها الصبى اللطيف ؟ ما أحسن ثيابه ! من أنت يا ابنى ؟ » (هذا ما روى فيما بعد) • ولم يكن هو قد رأى قنفذاً من قبل • فاقرب ونظر • نسي ما كان فيه • هكذا الأولاد ! قال يسأل : « ما هذا الذى معك ؟ » • أجابت الأمسة : « قنفذ • اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده فى الغابة » • قال الصبى : « وما القنفذ ؟ » • وضحك • وأراد أن يلمسه باصبعه ، فانتفض القنفذ ، وضحكت البنت ، وقالت : « سنأخذه الى البيت فنؤنسه » • قال الصبى « اعطينى قنفذك ! » طلب منها ذلك هكذا ، بلطف • ولكن ما ان أنهى جملته حتى كان مكسيم ايفانوفتش يصرخ من أعلى : « آآآ • هذا أنت ! أوقفوه ! » (كان مكسيم قد بلغ من شدة الغضب أنه خرج من البيت بدون قبعة) • تذكر الطفل كل شىء ، وصرخ ، وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين الى صدره ، ونظر الى السماء (رأوه ينظر الى السماء) ، وألقى نفسه فى النهر • فتعالى الصراخ فى كل صوب ، واندفع ناس من المدينة يلقون أنفسهم فى النهر عسى أن يتشبلوه ، ولكن الماء كان قد جرفه ، فالنهر سريع ، حتى اذا أخرججوه كان قد

فارق الحياة • لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره • لم يحتاج الى وقت طويل حتى يموت • ما يسمع الناس في بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً • خطيئة كبرى ! ما عساها تقول للرب في السماء ، هذه النفس الصغيرة ؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم ايفانوفتش يفكر في المسألة • وتبدلت حاله ، حتى صار المرء ينكره ولا يعرفه • حزن حزناً كبيراً • وأخذ يشرب • أخذ يشرب كثيراً • ثم انقطع عن الشراب : لم ينفعه شيء • وانقطع أيضاً عن الذهاب الى المصنع • وأصبح لا يصفى الى أحد • اذا كلموه لم يجب ، أو حرك يده مشيراً الى أنهم يضجرونه • وانقضى شهران ، ثم صار يكلم نفسه • صار يسير وهو يكلم نفسه • وشبت النيران في قرية فلكسكوف ، بقرب المدينة ، فالتهمت تسعة بيوت • ذهب مكسيم الى الحريق ليرى • أهدق به المصابون وأخذوا ينتحبون : فوعد بأن يمد اليهم يد المعونة ، وأصدر أمره بذلك ، حتى اذا رجع الى بيته استدعى وكيله وألقى كل ما وعد به ، قائلاً له : « لا تعطهم شيئاً » ، ولم يذكر السبب • قال يحدث نفسه : « ان الرب خلقني شيطاناً ، وجعلني بليّة لسائر البشر ، فليكن ذلك ! وقد طارت سمعتي في الناس سريصة كالريح » • وجاءه الأرشمندريت بنفسه في يوم من الأيام : انه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة • قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية : « ما هذا السلوك الذي تسلكه ، فأجابه مكسيم : « هكذا ! » وفتح له كتاباً وأشار له الى فقرة من الكتاب :

« من أشر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحي ويغرق في لجة البحر » (انجيل متى ، الاصحاح الثامن عشر ، ٦) •

قال الأرشمندريت :

– نعم ، هذا لم يُذكر فى هذه المناسبة ، رغم أن نعمة علاقة •
ما أشقى الانسان الذى يتجاوز الحدود ! انه يضع نفسه • وأنت قد أسرفت
فى الارتفاع •

تصلب مكسيم ايفانوفتش ، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس •

قال له الأرشمندريت :

– اسمع واحفظ • لقد قيل : « كلام المكروب اليأس تحمله
الرياح » • وتذكر أيضاً ما يلى : ملائكة السماء نفسها ليست كاملة ،
والكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيح ، الذى
تخدمه الملائكة • ثم انك لم تشأ موت ذلك الطفل • كل ذنبك أنك كنت
متهوراً قليل التبصر والى • غير أن هناك ما يملأ نفسى دهشة : لقد
سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى ؛ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين
مستجدين ، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم ، ما أكثر الذين دفعتهم
الى الموت دفعاً ، فكأنك قتلهم ! وأولئك البنات الصغيرات ، وأخواته ،
ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً ؟ فلماذا ينفرد هو بادخال
الاضطراب الى نفسك ؟ أتراك نسيت جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها
والندم عليها ؟ ما بالك ترتاع هذا الارتياح الشديد كله لموت هذا الطفل
الذى لم تكن أنت مسئولاً عن موته كل المسئولية ؟

تتم مكسيم ايفانوفتش يقول :

– لأننى أراه فى المنام •

– ثم ماذا ؟

ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء ، وظل

صامتاً • فدهش الأرشمندريت وانصرف : لا فائدة !

عندئذ أرسل مكسيم ايفانوفتش من يستدعى له المعلم ، بطرس
سيبانيوفتش . انهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث .

قال له :

- هل تتذكر ؟

- أتذكر .

- سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم ، وأنتك تنسخ الآن
صورة للمطران . هل تقدر أن ترسم لى لوحةً بالألوان ؟

- نعم ، أقدر . اننى أملك جميع المواهب ، وأقدر على كل شيء .

- ارسم لى اذن لوحة ، أكبر لوحة ممكنة ، لوحة تحتل الجدار
كله . ضع فيها النهر ، والمنحدر ، وجميع الناس الذين رأوا المشهد .
ضع الكولونيلى وابنتها والقنفذ . وارسم الشاطئ الآخر كله بحيث
يراه الناظر كما هو : الكنيسة والبيدان والدكاكين والمكان الذى ترابط فيه
العربات ، ارسم كل شيء كما هو فى الواقع . وارسم الولد أمام المعذية ،
على ضفة النهر ، فى ذلك المكان نفسه ، واجعل يديه مضمومتين الى
صدره . وأمامه ، على الشاطئ الآخر ، 'شق' السماء ، وصور جميع
الملائكة فى النور السماوى وهم يطيرون الى لقائه . هل تقدر أن ترسم
هذا ؟

- أقدر أن أفعل كل شيء .

- اسمع ، أستطيع أن استقدم أكبر رسّام من موسكو وحتى من
لندن ، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك . غير أنك ، أنت ، تتذكر
وجهه . فإذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه ، أو لا تشبهه شيئاً كافياً أعطيتك
خمسین روبلاً ، أما اذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيتك مائتى روبل .

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين ••• وتكن اللوحة أكبر لوحة
ممكنة •

وأبرما اتفاقهما • وأخذ بطرس ستيانوفتش يعمل ، ولكنه جاء الى
التاجر يقول له فى ذات يوم :

- لا سبيل الى رسم ما ذكرت •
- لماذا ؟

- لأن هذه الخطيئة ، خطيئة الانتحار ، هى أكبر الخطايا جميعاً ،
فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة ؟

- لكنه طفل • ليس مسئولاً •

- لا ، لم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان عمره
ثمانى سنين حين حدث الحادث • فو مسئول قليلاً رغم كل شيء •

ازداد مكسيم ايفانوفتش ارتباعاً • قال :

- وجدت حلاً : لاثشق السماء ولا ترسم ملائكة ، حسبك
أن تسقط عليه من السماء شعاعاً • هذا شيء على كل حال •

فعل الرسام ما تخيله مكسيم ايفانوفتش • أسقط على الطفل
شعاعاً من السماء • وقد رأيت اللوحة بنفسى ، فيما بعد ، مع الشعاع
والنهر الأزرق ، رأيتها تغطي الجدار كله • كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه
الصغيرتين الى صدره ، وكان فيها الآسفة الصغيرة والقنفذ ، كان فيها كل
شيء • ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة : أغلق عليها
مكتبه بالفتاح • هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة ،
ولكنه طردهم جميعاً • وتكلم الناس فى الأمر كثيراً • وتغيرت حال بطرس
ستيانوفتش حتى لكأنه شخص آخر • أصبح يقول لنفسه : د أنا الآن
أقدر على كل شيء • مكاني الذى استحقه هو البلاط فى بطرسبرج • • •
ان بطرس ستيانوفتش من أحب الناس الى القلب • ولكنه كان يحب أن

يعظم نفسه كثيراً • وسرعان ما وافته منيته : فانه بعد أن قبض المائتى روبل ،
هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهاً ، فقتل ذات ليلة ثملاً • قتله
بورجوارى كان يشرب معه ، وأخذ ماله • واكتشف هذا كله فى
الصباح •

اما تمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك : فى ذات يوم
جاء مكسيم الى الأرملة راكباً عربته • كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً
فى آخر المدينة • وقد دخل هذه المرة الى فناء البيت • وتسمّر أمام المرأة
ثم حيّاها منحنيّاً حتى الأرض • وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك
الأحداث كلها ، فهى لا تكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً • قال لها : « تعالى
أيتها العزيزة » أيتها الأرملة المحترمة ، تعالى تزوجينى رغم أننى شيطان
رجيم ، ردّى الى القدرة على الحياة • نظرت اليه المرأة لا حية
ولا ميتة • قال لها : « أريد أن يكون لنا صبي صغير آخر ، فاذا ولد لنا
صبي آخر ، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا ، أنا وأنت •
هو الذى أمرنى بذلك • » لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه
كاملاً ، وأنه خارج عن طوره ، ومع ذلك لم تطق صبراً فقلت له :

- هذه سخافات وحقارة • بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صفارى •
لا أستطيع حتى أن أراك أمامى ، ناهيك عن أن أحكم على نفسى بمثل
هذا العذاب الى الأبد ؟

انصرف مكسيم ايفانوفتش ، ولكنه لم يهدأ • ذهلت المدينة كلها
من هذه المعجزة • أرسل مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة نساءً يتشفعن له
عندها • واستدعى من بلده عمّتين له ، قد تكونان عمّتيه وقد لا تكون
عمّتيه ، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال ، أى امرأتان
لهما وزن وقيمة • أخذت النساء تصيحها ، وتمدحها ، ولا تخرج من
عندها • وأرسل أيضاً أشخاصاً من المدينة : أرسل تجاراً ، وامرأة

الأرشمندريت ، وزوجات موظفين • المدينة كلها راحت تقترب منها وتزلف اليها • ولكنها احتقرتهم جميعاً • كانت تقول : « لو كان هذا يبعث يتامى أحياء فقد أقبل ، أما وأنهم لن يبعثوا فعلام أفعل ؟ اذا رضيت لأنت في حق أولادى اليتامى ! » •

وقد استطاع مكسيم ايفانوفتش ان يحمل الارشمندريت نفسه على الشفاعة لديها ، فقال لها الأرشمندريت : « سوف تخلقين منه انساناً جديداً » • فارتاعت • وكان الناس يدهشون من سلوكها : « كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة ؟ » • واليكم الطريقة التى استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة : قال لها : « لقد قتل نفسه رغم كل شيء • ولم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان فى سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف • فهو اذن مشغول عن خطيئة الانتحار بعض الشيء • فاذا تزوجتني نذرت لأبني كنيسة جديدة لترتاح نفسه راحة أبدية • » • أذعنت المرأة لهذه الحجة ، وارتضت أن تزوج مكسيم ايفانوفتش ، وتم الزواج •

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج • لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول فى وئام كامل صادق ، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً ، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين • وحملت المرأة فى ذلك الشتاء نفسه ، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب • وذهبا الى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات • وقام مكسيم ايفانوفتش ببناء الهيكل الذى وعد ببنائه ، وأنشأ فى المدينة مستشفى وملجأ • ووهب جزءاً من ثروته للأرامل ويتامى • وتذكر جميع أولئك الذين أساء اليهم ، وحاول أن يرد اليهم ما اغتصبه منهم • ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال ، حتى ان امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصداه عن ذلك : « كفى ! ما فعلته كافٍ » • وانصاع مكسيم ايفانوفتش • لكنه قال : « لقد غششت فوما مرة » •

ورد الى فوما حقه • وذرف فوما دموع التأثير ، وقال : « لاداعى الى هذا ... أخذنا منك كثيراً ، فنحن شاكرون لك فضلك الى الابد ، • وتشبع جميع الناس بهذه الروح • حقاً ان الانسان يتأثر بالقذوة الصالحة • ان الناس فى بلدنا طيبو القلب •

وتولت الزوجة ادارة المصنع ، بلغت من حسن ادارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك • ولم ينقطع هو عن الشراب ، لكنها كانت تراقبه ، وحاولت أن تشفيه • وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته • وصار رجيماً رعوفاً حتى بالحيوانات : فى ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط ، فأرسل من يشتري الحصان بضغى ثمنه • ووهبت له القدرة على البكاء : ف فيما هو يتكلم مع أحد الناس ، تفرق عيناه بالدموع فجأة • ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فزرعهما غلاماً ، فاذا بمكسيم ايفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذى أصابه • ووزع صدقات كثيرة ، ورداً ديوناً كثيرة ، ودعا المدينة كلها الى حفلة التعميد • ولكن وجهه كان فى الغد مكفهراً •

ورأته زوجته مهموماً ، فجاءته بالوليد وقالت له : « ان ابنى غفر لنا ، فدموعنا وصلواتنا أثرت فى قلبه » • يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة • وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه • نظر مكسيم ايفانوفتش اليها مظلم الوجه كالليل ، وقال لها : « اسمعى • انه لم يجئنى طول هذه السنة • ولكننى رأيته فى الحلم الليلة • وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما اتابها من شعور حينذاك فقالت : « عندما سمعت هذه الكلمات الغريبة ، نفذ الرعب فى قلبى • »

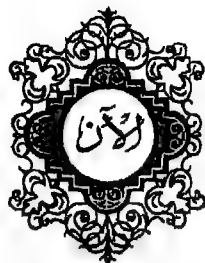
لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم فى الحلم • وما ان نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد فى تلك اللحظة نفسها • ودام مرضه ثمانية أيام ، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع ، واستدعوا له الأطباء •

حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب • وقال الطبيب غاضباً :
 « اننى أكبر طبيب ، وموسكو كلها تنتظرنى • ووصف للمريض قطرات
 دواء وأسرع عائداً الى موسكو ، بعد أن قبض ثمانمائة روبل • ومات
 الطفل فى المساء •

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ترك مكسيم ايفانوفتش ثروته كلها لزوجته
 العزيزة ، سَلَّمَهَا جميع أمواله وأوراقه ، متنازلاً لها عن ذلك كله
 وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية ، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها
 حتى الأرض ، وقال لها : « يا زوجتى ، يا أغلى ما فى الحياة عندى ،
 دعينى أمضى لانتهاز روحى ما دمت أملك الآن سيلاً الى ذلك • فاذا قضيت
 هذا الوقت دون أن أظفر بطائل ، فلن أعود • لقد كنت قاسى القلب •
 ولقد سمعت الآخرين سوء العذاب • ولكننى أظن أن الآلام التى سأتحملها
 فى المستقبل ، وحياة التجوُّب التى سأعيشها ، قد تشفع لى عند الرب
 فيهب لى رحمته ، ذلك أن ترك هذا كله ليس صلياً صغيراً ولا آلاماً
 صغيراً • • حاولت زوجته أن تثنى عزمه بالدموع • قالت له : « ليس لى
 الآن على هذه الأرض أحد غيرك ، فمن ذا الذى سيعاننى ؟ لقد انفتح
 قلبى فى هذه السنة للمحبة والحنان ، • وظلت المدينة كلها تنصحه خلال
 شهر كامل • تضرعوا اليه ، قرروا أن يحتجزوه بالقوة • ولكنه لم يصغ
 الى أحد • وتسلس فجأة فى ذات ليلة ومضى ثم لم يعد • يقال انه لا يزال
 الى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العذاب ، ويزور امرأته الغالية مرةً
 كلَّ شهر •

الفصل الرابع

١



أصل الى الكارثة النهائية التي تختم هذه المذكرات • ولكنني قبل أن أوصل الكتابة أراني مضطراً الى أن استبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه في حينه وإنما أنا عرفت وأدركته بعد ذلك بمدة طويلة ، أى بعد أن انتهى كل شيء • وإذا لم أفعل ذلك فلن يكون حديثي واضحاً ، بل سيكون ألفاظاً لا تُفهم • ومن أجل هذا التوضيح التمهيدى سوف أضحي في سبيل الوضوح والإيجاز بكل ما يسمى إثارة فية أو تشويقاً فنياً ، فكان الذى يكتب ليس أنا ، وكان قلبى لا يشارك فيه أية مشاركة • سيكون ما أقوله غير شخصى ، فهو أشبه « بمقالة صغيرة » فى جريدة •

كان فى وسع رفيق طفولتى ، لامير ، أن ينتمى انتماءً تاماً الى عصاية من تلك العصابات الرهيبة التى تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم « الابتزاز » ، وما يقع الآن تحت طائلة العقوبة فى بعض مواد القانون المدنى • والعصاية التى شارك لامير فى أعمالها بعض المشاركة إنما تكونت بموسكو ، وارتكبت عدداً كبيراً من المكائد (واكتشف شيء من أمرها فى النهاية) • وقد علمت فيما بعد أن أعضائها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسع الخبرة جداً ، ليس بالغيبى ، وليس بالشاب اليافع ، وإنما هو رجل متقدم فى السن • وكان أفراد العصاية ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة فى بعض

الاحيان أو ينفذونها زمراً زمراً في أحيان أخرى • وعدا الجرائم القذرة الكثيرة التي ارتكبوها (والتي تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد ، مأكرة أشد المكر • وقد عرفت بعض هذه الأعمال فيما بعد • لكننى لا أحب أن أدخل فى التفاصيل • فحسبى أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم فى العمل : انهم يحولون أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً فى بعض الأحيان ، وتكون لهم فى المجتمع منزلة عالية • فإذا عرفوا هذه الأسرار ذهبوا الى أولئك الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهى وثائق ليست فى حوزتهم أحياناً) ويطلبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم • ان هناك أموراً لا توجب العقاب ، وليس فيها شيء من اجرام ، ولكن أشرف الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها • وكان أفراد العصابة يستغلون الأسرار العائلية فى أكثر الأحيان • فمن أجل أن أثبتن للمقارئ مدى الخدق والمكر فيما كانوا يقومون به من أعمال ، سأروى مكيدة من مكائدهم ، دون أن أدخل فى التفاصيل • لقد حدث فى أسرة كريمة من الأسر شيء يؤسف له حقاً ، بل شيء يمكن ان يوصف بأنه جريمة ، وهو أن زوجة رجل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غنى شاب • وقد ترامى هذا السر الى علم أفراد العصابة ، فاليكم ما فعلوه : ذهبوا الى الشاب وهددوه بأنهم سيلفون الزوج • لم يكن لديهم أى برهان • ولكن كل حذقهم فى اللجوء الى استعمال هذا الأسلوب وكل براعتهم فى الحساب انما يقومان على أن الزوج ، اذا بلغه الأمر ، ولو لم يكن هناك براهين ، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعة ، وسيخذ الاجراءات التى يتخذها من توفرت له الأدلة الدامغة • فهم قد بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة • وكان بين أفراد العصابة شاب من المجتمع الراقى استطاع أن يحصل سلفاً على معلومات مفيدة • فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال ، دون أن يتعرضوا

من ذلك لأى خطر ، لأن الضابط الذى وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهتم الا بكتمان الأمر •

ان لاميير ، رغم مشاركته فى أعمال تلك العصابة السكوبيه ، لم يكن ينتمى اليها اتماء تاماً • لكنه وقد استطاب هذه الصنعة ، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً • يجب أن أبادر فأقول انه لم يكن قادراً على السير فى هذا الطريق كل القدرة • صحيح أنه لم يكن غيباً ، وصحيح أنه كان حيسوباً ، ولكنه كان شديد الاندفاع ، وكان عدا ذلك مسرفاً فى البساطة أو قل فى السذاجة : فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع • أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذى يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو ، فكان يتخيل أن ادارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً • وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جنباء مثله ، فاذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف فى ظرف خاص ، تخيل أنه سيخاف فى كل ظرف لأنه جبان • كان هذا عنده بديهية من البديهيات •

أحسب اننى لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله • وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد • ولكننى أعتقد أن لاميير كان سىء الخلق ، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة ، بل لا يخطر له وجودها على بال •

وقد جاء الى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو ، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج ، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضمر له أسوأ النيات • فلما وصل الى بطرسبرج أسرع يتصل برقيق من رفاقه القدامى • ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة • ثم اتسعت دائرة معارفه ، ولكنه لم يصل الى ثمرة • وقد قال لى فيما بعد:

« الناس هنا خرق باليه وصيية صنفار لا أكثر » • وهاهو ذا في ذات صباح ، عند طلوع النهار ، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار ، ثم يكتشف مما قلته أثناء هذياني انه وقع على « قضية هامة جداً » يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة ، أو هذا ما قدّره •

لقد استخرج هذه القضية كلها مما رويته له حين كنت أندفاً في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً • فمن كل ما أفلت من لساني ذلك اليوم كان يتضح أن الاهانة الكبرى انما وقعت على من بيورنيج ، ومنها « هي » : والا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جرى لي عند تسرشتشكوف • ولكنني لم أهدر الا في الأمر الأول ، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لاميير نفسه • ثم انني كنت متحمساً ، وكنت في ذلك الصباح الرهيب أعد لاميير وآلفونسين منقذين ومحرّرين • وحين تساءلت بعد ذلك ، أثناء نقاهتي ، وأنا لا أزال في السرير : ما عسى عرف لاميير من أحاديثي ابان الهذيان ، والى أى مدى أفضيت اليه بأسراري ، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة ! صحيح أنني كنت أقدر - وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخذت بخناني - أنني قد أكثرت من الكلام حتماً ، ولكن أعود فأقول انني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله ! وقد أمّلت أيضاً - وكنت أعوّل على هذا - أن أكون قد عجزت في ذلك الوقت ، بسبب ضعفى ووهنى ، عن النطق بكلام واضح • وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً • ولكن تبين في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدر وأؤمل • ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي الا بعد مدة طويلة ، وذلك كان سبب بلائي •

استطاع لاميير أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماتي وحماساتي وما الى ذلك ، استطاع أن يعرف أولاً : جميع الأسماء تقريباً ، وحتى بعض العناوين ، معرفة دقيقة • واستطاع ثانياً أن يكون لنفسه فكرة قريبة

من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز ، بيورنج ،
 هي ، أنا آندريفنا ، وحتى فرسيلوف) • واستطاع أن يعرف ثالثاً
 أنني 'أهنت وأنتى هدّدت بالانتقام • واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن
 في حوزتي وثيقة سرية مخبأة هي رسالة يكفي أن 'يطلع عليها أمير عجوز
 نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التي تصفه في هذه الرسالة
 بأنه مجنون وتستشير فيها أناسا من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً
 عليه ، فاما أن يجنّ نهائياً واما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث
 أو يتزوج أمتة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له
 بتزوجها • الخلاصة أن لاميير عرف أشياء كثيرة • ولا شك أن هناك أشياء
 كثيرة بقيت غامضة في ذهنه ، ولكنه قد أمسك بالحيط ووضع قدمه في
 الطريق • وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين استطاع أن يعرف
 عنواني فوراً (بأبسط وسيلة : مكتب العناوين) • ثم أسرع يجمع
 المعلومات اللازمة ، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون
 فعلاً • فبادر عندهم الى القيام بأول مسمى •

كان الشيء الأساسي هو أن هناك وثيقة ، وأن الوثيقة في
 حوزتي أنا • ولم يخامر لاميير أى شك في أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة •
 هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أدرج ذكرك الى أن يحين وقته •
 ولكنني أشير الى أن هذا الظرف قد عزز اقتناع لاميير بأن الوثيقة موجودة
 فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً ان الظرف كان حاسماً ،
 ولم يكن في امكاني أن أتخيله في ذلك الوقت ، حتى ولا الى آخر
 القصة ، أى الى اللحظة التي انهار فيها كل شيء دفعة واحدة واتضح من
 تلقاء نفسه) • حتى اذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور
 أنا آندريفنا قبل كل شيء •

لايزال هنالك لغز يحيرني : كيف استطاع هذا الرجل ، لاميير ، أن

يتسلل فيصل الى امسانة صعبة المأخذ رفيعة مثل انا اندريفنا ؟ صحيح أنه حصل على معلومات ، ولكن ما قيمة هذا ؟ وصحيح انه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرنسى ، ولكن كيف لم تدرك آنا آندريفنا على الفور أنه وىش ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوىش نفسه هو الذى كانت محتاجة اليه فى ذلك الوقت ؟ هل هذا ممكن ؟

لم أشأ فى يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذى تم بينهما . ولكننى تصورت المشهد بعد ذلك مراراً كثيرة . أغلب الظن أن لامبير منذ البداية ، قد مثل بأقواله وحركاته ، دور صديق الطفولة انقلب على رقيق عزيز . وأغلب الظن أنه أشار فى الوقت نفسه اشارة واضحة الى « الوثيقة » التى فى حوزتى ، وأنه أفهم آنا آندريفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره ، هو لامبير ، وأننى أعوّل على هذه الوثيقة للانتقام من الجرالة آخماكوف ، الى آخر ما هنالك . واستطاع خاصة أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمة عظيمة ، شرحاً فيه كل ما يجب من دقة ، وكانت آنا آندريفنا فى ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيه الا أن تتشبت بمثل هذا النبأ ، والا أن تنصت اليه بانتباه شديد . . والا أن تعلق بالفخ - انقياداً لدافع « الصراع من أجل البقاء » .

كانوا ، فى ذلك الأوان نفسه ، قد انتزعوا منها خطيبها ، ونقلوه الى تساركويا تحت الوصاية ، ووضعوها فى نفسها تحت الوصاية . ثم اذا بحظ موات يعرض لها : فالأمر الآن ليس أمر نمائم يهمس بها همساً ، ولا أمر شكاوى ترافقها دموع ، ولا أمر أقاويل ووشايات ، انما الأمر الآن أمر رسالة ، رسالة مكتوبة بالخط ، أى برهان قاطع على سوء ما تضرمه ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة ، وما يضرمه جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثل هذه النيات . هو برهان قاطع على أنه ينبغى

للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب ، وأن يجيء إليها هي أنا أندريتنا ،
وأن يتزوجها في غضون أربع وعشرين ساعة ، والا أودعوه مستشفى
للمجانين •

ومن الجائز أيضاً ألا يكون لأمير قد عمد الى المكر مع هذه
الآنسة دقيقة واحدة ، وانما قل لها فجأة منذ أول كلمة : « يا آنسة ،
اما أن تبقى عانساً ، واما أن تصبحى أميرة ومليونيرة : هناك وثيقة ،
سأستلمها من ذلك الشاب ، وأسلمتها اليك • • فهاتى ثلاثين ألفاً ، •
بل انى لأظن أن هذا هو ما حدث • نعم ، لقد كان لأمير يتصور جميع
الناس أوغاداً مثله • أكرر مرة أخرى أن لأمير يتصرف بما يتصرف به
الوغد من سذاجة ، وبراعة • ومن الجائز جداً كذلك ، أن آنا أندريتنا
لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة ، وعرفت كيف تسيطر على نفسها
سيطرة تامة ، وكيف تصفى الى الرجل المبتر الذى يتكلم بلغته اصفاء
كاملاً ، وذلك بفضل « رحابة الفكر » • ولعلها احمست فى أول الأمر
قليلاً ، ولكنه تجلدت وأنصت الى النهاية • ما أوضح الصورة التى أتخيلها
لهذه المرأة الصعبة المأخذ ، ذات الكبرياء ، الرصينة حقاً ، التى تملك
فكراً واسعاً ، وهى تمد يدها الى يد رجل مثل لأمير ! نعم • • • فكراً
واسعاً ! فكراً روسياً بعيد الأنق ، شغوفاً « بالرحابة » ، هو الى ذلك
فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف •

سألخص الآن : لقد كان لأمير ، فى يوم خروجى بعد المرض ،
يقف الموقفين التاليين (الآن انما أعرف هذا معرفة اليقين) : فهو أولاً
يريد أن يطلب من آنا أندريتنا ثلاثين ألف روبل على الأقل ، ثمناً
للوثيقة • وهو يريد ثانياً أن يساعدها فى تخويف الأمير ، واختطافه ،
وتزوجه فوراً ، أو فى شيء من هذا القليل • حتى لقد تم وضع خطة
مقررة • ولكن تنفيذ الخطة ينتظرنى أنا ، أى ينتظر الوثيقة •

ولكن لامير كان فى ذهنه مشروع آخر أيضاً ؛ هو أن يخون
آنا أندريينا ، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوف ، اذا كان ذلك
يعود عليه بريح أكبر . وفى هذه الحالة يكون التمويل على بيورنج . ولكن
لامير لم يكن قد لقي الجنرالة بعد ، وانما هو يتبع خطاها . وهنا أيضاً
يجب انتظارى أنا .

آه ... ما كان أشد حاجته الىّ ، لا الىّ أنا ، بل الى الوثيقة !
وكان لامير يتصور أن يتبع معى احدى خطتين أيضاً . فأما الخطوة الأولى
فهى ، اذا لم يمكن سلوك سبيل آخر ، أن تتعاون معاً ، فننقسم الربح
بعد أن يكون قد استولى علىّ جسماً وروحاً . وأما الخطوة الثانية - وهى
تفريه اغراء أشد - فقوامها أن يغرّر بى كما يغرر بصبى صغير ، فيسرق
منى الوثيقة ، أو ينتزعها منى عنوةً وقسراً . وكان يجب هذه الخطوة
الثانية ويداعبها فى أحلامه . أكرر مرة أخرى أن ثمة طرفاً معيناً كان
يجعله لا يشك فى نجاح هذه الخطوة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت
أننى سأشرح هذا الظرف فيما بعد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان لامير
ينتظرنى نافذ الصبر ، فكل شيء متوقف علىّ : المساعى التى يجب أن
يقوم بها ، والخطوة التى يجب أن يختارها .

ويجب أن أنصفه فأقول : انه رغم نفاذ صبره قد سيطر على نفسه
الى اللحظة الأخيرة . فلم يجرى الىّ أثناء مرضى أبدأ ، ولكنه مرّ بالبيت
مرةً وكلمّ فرسيلوف . لم يرهقنى ، ولم يخفنى ، حتى لقد ظلّ الى
ساعة خروجى يظهر عدم المبالاة . وكان على يقين من أننى لن أكلم عن
الوثيقة أحداً ، ولن أسلمها الى أحد ، ولن أتلفها بحال من الأحوال .
لقد استطاع أن يستخلص من أقوالى نفسها فى بيته أننى أحتفظ بالوثيقة
سراً مكتوماً ، بل أخاف أن يفتضح أمرها . وكان لا يشك فى أننى متى
شفيت فسيكون هو أول من أسعى اليه فوراً ، واتنى لن أسعى الى أحد

قبله • وقد عادنى داريا أونيسيوفنا تنفيذاً لأوامره ، فكان يعلم أننى خائف وأتتى احترق شوقاً الى معرفة ما حدث ، وأتتى لن أصدق ... وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير ، واستطاع أن يطلع حتى على اليوم الذى سأخرج فيه ، بحيث لا يمكننى أن أفلت منه ولو أردت •

ولكن اذا كان لامير ينتظرنى ، فلقد كانت آنا أندريفنا تنتظرنى أكثر منه أيضاً • ويجب أن أقول بصراحة ان لامير كان على حق فى تأهبه لحياتها والغدر بها ، وكان الذنب فى ذلك ذنبها هى • فرغم تفاهمهما المحقق (وأنا أجهل صورة ذلك التفاهم ، لكننى أعرف أنه حدث) ظلت آنا أندريفنا الى آخر دقيقة لا تلتزم فى تعاملها معه جانب الصراحة التامة ، ولم تكشف عما تضرره كشفاً كاملاً • وانما هى تكتفى بالإشارة والتلميح • لقد لمت له بكل أنواع الموافقة ، ولمت له بكل أنواع الوعود ، ولكن كلامها كان تلميحاً فحسب • لعلها أصغت الى جميع تفاصيل خطته ، ولكنها لم توافق عليها الا بالصمت • ان هناك أسباباً قوية تدفعنى الى الاعتقاد بهذا • وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت « تنتظرنى » • لا بد أنها كانت تفضل أن تتعامل معى على أن تتعامل مع وغد مثل لامير ؟ وهذا أمر بديهي ومفهوم • ولكن المصيبة هى أن لامير أدرك ذلك أخيراً • فلو أخذت آنا أندريفنا الوثيقة منى بالاتفاق معى رأساً ، لألحق ذلك به خسارة كبيرة • وكان هو مقتعاً بضخامة « الصفقة » • ولو كان غيره فى مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك • ولكن لامير شاب ، وجريء ، وظامئ الى الريح السريع ، ولا يعرف البشر كثيراً ، ويتصور قلة الشرف فى جميع الناس • فليس فى وسع انسان مثله أن يشك ، لا سيما وأنه قد حصل من آنا أندريفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه •

ثمة أمر آخر له شأن كبير : هل كان فرسيلوف ، فى ذلك اليوم ،

يعرف شيئاً ما ؟ هل كان يشارك لامبير فى بعض الخطط ولو من بعد ؟
كلا ، ثم كلا ! انه فى « ذلك الوقت » لم يكن يشارك بعد • لعل كلمة
طائشة قد أفلتت منه • ولكن كفى كفى ! حسبى استباقاً للأحداث !

ثم ماذا عنى أنا ؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجى ؟ لقد ذكرت
حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثى أننى كنت يوم خروجى
لا أعرف شيئاً ، وأننى عرفت كل شىء فيما بعد • هذا صحيح • ولكن
هل صحيح كل الصحة ؟ الحق أننى كنت أعرف شيئاً ما ، بل كنت أعرف
أشياء كثيرة • ولكن كيف ؟ فليتذكر القارىء « حلمى » الذى رأيته •
إذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه فى نومى ، وأن ينبجس
من نفسى فى هذه الصورة ، فإن هذا يدل على أنى كنت لا أزال أجهل
أموراً كثيرة ، ولكنه يدل على أننى كنت « أتوجس » هذه الأمور ، كما
يستدل على ذلك مما شرحتة هنا من أشياء لم أعرفها فى الواقع الا بعد
أن كان قد « انتهى كل شىء » • صحيح أننى كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين ،
ولكن قلبى كان يخفق بتوجسات تنبأ بما سيحدث ، وكانت الأرواح
الشريرة قد غزت أحلامى واستولت عليها • ذلكم هو الرجل الذى هربت
إليه وأنا أعرف من هو ، وأوجس جميع التفاصيل • لماذا هربت إليه ؟
تخيلوا أننى ، الآن ، فى هذه اللحظة ، وأنا أكتب هذه الأسطر ،
يبدو لى أننى منذ ذلك الحين ، كنت أعرف ، بأدق التفاصيل ، لماذا
سعت إليه مسرعاً ، رغم اننى فى واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً
كما سبق أن ذكرت ذلك • قد يفهم القارىء عنى هذا الكلام • ولننتقل
الى الوقائع ، ولنذكرها بعضها وراء بعض •

بدأ كل شيء هكذا : قبل خروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب • كانت منزوعةً انزعاجاً شديداً • لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق •

سبق أن أشرت الى صلاتها بفاسين • لقد ذهبت اليه لا لتبين لنا أنها في غير حاجة إلينا فحسب ، بل لأنها كانت تقدره فعلاً • كانا قد تعارفا بمدينة لوجا • وقد لاح لي دائماً أن فاسين ليس غير مكترث بها وكان طبيعياً ، وهي فيما هي فيه من شقاء ، أن ترغب في طلب النصيح من انسان يملك عقلاً راجحاً ، ويتمتع بالهدوء ، ويتم بسمو النفس ، وهذا كله كانت تقترضه في فاسين • ثم ان النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يعجبهن • حتى لقد يرين في المفارقات الغريبة آراء سديدة ، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن • ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير ، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى • واذا كانت من جهة أخرى تحس بما يحمله لها من عواطف ، فقد كان يستجيل عليها ألا تحترم فيه تقديره لنفسه والأمير ، حين باحت له هي نفسها بأنها تستشير فاسين أحياناً ، أحس بقلق شديد ، وشعر بغيرة قوية عليها • فجرح هذا شعور ليزا . وأصبحت تواصل زيارة فاسين منعقدة منذ ذلك الحين • فسكت الأمير ، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه • وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها • لقد كان

هادئا ، وهذا الهدوء المستمر المطرد الذى أعجبتها كثيراً فى البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك • صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً ، وأنه أسدى إليها فعلاً بعدد من النصائح التى يوهم ظاهرها بأنها نصائح رائعة ، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبين بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها • وكان فى بعض الأحيان ينظر الى الأمور نظرة مسرفة فى تعالى ، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء • وقد عزت هى ذلك الى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه • وفى ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقانى ويحدثنى حديث اللند اللند رغم تفوقه علىّ فى الفكر (وهى بذلك قد أبلغته كلماتى نفسها) ، فما كان منه الا أن أجابها بقوله :

- ليس الأمر ما تظنين ، بل هو أبسط من ذلك كثيراً • فأننا لا أرى أى فرق بينه وبين سائر الناس • ولا أعده أغبى من الأذكىاء ولا أسوأ من الأخيار • لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة ، لأنهم فى نظرى متماثلون لا يختلف بعضهم عن بعض •

- كيف ؟ لا ترى بين الناس فروقاً ؟

- بلى • ان الناس يختلف أحدهم عن الآخر فى هذه النقطة أو تلك ، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها فى نظرى لأنها لا تتعلق بى ولا شأن لى بها • هم عندى متساوون جميعاً • والأمور كلها تستوى عندى • وذلك هو السبب فى أننى أعامل الناس كافة معاملة حسنة •

- ولا تضجر من هذا ؟

- لا ، أنا راض عن نفسى دائماً •

- وليس لك رغبات ؟

- بلى ، ولكن رغباتى ليست كثيرة • لست فى حاجة الى شيء ،

أو لا أكاد أكون في حاجة الى شيء ، لست في حاجة حتى الى روبل واحد زيادة على ما معي . يستوى عندي أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا . الملابس الذهبية لا تضيف الى فاسين شيئاً . والطعام الفاخر لا يفريني . وهل المناصب والأمجاد تساوى قيمتي ؟

لقد حلفت لي ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً . والحق أننا قبل أن نقطع برأى ، يجب أن نعرف الظروف التي قبلت فيها هذه الكلمات .

ان تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح افنتعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع الى ما يحمله لها من عاطفة ، وانما يرجع الى قلة الاكثارات التي يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال الى نوع من سخرية فيها احتقار . وقد أحنق هذا ليزا ، ولكن فاسين آمن فيه . وكان يعبر عن آرائه دائماً برقة ولطف ، بل كان يتهم ويدين بغير اظهار شيء من الاستياء أو الامتناض ، وانما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تافه لا قيمة له . وفي هذا المنطق انما كانت تتوى السخرية . وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير « يجافي العقل » ، وأنها « تكره نفسها عليه اكراهاً وتفسرها عليه قسراً » . وختم كلامه قائلاً : « لقد ضلت في عواطفك ، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالاصلاح حتماً » .

حدث هذا في ذلك اليوم . وقد استاءت ليزا ، ونهضت لتصرف ، فما الذي فعله واستنتجه هذا الانسان العاقل ؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل ، وحتى بعاطفة ! فما كان من ليزا الا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبي أحرق ! قالت له ذلك وجهاً لوجه . وخرجت .

أن يعرض على امرأة أن تخون انساناً شقياً لأن هذا الانسان الشقي

« لا يستحقها » ، وأن يعرض هذا على امرأة حبلى من هذا الانسان الشقى ، ذلكم هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين ! اننى أسمى هذا انجاساً فى النظريات وجهلاً مطلقاً بالحياة مردؤه الى زهو وغرور . وقد أدركت ليزا ، من جهة أخرى ، ادراكاً واضحاً كل الوضوح ، أن اعتزاز فاسين باقدامه على هذا العرض انما يرجع الى معرفته بأنها حامل . وسرعان ما ذهبت الى الأمير وقد فاض دمعها استياء واستنكاراً ، فاذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة . كان ينبغي له ، بعد الذى قصته عليه من أمر فاسين ، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها . ولكن قبيض هذا هو ما حدث . فقد طاش صوابه عندئذ تماماً . وكذلك شأن جميع الغيورين على كل حال ! لقد شاجرها شجاراً عنيفاً ، وصدع رأسها تصديماً رهيباً ، وأخذت شعورها بالجراح وأهانتها حتى أوشكت أن تقطع كل علاقة لها به على الفور .

ومع ذلك رجعت الى البيت كاظمة غيظها مسيطرة على نفسها ، ولكنها لم تستطع الا أن تبوح لأمها بما حدث . فذاب الجليد ، وعادت المرأتان الى سابق عهدهما ، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل ، وبكت كل منهما فى ذراعى الأخرى على عادتهما ، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وان ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس . وفى المساء بقيت جالسة عند ماكار ايفانوفتش دون أن تنطق بكلمة ، ولكن دون أن تغادر الغرفة . وأصغت كثيراً الى ما كان يقوله ماكار ايفانوفتش . انها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل ، وان ظلت قليلة الكلام .

ولكن ماكار ايفانوفتش قد غير الحديث فى هذه المرة تغييراً غريباً لم يكن فى الحسبان . يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا فى الصباح عن صحته ، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق . ويجب أن

أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذى سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً ، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال • وفى هذه المناسبة اندفع مكارا ايفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة ، وتذكر طفولة ماما ، أيام « كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد » • قال : « كنت لا أتركها أبداً • وكنت أعلمها المشى : أضعها فى ركن على بعد ثلاث خطوات منى ، ثم أناديها ، فتجتاز الغرفة مترجحة بلا خوف ، ضاحكة ، وتركض الى » وترتمى بين ذراعى ، وتقبل عنقى • ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا أندريفنا ، اذ كنت تعشقين الحكايات عشقاً • كانت تبقى على ركبتى ساعتين ، تصنى الى • وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون : « انظروا ما أشد تعلقها بمكارا » أو كنت أمضى بك الى الغابة يا صوفيا أندريفنا ، فأعثر على شجرة عليق ، فأجلسك هناك ، ثم أصنع لك صفارة من خشب • حتى اذا ارتوينا من النزهة ، عدنا الى البيت والطفل نائم على ذراعى • وفى ذات يوم ، خافت من الذئب ، فارتعت على مرتجفة مرتعدة ، ولم يكن ثمة ذئب •

- قالت ماما :

- هذا أتذكره !

- تتذكرينه ؟ لا يمكن •••

- بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً •

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً :

- كلما أوغلت فى تذكر الماضى وأيتك ورأيت ما كنت تحمله لى

من حب وحنان •

انتظر مكارا ايفانوفتش لحظة ثم قال :

- وداعاً يا أولادى ، أما راحل • الآن حان حينى • لقد وجدت
فى شيخوختى عزاء عن جميع آلامى • شكراً يا أصدقائى •
هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر :

- دعك من هذا الكلام يا مكارا ايفانوفتش ، يا عزيزى • لقد قال لى
الطبيب منذ قليل ان صحتك تحسنت تحسناً كبيراً •
وكانت أمى تصنى الى الحديث مرتاعة •
قال مكارا ايفانوفتش مبتهماً :

- وما يُدري صاحبك الكسندر سيمينتش ؟ صحيح انه لطيف ،
ولكن هذا كل شئ • أم تراكم تظنون يا أصدقائى أننى خائف أن أموت ؟
فى هذا الصباح ، بعد أن تلوت صلاتى ، راود قلبى احساس بأننى لن
أخرج من هنا حياً • أحد قال لى هذا • هيا ! تبارك اسم الرب ! ولكننى
أتمنى لو أظلل أراكم جميعاً • كان أيوب المعضب يتعزى عن آلامه برؤية
أحفاده الجدد ، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين ، وهل كان يستطيع
أن يساهم • كلا • ذلك مستحيل ! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما
مضت السنون ، ثم يستحيل الى زفرة سعيدة • هكذا تجرى الأمور فى
هذا العالم : كل نفس تمتحن وتعزى •

وأردف مكارا ايفانوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة جميلة لن
أنساها ما حيت :

- قررت يا أولادى أن أقول لكم كلمة ، كلمة لا أكثر ...
ثم التفت نحوى فجأة وقال :

- أنت يا عزيزى ، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة ، ومت فى سيلها
إذا دعا الداعى •

ثم أضاف يقول ضاحكاً :

- ولكن انتظر . لا تخف ! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن . انك اليوم لا تفكر في هذا الأمر ، وقد تفكر فيه في المستقبل . غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : اذا أردت أن تفعل خيراً ، فافعله في سبيل الله ، ولا تفعله انقياداً للزوجة . كن رابط الجأش صلب العود ، ولا تدع لنفسك أن تسترسل في أنواع من الجبن . ولكن تمهل في عملك ، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً . ذلك هو كل ما انت في حاجة اليه . شيء آخر : تعود أن تلو صلواتك كل يوم حتماً . أقول لك هذا عرضاً ولعلك تذكره في يوم من الأيام .

ثم التفت الى فرسيلوف فقال له :

- لك أيضاً يا آندره بتروفتش ، يا عزيزي ، أريد أن أقول بضع كلمات . ان الرب سيهدى قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حال . لقد كفنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة ، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي . أما وأنتي الآن راحل فأحب أن أذكرك .. بالوعد الذي قطعته لي على نفسك حينذاك .

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه ، وأردف يقول :

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض :

- ماكار ايغانوفتش ! .

- طيب طيب ، لا تضطرب يا عزيزي . ما هذه الا ذكرى ..

ان أكبرنا انما أمام الله في هذه القضية هو أنا . كان ينبغي ألا أسمع بما حدث رغم أنك كنت مولاي . فلا تضطربي أنت أيضاً يا صوفيا ،

لا تدعى لنفسك أن تسرف في الاضطراب ، لأن الانم ائى أنا ، ولأنتى
أعتقد أنك كنت فى ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين .

هنا ابتسم ماكار ايفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم . ثم تابع كلامه
فقال :

- كان يمكنى يا زوجتى أن ألقنك درساً فى ذلك الحين
ولو باستعمال العصا ، بل كان يجب على أن أفعل . ولكننى أشقت عليك
حين ارتميت أمامى باكياً ، واعترفت لى بكل شىء وأنت تقبلين قدمى .
ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذه ، ولكننى أريد أن أذكر أندره
بتروفتش وانك يا عزيزى لتذكر عهد الشرف الذى قطمته على
نفسك . ان الزواج يستر كل شىء . أقول لك هذا أمام أولادى

كان ماكار ايفانوفتش منفعلاً الى أقصى حدود الانفعال ، وكان ينظر
الى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد . أكرر أن هذا كله لم
يكن فى الحسبان ، فبقيت جالساً على كرسيى بلا حراك . وكان فرسيلوف
لا يقل عنه انفعلاً بل يزيد عليه : وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبلها .
وها هى ذى ماما تتقدم من ماكار ايفانوفتش ، صامتة كذلك ، فتحنيه
بانحناءة شديدة .

الخلاصة أن المشهد كان يبعث فى النفس أشد التأثير . ولم يكن بالغرفة
فى هذه المرة غريب ، ولا تاتيانا بافلوفنا . وكانت ليزا منتصبه الجذع
فوق كرسيها تصنى صامتة . فهامى ذى تمهض فجأة ، وتقول لماكار
ايفانوفتش بلهجة ثابتة قوية : باركنى أنا أيضاً يا ماكار ايفانوفتش ،
لأنحمل المحنة الكبيرة التى تنتظرنى . غداً يتقرر مصيرى كله . فادع
اليوم لى .

قالت ليزا ذلك وخرجت . انتى أعرف أن ماكار ايفانوفتش كان على

علم بأمر ليزا ، فقد أطلعتة ماما عليه • ولكننى فى ذلك المساء رايت فرسيلوف وماما أول مرة معاً • أما قبل ذلك فلم أكن أرى الى جانبه الا عبدة • ثمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذى كنت قد أدتته • لذلك رجعت الى غرفتى مضطرباً • يجب أن أذكر أننى فى تلك اللحظة نفسىها قد تكافئت شكوكى فيه مزيداً من التكاثر • انه لم يبدو لى فى يوم من الأيام أقرب الى السر واللغز مما يبدو لى الآن • ولكن هذا هو كل القصة التى أكتبها : ولسوف يأتى كل شىء فى حينه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أرقد على سريرى : « لقد قطع لماكار ايفانوفتش على نفسه عهد الشرف ليتزوجنَّ أُمى متى ترمّلت • ولكنه لم يقل لى شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمنى عن ماكار ايفانوفتش » •

فى الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار ، فلما عادت كان الوقت متأخراً ، فمضت الى غرفة ماكار ايفانوفتش رأساً • وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما ، ولكننى لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت • كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكى على كتفه • وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه •

وقد شرح لى فرسيلوف (فى غرفتى بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك ، حتى قبل صدور قرار المحكمة ؛ وأن ليزا مترددة لما تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق فى التردد تقريباً • وكان ماكار ايفانوفتش « يأمرها ، أيضاً بأن تتزوجه • وهذا كله كان ينبغى أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا على الزواج من تلقاء نفسها أخيراً ، بلا تردد ولا أوامر ، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذى تحبه قد أهانها اهانة شديدة ، وأن حبها يذلها حتى فى نظر نفسها ، فكان يصعب عليها

أن تعزم أمرها • ولكن هناك شيئاً غير الاهانة ، قد تدخل فى الموضوع
وما كان ليخطر لى ببال •

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة :

– هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس ؟

فهمت :

– ماذا ؟ درجاشيف ؟

– نعم • وفاسين أيضاً •

‘ذهلت ، ولا سيما من سماع اسم فاسين •

– هل له دخل فى شيء ؟ ما عساهم يصنعون بهم ! رباه ! ويحدث
هذا فى الوقت الذى تشتكى فيه ليزا من فاسين ! ما عسى يحدث لهم فى
رأيك ؟ يميناً ان لستيلكوف يداً فى الأمر !

قال فرسيلوف وهو يرشقتى بنظرة خاصة ، كما ينظر الى امرئ
لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً :

– دعنا من هذا الآن ! ما أدرانا بما وقع ، وما يدرينا بما سيصنع
بهم ؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله : لقد علمت أنك تريد أن تخرج
غداً • فهل تذهب الى الأمير سرجى بتروفتش ؟

– سأذهب اليه قطعاً ، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسى وتؤلمنى ،
أعترف بذلك • هل تريد أن أقول اليه شيئاً على لسانك ؟

– لا ، لا شيء • سأراه بنفسى • اننى أرئى لحال ليزا • أية نصيحة
يستطيع ماكار ايفانوفتش أن يسديها اليها • انه هو نفسه لا يدرك شيئاً
لا من أمور الناس ولا من أمور الحياة ! شيء آخر يا عزيزى (كان منذ
مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتى بقوله : « يا عزيزى ») • ان فى القضية

أيدي عدد من الشبان ... أحدهم رفيقك القديم لامير • يخيل إلى أنهم جميعاً أوغاد رهيون • أردت تنبيهك فحسب • هذا شأنك وحدك • أنا أعلم أنني ليس من حق أن ...

فرايتني أمسك يده فجأة دون أن أفكر ، مدفوعاً الى هذا بما يشبه الحماسة والالهام ، كما يحدث لي كثيراً (وقد حدث هذا كله في ظلام كامل) ، ورأيتني أقول له :

— آندره بتروفتش ، لقد صمت أنا حتى الآن ، وأنت تعرف لماذا صمت • صمت لأخاطبني أن أ تدخل في أسرارك التي قررت ألا أطلع عليها في يوم من الأيام • أنني جبان • أنني أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار من قلبي انتزاعاً تاماً ، وذلك ما لا أريده • أفلا ينبغي لك والحالة هذه أن تعاملني بمثل ما أعاملك به ، فتركني وشأني أمضى حيث أريد ! أليس هذا صحيحاً ؟

فقال لي وهو يتركني :

— انك على حق • ولكن أرجوك : لا تزد على هذا كلمة واحدة !

وهكذا تكاشفنا عرضاً • كانت مكاشفة ضئيلة جداً ، ولكنها كافية لمضاعفة اضطرابي ازاء الخطوة الجديدة التي سأقوم بها غداً • لذلك قضيت الليل متأرقاً • ولكنني تخففت من بعض ما كان يجثم على صدري •

٣

حين خرجت في الغد من البيت ، كانت الساعة هي العاشرة • لكنني بذلت كل جهودي من أجل أن أنصرف خفيةً بدون وداع وبدون كلمة واحدة • تسللت تسللاً • لماذا ؟ لا أدري • ولكن لو اتفق أن رأيتني أمي عند خروجي فحاولت أن تكلمني ، لكان يمكن أن أغلظ لها القول • فلما صرت في الشارع وتنسمت الهواء الطري ، رأيتني أهتز من احساس قوي جداً ، يكاد يكون حيوانياً ، وأستطيع أن أصفه بأنه احساس « وحش ضار » • لماذا أذهب والى أين أذهب ؟ كان احساسى شيئاً لا يمكن تحديده ، ولكنه ضار شديد الضراوة • كنت خائفاً منه وفرحاً به في آن واحد •

— أتندس اليوم أم لا أتندس ؟

كذلك تساءلت بيني وبين نفسي ، على علمي بأن الخطوة التي سأخطوها هذا النهار ستكون ، متى تمت ، حاسمة في حياتي كلها • ولكن لماذا الكلام بالغاز ؟

مضيت الى سجن الأمير رأساً • كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا الى مدير السجن ، فاستقبلني استقبالاً حسناً جداً • لا أدري أهو رجل طيب أم لا ، ولكنني أظن أن هذا السؤال نافل لا داعي اليه • المهم أن المدير أذن لي بلقاء الأمير ، بل تلتطف فأخلى لنا غرفته ليتم فيها اللقاء • كانت الغرفة كجميع الغرف ، غرفةً عادية

لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة • أظن أن من نافل القول أيضاً أن
أصف الغرفة • وهكذا خلوت الى الأمير •

طلع الأمير بلباس لا هو عسكري ولا هو مدني ، بل هو بين
بين ، لكن قميصه نظيف ، ورباط عنقه أنيق ، وقد غسل وجهه ومشط
شعره ، ولكنه نحل تحولاً رهيباً ، واصفر اصفراراً شديداً ، وقد
لاحظت هذا الاصفرار حتى في عينيه • الخلاصة أنه بلغ من التغير أنني
وقفت مشدوها مذهولاً • وهتفت أقول :

- لشدما تغيرت !

فقال مزدهياً بعض الشيء :

- لا قيمة لهذا ! اجلس يا عزيزي !

واشار لي الى كرسي ، وجلس قبالي • وأردف يقول :

- لنناقش النقطة الأساسية : هأنت ذا ترى يا عزيزي ألكسى
ماكاروفتش ...

فقاطعه مصححاً :

- أركادى !

- ماذا ؟ آ • نعم • طيب طيب • لا قيمة لهذا • آ •

نعم ••

أدرك خطأه في تلك اللحظة ، فأضاف يقول :

- معذرة يا عزيزي • ولننتقل الى النقطة الأساسية •••

كان يتعجل الوصول الى غايته تعجلاً شديداً • لكن فكرة أساسية
كانت تلبسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فهو يريد أن يمر عنها
وأن يعرضها • وكان يتكلم بفزارة ، وبسرعة ، وكان يبذل في الكلام

جهداً ويعانى منه عذاباً ، ويستعين عليه بالاشارات والحركات • ولكنى
لم أفهم منه فى أول الأمر أى شىء إطلاقاً •

وختم يقول :

- الخلاصة ••• (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات فى أقل
تقدير) •• الخلاصة : لئن ازعجتك يا آرКАДى ماكاروفتش فالحجت على
ليزا بالأمس إلحاحاً شديداً أن تأتى بك ، فلأن الأمر مستعجل • ولكن
لما كان القرار الذى يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً ، فان علينا •••

قاطعتة قائلاً :

- اسمح لى يا أمير • تقول انك طلبت أمس أن أجيء اليك ؟ ان
ليزا لم تبلغنى شيئاً •

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة ، ويدهش دهشة شديدة ،
حتى ليكاد يرتاع ارتياعاً :
- كيف ؟

- لم تبلغنى شيئاً البتة • لقد عادت الى البيت بالأمس مضطربة
اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لى كلمة واحدة •
انتفض الأمير •

- هل تقول الحقيقة يا آرКАДى ماكاروفتش ؟ اذن •••
- ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من ••• ؟ ما لى أراك
قلقاً هذا القلق كله ، لابد أنها نسيت أن تبلغنى ، أو أن شيئاً ما قد •••

جلس الأمير ، ولكنه ظل كالأبله • لكأن هذا النبأ ، وهو أن ليزا
لم تبلغنى رغبته ، قد سحقه سحقاً • ثم سرعان ما عاد يتكلم محرراً
ذراعيه ، ولكن كلامه بقى مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه •

وقال فجأة :

- انتظر ! ...

ثم سكّت رافعاً أصبعه في الهواء • ثم استأنف كلامه مجمّجاً ، فقال
وهو يتسّم ابتسامة رجل مهووس :

- هذه •• هذه •• إذا لم يخطئ ظني •• هذه مكائد ! •• معنى
ذلك أن ••

قاطعه قائلاً :

- ليس لهذا كله أية قيمة ! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله
لأمر تافه • آه يا أمير ، منذ تلك الليلة ، هل تتذكر كيف •••

فصرخ يقول متضايقاً من مقاطعته :

- أية ليلة ؟ ماذا ؟

- عند تشرشتشيكوف ، حيث التقينا آخر مرة ، قبل رسالتك •••
لقد كنت في تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً • ولكن شتان بين
اضطرابك في تلك الليلة واضطرابك الآن • انتهى الآن أراك فأرتعد
خوفاً ••• أم تراك لا تتذكر •••

فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراقى وكأنه تذكر كل شيء
فجأة :

- آ •• نعم •• نعم •• ذلك المساء •• لقد سمعت أن •• كيف
صححتك الآن ، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آرКАДى ماكاروفتش؟
••• ولكن فلنرجع الى النقطة الأساسية • ذلك أتى لاحق ثلاثة أهداف •
ان أمامي ثلاثة أغراض ، فأريد •••

وعاد يتكلم عن « نقطته الأساسية » ، فأدركت أخيراً أنني أمام رجل

يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً ، أو يجب اسعافه
 بالقصد حالا . كان حديثه المشوش يدور في أغلب الظن على الدعوى
 وما قد تنتهى اليه ، وعلى قيام الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته تنى عزمه
 عن خطوة يريد ان يخطوها ولكنه لم يصنع اليه ، وعلى رسالة بعث بها
 الى جهة ما ، وعلى وكيل نيابة ، وعلى انه سينفى حتما الى مكان بشمال
 روسيا مجرداً من حقوقه ، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند
 مسترداً رتبته ، وعلى الدروس التي سيلقنها لابنه (ابنه الذى ستلده له
 ليزا) ، وما سيسلمه اياه هناك « فى الفلاة » فى أرخانجىل ، وفى
 خولموجورى . • لئن أردت أن أعرف رأيك يا آرКАДى ايفانوفتش ،
 نق كل الثقة أنى أقدر عاطفتك قدراً كبيراً ••• ليتك تعلم يا آركَادى
 ايفانوفتش ، يا عزيزى ، يا أخى العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندي ،
 ماذا كانت ليزا الى هنا طول هذا الوقت ! « كذلك صاح فجأة وهو يمسك
 رأسه بيديه .

– سرجى بتروفتش ، هل 'يعقل أن تريد لها الموت باصطحابها الى
 خولموجورى !

أفلتت هذه الجملة من لساني برغم ارادتي . لقد ترامى لى ارتباط
 مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحياة واضحاً كل الوضوح أول مرة ،
 فجزعت . فنظر الى ، ونهض مرةً أخرى ، ومشى خطوة ، وأدار
 ظهره ، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه .

قال فجأة :

– اننى أحلم دائماً بمناكب .

– أنت فى اضطراب رهيب يا أمير . أنصحك بأن ترقد فى سريرك
 وأن تستدعى الطبيب فوراً .

- لا ، اسمع لى ، فيما بعد • وانما استدعيتك خاصة
لأشرح لك •• مسألة الزواج • ان الزواج ، كما تعلم ، سيتم هنا ، سبق
أن قلت هذا • لقد أعطيت الأذن بالزواج ، حتى اننى 'أشجع' عليه •
أما ليزا •••

صحت أقول :

سارحم ليزا يا أمير ، يا عزيزى : لا تعذبهما بفيرتك ، الآن على
الأقل !

فهتف قائلاً وهو يصوب إلى عينيّن محمليتين ، ويتسم ابتسامة
متشجّجة فيها استفهام أبله :
- كيف ؟

كان واضحاً أن كلمة « الغيرة » قد فوجأته فجأً شديداً •
- معذرة يا أمير ، قلت هذا الكلام برغم ارادتى • اسمع : لقد
تعرفت فى الآونة الأخيرة الى شيخ عجوز ••• هو أبى الشرعى •••
لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءاً وسكينة • ان ليزا أيضاً تقدره قدراً كبيراً •
- آ •• نعم •• ليزا •• آ •• نعم •• هو أبوك ؟ نعم •• معذرة
يا عزيزى • هناك شىء •• أنذكر الآن •• حدثنى ليزا عن هذا • شيخ
طيب •• أنا متأكد ، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً • ولكن دعنا من هذا
الآن • ان الأمر الأساسى هو أن نوضح جوهر المسألة ، يجب •••

قمت لأنصرف • كان يؤلمنى منظره • فلما رأتى أهم أن أنصرف ،
قال بقسوة ووقار :
- لست أفهم !
فقلت :

- يؤلمني أن أراك على هذه الحال •
- كلمة أخرى يا آرКАДى ماكروفتش ، كلمة أخرى •
وأمسك كفىّ بحركة مختلفة كل الاختلاف ، وقد تبدلت هيئته كل
التبدل ، وأجلسنى على المقعد ، وأردف يقول وهو يميل على :
- هل جاءك نبأ أولئك الناس ؟ أقصد ...
- نعم ، درجاشيف •
ولم أستطع أن أسيطر على نفسى فأضفت أقول صائحاً :
- لابد أن سنيلكوف هو الواشى !
- نعم ، سنيلكوف ... ألا تعلم ؟
وتوقف عن الكلام ، وحدّق الىّ مرة أخرى بعينين محمليتين
وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله ، وما تنفك تزداد غرضاً •
وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً • فاذا برعدة تسرى فى جسمى على حين
فجأة ، اذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأنى أمس باعتقال فاسين •
وهتفت أقول مدعوراً :
- هل يُقبل هذا ؟
- اسمع يا آرКАДى ماكروفتش ، أنا انما استدعيتك لأشرح لك ••
وأضاف هامساً بصوت خافت :
- أردت أن ...
فصحت أقاطعه قائلاً :
- أنت الواشى بفاسين !
- لا ، وانما كان هناك مخطوطة ؟ وقد سلم فاسين المخطوطة الى

ليزا قبل اليوم الأخير ... لتحفظها • وتركها لي ليزا هنا لأتصفحها ،
وبعد ذلك حدث أن تخصصا في اليوم التالي ...

– فأرسلت أنت المخطوطة الى السلطات ؟ ...
– آرКАДى ماكاروفتش ! آرКАДى ماكاروفتش !

صحت أقول واثباً من مكانى مقطعاً كلمائى :

– هكذا اذن ، بدون أى دافع آخر ، وبدون أى هدف آخر
عدا الغيرة • لأن فاسين المسكين غريمك ، سَلَّمَت الى السلطان المخطوطة
التي 'عهد بها الى ليزا ! الى من سَلَّمَتها ؟ الى من ؟ الى وكيل النيابة ؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتى • وبماذا كان يمكنه
أن يجيب ؟ لقد تسمر أمامى كتمثال وهو لا يزال يتسسم تلك الابتسامة
المرضية ، ويحلق تلك الحلقة الجامدة • وانه لكذلك اذا بالبَاب يفتح
فتدخل ليزا • فلما رأتنا معاً كادت تسقط مغشياً عليها • وصرخت تقول
وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يديّ :

– أنت هنا ؟ اذن ... « علمت » ؟

لقد قرأت في وجهى أننى « علمت » • وقبلتها بسرعة ، قبل أن
تستطيع الاعتراض ، قبلتها بقوة ، بقوة • لقد أدركتُ فى تلك
اللحظة ، أول مرة ، ادراكاً كاملاً ، مدى الحزن القاتم الذى لا مخرج
منه ولا حدود له ، مدى العذاب الرهيب الذى سيخيم الى الأبد على حياة
هذه الانسانة ... الباحثة عن الآلام !

قالت وهى تتزعزع نفسها منى فجأة :

– ولكن هل يجوز للمرء أن يكلمه الآن ؟ هل يجوز للمرء أن
يبقى معه ؟ لماذا جئت الى هنا ؟ انظر اليه ، انظر اليه ، هل يمكن
أن يدان ؟

كان وجهها يفيض ألما وشفقة لا حدود لهما ، حين أشارت لى يدها
الى الرجل المسكين وهى تهتف ذلك الهتاف • كان جالسا على المقعد دافئا
وجهه فى يديه • انها على حق : لقد كان يعانى من حمى حارة ، فهو غير
مشتول عن أعماله • ولعله كان غير مشتول عن أعماله منذ ثلاثة أيام •
وقد أودع المستشفى فى ذلك الصباح نفسه ، ولم يحل المساء حتى تكشفت
أصابته فى الدماغ •

٤

تركت الأمير مع ليزا فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ومضيت من هناك الى مسكنى القديم . نسيْتُ أن أذكر أن الجو كان رطباً ، معتماً ، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب ، وأن ريحاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيل . استقبلنى المؤجر فرحاً ، وأخذ يسعى ويتحرك حولى كثيراً ، وهذا شيء أكرهه وأمقته فى مثل هذه الأحوال . ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة ، واتجهت الى غرفتى رأساً ، ولكنه تبغى : كان لا يجرؤ أن يسألنى عن شيء ، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع فى عينيه ، وكانت هيئته هيئة انمسان من حقه أن يستطلع . كان ينبغى لى أن أأطفه ، فى سبيل مصلحتى . ولكننى رغم حاجتى القصوى الى معرفة شيء ما (وكنت أعلم أننى لو لاطفته لعرفت شيئاً ما) ، كرهت أن استرسل فى سؤال وجواب . واكتفيت بأن سأله عن صحة زوجته ، ثم ذهبنا اليها . فاستقبلتني بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الكلام . فهدأتنى هذا قليلاً . على أننى علمت فى النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة .

كان لامبير قد جاء طبعاً ، ثم جاء مرتين آخرين ، و طاف بجميع الغرف ، قائلاً انه قد يستأجر غرفة . وجاءت داريا أونيسيمونفا عدة مرات . فكان أهل البيت يتساءلون : « لماذا تجيء ؟ » . وقد أضاف المؤجر قوله : « كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً ، . غير أننى لم أسرّ . فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان ! وكنت على وجه العموم لا ألقى على

الرجل سؤالاً ، وانما كان يتكلم وحده ، وكنت أنظأهر بأنتى أنبش فى حقيتى (التى لم يكن قد بقى منها شىء تقريباً) • ولكن الشىء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يعدد الى السر والتعمية ، وأنه حين لاحظ امتاعى عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً ، حتى ليكاد كلامه أن يصيح ألغازاً •

أضاف يقول وهو يلقي على نظرة غريبة :

– جاءت آمنة أيضاً •

– أية آمنة ؟

– آنا أندريفنا • جاءت مرتين • وتعرفت بزوجتى • امسانة لطيفة ، بشوشة • ان معرفة آمنة مثلها شىء ثمين يا أركادى ماكاروفتش ••

قال هذه الكلمة وهو يتقدم منى خطوة : كان يرغب رغبة قوية فى أن يفهمنى شيئاً !

قلت مدهوشاً :

– مرتين ؟ غير معقول •••

– وكانت فى المرة الثانية مع أخيها •

قلت فى نفسى : « انه لاميير » •

– لا ، ليس هو لاميير ، بل هو أخوها •• شاب اسمه فرسيلوف •
أظن أنه يعمل فى البلاط •

لقد حزر الرجل ما تصورته ، كأن عينيه قد نفذتا الى قرارة نفسى •
اضطربت اضطراباً شديداً • وكان ينظر الىّ وهو يتسسم ابتسامة تودد كريبه • ثم أضاف :

– آ •• نعم •• وجاءت آمنة أخرى تسأل عنك ، الائمة الفرنسية ،

مدموازيل آلفونسين دو فردان • آه • ما أحسن غناءها ! ما أجمل
انشادها الشعر ! ولقد ذهبت خيفة الى تسارسكويلا ل ترى الأمير نيقولا
ايفانوفتش ، فتبعه كلباً صغيراً نادراً ، حالك السواد ، لا يزيد حجمه
على حجم قبضة الكف •••

رجوته أن يتركنى وحيداً بحجة أننى أعانى من صداع • فطاعنى
فوراً ، قبل أن ينهى جملة ، وبدون غضب ، بل بابتهاج ، محرّكاً يده
بإشارة غريبة كأنها تقول : « أفهم ، أفهم ! » • وخرج على روس
الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة ، متيحاً لنفسه هذه المسرة • ان
على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً !

بقيت وحدى أفكر ، ساعة ونصف ساعة • بل قل اننى لم أفكر ،
وانما أخذت أحلم • كنت مضطرباً ، ولكننى لم أكن مدهوشاً • حتى
لقد كنت أتوقع المزيد ، وأتظر عجائب أكبر • قلت أحدث نفسى : « لا بد
أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن ! » • كنت مقتنعاً كل الاقتناع ، منذ
مدة • منذ كنت فى البيت ، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة •
وقلت لنفسى أيضاً ، وأنا أشعر بنوع من الرضى المصبى اللذيد : « لا ينقصهم
الآن الا أنا ، انهم ينتظروننى على أحر من الجمر ، انهم يريدون أن
يدبروا أمراً فى مسكنى ، هذا واضح وضوح النهار ، أ يكون الأمر الذى
يدبرونه هو زواج الأمير المعجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمع
أنا بهذا ياسادة ؟ ذلكم هو السؤال ، • كذلك ختمت حديثى الى نفسى
مزدهياً •

« اذا دخلت فى هذا الأمر ، فسرعان ما سيحرقنى الاعصار كما
يجرق قشة • أنا حر فى هذه اللحظة أم لم أبق حرراً ؟ ألا أزال أستطيع
حين أعود الى ماما فى هذا المساء أن أقول لنفسى كما أقول فى كل يوم :
« أنا ما أنا » ؟ » •

ذلكم هو جوهر أسلتي أو قولوا جوهر خفقات قلبي أثناء تلك المدة التي دامت ساعة ونصف ساعة ، والتي قضيتها في ركن على السرير ، واضعاً كوعى على ركبتي ، جاعلاً رأسي في يدي ؟ ولقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست الا ترهات ، فأنما كانت « هي » التي تجذبني وتجبرني ، « هي » ، « هي » ، وحدها ! أخيراً أقول هذا واضحاً قطعاً ، وأسجله على الورق بأحرف بارزة ؛ انني حتى في هذا اليوم ، وأنا أكتب بعد انقضاء سنة ، لا أزال أجهل الاسم الذي يجب أن أسمي به العاطفة التي كانت تختلج في نفسي آنذاك !

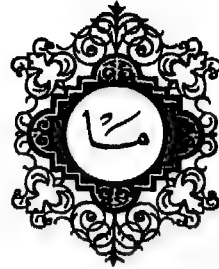
صحيح أنني كنت أشعر بشفقة على ليزا ، وكنت أعاني أليماً صادقاً ! وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يظلمني أو أن يمحو من نفسي ، ولو الى حين قصير ، ما كان يجيش فيها من شعور وحشي ضار (هأنا أستعمل هذا التعبير مرة أخرى) . ولكن كان يجبرني استطلاع رهيب وخوف غامض ، وكانت تجبرني عاطفة أخرى لا أعرف ما هي ، ولكنني كنت منذ ذلك الحين أعرف أنها ليست عاطفة طيبة ، بل هي عاطفة فاسدة . لعلي كنت أصبو الى أن أترامي عند قدميها ، ولعلني كنت أريد كذلك أن أغرقها في جميع أنواع العذاب وأن أبرهن لها على شيء ما « بسرعة » . فلم يكن لأي ألم أو أي عطف على ليزا أن يوقف اندفاعي . هيا ، هل أستطيع أن أنهض فأعود الى البيت . . . وأجلس الى ماكاري إيفانوفتش ؟

« ولكن هل يستحيل عليّ حقاً أن أذهب اليهم ، فأعرف منهم كل ما 'يدبر' ، ثم أتركهم فجأة الى الأبد ، فأكون قد مررت بالعجائب والشياطين سليماً لم يمسنني سوء ؟ » .

في الساعة الثالثة ، اذ ثبت الى نفسي ورأيت أنني كدت أتاخر ، خرجت مسرعاً ، فركبت عربة وطرقت الى آنا آندريفنا .

الفصل الخامس

١



ان أبلغوا آنا آندريفنا وصولى حتى تركت شغلها
 وأسرت تستقبلنى فى الغرفة الأولى ، وتلك
 حفاوة لم ألق مثلها من قبل . وقد مدت الى يديها
 كليهما ، واحمر وجهها بسرعة . وقادتني الى
 حجرتها صامتة ، وعادت تتناول شغلها ، وأجلستني بجانبها . لكنها كفت
 عن التطرّيز ، وظلت تتفرّس في باهتمام حار دون أن تقول شيئاً .
 قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنع رغم أنه
 طاب لي كثيراً :

- أرسلت الى داريا أونيسيموفنا ؟ ...

فسرعان ما شرعت فى الكلام دون أن تجيب عن سؤالى ، فقالت :

- لقد قصوا على ما وقع لك ، فعرفت كل شيء . يالها من ليلة
 رهية ! ... ما أشد العذاب الذى لا بد أنك عانيته ! هل صحيح ، هل
 صحيح أنهم وجدوك فى غيبوبة ، وكنت توشك أن تتجمد ؟

فجمجمت أقول وقد احمر وجهي :

- هل ... لامير ... ؟

- حكى لي كل شيء فى ذلك الوقت . ولكنني كنت أنتظرك .
 لقد جاءني مرتاعاً . عندك ... فى البيت الذى كنت راقداً فيه على سرير

المرض ، رفضوا أن يراك • وقد استقبلوه استقبالاً سخيفاً ••• لا أدري
فى الواقع كيف وقع لك ما وقع • ولكنه حدثنى كثيراً عن تلك الليلة •
وقال لى انك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسمى • فأتراً هذا فى قلبى
تأثيراً قوياً ، لقد ترققت الدموع فى عينيّ من شدة التأثير يا أركادى
ماكاردوتش • وانى لا أدري حقاً ماذا فعلت حتى استحق منك هذه العاطفة
كلها ، ولا سيما فى حالة كالحالة التى كنت فيها • قل لى : هل مسيو لامبير
رفيق طفولتك ؟

- نعم ، ولكننى أعترف بأننى ••• فى ذلك الحادث ••• كنت
متهوراً فلعلنى قلت له أكثر مما كان ينبغى أن أقول •

- ولكننى كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهيبة دون أن يروى
هو لى شيئاً ! لقد كنت أحس دائماً ، دائماً ، أنهم سيوصلونك الى هذا !
قل لى : هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك ؟

انها تتكلم كلام من يعتقد أننى لم 'يُعر على' عند الجدار الا بسبب
بيورنج وبسببها « هى » • وقد قلت لنفسى : « الواقع أنها على حق » •
ولكننى انفجرت أقول مع ذلك :

- لو رفع على يده لما تركته بغير عقاب ، ولما وجدتنى الآن أمامك
قبل أن أثار لنفسى •

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظنى ، وأن تثير حنقى على شخص ما
(أعرف من هو) ، ومع ذلك رأيتى أنقاد لاستشارتها ، فقلت :

- تقولين انك كنت قد أدركت أننى بسببها سأصل الى ما وصلت اليه •
فأجب أن أذكر لك أن ما وقع بينى وبين كاترين نيقولايفنا ليس الا سوء
تفاهم ، وان يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيرت عواطفها نحوى فى أعقاب
سوء التفاهم •••

— تماماً • سرعان ما تغيرت عواطفها !

كذلك قالت آنا آندريفنا متعاطفة • ثم تابعت :

— آه ... ليتك تعرف المكيدة التي 'تدبّر الآن ! لاشك أن حالتك

لا تساعدك في هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعى كل الادراك ...

قالت ذلك وقد احمر وجهها وغطت طرفها • واستطردت تقول :

— اننى فى ذلك الصباح نفسى الذى التقينا فيه آخر مرة ، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدروها رجل له ذكاءك السليم وقلبك المحب الغض الذى لم يفسد • ثق يا صديقى اننى أحسن تقدير عاطفتك ، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتنان الى الأبد • لاشك أن الناس فى المجتمع الراقى سيموننى بحجر ، بل لقد رمونى بالحجر فعلاً • ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهية ، فمن ذا الذى يستطيع ، من ذا الذى يجرؤ منهم أن يديننى ؟ لقد هجرنى أبى منذ طفولتى • انا ، آل فرسيلوف ، الأسرة العريقة النبيلة ، أناس مغامرون ، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم واحساناً • أفليس طبيعياً اذن أن أتجه الى ذلك الذى كان لى منذ طفولتى بمنزلة الأب ، وأعرفنى بحسناته سنين طويلة ؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف ، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التى خطوتها • اننى لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة • وعدا ذلك ، حين تحسك أدناً وأحققر مكيدة ، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحية لمؤامرة تدبرها له ابنته ، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا ؟ لا ، انى لأوتر أن أضيع سمعتى على ألا أنقذه • اننى مستعدة أن أكون له خادماً وحارساً وممرضة ، ولكننى لن أدع لحساب دنىء وضعى كربه أن يتتصر !

كانت تتكلم بحرارة شديدة ، قد يكون نصفها مفتعلاً ، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء ، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد . ولقد احسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً ، فالمرء يمكن ان يكذب كذباً صادقاً) ، واحسست بأن كل ما فيها زيف وزور . ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء : ان هذه النبرة الراقية ، وهذه الأنفة الشماء ، وهذه العفة الفخور ، ان هذا كله كان يذهلنى عن نفسى ويحيرنى فى أمرى ، فاذا أنا أوافقها على جميع النقاط ، ما بقيت معها . لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه ، ولا سيما اذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية ! ان امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أى رجل كريم . قلت أحدث نفسى وأنا أنظر اليها مرتبكاً متحيراً : « هى ولا مير ! رباه ! » . على أننى سأقول كل شيء : اننى لا أزال حتى هذا اليوم عاجزاً عن أن أقطع فيها برأى . ان الله وحده قادر على أن يرى عواطفها ، ثم ان الامسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً ، ولا سيما اذا كان هذا الامسان امرأة .

سألته بلهجة جازمة :

— فماذا تنتظرين منى يا آنا آندريفنا ؟

— ما تعنى بهذا السؤال يا آر كادى ماكاروفتش ؟

قلت مرتبكاً :

— يبدو لى . . . مما سمعته . . . ومن اعتبارات أخرى أيضاً ، أنك انما أرسلت تستدعينى لأنك تنتظرين منى شيئاً . فما الذى تنتظرينه منى على وجه التحديد ؟

ولكنها لم تجب عن سؤالى ، وانما سارعت تستأنف كلامها ، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة :

- ولكننى لا أستطيع ، اننى أشد إباءً وكبرياءً من أن أدخل فى
إيضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامير . فأت من كنت
أنتظر ، لا مسيو لامير . ان وضعى حرج رهيب ، يا أركادى ماكاروفتش!
فأنا مضطرة الى الحيلة والمكر ، لأننى محاطة بمؤامرات تحوكلها الى هذه
المرأة . وهذا لا يطاق . اننى أتدنى الى مستوى المكيدة ، فكنت انتظر
كما ينتظر منقذ مخلص . ما ينبغي أن 'أتهم لأننى أنظر فيما حولى
بشراهة عسى أن اكتشف صديقاً واحداً على الأقل ، وهذا هو السبب فى
أننى لم أستطع الا أن أقرح حين وقعت على هذا الصديق ؛ ان الذى
أمكنه ، حتى فى تلك الليلة ، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد ، أن
يتذكرنى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً . ذلك ما قلته
لنفسى ، وهذا هو السبب فى أننى كنت أعول عليك .

كانت تنظر فى عينيّ نافذة الصبر شوقاً الى سماع جوابى . ومرة
أخرى أعوزتنى الشجاعة اللازمة لأبدد أوهامها ولاذكر لها بصراحة
أن لامير خدعها وأننى لم أزعم له أبداً أن صداقتى لها تبلغ هذا المبلغ كله
من القوة ، واننى لم أرد اسمها وحدها . فكان صمتى بمثابة تأكيد لكذب
لامير . وأنا أعلم أنها كانت هى نفسها تدرك حق الادراك أن لامير قد
بالغ وغالى ، بل لعله كذب عليها أيضاً ، لا لشيء الا أن يجد عذراً كريماً
لمجهته اليها وعقد صلة بينه وبينها . ولئن كانت تنظر فى عينيّ نظرة
الموقن بصدق أقوالى وقوة صداقتى ، فانما مرد ذلك طبعاً الى أنها كانت
تعلم أننى لن أجرو على التكذيب ، بحكم ذوقى وأدبى ، وبحكم سننى
أيضاً . على أننى أسأله : هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح ،
فلا أجد لهذا السؤال جواباً . ولعلنى أمرؤ فاسد فساداً رهيباً .

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت اننى لا أجيب :

- ان أخى سيدافع عنى .

تمت أقول مضطرباً :

- قيل لى انك جئت تزورينى معه •

- ذلك أن هذا المسكين ، الأمير يقولوا ايعانوفتش لم يكذب بقى
له ملجأ يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابتسه الا مسكنك ،
اعنى الا مسكن صديق • ألا يحق له فعلاً أن يعدك صديقا ، أنت على
الأقل ؟ فان كنت تستطيع أن تصنع له شيئا فاصنعه ، اصنعه اذا استطعت ،
اذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة ، واذا كنت قادرا على أن
تصنع شيئا بالفعل ، • اننى لا أسألك هذا من أجلى • لا • لا أسألك هذا
من أجلى ، بل من أجل شيخ تعبس أحبك وحده حبا صادقا ، وتعلق
بك تعلقه بابنه ، ولا يزال يضجره بعدك عنه الى الآن • من أجلى أنا
لا أنتظر شيئا ، لا أنتظر شيئا حتى منك ، بعد أن رأيت أن أبى نفسه
قد دبراً لى مكيدة دنيئة !

قلت :

- يخيل الى أن آندره بتروفتش •••

فقاطعتنى قائلة وهى تبسم مرة :

- ان آندره بتروفتش قد أجاب عن سؤالى الصريح بأن حلف لى
بشرفه أنه لم يضمرك لكاثرين يقولايانا شيئا فى يوم من الأيام ، ولا طمع
فى شئ منها أبداً ، فصدقته أنا كل التصديق فخطوت خطوتى • ثم انضح
أنه لم يحافظ على هدوئه الا الى الوقت الذى جاءه فيه ذلك النبأ عن
رجل اسمه بيورنيج •

هتفت أقول :

- ليس هذا هو الأمر • أنا أيضاً ظننت فى لحظة من اللحظات أنه
يجب تلك المرأة • ولكن ليس هذا هو الأمر ••• وحتى لو صدق أن

هذا هو الأمر ، فان فى امكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحرك ساكناً
بعد أن انسحب ذلك السيد •

— أى سيد ؟

— بيورنج •

فقالت وهى تضحك ضحكة ساخرة :

— من قال لك انه انسحب ؟ لعل هذا السيد لم يكن فى يوم من

الأيام قوياً كقوته الآن •

وبدا لى الآن أنها كانت تحدجنى أنا أيضاً بنظرة ساخرة •

تمتتم أقول وقد اضطربت اضطراباً لم أقدر أن أخفيه ولا شك
أنها لاحظته :

— داريا أونيسيموفنا قالت لى هذا •

— داريا أونيسيموفنا اسانة طيبة ، ولست أملك طبعاً أن أمنعها

عن حبى ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لا يتعلق بها •

انقبض صدرى • وكما كانت تنوى أن تلهب استيائى فقد التهب

استيائى فعلاً ، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة « الأخرى » بل

انصب على أنا آندريفنا نفسها ، فنهضت وقلت :

— ان من واجبى ، كرجل شريف ، أن أنبهك يا أنا آندريفنا الى

أن الآمال التى تمقدينها علىّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها ••

فحدقت الى بنظرة ثابتة وقالت :

— اننى أنتظر أن تحمىنى •• أن تحمى اسانة هجرها الجميع ••

أن تحمى أختك يا آكارى ماكاروفتش !

وكادت أن تجهش باكياً •

فتمتت أقول وأنا أشعر بألم شديد :

- الأفضل ألا نقول على هذا ، لأن « من الجائز » أن لا يحدث شيء .

- ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه ؟

ألت هذا السؤال بكثير من التروى والحذر . فإذا أنا أمرخ قائلاً بما يشبه الغضب :

- افهمى من أقوالى أننى سأبتمد عنكم جميعاً ، وكفى ! أما « الوثيقة » ، سوف أمزقها . استودعك الله !

حيثما وخرجت صامتاً لا أجرو حتى أن أنظر إليها . ولكن ما ان بلغت أسفل السلم حتى أدركتني داريا أونيسيموفنا وهى تحمل ورقة من ورق الرسائل مطوية نصفين . من أين جاءت داريا أونيسيموفنا ؟ أين كانت مختبئة فيما كنت أكلم آنا أندريفنا ؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه . وقد أعطتني الورقة دون أن تقول كلمة واحدة ، وعادت أدراجها بسرعة . وفضضت الورقة ، فإذا أنا أقرأ فيها عنوان لامير مكتوباً بأحرف جلية دقيقة ، فكان واضحاً أن كل شيء قد تمّ اعداده وتحضيره منذ بضعة أيام . تذكرت فجأة أننى ، يوم جاءت الى داريا أونيسيموفنا ، قد أقلت منى أننى لا أعرف أين يقيم لامير ، ولكننى انما قلت هذا الكلام بمعنى أننى « لا أعرف ولا أريد أن أعرف » . وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من « مكتب عناوين » . بدت لى هذه المبادرة من آنا أندريفنا بليغة الدلالة بل شديدة السخرية : فانها ، رغم رفضي

التعاون معها ، ترسلنى الى لامير رأساً ، فكأنها 'تفهمنى أنها لا تصدقنى
أى تصديق • كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة « الوثيقة » كاملة •
ومن عسى يعلمها بها غير لامير الذى ترسلنى اليه ليم التفاهم بينى وبينه ؟
قلت لنفسى مستاءً : « انهم جميعاً يعدوننى صبيّاً صغيراً لا ارادة له
ولا حزم عنده ، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون ! » •

مع ذلك ذهبت الى لامبير . وهل كان يمكننى أن أرضى حب الاطلاع الذى تملكنى الا عنده ؟ ان لامبير يسكن بعيداً جداً ، فى شارع كوسوى بيريؤلوك ، بقرب « حديقة الصيف » ، فى ذلك البيت المفروش نفسه . ولكنى حين ولّيت هارباً من عنده لم أنتبه الى طول المسافة ، حتى اذا زوّدتنى ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام ، دهشت ولم أكّد أصدق أنه يسكن هناك . وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش ، فى الطابق الثالث ، بشابين اعتقدت ' انهما قرعا الجرس قبل فهما ينتظران أن ' يفتح لهما الباب . وكانا كلاهما يتفرسان فى أثناء صعودى ، وقد أدارا للباب ظهرهما . قلت لنفسى حين وصلت اليهما : « هذا بيت مفروش ، فلا بد أنهما آتيان الى مستأجرين آخرين غير لامبير » . كان يمكن أن يزعمجنى جداً أن ألقى أحداً عنده . ومددت يدي الى الجرس لأقرعه ، محاولاً ألا أنظر اليهما . فاذا باحدهما يصيح قائلاً لى :

— انتظر !

وقال الآخر بصوت رنان رقيق ، ممطوط قليلاً :

— انتظر من فضلك . سنقرع الجرس معاً متى انتهينا ، اذا

تكرمت .

فأسكت عن قرع الجرس . انهما شابان فى ريعان الشباب ، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين ، قد وقفا أمام الباب منهكين

فى عمل عريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً • ان الذى صاح يقول :
 « انتظر » ، مديد القامة جدا ، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمترا فى أقل
 تقدير ، وهو شديد النحول ، لكنه بارز العضلات ، الى رأس صغير جداً
 بالقياس الى طول القامة ، هذا عدا وجه مجدور قليلاً ، مكفهر اكفهراراً
 مضحكاً ، لكنه ينم عن ذكاء ، بل يسكاد يكون محبباً • ان عينيه تحدقان
 تحديقاً ، بصلاية لا محل لها بل لا داعى اليها • وهو سىء الهندام ، يرتدى
 معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن ، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط ، معطفاً قصيراً
 مسرفاً فى القصر بالنسبة الى طول قامته - فلاشك أنه مستعار - وهو يتنعل
 حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين ، ويضع على رأسه قبعة عالية
 مشققة ، بالية رهيبة البلى • هو على وجه الاجمال وسخ ، يداه اللتان
 لا يسترهما قفازان قذرتان ، وأظفاره الطويلة مسودتان • ولا كذلك
 رفيقه : فانه أنيق الى أبعد حدود الأناقة : معطف خفيف من فراء
 ابن عرس ، قبعة حلوة ، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة •
 انه فى مثل طولى ، على محبباً فتان ووجه فتى غض •

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافته ، وهى شريط مهترى •
 كل الاهتراء ، متسخ بالدهن ، كاد يستحيل الى خيوط ؟ على حين اسفل
 رفيقه من جيبه كرافته أخرى سوداء ، جديدة كل الجدة ، اشترت من
 المتجر منذ هنيهة ، وراح يعقدها له على رقبته • فكان الأول يمد رقبته
 الطويلة طائماً معبراً بوجهه عن أكبر الجد ، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن
 جسمه •

قال الشاب الأنيق •

- لا ، مستحيل • القميص وسخ جداً • وسيظهر بالتضاد أشد
 اتساخاً • ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة ؟ لا أستطيع •••

ثم التفت الى وقال يسألنى :

- ألا تستطيع أنت ؟

- ماذا ؟

- أن تعقد له كرافته متنفخة بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ ،
والا فقدت كل قيمتها وتأثيرها • لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق
فيليب ، ودفعت ثمنها روبلاً •

تمتم الطويل يقول :

- هل هو روبلك أنت ؟

- نعم • ولم يبق معي كوبك واحد • هيه ؟ ألا تستطيع ؟ يجب
أن نسأل ألفونسين •

وسألني الطويل بفتة في غلظة :

- هل أنت آتٍ الى لامير ؟

فأجبت بمثل لهجته وأنا أهدق الى عينيه :

- نعم ، الى لامير •

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه :

- دوجورفكي ؟

فقلت أجيبه بفظاظته كفظاظته :

- لا ، لست كورفكين •

لقد سمعت خطأ •

فقال كمن يصرخ صراحاً ويتقدم نحوي خطوة كمن يهددني :

- دوجوروفكي ؟

فانفجر رفيقه ضاحكاً ، وقال شارحاً :

- انه يقول دولجوروفكى ولا يقول كوروفكين • انت تعلم ان
الفرنسيين فى « جريدة الجدل » يشوهون الأسماء الروسية دائماً •

فقال الطويل مصححاً مقرأً :

- بل جريدة « الاستقلال » •

- ... غير مهم • جريدة « الاستقلال » أيضاً • فاسم دولجوروفكى
مثلاً يكتبونه دولجوروفكى • قرأت هذا بنفسى • واسم فـ ... سوف
يكتبونه دائماً كوت فالونيف •

صاح الطويل :

- دوبوينى !

- نعم ، هناك أيضاً اسم دوبوينى • قرأته بنفسى ، وضحكنا جميعاً :
هى امرأة يقال لها مدام دوبوينى ، روسية فى الخارج ...

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى الطويل :

- ولكن علام ذكرهم جميعاً ؟

وعاد يكلمنى فقال :

- معذرة • هل أنت السيد دولجوروفكى ؟

- نعم ، دولجوروفكى • ولكن من أين عرفت اسمى ؟

هنا همس الطويل فى أذن رفيقه اللطيف بعض الكلام ، فقطب هذا
حاجبيه وحرك يده بإشارة نفى • ولكن الطويل التفت الى فجأة وقال
يسألنى بالفرنسية :

- « سيدى الأمير ، هلاً » أعطيتنا روبلاً فضة ، لا روبلين ، بل روبلاً
واحداً ! » •

فصرخ القصير يقول مؤنباً :

- يا للحيوان !

وعاد الطويل يكلمنى فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً
رديئاً آخرق :
- « سندر اليك » •

وانفجر القصير يضحك ، وقال :

- هذ افنى رقيق ! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية ؟
انه ليتكلم كما يتكلم باريسى ، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقى
الذين تملكهم رغبة جنونية فى التخاطب بلغة لا يجيدونها •••

فأبهرى الطويل يقول مخصصاً :

- « فى حافلات القطار » •

- طيب • فى حافلات القطار أيضاً • انك لمضجر حقاً • ما الداعى
الى مزيد من الشرح • أية لذة تجد فى تمثيل دور الغبى ؟
فى أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته الى الطويل • فقال
وهو يضع الروبل فى جيبيه (بالفرنسية) :
- « سندر اليك » •

ثم التفت فجأة الى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجدة ،
وأخذ يده بطرف حذائه الضخم ، ولكن بدون أى احتياج أو حنق •
فقال له القصير قللاً :

- سوف تتساجر مرة أخرى مع لامير • الأفضل أن تقررع الجرس •

وقرعت أنا الجرس ، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة
دق الباب بقدمه •

وفجأة دوى صوت لامير وراء الباب قائلاً :

- هوه ! يا للعين !
- وفتح لامير الباب بسرعة ، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية) :
- « قل لى ، أترك تريد أن أهشم لك رأسك ؟ » .
- فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامير الذى احمر غضباً :
- « يا صديقى ، هذا دولجوروكى ! أما الثانى فهو صديقى ! » .
- فما ان رأى لامير حتى تغير تغيراً كاملاً وهتف يقول :
- هذا أنت يا آرКАДى ! أخيراً ! كيف صحتك ؟ هل شفيت ؟
- وتناول يديّ كليتهما ، وشدّ عليهما شداً قوياً . الخلاصة أنه بلغ من صدق الحماسة للقائى أننى سرعان ما رقّ قلبي له ، وافتنت به . قلت :
- هذه أول زيارة أقوم بها !
- فصرخ لامير متادياً :
- « آلفونسين » !
- فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز ، فقال لها لامير :
- « هو ذا ! » .
- فصاحت آلفونسين مصفقةً يديها :
- « انه هو » !
- ثم عادت تباعد يديها واندفعت الىّ لتقبّلنى ، ولكن لامير حمانى منها ، اذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً :
- هيه ! هيه ! على مهلك !
- ثم التفت الىّ فقال :

- اسمع يا آر كادى ، لقد اتفقنا ، عددًا من الأشخاص ، على أن
تتمشى اليوم فى مطعم "التر" ، فلن اتركك • سنصحبنا • سنتعشى معاً •
وسأصرف هذين حالاً ، ثم نأخذ نتحدث • ادخل • سنخرج على الفور •
دقيقة واحدة لا أكثر ...

دخلت ، وتسمرت فى وسط الغرفة ، أنظر الى ما حولى وأستعيد
ذكرياتى • كان لامير قد أخذ يرتدى ثيابه وراء الحاجز • وقد دخل
الشباب الطويل ورفيقه وراءنا ، رغم ما قاله لامير • فكنا نحن الثلاثة
وقوفاً •

خار الطويل يقول لآلفونسين :

- « مدموازيل آلفونسين ! بوسبنى ! » •

وقال الصغير وهو يتقدم ويربها الكرافة الجديدة :

- « مدموازيل آلفونسين ! » •

ولكنها هجمت عليهما كليهما حائقة مسعورة وقالت :

- « آه ... يا للسافل ! لا تقرب منى ، لا توسخنى ! »

قالت هذا للشباب القصير ، فهو الذى كانت حاقدةً عليه •

ثم اتجهت الى الطويل فقالت له :

- « وأنت أيها الأبله الطويل ! لسوف أطرركما كليكما ركلاً »

بقدمى ... هل تعرف هذا ؟ » •

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدراء واحتقار ، كأنها تخشى
حقاً أن يوسخها (وهذا مالم أفهمه ، لأنه كان نظيفاً كل النظافة ، وقد
ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه) ، رغم ذلك رجاها القصير
ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافته ، وأن تعيره قبل ذلك ياقة نظيفة

من ياقات لامير • فأوشكت آلفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب ، ولكن لامير الذى سمع الكلام ، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وان تعطيهما ما يريدان ، و « الا فلن يدعانا هادمين » ، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشاب الطويل بدون أى اشمزاز • ومدّ الطويل لها رقبتة وهى تعقد له كرافتته ، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلم أمام الباب •

قال يسألها بغتة :

— « مدموازيل آلفونسين ، هل بعث البولونيا الذى كان عندك » •
— « ما البولونيا هذا ؟ » .

فانبرى القصير يشرح لها أن « البولونيا » كلب صغير •
— « هه ! ما هذه الرطانة ؟ »

— « اننى أتكلم كما تتكلم سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية » •

بذلك أجابها « الطويل الأبله » وهو لا يزال ماداً رقبتة •
فقالت له :

— « ما سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية ؟ » •

ثم أضافت تخاطب القصير وهى تلتفت اليه فجأة :

— « و ••• أين ساعتك الجميلة التى أعطاك اياها لامير ؟ » •

فصاح لامير يقول من وراء الحاجز ساخطاً :

— ماذا ؟ بشير ساعة مرةً أخرى ؟

فدمدم « الأبله الطويل » قائلاً :

- أكلنا بئمنها !

وأضاف القصير يجب لامير مبرراً عمله بدون حرارة :

- بعثا بثمانية روبلات • هي من فضة مذهبة ، وليست ذهباً كما زعمت • أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً •

فتابع لامير كلامه بمزيد من السخط قائلاً :

- يجب أن يوضع حد لهذا • يا صديقي ، اذا كنت أشتري لك ثياباً وأعطيت أشياء ثمينه ، فأنني لا أفعل ذلك من أجل أن تبعتها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله ••• ما قصة هذه الكرافته التي اشتريتها له أيضاً ؟

- هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر • ولم أدفع ثمنها من مالك أنت • لم يكن عنده كرافته ، ولا يزال يحتاج الى قبعة •

قال لامير وقد استعر غضبه استعاراً رهيباً في هذه المرة :

- كفى حماقات ! لقد أعطيته ما يكفي لشراء قبعة أيضاً • ولكنه سرعان ما ينفق المال في أكل محار وشرب شمبانيا • ان راحته عفته • انه قدر • لا يستطيع المرء أن يصطحبه الى أى مكان • كيف أصطحبه الى العشاء ؟

جمعهم « الطويل الأبله » يجب قائلاً :

- فى عربة ! • ان معنا روبلاً فضة اقترضناه من صديقنا الجديد • •

فصرخ لامير يقول :

- لاتعطهما شيئاً يا آرКАДى ، لاتعطهما شيئاً البتة !

قال القصير فجأة وقد احمر احمراراً شديداً فضعف جماله :

- اسمح لى يا لامبير • اننى اطلبك بعشرة روبلات فوراً • ولا تقل
سخافات كهذه التى فلتها الآن لدولجوروكى ! اطلبك بعشرة روبلات ،
لأرد الروبل الى دولجوروكى حالاً ، ثم أشتري بالباقي قبة لآندرييف ،
وسترى •

خرج لامبير من وراء الحاجز ، وقال :
- اليك ثلاث ورقات صفر ، ثلاثة روبلات ، ولن أعطى شيئاً
آخر قبل يوم الثلاثاء القادم ، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك
الموعد • والا ...

انتزع « الطويل الأبله » من يديه الورقات الثلاث • فمدَّ روبلاً الى
دولجوروكى قائلاً له :

- « دولجوروكى ، اليك روبلاً ، نرده شاكرين أجزل
الشكر » •

ثم صاح يقول لرفيقه :

- هلمَّ بنا يا بيرو !

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوِّح بهما فى الهواء ، وأتشد يقول
بأعلى صوته وهو ينظر الى لامبير وجهاً لوجه :

- « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

فزأر لامبير ينهره بغضب رهيب :

- اسكت ! اسكت !

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجعلها كل الجهل ، فكت
أنظر الى المشهد مدهوشاً • ولكن الطويل لم يحدث له غضب لامبير أى
خوف • بالعكس : أخذ يزأر متشداً بصوت أعلى : « أوهيه لامبير ! » النخ •

وخرج الشابان وصارا فى السلم ، وركض لامير يلاحقهما ، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه • وقال :

- لسوف أطردهما ! سوف أطردهما قريباً ! انهما يكلفانى نفقات أكبر مما يعودان علىَّ به من أرباح • هلمَّ بنا يا آرКАДى ! لقد تأخرت • ينتظرنى هنالك شخص ••• شخص مفيد !

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكرز أسنانه :
- أوباش ! أوباش !

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة • قال :
- يسعدنى أنك جئت أخيراً • يا آلفونسين ! لا يخطرن ببالك أن تخرجى ! هلمَّ بنا يا آرКАДى !

أمام الباب ، كانت تنتظره عربة فضمة • ركبنا العربة • ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح فى تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة • وقد أدهشنى أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجِد السديد ، وأدهشنى أن رأيتهما يعاملان لامير بغير احترام ، حتى لقد كاد لامير أن يرتعد أمامهما ارتعاداً • لقد كان يخيَّل الىَّ دائماً ، بالاستناد الى شعور قديم من مشاعر الطفولة ، أن لامير شخص لابد أن يخشاه جميع الناس ، حتى لقد كنت أنا نفسى ، رغم كل ما أنصف به من استقلال ، أشعر بخوف منه فى تلك اللحظة قطعاً •

استمر لامير يعبرٌ عن غضبه ، فقال :
- أقول لك انهما وبشان رهيان • صدقتى : ان هذا الطويل قد سلمنى سوء المذاب منذ ثلاثة أيام فى مجتمع راق • وقف أُمَامى ينشد صائحاً : « أوهيه لامير » • فى مجتمع راق • وأخذ الناس جميعاً يضحكون • كانوا يعلمون أنه انما يفعل ذلك لأعطيه مالاً • رأيت المشهد

هنا بنفسك • وقد أذعنت فأعطينه • آه ••• انهم أوغاد • كن تلميذاً ضابطاً • فطرده من المدرسة • تستطيع أن تتصور • وهو مثقف • نشأ في أسرة كريمة • في أسرة كريمة ، صدقني • وله أفكار • كان في وسعه أن ••• ! ذلك أنه قوى قوة هرقل • انه يقدم بعض الخدمات الصغيرة ، ولكن بغير همة وحماسة • وقد رأيت بعينك : انه لا يفلس يديه • ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات ، سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية ، وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن يتحرر من شدة ما بلقي من عذاب الضمير • فذهب اليها ، وجلس عندها ، وطفق يصفر ! أما الآخر ، الفتى ، فهو ابن جنرال • أسرته تخجل أن يكون ابنها • خلصته من المحكمة ، أنقذته ، فأنظر كيف يكافئني ! ليس ههنا رجل ! ولكنني سأطردهما ، سأشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب •

— انهما يعرفان اسمي • فهل أنت الذي حدثتهما عني ؟

— ارتكبت هذه الحماقة • في أثناء العشاء ، سيطر على نفسك ، أرجوك ، ابق في مكانك • سيجيء الى العشاء وغد آخر رهيب • ذاك ويش فظيع ، ماكر مكرراً فظيماً • ليس ههنا الا سفلة على كل حال • ما من رجل واحد شريف ! ولكن سنتخلص منهم •• ثم ، ماذا تحب من طعام فاخر ؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال • جميع وجبات العشاء طيبة • أنا الذي سأدفع ، لا تهتم ! من حسن الحظ أنك ترثدي ثياباً حسنة • أستطيع أن أعطيك مالا • ليس عليك الا أن تجيء وتطلب • تصور أنني أتخمتها شراباً وطعاماً • في كل يوم فطائر • وتلك الساعة التي باعها هي الساعة الثامنة • ذلك القصير تريشأتوف — رأيت كيف تشمئز الفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها — ما ان يجد نفسه في مطعم ، ومن حوله ضباط ، حتى يأخذ يصرخ : « أريد حجباً » • فأطلب له حجباً ! لكنني سأنتقم •

- هل تذكر يا لامير ... يوم ذهبنا معك الى المطعم بموسكو ،
فطعنتني هناك بشوكة فى فخذى ! كان معك خمسمائة روبل فى ذلك
اليوم !

- نعم ، أذكر . طبعاً أذكر . اننى أحبك . صدقنى . لا أحد
يحبك . لكننى أنا أحبك . أنا وحدى ، تذكر هذا . ان الرجل الذى
سيجىء الى العشاء ، الرجل المجدور ، هو أمكر الأوغاد قاطبة . حذار
منه . اذا كلمك فاصمت ، واذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات ، لاتقل شيئاً .
ان اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقى على أسئلة أثناء الطريق .
وقد جرح شعورى أن أراءه واقعاً بى هذه الثقة كلها ، والا يخطر بباله
أن يشك فى أى شك . انه يتصور ، استناداً الى طواعيتى القديمة له ،
حين كنا فى مدرسة توشار ، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرنى فأصدم
بأمره . وقلت لنفسى ونحن ندخل المطعم : « هو فوق ذلك كله جاهل
جهلاً فظيلاً ، فلا أمر فيه لثقافة » .

هذا المطعم ، فى شارع مورسكيا ، كنت قد ترددت اليه فى أيام سقوطى المخزى . فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيونى وعرفوا فى واحد من رواد المطعم ؛ وأحسست بالعربة فى جو رفاق لامبير ، وفى جو هؤلاء الصاحب الذين رأيتنى بينهم على حين فجأة وكأنتى واحد منهم ؛ وخالجتى توجس غامض بأننى مقبل على أمور قدرة وأننى سأنتهى فى أغلب الظن الى ارتكاب عمل سيء ، شعرت بطعنة تنفذ فى قلبى دفعة واحدة ، حتى هممت فى لحظة من اللحظات أن أنصرف ، ولكن تلك اللحظة مرت ، وبقيت .

ان « المجدور » الذى يخشاه لامبير تلك الحشية كلما كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا . هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهم اك غبى فى العمل ، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً . هو فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، متوسط القامة ، أشيب الشعر قليلاً ، أمرد الوجه الى حد الفحش ، مع عارضين شائين مقصوصين حلقاً ، كأنهما نقائق على خدين فى وجه مسطح كريحه . وهو طبعاً مضجر ، شديد الرصانة ، صموت ، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر . وقد تفرس فى باتباه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة . وشاءت خرافة لامبير وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرف أحداً بالآخر . فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدنى واحداً من أولئك المبترزين الذين يرافقون لامبير . وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة

واحدة طول مدة العشاء ، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة .
 لم يكلم الا لاميير ، بل لم يكلمه الا بما يشبه أن يكون همساً . وكان
 لاميير يكاد ينفرد بالكلام على كل حال ، أما المجدور فكان يكتفى بإجابات
 مقتضبة وكلمات غاضبة مستفزة . كان هو متفطرساً متعجباً ، وكان
 لاذعاً وساخراً ، ولا كذلك لاميير ، فقد كان يبدو شديد الاحتياج ،
 وكان كأنه يستحى على أمر من الأمور لاشك أنه الاشتراك في مشروع
 من المشروعات . وقد مدت يده الى قارورة النبيذ مرة ، فاذا بالمجدور
 يتناول زجاجة من خمر الخريز ، فيمدها اليه . لم يكن قد خاطبني قبل
 ذلك أبداً . وما هو ذا يقول لي الآن :

- جرب هذا !

حزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عنى كل شيء ، اسمي
 وتاريخي ، وربما الخطط التي يمول لاميير في تنفيذها عليّ . فلما
 تصورت أنه يعدني مستخدماً عند لاميير ، استعرت حنقي مرة أخرى ؛ ومنذ
 أن كلمني هذا الرجل المجدور ، قرأت في وجه لاميير قلقاً شديداً فيه
 كثير من الحماقة . ولاحظ المجدور نفسه ذلك ، فأنفجر يضحك . قلت
 لنفسى : « لا شك أن لاميير مستعد لهم جميعاً » ، وكرهته عندئذ بكل
 قلبي . هكذا انقسمنا قسمين ، رغم أننا نجلس الى مائدة واحدة : قسماً
 هو المجدور ولاميير جلسا بقرب النافذة متقابلين ، وقسماً هو أنا والطويل
 الوسخ أندريه بجانبى وتريشاتوف أمامي . وكان لاميير يستمع
 التواء العشاء فهو مايفتك يستحث الخادم : حتى اذا جىء بالشمبانيا ،
 قطع حديثه مع المجدور ، ومدّ كأسه نحوى قائلاً :

- نخب صحتك . فلندق الأقداح !

فعقب تریشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد نحوى قدحه من فوق

المائدة :

• - اسمح لى أنا أيضاً أن أدق قدحى بقدحك •

وكان تريشاتوف ، الى حين وصول الشمبانيا ، واجماً صامتاً •
أما « الأبله » فكان لا يقول شيئاً البتة ، وانما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً •

أجبت تريشاتوف بقولى :

- يسرنى هذا !

ودققنا القدحين وشربنا • فقال « الأبله » فجأةً وهو يلتفت الى :
- أما أنا فلن أشرب نخب صحتك ، لا لأننى أتمنى لك الموت ،
بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم •

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة • وتابع يقول :
- أنت تكفيك ثلاثة أقداح !

ثم أدرف وهو يضع قبضة يده على المائدة :
- أرى أنك تنظر الى قبضة يدي الوسخة • اننى لا أغسلها ، بل
أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة ، أؤجرها للامير ، لكسر روس
الآخرين فى القضايا التى تفتح شهيته •

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة
أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت • وكان فى القاعة أربع موائد أخرى
قد جلس اليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين • انه مطعم من المطاعم
الرائجة • فاذا بجميع المحادثات تنقطع ، واذا بجميع الأنظار تتجه الى
الركن الذى نحن فيه • وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على
كل حال • اصطبغ وجه لامير بحمرة شديدة • وقال بهمس حائق
يخاطب أندرييف :

- آ... آ... ها هو ذا يستأنف أظن يا نيقولا سيمونفتش أنتى رجوتك
أن تسيطر على نفسك •

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال :
- لا أريد لصديقى الجديد • دولجوروفكى ، أن يسرف اليوم فى
شرب الخمر •

ازداد احمرار لامبير • وكان المجدور يصيح بسمعه صامتاً ، ولكن
كان واضحاً أنه راضٍ مغتبط • لقد أعجبته ثورة آندرييف • أنا وحدى
لم أدرك لماذا كان يجب علىّ ألا أشرب •
قال لامبير وهو يكرز أسنانه :

- انه لا يفعل هذا الا ليأخذ مالا • سأعطيك سبعة روبلات • هل
تسمع ؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء • ولكن دعنا نفرغ • لا تخزننا •
فزأر • الأبله • منتصراً :
- آ... آ... آ...

وابتهج المجدور قطعاً ، فهاهو ذا يضحك •
وقال تريشاتوف لصديقه بقلق ، بل بما يشبه الألم ، راغباً فى
صّده طبعاً :
- اسمع ، انك تسرف !

فصمت آندرييف ، ولكن صمته لم يطل ، فان ما فعله لم يشف
غليله • كان يتعشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهما كان
فى حديث حار • انهما سيدان متقدمان فى السن ، يبدو عليهما أنهما
حسانان سريعاً التأذى • أحدهما طويل سمين جداً ، والثانى سمين أيضاً
لكنه قصير • كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة

التي وقعت بباريس • وكان « الأبله » ينظر اليهما منذ مدة طويلة باستطلاع وفضول ، ويصيح بسمعه الى حديثهما • وأغلب الطن ان البولندى القصير قد بدا له رجلاً سخيفاً مضحكاً ، فسرعان ما أبغضه ، شأنه في ذلك شأن جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض فى الكبد ، الذين يحدث لهم هذا بغتة بدون أى سبب • واتفق أن نطق البولندى القصير فجأة باسم النائب ماديه دومونجو ، لكنه نطق الاسم ولكنه بولندية على عادة كثير من البولنديين ، أى انه شدد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم ، فجاء نطق الاسم هكذا : ماديه دو مونجو • ولم يكن « الأبله » فى حاجة الى أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى البولنديين ، ثم ينتصب بوقار ، ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقي سؤالاً :

— ماديه دو مونجو ؟

فالتفت البولنديان حائقين • وسأله البولندى الطويل السمين مهدداً :

— ماذا تريد ؟

وكان « الأبله » ينتظر هذه اللحظة • فكرر سؤاله بصوت عال جداً ليسمعه كل من بالصالة :

— ماديه دو مونجو ؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الايضاح ، تماماً كما فعل معى من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لى وهو يتقدم منى : « دولجوروفكى ؟ » فانتفض البولنديان • ونهض لاميير وهم أن يهجم على آندرييف ، لكنه سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات •

فأخذ البولندى القصير يقول باحتقار وقد احمر احمراراً شديداً حتى صار لون وجهه كلون جزرة :

- هؤلاء مهرجون ، يا سيد ، هؤلاء مهرجون • قريباً سيستحيل
على المرء أن يجيء الى هنا •

واضطربت الصلاة كلها ، وبُسمت من كل مكان دمدمات تذمر ،
ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات •

تمتم لامير يقول وقد طاش صوابه ، محاولاً ان يدفع آندريف
الى خارج الصلاة :

- اخرج ، أرجوك •••

فوافق آندريف على الخروج بعد أن ألقى على لامير نظرة فاحصة
فأدرك أنه سيعطيه مالاً • لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه
مالاً بهذا الأسلوب • وأراد تریشاتوف أن يركض وراءهما ، ولكنه
نظر الى توقف • ثم قال وهو يخفى عينيه باصابعه اللطيفة الناعمة :
- آه •• شئ كريه !

فقال المجذور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة :

- كريه فعلاً !

ورجع لامير في أنشاء ذلك مصفرّ الوجه ، وهمس في أذن
المجدور ببعض الكلام محرّكاً يديه بإشارات عنيفة ! وكان المجذور قد أمر
أن يؤتى بالقهوة حالاً • وقد أصفى الى لامير باحتقار • وكان واضحاً أنه
يود الانصراف • ولم تكن القضية كلها مع ذلك الا عبثاً صيانياً • وحمل
تریشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبى • وأخذ يتكلم بهيئة صريحة
كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً •

- اننى أحبه كثيراً ، آندريف هذا • لا تستطيع أن تتصور مدى
تعاسته • لقد بدّد مهر أخته في الشراب والطعام ، بل بدّد في الطعام

والشراب كل ما يملكه أهله فى أثناء خدمته العسكرية • وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً • إذا كان لا يقتسل فانما مرد ذلك الى الكمد واليأس • تراوده أفكار جنونية : يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجلاً شريفاً ، فلا فرق بين الأمرين • يجب على المرء ألا يفعل شيئاً ، لا خيراً ولا شراً • فى وسع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر ، فكلاهما سواء • ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه ، وانما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر • ولكن صدق أن هذا الكلام كله انما يقوله بغير جد • بل انى لأعتقد أن ما فعله اليوم انما فعله لينتهى من لامبير ويقطع صلته به قطعاً تاماً • بالأمس كان يحدثنى فى هذا • هل تصدق أنه فى الليل ، أو حين يخلو الى نفسه مدة طويلة ، يأخذ يبكى • وهو اذا بكى فانما يبكى كما لا يبكى انسان آخر غيره • انه يعول عويلاً رهيباً ، وهذا أبعث على الشفقة • تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة ، ثم هو يبكى موعولاً ! بائس ، أليس كذلك ؟ أريد أن أنقذه ، ولكنى أنا نفسى شخص حقير ، فتى ضائع ، لعلك لا تصدق ! هل تسمح لى بالدخول يادولجوروكى اذا أنا جئت أزورك أحياناً ؟

— طبعاً ! أنا أحبك كثيراً .

— لماذا تحبنى ؟ شكرأ على كل حال ! اسمع • فلنشرب كأساً أخرى • ماذا أقول ؟ لا ، لا تشرب ! لقد صدقت القول : يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة •

قال ذلك وهو يلتقى على نظرة معبرة • وأردف يقول :

— أما أنا فسأشرب مع ذلك • أصبح الشراب لا يحدث لى شيئاً ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسى عن شئ • انصحنى اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء فى المطاعم ، تجدنى فى الغد مستعداً لكل شئ فى سبيل أن

أتمشى فى المطاعم • أؤكد لك أننا نود ، مخلصين ، أن نصبح شرفاء ،
ولكننا نرجى ذلك دائماً الى الغد • وما ينفك الغد يتراجع ،

ونمضى السنون تليها السنون ويفنى ربيع القمر

ولكنى أخاف عليه هو • سوف يشق نفسه • سوف يمضى يشق
نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً • هذه طبيعته • ما أكثر الذين يشقون
انفسهم فى هذه الأيام ! من يدرى ؟ لعل أمثالا كثير • أنا مثلاً لا أستطيع
أبدأ أن أحيا بدون أن يكون معى فضل من المال • أنا أخرج الى المال
الزائد منى الى المال اللازم • اسمع ، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها جداً
جنوبياً • سأعزف لك شيئاً حين أجيء اليك • اننى أجد العزف على
البيانو اجادة كبيرة • درست العزف زمناً طويلاً • دراسة
جادة • لو أتيح لى أن أولف أوبرا لاخترت موضوع « فاوست » •
اننى أحب هذا الموضوع كثيراً • فترانى دائماً أبغى بخيالى مشهداً
فى كاتدرائية : أنصور كاتدرائية قوطية ، وأنصور جوقات المغنين
والأناشيد • وتدخل جرتشن • الجوقات من القرون الوسطى ، حتى
يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر • جرتشن حزينه مكتئبة ، فى
البداية نسمع تلاوة منغمة ، بصوت جهير ، لكنه صوت رهيب ،
معتب • ثم يدوى صوت الجوقات بغناء فاتم ، قاس ، غير مكترث :

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغنى الشيطان • انه لا يرى، ولكن
يسمع صوته ، الى جانب الأناشيد ، ينطق عليها تقريباً ، ولكنه مختلف
عنها كل الاختلاف • ذلك ما يجب التوصل اليه • وغناء الشيطان طويل ،
لا يتعب ، وهو تينور ، تينور حتماً • يكون فى البداية رقيقاً ، رقيقاً :
« هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريئة ، أيام كنت لا تزالين
طفلة ، كيف كنت تحبين مع أمك الى هذه الكاتدرائية وتتمنين بصلوات

تقرئينها في صلب عيني ؟ » • ولكن الغناء يفوى ثم يقوى ، وما ينفك
يزداد حرارة واندفاعا • أصبحت النغمات اعلى : يحس فيها السامع
دموعا ، يحس فيها ضجرا ، ضجراً لا ينتهي ، لا مخرج منه ، ثم
ياتي اليباس : « لا غفران يا جرتشن ، لا غفران لك هنا ! » • وتريد
جرتشن أن تصلى وتدعو ، ولكن من صدرها لا تخرج الا صرخات -
اتعرف هذا النوع من الصرخات ؟ الصرخات التي تنطلق تشنجات من صدر
أترع دموعا • ويظل الشيطان يغني • انه لا يصمت ، ويظل ينفذ في
النفس الى أعماق أبعد ، ثم اذا هو ، على حين فجأة ، ينقطع مرة واحدة
بهذه الصرخة : « انتهى كل شيء ، انصبت عليك اللعنة ! » • وتهاوى
جرتشن على الأرض راکعة ، ضامة يديها أمامها • وتنطلق عندئذ
صلاتها ، صلاة قصيرة جداً ، هي قراءة منغمة ، ولكنها ساذجة ،
لا يصطنع فيها فن ، هي تلاوة ترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية •
أربعة أبيات ، أربعة أبيات فقط - عند ستراديل نغمات كهذه ! - ثم
الانغما ، بعد آخر نغمة ! ويحدث هرج ومرج • وترفع جرتشن ،
وتنقل • فاذا بالجوقة 'يرعد غناؤها فجأة • لكنها صاعقة تنزل • غناء فيه
الهام، غناء ظافر، ساحق، شيء من نوع لشيداء، تشيد الملائكة الصغار •
يهتز كل شيء حتى أساسه ، ويفضى كل شيء الى تسيحة « المجد لله ! » •
لأنه صراخ الكون كله ، بينما هي 'تحمل و'تنقل • 'تنقل جرتشن ،
وتسدل الستارة • حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما • ولكنني أصبحت
لا أصلح لشيء • فانما أنا أكتفى بأن أحلم • أحلم بهذا طول الوقت •
أحلم • حياتي كلها ليست الآن الا حلمًا • وفي الليل أحلم أيضاً • آه !
دولجوروكي ، هل قرأت كتاب ديكنز « مخزن العاديات » ؟ •

- نعم قرأته ، فماذا ؟

- لاشك أنك تتذكر ... انتظر • سأفرغ كأساً أخرى • لاشك

أهلك تذكر ذلك الجزء من أواخر القصة ... الذى نراهما فيه ، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنية الصغيرة ، حفيدته ، التى عمرها ثلاث عشرة سنة ، نراهما ، بعد هروبهما العجيب وتجاولهما الطويل ، يجدان ملجأ يأويان إليه بمكان فى أفاصى إنجلترا ، قرب كاتدرائية قوطية قديمة ، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويرى الزائرين الكاتدرائية ، فى ذات يوم تغرب الشمس ، فاذا بالطفلة ، والواقعة فى هاء الكاتدرائية ، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار ، اذا بها تنظر الى الشمس الغاربة وقد امتلأت نفسها ، نفس الطفلة ، نفسها المدهوشة ، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكيراً عميقاً ، كأنما هى تقف أمام لغز من الألغاز ، لأن الشيتين كليهما ، الشمس التى هى فكر الله ، والكاتدرائية التى هى فكر البشر ، انما هما لغزان حقاً ؟ ... أليس هذا صحيحاً ؟ آه ... اننى لا أجد التعبير . ولكن الرب يحب هذه الحواطر الأولى التى تملأ نفوس الأطفال . وهناك ، على مقربة منها ، فوق الدرجات ، كان ذلك الشيخ المجنون ، جدّها ، يتأملها بنظرة جامدة . صحيح أن هذا كله ليس فيه شيء خارق ، هذا المشهد الذى رسمه ديكنز ، ولكن المرء لا يمكن أن ينسأه أبداً . وقد بقى فى أوروبا كلها . لماذا ؟ لأن هذا هو الجمال . لأن فى هذا براعة . آه ... أنا لا أدري ما الذى يشتمل عليه هذا ، ولكننى أحس فيه جمالاً . كنت فى المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات . ان لى أختاً فى الريف ، تكبرنى بسنة واحدة الآن بيع كل شيء هناك ، ولم يبق لنا أملاك ! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم ، نقرأ هذه الرواية ، تحت أشجار الزيزفون فى دارنا ، وكانت الشمس تغرب أيضاً ، فاذا نحن نقطع عن القراءة ، ويقول كل منا للآخر : نحن أيضاً سنكون خيرين ، سنكون جميلين ... كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة . ان لكل انسان ذكرياته يا دوجلوروكى ...

وفجأة مال برأسه الجميل على كنفى ، وطفق يذرف دموعاً غزيرة .
فأشفقت عليه ، أشفقت عليه كثيراً . صحيح أنه كان قد شرب كثيراً ،
ولكنه كان يكلمنى بصدق كبير ، وأخوة خالصة ، وعاطفة طاهرة .

وفى تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة ، وسمعنا قرعات قوية
على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج ،
وكانت كبيرة ، وكانت فى الطابق الأرضى ، فيستطيع المرء أن يبلغها من
الشارع) . انه آندرييف الذى طرد .

– « أوهيه لامير ! أين لامير ؟ هل رأيت لامير ؟ » .

داهمتنا هذه الصرخة من الشارع . فهتف الفتى وهو يشب عن
مكانه مندفعاً :

– لا يزال اذن هنا ! انه اذن لم ينصرف !

وصاح لامير يقول للخدام :

– الحساب !

وكانت يدها ترتجفان غضباً وهو يدفع الحساب . ولكن المجدور
لم يسمح له بأن يدفع عنه .

– لماذا ؟ أنا الذى دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة .

– لا ، اسمح لى .

وأخرج المجدور محفظة نقوده ، ودفع حصته بعد أن حسب
ما عليه . قال له لامير :

– انك تهيننى يا سيمون سيدوروفتش !

– هذا ما أريده .

بذلك أجاب سيمون سيدوروفتش . وتناول قبعة ، وخرج من

الصالة وحده دون أن يودع أحداً • فقدف لامير باقى الحساب للخادم
وأسرع يركض وراء المجدور ، حتى لقد نسينى من شدة اضطرابه •
وجرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج • كان آندرييف متمسرا أمام
الباب ، كنصب ، ينتظر تريشانوف •

قال له لامير الذى أصبح لا يستطيع كظم غيظه :

- سافل !

فاذا بآندرييف يزأر صائحا :

- هيه !

ثم اذا هو يقلب له قلبه بقفا يده ، فنسقط القبة على الرصيف •
ويسرع لامير الى التقاطها بمذلة •

- « خمسة وعشرون روبلاً » •

كذلك قال آندرييف لتريشاتوف وهو يريه الورقة النقدية التى
استطاع أن ينتزعها من لامير • فصرخ تريشاتوف قائلاً له :

- كفى ! لماذا الجرسه دائماً ؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين
روبلاً ؟ انه لا يدين لك الا بسبعة روبلات •

- لماذا ؟ لأنه وعدنا بأن تمنى وحدنا مع نساء ، فاذا هو يعيشنا
مع هذا المجدور بدلاً من النساء • هذا عدا أنى لم أفرغ من طعمى ،
وقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوى ثمانية عشر روبلاً ،
فيكون المجموع خمسة وعشرين •

زأر لامير يقول :

- شيطان يأخذكما ! اننى أطردكما كليكما وسوف أريكما ...

فصرخ آندرييف قائلاً :

– لامير ، أنا الذى اطرذك ، وانا الذى سوف أريك ! ...
« الوداع يا أميرى ، ! لاتزد على ما شربت • هلمَّ يا بيرو ! الى الأمام ،
سر ! » أوهيه لامير ! أين لامير ؟ هل رأيت لامير ؟ » •

كذلك ردّد مرة أخيرة وهو يتعمد بخطى عملاق ! •
تمتم تريشاروف يقول لى بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه :
– اذن سأجىء اليك ، هل تسمح ؟

وبقيت وحيدى مع لامير • قال وهو لا يكاد يستطيع أن يسترد
أنفاسه ، وكأنه فقد صوابه :

– هيا بنا !

فأسرعت أصبح قائلاً له بلهجة متحدية مستفزة :

– الى أين ؟ لا ، لن أصحبك الى أى مكان !

فسألنى قلقاً وقد ناب الى نفسه فجأة :

– كيف هذا ؟ اننى لم أكن أنتظر الا أن نبقى وحدنا •

– الى أين ؟

يجب أن أعترف بأن رأسى كان يدور قليلاً بعد أن شربت ثلاث

أقداح من الشمبانيا ، وكأسين من خمرة الخريز •

– الى هنا ، الى هنا ، هل ترى ؟

– ولكن فى هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى • مكتوب ذلك •

فالراحة اذن كريهة •

– هذا ما يجب لنا بعد العشاء • انه محل ميلوتين • المحار لن نأكله •

ولكننى سأقدم لك شمبانيا •

– مستحيل • أنت تريد أن تُسكرنى •

- هما اللذان قالاً لك هذا • ضحكا عليك • أتصدق هذين
الوغدين ؟

- لا ، ليس تريشاروف وغداً • ثم أننى أعرف بنفسى كيف أكون
حذراً •

- فلك اذن ارادة قوية ؟

- نعم ، لى ارادة قوية ، أقوى من ارادتك على الأقل ، فأنت
يستعبدك أول قادم ! لقد جللنا بالعار • مضيت تعتذر لذيئك البولنديين
ذليلاً كخادم • لا بد أنك كثيراً ما ضربت فى المطاعم •

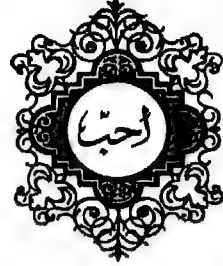
صاح يقول باحتقار وقد نفذ صبره نقاداً معناه : « وأنت أيضاً ؟ » •

- ولكن بيننا كلام يا غبى ! أترأك خائفاً ؟ أأنت صديقى أم لا ؟

- لست صديقك ، ما أنت الا وشن دنى • على كل حال ،
هأبنا ! أريد أن أبرهن لك على أننى لست خائفاً منك • هوه ! ما أبشع
هذه الرائحة ! رائحة جبن عفن ! ما أشدها قنطرة !

الفصل السادس

١



أن أذكر مرةً أخرى بأن رأسي كان يدور
قليلاً • والا لكنت تصرفت وتكلمت على غير
هذا النحو •

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محار
فعلاً • وقد جلسنا الى مائدة عليها غطاء وسخ • وأمر لامبير بشامبانيا •
فاذا أمامي قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب ، تنظر الى
وتعريني بنفسها • لكنني كنت مستاءً مهموماً •

— هل تعلم يا لامبير ما الذي يسوءني منك خاصة ؟ أنك تصور
نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرني فأطيع ، كما كان الحال في مدرسة
توشار ، مع أنك أنت المستبعد لهم جميعاً هنا !

— غبي ! هياً ! لنديق الأقداح !

— لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شيء • ليتك تحاول على
الأقل أن تخفي عني أنك تريد أن تسكرني !

— أنك تقول سخافات ، وانك لسكران • يجب أن تشرب المزيد
فأصبح أكثر مرحاً • هياً تناول قدحك • ما بالك لا تتناول قدحك ؟

— أتناول قدحي ؟ أنا منصرف • ذلك كل ما ستحصل عليه مني !

وهيمت أن أنصرف فعلاً • ولكن هاهو ذا يفضب غضباً شديداً :

— ان تريشاتوف هو الذي أثارك على : رأيتكما ، كنتما تنهاسان •

ما أنت الا غبي • ان الفونسين تشمئز منه اذا هو أقرب منها • • • انه
مقزز • سأحكي لك عنه فتعرف ما قيمته !

- سبق أن حكيت لي • ليس في فمك الا اسم الفونسين ! انك
لمحدود العقل حقاً !
- محدود ؟

لم يفهم عنى • وأردف يقول :

- هاهما الآن مع المجذور • ذلك هو السبب في أنني طردتهما •
ان هذا المجذور رجل دنيء • سوف يفسدهما • أما أنا فكنت أطلبهما
بأن يلتزما الشرف والنبل في سلوكهما دائماً •

جلست ، وتناولت القدح بغير شعور ، وجرعت جرعة •
قلت له :

- أنا بثقافتى أعلى منك كثيراً !

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأثنى عدت أجلس • وسرعان ما ملأ لي
القدح مرة أخرى • تابعت كلامي لأغيظه (ولا شك أنني كنت عندئذ
أبعث منه على الاشتمزاز) ، فقلت :

- ولكنك خائف منهما ، أليس كذلك ؟ أسقط أندريه قبعتك
عن رأسك ، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً •

- نعم ، ولكنه سيئال عقابه • انهما يتمردان ، ولكننى سأعرف
كيف أقتص • • •

- والمجذور يعذبك • أظن أنك لم يبق لك أحد غيرى • فجميع
آمالك معقودة علىّ أنا الآن ، هه ؟

- نعم يا عزيزى آرКАДى • هذا صحيح جداً : لم يبق لى صديق
غيرك • صدقت !

قال ذلك ووبت على كفى •

ما العمل برجل يبلغ هذا المبلغ من الغباء ! انه يعقله المحدود
يحسب السخرية مديحاً •

تابع كلامه وهو ينظر الى برقة وعاطفة :

- فى وسعتك أن تجنبنى كثيراً من المنغصات ، وأن تخلصنى من
ورطة اذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آرКАДى !

- كيف ذلك ؟

- أنت تعرف • ما لم أساعدك فستظل غيباً طول حياتك ، لكننى
أستطيع أن أهيب • ثلاثين ألف روبل نقسمها نصفين ، نصفاً لك
ونصفاً لى • انظر ماذا أنت الآن : انك لا تملك شيئاً ، لا اسماً ولا أسرة •
فاذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غنياً فى طرفة عين • وبثروة كهذه
الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً ...

ذهلت من هذا الأسلوب • كنت أتصور أنه سيعمد الى المكر
والحيله ، ثم هاهو ذا يرمى الى الهدف رأساً فيكلمنى بلا لف ولا دوران
كما يكلم صبي صغير • قررت أن أصغى اليه ، من باب رحابة الفكر •
وبتأثير الفضول الشديد أيضاً !

قلت له بلهجة ثابتة صارمة :

- اسمع يا لاميير ، قد لانفهم ما سأقوله لك ، لكننى سأقوله :
انتى أقبل أن أصغى الى كلامك لأننى رحب الفكر •

وجرعت جرعة أخرى ، فسرعان ما عاد لامير يكمل ملء
الكأس • وقال :

- اسمع يا آرКАДي : لو أن رجلاً مثل بيورنيج قد أباح لنفسه
أن يشتمني وأن يضربني بحضور سيدة أعبدها ، لما عرفت ماذا كان
يمكن أن أفعل ! أما أنت فقد تحملت • ولذلك أحترقك : ما أنت
الا خرقة بالية !

فهتفت أقول وقد اصطبغ وجهي بحمرة شديدة :

- تجرؤ أن تقول ان بيورنيج ضربني ؟ أنا الذي ضربته ، وليس
هو الذي ضربني !

- بل هو الذي ضربك ولست أنت الذي ضربته !

- كذاب ! حتى انني دست على قدمه !

- لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك ... وكانت
هي في العربة تنظر اليك وتضحك عليك ! هي تعلم أنك ليس لك أب ،
وأنت تبلع كل اهانة !

- يخيّل الى يا لامير أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة •
وانتي لأشعر عنك بخزي وعار • أنت تقول هذا كله لئلا تثيرني ، وتقوله
بغلظة شديدة وفظاظة صريحة ... أنراك تحسبني صبياً في السادسة عشرة
من عمري ؟

ثم هتفت . أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسى جرعات بغير
شعور :

- انك تفاهمت مع آنا آندريفنا !

- آنا آندريفنا وغدة ماكرة ، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم
بأسره ! وأنا انما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى •

— من الأخرى ؟

— السيدة آخماكوفا • انتى أعرف كل نى • أنت نفسك قلت
لى انها تخشى الرسالة التى فى حوزتك ...

— أية رسالة ؟ ... أنت كذاب !

وتمتتم أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

— هل رأيتها ؟

— رأيتها • جميلة • « جميلة جداً » • ان لك ذوقاً رفيعاً !

— أعرف أنك رأيتها • ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها • ولا أريد
أن تتكلم عنها •

— انك مازلت فتى غراً ، وهى تضحك عليك وتسخر منك
لا أكثر • عرفنا فاضلة من هذا النوع بموسكو • ما كان أشد شموخها
بأنفها ! ولكن ما ان 'هددت' بفضح كل شىء حتى أخذت ترتجف ،
وسرعان ما أصبحت طيعة ! فلنا منها كل ما أردنا : المال وغير المال •
هل تفهم ؟ لقد عادت الآن الى المجتمع ، وأصبح الوصول اليها
مستحيلاً ، وصارت تحلق عالياً • ما أفخم العربى التى تركبها ! ليتك
رأيت الماخور الذى تمّ فيه هذا كله ! انك لم تعيش بعد • ليتك تعرف
المواخير التى لا يخشين فيها أن ...

تمتتم أقول بغير ارادة :

— خطر ببالى هذا !

— انهن فاسقات حتى نخاع العظام ! انك لا تعرف كيف لا يتورعن
عن شىء ! لقد عاشت ألفونسين فى بيت من تلك البيوت ، فما كان أشد
اشمئزاًها !

فقلت أؤيده مرة أخرى :

- فكرت في هذا !

- أترضب نم تأخذك شفقة ؟ ...

فأدركت قصده على الفور ، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً :

- لامير ، أنت وغد ، أنت وبش لثيم ! لقد رأيت هذا كله في المنام . حلمت بك جالساً بجانب آنا أندريفنا ... آه ... انك سافل دنيء ! أكنت تحسبني حقيراً الى هذا الحد ؟ لقد رأيت هذا في المنام لأنني كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثني هذا الحديث . ثم ان الأمور ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثني عنها بمثل هذه الصراحة ، وبمثل هذه البساطة !

- أرايت ؟ ها هو ذا يغضب ! هيء هيء هيء ...

أخذ لامير يضحك منتصراً . وتابع كلامه فقال :

- اسمع يا عزيزي آكاردي . عرفت الآن ما أنا في حاجة اليه .
لهذا انما كنت انتظرك ، اسمع الى ما أقول : أنت تحبها ، وتريد أن تنتقم من بيورنج . هذا ما كنت أريد أن أعرفه . ولقد كنت أقدِّره أثناء هذا الانتظار . « اذا كان الأمر كذلك ، فقد تغيرت المسألة » (بالفرنسية) .
وفي هذا خير . ذلك أنها تحبك هي أيضاً . فتزوجها بلا ابطاء . هذا خير ما تفعل . ثم انك لا تستطيع أن تفعل غير هذا . لقد اخترت أفضل حل . ثم اعلم يا آرКАДي أن لك صديقاً . أنا الصديق الذي تستطيع أن تفعل به ما تشاء . ان هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك . سأجد كل شيء . سأمضي أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه ، يا عزيزي آركَادى . وفي مقابل ذلك تعطى رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل أجراً على ما بذل من جهد ، هه ؟ سأساعدك . لا تقلق . أنا في مثل

هذه الأمور أعرف جميع المداخل والمخارج •• ستال المهر كله ، فإذا انت غنى ، وإذا باب المستقبل اللامع ينفتح امامك .

كان راسي يدور • ولكن هذا لا ينفي اننى كنت أنظر الى لامبير مدهوشا • لقد كان جاداً فيما يقول ، او قل اننى كنت ارى رؤية واضحة أنه كان يصدّق هو نفسه أن فى امكانه أن يزوجنى ، بل انه يتبنى هذه الفكرة بحماسة • وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يستدرجنى الى فخ كأننى طفل صغير (لاشك أننى قد أدركت هذا منذ ذلك الحين) • ولكن فكرة هذا الزواج بها كانت بلغت من قوة النفاذ الى كيائى كله اننى رغم اندهاشى من أن يستطيع لامبير تصديق هذا الخيال ، قد اندفعت أنا نفسى الى تصديقه تصديقاً لا سبيل الى مقاومته ، دون أن أفقد ، خلال لحظة واحدة ، شعورى بأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه طبعاً • لا أدري كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة فى نفسى معاً •

تمت أسأله :

- ولكن هل هذا ممكن ؟

- لم لا ؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيع الميراث •

قررت ألا أصدّ لامبير عن المضى فى هذه الحقايات ، لأنه كان يعرضها أمامى بسذاجة كبيرة ، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يشور عليه حقنى فجأة • ومع ذلك دمدمت أقول له اننى لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها :

- مستحيل ، لن أتزوج عنوة • كيف يدور فى خلدك أن أكون من الحسة بحيث لا أتورع عن هذا ؟

- هوه ! ولكنها ستجىء اليك من تلقاء نفسها • لا أنت بل هى • ستخاف فتتزوجك !

ثم استدرك يقول :

- ثم انها ستزوجك لأنها تحبك .

- كذاب . أنت تسخر مني . كيف عرفت أنها تحبني ؟

- أعرف هذا طبعاً . أنا أندريفا تفترضه أيضاً . اننى جاد فيما أقول . اننى أقول الحقيقة : أنا أندريفا تصور هذا . سأحكي لك شيئاً آخر حين تجيئ الى ، فترى أنها تحبك . لقد ذهبت ألفونسين الى تسارسكويا . وحصلت هي أيضاً على معلومات ...

- ماذا استطاعت أن تعلم هناك ؟

- لنذهب الى البيت : ستحكي لك هي نفسها ، فيكون ذلك أمتع لك وأحلى . ثم هل أنت أقل من غيرك ؟ انك جميل ، ومتعلم ...

دمدمت أقول :

- نعم ، متعلم ...

كنت أتنفس بمشقة ، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد يتحطم ، ولم تكن الحمرة هي السبب الوحيد طبعاً ...

- أنت جميل وأنيق .

- نعم أنيق .

- وطيب ...

- نعم طيب ...

- فكيف لا ترضاك اذن زوجاً ؟ ان بيورنج لن يتزوجها بدون أن يكون لها مال ، وأنت تستطيع أن تحرمها من مالها ، فتخاف فتزوجك . وإذا تزوجتها فقد انتقلت من بيورنج في الوقت نفسه . لقد قلت لي في تلك الليلة ، حين كنت متجمداً من البرد ، انها تحبك .

- أنا قلت لك هذا ؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً !
- بلى بلى • قلت هذا الكلام بعينه •
- قلته أثناء الهديان • ولا بد اننى حدثتك اذن عن الوثيقة ؟
- نعم ، ذكرت أن تلك الرسالة هى فى حوزتك • فتساءلت أنا :
إذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر ؟ كيف يضيع وقته ؟

تمت أقول :

- أضفك أحلام • لست من الحمافة بحيث أصدق أن هذا
الزواج يمكن أن يتم • هناك أولاً فرق السن • وهناك ثانياً أننى
ليس لى اسم •

ب- أقول لك انها ستزوجه • يستحيل ألا تتزوجك حين تكون
مهددة بفقد ميراث ضخم • وسوف أدبر هذا الأمر • ثم انها تحبك •
هل تعلم ؟ ان هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر • فما أكثر
العلاقات التى تستطيع أن تعقدها برعايته ! أما عن الاسم ، فان المرء فى
هذا الزمان لا يحتاج الى اسم : متى ملكت المال فسوف تسير قدماً الى
أمام ، وسوف تمضى بعيداً ، فما هى الا عشر سنين اذا أنت تملك من
الملايين ما تهتز له روسيا كلها : ما حاجتك الى الاسم حينذاك ؟ ان فى وسع
المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون • وحين تتزوج عليك أن تفرض
ارادتك • يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء • ان المرأة
التي تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها • المرأة تهوى فى
الرجل الصلابة • • وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها فى
الوقت نفسه على صلابتك • ستقول : « آآآ لا يزال فى ريق الشباب
ثم. هو صلب العزيمة الى هذا الحد ! » •

بقيت على مقعدى كالصعوق • ما كان لى أن أنقاد لمثل هذا الحديث

الأحمق مع اى انسان اخر • ولكن لئلا نلذذا لا ادرى ما كنهه كان يدفعنى الى اطالة الحديث • ثم ان لامير كان اشد غباء واشد حطة من أن يخجل المرء أمامه • فلت فجأة :

- اسمع يا لامير • فل ما شئت • ولكن كلامك زاخر بالسخافات • ولئن كنت أكلمك فلأنا رفيقان ، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر • وما كان لى أن أنزل الى هذا المستوى لو كنت أكلم شخصاً آخر • ثم ما الذى يجعلك تجزم بأنها تحبني ؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن المال • ولكنك يا لامير لا تعرف المجتمع الراقي : ان كل شيء فى تلك البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة ، ويخضع لاعتبارات التمييز بين الطبقات • وهى الآن تجهل طاقاتي ، ولا تعرف المدى الذى يمكن أن أبلغه فى هذه الحياة ، فلا يمكن إلا أن تشعر بالعار اذا هى تزوجتنى • لكننى لا أكتفك يا لامير أن هناك نقطة تبعث على الأمل هى أنها قد تتزوجنى على سبيل الشكر والامتنان ، لأننى سأخلصها عندئذ من كره يضره لها رجل تخاف منه •

- أباك تعنى ؟ هل هى تحبه اذن كثيراً ؟

ألقى لامير هذا السؤال وقد هزّه فضول شديد • هتفت أقول :

- لا ، لا • حقاً انك لفظيع وغبى فى آن واحد ، يا لامير ! هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها ؟ الابن وأبوه ! سيكون هذا مخزياً رغم كل شيء ! ان أبى يحب ماما • لقد رأيته يقبلها • ما كان أغبائى حين كنت أتصور فى الماضى أنه يحب كاترين نيقولايفنا ! صحيح أنه كان يحبها ، ولكنه أصبح يكرهها منذ مدة طويلة • انه يريد الانتقام ، وهى خائفة • ذلك أنه رهيب اذا هو أخذ ينتقم يا لامير ! يكاد يصبح عندئذ مجنوناً • اذا غضب منها فانه يفقد صوابه فلا يتورع عن شيء ! هذا كره من نوع الكره الذى كان يشوب بين الأسر القديمة

ويقوم على اساس من مبادئ • الناس فى عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادئ • فى عصرنا هذا لا مبادئ بل حالات خاصة • اه • • • لامير ! انك لاتفهم شيئاً • أنت غبى كقديمك • أنا أكلّمك الآن عن المبادئ • وأنت لا تفهم من أمر المبادئ شيئاً • أنت جاهل جهلاً رهيباً • هل تتذكر كيف كنت تضربنى ؟ ولكننى الآن أقوى منك • هل تعلم هذا ؟

- عزيزى آرКАДى ، لنذهب الى بيتى ! سنقضى السهرة معاً ، وسنشرب زجاجة أخرى ، وستغنى لنا آلفونسين عازفةً على القيثارة •

- لا ، لن اذهب • اسمع يا لامير • أنا لى « فكرتى » • فاذا لم ينجح المشروع ولم أتزوج ، فسوف أرتد الى فكرتى • أما أنت فليس لك فكرة •

- طيب طيب • ستحدثنى عن هذا • هيا بنا !

- لن اذهب الى بيتك !

ونهبضت ، وأنا لا أزال أقول :

- لا أريد أن اذهب ، ولن اذهب • سأجىء اليك ، ولكن ما أنت الا وغد • سأعطيك ثلاثين ألفاً • ليكن • لكننى أطهر منك وأنبل منك • أما هى ، فأننى أمنعك حتى من أن تفكر فيها : انها فوقنا جميعاً • ما خططت الا قذارات استغريها حتى منك أنت • أريد أن أتزوج • هذه قضية أخرى • ولكننى لست فى حاجة الى ثروة • أنا أحتقر الثروة • لن أقبل ولو قدمت لى ثروتها راكمة • • • أن أتزوج ؟ هذه مسألة أخرى • ثم • • • هل تعلم ؟ صدقت حين قلت ان على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن • حسن أن يحب الرجل ، أن يحب حباً قوياً مشبوباً ، بكل ما يقدر عليه الرجل وتمتجز عنه المرأة من عظمة النفس ، ولكن يجب أن يكون الرجل طاغية مستبدّاً • ذلك أن المرأة ،

يا لامير ، تحب الاستبداد • أنت يا لامير تعرف النساء ، ولكنك فى كل ما عدا ذلك غبى غباءً يثير الدهشة • ثم هل تعلم يا لامير ؟ ما أنت بالمقرز الى الحد الذى يتصوره المرء حين يراك • أنت بسيط • أحببك يا لامير • آه يا لامير ، لماذا أنت وبش ؟ الحياة معك يمكن أن تكون ملأى بالفرح والمرح ! هل تعلم يا لامير ؟ أنا أرى أن تريشاتوف لطيف وديع •

هذه الجمل الأخيرة المفككة التى لا يربطها رابط انما تمتتها بعد أن صرنا فى الشوارع • اننى أتذكر أيسر التفاصيل : يجب أن يرى القارئ كيف أمكنتى عندئذ أن أمقط فى مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبَّ فى نفسى من حماسة ، وكل ما حلفته من أيمان ، وكل ما قطعته من عهود لأرجع الى الخير وأبحث عن الجمال • قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازى على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، لولا اقتناعى الكامل التام بأن الحياة قد أحالتنى انسانا آخر تعلم الحياة العملية وتعودها •

كنا قد خرجنا من الدكان ، وكان لامير يسندنى محيطاً بذراعه قامتى • ورفعت اليه بصرى فجأة ، فرأيت فى نظرتة الثابتة المتفحصة اللحظة المختلصة ذلك التعبير نفسه الذى رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح ، فقادنى محيطاً بذراعه قامتى ، على هذه الصورة تماماً ، الى أن أوصلنى الى عربة ركبها ، وكان يصنى بأذنيه وعينه جميعاً الى تمتاتى المفككة التى لا يربطها رابط • ان الأشخاص الذين أنملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكرًا تاماً ، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل •

قلت له بصلابة وأنا ألقى عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عنى :

- لن أصحبك الى بيتك بحال من الأحوال !

— طيب طيب • سآمر آلفونسين بأن تهيب • لنا شايًا •

كان مقتنعاً أعمق الاقتناع بأننى لن أفلت منه • وكان يحيطنى
بذراعه ويسندنى مغبطاً أعظم الاغتيال ، لأنه أطبق على فريسته • لقد
كان محتاجاً الىّ فى ذلك المساء ذاته ، وأنا على هذه الحال نفسها •
وسترون سبب ذلك فيما بعد •

كررت أقول :

— لن أذهب معك ! يا حوذى !

وكانت زلاجة تمر فى تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها •
فزأر لامير خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدنى من معطفى :
— الى أين تذهب ؟ ما هذا الذى تفعل ؟

فصحت أقول له :

— ولا تحاول أن تتبعنى ، لا تجر ورائى !

وضرب الحوذى حصانه بسوطه ، فسارت العربية ، وأفلت معطفى
من يدى لامير • فصرخ لامير ورائى يقول بصوت خبيث :

— سيان ! لسوف تجىء !

— أجبىء اذا أردت •

كذلك أجبتّه من العربية وأنا التفت اليه •

٢

لم يلاحقنى ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن أنه لم يقع على عربة فوراً ، فاستطعت أن أفلت منه . ولكن ما ان وصلت الى « سوق العلف » حتى نزلت من العربة وصرفتھا . كان بى شوق جنونى الى المشى . لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد . وانما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة ، وبقدرة خارقة على القيام بأى عمل ، وبأفكار لذينة لا نهاية لها تزدهم فى رأسى .

وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته . وكان كل شىء فى نظرى فاتناً وسهلاً . فلما وصلت الى أول مخفر بسوق العلف شبت فى نفسى رغبة قوية فى أن أمضى الى الحفير فأعانقه وأقبله . وكان الجليد يذوب ، وكان الميدان مظلماً ، وكانت تفوح فيه روائح كريهة ؛ غير أن كل شىء كان يعجبنى ، حتى هذا الميدان .

قلت لنفسى : « سأسير الآن فى شارع أوبوخوف ، ثم التفت يسرةً فأمشى فى شارع سيمينوفسكى ، فأكون قد درت دورة . هذا لذيد . وكانت أضرار معطفى محلولة : لا أحد يشد معطفى . أين هم اللصوص اذن ؟ يقال ان فى « ميدان العلف » لصوصاً . فما بالهم لا يتقدمون منى ! قد أعطيتهم معطفى . ما حاجتى اليه ؟ المعطف تملك . و « كل تملك سرقة » . ولكن كفى بلاهة ! ما أجمل كل شىء ! ما أحلى أن يذوب الجليد . علام الجليد ؟ ما ينبغى أن يكون جليد . ما أحسن

ان يقول المرء سخافات . عجيب ، ماذا قلت للامير عن المبادئ ؟ قلت انه لا مبادئ بل حالات خاصة . كذبت . كذبت أكبر الكذب . كذبت متمعدا ، لادهشه واذله . هذا عيب ، هذا خزي . ولكن لا ضير . سأصلح الامر . لا تشعر بعار يا آرКАДى ماكاروفتش ، لا تعذب نفسك ! انك تعجبنى يا آرКАДى ماكاروفتش ، بل انك تعجبنى كثيراً يا صديقى الشاب . خسارة أن تكون وغداً صغيراً . . . و . . . آه . . . آه . . .

وقفت فجأة وانتشى قلبي من جديد .

« رياه ! ماذا قال ؟ قال انها تعجبنى ! يا للسافل ! لقد كذب . قال ذلك لأصحبه فأقضى الليلة عنده . ولكن قد أكون مخطئاً . قال ان آنا أندريفنا نعتقد بهذا هي أيضاً . . . هي . هي ! لعل داريا أونيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً : انها تحشر أنفها في كل مكان . ثم لماذا لم أصحبه الى بيته ؟ لو صحبته لكان يمكن أن يحكى لى كل شيء . هم . . . ان له خطئه . أوجست هذا وتنبأت بجميع تفاصيله . حلم . انك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامير . ولكنك تكذب . لن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن قد تجرى هذا المجرى ! قد تجرى ! هل هو يعجز عن تزويجى ؟ انه قادر على هذا قدرة تامة . هو ساذج وهو يصدق . هو غبى وجرىء ، كجميع رجال الأعمال . اجتماع الغباء والجرأة قوة كبيرة . اعترف يا آرКАДى ايفانوفتش ، اعترف أنك خفت من لامير ! وما حاجته الى رجال شرفاء ؟ انه قال هذا الكلام جاداً : ما من رجل شريف هنا ! ولكن ماذا أنت ؟ هو ! ما هذا الذى أقوله ؟ أليس الأوغاد فى حاجة الى شرفاء ؟ ان الحاجة الى الشرفاء هى فى الأعمال السافلة أشد منها فى أى مجال آخر . هاهاها ! كنت لا تعرف هذا بعد ! يا آرКАДى ماكاروفتش ، من شدة براءتك ! يا رب ! ماذا لو زوجنى حقاً !

وتوقفت مرةً أخرى • يجب ان أعترف هنا بأمر سخيف
(مادام هذا الامر يرجع عهده الى زمان بعيد) ، يجب ان اعترف باننى
كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج • بل قل اننى كنت لا أريد هذا ،
وما كان لهذا أن يحدث (وهو لن يحدث أبداً ، أقسم على ذلك
بشرفى) ، لكننى كنت قد حلمت بالزواج مراراً كثيرة ، خلال مدة
طويلة ، قلت لنفسى عدداً لانهاية له من المرات : ما أحلى أن أتزوج !
وكان يحدث لى هذا كل مساء حين أستلقى فى فراشى لأنام • بدأ ذلك
عندى وأنا فى السادسة عشرة من العمر • كان لى فى المدرسة الثانوية
رفيق اسمه لافروفسكى • هو فتى لطيف جداً ، وهادئ ، وجميل •
ولكن هذه مزاياه كلها لا ميزة له غيرها • كنت لا أكاد أكلمه أبداً • ثم
إذا نحن نجد نفسينا فى ذات يوم وحيدين ، قد جلس كل منا بجانب
الأخر • كان غارقاً فى التفكير • وها هو ذا يقول لى فجأة : « آه
يا دولجوروكى ! ما رأيك ؟ ليتنا نتزوج ! ومتى نتزوج اذا لم نتزوج
الآن ؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج • ومع ذلك يستحيل الزواج ! »
قال ما قاله صادقاً مخلصاً • فشعرت باننى أوافقـه على رأيه بكل
نفسى ، لأننى كنت أحلم هذا الحلم من قبل • والتقينا بعد ذلك عدة
مرات متتالية ، فكنا نتكلم فى هذا الأمر دائماً ، متخفين متكتمين • وبعد
ذلك انفصلنا ، لا أدرى لماذا ، وانقطعنا عن التـخاطب • فى ذلك الحين
اذن انما أخذت أحلم بالزواج • ولكن علام أذكر كل شىء ؟ اننى
ما تحدثت عن تلك الفترة الا لأبين كيف أن الأمور يرجع عهدها فى
بعض الأحيان الى زمان بعيد ...

قلت لنفسى وأنا استمر فى المشى : « ليس هناك الا اعتراض هام
واحد : ان فرقاً طفيفاً فى السن لن يكون عقبةً ، ولكن هـى ارستقرالية ،
وأنا دولجوروكى فحسب ! هذا سىء جداً ! هم ... يستطيع فرسيلوف

إذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبناني ... مكافأة
للأب على خدماته • لقد خدم في الوظيفة • فله إذن خدمات • كان
وسيط صلح • آه ... ما هذه الدنائة التي أنحط إليها ! • •

هتفت هذا الهتاف ، ووقفت مرةً ثالثة على حين فجأة ، لكنني في
هذه المرة كنت كمن سحق في مكانه سحقاً • أحسست بمذلة أليمة من
هذه الفكرة التي أمكن أن تخطر ببالى وهى أن أغير اسمى بالتبنى
فأخون كل طفولتى • وبدد هذا كل ما كنت أحسه من بهجة ، وطار
فرحى دخاناً • قلت محدثاً نفسى وأنا أحمر احمراراً فظيحاً : « لن ، لن
أفضى بهذا الى أحد ، ولئن انحططت الى هذه الدنائة كلها ، فذلك ...
فذلك لأننى عاشق وغبى • لا ، اذا صدق لاميير فى أمر ، فقد صدق
حين قال ان المرء فى هذا الزمان لا يحتاج الى هذه السخافات ، وان
الشيء الأساسى فى عصرنا انما هو الشخص ثم ماله • بل الشخص ثم
قوته لا ماله • اننى أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق فى تحقيق « فكرتى » ،
فما هى الا عشر سنين حتى يرجع ذكر اسمى فى روسيا كلها ، وأنتقم
من الجميع • ولا حاجة بى معها الى هذا الاحتفال كله ! هنا صدق لاميير
أيضاً : لسوف تخاف فتتزوجنى • الأمر بسيط • سوف توافق ببساطة
تامة ، على أنه نحو • وتذكرت أقوال لاميير : « انك لا تعرف فى أى
ماخور تمّ هذا » ، فقلت أحدث نفسى مؤيداً كلام لاميير : « صحيح •
ان لاميير على حق فى جميع النقاط • هو أصدق رأياً منى ألف مرة ،
وأصدق رأياً من فرسيلوف ، ومن سائر هؤلاء المثالين ! انه رجل
واقعى • سوف ترى أن لى ارادة صلبة • وسوف تقول : ان له ارادة
صلبة • ، لاميير وغند • وهو لا يفكر الا فى أن يحصل منى على
ثلاثين ألفاً • ولكنه صديقى الوحيد ، رغم كل شيء • ما من صداقة
أخرى ممكنة • ان الذين تخيلوا هذا أناس عمليون • وأنا لا أذلها •

هل أنا اذلها ؟ ابدا • النساء جميعا سواء • هل فى الدنيا كلها امرأة غير
 دنيئة ؟ لهذا هن فى حاجة الى الرجل • لقد خلقن عيىدا • المرأة رذيله
 وفضيحة ، والرجل نبل وكرم • وستبقى الحال على هذا المنوال الى اخر
 الدهر • انتى أفكر فى استغلال الوثيقة : أى خير فى هذا ؟ هذا لا ينفى
 النبل ولا الكرم • ليس فى هذه الحياة نيللر كامل لا تشوبه شائبة •
 تلك صورة لفقها الحيال • لا قيمة للوسيلة الدنيئة اذا كانت الغاية نبيلة •
 ثم 'يفسل كل شىء فلا يبقى أثر من وساخة • هذه رحابة الفكر ، هذه
 هى الحياة ، هذه هى الحقيقة العملية • كذلك يجب أن تسمى الأمور
 اليوم ! ، •

أعود فأستغفر القارئ عن ذكر كل هذا الهذيان الذى دار فى رأس
 سكران ، استغفره عن ذكره كاملا لم أسقط منه شيئا • ان ما ذكرته
 هو زبدة الأفكار التى تلاحقت فى رأسى آنذاك ، لكننى أظن مع ذلك
 أننى استعملت هذه العبارات نفسها • وكان لابد لى أن أثقلها الآن ما دمت
 أكتب لأحكم على نفسى • والا لم يبق ما أحكم عليه • هل فى الحياة ماهو
 أخطر من هذا ؟ وليست الخمر بمبرر • فقيما قال المثل اللاتينى :
 « الخمر تكشف » •

وفىما كنت مسترسلا فى هذه الأحلام غارقا فى هذه الأخيلة ،
 لاحظت أننى قد وصلت الى البيت ، أعنى بيت أمى • حتى أننى لم ألاحظ
 كيف دخلت • ولكن ما ان وضعت قدمى فى حجرة المدخل الصغيرة حتى
 أدركت فوراً أن شيئا خارقا قد حدث • ففى الغرف 'يسمع كلام و'يطلق
 صراخ ، وأمى تبكى • وكادت لو كيريا أن تقلبنى وهى تمر كالاعصار
 من غرفة ماكار ايفانوفتش الى المطبخ • فخلعت معطفى ، ودخلت غرفة
 ماكار ايفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها •

كان فى الغرفة فرسيلوف وأمى • وكانت أمى متهاكة على ذراعى

فرسيلوف ، وكان فرسيلوف يشدها الى صدره شداً قوياً • وكان
ماكار ايفانوفتش جالسا على المقعد كعادته ، لكنه يبدو منهارا لا قوة له •
فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط • وكان واضحاً
أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط • فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة ،
ارتعدت وأدركت كل شيء : كان الشيخ ميتاً •

لقد مات منذ قليل ، ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة • كان قبل
عشر دقائق لا يحس بأى تغير في حالته • ولم يكن عنده الا ليزا • كانت
جالسة بجانبه تحدته عن حزنها وتفضى اليه بأشجانها ، وكان هو
يلعب رأسها كما فعل بالأسس • ثم اذا هو يرتجف على حين فجأة
(هذا ما روته ليزا) ، وقد أراد أن ينهض ، وأراد أن يصرخ ، لكنه
لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتاً • قال فرسيلوف : «هو القلب !» •
وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من في البيت يهبون واقفين ،
وهرع الجميع • حدث هذا كله ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة !

صرخ فرسيلوف يقول لى :

- آرکادی ! اركض فوراً الى تاتيانا بافلوفنا ! هى الآن فى بيتها
حتماً • فقل لها أن تأتى فوراً • اركب عربة • أسرع ، أرجوك •

كانت عيناه تسطعان ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً • لم ألاحظ فى
وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً • ان أمى وليزا
ولوكيريا هن اللواتى كن يبكين • بل انى لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ
بصرى فى وجهه انما هو احتياج شديد ، نوع من حماسة • وركضت
متجهاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا •

ليس الطريق طويلاً • تعلمون هذا مما سلف • لم أركب عربة ،
وانما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف • كنت مضطرب الفكر ، حتى

لأكاد أكون متحمساً أنا أيضاً • لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع • فلما وصلت الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، كان سكرى قد تبدد تماماً ، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة •

فتحت الفنلندية الباب وقالت : « السيدة خرجت ! » ، وهمت أن تغلق ثانية •

فقلت وأنا أفتح الباب الى حجرة المدخل اقتحماً :

- خرجت ؟ كيف ؟ مستحيل • مات ماكار ايفانوفتش !

فاذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوي من خلال باب صالونها المغلق :

- ما ... ذا ؟

مات ! ماكار ايفانوفتش ما مات ! يرجوك آندره بتروفتش أن تعيبنى حالاً •

- كذاب !

وصرّ المزلاج ، ولكن الباب لم يفتح فتحاً وانما شقّ بمقدار اصبع :

- « ماذا حدث ؟ قل ! » •

- لا أدري • وصلت الى البيت فوجدت ماكار ايفانوفتش ميتاً • آندره بتروفتش يقول : « هو القلب ! » •

- حالاً ، حالاً ! اركض • قل اني آتية فوراً • هيا اذهب • ما بالك لاتذهب ! ماذا ؟ ما بقاؤك واقفاً هنا ؟

لقد رأيت رؤية واضحة ، من خلال الباب المشقوق ، ان أحداً خرج من وراء الستارة التي تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا ، وتسمّر في قرارة الغرفة ، وراء تاتيانا بافلوفنا ، فوجدتني أضغ يدى على المزلاج آلياً ، غريزياً ، بحيث لا يمكن اغلاق الباب ثانية •

- آرکادی ایفانوفش ! هل صحيح أنه مات ؟

انه صوت أعرفه ، صوت رقيق عذب متسق ، يرن رنين المعدن ،
هزاً أعماق نفسى منذ سمعته • وكان سؤالها يختلج بماطفة وتأثر •
قالت تاتيانا فافلوفنا وهى تترك الباب فجأة :

- اذا كان الأمر كذلك ، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان •
أنت التى أردت هذا !

وولت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً ، وتهرع الى السلم •
وبقينا وحيدين • نضوت عنى معطفى ، وتقدمت خطوة ، وأغلقت
الباب •

كانت واقفةً أمامى كما حدث فى لقائنا السابق ، مشرقة المحيا ،
واضحة النظرة • وكما فى المرة الماضية مدت الىّ كلتا يديها • وكأن
منجلاً قطع ساقى ، فاذا أنا أهوى على قدميها •

أخذت أبكى ، لا أدري لماذا • لقد نسيت الآن كيف أجلسنى بجانبها • ولكننى - وهذه ذكرى ثمينة - رأيتنا جالسين جنباً الى جنب ، قد أمسك كل منا يد الآخر ، واندفعنا فى حديث سريع • سألتنى عن الشيخ وعن موته ، فحكيت لهما ما أعرف ، فلو رآنى أحد أثناء ذلك لظننى أبكى على ماكار ايفانوفتش ، ولكن ذلك ذروة السخافة • وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض فى بلاهة كهذه البلاهة الصيائية • وثبت الى نفسى أخيراً على حين فجأة ، وشعرت بخزى وعار • أفترض الآن اننى انما بكيت حينذاك من فرط الحماسة ، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً ، فأنا من هذه الناحية مطمئن •

وبدا لى فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألنى بمثل هذا الالحاح عن ماكار ايفانوفتش • فسألته مدهوشاً :

- هل تعرفينه ؟

فأجابت :

- منذ مدة طويلة • اننى لم أره يوماً • ولكنه لعب فى حياتى دوراً • سمعت عنه أشياء كثيرة فى الماضى من الرجل الذى أخشاه • تعرف من أعنى •

- أعرف الآن أن « ذلك الرجل » كان أقرب الى نفسك كثيراً
مما أظهرت •

قلت لها ذلك وأنا لا أدري ما الذى أردت أن أعبر عنه ، ولكننى
قلته مؤاخذاً مقطب الجبين •

تابعت مساءلتى فقالت دون أن تصنى الى كلامى :

- تقول انك رأيته يقبل ماما منذ قليل ؟ قبلها ؟ رأيته بعينيك ؟

فأسرعت أجيب مؤكداً ، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً :

- نعم رأيته • وصدقتى أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق
كريماً كل الكرم •

قالت وهى ترسم إشارة الصليب :

- الحمد لله • الآن تحلل من أغلاله • كان هذا الشيخ يكبل
حياة آندره بتروفتش بالأصفاد • ولسوف ينبعث الشعور بالواجب
والشعور بالكرامة فى نفسه من جديد ، كما حدث هذا مرة من قبل •
ذلك أنه رجل كريم قبل كل شئ • وسوف يهدى قلب ماما التى يحبها
أكثر مما يحب أى شئ فى هذه الحياة ، وسيهدأ هو نفسه أخيراً •
الحمد لله • آن الأوان •

- هل هو عزيز عليك ؟

- نعم ، عزيز جداً ، ولكن ليس بالمعنى الذى يريده هو
وتقصده أنت •

سألتها فجأة :

- ولكن الآن ، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه ؟

- هذه أسئلة صعبة • لتتركها !

- لنتركها ، نعم • ولكننى كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً ، ولعل
هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل • مهما يكن من أمر ، أنت
على حق • لقد تبدل الآن كل شيء ، وإذا كان أحد قد بُعث بعثاً جديداً
فهو أنا • لقد انحططت بتصوراتى وأفكارى انحطاطاً شديداً تجاهك
يا كاترين نيقولايفنا ؟ ولعلنى ، منذ ساعة لا أكثر ، قد ارتكبت عملاً
دنيئاً فى حقك • ولكن اعلمى أننى الآن ، وأنا جالس بجانبك ،
لا أحس بشيء من عذاب الضمير • ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك
أن كل شيء قد تبدل ؛ والرجل الذى كان منذ ساعة يضمرك لك شراً
أنا لا أعرفه ، ولا أريد أن أعرفه •

ابتسمت وقالت :

- أأفق • لكأنك تهذى قليلاً •

تابعت كلامى قائلاً :

- وهل يستطيع المرء أن يحكم على نفسه حين يكون معك ؟ سواء
أكان حقيراً أم كان شريفاً فانك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول
إليك • ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة ، منذ ساعة لا أكثر •
يا للحلم الذى كان بصدد التحقق !

قالت وهى تبسم ابتسامة رقيقة عذبة :

- أظن أننى أعرف كل شيء • لقد أردت منذ قليل أن تنتقم منى ،
وحلفت لتضييئنى • ولا شك مع ذلك فى أنك لو سمعت أحداً يتجرأ
فيقول كلمة سوء فى حقى أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى •

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح • ولكن مردّاً ذلك الى طيبة
قلبها ، فقد عرفت فيما بعد أنها فى تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة
بهم شخصى ضخم وب عاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث

معى ولا تجيب عن أسئلتي الجوفاء المحنقة الا كما يجيب المرء فى بعض الأحيان عن أسئلة سخيصة يصرفه طفل صغير على القائها اصراراً عنيداً ، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح • وقد أدركت ذلك فجأة ، فشعرت بخجل وخزى ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أتوقف •

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتى على نفسى :

- لا ، لم أقتل الشخص الذى قال فى حقك سوءاً ، بل أيّدته وشجّته !

- أرجوك ، ناشدتك الله ، لا تقصص على شيئا ، لا فائدة فى هذا ، لا يجب هذا •

ومدّت يدها لوقفى عن الكلام ، حتى لقد ظهر فى وجهها ألم • ولكننى كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروى لها كل شيء • ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك • لأننى كنت سأنتهى حتماً الى الاعتراف لها بكل شيء ، والى تسليمها الوثيقة • ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة :

- لا داعى الى الكلام • ما أنا فى حاجة الى شيء • دعك من التفاصيل ! جرائمك كلها ، أنا أعرفها • أراهن أنك أردت أن تتزوجنى ، أو أردت شيئاً من هذا القبيل ، وأنت قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك ، هو رفيق من رفاقك القدامى فى المدرسة ••• أظن أننى حذرت !

بهذا هتفت وهى تحدّق الى •

فقلت لها متمماً كما يتمم أبله ، وقد اعترانى شدة وذهول :

- كيف ••• كيف أمكنك أن تحزرى ؟

- أين الصعوبة في هذا ؟ ولكن كفى كفى ! انى أغفر لك ، ولكن كفّ عن الكلام في هذا الأمر •

حتى لقد حرّكت يدها بإشارة تنم عن شدة التملعل • وأردفت تقول :

- أنا أيضاً أحب أن أحلم • لبتك تعلم الأساليب التى ألبأ إليها فى أحلامى ، حين لا يصدنى شىء ! كفى ! انك لا تزيد على أن تبث الاضطراب فى نفسى • يسرنى جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت • كنت أريد كثيراً أن أراك ، فلو بقيتُ لما استطعنا أن نتكلم كما نتكلم الآن • أظن أننى مذنبّة فى حقك ، مشولة عما وقع لك حينذاك • أليس كذلك ؟

- أنت ؟ مذنبّة ؟ ولكننى أنا الذى أسلمتكَ « إليه » • ترى ما عساك قلت عنى ؟ لقد ظللت أفكر فى هذا الأمر طول الوقت ، فى جميع هذه الأيام ، كلّ لحظة ، أفكر فيه وأحس به •

لم أكذب عليها • قالت :

- أخطأت اذ عدّبت نفسك هذا التعذيب • لقد أدركتُ أنا على الفور كيف حدث كل شىء • لقد كشفتُ له ، بكل بساطة ، وأنت فى غمرة الفرج ، أنك تحبى و ... أننى ، وأننى كنت أدع لك أن تتكلم وأصغى إليك • ذلك أنك لم تتجاوز من عمرك العشرين • أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره ، وتبحث فيه عن صديق ، عن مثل أعلى ، وقد أدركتُ أنا هذا حق الادراك • ولكن بعد فوات الأوان • صحيح أننى أخطأت أنا أيضاً ، لا شك فى هذا ، لكننى كنت معتكرة المزاج مكفهرة النفس ، فأمرت بالألا تقبل فى البيت بعد ذلك • وعندئذ انما وقع ذلك المشهد أمام الباب ، ثم كانت تلك الليلة •

اعلم اننى طول هذا الوقت كنت أحلم ، مثلك ، بأن أراك خفية ،
لكننى كنت لا أعرف السبيل الى تحقيق هذه الأمنية . وما الذى كنت
أخشاه أكثر من أى شئ آخر فيما تظن ؟ لقد كنت أخشى أن تصدق
نمايمه عنى وأقويله فى حقى .

هتفت أقول :

- أبداً !

- اننى أقدّر لقاءاتنا الماضية . وما أحبه فىك هو الفتى المراهق ،
وربما هذا الصديق أيضاً . . . ذلك أن لى طبعاً يتصف بالجد . أعلم اننى
بين نساء عصرى أكثرهن صرامة وجرأ . ها ها ها ! لسوف يتاح لنا
أن نتحدث كثيراً ، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البال . اننى
الآن منفعة انفعالاً شديداً . . . بل اننى فى حالة هستريا . ولكن ،
أخيراً ، أخيراً ، سوف يتركنى وشائى أعيش فى سلام !

أفلمت منها هذه الجملة الأخيرة بغير ارادة . وقد فهمتها أنا فوراً
ولم أشأ أن أثلب عليها . لكننى كنت أرتجف ارتجافاً شديداً .

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها :

- هو يعلم أننى غفرت له !

فلم أتمالك نفسى فهتفت أسألها :

- كيف أمكنك أن تغفري له تلك الرسالة . وكيف يستطيع أن
يعرف هو أنك غفرت له ؟

فتابعت كلامها تجيئنى ، ولكن كأنها لاتخاطبنى وانما هى تحدث
نفسها :

- انه يعرف ! لقد استرد صوابه الآن . كيف لا يدرك اننى

غفرت له وهو يعرف نفسى كلها على ظهر القلب ؟ انه ليعلم حق العلم
أنتى من نوعه تقريباً •

- أنت ؟

- نعم ، وهو يعرف ذلك • أنا لست مشبوبة العاطفة بل هادئة ،
لكننى أنا أيضاً أحب أن يكون جميع الناس اختياراً طيبين ••• ليس
عبثاً أنه افتن بى حباً !

- فلماذا قال اذن انك تصفين بجميع العيوب والنقائص ؟

- قال هذا كلاماً لا أكثر • أما رأيته الذى يكتمه سرأ فى قرارة
نفسه فيختلف عن هذا الكلام كل الاختلاف • ولكن أليس صحيحاً
أن رسالته كانت مضحكة ؟

- مضحكة ؟

كنت أصغى اليها بكل ما أملك من قوة الانتباه • وأظن أنها كانت
تعانى نوبة هستريا حقاً ، و ••• أنها ربما كانت لا تتكلم من أجل
أنا أبدأ • ولكننى لم أستطع أن أسك عن مساءلتها • قالت :

- مضحكة قطعاً • ولشدها كان يمكن أن أضحك لولا ••• لولا
أننى كنت خائفةً خوفاً شديداً • لست مع ذلك جبانة • لا يذهبن بك
الظن الى أننى جبانة • لكن رسالته قد حرمتنى من النوم تلك الليلة •
لأنها كتبت بدم ، بدم رجل مريض • ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعد
رسالة كذلك الرسالة ؟ اننى أحب الحياة ، وأخاف على حياتى كثيراً •
فى هذه النقطة أنا جبانة حقاً •

وهتفت فجأة تقول :

- اذهب اليه • هو الآن وحيد • أغلب الظن أنه لم يبق هناك •
لابد أنه مضى الى مكان آخر • فأدركه بأقصى سرعة ، يجب أن تدركه ،

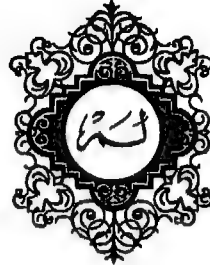
اركض اليه ، وأظهر له انك ابنه المحب ، وبرهن له على أنك فتى
طيب لطيف ، يا عزيزى الطالب ، وعلى أسى .. لا .. انتى أسأل الله
أن يهب لك السعادة . أنا لا أحب أحدا ، ذلك أفضل ، ولكننى أتمنى
السعادة للجميع ، للجميع ، وأتسناها له قبل أى انسان آخر . ألا فليعرف
هذا ... فيعرفه حالا . سيسرّه كثيراً أن يعرف ...

ونهمضت ، واختفت فجأة وراء الستارة . كانت دموع تلتصق فى
وجهها حينذاك (دموع هسترية بعد الضحك) . بقيت وحيداً ،
مضطرباً . كنت لا أعرف حقاً الى أى شئ يجب أن أعزو مثل هذا
الانفعال الشديد الذى ما كان لى أن أفترضه فيها . وانقبض صدرى .

انتظرت خمس دقائق ، ثم عشرأ . وأدهشنى الصمت العميق
فجأة ، فقررت أن أنظر من الباب وأن أنادى . فلما ناديت ظهرت لى
ماريا فأعلنت لى بلهجة هادئة ، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة ،
وغادرت البيت خارجة من سلم الخدم .

الفصل السابع

١



يكن ينقصني الا هذا + تناولت معطى ، ولبسته
بسرعة ، وهرعت أخرج وأنا أفساهل : « انها
تريد أن أذهب اليه ، فأين يمكنني أن
أجده ؟ » ♦

غير أن هناك ، عدا هذا كله ، سؤالاً كان يحيرنى : « لماذا
تصور أن الزمان قد تبدل الآن ، وأنه سيدعها وشأنها تعيش فى سلام ؟
لأنه سيتزوج ماما قطعاً . ولكن ما علاقتها هى بهذا ؟ أيبهجها أن يتزوج
ماما أم يشقيها ؟ أليس هذا هو ما يجعلها فى حالة هستريا ؟ ما أعجزنى
عن حل هذه المشكلة ! » ♦

اننى اسجل هذا الحاطر الثانى الذى لمع فى ذهنى سريعاً كالبرق ،
أسجله للتذكرة . ان له شأنًا كبيراً . كان ذلك المساء حاسماً . ان المرء
مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر : فانى ما ان قطعت مائة خطوة متجهاً الى
بيت ماما ، حتى اصطدمت بالرجل الذى كنت أبحث عنه . وضع يده على
كتفى ووقف ، وهتفت يقول فرحاً مدهوشاً فى آن واحد :

- أنت ؟

وأضاف مسرعاً فى الكلام :

- تصور أنتى ذهبت الى بيتك ساعياً اليك ، وسألت عنك : أنت وحدك من أحتاج اليه الآن فى الكون كله ! لا أدرى بماذا أجبانى صاحبك الموظف ، مؤجر بيتك ، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك ، فانصرفت من عنده ، ناسياً حتى أن أطلب منه ابلاغك أن تجيء الى فوراً . وفيما أنا أمشى راجعاً ، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن الا أن يضعك فى طريقى فى هذا الوقت الذى أحتاج فيه اليك هذا الاحتياج الشديد كله . فكنت أول شخص ألقاه . هلم بنا الى بيتى . انك لم تزرنى حتى الآن فى يوم من الأيام ...

الخلاصة أن كلاً منا كان يسعى الى الآخر ويبحث عنه ، فوقعت لنا كليتنا مصادفة واحدة . وحشنا الخطى . فى الطريق لم يوجّه الى الا بضعة جمل قصيرة : انه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا ، الخ الخ . وكان يقودنى ممسكاً ذراعى . لم يكن بيته بعيداً ، فسرعان ما وصلنا . لم أزره قبل اليوم فعلاً . هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قل استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى « الطفل الرضيع » ، لا أكثر . وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هى التى تشرف على البيت مع خدام للطفل (هى الآن داريا أويسيموفنا) . ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هى الغرفة الأولى التى تقع على يمينك حين تدخل . انها غرفة واسعة حسنة الأثاث ، هى نوع من حجرة للقراءة والعمل . فعلى المائدة وفى الخزانة وفوق الرفوف ، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً) ، وأوراقاً فيها كتابة ، وحزم رسائل . الخلاصة أن هذا كله يشير الى أن المكان ركن مسكون منذ مدة طويلة ، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل الى هذا البيت من وقت الى آخر (ولو نادراً) ، فيمكنك فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع فى بعض الأحيان .

ان أول شيء لفت انتباهى صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب

ضمن اطار رائع من خشب محفور • واضح أن الصورة قد أخذت لها في الخارج ، وانها بحكم كبرها النادر شيء ثمين • لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الان ، ولا سمعت عنها • غير أن ما خطف بصري خاصة هو شبهها الكبير بماما • انه شبه روحى ان صح التعبير : لكانها صورة رسمتها يد فنان صناع ، ولم يلتقطها جهاز آلى • فما ان دخلت حتى رأيتى أئف أمام الصورة جامداً رغم ارادتى •

قال فرسيلوف :

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كان يريد أن يقول : « أليست تشبهها حقاً ؟ » • فالتفت اليه ، ففجأتني تعبير وجهه • كان صاحب اللون قليلاً ، غير أن نظرتة المشدودة الحارة كانت تسطع سعادةً وقوة : لم أعهد فى وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن •

قلت متحمساً على حين فجأة :

- ما كنت أعرف أنك أحبيت ماما هذا الحب كله !

فابتسم ابتسامة سعيدة ، فيها مع ذلك ألم ، أو قل فيها عاطفة انسانية أعلى ... لا أعرف كيف أعبر ! ولكن يبدو لى أن الانسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة ، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة • وهاهو ذا ، بدون أن يعينى ، يرفع الصورة بكلتا يديه ، فيقربها منه ، ويقبلها ، ثم يمود فيعلقها بالحائط • قال :

- لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على شبه • وسبب ذلك واضح : فالأصل ، أعنى كل واحد منا ، يندر أن يشبه نفسه • هناك لحظات نادرة يعبر فيها الوجه عن السمة الأساسية فى الانسان وعن فكره الذى يميزه • ان الفنان يدرس الوجه ، فيدرك

ذلك الفكر الأساسى ، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزا فى الوجه
 اثناء الرسم • اما الفوتوغرافيا فانها تفاجئ الشخص كما هو فى اللحظة التى
 تلتقط له فيها الصورة • ومن الجائز جداً أن يفاجأ نابوليون فى لحظة من
 اللحظات غيباً ، وأن يفاجأ بسمارك فى لحظة من اللحظات رقيقاً خنوئاً •
 ولكن هنا ، فى هذه الصورة ، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صونيا
 فى لحظةها الأساسية ، فظهرت على حقيقتها ، امرأة ذات خفر ، تفيض
 حباً رقيقاً ، ويشع منها عفاف فيه وجل • ما أعظم السعادة التى ملأت
 جوانحها حين اقتنعت بأننى أرغب كثيراً فى الحصول على صورتها هذه !
 ان هذه الصورة لا يرجع عهدها الى زمن بعيد • ولكن صونيا كانت فى
 تلك الأيام أفتى وأجمل ! ومع ذلك كان خذاها منذ ذلك الحين خاسفين ،
 وكانت لها هذه الغضون فى الجبين ، وكان فى نظرتها هذا الحياء الوجلى ،
 وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شيء •
 هل تصدق يا صغيرى ؟ انى لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر !
 ومع ذلك كانت ، هى أيضاً ، شابة وفاتنة ! ان النساء الروسيات تدب
 اليهن الدمامة بسرعة ، وينقض جمالهن ، ولاشك فى أن هذا لا يرجع الى
 خصائص فى طبيعة الجنس الروسى فحسب ، وانما يرجع أيضاً الى أن
 النساء الروسيات يعرفن كيف يندفعن فى الحب بلا تحفظ • اذا أحبت
 المرأة الروسية ، فانها تهب كل شيء دفعة واحدة : تهب اللحظة والمصير ،
 الحاضر والمستقبل : انهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير ، انهن لا يدخرن •
 فسرعان ما ينتقل جمالهن الى من يحببن • هاتان الحدان الخاسفتان هما أيضاً
 جمال ضحت لى به من أجل متعة قصيرة • أنت يسرك أننى أحبيت أمك ،
 ولعلك كنت لا تصدق أن أكون قد أحبيتها ، أليس كذلك ؟ بلى يا صديقى
 بلى ! أحبيتها كثيراً • لكننى لم أجلب لها فى يوم من الأيام الا سوء •
 هناك صورة أخرى • خذ • انظر فى هذه أيضاً •

تناول الصورة من على المكتب ومدّاها الى * . هي صورة فوتوغرافية أيضاً ، أصغر من صورة ماما كثيراً ، قد وضعت في اطار بيضوى من خشب نحيل : وجه فتاة هزيلة مصدورة ، لكنها جميلة * ان الفتاة تفكر ، ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً * قسمات متسقة * طلعة تصفّت وراقت بتعاقب الأجيال ، ولكنها تشعر كأن فيها مرضاً : فكأن هذه الامة قد فاجأتها فكرة ثابتة ، فثالثها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها *

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الحجل :

- هذه ... هذه هي الفتاة التى أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت بالسل ، أليس كذلك ؟ بنت زوجها « هي » *

- نعم ، أردت أن أتزوجها * ماتت بالسل * بنت زوجها * كنت أعلم أنك تعلم * تلك نمائم * على كل حال ، ما كان يمكنك أن تعرف هنا شيئاً ، بغض النظر عن النمائ * دع هذه الصورة في مكانها يا صديقى * هي مجنونة شقية لا أكثر *

- مجنونة تماماً ؟

- أو معتوهة * لكننى أظن أنها مجنونة أيضاً * لقد ولدت ولداً من الأمير سرجى بتروفتش (عن جنون ، لا عن حب ، وهذا عمل من أدنا وأحقر أعمال الأمير سرجى بتروفتش) : والطفل هنا الآن ، فى هذه الغرفة * اننى منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل * والأمير سرجى بتروفتش لم يجرو أن يجيء الى هنا ليرى ولده * هذا اتفاق أبرمناه معاً فى الخارج * ضمنت الطفل الى باذن من أمك * وباذن من أمك ، أردت أيضاً أن أتزوج تلك .. البائسة ..

قلت بحرارة :

- كيف يمكن اذن كهذا ؟

- يمكن • ما كان لأمك أن تغار ! ليست تلك المختلة بامرأة !

هتفت أقول :

- فى نظر الآخرين ليست امرأة • ولكنها فى نظر أمى امرأة •
لن أصدق أبدا أن أمى لم تغر !

صدقت • لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء ، أى بعد
أن أذنت أمك • ولكن دعنا من هذا • ان الأمر لم يتم ، لأن ليديا ماتت •
ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية • على كل حال ، أنا لا أضع
لأمك أن تأتى الى الطفل ، حتى فى هذا الحين • ذلك حادث عارض
مضى • يا عزيزى ، اننى أنتظرك هنا منذ مدة طويلة • اننى أحلم بلقاء
بيننا هنا منذ زمن طويل • هل تقدّر طول هذا الزمن ؟ ستان •

قال ذلك وهو يلقى على " نظرة يتجلى فيها الصدق ، وتعبير عن
اندفاع من القلب حار • فتناول يده ، وهتفت أسأله :

- لماذا تأخرت ؟ لماذا لم تسادنى ؟ لو علمت ما حدث ، فأشرت لى
بأصبعك أن أجيء اليك ، لما وقع الذى وقع ...

فى تلك اللحظة جىء بالسماور ، ثم اذا بداريا أويسيموفنا تدخل
حاملةً الطفل • وكان الطفل نائماً •

قال فرسيلوف :

- انظر اليه • اننى أحبه • ولقد أمرت باحضاره لترام أنت • والآن
أرجعيه يا داريا أويسيموفنا • أجلس الى جانب السماور • سأتحيل
أنا عشنا دائماً هكذا ، أنا وأنت ، وأنا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع ،
دون أن تنفصل فى يوم من الأيام • دعنى أنظر اليك : اجلس هكذا لأرى
وجهك • كم أحبه ، هذا الوجه ، وجهك ! لطالما تصورته وتخيّلته !
لطالما انتظرتك وأنا بموسكو ! تسألنى لماذا لم أرسل من يجيئنى بك منذ
مدة طويلة ؟ انتظر • لعلك ستفهم الآن •

- أياكون موت ذلك الشيخ هو الذى حل عقدة لسانك ؟ غريب ...
 نطقك بتلك الجملة ، ولكن ذلك لا ينفى أننى كنت أنظر إليه بحب .
 وتحدثنا كما يتحدث صديقان ، بأكمل وأسمى معانى هذه الكلمة . لقد
 جاء بى الى هنا ليشرح لى ، ليحكى لى ، ليبرر نفسه ... ولكن كل شىء
 قد اتضح وتبرر قبل كل كلام . مهما أسمع منه الآن ، فإن الهدف قد تم
 بلوغه . وكنا كلانا نعرف ذلك ، وكان كل منا ينظر الى الآخر بسعادة .
 أجبانى يقول :

- لا ، ليس موت الشيخ هو الذى حل عقدة لسانى ، ليس هذا
 الموت وحده هو الذى حل عقدة لسانى . هناك شىء آخر كان له تأثيره فى
 هذا الاتجاه نفسه . بورك فى هذه اللحظة ، وفى حياتنا ، منذ الآن ،
 والى الأبد . لتتحدث يا عزيزى . اننى أبتعد دائما عن الموضوع ، وأشرد
 الى غيره . أهم أن أتكلّم فى شىء ، فاذا أنا أتوه فى تفاصيل شىء آخر .
 ذلك يحدث دائما حين يكون القلب طافحا . ولكن فلنتحدث .
 آن الأوان ، وانى لموله حبا بك منذ مدة طويلة يا صغيرى .
 ارتد فرسيلوف الى ظهر مقعده ، وجعل يتأملنى مرة أخرى من
 الرأس الى القدمين .

قلت وأنا غارق فى افئتانى :

- ما أغرب أن أسمع هذا ، ما أغرب أن أسمعه ! ...
 ولكن هأنذا أرى الغضن المألوف الذى يعبر عن الأسى والسخرية
 معاً ، هأنذا أرى هذا الغضن الذى أعرفه حق معرفته ، يظهر فى
 وجهه من جديد . اننى أتذكر هذا تذكراً واضحاً . ولكن فرسيلوف
 تجلد . وبجهد ، بدأ يتكلم .

- اسمع يا أركادى ، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن ؟
كان ذلك جوابه كله .

- هل تريد أن تقول انك اليوم زوج أمى وانك أبى ... وانك
ما كنت تستطيع أن تقول لى شيئاً عن وضعى الاجتماعى ؟ هل هذا
ما تعنيه ؟

- لا هذا وحده . هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر الى السكوت
عنها . هناك أشياء مضحكة ، بل 'مذلة' ، لأنها تشبه أن تكون مكائد
مشعبذين ، وألعاب مهرّجين . كيف كان يمكن أن يفهم أحداً عن
الآخر ، اذا كنت أنا نفسى لم أفهم نفسى الا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد
الظهر ، أى قبل موت ماكار ايفانوفتش بساعتين تماماً ؟ أراك تنظر الى
بارتاك واضح وحيرة أليمة . لا تقلق ! سأشرح لك الأمر . غير أن ما قلته
صحيح كل الصحة . حياة كاملة تنقضى فى ترحال وشك ، ثم اذا بالحل
يأتى فجأة ، فى يوم معين ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر . شىء 'مذل' ،
أليس كذلك ؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة ، لكان يمكن أن أشعر منه
بمهانة حقاً .

كنت أصغى بحيرة أليمة فعلاً . وكنت أرى الغضن القديم فى وجه

فرسيلوف ، بارزاً بروزاً قوياً ، الفضن الذى كنت أتمنى ألا أراه فيه
ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام • وفجأة رأيتى أهتف قائلاً :

- هل وصلت « منها » شيء ، هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة ؟

فنظر الىّ محدقاً ، وكان واضحاً أنه فوجئ بهتافى بل لعله فوجئ
أيضاً بقولى « منها » ، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامةً يمازجها تفكر :

- ستعلم كل شيء • ولن أخفى عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه ،
فمن أجل هذا انما جئت بك الى هنا • ولكن فلنؤجل هذا الى وقت آخر •
اننى يا صديقى أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرهم
منذ طفولتهم ، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة فى آبائهم وفى بيتهم •
وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلئ قلوبهم قلقاً منذ يكونون فى
المدرسة ، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل
الأوان • وبعد ذلك عدت نفسى واحداً منهم • ولكن ... معذرة
يا عزيزى ، اننى أشرد شروداً غريباً • كنت أريد أن أقول اننى خفت
عليك دائماً هنا ، طوال هذا الوقت تقريباً • كنت أراك دائماً كواحد من
أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتصمون بالعزلة •
أنا أيضاً ، مثلك ، لم أحب رفافى فى يوم من الأيام • ما أكبر شقاء
هؤلاء الصغار الذين يُتركون لقواهم وحدها ، ويُتركون لأحلامهم ، وقد
أوتوا ظمأً مشبوحاً الى الجمال ، ظمأً سابقاً لأوانه ، يكاد يكون مشبعاً بروح
الانتقام ، نعم ، بروح « الانتقام » • ولكن كفى يا عزيزى ، لقد شردت
مرةً أخرى • اننى حتى قبل أن يبدأ حبى لك ، كنت أتخيلك أنت
وأحلامك ، أحلام المعتزل المتوحش • ولكن كفى • لقد نسيت حقاً عمّ
كنت أريد أن أتكلم ... على كل حال ، هذا كله أيضاً كان يجب أن
يقال • ماذا كان يمكننى أن أقول لك من قبل ؟ الآن أرى نظرتك
ترمقنى ، فأعرف أن « ابنى » هو الذى ينظر الىّ • وما كان لى بالأمس ،

بالأمس فقط ، أن أصدق أنني سلّج نفسي في يوم من الأيام متحدّثاً مع
ابني كما أفعل اليوم •

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شديداً بالفعل ، ولكنه كان يبدو في
الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً •
قلت مسلماً له نفسي كلها :

— الآن لم أعد في حاجة الى أن أحلم ؛ الآن يكفيني أن تكون لي •
لسوف أتبعك !

— تبغني أنا ؟ ولكن ترحالى فد انتهى ، انتهى في هذا اليوم
نفسه : لقد وصلت متأخراً يا عزيزي • اليوم ينتهي الفصل الأخير ،
وتسدل الستارة • طال هذا الفصل الأخير كثيراً • لقد بدأ منذ زمن
بعيد ، بدأ حين فررت الى الخارج آخر مرة • تركت يومئذ كل شيء •
واعلم أنني تركت يومئذ أمك ، وأعلنت لها أنني تاركها • يجب أن تعلم
هذا • قلت لها أنني راحل الى الأبد ، وانها لن تراني بعدئذ قط • وأسوأ
من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال • وأنت أيضاً لم تخطر
بالى لحظة واحدة • رحلت متوياً أن أبقى في أوروبا يا عزيزي ، وألا
أعود الى البيت أبداً • هاجرت •

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي :

— ذهبت الى هرتسن ؟ ذهبت لتكون داعية في الخارج ؟ لا بد أنك
ساهمت طيلة حياتك في مؤامرة من المؤامرات !

— لا يا صديقي ، لم أشارك في أية مؤامرة • أرى عينيك تلمعان •
أحب صيحاتك يا عزيزي • لا ، لقد سافرت سافراً لا أكثر • سافرت في
أعقاب ضجر تملكني فجأة • هو ضجر سيد روسي • لا أجد في تعريف
هذا الضجر تعبيراً أنسب • ضجر سيد روسي لا أكثر •

جمعت أقول لاهناً :

— القنانة ... تحرير الأفتان ؟

— لا ، لا يا صديقى ! أظن أننى آسف على نظام القنانة ؟ أظن أننى لم أحتمل تحرير الأفتان ؟ لا ، لا يا صديقى . ثم اننا نحن الذين حررناهم . لقد هاجرت بدون أى حقد . كنت قبل قليل وسيط صلح ، وقد بذلت جميع جهودى . اندفعت أعمل باخلاص وتفانٍ . ولئن كوفئت على لبراليتى مكافأة سيئة ، فإن هذا نفسه لم يكن سبب رحيلى . لا أحد منا كوفىء حينذاك ، أقصد لا أحد من أمثالى . كانت العزة هى التى تدفعنى الى الرحيل ، لا الندامة . هاجرت بلا غضب ، بلا حقد ، بلا حسرة . صدق أننى لا أعتقد بأنه آن لى أن أختتم حياتى حذاءً . « أنا سيد قبل كل شيء ، وسوف أموت سيداً . لكن هذا لا ينفى أننى كنت حزيناً . لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعى . ألف رجل لا أكثر . ولكن هذا العدد يكفى حتى لا تموت الفكرة . نحن حملة الفكرة يا عزيزى . يا صديقى ، اننى أكلمك وفى نفسى أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملبس . لقد جئت بك الى هنا لا انقياداً لنزوة فى قلبى ... اننى منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك .. نعم لك .. لك أنت ! .. على كل حال ، على كل حال ...

هتفت أقول :

— بل تكلم ، تكلم ، اننى أقرأ فى وجهك الصدق .. ماذا عن أوروبا ؟ هل بعثت أوروبا بعثاً جديداً ! ... وماذا كان ذلك الضجر ، « ضجر السيد » ؟ سامحنى ... اننى لمّا أفهم بعد .

— تسألنى هل بعثتى أوروبا بعثاً جديداً ؟ فاعلم اننى انما سافرت لأدونها !

قلت مدهوشاً :

— لتدفعها ؟

فابتسم • وقال :

— أركادى ، صديقى ، الآن نفسى رقت وفكرى اضطرب • لن أنسى أبداً لحظتى الأولى بأوروبا • كنت قد عشت فى أوروبا من قبل ، ولكن ذلك كان فى عهد خاص ، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن •• ولا بمثل ذلك الحب • سأصف لك واحداً من مشاعرى الأولى حينذاك • هو حلم رأيتهُ ، حلم حقيقى •

• حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيا • كنت قد غادرت درسدن ، ثم تجاوزت المحطة التى كان ينبغي أن أغير فيها القطار ، تجاوزتها سهواً وغفلة فسرت فى غير الاتجاه الذى كنت أريد أن أسير فيه • فما ان وصلت الى أول محطة تالية ، حتى نزلت • كان الجو صحوياً • هى مدينة ألمانية صغيرة • دلونى على فندق • كان يجب على أن أنتظر : ان القطار التالى يمر فى الساعة الحادية عشرة من المساء • ولقد سررت بهذه المفارقة سروراً كبيراً ، فلا شئ كان يستعجلنى • الفندق صغير ردىء ، لكنه غارق فى الخضرة وشرائط الأزهار ، على عادة القوم هنالك • أعطيت غرفة صغيرة • ولما كنت قد قضيت الليلة كلها فى القطار ، فسرعان ما نمت بعد الغداء ، فى نحو الساعة الرابعة من الأصيل •

• فحلمت حلماً غير مألوف البتة ، ما رأيت مثله من قبل أبداً • ان فى متحف درسدن لوحة للرسم كلود لوران 'جعل عنوانها فى الكاتالوج ' آسيس و جالاتى ' • أما أنا فقد سميت هذه اللوحة دائماً ' المصر الذهبى ' ، لا أدري لماذا ! لقد سبق أن رأيت هذه اللوحة • وقبل ثلاثة أيام لاحظتها مرة أخرى عابراً •

« فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم • لكننى لم اراها صورةً ، بل رأيتها واقعاً • اتنى لا أتذكر على وجه الدقة ما الذى رأيته في الحلم هذه الرؤية • ولكننى رأيت ، كما في اللوحة ، ركناً من الأرخيل اليونانى منذ ثلاثة آلاف سنة : أمواجاً زرقاء هادئة ، جزراً وصخوراً ، شاطئاً مزهراً ؟ وفى بعيد ، منظرأ كأنه السحر ، شمساً غاربة تفتن النظر • يستحيل على المرء أن يصف هذا بالفاظ • انها الانسانية الأوربية تتذكر مهدها : ملأت هذه الفكرة شعاب نفسى بحب كحب الابن أبويه • هذا هو الفردوس الأرضى للانسانية : الآلهة تهبط من السماء لتواخى البشر • • • ما كان أجملهم ، أولئك البشر ! كانوا يفقون وينامون سعداء أبرياء • المروج والحراج الصغيرة تمتلئ بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى • فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً • الشمس تغمهم بدفئها وضيائها ، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين • • انه حلم أخاذ ، طالما فتت روعته الانسانية عن نفسها وأزاغت بصرها ! ان العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذى حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض ، ولكنه على استحالة رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها ، وقواهم كلها ، وفى مسيله مات أنبياء وُقِل أنبياء ، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش ، ولا تريد حتى أن تموت ! هذا الاحساس كله ، قد عشته فى ذلك الحلم • والصخور والبحر ، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب ، ذلك كله بدا لى أننى لا أزال أراه حين أفقت من نومى وفتحت عينيّ المغرورقتين بالدموع • كنت سعيداً • أتذكر هذا • ان احساساً بسعادة لم أشعر بمثله من قبل ، قد اختلج فى قلبى حتى كاد أن يكون ألماً • كان ذلك حباً للانسانية كلها • »

وكان المساء قد حل • ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة ، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتى الصغيرة فتغمرنى بضيائها • ثم ماذا يا صديقى ؟ ان تلك الشمس الغاربة فى أول أيام الانسانية الغربية ، التى كنت أراها فى الحلم قد استحالَت فى نظرى فجأة

منذ أن استيقظت شمساً غاربة في آخر أيام الانسانية الاوروبية ! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة • لست أغنى الحرب وحريق التويلرى فحسب • لقد كنت أعلم ، بدون الحرب وبدون حريق التويلرى ، أن كل شيء سينقضى ، عاجلاً أو آجلاً ، وأن كل وجه العالم الأوروبي القديم سيندرس • ولكننى ، أنا الأوروبي الروسى ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا • نعم ، كانوا قد حرقوا التويلرى ! لا ، مهلاً ، أنا أعرف أن هذا كان « منطقياً » • وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التى راجت آتئذ من قوة لا تقاوم • ولكننى ، كممثل للفكر الروسى الرفيع ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا ، لأن الفكر الروسى الرفيع يصلح بين جميع الأفكار المتعارضة مصالحة عامة شاملة • ومن ذا الذى كان يمكنه حينذاك ، فى العالم بأسره ، أن يفهم هذا الفكر ؟ لقد كنت أطوف وحيداً • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى • هناك ، كان الاقتال والمنطق العنيد • هناك ، كان الفرنسى ليس الا فرنسياً ، وكان الألمانى ليس الا ألمانياً ، وذلك بعنفٍ لم يشهد تاريخهم كله عنفاً أقوى منه ؛ أى ان الفرنسى ما أساء الى فرنسا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ، ولا الألمانى أساء الى ألمانيا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ! لم يكن فى أوروبا كلها عندئذ أوروبى واحد ! أنا وحدى بين جميع مشعلى الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه ان اقدامهم على احراق التويلرى خطأ ؛ وأنا وحدى بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أستطيع أن أقول لهم ان احراق التويلرى ان كان خطأ فهو منطقى • وذلك ، يا عزيزى ، لأننى ، كروسى ، كنت عندئذ ، فى أوروبا ، « الأوروبي الوحيد » • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى كله • كنت أضرب فى الأرض يا صديقى ، كنت أضرب فى الأرض ، ولا أعرف أنتى لم يبق لى الا أن أسكت وأن أضرب فى الأرض • • • ولكننى كنت حزيناً رغم كل شيء • ذلك لأننى ، يا ابنى ، لا أملك الا أن أحترم نبالتى • تضحك ، أليس كذلك ؟

قلت بصوت متأثر :

- لا ، لا أضحك • لا أضحك البتة • انك برؤياك « العصر
الذهبي » قد بشت الاضطراب في قلبي ؛ ثقب كل الثقة أننى بدأت أفهمك •
غير أن ما يسعدنى أكثر من أى شئ آخر هو أنك تحترم نفسك هذا
الاحترام كله • أسارع فأصارك بذلك • ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً !

- سبق أن قلت لك اننى أحب صيحات تعجبك يا عزيزى !
قال ذلك وابتسم للملاحظة الساذجة مرة أخرى ، ثم نهض عن
مقعده ؛ وبدون أن يعى ما يفعل ، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً • فنهضت
أنا أيضاً • وتابع هو كلامه بلفته العجيبة الغريبة ، الزاخرة بالفكر
مع ذلك •

- نعم يا بني ، أعود فأكرر لك أنني لا أملك الا أن أحترم نبأتي •
لقد نشأ عندنا ، خلال القرون ، نموذج حضارى أعلى لم يشاهد فى أى
مكان آخر فى الكون ، هو نموذج التألم للبشر كافة • هذا نموذج روسى •
ولكن لما كان هذا النموذج انما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع
الشعب الروسى ، فأننى أحمل شرف الانتماء اليه • انه يحتوى مستقبل
روسيا • ان عددنا لا يربو على ألف رجل ، قد نكون أكثر من ذلك
قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها انما عاشت حتى
الآن لتنجبنا • رب قائل يقول ان هذا العدد ضئيل جداً ، وانها لفضيحة
أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحى بملايين كثيرة من أبنائها فى سبيل
أن تنجب هذه الصفوة • أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً •

كنت أصغى الى كلامه بجهد شاق ، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكون
خلال حياة بأسرها • ان كلامه هذا عن « الألف رجل » يكشف النقاب
عن نفسه كلها • وقدّرت أن انطلاقه هذا فى مكاشفتى انما مردّه الى
صدمة خارجية ، وأنه يقول لى هذا الكلام الحار كله حباً بى • ولكن
السبب الذى من أجله أخذ يتكلم فجأة ، والذى من أجله كان يريد أن
يتحدث الى ، الى أنا خاصة ، ظل مجهولاً عندى •

وتابع كلامه يقول :

- هاجرت غير آسف على سىء مما خلفت ورائى • كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما املك من قوى • وحين سافرت ظلمت أخذهما ، لكننى وسعت فكرنى • هل كان يجب على أن ابقى روسيا ضيقاً ، مثلما كان كل فرنسى فرنسياً ، وكل ألمانى ألمانياً ؟ فى أوروبا لن يفهموا هذا الكلام • ان أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسى والانجليزى والألمانى • أما اسانها فى المستقبل فانها لاتزال تجهل عنه كل شىء تقريباً • وأظن أنها لا تريد ان تعرف عنه شيئاً حتى الآن • وذلك أمر يمكن فهمه : انهم ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار • أنا وحدى فى أوروبا ، مع ضجى الروسى ، كنت حراً •

لاحظ يا صديقى هذا الشىء الغريب : ان كل فرنسى يستطيع أن يخدم الانسانية مع بلده فرنسا ، ولكن بشرط أن يبقى فرنسياً خاصة • ويصدق هذا على الانجليزى وعلى الألمانى • والروسى وحده ، حتى فى عصرنا هذا ، أى قبل أن تتحقق له صورته النهائية ، قد وهب له أن يكون روسياً أكثر لأنه أوتى القدرة على أن يكون أوروبياً أكثر • هذا هو الفارق القومى الأساسى الذى يميزنا عن سائر الناس ، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد • أنا فى فرنسا فرنسى ، ومع الألمانى ألمانى ، ويونانى مع يونانى المصر القديم ، وأنا بهذا نفسه روسى دائماً الى الحد الأقصى • أنا بهذا نفسه روسى حقاً ، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات ، لأننى أجسّد فكرها الأساسى • أنا رائد هذا الفكر • لقد هاجرت ، ولكن هل تركت روسيا ؟ لا ، لم أتركها • ظلمت أخذهما • وهبى لم أعمل شيئاً فى أوروبا ، هبى لم أذهب اليها الا لأتجول وأترحل وأضرب فى الأرض (ولقد كنت أعرف أننى لا أرحل اليها الا لهذا الغرض) فحسبى هذا لأذهب اليها مع فكرى وضميرى • لقد نقلت الى أوروبا سأمى

الروسي • لا ، ليس الدم الذي كان يسسيل حينئذ هو الذي روّعنى ، حتى ولا احراف التويلرى ، بل ما كان لابد ان يتبع ذلك • بأن محكوماً عليهم أن يظلوا يقتلون زمناً طويلاً أيضاً ، لأنهم لا يزالون ألمانا وفرنسيين أكثر مما يجب ، ولأنهم لم ينتهوا من عملهم فى تمثيل هذا الدور • كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار • ان أوروبا عزيزة على الروسى كروسيا سواء بسواء ، كل حجر فى أوروبا حبيب الى قلب الروسى غالٍ فيه • كانت أوروبا للروسى وطناً كروسيا ، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا • يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها ، ولكننى لم ألم نفسى فى يوم من الأيام على أننى وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ ، أحبّ الىّ من روسيا • آه ••• ان قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية ، لتلك الروائع التى تنتمى الى العالم القديم ، تلك البقايا من المعجزات المقدسة • بل ان هذا كله أعزّ على نفوسنا منه على نفوسهم ! ان لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى ، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة ! ••• هناك لا يكافح المحافظ الا فى سبيل البقاء • ومشعل الحرائق لا يعمل الا ليطلب بحقه فى قطعة خبز • روسيا وحدها لا تحيا من أجل نفسها ، بل من أجل الفكر • اعترف • يا صديقى بهذه الحقيقة الواضحة : أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيا من أجل نفسها بل من أجل أوروبا فقط ! أما هم ، فقد 'نذروا' لآلام رهية قبل أن يصلوا الى ملكوت الرب •

كنت أصغى اليه مضطرباً أشد الاضطراب • اعترف بذلك • حتى لهجة كلامه كانت ترّوعنى ، رغم أننى لم أملك الا أن أفاجأ بأفكاره • وكان يخيفنى اخافة رهية أن يكون فيما يقول كاذباً • فرأيتنى ألقى عليه هذا السؤال فجأةً بلهجة قاسية :

- قلت « ملكوت الرب » • وقد علمت أنك عملت هنالك داعية ومبشراً ، وأنت كنت تثقل جسمك بأصفاً • هل هذا صحيح ؟
فابتسم وقال :

- دعك من أصفادى • تلك مسألة أخرى • فى ذلك العهد لم أكن أبشراً بشىء بعد • ولكننى كنت أتوق الى الهم • هذا صحيح • كانوا قد نادوا بالاحاد • • نادى به نفر منهم ، نادى به طليعة منهم ، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو « التنفيذ » ، وهذا هو الأمر الخطير • كان سلاحهم المنطق دائماً • وحيث يكون المنطق يكون الضجر • كنت أنا أتمنى الى حضارة أخرى ، فكان قلبى يرفض هذا • كان ذلك العقوق فى انفصالهم عن فكرة • وكانت تلك الأصوات التى تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك التلويث والتلطيخ بالوحل ، كان ذلك كله أموراً لا أطيق احتمالها • كانت أساليب الاسكافين هذه ترعبنى • صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال ، حتى حين يصبو المرء الى المثل الأعلى صبوة للألمة • ولقد كان على أن أعرف ذلك • لكننى كنت طرازاً آخر من البشر : كنت حراً فى اختيارى ، ولم يكونوا هم أحراراً • فكنت أبكى ، أبكى عليهم ، أبكى على الفكرة القديمة • ولعلنى بدموع صادقة انما كنت أبكى ، من غير كلام مزق •

سأله غير مصدق :

- هل كنت تؤمن بالله هذا الايمان القوى حقاً ؟

- يا صديقى ، هذا سؤال لعله نافل • هب أنى لم أكن أو من هذا الايمان القوى • ذلك لا ينفى أننى كنت لا أملك الا أن أتحسر على فكرة وأن أحنّ اليها • كنت فى بعض اللحظات لا أفصح فى أن أتصور كيف يستطيع الانسان أن يحيا بدون اله ، ولا أن أتصور هل يصبح هذا

ممكنا فى يوم من الايام • كان قلبى يجيب دائماً بأن هذا مستحيل •
قد يحدث هذا فى عهد من العهود الى حين • وانى لأشك فى أن يأتى
هذا العهد • ولكننى كنت أتخيل عندئذ لوحة أخرى مختلفة كل
الاختلاف ...

— ما هى ؟

لقد سبق أن صرّح لى طبعاً بأنه كان سعيداً • وواضح أن أقواله
كانت تشتمل على حماسة كثيرة • ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ ،
ونظرت اليه بهذا المنظار • وانى لما أحمله لهذا الرجل من احترام ، لن
أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك • غير أن خطوطاً معينة
من اللوحة الغريبة التى حملته على أن يرسمها لى ينبغي أن تذكر هنا •
ولقد كانت مسألة « الأصفاة » خاصةً هى التى تشغل بالى وتعذبنى ،
فكنت أريد أن تتضح لى ، ولذلك ألححت • ان أفكاراً تبلغ غاية الغرابة
والعجب مما قاله فى ذلك اليوم قد بقيت منقوشة فى قلبى الى الأبد •

بدأ يتكلم وهو يتسم ابتسامةً يمازجها تفكير ، فقال :

— اليك اللوحة التى أتخيلها يا عزيزى • أتخيل أن القتال انتهى ،
وأن الصراع هدأ • فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير ، عمّ
الهدوء ، وبقي البشر « وحيدين » كما كانوا يريدون : هجرتهم الفكرة
الكبيرة التى كانت تعيش معهم ، وغاب ينبوع الطاقة الذى كان الى ذلك
الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة ، كذلك الشمس الرائعة الأسرة التى نراها
فى لوحة كلود لوران • ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الانسانية • فاذا
بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً ، ويحسون فجأة أنهم
مهجورون هجر اليتامى • يا صغيرى العزيز ، اننى لم أستطع فى يوم من
الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغنياء • فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون

ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة . وأمسك بعضهم بأيدي بعض ، لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر . ان فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت ، فلا بد أن يتناضوا عنها بغيرها . فاذا بذلك الفيض من الحب الذي كانوا يحملونه لمن هو الخلود ، يتحول الآن الى الطبيعة ، الى العالم ، الى البشر ، الى كل عشة . سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة ، وسوف يحبونها حباً لا سبيل الى مقاومته ، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل ، وبأن زمنها محدود ، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذي كانوا يحسونه من قبل . سوف يلاحظون في الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسراراً لم يتخيل لهم الى ذلك الحين على بال ، لأنهم سينظرون اليها بعين جديدة ، سينظرون اليها نظرة الحبيب الى حبيبته . سوف يستيقظون فيسارع بعضهم الى بعض يتعانقون ، ويتحابون ، لعلهم بأن أيامهم زائلة ، وأن ذلك هو كل ما بقى لهم . سيعمل بعضهم في سبيل بعض ، وسيعطى كلٌ منهم شئ لكل الناس ، فيكون بذلك سعيداً . سيعلم كل طفل وسيحس أن كل انسان على هذه الأرض هو له أب وأم . سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر الى غروب الشمس : « ليكن الغد آخر أيامي . ساموت . ولكن لا أضير : لأنهم سيقون هم جميعاً ، وبعدهم سيقى أولادهم » . وهذه الفكرة ، فكرة أنهم سيقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض ، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت . لشد ما سيسارعون الى التحاب ، من أجل أن يخفقوا الحزن الكبير الذى فى قلوبهم . سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم ، ولكنهم سيكونون خجولين وجلين أمام الآخرين . سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر . سيحن بعضهم على بعض . ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزى . سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال . وحين يلتقون

سيبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء ، وسيكون في نظراتهم حب وأسى •

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف :

- يا عزيزى ، ليس هذا كله الا خيالاً ، بل هو خيال لا يمكن أن يتحقق فى الواقع • لكننى كثيراً ما تخيلت هذه الصور ، لانتى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أحيا بدونها ، ولا أن أمتنع عن التفكير فيها • ولست أتكلم عن ايمانى ، فايمانى ليس كبيراً • أنا رجل يؤمن بوجود الله ، ولكنه لا يؤمن بالدين ؟ رجل يؤمن بوجود الله ايمان فلاسفة ، كسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه • ولكن ... ولكن الشيء الذى يلفت النظر هو أنتى كنت أنهى لوحتى دائماً برؤيا « المسيح على بحر البلطيق » ، كما نرى ذلك عند الشاعر هاينى • انتى لم أستطع الا أن أراه أخيراً بين البشر الذين أصبحوا يتامى • يعجى اليهم ، ويمد لهم ذراعيه ، ويقول : « كيف نسيتمونى ؟ » • فاذا بنوع من حجاب يسقط عن جميع الأبصار ، واذا بنشيد حماسى هو نشيد الانبعاث الجديد الأخير ، يأخذ يترجع مدوياً •

« دعنا من هذا يا صديقى ؟ أما عن « أصفادى » ، فتلك مسخافة • لا يشغلن أمرها بالك • هناك شيء آخر : أنت تعرف أن لسانى خجول ومقتضب • فلئن استرسلت اليوم فى الكلام ، فذلك ... بسبب عواطف مختلفة ، وبسبب أنتى معك • لغيرك لن أقول شيئاً أبداً • أضيف هذا لأطمئنتك •

كنت متأثراً منفعلًا • ان الكذب الذى كنت أخشاه لا وجود له • ولقد أسعدنى خاصة أن أرى رؤية واضحة بعد الآن أنه كان يعانى من ضجر حقاً ، وأنه كان يتألم ويتمتع ، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك :

وهذا ما أثر في نفسي أكثر من أى شيء آخر • وقد أعلنت له ذلك بحماسة • ثم أضفت أسأله فجأة :

- ولكن يبدو لي أنك ، رغم كل ضجرك ، كنت سعيداً أقصى السعادة في ذلك الأوان ، أليس هذا صحيحاً ؟
فقال :

- انك اليوم مصيب في ملاحظتك • نعم • كنت سعيداً • وهل كان يمكن أن أكون شقيماً وأنا في مثل ذلك الضجر ؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المرحل الروسى الأوروبى الذى يتنمى الى أولئك الألف من الأفراد • أقول لك هذا بدون أن أضحك ، وفي كلامى كثير من الجلد • نعم ، ما كنت لأبيع ضجرى بأية سعادة • يا عزيزى • ومن السعادة أننى أحبيت حينئذ أمك أول حب في حياتى • نعم ، فيما كنت أضرب في الأرض وأعاني الضجر ، أحبتها فجأة كما لم أحب من قبل ، وسرعان ما أرسلت أستدعيها •

قال :

- آ ••• اقصص على هذا ••• كلمنى عن ماما •

ثم أضاف يقول وهو يتسهم فرحاً :

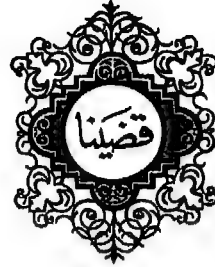
- وقد خشيت أن تعفينى من هذا الحديث مستعصاً عنه بالكلام عن

هرتسن أو عن مؤامرة ما •••

- ما جئت بك الى هنا الا لأحدثك عن هذا •

الفصل الثامن

١



فى الحديث كل المساء وسطراً من الليل ، فلن
أروى كل ما قيل ، بل اكفى بما أوضح لى فى
النهاية نقطة من حياته كانت عندى لغزاً •

وأبدأ بما يلى : ليس يخامرنى أى شك فى أنه
أحب ماما ، فاذا هجرها وانفصل عنها حين سافر الى الخارج ، فلأنه كان
مرهقاً بالضجر ، أو لسبب آخر من هذا القيل ، وذلك أمر يحدث
لجميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله • ثم انه فى الخارج ،
بعد انقضاء زمن غير قصير ، قد عاوده حب ماما فجأةً ، من بعيد ، بالفكر ،
فأرسل يستدعيها • رب قائل يقول : « هذه نزوة » • ولكننى أقول غير
ذلك ، ففى رأى أن ما فعله كان فيه أكبر الجذ رغم ما تتصف به طبيعته
من تناقضات أسلم بوجودها • ولكننى أحلف أن ضجره الأوروبى أمر
لاشك فيه ، وأنه يساوى بل يفوق كثيراً أى شكل من أشكال النشاط
العملى فى هذا الزمان ، كانشاء سكك حديدية مثلاً • وأنا أرى فى حبه
للانسانية عاطفة صادقة كل الصدق ، عميقة كل العمق ، بريئة من كل
كذب أو تزيف • وأرى فى حبه لاما أمراً لا يمكن الجدل فيه إطلاقاً ،
وان كان جائزاً أنه يشتمل على شىء من غرابة • انه فى الخارج ، بينما
هو فى « ضجر وسعادة » ، وبينما هو فى عزلة كعزلة النساك (أضيف

هذه الواقعة الخاصة التى أمدتنى بها تانيانا بأفلوفنا فيما بعد) ، تذكر ماما على حين فجأة ، وتذكر خديها الحاسفتين خاصة ، فأسرع يستدعيها فوراً •

قال لى (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلت غيرها) :

- يا صديقى ، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعفينى أبداً ، كإنسان أخلاقى وعاقل ، من أن أسعد فى أثناء حياتى انساناً واحداً على الأقل ، اسعاداً عملياً •

فسألته متحيراً :

- أتكون فكرة مستمدة من الكتب ، كهذه الفكرة ، هى التى جعلتك تعزم أمرك ؟

- ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب • وقد تكون كذلك فعلاً • ان الأشياء يختلط بعضها ببعض • ولكننى كنت أحب أمك فعلاً ، كنت أحبها حباً صادقاً ، حباً لا شأن له بالكتب البتة • ولولا أننى كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها ، بل عمدت الى اسعاد أول ألمانى أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائى الى تلك الفكرة • أما عن ضرورة اسعاد انسان واحد على الأقل أثناء الحياة اسعاداً عملياً ، أى اسعاداً فعلياً ، فهذه فكرة أنصبها قاعدة يؤمر بالتزامها كل انسان مثقف ، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يفرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته ، لأن الأشجار يقل عددها فى روسيا الآن • بل ان شجرة واحدة لا تكفى • فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يفرس شجرة فى كل سنة • ان الانسان المتفوق المثقف الذى يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحياناً ، فيصبح سخيلاً مضحكاً ، ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح غيباً ، فى الحياة العملية طبعاً ، بل يصبح آخر الأمر غيباً حتى فى

نظرياته • وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية ، واسعاد انسان واقعى واحد على الأقل اسعاداً واقعياً ، أن يشفى وأن يجدد نضارة الشخص الذى يحسن هذا الاحسان • قد يكون هذا الرأى سخيفاً من حيث هو نظرية ، لكنه متى 'طبّق' وأصبح عادة مستحكمة ، لا يكون رأياً غيباً الى الحد الذى قد يتوهمه المرء • • لقد جربت هذا بنفسى : فأننى منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأى - على سبيل التسلية فى أول الأمر ، طبعاً - بدأت أدرك مدى الحب الذى يحمله قلبى لأملك • • ولم أكن قد أدركت أبدأ ، حتى ذلك الحين ، أننى كنت أحبها • حين كنت أعيش معها ، كنت أتمتع بها فى ابان جمالها ، ثم تستبد بى النزوات • ولم أدرك أننى أحبها الا فى ألمانيا • بدأ ذلك بخديها الخاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبدأ أن اتصورها الا واراها ، حتى لأشعر بألم يهصر قلبى ، ألم حقيقى ، ألم جسمى • هناك يا عزيزى ذكريات أليمة تحدث وجعاً واقعياً • ان جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات ، ولكنهم ينسونها ، ثم ينفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمات الوجه أحياناً ، فإذا هو ينشد اليها ولا يستطيع منها فكاًكاً • أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتى مع صونيا • وأصبحت هذه التفاصيل توافينى أخيراً من تلقاء نفسها ، وتحاصرني جمهرة غفيرة • وكادت هذه الذكريات أن تقتلنى عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها • غير أن الشيء الذى كان يعذبني خاصة انما هو ذكرى مثلها الأبدية لى ، واعتقادها بأنها أدنى منى كثيراً فى كل أمر من الأمور ، وأننى أفوقها كثيراً حتى فى الجسم ! تصور ! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمرة قانية حين كنت أنظر أحياناً الى يديها وأصابعها التى لم يكن فيها شيء من ارستقراطية • بل انها لم تكن تخجل

من أصابعها وحدها بل من جسمها كله ، رغم أنني أحببت جماله • كانت تشعر معي بحياء دائم يبلغ حد التوحش • وأسوأ ما في الأمر أن هذا الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع • الخلاصة أنها كانت تعدّ نفسها بالقياس إلى شيء لا وجود له ، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق • وكنت في البداية أظن أنها لا تزال ترى في سيدها ، وأنها كانت تهابني وتخشاني • ولكن الأمر لم يكن كذلك • واني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أقدر من أي إنسان على معرفة عيوبى ونقائصى ، وأنتى ما رأيت في حياتى امرأة لها مثل قلبها رهافة ونفاذ ادراك • لشدما كانت تشعر بالشقاء حين كنت اضطرها في البداية ، أيام كانت لانزال جميلة جمالاً فاتناً ، أن تتزين • كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التآذى : كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزين سيدة ، وأنها لن تكون بلباس أجنبي الا مضحكة • وهى لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً ، وتدرك أن لكل امرأة ثياباً تناسبها ، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات الألوف من النساء اللواتى يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى ! كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقيا عليها • وما أشد الألم الذى كنت أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتهما محذقتين إلى أثناء حياتنا المشتركة : لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها ادراكاً كاملاً ، وتعرف المستقبل الذى ينتظرها ، حتى لقد كان ذلك يحزننى ، وان لم أكلهما فى هذا الأمر ، وانما ظللت أترفع عن الخوض فى حديث عنه • ولكن هل تعلم ؟ انها لم تكن فى جميع الأحيان خائفة متوحشة كما هى الآن • وهى حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن تتزين كما تفعل امرأة فى العشرين من عمرها • لكنها فى ذلك الوقت ،

ابان صباحها ، كانت تشقى الثرثرة والضحك أحياناً ، فى بيئتها طبعاً ، مع
 الخادومات مثلاً . ولشدها كانت ترتجف اذا أنا باغتها ضاحكة على حين
 فجأة ، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص الى بصرها خائفة ! فى
 ذات يوم لا يسبق رحلى الى الخارج بمدة طويلة ، بل هو تقريباً عشية
 انفصالى عنها ، دخلت الى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل ، قد وضعت
 كوعها على المائدة واسترسلت فى تأمل عميق . لم يسبق لها أن بقيت من
 قبل عاطلة عن العمل فى أى يوم من الأيام تقريباً . وكنت فى ذلك الأوان
 قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة . فاستطعت أن أقرب منها برفق
 ماشياً على رءوس الأصابع ، فامسكتها فجأة وقبستها . اتفقت : لن أنسى
 فى حياتى ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتتان والسعادة . ولكن
 ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع ، وقدحت عينها شرراً .
 هل تعلم ماذا قرأت فى ذلك الشرر ؟ « انك تعطينى صدقة ! » وانفجرت
 تبكى كمن أصابها نوبة هستريا ، زاعمةً أننى روعتها . ووقفت أنا واجماً
 أفكر . ان هذه الذكريات شاقة على النفس يا صديقى . هذا ما نجده لدى
 كبار الفنانين : ان قصائدهم تصور فى بضع الأحيان مشاهد « أليمة » تظل
 تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها . من ذلك مناجاة « عطيل » ،
 الأخيرة ، ومشهد « أوجين » على قدمى تاتيانا ، ولقاء السجين الهارب
 والطفلة الصغيرة فى « بؤساء » فكتور هوجو . ان هذه المشاهد تطعن قلبك
 مرة ، ثم يبقى الجرح نازقاً الى الأبد . آه . . . ما كان أشد نفاذ صبرى
 وأنا انتظر وصول صونيا ، ولم كنت أود أن أقبلها فى أقرب وقت ؟ لقد
 أخذت أضع برنامجاً كاملاً لحياة جديدة . أخذت أفكر فى الوسائل التى
 سأعتمد اليها لأزيل من نفسها شيئاً بعد شئ ، بمجهود متصل منظم ، خوفها
 الدائم منى ، ولأفهمها قيمتها الكبيرة ، ولأجعلها تدرك أنها تفوقنى كثيراً .
 آه . . . لقد كنت أعلم ، حتى منذ ذلك الحين ، أننى أحب أمك متى

انفصلت عنها ، فاذا اجتمعنا من جديد ، فتر حبي وبرد • ولكن شيئاً آخر
حدث حينذاك •

كنت مدهوشاً • وهذا سؤال يبرق في ذهني : ماذا عنها « هي » ؟
وسألته في حذر •

- وكيف تم اللقاء ؟

- في ذلك الوقت ؟ لم يتم لقاء • وصلت إلى مدينة كونجسبرج بعد
عناء شديد ، وبقيت بها ، وكنت أنا على نهر الراين • لم أذهب إليها ، بل
أرسلت أمرها بأن تبقى حيث هي • التقينا بعد ذلك بمدة طويلة • • • مدة
طويلة جداً • • • حين ذهبت استأذنها في أن أتزوج •

٢

لن أذكر هنا الا الأشياء الأساسية ، أى ما استطعت أن أحفظه •
زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسل ولا ترابط ، وتضاعف
تفكك أقواله وتشوشها واضطرابها عشر مرات منذ بلغ من حديثه
هذا الموضع •

لقد لقي كاترين نيقولايفنا مصادفةً ، حينما كان ينتظر ماما ، بل
حينما كان نفاذ صبره أثناء هذا الانتظار قد بلغ قمته • كانوا يومئذ جميعاً
على نهر الراين ، يقضون موسم المياه المعدنية • وكان زوج كاترين ايفانوفنا
يختصر تقريباً ، أو قل على الأقل ان الأطباء كانوا يائسين منه فهو بحكم
المختصر •

خطفت كاترين ايفانوفنا بصر أبى منذ أول لقاء ، حتى لكأنها رمته
بسحر • كان ذلك قدراً محتوماً • لاحظوا أننى ، وأنا أسجل وأتذكر
الآن هذا كله ، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل فى حديثه كلمة « الحب »
مرة واحدة ، ولا قال انه « شغف » ، وانما استعمل كلمة « القدر » ،
فحفظت هذه الكلمة •

ولقد كان الأمر قدراً بالفعل • انه « لم يرد » ذلك ، لم يرد أن
يجب • لا أدرى هل أقدر أن أعبر عن هذا تعبيراً واضحاً • المهم أنه
كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له • ان كل

ما كان يملكه من حرية قد زال دفعه واحدة حين كان ذلك اللقاء ، ووجد الرجل نفسه مشدودا حتى الأبد الى امرأة ليس بينه وبينها نىء مشترك . انه لم يرغب فى ان يستعبده الهوى هذا الاستعباد . يجب ان اقول اليوم بصراحة : ان كاترين يقولانفسا نموذج نادر فى نساء المجتمع الراقى ، نموذج لعل المرء لا يقع عليه فى تلك الليثات . هى نموذج امرأة بسيطة صريحة الى أقصى حدود البساطة والصراحة . ولقد سمعت ، بل علمت من مصدر موثوق به ، أن هذا بعينه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل الى مقاومتها حين تظهر فى المجتمع (وكانت فى كثير من الأحيان تبعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً) . وكان فرسيلوف ، أثناء ذلك اللقاء الأول ، لا يظن أن لها هذه المزاي ، حتى لقد ظن نقيض ذلك ، أى اعتقد انها امرأة متصنعة منافقة . وسأستبقى الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هى فيه . لقد قالت ان رجلاً مثاليّاً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم ، لأن المثالى حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب ، . لا أدري هل يصدق هذا الرأى على المثاليين عامة ، ولكننى أعرف أنه يصدق عليه . وأحب أن أضيف هنا رأى أنا ، وهو رأى تكون فى ذهنى بينما كنت أصغى اليه : لقد قلت لنفسى انه كان يجب ماما حباً انسانياً شاملاً ان صصح التعبير ، لا ذلك الحب العادى الذى يشتعل فى نفس المرء حين يحب نساء ، وانه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادى ، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضه ، بسبب عدم التعود فى أغلب الظن . على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ . وأنا لم أعبر له عنها على كل حال . ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً . لا سيما وأنه كان فى حالة توجب على المرء أن يداريه . لقد كان مضطرباً اضطراباً رهيباً . حتى انه فى بعض المواضع من حديثه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحياناً ، ويبقى صامتاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة ...

ولم تلبث كاترين نيقولايفنا ان نعدت الى سره ، ولعلها تغنجت له ان الأتني لا تتنازل عن القيام بدورها ، حتى اطهر النساء . هذه عندهم غريزة لا يستطعن مقاومتها . ثم انتهى كل شيء بقطيعه عنيفة ، بل أظ أنه أراد أن يقتلها . لقد اخافها ، ولعله كان يمكن أن يقتلها . « لكن ذلك كله استحالة فجأة الى كره » . ثم جاءت مرحلة أخرى عجيبة . لقد تملكته فكرة غريبة على حين فجأة : ان يعدب نفسه باتباع رياضة نفس قاسية هي « تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان . فباتباع هذه الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل الى التغلب على ارادتك ، بادبأنفه الأشياء وأيسرها ، منتهياً بتحقيق انتصار كامل على ارادتك ، فتصيب حراً » . وأضاف أن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيب النفس ليست لعباً ، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة . على أ، أهم ما في الأمر هو أن فكرة « ترويض » النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عن رغبة في التحرر من كاترين نيقولايفنا ، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحسد كاترين نيقولايفنا وانما هو يكرهها . وقد بلغ من قوة الاعتقاد بهذا الكر أنه زين له فجأة أن يحب ابنة زوجها ، التي أغواها الأمير وتركها ، وأد يتزوجها ، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد ، واجتذب اليه حب تلك البلهاء المسكينة التي هيا لها هذا الحب في الأشهر الأخير من حياتها سعادة كاملة . لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لا تزال تنتظر بمدينة كونجسبرج ، بدلا من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي بلا جواب ! ... لقد نسي ماما نسياناً مبالغاً تاماً ، حتى لقد انقطع عن ارسال شيء من المال اليها لتعيش ، فاضطرت أن تستجد بتاتيانا بافلوفنا التي أغاثتها وكفلت لها الخلاص . ولكنه ذهب الى ماما فجأة ليطلب منها « اذ بتزوج تلك الفتاة » ، متعللاً بأن « خطيبة » كهذه ليست امرأة » . قد تكود هذه الصورة كلها صورة رجل « مستمد من الكتب » كما وصفته بذلك كاترين نيقولايفنا فيما بعد ، ولكن لماذا يكون هؤلاء « الرجال المستمدون

من الكتب ، (اذا صح أنهم كذلك) قادرين على ان يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء ، وأن يصلوا الى مآسى كهذه المآسى ؛ على أتني في ذلك المساء فد فكرت في الأمر تفكيراً يختلف عن هذا قليلاً ، وبرقت في ذهني فكرة أخرى :

- ان ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتك عذاباً ومعارك ظلمت تخوضها طول حياتك ، أما هي فقد تلقت الكمال مجاناً . وهذا ليس من المساواة في شيء . ذلك ما يثير الحنق في المرأة .

قلت له هذا لا لأرضيه ، وانما قلته بحرارة وحتى باستياء . فقال مدهوشاً من كلماتي :

- الكمال ؟ كمالها ؟ ألا انها محرومة من أي كمال ! انها امرأة عادية جداً . امرأة لا قيمة لها بتاتاً . . . ولكنها مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال .

قلت :

- لماذا مضطرة ؟

فصاح غاضباً :

- لأنها تملك قوة " كهذه القوة ، فهي مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال .

- الأمر المحزن أنك معذب حتى الآن .

أفلتت مني هذه الجملة بغير ارادة . فوقف أمامي متحيراً ، وقال مردداً :

- حتى الآن ؟ معذب ؟

وأضامت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة ، ورفع

أصبه كمن قرر أمراً • حتى اذا ناب الى نفسه تماماً تناول من على المائ
رسالة مفوضة ورماها أمامى قائلاً :

- خذ ! اقرأ ! يجب أن تعرف كل شيء على الاطلاق ••• لما
تركنتى انبش هذه الحماقات كلها طول هذه المدة ؟ ان هذا لا يزيد
أن يحنق قلبى ! •••

لن استطيع أن أعبر عما اعترانى من دهشة ! لقد وصلته هـ
الرسالة منها « هـ » ، فى هذا اليوم نفسه ، الساعة الخامسة من المساء
قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً • لم تكن الرسالة طويلة
لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أننى كنت ، وأنا أقرؤها ، أتمثل كاتبها
أمامى وأسمع صوتها متكلمة • ان كاترين يقولاننا تعبر له فى هـ
الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الاخلاص (أى تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه
ثم تتوسل اليه أن « يدعها وشأنها تعيش فى سلام » ، وتبلغه فى خـ
الرسالة أنها ستتزوج بيورنيج فعلاً • ولم تكن قد كتبت اليه قبـ
اليوم أبداً •

واليكم ما فهمته من أقواله :

ماكاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس فى نفسه فجـ
بأمر لم يكن يتوقعه قط : لقد شعر ، لأول مرة خلال هاتين السـ
المشثومتين ، بأنه لا يحمل لها أى كره ، ولا تهتز لها نفسه أى اهتزاز
هو الذى « فقد صوابه » منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنيج • حتى لا
قال لى بعاطفة عميقة : « بالعكس : باركتها من كل قلبى » • سمعت •
هذه الكلمات معجياً • هكذا زايله كل ما كان يضطرم فى قلبه من هو
ومن عذاب ، زايله دفعةً واحدة ، من تلقاء نفسه ، كأنه كان حليماً ، كأ
كان مساً ثم مضى ! وقد دهش هو من نفسه ، فأسرع يذهب الى أمى
فدخل عليها لحظة أصبحت « حرة » ، أى لحظة مات الشيخ الذى أوصـ

بالأمس أن يتزوجها • ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً • وبعد قليل ،
خرج يبحث عني • لن انسى ابدا اننى سرعان ما خطرت بباله •

لا ولن انسى نهاية تلك السهرة • ان هذا الرجل قد تبدل مرة
أخرى تبدلاً كبيراً مبالغاً • بقينا معاً الى ساعة متأخرة من الليل • سأحدث
فيما بعد عن الاثر الذى أحدثته فينا « النبأ » ، سأحدث عنه فى حينه •
أما الآن فسوف أقصر على بضع كلمات أختم بها كلامى عنه هو • اننى
لأدرك ، حين أفكر الآن ، أن ما فتنى فيه حينذاك هو ذلك النوع من
الانقياد لى ، ذلك الاخلاص الصادق فى مخاطبة فتى مثلى ! لقد هتف
يقول : « كان ذلك ضلالاً » • ولكن بورك ذلك الضلال ! فلولا كان
يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداءً كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ،
الى شهيدتى ، أمك ، • هذه الكلمات الحارة التى أفلتت منه بقوة لاتقاوم ،
الما أسجلها هنا من أجل تمة القصة • ولكنه كان قد غزا قلبى وأسر
نفسى •

أذكر أننا صرنا فى النهاية الى مرح جنونى • أمر بشمبانيا ، فشربنا
« نخب » ، ماما ، و « نخب » المستقبل • وكان يزخر حياة ، ويفيض تأهباً
وتهيؤاً للحياة ! ولكن مرحنا الجنونى لم يكن سببه الخمر : فلم يشرب
كل منا الا كأسين اثنين • لا أدري لماذا أصبحنا فى النهاية نضحك عاجزين
عن كبح ضحكنا • أخذنا نتكلم فى أمور لا قيمة لها • روى نكات • ورويت
نكات • وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة ، خالية من أية
سخرية ، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً • وكان لا يريد أن يخلو سبيلى
فهو ما ينفك يقول : « ابقى ، ابقى » ؛ وبقيت • حتى اذا خرجت صحبنى •
كان الليل راءعاً ، وكان جليد خفيف •

سألته فجأة بدون سابق تفكير ، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند
منعطف :

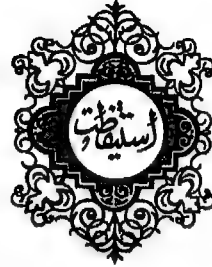
— قل لى : هل أجبتها ؟

— لا، لم أجبها بعد. ولكن لأقيمه لهذا • تعال غدا، تعال فى وقت أبكر • آ • • • نى • آخر : اترك لأمير نهائياً ، ومزق « الوثيقة » بأقصى سرعة • استودعك الله •

قال ذلك ومضى فجأة • فبقيت مسمّرا فى مكانى وقد بلغت من الاضطراب اننى لم أجرو أن أناديه • هزّنتى كلمة « الوثيقة » خاصة : من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لأمير ؟ وعدت الى البيت قلقاً أشد القلق • وبرى فى ذهنى سؤال : كيف يمكن أن يزايله فى مثل لمح البصر « مس دام سنتين » ، ثم اذا هو يختفى كحلم ، يتبدد كدخان ، يغيب كرؤيا ؟

الفصل التاسع

١



في الغداة أنضرت همةً وأحسن حالاً • حتى
لقد رأيتني آخذ على نفسي ، بغير غضب ، شيئاً
من الخفة ونوعاً من التعالي ظهراً على أمس حين
كنت أصغى الى بعض الفقرات من « اعترافه » •

لقد كان اعترافه مفككاً في بعض الأحيان ، وكان عدد من أقواله غامضاً
مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه • ولكن هل
كان قد أعدّ خطاباً خطيباً حين دعاني الى بيته ؟ حسبي أنه شرفني
بالجوء الىّ كما يلجأ صديق الى صديقه الوحيد في مثل اللحظة التي
كان فيها • لن أنسى له هذا ما حييت • بل لقد كان اعترافه « مؤثراً في
القلب » ، أقول هذا ولو سخر من هذا التعبير ساخرون • ولئن اشتمل
هذا الاعتراف على عناصر مستهترة ، أو حتى مضحكة قليلاً ، فلقد كنت
أرحب صدرأً وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعية - دون
أن ألتجئ المثالية على كل حال • أخيراً فهمت هذا الرجل ؛ ولقد ساءني
وأحزنتني قليلاً أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة : هذا الانسان ،
كنت في قرارة قلبي أنزله أعلى منزلة ، وأضعه فوق السحب • فكان
لا بد لي حتماً أن ألغى مصيره برداء من السر ، وكنت أتمنى طبعاً ألا
ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة • ثم لقد كان هناك ، في لقائه
« معها » ، وخلال هاتين السنتين من العذاب ، أشياء أخرى كثيرة معقدة :

« لم يرد ذلك القدر • كان في حاجة الى الحرية لا الى عبودية القدر •
 عبودية القدر هذه هي التي اضطرت ان يجرح شعور ماما التي كانت
 تنتظره في لونها جبرج » • وعدا ذلك ، كان هذا الانسان في نظري
 داعية ومبشراً على كل حال : كان يحمل في قلبه العصر الذهبي ، ويعرف
 مستقبل الالحاد • ثم اذا بلقائه معها قد حطم كل شيء ، وشوّه كل شيء •
 أنا لم أخنها طبعاً ، ولكنني مع ذلك قد انحزت اليه • كنت أقول لنفسي :
 ما كان لماما مثلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجته • وكنت أحس أن
 لقاءه مع « الأخرى » أمر مختلف كل الاختلاف • صحيح أن ماما ما كانت
 لتجيبه بالهدوء والسكينة • ولكن هذا أفضل • ان أمثال هؤلاء الرجال
 ما ينبغي أن يحكم عليهم بالمقاييس التي يحكم بها على غيرهم • ان
 لهم شأنًا خاصاً • ان حياتهم ستقضي دائماً على هذا النحو • وليس في
 ذلك شذوذ • بالعكس : فاما الشذوذ أن يجدوا الهدوء ، أو أن يصبحوا
 كسائر الناس المتوسطين • ان افتخاره بالنباله وقوله « ساموت سيداً »
 لم يقلقني • لقد أدركت ما السيد الذي كان يعنيه : انه السيد الذي
 يهب كل شيء ، ويبشر بمواطن الكون ، ويشيع الفكرة الروسية الداعية
 الى « لقاء الأفكار لقاء شاملاً » • لعل هذا كله كان سخافات وحماقات ،
 أعني « لقاء الأفكار لقاء شاملاً » (مع أنه لا غنى عنه طبعاً) ، ولكن ألم يكن
 حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب ؟ ولكن أنا ...
 رباه ... هي أنا انحنيت لعجل الذهب حين تصورت فكرتي ؟ هل المال
 هو ما كنت في حاجة اليه ؟ يميناً لم أكن في حاجة الا الى الفكرة ! يميناً
 لو ملكت المال لما نجّدت كرسيّاً واحداً ولا ديواناً واحداً بالقטיפه ،
 ولما أكلت غير صحن الحساء الذي آكله اليوم مع مائة مليون !

لبست ثيابي ، وشعرت بقوة تدفعني اليه ولا أستطيع مغالبتها • يجب
 أن أضيف هنا أنني فيما يتعلق بإشارته الى الوثيقة أمس ، قد وجدتني

اهدأ بالا • قلت لنفسى أنتى قد أبحث هذا الموضوع معه • وای ضير
فى أن يكون لامير قد تسلل اليه وحدنه عن تىء ؟ وكانت فرحتى الكبرى
هى احساسى الغريب بأنه أصبح لا • يحبها • • كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً
مطلقاً • وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبى • حتى اننى أتذكر
افتراضاً مرّ بخاطرى : ان ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ
عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنيج ، وما لجأ اليه عندئذ من ارسال رسالته
تلك التى احتوت على سب وشتم ، أقول ان ذلك العنف كله ربما كان
ايداناً بتغير جذرى فى عواطفه وعودة سريعة الى الحس السليم والعقل
الراجح • قلت لنفسى : ان هذا لابد أن يكون شيئاً بالنوبة التى تحدث
فى مرض ثم يقبها نقيضها ! فما ذلك الا مرحلة طيبة ! وقد أسعدتنى
هذه الفكرة •

وهتفت أقول : • الآن فلتصرف فى مصيرها كما تشاء • ولتزوج
بيورنيج ما حلا لها ذلك ، فانما المهم أنه هو ، أبى ، صديقى ، قد زال
حبه لها • • على أن عواطفى أنا قد كان فيها سر • ولست أريد فى
مذكراتى هنا أن ألحّ عليه أو اكشف عنه •

ولكن كفى ! الآن سأروى جميع الأحوال التى تعاقبت ، بدون أى
مدارة فى هذه المرة •

فى الساعة العاشرة ، فيما كنت أنهياً للخروج (لأذهب اليه طبعاً)
جاءت داريا أونيسيوفنا • فسألته مرحباً هل هو أرسلها الىّ ، فأخزنى
أن أعلم أنه ليس هو الذى أرسلها ، وانما أرسلتها أنا آندريفنا ، وأنها -
هى داريا أونيسيوفنا - « قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح » •

- أى بيت ؟

- البيت نفسه ، بيت الأمس • ان البيت الذى كنت فيه أمس ، أعنى
بيت الطفل ، مستأجر الآن باسمى أنا ، ولكن تاتيانا بالفوفنا هى التى
تدفع •••

قاطعتها غاضباً أقول :

- ما شأنى أنا وهذا ! ولكن هو ، هل هو فى البيت ؟ هل أجده
إذا ذهب اليه ؟

فما كان أشد دهشتى حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هى ،
فاذا كانت قد خرجت هى عند طلوع النهار ، فقد خرج هو قبل طلوع
النهار •

- لعله يكون قد رجع الى البيت الآن ؟

- لا ، انه لم يرجع حتماً ، وربما لا يرجع أبداً •

قالت ذلك وهى تحدّث الى بنظرتها الحادة الماكرة التى سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتنى مريضاً فى السرير • ان ما أحقنى بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السخافات التى تعود الى الظهور : ان هؤلاء الناس يصرون على ألا يستغنوا عن السر والمكر •

— لماذا قلت • ربما لا يرجع أبداً • ؟ ماذا تعين بهذا ؟ لقد ذهب الى ماما وهذا كل شيء !

— لا أدرى •

— ولكن ما جاء بك أنت ؟

فقلت لى انها الآن آتية من عند آنا آندريفنا ، وان آنا آندريفنا تدعونى أن أجيء اليها حالاً ، والا • فات الأوان • • فأحقنى هذا الكلام الملعن مرة أخرى وأخرجنى عن طورى :

— لماذا يفوت الأوان ؟ لا أريد أن أذهب اليها ولن أذهب ! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة ! اننى لا أعبأ بلامير ! قولى لها هذا • فاذا أرسلت لى لامير ، فلأطردته ركلاً • بقدمى •

ارتاعت داريا ارتياعاً رهيباً •

قالت وهى تتقدم منى خطوة وتضم يديها احدهما الى الأخرى ضارعة متوسلة :

— لا ، انتظر • لا تسرع الى الغضب هذا الاسراع • ان الأمر خطير ، بل خطير جداً بالنسبة اليك ، واليهم أيضاً ، الى آندره بتروفتش ، والى أمك ، والى الجميع • فاذهب الى آنا آندريفنا حالاً ، لأنها لا تستطيع أن تنتظر مدة أطول • • أحلف لك بشرفى • وبعد ذلك تتخذ قراراً •

نظرت اليها مدهوشاً مشمئزاً • وهتفت أقول بعناد وعداوة :

- سخافات • لن يحدث شيء • لن اذهب • تغير الآن كل شيء •
هل أنت قادرة على أن تفهمي؟ مع السلامة يا داريا أونيسيوفنا • لن
أذهب • عمداً لن أذهب • وعمداً لن أسألك عن شيء • والا أفقدتني
صوابي • لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم •

ولكنها لم تنصرف ، بل ظلت متسمة في مكانها ، فلم يسغى الا أن
أتناول معطفي وطاقيتي ، وأن أخرج تاركاً اياها في وسط الغرفة • لم يكن
في غرفتي رسائل ولا أوراق ، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أى يوم من
الأيام تقريباً حين أخرج • ولكن ماكدت أصل الى الباب المفضي الى الشارع
حتى رأيت مؤجر غرفتي بطرس هيوليتوفتش يركض ورائي بدون
قبعة وبدون سترة •

- آركادى ماكاروفتش ! آركادى ماكاروفتش !

- ما بك أنت أيضاً ؟

- ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج ؟

- لا •

فنظر الى نظرة نافذة فيها قلق واضح ، وقال يسأل :

- فيما يتعلق بالبيت مثلاً ؟

- فيما يتعلق بالبيت ؟ ألم تستلم الأجرة ؟

- ليس الأمر أمر الأجرة •••

قال ذلك وهو يتسم ابتسامة طويلة على حين فجأة ، ويظل يتفحصني
بنظرته • فصحت أقول غاضباً :

- ولكن ماذا حدث لكم جميعاً ؟ ماذا تريد أنت ؟

فانتظر بضغ نوان ، كأنه لا يزال يأمل منى شيئاً • ثم دمدم يقول
وهو يتسم ابتسامة أطول :

- اذن تأمرنى فيما بعد ، مادمت الآن معتكر المزاج . طيب . مع
السلامة . أنا أيضاً يجب أن أذهب الى المكتب .

وعاد يصعد السلم راكضاً . ان هذا كله يبحث على التفكير طبعاً .
وأنا أتمدأ ألا أغفل أى تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة ،
لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد فى مجموعها المتشابه . هذه
حقيقة . ولئن ضقت ذلك الضيق كله ، وحنقت ذلك الحنق كله ، فلاأتنى
عدت أجد فى أقوالهم لهجة المكر واللغز تلك التى كنت أتقزز منها
وكانت تذكرنى بالماضى .

ولكن فلاأتابع حديثى .

لم أجد فرسيلوف فى البيت : كان قد خرج فعلاً مع طلوع النهار .
وقفت أقول لنفسى : «سأجده عند ماما حتماً» . ولم أسأل الخادمة عن
شئ . انها امرأة غبية . ولم يكن فى البيت أحد غيرها . ركضت متجهاً
الى بيت ماما . اعترف بأننى كنت قلقاً غاية القلق . حتى لقد ركبت عربة
بعد أن قطعت نصف الطريق . فعرفت هناك « أنه لم يجرىء الى بيت ماما
منذ مساء أمس » . لم يكن مع ماما الا تاتيانا بافلوفنا و ليزا . وما ان دخلت
حتى تأهببت ليزا للخروج .

لا تزالان تقيمان فوق ، فى «تابوتى» . وتحت ، فى الصالون ، كان
جثمان ماكار ايفانوفتش مسجى على المائدة ، وكان شيخ مجهول يقرأ
عليه المزامير . لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً
مباشراً . لكننى أحب أن أسجل أن النعش الذى 'صنع له و' وضع فى
الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً : صحيح أنه أسود ، ولكنه مفروش بقطيفة ؟
والكفن ثمين : ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته . ولكن تلك
كانت رغبة ماما و تاتيانا بافلوفنا ، حرصنا عليها أشد الحرص .

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهم في مرج • لكننى ما ان رأيت الحزن الساقى والقلق الشديد والهم الثقيل فى أعينهن حتى قدّرت أن • هناك شيئاً آخر غير المتوفى قطعاً • • اعود فأكرر أننى أتذكر هذا تذكراً واضحاً •

ومع ذلك قبلت ماما بحنان • ثم لم ألبث أن سألتها • عنه • • فسرعان ما اشتعل فى نظرتها استطلاع قلق • فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة معاً الى ساعة متأخرة من الليل • ولكننى لم أجده اليوم فى البيت • فقد خرج مع طلوع النهار • رغم أنه طلب منى فى الليلة البارحة • حين افترقنا • أن أجيء اليه فى أبكر وقت • لم تجب ماما بشيء • ولكن تاتيانا بافلوفنا انتهزت فرصة فلوحت لى بأصبعها مهددة •

وقالت ليزا فجأة بلهجة قاطعة وهى تخرج من الغرفة مسرعة :
- استودعك الله • أخى •

وبادرت ألحق بها طبعاً • فوجدتها واقفة تنتظرنى عند الباب • قالت لى بهمس سريع :

- قدّرت أنك ستنزول •

- ماذا حدث يا ليزا ؟

- أنا نفسى لا أعلم • ولكن لا بد أن أشياء كثيرة قد حدثت • لا بد أنها خاتمة هذه « القصة الأبدية » • لم ييجى • • ولكن وصلتهم أخبار عنه • لن يحكوا لك شيئاً • فكن هادئاً • ولا تسألهم أى سؤال اذا كنت تملك بعض الذكاء • أنا أيضاً لم أسأل • ماما مرهقة • الى اللقاء !

وفتحت الباب • قلت :

- ليزا ! وأنت • أليس بك شيء ؟

ووثبت أدركها فى الدهليز • ان هيئتها المهذوبة المكروبة اليأس قد

طعنت قلبي • فنظرت الى نظرة لم تكن غاضبة فحسب ، بل كانت كاسرة
أيضاً • ثم ابتسمت ابتسامة مرة ، وحركت يدها بإشارة يأس •

وفيما كانت تهبط السلم منصرفة ، هتفت تقول :

- اذا مات فيجب أن نحمد الله •

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذي كان رافداً مع حمى
وغيبوبة • حدثت نفسى محققاً : « القصة الأبدية ؟ أية قصة أبدية ؟ »
وسرعان ما ساورتني رغبة قوية في أن أحدثهم عن جزء - على الأقل -
مما أحسست به بعد سماع « اعترافه » في الليلة البارحة ، وأن أذكر لهم
ذلك الاعتراف ذاته • « انهم يحملون آراء سيئة فيه • ألا فيعلموا اذن
كل شيء ! » • تلك هي الفكرة التي لمعت في خاطري •

أذكر انني بدأت الكلام بغير خراقة ، فسرعان ما أثرت اهتمامهما
واجتذبت انتباههما • حتى ان تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالى شرباً ،
وذلك شيء لم يسبق أن حدث من قبل • وكانت أمي أكثر تحفظاً •
كانت رصينة جداً ، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة ، وان تكن يائسة كل
اليأس ، قد أضاءت وجهها ولازمته الى نهاية الحديث • واسترسلت في
الكلام ، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول • وقد أدهشني كل
الادهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تتأكدني ، فلا سألتني توضيحات
ولا نصبت لي فخاخاً ، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم • وكانت
تقتصر على أن تزعم شفيتها وتغمض عينيها نصف اغماض من حين الى حين
كأنما هي تجهد أن تفهم • حتى لقد بدا لي في بعض اللحظات أنهما كانتا
تدركان كل شيء • غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع • تحدثت
مثلاً عن اعتقاداته وآرائه ، وعن حماسه أمس ، عن حماسه لاما
خاصة ، عن حبه لاما ، ورويت كيف قبل صورتها • • • فكاتنا ، وهما
تصفيان الى كلامي ، تتبادلان نظرات سريعة صامتتين • واحمرت ماما

احمراراً شديداً • وظللتا كلتاها لا تقولان شيئاً • ثم ••• ثم
 •• كنت لا أستطيع طبعاً ، بحضور ماما ، أن أُلْس النقطة الأساسية ، أعني
 لقاءه مع الأخرى ، و « انبعاته » الروحي بعد تلقيه تلك الرسالة • وكان
 ذلك هو الأمر الجوهرى فى الواقع • وهكذا فإن جميع عواطفه التى عبر
 عنها فى الليلة البارحة والتى كنت آمل أن أبهج بها ماما كثيراً ، بقيت
 غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال ، ولم يكن الذنب فى ذلك ذنبى ، لأن كل
 ما كان يمكننى أن أقوله ، قد قلته بل أحسنت قوله جداً • فلما انتهيت
 كنت مرتبكاً أشد الارتباك • واستمر صمتها • فوجدت نفسى معها فى
 ضيق شديد • فقلت وأنا أنهض لأنصرف :

— لابد أنه رجع الى البيت الآن • أو لعله ذهب الى بيتى فهو
 ينتظرنى هناك •

فقال تاتيانا بأفولونا مؤيدة بلهجة قاطعة :

— طيب • اذهب اليه ، اذهب اليه !

وسألتنى ماما بهمس :

— هل ذهبت الى تحت ؟

— نعم ، حيث جثمانه ، وصليت له • ما أجمله من وجه هادىء
 يا ماما ! شكراً لأنك لم تقصّرى فى أمر النعش أىّ تقصير • لقد
 استغربت ذلك فى أول الأمر ، ولكننى سرعان ما أدركت أننى لو كنت
 فى مكانك لفعلت ما فعلته أنت •

سألتنى أمى مختلجة الشفتين :

— هل تأتى غداً الى الكنيسة للجنازة ؟

فقلت مدهوشاً :

— كيف لا يا ماما ؟ سأحضر قداس اليوم ، وآتى غداً أيضاً •
 وغداً عيد ميلادك يا ماما ، يا صديقتى الغالية ! لم ينقصه الا ثلاثة أيام !

وانصرفت مدهوشاً دهشة ألينة : يا له من سؤال سخيف ! كيف
سألتى هل أتى الى الكنيسة أم لا ؟

واذا كانتا تخشيان ألا أتى أنا ، فما عسى تكون خشيتهما من
ألا يأتي ، هو ، ؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بى ، فعمدت أن أقف عند
العتبة . وأدركتني فعلاً ، لكنها دفعتني بيدها الى السلم ، وخرجت بعدى
وأغلقت الباب .

- تاتيانا بافلوفنا ! هل تتوقعان اذن ألا يجيء آندره بنروفتش
لا اليوم ولا غداً ؟ اننى خائف ...

- اسكت . يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً !! ... قل : انك
لم تذكر كل شيء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة ، أليس كذلك ؟
لم أجد داعياً الى الکتمان ، فحكيت لها - وأنا شبيهه غاضب على
فرسيلوف - حكاية الرسالة التى وصلته من كاترين نيقولايفنا ، والأثر
الذى أحدثته تلك الرسالة فى نفسه اذ بعثه بعثاً جديداً . فما كان أشد
استغرابى حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها ، فأدركت أنها على
علم بأمرها .

- ألا تكذب فيما تقول ؟

- لا ، لا أكذب .

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر ، ثم قالت :

- هه ! بُعث بعثاً جديداً ! لا ينقص الا هذا ! هل صحيح أنه
قبَّل الصورة ؟

- صحيح يا تاتيانا بافلوفنا .

- قبَّلها بعاطفة ، أم تظاهر تظاهراً ؟

- تظاهر تظاهراً ؟ هل يتظاهر أحياناً ؟ عيب يا تاتيانا بأفلوفنا ! ان لك نفساً قاسية ، نفس امرأة !

قلت ذلك بحرارة ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعنى • كانت قد عادت تفرق فى أفكارها رغم شدة البرد على السلم • كنت أنا مرتدياً معطفى ، أما هى فكانت بفستانها فقط •

قالت باحتقار وتملل :

- كان يمكن أن أعهد اليك بمهمة ، ولكن المؤسف أنك غبى غباء شديدًا • اسمع : اذهب الى آنا آندريفنا ، وانظر ماذا يحدث عندها • لا بل لا تذهب ! فلن تكون هناك الا غيباً • امش • ما بقاؤك هنا متسماً كنصب ؟

- لا ، لن أذهب الى آنا آندريفنا ! ومع ذلك فان آنا آندريفنا هى التى أرسلت تستدعينى اليها اليوم •

- هى نفسها ؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا ؟

كانت تاتيانا بأفلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتصرف ، لكنها ما أن سمعت كلامى حتى التفتت الى ثانية وألقت على ذلك السؤال وهى تغلق الباب من جديد •

كررت أقول مثلثذاً :

- لن أذهب الى آنا آندريفنا بحال من الأحوال • لن أذهب اليها ، لأننى وُصفت منذ هنيهة بأننى غبى ، مع أننى لم أكن فى حياتى ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم • ان قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفى ، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح ! على كل حال ، لن أذهب الى آنا آندريفنا •

فهتفت تقول وهى لا تزال تفكر :

- كنت أعرف هذا ! سوف يوثقونها الآن ويضعونها في الكيس .

- آنا آندريفنا ؟

- غبى !

- من تعين اذن ؟ كاترين نيقولايفنا ؟ أى كيس ؟

جزعت جزعاً رهيباً . ان فكرة غامضة ، لكنها فظيعة ، قد برقت في
نفسى كلها . وألقت على " تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة ، وسألتني فجأة :

- وأنت ما شأنك وهذا كله ؟ ما دورك في هذا الأمر ؟ لقد سمعت
شيئاً عنك أنت أيضاً . حذار .

- اسمعى يا تاتيانا بافلوفنا . سوف أكشف لك سرا رهيباً . ولكن
لا الآن . الآن لا يتسع الوقت . غداً سأكشف لك عن ذلك السر ، على
انفراد . ولكن قولى لى الحقيقة كلها فوراً : ما هذا الكيس الذى تتحدثين
عنه ؟ ذلك أن جسمى كله يرتعد ارتعاداً شديداً

صاحت تقول :

- لا يهمنى أن يرتعد جسمك أو ألا يرتعد . ما هذا السر
الذى تريد أن تبوح لى به فى الغد أيضاً ؟ هل تعرف شيئاً بالفعل ؟ قل
ما تعرفه بصراحة

وعادت تلقى على " نظرتها الفاحصة . ثم قالت تسألنى :

- ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت ؟

وتابعت أنا أيضاً كلامى دون أن أجيب عن سؤالها لأننى كنت خارجاً
عن طورى :

- تاتيانا بافلوفنا ، أكرر لك . . لا تعذبينى . . انتبهى يا تاتيانا

بأفلوفنا •• فبسبب ما تخفينه عنى قد تقع مصيبة أكبر • لقد كان أمس
فى حالة انبعاث كامل •

- امش يا مهرج ! أنت أيضاً هائم حياً •• الأب والابن مولئهان
بحب امرأة واحدة ! نفو ! انكما لمقرزان !

واختفت • وصفقت الباب وراءها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بنضب
شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذى لا يمكن أن تصل اليه
الا امرأة ، فخرجت راكضاً وقد 'جرح شعورى جرحاً عميقاً • ولكننى
لن أحدثكم عن مشاعرى المضطربة : فقد عاهدتكم على ذلك • لن أحكى
الا الوقائع التى ستضع فى أيديكم الآن مفتاح كل شىء •
وقد انطلقت اليه طبعاً ، فأخبرتني الخادمة مرة أخرى بأنه لم
يرجع • سألتها :

- ولن يرجع ؟

- الله أعلم !

الوقائع ، الوقائع ! ولكن ما الذى سيستطيع أن يفهمه القارىء ؟
أتذكر أننى ، أنا نفسى ، وقد سحقتنى تلك الوقائع ذاتها ، كنت لا أستطيع
أن أفهمها ، فما انتهى النهار الا كان عطفى قد انقلب رأساً على عقب فعلاً !
لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات •

اليكم ما كان يدور عليه قلقي وعذابي : اذا كان قد بُعث بالأمس
بعثاً جديداً فكفَّ عن « حبها » فأين يجب أن يكون اليوم ؟ الجواب :
أولاً ، عندى ، أنا الذى قبّلنى البارحة ، ثم فوراً عند أمى ، التى قبّل
صورتها • ولكنه بدلاً من أن يقوم بهاتين الخطوتين ، غادر البيت عند
« طلوع النهار » ، واختفى لا يدرى أحد أين ، وتقول داريا أونيسيموفنا
انه فى أغلب الظن لن يعود • أكثر من ذلك : ان ليزا تتحدث عن خاتمة
« القصة الأبدية » ، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه ، أحدثُ من هذه
الأخبار أيضاً • وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التى بعثتها اليه كاترين
نيقولايقتنا (لاحظت أنا هذا) ، ولكنهم رغم كل شيء لا يصدقون أنه
« بعث بعثاً جديداً » ، وان كانوا قد أصغوا الى « بانتباه شديد » كانت ماما
مهدّمة تهديماً ، وكانت تاتيانا بافلوفنا تبسم ابتسامة ساخرة حين أنطق
بكلمة « الانبعاث » هذه • معنى ذلك اذن أنه قد وقعت له فى الليل ثورة
أخرى ، وقعت له نوبة أخرى ، بعد كل حماسته وحنانه وتأثره بالأمس !
ومعنى ذلك اذن أن هذا « الانبعاث » كله قد تبدد كفقاعة صابون ! ولعله

الآن يعاني ذلك الاهتياج المسعور نفسه الذى أصابه حين جاءه بأبيورنج !
 فاذا صحَّ هذا فما عسى يحدث لاما ؟ وما عسى يحدث لى أنا ، ولنا جميعاً ..
 وما عسى يحدث لها « هى » خاصة ؟ ما الكيس الذى كانت تعنيه تاتيانا حين
 أمرتنى أن أذهب الى آنا آندريفنا ؟ لابد أن « الكيس » اذن عند
 آنا آندريفنا ؟ ولماذا عند آنا آندريفنا ؟

وهرعت الى آنا آندريفنا طبعاً . كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول
 اننى لن أذهب اليها . ثم 'هرعت الآن . ولكن ما الذى قالته تاتيانا بافلوفنا
 عن الوثيقة ؟ أليس هو الذى قال لى أمس : « احرق الوثيقة » ؟

تلكم كانت خواطبرى . ذلكم ما كان يخفنى . ولكننى كنت فى
 حاجة اليه « هو » خاصة . معه يمكن أن أحل كل شئ فى طرفه عين ،
 يمكن أن أفهم بضع كلمات : آخذ يديه ، وأشد عليهما ، وأجد فى
 قلبى الأقوال الحارة المناسبة . كذلك كنت أحلم . ان فى وسعى أن
 أتصر على جنونه ! .. ولكن أين هو ؟ أين هو ؟ وما كان ينقصنى فى
 مثل تلك اللحظة الا أن ألقى لاميير ، بينما أنا فى مثل ذلك الفوران !
 وكدت أصل الى البيت ، فاذا أنا أقع على لاميير فجأة . فأخذ يطلق صيحات
 فرح اذ رأتى . وتناول يدى .

- هذه هى المرة الثالثة التى أجبىء اليك فيها . « أخيراً » ! هلم بنا
 تنفدى .

- انتظر . أنت آت من بيتى ؟ هل آندره بتروفتش هناك ؟

- لا ، ليس أحد هناك . دعهم جميعاً ! أنت زعلت أمس يا أحرق !
 كنت سكران . هناك حديث جرى بينى وبينك . علمت اليوم أبناء رائمة
 عما كنا نتكلم فيه أمس

فاطمته أقول لها متعجلاً ، صائحاً بعض الصباح برغم ارادتى :

- لامير ، لئن وقفت فانتى لم أفف الا لأقطع صلتى بك قطعاً نهائياً .
وفد فلت لك هذا بالأمس ، غير أنك تصر على أن لا تفهم . لامير ، أنت
صبى وغبى فى أن واحد ، كفرسى . تتخيل دائماً أنك لا تزال عند
توشار واننى لا أزال أحقق كما كنت عند توشار .. ولكننى الآن غير
ما كنت عند توشار . كنت امس سكران ، ولكن سبب سكرى لم يكن
الخمر بل أنى كنت مهتاجاً من قبل أن أشرب . ولئن أيدت ما كنت
تقوله ، فقد كنت أنظاها تظاهراً لأعرف تفكيرك . لقد خدعتك ، فسررت
أنت وصدقتنى واستمرت فى الثروة . اعلم أن زواجى بها حماقة لن
يصدقها تلميذ من تلاميذ الصف الاعدادى فى يوم من الأيام . هل يمكن
أن يتخيل أحد أن أصدق هذا الكلام ؟ لكنك تخيلته أنت ! مرد ذلك الى
أنك لا تستقبل فى المجتمع الراقى ، ولا تعرف ما يجرى فيه . ان
الأمر لا تجرى عندهم بمثل هذه السهولة . ليست الأمور بسيطة هذه
البساطة فى المجتمع العالى . ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجنى .
سأقول لك بوضوح ماذا تريد أنت : تريد أن تجذبنى فتسقينى الى أن
أسكر فأسلمك الوثيقة وأشارك فى مؤامرة حقيرة على كاترين نيقولايفنا !
اعلم اذن أنك مخطىء . لن أجىء اليك أبداً . واعلم أيضاً أن الورقة
ستكون بين يديها غداً أو بعد غد ، لأن تلك الورقة ملك لها ، لأنها هى التى
كتبها ، وأسألمها اليها بنفسى ، فاذا أردت أن تعرف أين سأسألمها اياها
فاعلم أن ذلك سيكون فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ، وبحضور تاتيانا بافلوفنا ،
صديقها ، وأنتى لن أطالب بشيء ثمناً . والآن : الى الأمام ، سر ! والا ،
والا يا لامير ، فسأكون أقل أدباً ...

قلت ذلك وأخذت أرتجف . ان أسوأ عادة لدى كل انسان وأضر
عادة بكل انسان ، فى كل ظرف ، هى أن يصطنع وضع التعاطف . ما كان
أغنائى عن هذا الاندفاع الحار أمامه ! ما كان أغنائى عن هذا الخطاب الذى

كنت أوقع كلماته مترنماً وأرفع صوتي فيه أكثر فأكثر ، ثم أنهيه بذكر تلك النقطة التفصيلية النافلة ، فاقول أني ساسلمها الوتيقة بنفسى فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ؟ لقد احسست فجأة برغبة قوية فى ادعائه واذاله ! فحين تكلمت عن الوتيقة بتلك الفظاظه فرأيت جزءاً غيباً يعتريه بقتة ، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل ! فكانت هذه الثروة المغرورة التى تلاحظ فى النساء سبباً فى وفوع كوارث رهيبة ، لأن هذه النقطة التفصيلية • المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت فى ذهنه الذى هو ذهن انسان حقير ورجل عملى فى الأمور الصغيرة • انه فى الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً ، أما فى هذه التفاصيل الجزئية فانه حاضر البديهة دائماً • فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجنب وتوقع مصائب كثيرة • ومع ذلك فانه بعد أن أصغى الى " بدا كمن فقد صوابه • قال مجتمجماً :

- اسمع • ألفونسين ستغنى • • ألفونسين ذهبت « اليها » • •
اسمع • عندى رسالة ، أو رسالة تقريباً ، تتحدث فيها آخماكوفا عنك •
المجدور هو الذى زودنى بهذه الرسالة • هل تتذكر المجدور ؟ سترى ،
سترى ! هلم بنا !

- كذاب ! أرنى الرسالة !

- هى فى البيت ، عند ألفونسين • هيّا بنا الى البيت !
كان يكذب طبعاً ، كان يهذى ، مخافة أن أفلت منه • لكننى تركته
فجأة فى وسط الشارع ، وحين همّ أن يشعنى ، وقفت أهدّده بأصبعى •
فتردد لحظةً فأتيج لى أن أخفى : لعل خطه أخرى كانت قد نبئت فى
رأسه منذ ذلك الحين • لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة
الى • • اننى حين أتذكر ذلك اليوم الحافل بالشقاء ، يبدو لى دائماً أن تلك
المفاجآت واللقاءات انما كانت على موعد لتتهلّ على غزيرة رهيبة • اننى

ما ان فتحت باب مسكنى حتى اصطدمت فى حجرة المدخل بشاب طويل القامة له وجه يضىو شاحب ، ومشية مهيبة « راقية » ، يرتدى معطفاً رائعاً ، ويزين وجهه بنظارة أنف • كانت له نظارة أنف • ولكنه حين رآنى خلعه (من قبيل المجاملة الأنيقة) ، وقال لى وهو يتسسم ابتسامة رقيقة و'ينهض قبته الطويلة بأدب وتهذيب ، ولكن دون أن يقف : « آ ••• مساء الخير ! » (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلم • لقد عرف كل منا الآخر على الفور ، رغم أننى لم أراه الا مرة واحدة سريعة بموسكو • انه أخو آنا آندريفنا ، الحاحب بالبلاط ، الشاب فرسيلوف ، ابن فرسيلوف ، أى أخى تقريباً ، وكالت المؤجرة تصحبه مشيعة (لم يكن زوجها قد عاد من المكتب بعد) • فلما انصرف هجمت أسألها :

– ماذا يعمل هنا ؟ هل كان فى غرفتى ؟

– لا ، لم يكن فى غرفتك • جاء يزورنى أنا •••

كذلك أجايتى بلهجة قاطعة خشنة وهى تدير ظهرها • فهتفت أقول صارخاً :

– لا ، لن يمر الأمر هكذا • أجبى من فضلك ماذا جاء يعمل

هنا ؟

– أوه ! هل من واجبى أن أحكى لك لماذا يجىء الناس ؟ أظن أن من حقنا ، نحن أيضاً ، أن تكون لنا شئون خاصة • لعل هذا الشاب جاء يقترض مالاً ، أو جاء يسألنى عن عنوان ، أو لعلنى وعده فى المرة السابقة أن •••

– فى المرة السابقة ؟

– آ ••• طبعاً ! فى المرة السابقة • انه لم يجىء اليوم أول مرة ! وانصرفت • أدركت أن اللهجة فى البيت تغيرت : أخذوا يغلفون لى

القول ! هذا سر جديد ! الاسرار تتراكم عند كل خطوة ، فى كل ساعة !
فى المرة الاولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته ، أنا اندريفنا ، حينما كنت
مريضاً . تذكرت هذا تذكراً واضحاً . وتذكرت كذلك جملةً قصيرة
مدهشة أفلتت أمس من أنا آندريفنا : وهى أن الأمير العجوز سيقف
عندى . ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أننى لم أستطع أن أفهم
شيئاً . فرأيتنى ألطم جبينى ، وأهرع الى بيت أنا آندريفنا حتى دون
أن أجلس لأستريح . ولم أجد أنا آندريفنا فى بيتها ، لكن البواب
السويسرى أجبني بأنها « سافرت الى تسارسكوييا ، وأنها لن ترجع الا غداً
فى مثل هذه الساعة تقريباً » .

— سافرت الى تسارسكوييا ! ذهبت الى الأمير العجوز حتماً ، وذهب
أخوها الى مسكنى يفتشه ! لا ، هذا مستحيل !

وصررت بأسنانى قائلاً : « اذا كان هناك تهديد حقاً ، فسوف أذافع
عن « المرأة المسكينة » ! »

ومن بيت أنا آندريفنا لم أرجع الى بيتى ، لأن رأسى الملتهب قد
انبجست فيه ، على حين فجأة ، ذكرى المطعم الذى يقع تحت مستوى
الأرض ، والذى اعتاد آندره بتروفتش أن يذهب اليه فى ساعات حزنه .
فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً ، وهرعت الى المطعم فوراً . كانت
الساعة قد تجاوزت الثالثة ، وكان المساء يهبط . قيل لى فى المطعم انه
جاء ، « فلبث لحظة » ثم انصرف ، وقد يعود . فقررت فجأة ، بكل
ما أملك من طاقة ، أن أنتظره ، فأمرت لنفسى بغداء . هناك أمل
على الأقل !

وتغذيت بل ظلت أكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لى البقاء أطول
مدة . أظن أننى مكثت زهاء أربع ساعات . لا أصف حزنى ، وتلهفى

المحموم • لقد كان كل شيء فى يهتز ويرتعش • ان هذا الأرغن البربارى ، وهؤلاء الشارين ، وهذا الضجر ، ان هذا كله قد نُقش فى نفسى ، ولعله نُقش فيها الى الأبد ! لا ولا أصف الأفكار التى كانت تملو فى رأسى كغمامة من أوراق أشجار يابسة فى فصل الخريف بعد اعصار • كان فى رأسى شيء من هذا القيل حقاً ، وكنت فى بعض اللحظات أحس بأن عقلى قد بارحنى فعلاً • أعترف بهذا •

غير أن ما كان يعذبنى خاصة (عدا عذابى الرئيسى طبعاً) انما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً فى يوم من الأيام • • كانت هذه الذكرى كذبابة سامة من ذباب الخريف تدور ، وتتر ، وتصمت ، وتحاصر ، ثم تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة • فاليكم حكاية هذه الذكرى ، لأنها ، هى أيضاً ، يجب أن تُروى فى موضع ما من هذه القصة •

٤

حينما كنت بموسكو فقرر أن أسافر الى بطرسبرج ، أبلغني
 يقولون سيمونوفتش أن هناك مالا سيصلني من بطرسبرج نفقات للسفر
 لم أسأل من الذي سيرسل اليّ المال ، اذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذي
 سيرسله . وكنت في ذلك الحين أحلم بلقائي مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً ،
 خافق القلب طموح المشاريح ، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث في
 هذا الأمر حتى الى ماريا ايفانوفنا . يجب أن أذكر من جهة أخرى أنني
 كنت أملك مالا أنفقه على الرحلة . ولكنني قررت رغم كل شيء أن
 أنتظر ! وكنت أقدر أن المال سيصلني بالبريد .

ولكن ها هو ذا يقولون سيمونوفتش يعود الى البيت ذات يوم فيبلغني
 (باختصار ، على عادته ، وبدون الحاح) أن عليّ أن أذهب غداً الى بيت
 الأمير ف . . . سكي بشارع مياستسكايا ، في الساعة الحادية عشرة من
 الصباح ، فهناك سيسلمني حاجب البلاط ، فرسيلوف ، ابن آندره بتروفتش ،
 الذي وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه في المدرسة الثانوية ، الأمير
 ف . . . سكي ، هناك سيسلمني المبلغ المرسل اليّ نفقات للرحلة . بدت
 لي المسألة بسيطة غاية البساطة : فمن الجائز جداً أن يكون آندره بتروفتش
 قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلاً من ارسال المبلغ بالبريد . ومع ذلك
 فإن هذا النبأ قد أمسك بخناقى وأخافني اخافة غير طبيعية . لاشك في أن

فرسيلوف قد أراد أن يعرفنى بابنه ، الذى هو أختى • كذلك تصورت نيات الرجل الذى كنت أحلم به ، وتصورت عواطفه • ولكن سؤالاً ضخماً قد انتصب أمامى : كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف فى هذا اللقاء الذى لم أتوقعه البتة ، وهلاًّ يجرح هذا اللقاء كرامتى ؟

وفى الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد ، دخلت بيت الأمير فـ • • • • • سكى • هو شقة عازب • ولكنه بدا لى فاخر الأثاث • وكان فيه خدم بالملابس الرسمية • وقفت فى حجرة المدخل • فكانت تصل الى من الداخل اصوات حديث حار وضحكات • ان لدى الامير فـ • • • • • سكى ضيوفا آخرين غير حاجب البلاط • ذكرت للخدام اسمى وطلبت منه أن يبلغ عن وصولى • وأغلب الظن أنى فعلت ذلك بشئ من الحياء • المهم أنى لاحظت أن الخادم حين انصرف عنى قد نظر الى نظرة غريبة ، بل انه لم يولنى حقى من الاحترام فيما بدا لى • وما كان أشد دهشتى حين رأيته ينيب مدة طويلة ، زهاء خمس دقائق ، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها !

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال ، لأننى ، وأنا « سيد مثله » ، لا يليق بى بل يستحيل على أن أجلس فى حجرة المدخل التى يربط فيها الخدم • وجهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسى ، بدون دعوة خاصة ، فأدخل الصالون ، فذلك لا يتفق وكبريائى • لعلها كانت كبرياء مغالية ، ولكن هذا ما كان ! وقد أدهشنى أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمعون لأنفسهم أن يجلسوا بحضورى • فأشجعت عنهم متظاهراً بأننى لم أر ذلك منهم ، ولكن أخذ جسمى كله يرتجف • ثم التفت فجأة ، ودنوت من أحد الخادمين « فأمرته » بأن يمضى يبلغ عنى مرةً أخرى على الفور • ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتى وشدة احتياجى ، نظر الى فى كسل دون أن ينهض ، وأجابنى الآخر نيابة عنه :

- تم الابلاغ عن وصولك • اطمئن !

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة ، واحدة فقط ، أو أقل من ذلك ، ثم « أنصرف » • لقد كانت ثيابي حسنة : فبدلتى جديدة ، ومطفي جديد ، وقبصى نضر كل النظارة عنت به ماريا ايفانوفنا عناية خاصة لهذا اللقاء • ولكن الخدم ، كما علمت بعد مدة طويلة ، ببطرسبرج ، من « مصدر موقوف به » ، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف ، أنه سيجي الى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً • الآن أعرف هذا معرفة اليقين •

انقضت الدقيقة • ان ذلك الاحساس الذى يحسه المرء حين يريد أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك : « أمضى أم لا ؟ أنصرف أم لا ؟ » ، كنت أحسه فى كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش • وفجأة رجع الخادم الذى ذهب يبلغ عن وصولي • كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء ، أى أربعين روبلاً • فقال لى :

- خذ • اليك هذه الأربعين روبلاً !

غلى دمي وفار • يالها من اهانة ! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذى هبأه فرسيلوف للأخوين ، لبثت أحلم به طوال الليل • وطوال الليل ظلمت أنساءل محموماً : كيف يجب أن يكون سلوكي حتى لا أخفض قدر نفسي ، وحتى لا أسى الى ذلك الصرح كله من الأفكار الذى ينبت فيه فى عزلى وأستطيع أن أعتر وأن أفخر به فى أية بيثة • كنت أقول لنفسى : سأظهر نبلاً ، وكبرياء ، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً ، بل قد أظهر قدراً من الحشونة والجفوة حتى فى صجة الأمير ف • • • سكى ، فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً • آه • • • لا أحب أن أدارى نفسي ، فعلى هذا النحو انما يجب أن 'تسجل' هذه التفاصيل الأليمة كلها ! وفجأة : أربعون روبلاً ، 'ترسل الى' مع خادم ، الى حجرة المدخل ، بعد

انتظار دام عشر دقائق ، ويقدمها الى الخادم رأساً ، يده ، بأصابعه ،
لا موضوعة على صحن ، ولا مودعة في ظرف ! ...

صرخت في وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع
القهقري ، وأمرته بأن يعيد المال الى سيده حالاً ، ليحمله سيده الى
بنفسه ! ، أى اننى طلبت طلباً لاشك أنه كان في نظر الخادم غير معقول
ولا مفهوم . ولكن صراخى قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر . هذا
عدا أن صرخاتى 'سمعت في الصالون ، فسرعان ما توقفت أصوات
الأحاديث والضحك فوراً .

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة ، ثم اذا أنا أرى
قائمة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لى يومئذ أشد شحوباً
ونحولاً منه فى هذا اللقاء الثانى) تظهر فى العتبة أو قل تقف على مسافة
بضعة سنتيمترات من العتبة . كان يرتدى ثوباً للمنزل رائئاً مصنوعاً من
حرير أحمر ، وينتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف . وها هو ذا
يتفرس فى من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة ، فتقدمت منه
خطوة ، كوحش كاسر ، ووقفت أمامه متحدياً ، أحدى اليه بنظرة
ثابتة . ولكنه لم يتأملنى هذا التأمل الا برهة قصيرة لا تزيد على عشر
ثوان ، ثم اذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفتيه ، ولكنها
مع ذلك سخرية جارحة جداً ، جارحة لأنها لا تكاد تُرى . ثم ها هو ذا
يدور على كعبيه ، ثم يرجع الى حيث كان ، دون تعجل ، بل بهدوء
ورفق وخطى موزونة كما جاء . آه من هؤلاء الوصحين الذين يتعلمون
اهانة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرتهن ، من أمهاتهن ! وقد فقدت حضور
يديهن طبعاً . آه ... لماذا فقدتها ؟

وفى تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً يديه
تلك الورقات نفسها ، وقال :

- تفضل بقبولها • انها مرسله من بطرسبرج • لا يمكن استقبالك •
 « ربما استقبالك • السيد » في مرة أخرى ، حين يكون لديه متسع من
 الوقت أكبر » •

أحسست أن الكلمات الأخيرة قد أضافها هو • ولكن اضطرابي
 استمر في اضعاف نفسي • فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب •
 فبسبب ذلك الاضطراب انما أخذت المال ، وكان ينبغي في الواقع أن
 أرفضه • ولم يفت الحادم ، من أجل اهانتى طبعاً ، أن يفضب غضبة جديدة
 بخادم حقاً فأسرع يفتح الباب أمامي واسعاً ، حتى اذا مررت قال بوقار
 ولهجة خاصة :

- تفضل !

فزأرت أقول وأنا أرفع يدي ولكن دون أن أهوى بها :
 - أنت وغد • وسيدك وغد آخر ، فقل له هذا فوراً •
 أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلم مسرعاً •

- لا يحق لك ! ولو نقلت كلامك الى « السيد » فوراً ، لاستطاع
 « السيد » أن يرسلك الى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه • أما تهديدي
 أنا ، فلا يحق لك ...

هبطت السلم • انه سلم مترف عريض مكشوف • فيمكن أن أرى
 من أعلى نازلاً على السجادة الحمراء • فكان الحدم الثلاثة قد خرجوا
 واتكؤوا بأكواعهم على قمة الدريزين ينظرون الى انسحابي • وقد قررت
 أن ألزم الصمت طبعاً : كيف أشاجر خدماً ؟ ووصلت الى تحت ، دون أن
 أنعجل الخطى ، وانما أتمد البطء فيما أظن •

رب حكماء (شيطان يأخذهم !) يقولون ان هذا كله حساسية لا داعي

اليها ، وتأذ في غير محله ، وحق لا يصدر الا عن أغرار ! قد يكون هذا الكلام صحيحاً . غير أن الأمر كان بالنسبة الى جرحاً عميقاً ، جرحاً لم يمكن ان يندمل حتى الآن ، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء ، بل انتقم لكل شيء . يميناً يميناً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق الى الانتقام . صحيح أنني أشتبه دائماً ، الى حد التألم ، أن أنتقم ممن ينالني باهانة . ولكنني أحلف لكم أنني بالسماحة أنتقم . أنني أرد على الاهانة ردّاً فيه سماحة ، فيكفيني أن يشعر المسيء وأن يدرك أنني كنت سمحاً كريماً ، حتى أحس أنني انتقمته منه . يجب أن أضيف في هذه المناسبة أنني لا أتحرق الى الانتقام ، ولكنني حقود وان أكن سمحاً كريماً : هل يشبهني في هذا جميع الناس ؟ لقد وصلت الى بيت الأمير ف . . سكي فيّاض النفس بعواطف كريمة . . قد تكون عواطف مضحكة . . لا مانع . . ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة ، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءة ووضاعة !

لم أحدث أحداً عن هذا اللقاء الذي تمّ بيني وبين « أخى » ، ولم أكشف به حتى ماريا ايفانوفنا ، ولم أبع بسرّ حتى ليزا حين جثت الى بطرسبرج . كان ذلك اللقاء بمثابة صفة أليمة جللتني بالخزي والعار . ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة ! وها هو ذا يتسّم لي ، ويرفع قبعة احتراماً ، وينزع حتى نظارته تودداً ، ويقول لي فجأة بلهجة فيها صداقة : « مساء الخير » (بالفرنسية) . ان هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً . . . ولكن الجرح انتكأ ونزف !

بعد الانتظار فى المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتني كمن أصابته نوبة على حين فجأة ، فاذا أنا أخرج واتجه مسرعاً الى بيت فرسيلوف . انه لم يرجع الى البيت . وكانت الخادمة سأمارة ، فرجتني أن أرسل اليها داريا أوئيسيموفنا بسرعة . هه ! هذا ما كان يشغل بالي ! وذهبت الى بيت ماما أيضاً ، ولكنني لم أدخل ، وانما استدعيت لوكيريا الى البهلينز ، فعلمت منها أنه لم يجيء ، وأن ليزا غابت . ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألني أيضاً ، بل لعلها ودّت لو تعهد اليّ بمهمة ، ولكن هل كان يمكنني أن أصغى اليها ؟ هناك أمل أخير : لعله ذهب الى بيتي . ولكنني لم أصدّق أن يكون قد ذهب الى بيتي !

سبق أن قلت ان عقلى كان اضطرب واحتل تقريباً . وهأنذا أجد في غرفتي : آلفونسين والمؤجر . بل قل انني وجدتتهما يخرجان من غرفتي . وكان بطرس هيبوليتوفتش يحمل شمعة .

صرخت أقول له :

- ما هذا ؟ كيف تجاسرت أن تدخل الى غرفتي هذه التافهة ؟

فهمت آلفونسين تقول بالفرنسية :

- « غريب ... والأصدقاء ؟ » ،

فزأرت قائلاً :

• - اخرجى من هنا •

• - « دب حقاً » •

وفرت الى المرر متظاهرةً بالخوف ، واختفت فى غرفة صاحبه البيت • واقترب منى بطرس هيوليتوفتش بهيئة قاسية وهو يحمل شمعدانه :

- اسمح لى أن ألفت نظرك يا آركادى ماكاروفتش الى أنك قد أسرفت فى الاندفاع • ومهما يكن احترامنا لك ، فأننا لا يسعنا الا أن نذكرك بأن مدموازيل آلفومسين لا توصف بالتافهة • بالعكس ! انها لم تجيء لتزورك أنت بل لتزور زوجتى • لقد تعارفنا منذ بعض الوقت • فكررت سؤالى وأنا أمسك رأسى الذى أصابه ما يشبه الصداع فجأة :

- ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتى ؟

- مصادفة ! • • دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التى كنت قد فتحتها لتهوية الغرفة ، واذا كنا مستمرين فى الحديث الذى بدأناه أنا وآلفومسين كارلوفنا ، فقد دخلت الغرفة معى متابعةً كلامها ، دون أن تشعر •

- هذا كذب • آلفومسين جاسوسة • ولامبير جاسوس • وربما كنت أنت أيضاً جاسوساً • لقد جاءت لتسرق شيئاً •

- قل ما شئت • اليوم تقول شيئاً ، وغدا تقول شيئاً آخر • أريد أن أبلغك أنتى أجرت مسكنى الشخصى ، أجرتة الى حين ، وسنقيم أنا وامراتى فى حجرة المكتب • ويترتب على هذا أن آلفومسين كارلوفنا هى الآن من سكان البيت تقريباً ، مثلك •

هتفت أسأله مرتاعاً :

- أجرت مسكنك للامير ؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التي لاحت في وجهه عند الصباح
ولكن فيها الآن ثباتاً لم يكن لها حينذاك ، وقال :

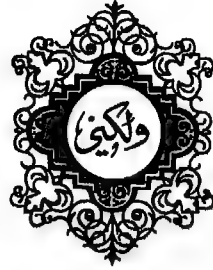
- لا ، لم أؤجره للامير • أظن أنك تعرف لمن أجرته ، وانما أنت
تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلياً ! واذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل •
ليلتك سعيدة •

- نعم ، نعم ، دعنى هادئاً •

وحرّكت يديّ متململاً ، وكدت أبكى من شدة ضيقى ، فلم
يسعه الا أن يدهش وهو ينظر الى • ولكنه خرج • فدفعت المزلاج ،
وتهالكت على سريري ، ودفنت وجهي في الوسادة • كذلك انقضى ذلك
اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشؤمة التي تختم مذكراتي •

الفصل العاشر

١



سأستبق الأحداث مرةً أخرى • انى أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات ، لأن المجرى الأساسى لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن القارىء يمكن ان يتوه ما لم 'يزود' ببعض الايضاحات سلفاً • ما ذلك « الكيس » الذى أشارت اليه تاتيانا بافلوفنا ؟ ان أنا آندريفنا قد رأيت أخيراً أن تقدم على خطوة هى أجراً خطوة يمكن تصورها فى هذا الوضع • امرأة جسر حقاً ! لقد نقل الأمير العجوز ، بخنجة المرض ، الى تسارسكوي سيلو ؟ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزامه الزواج بأننا آندريفنا لم يتح له أن يذيع فى المجتمع وانما اختنق فى مهده ان صح التعبير • ولكن الشيخ الضعيف الذى يمكن للمرء أن يفعل به كل شيء ، ما كان له ، رغم ذلك ، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون أنا آندريفنا التى طلبت أن يتزوجها • لقد كان من هذه الناحية فارساً • وفى وسعه ، عاجلاً أو آجلاً ، أن ينهض فجأة ، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل الى السيطرة عليها ، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة فى أحيان كثيرة ، لأن ثمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم الى ما وراءها • ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماماً الادراك أن وضع أنا آندريفنا التى يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج ، كما يدرك أيضاً أن هناك نعمائم يمكن أن تذاع ، وسخریات يمكن أن تطلق ، وشائعات أن تروج • والشئ

الذى كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كانزين نيقولايفنا لم تسمح لنفسها
أبدأ ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ، أن تقول أمامه أى رأى سىء فى
آنا أندريفنا ، ولا أن تبدى أى اعتراض على اعتزامه الزواج بها .
بالعكس : كانت تبدى فرحاً كبيراً ، وكانت تحيط خطيبة أبيها باكبر
الرعاية وأعظم الاهتمام . وهكذا كانت آنا أندريفنا فى موقف دقيق غاية
الدقة ، فهى بما تملكه من رفاة الحس ، تدرك أنها اذا قامت
بأى هجوم على كاترين نيقولايفنا التى يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً ،
ويحبها اليوم أكثر مما أحبها فى أى يوم ، لاسيما وأنها سمحت له بالزواج
مبرهنة على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام ، فانها ستجرح أرق
مشاعرها ، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها . على هذا الميدان اذن انما
كان يقوم القتال الآن : فالخصمان - أى آنا أندريفنا و كاترين نيقولايفنا -
انما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر . والأمير ، من جهته ، لا يدرى
أى المرأتين أروع من الأخرى وأدعى الى الاعجاب ! وعلى عادة جميع
الرجال الضعاف ، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة ، انتهى به الأمر الى
التألم واتهام نفسه بكل شىء . ويقال ان كآبته قد وصلت الى حد المرض ،
وان أعصابه تهدمت ، فبدلاً من أن يجد فى تسارسكوي الشفاء ، أو شك
أن يلزم فيها الفراش فيما قيل .

أحب أن أشير هنا ، مستطرداً ، الى شىء لم أعلم به الا بعد مدة
طويلة ، هو أن بيورنج ، فيما يقال ، قد اقترح على كاترين نيقولايفنا أن
يقنّادا العجوز الى الخارج ، بعد أن يهشاه لذلك بحيلة من الحيل ، ثم يكون
من السهل عليهما هناك ، فى الخارج ، أن يحصلا على شهادة من أطباء .
ولكن هذا ما لا تقبله كاترين نيقولايفنا بحال من الأحوال . أو ذلك ما قيل
فيما بعد ، حتى ليقال انها رفضت الاقتراح مستاءة . وتلك شائعة بعيد
عهدا ، لكننى أصدّقها .

فلما صارت القضية الى هذا الطريق المسدود ، علمت آنا آندريفنا من لامير ان هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن أن تعتمد اليها لاعلان أن أباه مجنون . فاذا بروحها المتكبرة الانتقامية تحتاج أشد الاحتياج على حين فجأة . وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث ، وقرّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرك شك في أن هذا النبأ صحيح . فاذا بخطة للمهجوم تنضج في قلبها ، قلب المرأة الصلبة التي لا تلين ، واذا هي تجدد نفسها مدفوعة الى تنفيذ هذه الخطة دفعا لا سبيل الى مقاومته . وكانت الخطة هي أن تكشف للأمير فجأة، بدون مداراة ومراعاة ، وبدون لف ودوران عن القصة كلها ، فرعبه وتهزه هزاً قوياً ، وتبين له أن مستشفى المجانين ينتظره حتماً . فاذا عند واستاء ورفض أن يصدّق ، كشفت له عن قصة رسالة ابنته قائلة له : « ان نية اعلان أنك مجنون قد سبق أن وجدت في الماضي ، فكيف لا توجد الآن من باب أولى لمنعك من الزواج ! » . وبعد ذلك تنقل الشيخ العجوز الى بطرسبرج مروّعاً مهدّماً مقتولاً ، وتجيء به الى « بيتي أنا رأساً » .

هذه مجازفة رهيبة . ولكن آنا آندريفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً ثابتاً لا يتزعزع . ويجب أن أقول هنا ، مبتعداً عن الموضوع للحظة ، ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً ، ان ظنها لم يخطيء كثيراً فيما يتعلق بقوة هذه الضربة . فان هذا النبأ كان له من التأثير في الأمير الشيخ أكثر مما تصورت هي وتصورنا نحن أن يكون له من تأثير . ولم أكن علمت أبداً الى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامي الى سماعه شيء عن تلك الوثيقة ، ولكنه ، على ما هو مهود في جميع الرجال الضعاف الهيايين ، لم يصدّق تلك الشائعة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة ، حفاظاً على هدوئه وطمأنينته . ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في

كأثرين يقولاننا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك ! ... الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأنًا مما كنت أظن أنا الذي كنت أحملها مخبئة في جيبى . ولكننى أرى أننى أسرف فى استباق الأحداث .

رب سائل يسأل : ولكن لماذا تجيء به الى بيتى رأساً ؟ لماذا تنقل الأمير الى غرفنا البائسة فترعبه فى هذا الجو التيس ؟ اذا كان نقله الى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن 'يحبط المشروع كله هناك ') ، فلماذا لا تهيم له مسكناً « ثرياً » كما كان يقترح لامير ؟ هنا تكمن كل معجزة الخطوة الحارقة التى قامت بها آنا آندريفنا !

كان الأمر الأساسى هو أن تطلع الأمير على الوثيقة منذ يصل . وكنت أنا لا أسلم الوثيقة بحال من الأحوال . ولأن على آنا آندريفنا ألا تضع شيئاً من الوقت ، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً ، فقد قررت أن تشرع فى تنفيذ الحطة قبل أن تملك الوثيقة ، على أن تجيء بالأمير الى بيتى رأساً . لماذا ؟ لكى تنقص على آنا أيضاً ، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل . كانت تريد أن تمعد الى أسلوب الصدمة والهزة والمباغثة معى أنا أيضاً . كانت تقدّر أننى متى رأيت الشيخ فى بيتى ، ورأيت ارتياحه وحزنه ، وسمعت رجاءه ورجاءها ، فقد أسلم فأظهر الوثيقة . يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقاً وذكياً ، وكان يقوم على معرفة بالنفس الانسانية ، واذا لم يكن قد نجح فقد أوشك . أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان بحلفها ، وأعلنت له أنها ستمضى به الى « بيتى أنا » . ذلك كله قد عرفته فيما بعد . ان مجرد ابلاغه أن الوثيقة عندى قد أزال من قلبه الوجع آخر شكوكه فى صحة الواقعة : فالى هذا الحد كان يحبنى ويحترمنى !

يجب أن أذكر أيضاً أن آنا آندريفنا نفسها لم تشك لحظة واحدة

فى أن الوثيقة لا تزال عندى ، وأننى لم أتخلص منها بعد • والحق أنها قد أسأت فهم طبيعى ، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتى وبراءتى وبساطتى ، وحتى على فرط حساسيتى ، وقد قدرت من جهة أخرى أننى اذا قررت أن أسلم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا متلاً ، فلا بد أن يكون هذا التسليم فى ظروف خاصة ، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها ، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة •

نم أن لامبير قد طمأنها عن هذا كله • سبق أن قلت ان وضع لامبير كان فى ذلك الحين حرجاً غاية الحرج ، دقيقاً أشد الدقة : لقد كان ، هو الخائن ، يريد أن يصرفنى عن آنا آندريفنا ، ويحملنى على بيع الوثيقة لأخماكوف بالاتفاق معه ، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر • لكنه وقد لاحظ أننى ظللت أرفض الى آخر لحظة أن أسلم شيئاً بحال من الأحوال ، قرر أن يساعد حتى آنا آندريفنا من أجل ألا يفقد أى ربح • لذلك أخذ يستमित فى تقديم خدماته لها ، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم ••• ولكن آنا آندريفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار ، ورجته أن يخفف من قوة حماسه ونشاطه • كان لامبير يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً ، ولا يوقظ فى نفسها الا اشمئزازاً وتقززاً • لكنها قبلت خدماته على سبيل الحكمة والروية والحذر • وكانت هذه الخدمات هى أن يتجسس لها مثلاً ! يجب أن أقول فى هذه المناسبة اننى لا أدرى حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بطرس هيبوليتوفتش أم لا ، وهل قبض منهم أى شىء ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطة من باب حب المغامرة • ولكنه كان يتجسس على • أما امرأته فانا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس •

سيدرك القارىء الآن أننى ، رغم تحسبى قليلاً ، لم يكن فى وسعى أن أحزر أنى سأجد الأمير المعجوز فى بيتى غداً أو بعد غد • اننى ما كان

لى أن افترض لى أنا آندريفنا جساره كهذه الجساره ! ان المرء يستطيع
أن يقول بالكلام ما يريد ، وأن يشير بالكلام الى أى شىء • أما أن يقرر ،
ويشرع ، وينفذ ••• فهذا يحتاج الى طبع خاص وشكيمة قوية !

أتابع :

استيقظت فى الغداة ضحى • لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام • فلما
أفقت أحسست براحة كبيرة فى لجسمى ونفسى على السواء ، حتى لكأن
الأس لم يوجد • قررت ألا أذهب الى بيت ماما ، وانما أمضى الى كنيسة
المقبرة رأساً • حتى اذا انتهت الجنائز رجعت الى أمى فلم أتركها النهار
كله • وكنت واثقاً ثقة تامة بأننى سألقاه عند ماما على كل حال ، فى ساعة
متقدمة أو فى ساعة متأخرة من النهار ، ولكننى سألقاه •

لم يكن فى البيت لا آلفونسين ولا المؤجر • لقد خرجا منذ وقت غير
قصير • ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر ، وكنت قد قررت على كل حال
أن أقطع جميع صلاتى بهم ، وأن أترك هذا البيت فى أقرب وقت • لذلك
ما ان أنيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسى الباب • ولكن الباب لم يلبث
أن قرع • فدهشت • وكان القارع تريشاروف •

فتحت له فوراً ، ودعوته أن يدخل وسرنى أن أراه • ولكنه
رفض أن يدخل وقال :

— كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على التبة ••• أم الأفضل أن
أدخل ؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً • ولكننى لن أجلس •
أراك تنظر الى معطى الردى • لقد استرد لامير منى المعطف •

كان يرتدى معطفاً عتيقاً بالياً طويلاً على فامته فعلاً • وقد وقف أمامي متسماً ، متجهماً الوجه مهموماً ، واضعاً يديه في جيبيه ، دون أن يخلع قبعته :

- لن أجلس ! لن أجلس ! اسمع يا دولجوروكى ! لا أعرف تفاصيل • لكننى أعرف أن لاميير يدبر لك مكيدة ، وهذه المكيدة قريبة نوشك أن تتم حتماً • أعلم هذا علم اليقين • فكن يقظاً • ان المجدور هو الذى زلّ لسانه فألغى الى هذا الأمر • هل تتذكر المجدور ؟ انه لم يذكر لى نوع المكيدة ، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت • أنا لم أجيء اليك الا لأبئك • الى اللقاء !

- ولكن هلاًّ جلست يا عزيزى تريشاتوف ؟ صحيح أننى على عجلة من أمرى ، ولكن يسعدنى أن أراك •••

- لا ، لا ، لن أجلس • ولكننى سأذكر طول حياتى أنك أحسنت استقبالى • آه يا دولجوروكى ؟ لماذا خداع الناس ؟ انى قد ارتضيت لنفسى عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات ، وأن أقوم بأعمال تبلغ من الدنائة أننى أستحى أن أسميها لك • نحن الآن نعمل مع المجدور ••• استودعك الله ••• اننى لا أستحق أن أجلس عندك •

- كفى يا تريشاتوف ، يا عزيزى ••

- لا يا دولجوروكى ••• أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة ، وسألهو بعد ذلك وأقصف • وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفى السابق أيضاً ••• وسأمضى أثنزه راكباً عربية • ولكننى سأظل أعرف بينى وبين نفسى أننى خجلت أن أجلس عندك لاعتقادى بأننى لا أستحق ذلك ، وبأننى أمامك دنىء سافل • سوف آحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل ، حين أمضى أتبدل فى القصف واللغو بحقارة ونذالة • استودعك الله •

هياً • استودعك الله • لن أناولك يدى أيضاً • ان آلفونسين لا ترضى
أن تصافحنى • وأرجوك ألا تسعى الى ، وألا تحاول رؤيتى • هذا
شرط بيننا •

واستدار الفتى العجيب على كعبه ومضى • ليس يتسع وقتى الآن
للبحث عنه ، ولكننى قطعت على نفسى عهداً لأكتشفن مكانه بأقصى سرعة
مهما كلف الأمر ، متى فرغت من تدبير أمورى وحل مشاكلى •

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً ، رغم أن هناك ذكريات كثيرة
ينبغى حفظها • لم يجرى فرسيلوف الى الكنيسة • حتى لقد كان يمكن
للمرء أن يستنتج من النظر الى وجوههم أنهم كانوا ، حتى قبل حمل
الجنين ، لا يتوقعون أن يجرى الى الكنيسة • وقد صلت أُمى بحرارة ،
بل كانت غارقة فى صلاتها غرقاً كاملاً • ولم يكن أحد بجانب الجنين
الا تاتيانا بافلوفنا وليزا • لكننى لا أصف ، لا أصف شيئاً • بعد الدفن ،
عاد الجميع الى البيت ، وجلسوا الى المائدة • فاستتجت مرة أخرى من
النظر الى وجوههم أنهم كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً • حتى اذا نهضنا ،
اقتربت من ماما ، وقبّلناها بحرارة ، وتمنيت لها عيداً سعيداً ؟ واقتدت بى
ليزا ، ففعلت مثلى •

وهمست تقول خفية :

- اسمع يا أخى ، انهن ينتظرنه •
- أدركت هذا يا ليزا ، رأيته •
- سيأتى حتماً •

قلت لنفسى : لابد أن لديهن معلومات دقيقة • لكننى لم أسأل •
رغم اننى لا أصف عواطفى ، يجب أن أذكر أن هذا اللفر قد جثم ثقيلًا
على قلبى ، رغم كل ما كنت فيه من حسن المزاج • جلسنا جميعاً فى

الصالون ، الى المائدة المستديرة ، حول ماما • آه • ما كان أعظم سعادتي بوجودي معها ونظري اليها ! وطلبت مني ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الانجيل • فقرأت لها اصحاحاً من انجيل القديس لوقا • لم تكن تبكي ، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن ، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم • وكانت تسطح في نظرتها اللطيفة فكرة ، ولكن لم يكن في هذه النظرة أى شيء من نفاد الصبر في انتظار أمر من الأمور • وجرت الأحاديث ثرة لا ينضب لها معين • قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى • وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها الى ذلك الحين كل الجهل • فلو سجلت مادار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً • حتى تاتيانا بافلوفنا تغيرت حالها : فهي الآن رقيقة جداً ، ملاطفة جداً ، بل هي هادئة جداً ، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلي ماما • لكن هناك أمراً تفصيلياً أتذكره تذكراً واضحاً : كانت ماما جالسة على الديوان ، وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورة يبدو أنها وضعت هنالك عمداً ، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن ، تمثل قديسين فوق رأسيهما هالتان • ان هذه الأيقونة كانت لماكار ايفانوفتش : كنت أعلم ذلك ، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لايفارقها أبداً وكان يعدها ذات معجزات •

نظرت تاتيانا بافلوفنا الى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهي تغيرٌ موضوع الحديث :

— اسمعي يا صونيا ، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندة الى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة ؟

قالت :

— بل هي على هذا الوضع أحسن •

— حقاً • والا كنا نسرف في الاحتفال •••

لم أفهم حيثذ شيئاً ، ولكن واقع الأمر أن ماكارا يفانوفتش قد أعلن جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندره بتروفتش هذه الصورة ، فكانت ماما تستعد لتسليمها اليه •

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل • وطال الحديث • فإذا أنا ألاحظ في وجهه ماما نوعاً من الارتعاش ، وإذا هي تصب جذعها بسرعة وتصيح بسمعها على حين كانت تاتيانا بأفلوفنا مستمرة في كلامها لم تلاحظ شيئاً • فأسرعت التفت الى جهة الباب ، فما انقضت لحظة حتى رأيت آندره بتروفتش في العتبة • انه لم يسلك طريق درج المدخل ، وإنما جاء من جهة سلم الخدم ، فمر بالمطبخ فالدهليز ، وكانت أمي وحدها هي التي سمعت وقع خطاه • سأصف الآن كل مشهد الجنون الذي أعقب ذلك ، حركة حركة ، وكلمة كلمة •

في البداية ، لم ألاحظ على وجهه ، من أول نظرة على الأقل ، أى تغير • كان هندامه هو هندامه المألوف ، أى هنداماً اقرب الى الأنافة • وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة ، باقة صغيرة لكنها ثمينة • وقد اقترب من ماما ومد اليها الباقة مبتسماً فنظرت اليه ماما بدهشة وجلة ، لكنها قبلت الباقة ، ثم اذا بحمرة تتعش خديها الشاحين فجأة ، واذا بفرح يسطع في عينيها •

قال :

— كنت أعرف أنك ستستقبلينى هذا الاستقبال يا صونيا •

واذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة ، فجلس على المقعد الذى كانت تجلس عليه ليزا ، والذى يقع على يسار ماما ، دون أن ينتبه الى أنه يأخذ مكان شخص آخر • وهكذا كان موقعه بجانب المنضدة التي كانت عليها الأيقونة •

- سلام على الجميع • يا صونيا ، لقد أصرت اصراراً مطلقاً على أن أحمل اليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك • ولئن لم أجيء الى الجنائز ، فلكى لا أظهر أمام ميت بباقة أزهار • لكننى أعلم أنك كنت لا تنتظرين معيى الى الجنائز • ولن يحقد على الشيخ لأننى جئت بأزهار ، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح ؟ أعتقد أنه الآن فى مكان ما بهذه الغرفة •

نظرت اليه ماما مستغربة • وكانت تاتيانا بافلوفنا كمن طار صوابها • فسألته :

- من بهذه الغرفة ؟

- المتوفى • ولكن فلندع هذا الأمر • تعرفون ان الانسان الذى لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره الى الايمان بالأوهام والخرافات • ولكن فلنجعل كلامنا يدور على باقة الأزهار : كيف حملتها الى هنا ؟ لا أدرى • لقد انتهت عدة مرات أن أرميها على الثلج وأن أدوسها بقدمى •

ارتعدت ماما • وتابع هو كلامه يقول :

- انتهيت ذلك بقوة جنونية • رحمةً بى يا صونيا ، ورحمةً برأسى المسكين • لقد انتهت ذلك لأن الباقة جميلة مسرفة فى الجمال • هل فى العالم أجمل من زهرة ؟ حملتها والثلج والجليد فى كل مكان • جليدنا والأزهار : تعارض ! ولكن ليس هذا ما يهمنى : فانما أنا انتهت أن أدوسها بقدمى لأنها جميلة • يا صونيا ، سأغيب من جديد ، ولكننى سأعود بسرعة ، لأننى سأخاف ، فيما يخيل الى • سأخاف : ومن يشفينى من الخوف الا صونيا ؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا ؟ ولكن ما تلك الصورة هناك ؟ آ ••• أيقونة المتوفى ! تذكرت • ورثها عن أسرته ، عن جده • لم يفصل عنها طول حياته • أنا أعلم هذا • وأتذكر أنه أورتى

ياها • نعم ، أتذكر هذا تذكرًا واضحًا • • وأظن أنها أيقونة من أيقونات
• قدامى المؤمنين ، • • أرني !

وتناول الأيقونة بيديه ، وقربها من الشمعة ، وأخذ يتأملها •
ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط ، وضعها على المائدة ، أمامه في هذه
المرة • كنت مذهولاً مذهولاً • لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان
لأحد أن يتوقعه ، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكري • ولكنني أتذكر
أن هلعاً يشبه المرض قد نفذ في قلبي • وانقلب ذعر أمي إلى حيرة
وارتباك ، وإلى شفقة وعطف • كانت ترى فيه اسماً بائساً قبل أي شيء •
آخر • لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن • وشجب
لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فجأة ، وأومات لي برأسها إليه • ولكن
تاتيانا بافلوفا هي التي كانت أكثرهم جزءاً • قالت تسأله بحذر :

– ولكن ماذا بك يا عزيزي أندره بروفيتش ؟

– حقاً لا أدري ماذا بي يا تاتيانا بافلوفا العزيزة • هدئي روعك •
لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفا ، وأنت طيبة رائعة • ولكنني لم أجيء
إلا لأمكث دقيقة واحدة • انني أود أن أقول لليزا شيئاً حسناً ، وأبحث عن
كلمة أقولها فلا أفلح ، مع أن قلبي مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهي
كلمات غريبة في الواقع • يخيّل لي أنني إزدوج فأصبح اثنين ،
أصبح مثلين •

قال ذلك وهو ينظر إلينا جميعاً بوجه نجاد إلى أقصى حدود الجد ،
وبرغبة صادقة في الإفصاح عما في نفسه • وتابع كلامه يقول :

– الحقيقة أن فكري يزدوج فيصبح فكرين اثنين ، وهذا ما أخشاه
كثيراً • لكن لي مثلاً يجلس إلى جانبي • فأنا رجل عاقل معتدل ، ولكن
الآخر الذي يجانبي يصرّ على أن يقوم بعمل مستحيل ، أو عمل سخيف

جداً ، ثم اذا بى أشعر فجأةً أننى أنا الذى أريد أن أقوم بهذا العمل ، لا يدرى الا الله لماذا ! اريد ! اريد أن أقوم به رغم أنفى ، و اريد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة . عرفت ذات مرة طيباً أخذ يصفر فى الكنيسة فجأةً أثناء الاحتفال بجنائزته . حقاً لقد خفت أن أجىء اليوم الى الجنائز ، لأننى قد رسخ فى عقلى اعتقاد جازم و يقين مطلق بأننى سأنتقل صافراً أو ضاحكاً أثناء الجنائز على حين فجأةً ، كما فعل ذلك الطيب المسكين الذى كانت نهايته سيئة . وحقاً لا أدري لماذا لازمتنى ذكرى ذلك الطيب طوال هذا اليوم ، لازمتنى ملازمة لم أستطيع منها فكاًكاً . اسمعى يا صونيا ، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلبها بين يديه) ، فهل تعلمين أننى ، فى هذه اللحظة بعينها ، تستبد بى رغبة جنونية فى أن أقذفها الى زاوية المدفأة ، فاذا هى تنكسر على الفور نصفين ، نصفين لا أكثر ولا أقل ؟

قال هذا بدون أى تصنع ، بدون أية رغبة فى الظهور . بل كان يتكلم ببساطة ، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً . لكأنه خائف فعلاً من شىء . ولاحظت فجأةً أن يديه ترتجفان قليلاً .

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعة :

— آندره بترفش !

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهى تنتفض :

— اترك ، اترك الصورة يا آندره بترفش ! اتركها ! ضعها فى مكانها ! واخلع ثيابك ، وارقد فى سريرك . يا آرКАДى ، اذهب فاستدع الطيب !

قال برفق وهو يشملنا جميعاً بنظرة واحدة :

— مع ذلك . . . مع ذلك ، ما أشد اضطرابكم !

ثم وضع كوعيه على المائدة ، وتناول رأسه بيديه ، وقال :
 - اننى أخيفكم • ولكن اسمعوا يا أصدقائي • هلاً سررتمنى
 قليلاً ، فعدتم تجلسون ، وهدأتم جميعاً ، دقيقة واحدة ! صونيا ، ليس
 هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك • أنا جئت لأبلفك شيئاً ، لكنه
 شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف • استودعك الله يا صونيا • أنا راحل
 من جديد ، كما سبق أن رحلت مراراً • لاشك فى أننى سأعود اليك فى
 يوم من الأيام • بهذا أنت لابد منك ، ولا غنى عنك • لمن عسى أرجع ،
 حين يكون كل شيء قد انتهى ؟ صدقنى يا صونيا أننى جئت اليك اليوم
 كما يجيىء المرء الى ملاك لا الى عدو : هل يمكن أن تكونى عدوتى ؟ كيف
 يمكن أن تكونى عدوتى ؟ لا تصدقنى اننى أريد أن أحطم هذه الصورة ،
 لأننى فى الواقع ، يا صونيا ، تستبد بى ، رغم كل شيء ، رغبة قوية فى
 تحطيمها •••

حين هتفت تاتيانا بأفلوفنا قائلة له منذ قليل : « اترك الصورة » ،
 فانها كانت قد انتزعت الصورة من يديه ، وظلت تمسكها بيدها • فهاهو
 ذا آندره يتروفتش ، بعد أن نطق بأخر كلمة ، يشب من مكانه فجأة ،
 ويخطف الصورة من يدى تاتيانا بأفلوفنا فوراً ، ويشهرها بوحشية ، ثم
 يهوى بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتى من قوة ، فاذا بالأيقونة تنكسر
 نصفين تماماً • وعاد يلتفت إلينا بفتة ، فكان وجهه الشاحب قد احمر
 احمراراً شديداً ، وكانت كل قسمة من قسما وجهه تخلق :

- لا تنظرى الى عملى نظرتك الى رمز يا صونيا • ليس ميراث ماكار
 هو ما حطمته ، وانما حطمت بدون هدف غير التحطيم ••• ولكننى سأعود
 اليك رغم كل شيء ، سأرجع الى ملاكى الأخير • على كل حال ، عدتى
 عملى رمزاً اذا شئت ، فانه رمز أيضاً ! •••

وخرج من الغرفة بخطى متمجلة ، ومضى عن طريق المطبخ فى

هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقته) • لن أقص عليكم ما حدث لما تفصيلاً • لقد هبّت واقفةً وقد اعترها رعب قاتل ، ورفعت يديها فعقدتهما على رأسها ، وصرخت تقول له فجأة :

— آندره بتروفتش ، تمال ودّع على الأقل يا عزيزى !

فصاحت تاتيانا بأفلوننا تقول لها وقد أخذت ترتعش ارتعاشاً شديداً ، واعترتها نوبة خنق رهيب ، خنق حيوانى :

— سيرجع يا صونيا ، سيرجع • أما سمعت ما قاله ؟ لقد وعد بأن يرجع • دعى للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة ! حين يدب اليه الهرم ، وحين يصبح كسيحاً ، فمن ذا الذى سيدلله غيرك يا خادمتة القديمة ؟ انه يعلن هذا جهاراً ، لا يساوره خجل •••

أما عنا نحن ، فان ليزا قد أغمى عليها ؟ وأنا أردت أن أركض وراءه ، لكننى ارتيمت على ماما أضمها بذراعى • وهرعت لوكيريا لتأتى الى ليزا بكأس ماء • ولكن ناما لم تلبث أن أفافت من اغمائها ، فتهاوت على الديوان ، وغطت وجهها يديها ، وطفقت تبكى •

وصاحت تاتيانا بأفلوننا تقول بأعلى صوتها :

— أدركه ، أدركه على كل حال • هيا •• أدركه ، لا تتركه خطوة واحدة ، هلم ••• ماذا تنتظر ؟ هل أنا التى يجب أن أركض وراءه اذن ؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعى من ماما •

وصرخت أمى تقول هى أيضاً على حين فجأة :

— بنى آرКАДى ، هلم أركض وراءه ، أسرع !

فخرجت مسرعا ، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً • لكننى لم أجده

فى أى مكان • كان قد اختفى • وعلى الرصيف فى بعيد ، كانت تتراعى فى
الظلام بقم سوداء هى قامات المارة ، فاندفعت أدركها ، وأخذت أنفوس
فى وجه كل واحد متى وصلت إليه ، ثم أمضى أنفوس فى وجه آخر ،
وهكذا دواليك ، الى أن بلغت منعطفاً •

« لا يغضب أحد من مجنون • وإذا كانت تاتيانا بافلوفنا مستعرة
الغضب منه ، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة ••• » تلكم هى الفكرة
التي برقت فى ذهنى • بدا لى أن ذلك كله كان « رمزاً » ، وأنه إنما أراد
أن ينتهى من شىء ما ، كما انتهى من تلك الأيقونة • ولكن لاشك أن:
« مثله » كان بجانبه أيضاً •••

لم أقم عليه فى أى مكان • ولا يعقل أن أركض الى بيته ، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع الى بيته وكفى ! وعرضت لى فكرة على حين بقتة ، فهرعت الى بيت آنا آندريفنا •

كانت آنا آندريفنا قد عادت الى البيت ، فأدخلت عليها فوراً • وقد دخلت عليها محاولاً أن أسيطر على نفسى ما أمكنتى ذلك • وبدون أن أجلس ، قصصت عليها المشهد الذى رأيته كله ، أى حكاية • المثال ، تلك • فلن أنسى ما حييت ، ولن أغفر لها ما حييت أنها كانت تصنى الى كلامى بشراهة شديدة ، ولكن بهدوء لا رحمة فيه ، وطعائنة لا تعكر صفوها عاطفة • ولقد أصغت الى حديثى واقفةً هى أيضاً •

ختمت حديثى أسألاً ملحاً :

— أين هو ؟ لعلك تعلمين ؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنا أن ترسلنى اليك أمس •••

— ذلك أننى كنت أريد أمس أن أراك • أمس ذهب الى تسارسكوياء وجاء الى • أيضاً • أما الآن •••

قالت ذلك ونظرت الى ساعتها وأردفت :

— الساعة الآن هى السابعة • فلا بد أنه فى بيته حتماً •

— أرى أنك تعلمين كل شئ • فنكلمى ، نكلمى !

- أعرف أشياء كثيرة ، لكننى لا أعرف كل شيء . ليس هناك
ما أخفيه عنك طبعاً ...

وشغلتنى بنظرة غريبة وهى تبسم وتتناظر بالتفكير . وأردفت :

- رداً على رسالة كاترين نيقولايفنا ، كتب اليها بالأمس يخطبها
رسمياً .

فحملت عني قائلاً :

- لا يمكن !

- عن طريقى وصلتها الرسالة . أنا التى سلّمتها اليها مختومة .
فى هذه المرة تصرف كما يتصرف « فارس » ، ولم يكتم عني شيئاً .
- أنا أندريفا ! لا أفهم !

طبعاً . أمر يصعب فهمه . ولكن مثله فى هذا كمثل مقامير يرمى
على المائدة آخر قرش ، ويمسك فى جيبه مسدساً مهياً . ذلك هو معنى
المرض الذى تقدم اليها به . احتمال الرفض تسعة حظوظ من عشرة .
ولكنه يعتمد على الحظ العاشر . ولا أكتمك أننى استغربت ... لعله كان
خارجاً عن طوره : لعل « المثل » ، الذى وصفته أحسن وصف كان
يقربه !

- وتضحكين أيضاً ؟ كيف يمكن أن أصدق أنك أنت التى أوصلت
الرسالة ؟ ألسنت خطيبة أبيها ؟ رحماك أنا أندريفا !

- رجائى ان أضحي لسعادته بسعادتى . بل قل انه لم يرجئى
رجاء صريحاً ، فانما تمّ الامر بصمت ، لكننى قرأت فى عينيه كل شيء .
وما استغرابك ؟ ألم يذهب الى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن
تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخمأكوفا ؟ ذلك شبيه بما عمد اليه
أمس ، اذ اختارنى مندوبة عنه ونجبة له .

كانت شاحبةً بعض الشحوب • ولكن هدوءها كان يعزّز سحريتها •
وقد غفرت لها كثيراً في تلك اللحظة ، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً •
واسترسلت في التفكير دقيقة ، فكانت صامتة تنتظر •

قلت ضاحكاً على حين فجأة :

- اسمعي ، لقد أوصلت أنت الرسالة لأنك لانيجازفين بشيء ،
فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو ؟ وهي ؟ لاشك أنها لن تلتفت
الى طلبه ، وحينئذ •• حينئذ ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ أين هو الآن
يا آنا أندريفا ؟ ان كل دقيقة لثمينة ، وفي كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة !

- قلت لك انه في بيته • ففى رسالته التى سلّمتها أمس الى كاترين
يقولايضا ، رجاها « على كل حال » أن تمن عليه بلقاء فى بيته ، الساعة
السابعة من هذا المساء • وقد وعدته بأن تجيء اليه فى الموعد المضروب •

- هي ، فى بيته ؟

- لم لا ؟ البيت بيت داريا أويسيموفنا • ففى امكانهما أن يلتقيا
فيه زائرين لها •

- لكنها تخاف منه ••• قد يقتلها !

- ان كاترين يقولايضا رغم كل خوفها الذى لاحظته بنفسى
قد أضمرت دائماً ، حتى فى الماضى ، شيئاً من الاعجاب بنبل المبادئ •
وسمو الفكر لدى آندره بتروفتش • وقد وثقت به هذه المرة لتنتهى منه
الى الأبد • كما أنه ، من جهته ، قد حلف لها يمين الغروسية أنه لن
ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً • لا أتذكر نص التعابير التى استعملها •
وانما المهم أنها وثقت به واطمأنت اليه ••• لأول مرة ان صح القول •
ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلاً ، فكان اندفاعه بطولية قد تحققت لهما
كليهما •

هتفت أقول :

- والمثل ، والمثل ! ذلك أنه فقد عقله !

- لاشك أن كاترين نيقولايفنا ، حين وعده أمس بالمجيء الى الموعد ، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع .

أدرت ظهرى فجأة ، وولّيت هارباً .. اليه .. اليهما طبعاً ! ولكننى لم ألبث أن رجعت من حجرة المدخل ثانية ، وتفرست فى وجه آنا أندريفنا ، أختى ، وقلت صارخاً :

- أم تراك تريدان أن يقتلها ؟

أطلقت هذه الصرخة ، وخرجت من البيت راكضاً .

ورغم أنني كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو فى نوبة حمى ، فقد دخلت الشقة بغير ضجة ، من المطبخ ، وطلبت من الخادمة أن تأبىنى داريا أونيسييموفنا بصوت خافت . ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها ، فرشقتنى صامتةً بنظرة مستفهمة رهيبة ، وقالت :

- ليس مولاي فى البيت .

لكننى ذكرت لها بوضوح ودقة ، هامساً هامساً سريعاً ، أنني أعرف كل شىء من آنا أندريفنا ، وأنتى آت من عندها .

- أين هما يا داريا أونيسييموفنا ؟

- فى الصالون ، حيث كنتما بالأمس جالسين الى المائدة ...

- داريا أونيسييموفنا ، دعينى أذهب الى هناك ...

- كيف يمكننى هذا ؟

- لا أذهب الى هناك ، بل الى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسييموفنا .

ان آنا آندريفتا تريد هذا أيضاً • فلو كانت لا تريد لما قالت لي انهما
هنا • لن يسمعا • هي نفسها تريد هذا •••

قالت داريا أونيسيوفنا دون أن تحول عني بصرها :
- واذا كانت لا تريد ؟

فقلت مستعظفاً :

- داريا أونيسيوفنا ، اننى أتذكر ابتك أوليا ••• دعيني أدخل •

فاذا بذقنها وشفيتها تأخذ بالاختلاج فجأة ، وقالت لي :

- يا عزيزى •• اكراماً لذكرى أوليا •• تقديراً لعواطفك ••
ولكن لا تتخلّ عن آنا آندريفتا يا عزيزى ! لن تتخلّى عنها ، أليس
كذلك ؟ لن تتخلّى عنها ؟

- لا ، لن أتخلّى عنها •

- عاهدنى عهد الشرف أنك لن تدخل الصالون ، ولن تصرخ ،
اذا أنا خباتك هناك •

- أحلف لك بشرفى يا داريا أونيسيوفنا !

فأمسكت ورنجوتى ، وقادتني الى حجرة مظلمة ، مجاورة للغرفة
التي كانا فيها ، وسارت بى على سجادة طرية بدون ضجة الى ان بلغنا
الستارة ، فأجلستنى هناك ، وأزاحت ركناً من الستارة ، فكنت أراهما
كليهما •

انصرفت هي وبقيت أنا • طبعاً بقيت • لقد أدركت اننى أنصنت بغير
حق ، وأننى أنجس على أسرار غيرة ، ولكننى بقيت • كيف لا أبقي
وأنا أعرف أن المثل موجود ؟ ألم يسبق لهذا المثل أن حطم الأيقونة
على مرأى منى ؟

٤

كانا جالسين الى تلك المائدة نفسها التى شربنا عليها بالأمس نخب
 « انبعائه » معاً • وكانا متقابلين • اننى أميز وجهيهما تميزاً واضحاً • كانت
 ترتدى فستاناً أسود • وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها • وكان
 يتكلم • فكانت تصغى اليه بانتباه شديد بشوش • حتى ليتمكن أن يكتشف
 المرء فى وجهها شيئاً من خجل • ولا كذلك هو • فقد كان مهتاجاً
 احتياجاً شديداً • لقد وصلت وهما من الحديث فى قلبه • لذلك لبثت برهة
 لا أفهم شيئاً • أتذكر أنها سأله فجأة :

— وهل أنا السبب فى ذلك ؟

فأجابها :

— بل أنا • أنت مذنبه بدون أن تكونى مذنبه • هذه أمور تحدث •
 وتلك هى الأخطاء التى لا تغتفر • ومرتكبوها يعاقبون فى جميع
 الأحيان تقريباً •

أضافت ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة • وتابع كلامه يقول :

— لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أننى نسيك نسياناً تاماً • فكنت
 أضحك فعلاً من هواى الأحمق ••• ولكنك تعرفين هذا ! على كل حال •
 فلم يعينى أن تزوجى فلاناً أو فلاناً من الناس • لقد بعث اليك بالأمس
 رسالةً أطلب منك فيها أن تزوج • فلا تؤاخذينى • كانت تلك غباوة •

ولكن لم يكن لها عندى بديل • ما الذى كان يمكننى أن أفعله غير تلك
الغباوة ؟ لا أدرى •

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه اليها
فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً الى جانب • لو كنت فى مكانها لأخافتنى
تلك الضحكة • أحسست بهذا • ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها
بغته كأنما هو تذكر الأمر الجوهري :

— قولى : كيف أمكنك أن توافقى على المجيء الى هنا ؟ ان دعوتى
ورسالتى كلها ما كانتا الا حماقة ••• انتظرى : أظن أننى أستطيع أن
أحزر كيف وافقت على المجيء • ولكن لماذا جئت ؟ ذلك هو السؤال •
أتراك جئت عن خوف فحسب ؟

فقالته وهى تنظر اليه بحذر :

— جئت لأراك •

وصمت الاثنان كلاهما نصف دقيقة • وعاد فرسيلوف يجلس ،
ثم أخذ يتكلم بصوت رقيق ، لكنه مؤثر ، يكاد يكون متهدجاً ، فقال :
— منذ مدة طويلة لم أراك يا كاترين نيقولايفنا ••• منذ مدة
بلغت من الطول أننى أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدى فى ذات
يوم ، كما أجدى الآن ، جالساً بقربك أنظر الى وجهك وأسمع صوتك ••
منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر ، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر • كنت
لا أقدّر أن أكلمك فى يوم من الأيام • على كل حال ، ما مضى فقد مضى ،
وما بقى اليوم سيزول غداً كدخان • ليكن ! اننى أقبل هذا ، اذ ليس عندى
له بديل •

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة :

— ولكن لا تصرفى الآن بدون أن تقولى لى شيئاً • لقد نفختنى

صدفة حين قبلت أن تجيئي ، فلا تنصرفي قبل أن تجيئي عن سؤال
سألقيه عليك !

— ما السؤال ؟

— لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً • فماذا تخسرين اذا قلت لي
الحقيقة كلها مرة واحدة الى الأبد ؟ أجيئني عن سؤال لا يلقيه العقلاء
أبدا : هل أحييتني في لحظة واحدة على الأقل ••• أم أراني أخطأت
الظن ؟

احمرت كاترين نيقولايفنا احمراراً شديداً • وقالت تجيبه :

— بل أحييتك •

توقعت أن تقول هذا : يا للصادقة ، يا للصريحة ، يا للمستقيمة
التي تقول الحقيقة !

وتابع يسألها :

— والآن ؟

— الآن لا أحبك •

— وتضحكين ؟

— لا • لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم ارادتي ، لأنني كنت
أتوقع أن تسألني « والآن ؟ » ، فلما صدق توقعي ابتسمت ، لأن المرء
يبتسم دائماً حين يصدق توقعه •••

شيء غريب • ما رأيتهما قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا
الاحتراس ، ولا رأيتهما قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحية الى هذا الحد !
وكان هو يلتهمها بعينه التهاماً •

— أعلم أنك لا تجيئني ••• ولكن ألا تجيئني البتة !

— ربما البتة ؟

- ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة ، دون أن تبسم ودون أن تحمر :
- لا أحبك • صحيح أنتى أحبيتك ، ولكن حبي لم يطل • فما لبثت أن كفت عن حبك ••
- أعرف ، أعرف • رأيت أن هذا ليس ما كنت فى حاجة اليه ••
- قولى : ما الذى أنت فى حاجة اليه ؟ اشرحى لى مرةً أخرى •••
- هل شرحت لك هذا من قبل ؟ ما أنا فى حاجة اليه ؟ انتى امرأة عادية جداً • انتى امرأة هادئة •• أحب •• أحب الناس المرحين •
- المرحين ؟
- هأنت ذا ترى أنتى عاجزة حتى عن التحدث معك • يخيل الى أنك لو أحيتتى حباً أقل ، لأحبيتك •
- وابتسمت خجلى مرة أخرى • كان يلتمع فى جوابها أكبر الصدق • كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التى تحدد علاقتهما تحديداً حاسماً ، وتفسر كل شئ ، وتقطع بكل شئ ؟ وكم كان يجدر به ، هو ، أن يفهم ذلك • ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل :
- هل بيورنيج مرح ؟
- فأسرعت تجيبه :
- اطمئن • ما هو بالمرح البتة ! وانما أنا أتزوجه لأنتى سأكون معه أهدأ مما أكون مع آخر • ثم تبقى نفسى كلها لى أنا •
- يقال انك عدت تحيين حياة المجتمع وتسغفين بها ؟
- لا حياة المجتمع • فأنا أعرف أن مجتمعنا تصوده الفوضى كما تصود كل ما عداه • ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى ، فاذا كان المرء يحب أن يعيش وكفى ، فالمعيشة فى المجتمع أمتع من المعيشة فى غيره •

- سمعت كلمة « الفوضى » هذه كثيرا ، فلا شك أنك خفت كثيرا
من الفوضى التي كانت تسود حياتي ... أصفاد ، وأفكار ، وسخافات ...
- لا ، ليس الأمر ذاك أبدا ...

- ما هو إذن ؟ قوله بصراحة ، ناشدتك الله !
- طيب ، سأقوله بصراحة ، لأننى أعذك ذا فكر عظيم • اليك
الحقيقة : اننى لم أستطع أن لا أرى فيك شيئا مضحكا بنير انقطاع •
قالت ذلك واحمرت فجأة ، كأنما هى أحست أنها تورطت فى قلة
الاحتراس تورطا كبيرا •

قال أندره بتروفتش :
- لهذه الكلمة التي قلتها ، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة •
فأسرعت تضيف وهى تزدد احمرارا :
- لم أكمل كلامى • أنا المضحكة فى الواقع ... لا شئ الا لأننى
أكلمك كحقيقاء •

- لا ، ما أنت بمضحكة ، وانما أنت امرأة من نساء المجتمع
فاسدة •

قال ذلك واصفر اصفرارا رهيبا • وتابع كلامه فقال :
- أنا أيضا لم أكمل كلامى حين سألتك لماذا جئت • فهل تريدان
أن أنهيه ؟ ان ثمة رسالة ، ان ثمة وثيقة تخلع قلبك هلما ؛ لأن أباك اذا
وقعت هذه الرسالة بين يديه ، يمكن أن يلعنك أثناء حياته ، وان يحرمك من
ميراثه شرعا فى وصيته • أنت خائفة من هذه الرسالة ... وقد جئتنى بحثا
عنها وسعيا اليها ...

نطق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه الى قدميه ، حتى لتكاد
تصطك أسنانه •

فكانت تصفى اليه معبرة بوجهها عن سأم وألم • وقالت مدافعة عن
نفسها :

— أعلم أنك تستطيع أن تحدث لى أكدارا كثيرة ، ولكننى لم أجبى
لأنك بالكف عن اضطهادى وتعذيبى بقدر ما جئت لأراك • بل لقد كانت
نفسى تضطرم رغبة فى لقائك منذ مدة طويلة ...

وأضافت تقول فجأة ، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة
مباغثة :

— غير أننى رأيتك على عهدى بك ...

— هل كنت تتوقعين أن تجدينى انسانا آخر بعد الرسالة التى تكلمت
فيها عن فساد خلقك ؟ هل جئت الى هنا بغير خوف البتة ؟

— جئت لاننى أحبك فى الماضى • ولكن لا تهددنى ، أرجوك •
ما بقينا معا ، فلا تذكرنى بأفكارى السيئة وعواطفى الرديئة • اذا أمكنك
أن تكلمنى فى غير هذا فساكون سعيدة جدا • قد يأتى دور التهديد ،
أما الآن فقل لى شيئا آخر ، أرجوك ! حقا لقد جئت لأراك وأنصت لك
دقيقة • فاذا كنت عاجزا عن هذا فاقتلنى فورا ولكن لا تهددنى ولا تعذب
نفسك أمامى ...

بهذا ختمت كلامها وهى تنظر اليه مترقبة ترقبا غريبا ، كأنما هى
تفترض حقا أنه قد يقتلها •

ونفض أندره بتروفتش من جديد ، وراح يتأملها بنظرات حارة ،
ثم قال بلهجة قاطعة :

- سوف تخرجين من هنا بغير أية اساءة •

فابتسمت وقالت :

- نعم ، هذا عهد قطعته على نفسك •

- لا لأننى قطعت على نفسى عهدا فى الرسالة ، بل لأننى أريد أن

أفكر فيك طول الليل ♦♦♦

- تعذيا لنفسك ؟

- اننى استحضّر صورتك دائما حين أخلو الى نفسى • وأظّل

أتحدث معك • وأذهب الى حانات ومواخير فاذا أنت تظهرين لى أيضا •

ولكنك تضحكين منى دائما ، كما تفعلين الآن •

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره • فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد

ارتسم على وجهها عطف قوى :

- أبدا ، أبدا ما ضحكك منك • واذا كنت قد جئت فلأننى حاولت

بكل الوسائل ألا أجرح شعورك فى أمر من الأمور •

وأضافت تقول فجأة :

- لقد جئت الى هنا لأقول لك انى أحبك تقريبا •

ثم أسرع تدارك :

- معذرة ♦♦♦ لعلنى لم أحسن التعبير عما أردت عنه •

فضحك وقال :

- لماذا لا تجدين التظاهر ؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة ؟

لماذا لست كسائر الناس ؟ ♦♦♦ كيف يمكن أن يطرد أحد أحدا ثم يقول

له : « أحبك تقريبا » ؟ ♦♦♦

- ذلك أننى لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه • ذلك أننى

ما وجدت يوما أمامك الا شعرت بخجل ولم أحسن الكلام ، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك : « أحبك تقريبا » ، فذلك لأن الأمر كان غامضا فى ذهنى أيضا . هذا هو السبب فى انى قلت تلك الجملة ، رغم اننى فى الواقع أحبك ... أحبك ذلك الحب « المشترك » الذى يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبدا ...

كان يصيح بسمعه اليها صامتا ولا يحول عنها نظرتة الحارة ، ثم استأنف كلامه فقال :

- لا شك أنتى أمى اليك . هذا هو عيب الهوى الشديد . انى لأعرف شيئا واحدا هو اننى اذا كنت معك فقد انتهيت ، واذا غبت عنك فقد انتهيت أيضا . سياتى أن أكون معك وأن أكون بدونك ، فأنت معى دائما حيثما تكونى . وأعلم كذلك أنتى أستطيع أن أكرهك أكثر مما أستطيع أن أحبك ... ثم انى منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر فى شيء . وأصبحت تستوى عندى جميع الأمور . كل ما آسف له هو أنتى أحبيت امرأة مثلك ...

كان قد وهن صوته ، وتابع كلامه يقول كالمختق وهو يتسهم ابتسامة صفراء :

- ماذا تريدین ؟ انه لجنون منى أن أقول لك هذا الكلام . أظن أنتى مستعد أن أفق مسمرا على ساق واحدة مدة ثلاثين سنة اذا كان هذا يرضيك . أرى أنك تشعرين نحوى بشفقة . وجهك يقول : « لو استطعت لأحبينك ، لكننى لا أستطيع ... » . أليس هذا صحيحا ؟ لا ضير . لست بذى كبرياء . اننى مستعد لأن أقبل منك أية صدقة ، كشحاذ ، هل تسمعين ؟ أية صدقة ... أنى لشحاذ أن يكون ذا كبرياء ؟ ...

فنهضت كاترين نيقولايفنا واقتربت منه ، ثم قالت وهي تلامس يديها
كفه وقد لاحت في وجهها عاطفة لا يمكن التعبير عنها :

- صديقي ! اننى لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال ! سأظل
أفكر فيك طول حياتي تفكيرى في أغلى انسان وأبلى قلب وأقدس شيء
يمكن أن أحبه وأحترمه • آندره بتروفتش ! افهمنى ••• اننى لم
أجىء الى هنا عبثا يا عزيزى ، يا من كنت وما تزال عزيزا على قلبي •
لن أسى أبدا ما أثرته في نفسى من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى • فلنن فصل
صديقين ، ولسوف تظل في حياتي أجلاّ خاطرى شأنا وأحلاها مذاقا !

قال آندره بتروفتش :

- « فلنن فصل ثم أحبك » • سوف أحبك ولكن فلنن فصل •••

ثم قال وقد شحب لونه شحوبا شديدا :

- اسمعى • هبى لى صدقة أخرى : لا تجبىنى ، ولا تعيشى معى ،
ولننقطع عن أن يرى أحدنا الآخر الى الأبد • سوف أختفى متى أصبحت
لا تريدن أن ترىنى ، ولا أن تسمعينى •• ولكن •• ولكن ••
« لا تتزوجى » •

انقبض صدرى الى حد الألم حين سمعت كلامه • ان هذا الرجاء
الساذج الذليل يوقظ الشفقة فى النفس ويطعن القلب طعنا قويا بمقدار
ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة • نعم ، انه يطلب صدقة
حقا ! هل كان يستطيع أن يظن حقا أن رجاءه يمكن أن يلبي ؟ مع ذلك •
نزل بنفسه الى حيث يرجو هذا الرجاء ، وحرص على طلب هذه الصدقة •
ان هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه ! أما هى فان
جميع قسمت وجهها قد تشوهت ألما • ولكنه قبل أن تنطق هى بكلمة
واحدة ، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته :

— سوف أدمرك تدميراً !

ولكنها اجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة ، وبصوت كصوته تبدل
تبديلاً غير متوقع حتى لكنه ليس صوتها ، فقالت :

— اذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم فى المستقبل انتقاماً أفسى
من الانتقام الذى تهددنى به الآن لأنك لن تنسى أبداً أنك استجديتني صدقة
وكنت أمامي شحاذاً ...

وختمت كلامها وهى تقذفه بنظرة تحد :

— لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك !

فأجابها برفق مبتسماً :

— « تهديدات من فمك » ، أى من فم شحاذ مثلك ! لقد كنت
أمزح • لن أصنع بك شيئاً • لا تخافى • انصرفى • أما تلك الوثيقة فسأبدل
جميع جهودى لأرسلها اليك • ولكن اذهبى • اذهبى ! • • • لقد بعثت
اليك رسالة حمقاء ، واستجيت أنت لتلك الرسالة الحمقاء ، فجئت :
فها نحن سواء : لا دائن ولا مدين !

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق
الغرفة التى كنت مختبئاً فيها وراء الستارة :

— من هنا !

قالت وهى تقف على العتبة :

— اغفر لى اذا استطعت •

فقال فجأة :

— اذا كتب لنا أن نلتقى صديقين فى يوم من الأيام ، فستذكر هذا

المشهد ضاحكين •

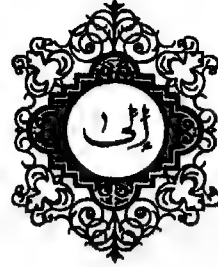
ولكن فسمات وجهها كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة •
هفت تقول ضارعة الى الله وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى ،
ولكنها تنظر الى وجهه وجلةً كأنما هى تحزر ماذا أراد أن يقول :
- أسأل الله أن يحدث هذا •

- انصرفى ! كلانا مفرط فى الذكاء • ولكنك ••• آه ••• أنت
من طيتى ! بعثت اليك رسالة مجنونة ، فارتضيت أن تهينى لتقولى انك
« تهيننى تقريبا » • لا ، لا ، ان بنا جنونا واحدا ! كلانا شاذ • ابقى
مجنونة دائما ، لا تتغيرى ، وسنعود نلتقى صديقين • انى أتنبأ بهذا •
يميناً !

خرجت كاترين يقولايانا • فأسرعت الى المطبخ دون ضجة • ومن
غير أن أنظر تقريبا الى داريا أو نيسموفا التى كانت تنتظرنى ، وبنت الى
الشارع نازلاً على سلم الحدم ماراً بالفناء • ولكن حين وصلت أنا الشارع
كانت هى قد ركبت العربة التى كانت تنتظرها أمام الباب • فأخذت
أركض •

الفصل الحادي عشر

١



أين ؟ الى بيت لامير !

مهما أشأ أن أسبغ طابعا منطقيا على سلوكي في ذلك المساء وفي تلك الليلة ، ومهما أشأ أن اكتشف فيه شيئا من سلامة العقل ، فأنني حتى في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملة واحدة ، أجدني عاجزا عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح • لا بد أنني كنت قائما في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف • بل لا شك أن نمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف الأخرى ، ولكن ... هل يجب أن أعترف بها ؟ لا سيما وأنني غير واثق كل الثقة ...

اقتحمت بيت لامير ، خارجاً عن طوري طبعاً ، حتى لقد أخفته هو وصاحبه آلفونسين • لطالما لاحظت لدى الفرنسيين ، حتى لدى أشدهم طيشاً وأكثرهم فجوراً ، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشد الحرس على نوع من النظام البورجوازي ، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة • ولكن لامير سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث ، فسرّه أن يراني في بيته وأن • يقبض على ناصيتي • أخيراً • لقد كان لا يحلم الا بهذا طوال هذه الأيام ليل نهار • ألا ما كان أحوجه الى ! ثم هأنذا ، بعد أن فقدت كل أمل ،

أجيبه فجأة ، من تلقاء نفسى ، بل اجيبه وأنا على هذه الحالة من الجنون ،
أى على الحالة التى يريد لها !

صرخت أقول :

- خمراً يا لامير ! اسفنى ! دعنى أعربد ! آلفونسين ، أين
قيارتك ؟

لن أصف المشهد ، فلا داعى الى ذلك . المهم أننا شربنا ، وقصصت
عليه كل شئ ، كل شئ . فكان يصنى الى كلامى بشراة . وقمت أنا
بالخطوة الأولى فافترحت عليه تدبير مؤامرة ، اشعال حريق : نستدعى أولاً
كاترين نيقولايفنا برسالة ***

قال لامير مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها :

- هذا ممكن ***

قلت :

- وزيادة فى ضمان نجاح المؤامرة ، يجب أن نبعث اليها فى تلك
الرسالة صورة عن « وثيقتها » لتستطيع أن تدرك أننا لا نغشها .

فقال لامير مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين :

- تماماً ! هذا ما يجب أن نفعله .

قلت :

- وثالثاً ، يجب أن يكون لامير هو الذى يدعوها ، لشأن يخصه ،
منتحلاً صفة رجل مجهول آت من موسكو . وأجىء أنا بفرسيلوف .

فقال لامير :

- ربما نحضر فرسيلوف أيضاً ، نعم !

فصحت أقول معترضاً على قوله « ربما »

– لا ، لا « ربما » ، بل حتماً • هذا لا غنى عنه •

وأضفت موضحاً وأنا أجرح جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة ، لكننى أعتقد اننى شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدى ، أما هما فكانا يتظاهران) :

– هذا كله من أجله هو • نجلس أنا وفرسيلوف فى الغرفة الأخرى • يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامير ! حتى اذا جاءت اللحظة التى توافق فيها على كل شيء ، أى على الفدية المالية والفدية « الأخرى » ، لأنهن جميعاً حقيرات ، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا ودامناها فأقنعناها بحقارتها • وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلا بقدميه • ولكننا فى حاجة الى بيورنج ، ليراها هو أيضاً !

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً • فقال لامير :

– لا ، بيورنج لا داعى اليه !

فصرخت أقول :

– بلى بلى ! أنت لا تفهم من الأمر شيئاً لأنك غبى يا لامير ! بالعكس : يجب أن تحدث فضيحة فى المجتمع الراقى : بذلك تنتقم من المجتمع الراقى ، ومنها • يجب أن تعاقب ! لامير ، سوف تعطيك كمبالة ••• أنا لا حاجة لى الى المال ، أنا أبصق على المال ! أما أنت فسوف تنزل فتدس المال فى جييك مخلوطا ببصاقى • وأكون أنا قد وضعت أنفها فى التراب !

كان لامير لا ينفك يقول مؤيداً :

– نعم ، نعم •

ويتبادل النظرات مع ألفونسين •

قلت متمتماً :

- لامبير ، انها تعبد فرسيلوف • رأيت هذا بنفسى منذ هنيهة ،
وأيقنت به •

- من حسن الحظ أنك رأيت كل شىء : ما كنت لأتصور أن لك
كل هذه الموهبة فى التجسس ، ولا أنك تملك كل هذا القدر من
الذكاء •

- أنت كاذب يا فرنى • أنا لست جاسوساً ولكنى ذكى جداً •
ثم تابعت كلامى جاهداً أن أعبر عن فكرتى بمشقة وعناء :

- هل تعلم يا لامبير ؟ انها لن تتزوجه ، لأن بيورنج ضابط فى
الحرس ، أما فرسيلوف فليس إلا رجلاً كريماً سمحاً محباً للانسانية ،
أى هو فى نظرهم انسان مضحك لا أكثر ! آه ... انها تفهم هذا الوله
وتفتن به مروراً ، وتفتن لفرسيلوف وتجنّذه وتغريه ، لكنها لن
تتزوجه ! انها امرأة ، انها أفعى ! كل امرأة أفعى ، وكل أفعى امرأة !
يجب أن نشفيه • يجب أن نسقط عن عينيه الفشاوة فيراها على حقيقتها
فيشفى • سأجىء به الى عندك يا لامبير •

فكان لامبير لا يزال يؤمن على كلامى ويملاً كأسى فى كل لحظة :
- حسن ، حسن !

كان يخشى أن أستاذ منه أى استياء ، كان يخاف أن يعارضنى ، وكان
يحرص على أن يسقيني مزيداً من الخمر ! وكان ذلك منه واضحاً أشدّ
الوضوح ، فلم أملك أنا نفسى الا أن ألاحظه • لكننى ما كان لى أن
أنصرف بحال من الأحوال • وظللت أشرب وظللت أتكلم • كنت أحترق
رغبة فى الافصاح مرة عما يعتل فى نفسى ! وحين خرج لامبير ليجىء

برجاجة ثانية ، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً اسبانياً • فكادت تنهر
دموعى ، وقلت مخاطباً لاميير بعاطفة عميقة :

- يجب انقاذ هذا الرجل حتماً يا لاميير ، لأنه ... مسحور !
لو تزوجها ، فلسوف يطردها ركلاً بالقدمين منذ الصباح ، بعد الليلة
الأولى • فهذا ما يحدث دائماً • ان هذا الحب الوحشى المسحور يوافى
المرء كما توافيه نوبة ، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض ، فما ان انتهى له
الارتواء ، حتى تسقط الغشاوة وتنبجس العاطفة المناقضة : الاشتزاز
والكره والرغبة فى الابداء والسحق • هل تعرف قصة آيساج يا لاميير ؟
هل قرأتها ؟

- لا ، لا أذكر • أهذه رواية ؟

- ذلك أنك لاتعرف شيئاً يا لاميير • أنت جاهل جهلاً رهيباً ،
جهلاً فظيماً ! ولكن لا يهمنى أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً أو •
انه يحب ماما ؟ لقد قبل صورتها • ولكن سيكون الأوان قد فات • لذلك
يجب انقاذه منذ الآن ...

وأخيراً طفقت أبكى بكاءً مرّاً • لكننى ظلمت أهدر وأشرب • ما أكثر
ما شربت ! الشيء الأساسى الذى يجب أن أذكره هو أن لاميير لم يسألنى
عن الوثيقة مرةً واحدة ، طوال السهرة ، أفصد لم يسألنى : أين هى ؟
لم يطلب منى أن أريه اياها ، أن أبسطها له على المائدة • ألم يكن طبعياً مع
ذلك أن يلقي على هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك ؟ شيء
آخر : لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت ، وقلنا اننا ستقوم بالعمل حتماً ،
ولكن أين ، ومتى ، وكيف ؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة ! كان لاميير
لا يزيد على أن يؤيد كلامى ويتبادل النظرات مع آلفونسين • لا شيء عدا
هذا ! صحيح أننى كنت فى ذلك الحين عاجزاً عن ادراك ذلك ، ولكننى
أتذكره تذكراً واضحاً •

وفى النهاية تمت على الديوان ، بدون أن أحلج ثيابى • نمت مدةً
طويلة جداء واستيقظت فى وقت متأخر جداً • اذكر أننى حين استيقظت ،
ظلتت متمدداً على الديوان زمناً كالشده • أحاول أن أجمع أفكارى
وذكرياتى ، وأتظاهر بأننى ما زلت نائماً • ولكن لاميير كان قد خرج
من البيت • كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة • النار فى المدفأة تسمع
طقطقتها ، تماماً كالمرّة الماضية ، حين فتحت عينى فى بيت لاميير بعد تلك
الليلة المشؤمة ! ولكن آلفونسين كانت ترصدنى وراء الحاجز : لاحظت
ذلك فوراً ، لأنها نظرت الىّ وتفرست فىّ مرتين ، غير أننى كنت أعغمض
عينى وأتظاهر بالنوم • كنت أفعل ذلك لأننى أحس باكتئاب وأريد أن
أعرف أين أنا من الأمر ؟ فما كان أشد عذابى حين تذكرت ، فأدركت
فظاعة وحقارة ما أقدمت عليه فى الليل من اعتراف للاميير ، واتفاق
معه • • • وأدركت مدى خطئى وضلالى اذ جئت الىه أصلاً • ولكننى
حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معى ، لا تزال مخيطة فى جيبى • لقد
جسستها بيدى ، فأحسست بها ! فليس علىّ إذن الا أن أثب وثبة واحدة ،
فأولى هارباً • ولا داعى الى الخجل بعد ذلك من لاميير ؟ فليس لاميير
بمن يستحق ذلك !

ولكننى كنت خجلان من نفسى ! لقد نصبت نفسى قاضياً أحاكم نفسى !
ما أشد الألم الذى كان يعصر قلبى ! على أننى لن أصف ذلك الشعور
الجهنمى ، الذى لا يطاق ، لن أصف ذلك الاحساس بالخزى والتلطف
والدناءة • ومع ذلك يجب علىّ أن أعترف • فقد آن أوان الاعتراف فيما
أعتقد • ويجب أن أسجل هذا الاعتراف فى مذكراتى • ألا فاعلموا
أننى اذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار ، واذا كنت قد هيات نفسى
لرؤية المشهد الذى ستدفع فيه الفدية للاميير (آه • • • يا للسفالة !) ،
فان هذا لم يكن فى سبيل انقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا فى سبيل

أن أردّه الى ماما ، وانما ... لأننى ... ربما كنت أنا نفسى مولها
 بجبها ، غيوراً عليها ! ممن كنت غيوراً ؟ ... من بيورنج ؟ من فرسيلوف ؟
 من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم فى حفلة الرقص ، على حين
 أكون أنا قابلاً فى ركنى ، شاعراً بالحزى من نفسى ؟ آه ... يا للقدارة !

الخلاصة أننى لا أعرف ممن كنت غيوراً • لكننى كنت أشعر ، بل
 كنت قد أيقنت منذ مساء أمس ، كيقينى بأن اثنين واثنين أربعة ، أننى
 فقدتها الى الأبد ، وأن هذه المرأة سوف تنبذنى وسوف تسخر من زيفى
 ومن سخافتى • فهى امرأة صادقة ومستقيمة ، وأنا امرؤ متجسس ومخبىء
 وثائق !

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة ، وقد آن لى أن أعترف بها الآن ...
 هأنذا أعترف بها • لكننى أكرر مرةً أخرى ، ومرةً أخيرة ، أن نصف
 هذا الاعتراف ، وربما ثلاثة أرباعه ، قد يكون تجنياً على نفسى ! اننى
 فى تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسئول عن أعماله ،
 ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق
 يتكلم كمن أصابه مس • وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً
 من العواطف والاحساسات كان قد أغرقنى اغراقاً ، فلا أستطيع أن أعى
 ما بقلبي ولا أن أدرك ما يعصف بنفسى عصفاً • ولكن لا بد لى مع ذلك
 من هذا الاعتراف ، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ
 نفسى حتماً •

وثبت عن الديوان مشمئزاً اشمئزاً لا يغالب ، عازماً عزمًا قوياً
 على أن أمحو كل شيء • ولكن ما ان وثبت عن ديوانى ذلك الوثوب حتى
 هربت الى ألفونسين • تناولت معطفى وقبعتى ، وقلت لها أن تبلغ لامبير
 أننى كنت بالأمس أهذى ، وأننى تجنيت على تلك المرأة ، وأننى كنت

أمزح ، فحذار أن يسبح لنفسه أن تطأ قدماء بيتي في يوم من الايام •
قلت لها ذلك كله بالفرنسية متمجلاً كيفما أُنْفَق ، وأغلب الظن اننى قلته
غامضاً مشوشاً ، فما كان أشد دهشتي حين رأيت آلفونسين تفهم عنى فهماً
كاملاً ؛ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مقتبطةً بكلامى ، مهللةً له •
قالت مؤيدة :

- « نعم نعم • ذلك عيب • سيدة محترمة • أنت رجل كريم !
اطمئن • سأوضح الأمر للامير ! » •

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجيء فى عواطف آلفونسين ،
وربما فى عواطف لامير تبعاً لذلك ، أن يثير فى نفسى الشبهات • لكننى
خرجت صامتاً • لقد كنت مضطرب النفس ، وكنت لا أحسن التفكير •
ولقد أعدت النظر فى الأمر كله بعد ذلك ، ولكن كان قد فات الأوان !
يا للمكيدة الجهنمية التى حيكّت لى ! اننى أتلث هنا قليلاً لأشرح
ما حدث ، والا عجز القارىء عن الفهم !

الواقع هو اننى منذ أن لقيت لامير أول مرة ، فى تلك الليلة التى
تدفأت عنده بعد تجلدى من البرد ، قد حكيت له (يا لغسواتى !) أن
الوثيقة مخيطة فى جيبى • ولقد نمت على ديوانه فى تلك الليلة بعض
الوقت فجأة ، فلم يلبث لامير أن جسّ جيبى ، فأيقن أن الورقة مخيطة
فيها فعلاً • واستطاع بعد ذلك مرراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال فى
مكانها • فأتناء عشائنا فى مطعم التتر مثلاً ، أتذكر أنه حصننى عدة مرات؛
فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر
ببالى قط • لقد كنت أتمخيل دائماً (كما يفعل غيبى أحق) أنه ان كان
يدعونى الى بيته دائماً بحماسة شديدة واصرار كبير ، فهو انما يفعل ذلك
ليستدرجنى الى الدخول فى عصابته والمشاركة فى عملها • ولكن الحقيقة
المؤسفة هى انه كان يدعونى الى بيته لغرض آخر ! كان يدعونى ليسكرنى

سكراً شديداً ، حتى اذا رقدت غائبا عن شعورى وأخذت أشعر ، قصّ جيبى واستولى على الوثيقة . وذلك ما فعلاه فى تلك الليلة هو وآلفونسين . قامت الفونسين بقص جيبى . فلما صارت الرسالة فى حوزتها ، أعنى « رسالتها » ، أعنى وثيقتى التى جئت بها من موسكو ، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه ، فوضعاها فى مكان الرسالة ، ثم أعادا خياطة الجيب فى مكانه فكأن شيئاً لم يحدث ، فلم ألاحظ أنا شيئاً . ان آلفونسين هى التى أعادت خياطة الجيب . وظللت أنا ، انا الأحمق ، ظللت الى النهاية ، خلال يوم ونصف يوم ، أظن أننى ما زلت أملك السر ، وظلت أعتقد بأن مصير كاترين لا يزال بين يديّ .

كلمة أخيرة : ان سرقة الوثيقة كان سبب كل شيء ، كان مسبب

جميع المصائب الأخرى !

٢

اليكم الآن آخر أيام مذكراتى • انى أصل الى نهاية النهاية •

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت الى مسكنى
مهتاج الأعصاب ، ذاهلاً أكبر الدهول ، عاقداً عزمى على فرار حاسم •
ولم أتعجل الخطى ، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل • ولكن ما ان
وطئت قدمائى الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة : كان
العجوز قد نُقل من تسارسكوريا سيلو منذ قليل ، فهو الآن فى بيتنا ،
وبقره آنا أندريفنا !

لم يسكنوه غرفتى ، بل الغرفتين المجاورتين لها ، أعنى غرفتى
المؤجر • وقد أحدثت بالأمس فى هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات ،
وان تكن طفيفة • وكان المؤجر قد نقل امرأته الى حجرة المستأجر المجدور
المتنمر الذى سبق أن تكلمت عنه ، كما نُقل هذا لا أدرى الى أى
مكان •

لم بلبث المؤجر أن تسلك الى غرفتى ليستقبلنى • ان هيئته لا تنم
عمماً كانت تنم عنه بالأمس من حزم ، ولكنه كان فى احتياج شديد ،
احتياج من مستوى الأحداث ان صح التعبير • لم أكلمه ، بل انسحبت الى
زاوية الغرفة ، ووضعت رأسى بين يدى ، ولبثت على هذه الحال دقيقة •
فقدّر فى أول الأمر أنني أصطنع « وضعاً » ، ولكنه فى النهاية لم يطق
صبراً ، واعتراه الغزع ، فتمتم يسألنى :

- هل هناك شيء ؟

واذ لم أجبه أردف يقول :

- كنت أظنك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال
غرفتك بغرفتي الأمير مباشرة ••• بدلا من المرور بالداهليز •

قال ذلك وهو يرينى بابا جانبا مغلقا ، يصل غرفتي بغرفته ، أى
بما هو الآن مسكن الأمير •

فقلت له برصانة ووقار :

- بطرس هيبوليتوفتش ، أرجو أن تتفضل فتمضى الى آنا أندريفنا
فورا ، فدعوها ان تجيء الى هنا لتتحدث معى قليلا • هل وصلا منذ
مدة طويلة ؟

- منذ زهاء ساعة

- طيب • اذهب الى آنا أندريفنا وقل لها ما أوصيتك به •

فذهب ثم عاد يحمل الىّ هذا الجواب الغريب ، وهو أن آنا أندريفنا
والأمير ينتظران أن أجيء اليهما بصبر فارغ • اذن لم تشأ آنا أندريفنا أن
تأتى • فعدلت رديجوتى الذى تجعّد فى الليل ، ونظفته بالفرشاة •
وغسلت وجهى ، ومشطت شعرى • فعلت ذلك كله بغير تعجل • ثم
مضيت الى الشيخ مدركا مدى ما يجب التزامه من حذر وروية •

كان الأمير جالسا على ديوان أمام مائدة مستديرة ، أما آنا أندريفنا
فكانت فى ركن آخر ، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت
مجلوا كما لم يسبق أن جلى فى يوم من الأيام ، وكان ماء السماور
يغلى ، وكانت آنا أندريفنا تهيب الشاى •

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها ، فلاحظ العجوز المسكين ذلك

فورا ، فارتجف . وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقا . لكننى لم ألح ، بل أخذت أضحك ، ومددت له يدي ، فارتضى المسكين فى أحضانى .

وفد أدركت فوراً ما صار الرجل اليه ، دون ريب . كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذى كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشيء من سلامه العقل رغم كل شيء ، ولا يخلو من بعض الإرادة والصلابة ، قد أحالوه بعد آخر لقاء بينى وبينه الى نوع من مويا ، وجعلوا منه طفلاً شديداً الخوف ، كثير الحذر والشك . يجب أن أضيف الى هذا أنه كان يعلم لماذا جىء به الى هنا ، وقد جرى كل نبي على النحو الذى ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث . لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين ، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً ، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل . قالوا له ان الوثيقة فى حوزتى وهى « مفتاح الموقف » ، فاذا رآها كان فى وسعه أن يتخذ قراره النهائى . يجب أن أبادر فأقول سلفاً ان رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان يربعه تصورهما أكثر مما يربعه أى شيء فى هذا العالم لقد كان يتوقع أن يرانى داخلاً عليه بالقرار فى جيبى والورقة فى يدي . فما كان أعظم فرحه حين رآنى ، بانتظار ذلك ، مستعداً لأن أضحك وأن أثير فى موضوع آخر . وقد انسكبت دموعه غزيرة حين تعانقنا . ولا أكمكم أننى ذرفت أنا أيضاً بعض العبرات . لقد شعرت فجأة بشفقته كبيرة عليه . وكان كلب آلفونسين الصغير ينبع نباحاً نحيلاً كرنين جرس صغير ، ويندفع من الديوان نحوى . ان هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده ، حتى لقد كان ينام معه .

هتف يقول وهو يومئذ : لآنا آندريفنا الى :

— « قلت انه صاحب قلب نبيل » (بالفرنسية) .

فقلت له :

— لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير ! هيثك الآن مزهرة نضرة !
ولكن نقيض قولى كان هو الصحيح وا أسفاه ! لقد كان الشيخ
أتشبه بمومياء • وما قلت له ذلك الا لأشجعه •

فأخذ يردد بفرح :

— « أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) •

— ولكن هلاً شربت شايت • اذا قدمت لى فنجاناً فسوف يسعدني
أن أحسوه فى صحتك •

— فكرة عظيمة • « فلنشرب ولنفرح » • هناك قصيدة بهذا المعنى •
أليس كذلك ؟ أنا آندريفنا ، أعطيه شاياً • « انه يفتن دائماً بالمواطف ،
(بالفرنسية) • أعطينا شاياً يا عزيزتى •

سكبت لى أنا آندريفنا شاياً • ولكنها التفتت نحوى فجأة ، وأخذت
تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار ، فقالت :

— آر كادى ماكاروفتش ، انا — أنا والمحسن الى الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، قد جئنا الى بيتك لاجئين • جئنا اليك أنت ، لا الى غيرك ،
جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ • تذكر أن كل مصير هذا
الاسان القديس ، النبيل ، المحزون ، هو بين يديك ••• انا ننتظر القرار
الذى يمليه عليك قلبك بالحق والعدل !

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها • فقد اعترى الأمير رعب شديد ،
حتى كاد يرتش من فرط الذعر ، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه
نحوها :

— « فيما بعد ، فيما بعد ، أليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟ »
(بالفرنسية) •

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذى أحدثته فى نفسى مقاطعته
هذه لحديثها • ولم أجب بشئ • ، وانما اكتفيت بتحية فاترة رصينه • ثم
جلست الى المائدة عامداً ، وطفقت أتحدث فى مواضيع أخرى تافهة ،
وأخذت أضحك وأمزح ••• فكان واضحاً أن الشيخ شكر لى ذلك ،
وأنه اغتبط اغتباطاً شديداً • ولكن فرحه كان رغم شدته مهياً لأن يتبدد
سريعا وان يحل محله اكتئاب ويأس • كان هذا واضحا من أول
نظرة •

- « بنى العزيز » (بالفرنسية) • بلغنى أنك كنت مريضاً • •
آ ••• معذرة ••• قيل لى انك كنت طول هذه المدة مشغولاً بتحضير
الأرواح ، أهذا صحيح ؟

أجبتُه مبتسماً :

- ما خطر لى مثل هذا على بال •

- لا ؟ من كلمنى اذن عن تحضير ••• الأرواح واح ؟

انبرت أنا آندريفنا تشرح فقالت :

- ان الموظف ، صاحب البيت ، بطرس هيبوليتوفتش ، هو الذى
كان يحدثه عن هذه الأمور منذ قليل • انه رجل مرح ، يعرف نكات
كثيرة • هل تريد أن أناديه ؟

- « نعم ، نعم ، رجل طيب » (بالفرنسية) • يعرف نكات كثيرة •
ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد • سوف ندعوه • وسوف يحكى لنا كل
شئ • • ولكن فيما بعد ، (بالفرنسية) • تصور أنه منذ قليل ، حين
اعداد المائدة ، قال لى : اطمئن ، فهى لن تطير ! نحن لا نحضر الأرواح !
هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح ؟

- لا أدرى • يُقال انها ترتفع بجميع أرجلها •

فقال وهو يرشقنى بنظرة مرتاعة :

- ولكن هذا الذى تقوله رهيب ! ، (بالفرنسية) •

- اطمئن • هذه سخافات !

- ذلك ما أقوله أنا أيضاً • ان نامتاسيا ستيانوفنا سالوميافا ...
أنت تعرفها طبعاً • لا • لا لاتعرفها • الخلاصة • تصور أنها هى
أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح ...

والتفت الأمير الى آنا آندريفنا وقال مكملاً كلامه :

- تخيلي هذا « يا ابنتى » (بالفرنسية) ! قلت لها يوماً : ان فى
الوزارات موائد أيضاً ، وعلى كل مائدة ثمانى أيدٍ من أيدى الموظفين
تكتب ولا تنقطع عن الكتابة ، فلماذا لا تراقص تلك الموائد ؟ تخيلها وقد
أخذت ترقص فجأة ! شغب تقوم به الموائد فى وزارة المالية ، أو وزارة
التعليم العام ... لم يكن ينقص الا هذا ! ...

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق :

- ما ألفت الأشياء التى تقولها دائماً يا أمير !

- « أليس كذلك ؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكننى أحسن القول »
(بالفرنسية) •

قالت آنا آندريفنا وهى تنهض :

- سأجىء ببطرس هيبوليتوفتش •

وكانت الغبطة تتلأأ فى وجهها. فقد أبهجها كثيراً أن رأتنى ألاطف
الأمير هذه الملاطفة كلها • ولكن ما ان خرجت حتى تبدل وجه الشيخ
فجأة • ونظر بسرعة الى الباب ، وأجال بصره فيما حوله ، ثم مال من
ديوانه على « ، وهمس يقبل لى بصوت مروءع :

- « يا صديقي العزيز ، ليتنى أستطيع أن أراهما كليهما هنا !
« آه بنى الغالى ! » •

- هدىء نفسك يا أمير !

- نعم نعم ، لكننا سنصلح بينهما ، أليس كذلك ؟ انه لشجار صغير
محزون بين امرأتين تفيضان كرمًا وشهامة ، أليس كذلك ؟ ليس لى من
أمل الا فيك ••• سنسوئى هذا كله هنا •••

ثم أضاف يقول وهو يلقي نظرة يكاد يكون فيها خوف :

- ولكن يا له من مسكن غريب ! وهذا المؤجر ! ان له عقلا
عجيباً • قل لى : أليس خطراً ؟

- المؤجر ؟ لا ! فيم يمكنه أن يكون خطراً ؟

- حسن ! عظيم ! « يبدو غيباً ، هذا السيد ، ! ابنى ! أستحلفك
بيسوع المسيح لا تقل لأننا آندريفنا انى خائف من كل شى هنا • لقد
أجزلت المديح لكل شىء منذ أن وطئت هذا المكان ، حتى لقد مدحت
المؤجر نفسه • اسمع ، أنت تعرف قصة فون سون ، هل تتذكر ؟

- نعم أتذكر ، فماذا ؟

- « لا شىء ••• لا شىء البتة ••• ولكننى حسر هنا ، أليس
كذلك ؟ • ما رأيك ؟ لا يمكن أن يحدث هنا شىء ••• من ذلك
النوع ؟

- لا ، لا ، يا عزيزى ، اطمئن ، أحلف لك •••

هتف فجأة يقول وهو يصم يديه أمامى ولا يخفى عنى شيئاً من
جزعه :

- « صديقى ، ابنى ، ••• اذا كان فى حوزتك شىء حقاً •••

ونائق مثلاً •• اذا كان نعمة ما يمكن أن تقوله لى •• فلا تقله ••
لا تقله • لا تقل شيئاً ، ناشدتك الله ••• لا تتكلم ••• الزم الصمت.
أطول مدة ممكنة ، لا تتكلم •••

وأراد أن يحضنى بذراعيه • وسالت الدموع على خديه • لن
أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبي : كان الشيخ المسكين أشبه
بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه ، وأخذنه
الى أجنب • ولكن لم يُسمح لنا بأن نتعاق : فقد فُتح الباب ودخلت
آنا أندريفنا ، ولكن الشخص الذى يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها ،
حاجب البلاط • فصعقنى هذا الشيء الجديد صعقاً ، فسرعان ما نهضت
واتجهت نحو الباب •

قالت آنا أندريفنا بصوت عال :

- أركادى ماكاروفتش ، اسمع لى أن أعرف كلاً منكمما
بالآخر •••

فلم يسعنى الا أن أتوقف • وقلت مقطعاً كلمائى مبسراً منها كلمة
« أحسن » :

- أعرف أخاك « أحسن » المعرفة !

فجمجم الشاب وهو يقترب منى طلق الهيئة ، ويتناول يدى بحرية
فلا أملك أن أسحبها :

- أوه ! ما كان أكبرها غلطة ••• وانى لئذ يا عزيزى آند ••
آندره ماكاروفتش • ولكن خادمى ستيفان هو سبب كل شيء • لقد أساء
الابلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر •
وأردف يشرح لأخته :

- حدث هذا بموسكو ...

نم عاد يكمل كلامه لى :

- وقد بذلت بعد ذلك جميع جهودى لأعثر عليك وأشرح لك الأمر • ولكننى مرضت ... اساله ! • يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى بحكم النسب • • •

وتجراً الفتى الوقع الى حيث وضع يده على كتفى، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة • فأسرعت أخلّص كتفى من يده بوثة الى جانب • ولكننى خجلت أن أزيد على ذلك شيئاً ، فاكفيت بأن خرجت صامتاً ، ومضيت الى غرفتى ، فجلست على سريرى مفكراً قلقاً مضطرباً • كانت هذه المكيدة تخنقنى خنقاً ، ولكننى لا أستطيع أن أطيش صواب أنا آندريفنا وأن أسحقها سحقاً • لقد شعرت فجأة أنها هى أيضاً عزيزة على نفسى ، وأحسست أنها فى وضع رهيب •

٣

كما كنت أتوقع ، جاءت الى غرفتي ، تاركة الأمير مع أخيها الذي أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نثائم المجتمع الراقي الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يأسر وأن يفرح الأمير المسكين الذي يسهل التأثير فيه .

نهضت عن سريري صامتاً مستفهماً . فبادرتي آنا آندريفنا قائلة بلهجة جازمة :

— قلت لك كل شيء يا آرКАДى ماكاروفتش . ان مصيرنا بين يديك .

— لكننى نبهتكَ أيضاً الى أننى لا أستطيع . . . ان واجباتى المقدسة تمنعنى من الاقدام على ما تعتمدين علىّ فيه . . .

— حقاً ؟ أهذا جوابك ؟ أنا لا يهمنى أن أهلك . ولكن الشيخ ؟ أعلم أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء ! هتفت أجيبها بحرارة :

— بل سيُجنُّ إذا أنا أطلعتَه على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يعلن جنون أبيها . ذلك ما لن يستطيع أن يتحمّله . هو قال لى هذا .

الحق اننى كذبت اذ ادعيت أنه قال لى ذلك . ولكن الكذب كان فى محله .

— قال لك هذا ؟ قدّرت أن يقوله لك • فاما الهالكة اذن • حتى
لقد بكى منذ قليل ، وطلب ان يرجع الى البيت •

سألتهما بالحاح :

— قولى لى : ما خطتك على وجه الدقة ؟

فاحمر وجهها من جرح كبريائها ان صح التعبير ، ولكنها كابرته
وتجلدت ، فقالت :

— ان هذه الرسالة التى بين أيدينا تبرئنا فى نظر الناس • سوف
أبادر فوراً فأنبئ الأمير « ف • • • » ، و بوريس ميخائيلوفتش بلتشف ،
صديقى طفولته • هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ ، وأنا أعلم
أنهما أديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجسعة التى لا ترحم •
ولاشك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبى ، وسألح أنا
نفسى على طلب هذه المصالحة • ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً •
وعدا ذلك سيدعمنى أقربائى من جهة أمى ، آل فاناريوتوف ؟ غير أن
الشيء الذى يهمنى خاصةً انما هو سعادته • يجب أن يعرف أخيراً من
ذا الذى كان مخلصاً له حق الاخلاص ، فيقدره قدره الذى يستحقه •
وانى لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيه من تأثير يا آرКАДى
ماكاروفتش • انك تحبه كثيراً • • • ولكن هل يحبه أحد غيرى وغيرك ؟
انه لم ينقطع عن ذكرك فى هذه الأيام الأخيرة • وكان يحنُّ اليك حيناً
شديداً ، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوى • وكان يسميك « صديقه
الشباب » • وطبعى أن شكرى لك وامتنانى منك لن يكون لهما حدود
ما حيث • • •

ها • • • ها هى ذى الآن تعدنى بمكافأة • • • لعلها مكافأة مالية !
فقاطعتها قائلاً بلمهجة خسنة ونبرة جازمة لا تشنى ولا تلين :

- مهما تقولى ... فلن أترحزج عن رفضى قيد شعرة ! لكننى
أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعاملينى به من صراحة ، فأصارك بأخر
ما عقدت العزم عليه : بعد مدة قصيرة سأسلّم الرسالة المشؤمة الى كاترين
نقولاي فبدأ بيد ، ولكننى سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن
ألا تقوم بفضيحة ، وأن تقطع لى على نفسها عهداً بالأ تحول بينك وبين
تحقيق سعادتك . هذا كل ما أستطيع أن أفعله .

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً :

- مستحيل !

لقد أثار استياءها أن تصور أن كاترين نيقولاي فبدأ سوف « تداريها »
وتحميها .

قلت :

- لن أغير قرارى يا آنا أندريفنا .

- قد تغيره .

- الجئى الى الأمير !

- أركادى ماكاروفتش ، انك لا تعرف المصائب التى يمكن أن تنتج
عن عنادك .

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد . فأجبتها :

- جائز جداً أن تنتج مصائب ... اننى أشعر بدوار ! كفى الآن :
لقد فررت واتهى الأمر . ولكننى أرجوك ، بل أستحلفك بالله ،
ألا تأتينى بأخيك .

- ولكنه يريد أن يمحو ما ...

- ليس هناك شيء يجب محوه ! ... ما أنا في حاجة الى أن يمحو شيئاً • لا أريد ، لا أريد !

كذلك صحت وأنا أمسك رأسي بيدي • ولعلني قد عاملتها
بامتلاء •

وأردفت أسألها :

- قولي لي : أين سييت الأمير ؟ هنا ؟

- سييت هنا ، عندك ومعك •

- اني تارك هذا البيت منذ الليلة •

وما ان نطقت بهذه الكلمات التي لا رحمة فيها ، حتى تناولت قبعتي
وأخذت ألبس معطفي • فكانت أنا أندريفا ترقبني صامتة مكفهرة الوجه •
وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة ، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً • ومع ذلك
خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة •

٤

سأحاول أن أوجز • بعد أن اتخذت قرارى قاطعاً لا رجعة عنه ، اتجهت قُدماً الى بيت تاتيانا بافلوفنا • وا أسفاه ! لقد كان يمكن انتقاء مصيبة كبيرة لو أننى وجدتها • ولكن سوء الحظ كان يلاحقنى فى ذلك اليوم • فلم أجِد تاتيانا بافلوفنا • فذهبت الى ماما ، أولاً لأزور أمى المريضة ، وثانياً لأننى قدرت أننى سوف أجِد عندها تاتيانا بافلوفنا فى أغلب الظن • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمى منذ برهة وجيزة • وكانت أمى راقدة فى سريرها ، وقد بقيت ليزا وحدها معها • رجعتى ليزا ألا أدخل وألا أوقظ ماما من نومها قائلةً لى : « انها لم تهم الليل كله ، وظلت تتألم وتتعب • فمن حسن الحظ أنها غفت الآن • • • » قبّلت ليزا ، وقلت لها بكلمتين اننى اتخذت قراراً ضخماً حاسماً ، واننى مقدم على تنفيذه حالا • فأصفت ليزا الى كلامى بدون دهشة كما يصغى المرء الى كلام عادى جدا ، ذلك أنهم جميعاً قد ألفوا كثيراً أن يسمعوا منى كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها ، كقولى « قرارات أخيرة » ، ثم رأونى أرتضى فأتركها • ولكننى الآن • • الآن • • لن يكون شأنى كما كان • ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أثناءها الى بيتها ، ذهبت الى المطعم الذى يقع تحت مستوى الشارع ، والذى تروج فيه أغنية « لوسيا » رواجاً كبيراً • وسأشرح السبب الذى جعلنى فى حاجة شديدة الى تاتيانا بافلوفنا فجأة • لقد كنت أنوى أن أرسلها الى كاترين نيقولايفنا فوراً ، فتأتى بها الى بيتها ، فأردّ الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا بحضور تلك

المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة الى الأبد • الخلاصة
 اننى كنت أريد أن أفعل الخير : أريد أولاً ان أبرى نفسى تبرئة حاسمة ،
 وأحرص على هذه التبرئة وأعدّها حقاً الى • حتى اذا فرغت من ذلك أخذت
 أدافع عن آنا أندريفنا وأقول فيها قولاً حسناً ، ثم اصطحبت كاترين
 نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهدا) الى بيتى ، أى الى الامير ، فأصلحت ما بين
 المرأتين المتعاديّتين هناك ، وأردت الحياة الى الأمير •• و •• فى نطاق
 هذه الطائفة الصغيرة ، أجعل الجميع سعداء ، منذ هذا اليوم ، ثم لا يبقى
 بعد ذلك الا فرسيلوف وماما • ولم يخالجنى شك فى نجاح مسعى : فان
 كاترين نيقولايفنا ستكون ممتنة من ردّ الرسالة اليها ردّاً لا أطالب أن
 أكافأ عليه بشيء ، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائى • وا أسفاه !
 كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة فى حوزتى • آه ما كان أغبى وأحقّر
 الوضع الذى كنت فيه بدون أن أشعر ! •••

كان الظلام قد هبط ، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين
 قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى • فقالت لى مارى بفظاظة • انها لم
 ترجع • • انى لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكرنا واضحاً •
 ولكننى فى تلك اللحظة لم تراودنى أية شبهة • حتى لقد خطرت لى هذه
 الفكرة الأخرى : ففيمما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مثبّط الغزيمه ،
 تذكرت الأمير المسكين الذى مدّ الىّ ذراعيه منذ قليل ، فلمت نفسى لوماً
 لاذعاً لأننى تركته من غضب ؛ وأخذت أتصور ، قلقاً أشد القلق ، ما لعله
 حدث عندهم أثناء غيابى من أمور قد تكون سيئة غاية السوء ، فأسرعت
 أعود الى البيت • فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية :

ان آنا أندريفنا التى أغلظت لها القول وأغضبته ، لم تفقد شجاعته •
 يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت الى لامبير مرة أولى فمرة
 ثانية ، فلما لم يعثر عليه فى بيته ، بعثت أخاها يبحث عنه • كانت المسكينه

بعد أن رأته صمودى وعنادى تعقد أملها كله على لاميير وتأثيره فى .
فكانت تنتظره نافذة الصبر . ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة
ويختفى ، وهو الذى كان الى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم
حولها . مسكينة ! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لاميير الذى
يستولى الآن على الوثيقة ، قد اتخذ قرارات أخرى ، وأن من الطبيعى
أن يتوارى عن الأنظار ، وأن يتوارى عن نظرها هى خاصة .

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان فى نفس آنا آندريفنا ، فكان
طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسليية الأمير الشيخ ، وكان قلق الشيخ من جهته
يشد اشتداداً يدعو الى الخوف والفرع . كان يلقي أسئلة غريبة وجلة ،
وكان ينظر الى آنا آندريفنا مشتتاً مرتاباً ، حتى لقد أجهش باكياً عدة
مرات . ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة . فاستدعت آنا آندريفنا ،
بعد انصرافه ، بطرس هيبوليتوفتش الذى كانت تعول عليه كثيراً . ولكن
بطرس هيبوليتوفتش لم يحدث فى نفس الأمير الا الاشتزاز بدلاً من أن
يسليه ويسرته عنه . وكان الأمير ، على كل حال ، ينظر الى بطرس
هيبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتباب ما ينفك يزداد . وقد شاعت
المصادفة أن يستأنف بطرس هيبوليتوفتش ثروته عن تحضير الأرواح ،
وعن الأعياب أخرى قال انه شهدا بنفسه : منها أن مشعوذاً مرّ بالمدينة
يوماً ، فكان يقطع رؤوساً على رؤى من الناس ، فتسيل الدماء من الأعناق ،
ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه ، ثم يعود الرجل فيتناول الرموس المقطوعة
ويردّها الى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على رؤى من جميع الناس
أيضاً ، وقد حدث هذا كله سنة ١٨٥٩ ؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام
بلغ من شدة الهلع ومن شدة الامتياى فى الوقت نفسه أن آنا آندريفنا
اضطرت أن تطرده القصاص . ومن حسن الحظ أن وصل الغداء فى ذلك
الوقت ، وهو غداء غنى به لاميير و آلفونسين أوصيا باعداده طبخاً
فرنسياً حاذقاً يسكن فى بيت قريب ، ولكنه لا يعمل الآن فى مكان وانما

هو يبحث عن عمل في منزل أسرة ارستقراطية أو في أحد النوادي . فكان من شأن هذا الغداء مع الشبان أن أفرح المعجوز جداً ، فأكل كثيراً وفرح كثيراً ؛ وكان طيباً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة في النوم . واذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً ، فإن أنا أندريتنا كانت قد أعدت له سريراً . فكان وهو يرقد على السرير يقبل يديها ويقول لها انها جنته ، وانها أمه ، وانها حوريتيه ، وانها « زهرته الذهبية » ، الى ما هنالك من تعابير شرقية . ونام أخيراً . وعندئذ انما وصلت أنا .

أسرعت أنا أندريتنا تدخل على ، فضمت يديها أمامي ضارعةً مبتهلة ، وقالت انها تتوسل الى (لا من أجلها بل من أجل الأمير) ألا أخرج ، وأن أذهب اليه متى استيقظ من نومه . « اذا لم تكن أنت معه فقد هلك . لسوف يصاب بنوبة . أخشى ألا يقاوم الى آخر اليوم . . . » . وأضافت تقول انها مضطرة أن تغيب عن البيت اضطراراً لا سبيل الى دفعه ، « وان غيابها قد يطول ساعتين ، فهي اذن تترك الأمير تحت حراستى . » فقطعت لها على نفسى عهداً حاراً بأن أبقى الى المساء ، فاذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسليه وأسرى عنه .

فقلت تختم كلامها بقوة :

— وأنا سأقوم بواجبي .

وانصرفت . يجب أن أذكر مستقبلاً الوقائع أنها انما مضت تبحث عن لأمير . انه آخر أمل لها . وعدا ذلك زارت أخاها وأقرباءها آل فاناريوتوف . فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسية حين رجعت !

استيقظ الأمير بعد انصرافها بنحو ساعة . وسمعت صوت آنيته من وراء الجدار ، فأسرعت اليه فوراً . فوجدته جالساً على سريره بثوب

المنزل ، ولكنه كان قد بلغ من شدة الفزع من الوحدة وضوء الصباح الوحيد الخافت وهذه الغرفة الغريبة أنه حين دخلت عليه ارتعش واتفض وصرخ • فهرعت اليه ، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا ، أخذ يقبّلني ودموع الفرح تنهمر من عينيه •

— قيل لى انك تركت هذا البيت ، قيل لى انك خفت ففرت !

— من قال لك هذا ؟

— من ؟ دعنا ! لعلى أنا الذى تخيلته • ولعل أحداً قاله لى أيضاً •
لقد حلمت منذ قليل حلماً : رأيت شيخاً ملتجئاً يدخل على فجأة وفى يده أيقونة محطومة نصفين ، ويقول لى : « هكذا ستحطم حياتك ! » •

— لابد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة !

— « أليس كذلك ؟ » ، نعم ، نعم ، علمت هذا • علمته فى هذا الصباح من داريا أونيسيوفنا • لقد نقلت الى هنا حقيتى وكلبى •

— يا له من حلم غريب !

— وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهددنى بأصبه • ولكن أين آنا آندريفنا ؟

— ستأتى حالاً •

هتف يسأله بألم :

— من أين ؟ الى أين ذهبت ؟

— لا ، لا ، ستكون هنا حالاً • لقد طلبت منى أن أبقى معك لحظة •

— « نعم » ، ستجىء • اذن 'جن' صاحبنا آندره بتروفتش ، « وبهذه المباحة ، وبهذه السرعة ! » • لظالما تنبأت له بأنه سينتهى هذه النهاية • اسمع يا صديقى •••

قال ذلك وأمسك ردنجنوني وشدني اليه ، وهمس :
 - جاني المؤجر منذ قبل بصور فوتوغرافية ، صور فوتوغرافية
 قدرة ، صور نساء .. نساء عاريات .. بأوضاع شرقية مختلفة .. وأخذ
 يريني الصور في الضوء . فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً ، على مضض
 وكره . ولكن تلك هي الطريقة التي استعملوها مع ذلك المسكين ليحيثوه
 بنساء سيئات ، فيسكروه بسهولة أكبر ..

- تقصد فون سون أيضاً ! دعنا من هذا يا أمير ! ان المؤجر رجل
 غبي لا أكثر .

- غبي لا أكثر ! « هذا رأيي » . يا صديقي ، انقذني من هذا
 المكان ان استطعت !

قال ذلك وهو يضم يديه أمامي ضارعاً على حين فجأة . قلت :
 - سأفعل كل ما أستطيع يا أمير ! أنا لك ... عزيزي الأمير ،
 انتظر ، قد أدبر جميع الأمور .
 - « أليس كذلك ؟ » ، سوف نهرب ، تاركين الحقيقة هنا ، حتى
 يتخيلوا أننا سنعود .

- الى أين نهرب ؟ وأنا أندريفنا ؟

- لا ، لا ، سنهرب مع أنا أندريفنا .. آه .. عزيزي ..
 أحس بغليان في رأسي . اسمع : ان هناك ، في الكيس الذي على اليمين ،
 صورة لكاتيا . لقد دمست الصورة في الكيس خفية منذ قليل ، حتى
 لا تراها أنا أندريفنا ، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفا
 خاصة ! .. أخرج الصورة بسرعة ، ناشدتك الله ، وأحرص على
 ألا يفاجئنا أحد .. ألا يمكن شد المزلاج فلا يفتح الباب ؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صورة فوتوغرافية لكاترين نيقولايفنا

« صلا » ، صورة ذات اطار بيضوى ، أخذها الشيخ منى ، وحملها الى الضوء ، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه الهزيلتين الشاحبتين ، وهتف يقول :

- « ملاك ، ملاك من السماء ! » • أذنبت فى حقها طول حياتى •
والآن أيضاً ! « ابتى العزيزة » أنا لا أصدق شيئاً ، لا أصدق شيئاً !
قل لى يا صديقى : هل صحيح أنه يراد ايداعى فى ملجأ للمجانين ؟
« أفول أشياء حلوة ، فيضحك الناس كافة » • • ثم يؤخذ هذا الرجل فجأة الى ملجأ للمجانين •

صحت أقول :

- مستحيل • هذا الكلام خطأ • أنا أعرف عواطفها •
- أنت أيضاً تعرف عواطفها ؟ رائع ! • • • أحييتى يا صديقى !
ما أكثر الكلام الذى قالوه لى عنك ! استدع كاتيا الى هنا ، ولتعاونا كلاهما أمامى ، فأخذهما الى البيت ، ونطرد المؤجر •

قال ذلك ونهض وضمّ يديه ضارعاً ، ثم ركم أمامى على الأرض فجأة ، وأضاف يهمس بجزع مسعور ، مرتعشاً كورقة فى مهب الريح :

- « عزيزى » ، أين سيحشروننى الآن ؟

فهمت أقول وأنا 'أنهضه وأجلسه على السرير :

- ألا تصدقنى أنا أيضاً ؟ هل تظن أننى أنا أيضاً مشارك فى المؤامرة ؟ ألا اننى لن أسمع لأحد هنا أن يلمسك بأصبعه •

فتمتم يقول وهو يشدُّ على كوعى بيديه شداً قوياً وما يزال يرتعش :

- « نعم » ، لا تسمح لأحد ! لا تسلمنى الى أحد ! وأنت أيضاً

لا تكذب على .. لأنه .. هل يمكن أن يقتادوني من هنا ؟ اسمع : هذا
المؤجر هيبوليت ... أو ما اسمه ؟ هل هو ... طيب ؟

- دكتور ؟

- وهنا ... أليس هنا ملجأ مجانين ، هنا ، في هذه الغرفة ؟

ولكن الباب 'فتح في تلك اللحظة و دخلت آنا آندريفنا • لاشك
أنها كانت تتصنت وراء الباب ، ثم نفذ صبرها ففتحت فجأة ، فاذا بالأمير
الذى كان يرتجف من أيسر صرير ، اذا به يصرخ فجأة وينطس رأسه
في وسادته ، ثم اذا هو يعانى ما يشبه أن يكون نوبة عصبية انتهت بكاء
يصحبه نسيج • قلت لها وأنا أشير الى الشيخ :

- انظرى الى ثمرة عملك الجميل !

فقال رافعة صوتها :

- بل هذه ثمرة عملك أنت • انى أتوجه اليك آخر مرة يا آرКАДى
ماكروفتش : هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التى دُبرت لهذا
الشيخ الذى لا يملك ما يدافع به عن نفسه ، وأن تضحى « باحلام حب
جنونى صيبانى » فى سبيل أن تنقذ « أختك أنت » ؟

- سأنقذكم جميعاً ، ولكن على الوجه الذى ذكرته لك من قبل !
اخرج الآن بسرعة ، فقد أستطيع أن أجىء بكاترين نيقولايفنا الى هنا
بعد ساعة ، فأصلح ما بينكم جميعاً ، وتسعدون جميعاً !

كذلك هتفت كاللهم •

قال الأمير وقد تاب الى نفسه أخيراً :

- جىء بها ، جىء بها الى هنا • خذنى الى بيتها ! أريد كاتيا ،
أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها •

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيه ، وينهض عن سريره
فقلت لآنا آندريفنا وأنا أشير إليه :

- هل ترين ؟ هل تسمعين ما يقول ؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة ،
يكن من أمر !

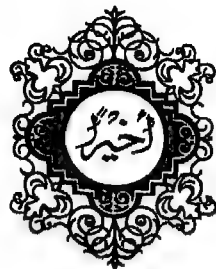
- أرى • ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوّغ سلوكي في :
المجتمع ، أما الآن فأنا مجللة بالحزى والعار ! على أن ضميري نقي •
تركنتي الجميع ، حتى أخى الذى خشي الاخفاق ••• لكننى سأأ
بواجبي ، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمة وممرضة •

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته • فخرجت من الغرفة مسرعة
وصرخت من العتبة قائلاً :

- سأرجع بعد ساعة ، ولن أراجع وحيداً •

الفصل الثاني عشر

١



وجدت ناتيانا بافلوفنا فاندفت أروى كل شيء دفعة واحدة ، فحكيت لها قصة الوثيقة من أولها الى آخرها ، وحدثتها عما يجري عندنا تفصيلا . وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهما كاملا ، وأنها كانت قادرة على أن تدرك القضية بكلمتين . كنت وحدي أتكلم ، فقلت الحقيقة كلها ولم أخجل . وكانت هي صامئة ساكنة منتصبية الجذع كوتد ، وبقيت جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عنى عينيها ، وتصغى الى كلامي بكل ما تملك من قوة الاصغاء . ولكن ما أن أنهيت حديثي حتى وثبتت عن مكانها فجأة ، وبلغت من سرعة الوثوب أننى وثبت أنا أيضا ، وانطلقت تقول :

— آآآ يا وغد ! ... اذن كانت تلك الرسالة مخيطة في جيبك ... خاطتها تلك البنية الحماء ماريا ايفانوفنا ! آه يا نذل ، يا سافل ! اذن جئت الى هنا لتسيطر على القلوب ، ولتغزو المجتمع الراقى ، ولتلتحق الأذى بأى انسان انتقاما لكونك ابن زنا .

صحت أقول لها :

— ناتيانا بافلوفنا، انتى أمنعك من شتمى، ولعلك أنت، بشتائمك، منذ البداية ، كنت سبب استعمار نفسى هنا . نعم، أنا ابن زنا ، ولعلنى أردت فعلا أن انتقم لنفسى من ذلك بايذاء أى انسان ، مادام الشيطان

نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب فى هذا ! ولكن تذكرى أنتى نبذت تحالفى مع الأوغاد ، وأنتى انتصرت على أهوائى الجاحمة ! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة ، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هى كلمة ، وستكونين على ذلك شاهدة •

أعطينها ، أعطنى الرسالة ، وأعطينها حالا ، ضمها هنا على المائدة ! من يدرى ؟ لعلك تكذب !

— هى مخيطة فى جيبي • ماريما ايفانوفنا خاطبتها بيدها • فلما صنع لى هنا رديجوت جديد ، سللتها من الرديجوت القديم وأعدت خياطتها بنفسى فى هذا الرديجوت • هى ذى ، هنا ، أمسكها ، جسيها ، لست أكذب !

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة :

— أعطينها اذن ! اسحبها !

— مستحيل • سأضعها أمامها بحضورك ، وسأنصرف بدون أن أنتظر منها كلمة واحدة • ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينها أنتى أنا ، أنا نفسى ، الذى أردتها اليها ، بارادتى ، من غير اكراه ، وبدون جزاء •

— افتخاراً بنفسك ! انك لا تزال مولهاً بالحلب أيها الغر !

— صيفنى بما تشائين من نعوت سيئة • اننى استحق ذلك كله • ولن أزل • لتحسبنى صديقاً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها • لتحسبنى ما تشاء • ولكن فلتعترف بأننى سيطرت على نفسى ، وفصلت سعادتها • هى ، على كل شئ فى هذا العالم ! سيان يا تاتيانا بافلوفنا ، سيان ! اننى أهيب بنفسى قائلاً : عليك بالشجاعة وعليك بالأمل ! لعل هذه خطوتى الأولى فى الحياة ، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة ، نهاية نبيلة !

وتابعت أقول كاللهم وقد سطعت عيناي :

- ثم ... هبى أننى أحبها . لست أشعر من هذا بخجل : ان
ماما ملاك من السماء ، و « هى » ملكة فى الأرض ! وسيمود فرسيلوف
الى ماما ... فلست فى حاجة الى الحجل . لقد سمعت ما قالاه هناك -
« هى » وفرسيلوف - فقد كنت وراء الستارة . آه ... نعم ... اننا نحن
الثلاثة « مصابون بجنون واحد » . هل تعلمين من قال هذه الجملة ؟
انه هو ، آندره بتروفتش ! وهل تعلمين أننا قد نكون هنا أكثر من
ثلاثة ، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه ؟ نعم ، أراهن أنك
الرابعة ! هل تريدین أن أقول لك ما أعتقد به : أراهن أنك أنت أيضاً
قد تولدت طوال حياتك بحب آندره بتروفتش ، وأنتك ما تزالين
مولّهةً بحبه الى اليوم ...

أعود فأقول اننى كنت أتكلم كاللهم تدفقاً ، وكنت سعيداً ، ولكننى
لم أستطع أن أتم كلامى ، فهامى ذى تانياً بافلوفنا تمسك شعرى
بحركة سريعة سرعة خارقة ، فتحنى رأسى الى الأرض مرتين ، بكل
ما تملك من قوة ... ثم تتركنى حيث أنا ، وتسحب الى ركن ،
فتضع وجهها على الجدار مغطى بسنديلها ، وتقول لى باكية :

- سافل ! لا تقل لى مثل هذه الأشياء بعد الآن .

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه ، فشدهت أشد الشده . وبقيت
متسماً فى مكانى أنظر اليها ولا أدرى ماذا يجب أن أعمل .

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكية فى آن واحد :

- غبى ! تعال ! تعال قبّل صديقتك العجوز البلهاء ! ولا تكرر
هذه الأشياء بعد اليوم أبداً . انى أحبك أنت ، ولقد أحبيتك طول
حياتى ... يا أبله !

قبَلَتْها • وأحب أن أقول مستطرداً اتنا - أنا وتاتيانا بافلوفنا - قد
أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين •
وهتفت تقول فجأة وهى تلطم جبينها :
- ولكن ما بقائى هنا ؟ قلت لى ان الأمير العجوز فى بيتك ؟
هذا صحيح ؟
- أؤكد لك •

فجمجمت تقول وهى تركض فى الغرفة كفارة :
- آه ... رباه ! لشدما يوجع قلبى ! هكذا يعاملونه اذن منذ
الصباح ! ان البلهاء لا يعاقبون اذن قط ! هل ارتاحت الآن آنا آندريفنا ؟
يا لها من راهبة ! والأخرى ، الـ « ميليتريا » ، لا تعرف شيئاً !
- ما ميليتريا ؟

- الملكة فى الأرض ، المثل الأعلى ! ما العمل الآن ؟
هتفت أقول وقد ثبت الى رشدى :

- تاتيانا بافلوفنا • لقد استرسلنا فى سخافات ، ونسينا الشئ
الأساسى : لقد جئت باحثاً عن كاترين نيقولايفنا ، وهم ينتظروننى
هناك !

وشرحت لها أننى سأسلم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مشروطاً
عليها أن تعمدنى بمصالحة آنا آندريفنا فوراً ، بل بالموافقة لها على
زواجها ...

فقاطعتنى تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- هذا حسن جداً • أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة • ذلك
أنه سيموت قبل أن يتم الزواج ؛ انه لن يتزوجها ، واذا أورهاها فى
وصيته بعض المال ، فلاشك أن هذا كتب فى الوصية منذ الآن ...

- هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترين نيقولايفنا ؟
 - لا ، وانما هي كانت تخشى دائماً أن تكون الوثيقة عندها ،
 عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً . فكنا نراقبها هي . كانت البنت
 لا تريد أن تصدم أباهما الشيخ . أما فيما يتعلق بالألماني بيورنيج ، فإن
 المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً .

- وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنيج ؟
 - ما حيلتنا مع غيبة ؟ الغيب يبقى غيباً طول حياته . على كل حال ،
 سيهيء لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة . لا بد أن أتزوج أحداً ، فأى
 فرق بينه وبين غيره ؟ ، . هذا ما تقوله . وسوف نرى ما يحدث .
 لسوف تمض على أصابعها ندماً ، ولكن بعد فوات الأوان .
 - فلماذا تسمحين لها بهذا ؟ انك تحبينها ، حتى لقد أعلنت لها
 أنك مغرمة بها .

- مغرمة ، نعم اننى أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين . . .
 ولكن هذا لا ينفي أنها بلهاء جداً !

- هلمى إليها حالاً . ستخذ قراراً ونقودها الى أبيها .
 - ولكن هذا مبستحيل ، مستحيل يا غيبى ! هذا بعينه ما هو
 مستحيل ! آه ما العمل ؟ اننى أشعر بدوار .
 وطفقت تتحرك فى الغرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها .

قالت :

- آه لو أنك أثبت قبل أربع ساعات . . . الساعة الآن هي
 السابعة وتزيد قليلاً . لقد ذهبت الى آل بلتشيف تتفدى عندهم ، ثم
 تصحبهم الى الأوبرا .

- فماذا لو ركضنا الى الأوبرا ؟ لا . . . هذا مستحيل . ولكن
 ما عسى يحدث للعجوز ؟ انه قد يموت فى هذه الليلة .

- اسمع • لانهب الى هناك ، بل اذهب الى ماما ، وغداً ، في ساعة مبكرة من الصباح •••

- لا ، مستحيل ، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث !

- انك على حق • لا تتركه • ولكننى أنا ••• سأجرى اليها رغم كل شىء ، فأترك لها كلمة ••• سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هى) أن الوثيقة موجودة ، وأن عليها أن تجىء الى حتماً فى الساعة العاشرة تماماً من صباح الغد • اطمئن • مستجىء • ستسمع لى • وعندئذ سنسوى كل شىء • اذهب أنت الآن الى هناك ، ودبّر أورك مع العجوز ••• أرفقه ••• فقد يقاوم الموت الى الغد • ولا ترعب آنا أندريفنا • ذلك أننى أحبها هى أيضاً • أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم : لقد أوديت وأهينت ، أوديت وأهينت منذ طفولتها • آه •• ما أكثر ما رأيت منكم جميعاً ! ولكن لا تنس أن تقول لهما على لسانى انى سأتولى الأمر بنفسى ، فأمسكه بىدى سعيدة بذلك ، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبرياءها بسوء • ذلك أننا تشاجرنا فى الأيام الأخيرة ، وتسانمنا ! فاركض اليها •• بل انتظر •• أرنى جيبك •• هل ما قلته صحيح ؟ صحيح حقاً ؟ هـ ؟ هل هو صحيح حقاً ؟ أعطنى الرسالة اذن ، أبقها معى هذه الليلة فحسب • هل فى هذا ما يضررك ؟ اتركها عندى • لن آكلها • من الجائز أن تضيعها فى هذه الليلة •• أو أن تغير رأيك !

- مستحيل ! أمسكى ، جسى ، شوفى ! لكننى لن أتركها لك بحال من الأحوال •

جست تاتيانا بافلوفنا جيبي بأصابعها ، فقالت :

- ثمة ورقة حقاً • طيب • اذهب • هيّا • وسأنبأنا الى المسرح • فكرتلك تلك حسنة • ولكن اركض ، ما بالك لا تركض •

- تاتيانا بافلوفنا ، لحظة ! كيف حال أمى ؟

- حسنة ♦

- وآندره بترفش ؟

فحركت يدها بإشارة تهرب ثم قالت :

- سيسترد عقله ♦

فانصرفت مسرعاً وقد تشبعت وامتألت نفسى رجاءً وأملًا ، رغم
أن النتيجة كانت غير ما توقعت ♦

ولكن القدر كان قد شاء أن تعجز الأمور مجرى آخر ، وكنت
أجهل ما هبأ لى ♦ حقاً ان على هذه الأرض قدراً ♦

سمعت في بيتنا جنبة وأنا على السلم • كان باب البيت مفتوح
وفي الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية • وكان بطرس هيبوليتوف
وامراته واقفين كذلك في الدهليز ينظران مذعورين • ان باب غـ
الأمير مفتوح : وفي داخل الغرفة يجلبجلب صوت راعد سرعان ما عرفت
انه صوت بيورنيج • وما ان خطوات خطوتين حتى رأيت بيورنيج يجـ
الأمير الى الدهليز ، هو ورفيقه البارون « ر • • • » الذي سبق أن
يفاوض فرسيلوف • كان الأمير غارقاً بدموعه ، يرتجف ويشهق ويهـ
بيورنيج ويقبّله • وكان بيورنيج يزعم صارخاً في وجه آنا آندريفنا ا
خرجت هي أيضاً الى الدهليز تتبع الأمير • وكان بيورنيج يهدد
ويتوعدها ، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه • الخلاصة أنه
يتصرف تصرف جندي ألماني فظ ، رغم كل « المجتمع الراقى الذي
ينتمي اليه » • وقد عرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندريفنا قد ارتكـ
جريمة من جرائم الحق العام ، وأنها يجب أن تحاسب الآن على هـ
الجريمة أمام القضاء • كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها ،
يحدث هذا لكثير من الناس ، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصر
دون اكتراث بأي شيء ، ودون مراعاة لأي اعتبار • لا سيما وأنه
يتح له الوقت الكافي لتعمق المسألة : لقد وصلته رسالة غير مذيبة بتوـ
صاحبها ، تبلغه كل شيء ، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر هـ
قليل) ، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التي يمكـ
أن ينحدر اليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألماني

فاذا هم لا يفوقون فى سلوكهم اسكافيا من الاسكافين • وقد استقبلت
آنا آندريفنا هذه الهجمة بوقار كبير ، لكننى لم أشهد هذا • وانما رأيت
بيورنج ، بعد أن جرَّ العجوز الى الدهليز ، يسلمه فجأة الى البارون
« ر • • • » ، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندريفنا فيرشقها بالجملة التالية
(ربما جواباً على ملاحظة منها) :

— أنت محتالة متأمرة • ان ما تريدنه هو ماله ! فاعلمى أنك منذ
هذه اللحظة قد تلتطخ شرفك فى المجتمع ، وأنتك ستحاسنين أمام
القضاء ! • • •

— أنت الذى تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفتموه الى الجنون
دفعاً • • • ثم تعجىء تنتقم منى لأنتى امرأة ليس لها من يدافع عنها • • •

فقال بيورنج ساخراً غاضباً ، بلهجة سيئة :

— آ • • • نعم • • • أنت خطيبتيه ، خطيبتيه ! • • •

قال الأمير داعم العينين :

— بارون • • • بارون • • •

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندريفنا :

— « أحبك يا ابنتى العزيزة » !

فصرخ بيورنج قائلاً :

— دعك يا أمير ، ان هناك مؤامرة عليك ، وربما على حياتك !

— « نعم ، نعم ، أفهم ، فهمت منذ البداية » • • •

قالت آنا آندريفنا رافعة صوتها :

— أمير ، انك تهيننى ، وتسمع لغيرك بأن يهيننى !

فصرخ بيورنج قائلاً لها فجأة :

- اخرجى من هنا !

فلم أستطع صبراً • فزارت أقول له :

- وفد •

وأضفت أخاطبها :

- آنا آندريفنا ، آنا أدافع عنك •

ليس فى بيتى ولا فى وسعى أن أسجل جميع التفاصيل • لقد كان مشهداً رهيباً دينياً • فقدت صوابى فجأة • أظن اننى هجمت عليه فضربته ، أو صدمته صدمة قوية على الأقل • فضربنى على رأسى بكل ما أوتى من قوة ، فاذا أنا أسقط على الأرض • فلما ثبت الى نفسى ، اندفعت اطاردهم على السلم • أذكر أن الدم كان يسيل من أنفى • وكانت تنتظرهم عند الباب عربة ففيما كانوا 'يركبون الأمير' ، وثبت الى العربة ، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الخادم كان يبعدنى وينحبنى • لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة • ولكن بيورنج أمسك ياقتي وأصدر الى الشرطى أمراً صارماً بأن يقتادنى الى المخفر • فصرخت أقول ان من الواجب أن يجيى هو أيضاً الى المخفر لتسجيل محضر ، وانه ليس من الحق أن 'أعتقل وأنا فى بيتى تقريباً' • ولكن لما كان المشهد قد حدث فى الشارع لا فى البيت ، ولما كنت أصرخ وأشتم وأخبط كسكران ، ولما كان بيورنج مرتدياً بزته العسكرية ، فقد قبض على الشرطى ، فاذا أنا يجن جنونى فعلاً ، فأقاوم الشرطى بكل ما أملك من قوة ، حتى لقد ضربته فيما أظن • وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك ، فاقادانى • ولكننى لا أكاد أتذكر كيف 'أدخلت الى غرفة يملؤها الدخان ، وتفسد جوها رائحة التبغ ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف ، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب • وهناك أيضاً ظلت أزق مطالباً بكتابة محضر ، فبذلك تعقدت القضية اذ دخلها

عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليها • وكان هندامى قد ساء كثيراً •
ونهرنى أحدهم نهراً عنيفاً • وأخذ شرطى يتهمنى بمشاجرة استعملت
فيها الضرب ، وطفق يحكى القصة فقال : كان كولونيل ... الخ ...

صرخ أحدهم يسألنى :

- ما اسمك ؟

فزعت أقول :

- دولجوروكى •

- الأمير دولجوروكى ؟

فأخرجنى هذا السؤال عن طورى وأفقدنى رشدى ، فأجبت
بشتائم فاحشة • ثم • ثم • ثم • أتذكر أننى 'جررت الى حجرة مظلمة
' لأفيق من سكرى ' ، لا ، لست أحتج • لقد قرأ جميع الناس فى
الصحف فى الآونة الأخيرة شكوى سيد قضى ليلة كاملة فى المخفر ،
وكبّل بالسلاسل فى غرفة ' الصحو من السكر ' ، وكان ذلك الرجل
بريئاً براءة تامة ، أما أنا فقد كنت مذنباً • تهالكت على مرقد الى جانب
شخصين كانا نائمين كجثتين هامدين من فرط السكر • كنت مصاباً
بصداع ، وكان صدغاي ينبضان ، وكان قلبى يدق دقاً قوياً • وأغلب
الظن أننى قد أغمى على ، وأخذت أهدى • لكننى أتذكر اننى استيقظت
فى وسط الليل ، فجلست على المرقد ، فتذكرت فجأة كل شيء ، وأدركت
كل شيء ، ف جعلت كوعى على ركبتي ، ووضعت رأسى بين يدي ،
وغرقت فى تفكير عميق •

لا ، لن أصف هنا عواطفى ، فليس فى الوقت متسع لذلك • ولكننى
أريد أن أسجل ما يلى : لعننى لم أعش فى حياتى كلها لحظات أحفل
بالفرح من تلك الدقائق التى قضيتها مفكراً ، فى الليل العميق ، على
المرقد الحجرى ، بمخفر الشرطة • قد يبدو هذا للقارىء أمراً غريباً

شاذاً ، وقد يحسبه نجحاً وتفاحراً ، وقد يعده رغبة في الاغراب والتفرد . ولكن ما أقوله هو الحقيقة . تلك لحظة من اللحظات التي قد يمر بها كل انسان ، ولكن مرة واحدة في حياته . ففي تلك اللحظة يقرر مصيره ، ويحدد آراؤه ، ويقول لنفسه الى الأبد : « انظر أين هي الحقيقة ، وانظر أين يجب أن تنشدها » . نعم ، لقد أضاعت تلك اللحظة نفسي . كنت أعلم حق العلم ، بعد أن أهانت ذلك الرجل الوقح بيورننج ، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمي الى المجتمع الراقى ستهينى أيضاً في الغد ، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً ، ولكنني فررت ألا أنتقم . وقررت ، رغم الاغراء ، ألا أكشف عن الوثيقة ، وألا أطلع عليها الناس (كما كانت تدور هذه الفكرة في رأسي) ، وأخذت أكرر على نفسي أنني سأضع الوثيقة أمامها منذ الغد ، وأنني قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر ، غير أنني ، رغم كل شيء ، لن أقول كلمة واحدة ، وسأتركها الى الأبد ولكن لا داعي الى الالحاح . أما ما سيحدث غداً حين أساق الى السلطات ، وما سبصنع بي ، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه . ورسمت على نفسي اشارة الصليب بارتياح ومجبة ، واضطجعت على المرقد ، ونمت نوماً مضيقاً كنوم الأطفال .

ولم أستيقظ في الغد الا ضحى . أنا الآن في الحجرة وحيد . جلست . وأخذت أنتظر صامتاً . انتظرت مدة طويلة . قرابة ساعة . وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت . في وسعي أن أذكر تفاصيل كثيرة . ولكن لا داعي الى ذلك ، مادامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن . وحسبي أن أشير الى الشيء الأساسي . ما كان أشد دهشني حين رأيتهم ياملونني بدمائة غير مهوودة : ألقوا على بضعة أسئلة ، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن ، ثم أطلقوا سراحي فوراً . خرجت صامتاً . وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت في أعينهم دهشتهم من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره في مثل الظروف الذي هو

فيه • لقد رأيت هذه الدهشة ، ولولا أنني رأيتها لما سجلتها • وكانت
تاتيانا بافلوفنا تنتظرني أمام الباب • وسأشرح الآن كيف أمكن إخلاء
سبيلى بمثل هذه السهولة •

فى ساعة مبكرة من الصباح ، فى نحو الساعة الثامنة ، هربت
تاتيانا بافلوفنا الى بيتى ، أعنى الى بيت بطرس هيبوليتوفتش ، آملة أن
تجد الأمير هناك ، فاذا هى تعلم بكل ما وقع فى الليلة البارحة من أهوال ،
واذا هى تعلم خاصةً بأننى اعتقلت • فما هى الا طرفة عين حتى كانت
عند كاترين نيقولايفنا (التى التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها
من المسرح ، اذ جىء به الى بيتها) ، فأيقظتها من نومها ، وأخافتها ،
وطالبت بالافراج عني فوراً • فزودتها كاترين نيقولايفنا ببطاقة طارت
بها فوراً الى بيورنيج تطلب منه بطاقة أخرى فى الحال ، موجهة الى
« من يهمه الأمر » ، مشتملة على « رجاء الافراج عني بغير إبطاء لأننى
اعتقلت خطأ » • وبهذه البطاقة وصلت الى مخفر الشرطة ، فتمت تلبية
الرجاء •

الآن أعود الى النقطة الأساسية .

أمسكت تاتيانا بافلوفنا ذراعى ، وأركبتى عربة ، وقادتني الى بيتها .
وهناك أمرت بـسماور الشاي حالاً ، وربت هندامى ، ونظفتني في
المطبخ . وفي ذلك المطبخ نفسه قالت لى بصوت عال ان كاترين نيقولايفنا
ستصل اليها بنفسها في الساعة الحادية عشرة والنصف لتراني (اتفقتا على
ذلك منذ قليل) . وقد سمعت ماري هذه الكلمات . فجاءتنا بالسماور
بعد دقيقة ، ولكن حين ناداتها تاتيانا بافلوفنا بعد دقيقتين ، لم
تجيب ، اذ كانت قد خرجت من البيت . أرجو القارىء أن يبقى هذا
الأمر ماثلاً في ذهنه . أظن أن الساعة كانت في نحو العاشرة الا ربماً .
وقد غضبت تاتيانا بافلوفنا من غياب ماري بدون اذنٍ منها . ولكنها
قالت لنفسها انها ذهبت الى المتجر ، ثم لم تخطر لها على بال . كان لدينا
أشياء أخرى نفكر فيها . كنا نتكلم بدون توقف ، لأن هناك ما نتكلم فيه ،
حتى اننى لم أنتبه الى اختفاء ماري . ولكنى أرجو القارىء أن يبقى هذا
الأمر ماثلاً في ذهنه .

كنت كالمخبول طبعاً . وكنت أتحدث عن عواطفى . وكنا ننتظر
كاترين نيقولايفنا خاصة . وكنت أرتعش حين أتصور أننى سألقاها بعد
ساعة ، وأننى سألقاها في مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتي . وأخيراً ،
بعد أن حسوت فنجائين من الشاي نهضت تاتيانا بافلوفنا فجأة ، وتناولت
المقص من على الطاولة وقالت لى :

- هات جييك • يجب سحب الرسالة الآن • فليس يمكننا أن
نقص الجيب بحضورها !

فهمت أقول وأنا أحل أزرار رديجوتى :

- نعم •

- ما هذه الحياطة المشربكة ؟ من خاط هذه الحياطة ؟

- أنا يا تاتيانا بافلوفنا ، أنا نفسى !

- واضح أنك الذى خطت !

وسجبت الرسالة • كان الطرف هو الطرف نفسه • ولكن لم يكن
فى الطرف الا ورقة بيضاء •

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهى تقلب الورقة على جميع الوجوه :

- ما معنى هذا ؟ ما هذا الذى معك ؟

كنت واقفاً مشلول اللسان ، أصفر الوجه ••• وتهالكت على
الكرسى خائر القوى فجأةً وكاد 'ينمى على ' :

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- وما معنى هذا أيضاً ؟ أين الرسالة ؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا انتفض :

- لاميير !

لقد حزرت ' أخيراً ، ولطمت جينى يدي • وأخذت أشرح لها
بسرعة كل شيء ، وأنا متقطع الأنفاس ، فحدثتها عن الليلة التى بت
فيها عند لامبير ، وعن المؤامرة التى حكناها حينذاك • وكنت على كل حال
قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس •

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدمىّ وأشد شعر رأسى يدي :

- سرقوها منى ! سرقوها منى !
فقلت تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:
— يا للمصيبة ! كم الساعة الآن ؟
— الحادية عشرة تقريباً •
— ومارى التى ليست هنا ! يا مارى ! مارى !
فأجابت مارى فجأة من قرارة المطبخ :
— ماذا تريد مولاتى ؟
— أمت هنا ؟ ولكن ما العمل الآن ؟ سأنب الى عندها • • وأمت
يا من لا تصلح لشيء !
— انا أذهب الى لامير • لأذبحته اذا لزم الأمر •
ولكن مارى صاحت تقول من المطبخ :
— مولاتى ، ان • واحدة • تسأل عنك •
وما كادت مارى تنهى جملتها حتى دهمتا تلك « الواحدة » من
تلقاء نفسها صارخة موعلة • انها آلفونسين • لن أصف المشهد بجميع
تفاصيله • كانت تلك خدعة وأكثوبة ، ولكن يجب أن نسرف لآلفونسين
بأنها أجادت التمثيل اجادة هائلة • ردت آلفونسين ، وهى تذرف دموع
الندم وتحرك يديها بإشارات محبومة ، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها
هى التى سرقت الرسالة ، وان الرسالة الآن عند لامير ، وأن لامير ،
بالتواطؤ مع ذلك « الرجل الأسود » ، « قاطع الطرق » ، يريد استدراج
« السيدة الجنرالة » الى بيته ، ليقتلها فوراً ، بعد ساعة • • • وأنها سمعت
هذا كله من فيهما ، فاعتراها زعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس ،
فهرعت الى هنا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين نيقولايفنا ، لنوقها
القتل • • • « ذلك الرجل الأسود » • • •

الخلاصة أن ذلك كله بدا لنا جائزاً جداً ، حتى ان السخافة
والحماقة فى بعض شروح ألفونسين كانت تقوِّى جوازه •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها :

- أى • رجل أسود ؟

- « نسيت اسمه •• رجل فظيع •• نعم •• اسمه فرسيلوف » •

فهتفت :

- فرسيلوف ؟ مستحيل !

فصرخت تاتيانا بافلوفنا :

- بل يمكن أن يفعلها ! ولكن قولى لى يا « سيدة » ، بدون وثب
ونط ، وبدون تحريك الذراعين والرجلين ، ماذا يريدان أن يفعلا ؟
اشرحى شرحاً معقولاً : اتنى لا أستطيع أن أصدق أنهما يريدان أن
يطلقا عليها الرصاص •••

فأخذت « السيدة » تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً
كما سبق أن نبَّهت) ، قالت ان فرسيلوف سيقبى وراء الباب ، وان
لامير سيربها هذه الرسالة ، متى دخلت ، وعندئذ يشب فرسيلوف فـ •••
« فينتقمان منها » • وانها ، هى ألفونسين ، تخشى أن تحل بها كارثة ،
لأنها كانت شريكة متواطئة ، ولأن تلك « السيدة الجنرالة » ستأتى حتماً ،
« على الفور ، على الفور » ، لأنهما أرسلتا اليها نسخة من الرسالة ، فسوف
ترى حالاً أن الأصل فى حوزتهما فعلاً ، فلا بد أن تأتى • ولامير وحده
هو الذى كتب لها الرسالة ، فهى لا تعرف شيئاً عن فرسيليف • وقد
عرف لامير نفسه بأنه رجل أوفدته من موسكو ، سيدة بموسكو
(لاحظوا : ماريا ايفانوفنا !) •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- آه .. أشعر بألم فى قلبى .. أحسن بتدهور فى صحتى ! ..

وصرخت ألفونسين :

- « أنقذوها ! أنقذوها ! » ..

لاشك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة ، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه ، لأنه كان يبدو جازئاً كل الجواز حقاً . وكان فى وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترين نيقولايفنا بنا أولاً ، أى أن تجيء أولاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لاميير ، لتستجلى الأمر . ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث ، فقد تذهب اليها رأساً ، فهلك ! .. وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدق أن ترتعى هذا الارتماء على رجل مجهول مثل لاميير ، استجابةً لأول نداء منه . ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً ، بعد أن ترى نسخة الرسالة ، فتقتنع بأن الأصل موجود عنده فعلاً ، فتذهب اليه فتقع الكارثة . وكان الوقت شديد الضيق خاصةً ، فما ينبغى أن نضيع منه دقيقة واحدة فى التفكير .

وهنت أقول :

- لسوف يقتلها فرسيلوف ! اذا كان قد هبط الى حيث يتصلل

بلامبير ، فلسوف يقتلها حتماً ! انه المثل !

قالت تاتيانا بافلوفنا وهى تعقف يديها :

- آه ! .. هو « المثل » .. هلمّ بنا . لا بد ! خذ قبعتك

ومعطفك ، ولنذهب الى هناك معاً . قودينا يا سيدة . آه .. ما أبعد المكان ! يا مارى ، مارى ! اذا جاءت كاترين نيقولايفنا فقولى لها اننى راجمة حالاً ، فلتجلس ولتنتظرنى ، واذا أبت أن تنتظر فأقفلى الباب بالمفتاح ، واحبسها عن الخروج عنوةً . قولى لها اننى أنا التى أمرت بهذا . سأعطيك مائة روبل يا مارى اذا أنت صنعت لى هذا المعروف .

واندفعنا الى السلم • لاشك أن هذا خير ما يمكن عمله ، لأن
البلاء الأكبر عند لامير ، فاذا اتفق أن جاءت كاترين نيقولايفنا الى تاتيانا
بافلوفنا أولاً ، فسيكون في وسع مارى أن تحتجزها • ومع ذلك فان
بافلوفنا غيرت رأيها فجأة ، رغم أنها كانت قد نادت حوذاً • قالت
وهى تتركى مع آلفونسين :

— اذهب أنت معها • ومت هناك اذا لزم الأمر ، هل تفهم ؟ وسألحى
أنا بك • أما الآن فاتنى سائب الى بيتها ، فقد أجدها هناك ، لأن الشكوك
لا تزال تساورنى ، مهما تقل !

وطارت الى بيت كاترين نيقولايفنا • وركضنا أنا وآلفونسين
الى بيت لامير • كنت أستحث الحوذى على الاسراع ، وأستمر فى اللقاء
الأسئلة على آلفونسين فى الوقت نفسه ، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب
الا بصيحات وتأوهات ، وطفقت تبكى آخر الأمر • ولكن القدر كان
يحرسنا ، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن • فيما ان قطعنا
ربع الطريق حتى سمعت صرخة ورائى تنادىنى باسمى على حين فجأة ،
فالتفت ، فاذا أنا أرى تريشاتوف يلحقنا بعربة • صاح مرتاعاً :

— الى أين ؟ ومعها ، مع آلفونسين ؟

فصحت أقول له :

— لقد صدقت فيما قلت يا تريشاتوف : ان كارثة ستقع ! اننى
ذاهب الى ذلك الوغد السافل لامير ! فتعال معى ، فيكون عددنا أكبر !

فصرخ تريشاتوف قائلاً :

— بل ارجع ، ارجع حالاً • لامير يكذب ، وآلفونسين تكذب
أيضاً • المجذور هو الذى أرسلنى • ليسا فى البيت : لقد لقيت لامير
وفرسيلوف منذ هنيهة • لقد ذهبنا الى بيت تاتيانا بافلوفنا ••• وهما
الآن هناك •••

أوقفت العربية ، وقفزت الى عربة تریشاتوف • مازلت لا أدري كيف اتخذت ذلك القرار فجأة ، ولكنني صدقت تریشاتوف ، فسرعان ما عزمت أمري • أخذت ألفونسين تطلق صرخات رهيبه ، ولكننا تركناها فلا أدري هل تبعتنا أم هي رجعت الى بيتها • ولكنني لم أرها بعد ذلك على كل حال •

وفي العربة ، أفضى الى تریشاتوف ، كيفما اتفق ، وهو يلهث ، بأن مكيدة قد دُبرت ، وأن لاميير اتفق مع المجدور ، ولكن المجدور خان لاميير في آخر دقيقة ، فأرسله ، هو تریشاتوف ، الى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليها ألا تصدق لاميير وألفونسين • وأضاف تریشاتوف أنه لا يعرف غير هذا ، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئاً ، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الايضاح ، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضاً ، لأن القضية كلها توجب الاسراع • وتابع تریشاتوف كلامه فقال : « رأيت أنك ذهبت فجريت أتبعك » • كان واضحاً اذن أن المجدور يعرف كل شيء هو أيضاً ، مادام قد أرسل تریشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً • ولكن هذا كان لقرأ آخر •

ومن أجل ألا تختلط الأفكار ، سوف أعيد الآن ، قبل وصف الكارثة ، الى شرح الحقيقة الصادقة كلها ، مستبقاً الأحداث آخر مرة •

٤

بعد أن سرق لامبير الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف • أما كيف
 أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبير ، فهذا ما لا أقوله الآن ، وإنما أرجئه
 الى حينه • انه « المثل » على كل حال ! ولكن كان على لامبير ، بعد أن
 تحالف مع فرسيلوف ، أن يستدرج كاترين نيقولايفنا بأسلوب حاذق
 بارع • • لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتي • ولكن لامبير ، منذ
 أن لقيته في الشارع امس الأول ، وأعلنت له متباها متفاخراً أنني سأرد
 الرسالة الى كاترين نيقولايفنا في بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا ،
 قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا بافلوفنا : اذ اشترى ماري بعشرين
 روبلا • وغداة غد ، بعد ان تمت سرقة الرسالة ، زار ماري مرة أخرى ،
 وتفاهم معها تفاهما كاملاً ، اذ وعدها بمائتي روبل ثمنا لما ستقدمه له من
 خدمات •

ذلكم هو السبب في أن ماري ما ان سمعت أن كاترين نيقولايفنا
 ستكون عند تاتيانا بافلوفنا في الساعة الحادية عشرة والنصف وأنتي
 سأكون أنا أيضاً عندها ، حتى وثبتت خارجة من البيت وركبت عربة
 وأسرعت تحمل النبا الى لامبير • • هذا بعينه هو ما كان عليها أن تنخب به
 لامبير ، هذه هي الخدمات التي كان يجب عليها أن تقدمها له • وانفق
 أن كان فرسيلوف في تلك اللحظة ذاتها عند لامبير • فما هي الا طرفة عين
 حتى تخيل تلك الحطة الجهنمية • يقال ان المجانين يكونون في بعض
 اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكرآ •

وكانت الحطة هي أن نستدرج ، أنا وتاتيانا ، الى خارج المسكن بأية وسيلة من الوسائل ، ولو ربع ساعة فقط ، ولكن قبل وصول كاترين نيقولايفنا ؛ وأن ينتظراهما في الشارع ، فمتى خرجنا أنا وتاتيانا بافلوفنا دخلا الى البيت الذي ستفتحه لهما ماري ، وانتظرا وصول كاترين نيقولايفنا . وفي أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة في أى مكان تشاء ، وبأية وسيلة تراها . واذا أن كاترين نيقولايفنا ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف ، كما وعدت بذلك ، فانها ستصل اذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاترين نيقولايفنا أية دعوة من لامير ، لقد كذبت آلفونسين : ان هذه القصة كلها انما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها . ولم تزد آلفونسين على أن مثّلت دور الخائن الذي يخون من شدة فزعه) . ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للاخفاق ، ولكن تفكيرهما كان سليماً : ، اذا نجحت الحطة كان بها ، واذا لم تنجح فلا نفقد شيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا . ولكن الحطة نجحت ، وكان لا يمكن الا أن تنجح ، لأننا كنا لا نستطيع الا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض : « ماذا لو صحّ ما تقوله ؟ » . أعود فأقول : ان وقتنا لم يتسع للتفكير .

٥

داهنا المطبخ أنا وتريشاتوف ، فوجدنا مارى شبه ميتة من الخوف •
لقد أزعجها ، حين أدخلت لاميير وفرسيلوف ، أن رأيت بين يدي لاميير
مسدسا على حين فجأة • لكن قبلت من لاميير مالا ، فان المسدس لم يدخل
فى حسابها قط • فكانت مضطربة أشد الاضطراب ، فما ان رأيتى حتى
ارتمت على وقالت :

— الجنرالة جاءت ، ومعها مسدس !

قلت أمر تریشاتوف :

— تریشاتوف ، ابق أنت هنا فى المطبخ • فمتى صرخت أناذيك
هرعت الى نجدتى بكل ما أوتيت من قوة •

وفتحت لى مارى باب الدهليز ، فتسللت الى غرفة تاتيانا بافلوفنا ،
الى تلك الغرفة الصغيرة التى ليس فيها مكان الا لسرير تاتيانا بافلوفنا ،
والتي سبق لى ذات مرة أن تنصت^١ منها على حديث • جلست على السرير ،
وأسرعت أذيع الستارة قليلا •

وكان فى الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت ، وكان الحديث يجرى
بصوت عال • يجب أن أذكر أن كاترين نيقولايفنسا قد وصلت بعدهما
بدقيقة واحدة • وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن
دخلت المطبخ •

كان الصباح يصدر عن لاميير • كانت هى جالسة على الديوان
وكان هو متسما أمامها يصرخ كأبله • اتنى أعلم الآن لماذا فقد هدوءه

بهذا الغباء : لقد كان على عجلة من أمره ، كان يخشى ان يفاجأ • وكانت الرسالة فى يده • لكن فرسيلوف لم يكن بالفرقة • وقد تأهبت للونوب عند أول خطر • وهأنذا أروى معنى الأحاديث التى جرت بينهما ، معناها فحسب • ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أذكرها تذكراً واضحاً • ولكنى كنت عندئذ أشد انفعالا واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة •

— هذه الرسالة تساوى ثلاثين ألف روبل • هل تدهشين ؟ الحق أنها تساوى مائة ألف ، لكننى لا أطلب الا ثلاثين ألفاً •

كذلك قال لامير بصوت عال ، مندفعاً اندفاعاً رهيباً • فكانت كاترين نيقولايفنا ، رغم ذعرها الواضح ، تنظر اليه بازدراء واحتقار • قالت : — واضح أن ههنا فخاً ، فلست أفهم شيئاً • ولكن اذا كانت تلك الرسالة معك حقاً ••

فقاطعها لامير قائلاً :

— خذى ! هى ذى ! انظرى اليها ! انظرى اليها ! ألسنت هى نفسها ؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً ••
— لست أحمل مالا •

— اكتبى سنداً • اليك ورقة • وبعد ذلك تجيئنى بالمال ، وسوف أنتظر أسبوعاً لا أكثر • فمتى جيئنى بالمال رددت اليك السند والرسالة •
— انك تكلمنى بلهجة سخيفة • وانك لمخطيء • سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك ••

— لمن ؟ ها ها ها ! والفضيحة ؟ والرسالة التى سنطلع عليها الأمير ؟ وكيف يمكن أن تؤخذ منى ؟ اننى لا أحتفظ بوثائق فى بيتى • وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث • لا تعندى يا سيدتى ، اشكرى

لى اننى لا أطلب الا مبلغاً زهيداً • لو كان فى مكانى رجل آخر لطلب منك خدمات أخرى تعرفين ما هى ! انها الخدمات التى لا ترفض أية امرأة جميلة أن تقدمها فى حالة صعوبة وظرف حرج • أعرفت ما هى تلك الخدمات ؟ ها ها ها ! • « أنت امرأة جميلة ! » •

لم تزد كاترين نيقولايفنا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرت احمراراً شديداً ، فبصقت فى وجهه • ثم اتجهت بسرعة نحو الباب • فاذا بالأحمق يشهر مسدسه • انه ، وهو الأبله المحدود العقل ، كان مؤمناً ايماً أعمى بما سيكون للوثيقة من أثر ، فلم يدخل فى حسابه نوع المرأة التى يخاطبها ، وذلك لأنه ، كما سبق أن قلت ، يتصور لدى جميع الناس وجود تلك العواطف الدينية نفسها التى تملأ قلبه • لقد أثار بفظاظته حنق كاترين نيقولايفنا منذ أول كلمة ، ولعلها ما كانت ترفض تسوية مالية •

أعول يقول وقد ثارت ثائرتة من البصقة :

— لا تتحركى !

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس ، ليخيفها طبعاً • فصرخت وتهالكت على الديوان • فاندفعت أنا الى الغرفة • ولكن ، فى تلك اللحظة نفسها ، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدھليز (كان ينتظر هناك) ، فلم أكد ألقى نظرة واحدة حتى كان قد انتزع المسدس من لاميير ، وأخذ يضربه على رأسه بكل ما أوتى من قوة • فترنح لاميير ، وسقط مغشياً عليه • وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة •

أما هى فانها حين أبصرت فرسيلوف ، قد اصفر وجهها اصفراراً شديداً ، وشخصت اليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياح ، ثم لم تلبث أن أغمى عليها • فارتدى عليها • هذا كله يبدو لى أننى لا أزال

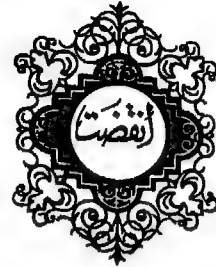
أراه • أتذكر أنني ذعرت حين رأيت وجهه الأحمر الذي يشبه أن يكون بلون القرمز ، وحين رأيت عينيه المحترقتين • واني لأظن أنه ، وقد رأيت في الغرفة ، لم يعرفني • ارتدى عليها ، فتناول جسمها الهامد ، وأنهضه بقوة خارقة ، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة ، وأخذ يجول بها في الغرفة ، وقد لاح في وجهه الجنون • كانت الغرفة صغيرة ، ولكنه كان يطوف من ركن الى آخر ، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك • لقد فقد عقله في لحظة • وكان لا ينقطع عن النظر اليها ، عن النظر الى وجهها • وكنت أنا أركض وراءه • كنت خائفاً من المسدس خاصة : لقد نسيه في يده اليمنى مصوباً الى رأسها •

ولكنه دفنني مرة بكوعه ، وركلني مرة أخرى برجله • وقد أودت أن أنادي تريشاتوف ، ولكنني خفت أيضاً أن 'أحقق المجنون • واخيراً أزحت الستارة اذاحة تامة على حين فجأة ، وتوسلت اليه أن يرقدها على السرير • فاقرب ووضعها على السرير ، لكنه تسمر أمامها وحقق الى عينها تحديقاً ثابتاً مدة دقيقة ، ثم اذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شفيتها الشاحبتين مرتين • فأدركت أنه قد فقد عقله فقد تاما ثم اذا هو يرفع مسدسه ويهم أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه ، فصبوب المسدس الى وجهها ليطلق النار • فأمسكت ذراعه فوراً بكل ما أملك من قوة ، وناديت تريشاتوف • أتذكر أننا صارعناه كلاًنا ، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه • لقد كان يريد أن يقتلها ، ثم يقتل نفسه • لكنه ، وقد منعاه من قتلها هي ، صوب المسدس الى قلبه هو • ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه الى أعلى ، فاستقرت الرصاصة في كتفه • وفي تلك اللحظة علت صرخة • انها تاتيانا بافلوفنا تدهم الغرفة • ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض مغشى عليه الى جانب لاميير •

الفصل الثالث عشر

١

خاتمة



على ذلك المشهد قرابة ستة اشهر • ان مياها كثيرة
قد جرت تحت الجسور ، وأن أشياء كثيرة قد
أثيرت • وبدأت أنا حياة جديدة • وسوف أخلص
القارىء من حديثى أنا أيضا •

ان سؤالاً قد شغل فكرى حينذاك وظل يشغله مدة طويلة : كيف
أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامير ؟ وما الهدف الذى كان
يرمى اليه ؟ وقد انتهيت الى تفسير الأمور على النحو التالى : انه أثناء تلك
الفترة الفاجعة القصيرة ، أعنى اليوم الأخير واليوم الذى سبقه ، كان لا يرمى
الى أى هدف محدد ، وانما كان يعصف به ويستولى على عقله اعصار من
العواطف المتناقضة • لا أعتقد أنه أصيب بخنوع حقيقى ، لا سيما وأنه
اليوم ليس مجنونا قط • ولكننى أؤمن بالمثل دون تردد • فما « المثل » ؟
لقد قرأت فى الأونة الأخيرة كتابا لطبيب اختصاصى ، فعرفت أن « المثل »
درجة أولى من درجات اختلال عقلى خطير يمكن أن يؤدى الى نهاية
محنة • ولقد أوضح فرسيلوف ، يوم حطم الأيقونة عند ماما ، أوضح بصدق
هائل ، آلية « ازدواج » ارادته وعواطفه • اننى ألح على ذلك المشهد
بالمشهد الذى حدث فى بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث
بتأثير « المثل » حتما • ومع ذلك أظل أتساءل : ألا يمتزج بفعل التحطيم
ذاك ، رمز شرير ما ؟ وأرانى أجيب على هذا السؤال بنعم ، وأعتقد أن

نمة رمزا الى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال ، وما كن يؤمن به من حقوق ، وما كان يقوم فى أذهانهن من رأى • فبالاتفاق مع « المثل » انما حطم الأيقونة • فكأنه كان يقول : « هكذا سيتحطم توقعكن » • نعم ، كان هناك « المثل » ، ولكن كانت هنالك نزوة أيضا • على كل حال ، ذلك تخمين منى •

انه رغم عبادته لكاترين نيقولايفنا كان قد ترسخ فى قرارة نفسه شك صادف وعميق فى مزاياها الأخلاقية • فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذلل نفسها أمام لاميير • ولكن اذا كان يتوقع ذلك ، فهل كان يريد • ؟ أعود فأقول : اننى أومن ايمانا جازما بأنه كان لا يريد شيئا ، بل كان لا يفكر البتة • كانت رغبته كلها هى أن يوجد هناك ، وأن يثبت بعد ذلك ، وأن يقول لها شيئا ما • • • وربما • • • ربما أن يهينها ، وربما أيضا أن يقتلها ! • • • لقد كان كل شئ فى تلك اللحظة جائزا وممكنا • ولكنه حين وصل مع لاميير كان لا يعرف شيئا مما قد يحدث • يجب أن أضيف أن المسدس كان للاميير ، وأن فرسيلوف جاء بنير سلاح • فلما رأى ما رأى من كبرياء كاترين وشمعها ، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل حقارة لاميير الذى كان يهددها ، اندفع الى الغرفة ، وعندئذ انما فقد عقله • هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص فى تلك اللحظة ؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك فى أنه كان سيطلق النار لولا أننا أسكننا ذراعه •

ولم يكن الجرح الذى أصيب به قاتلا • • فقد شفى ، ولكن بعد أن بقى فى السرير مدة طويلة ، عند ماما طبعا • نحن الآن ، أثناء كتابة هذه الكلمات ، فى فصل الربيع ، فى منتصف شهر أيار (مايو) • النهار رائع • ونوافذنا مفتوحة • ماما جالسة الى جانبه • وهو يلعب خديها وشعرها وينظر الى عينيها بحنان • ليس هو الآن الا نصف ما كان فرسيلوف من قبل • أصبح لا يترك ماما ، ولن يتركها أبدا • حتى لقد أوتى « موهبة

ذرف الدموع ، ، على حـد تعبير ماكارايفانوفتش الذى لا يُنسى ، فى
 فسته عن التاجر • ويخيل الىّ من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلا •
 هو الآن معنا بسيط كل البساطة ، صادق كل الصدق ، كطفل ، ولكن
 بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة ، وبدون أن يفرط فى الكلام • لقد
 احتفظ بذكائه كاملا ، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقى ، غير
 أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزا • يجب أن أقول جازما
 اننى ما أحببته يوما كما أحبه الآن ، واننى يؤسفنى ألا أملك من فسحة
 الوقت والمكان ما يمكننى من الاسهاب فى الكلام عنه • ومع ذلك سوف
 أروى قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع) : فى أثناء
 الصوم الكبير كان قد شفى من جرحه ، فاذا هو يعلن فى الأسبوع
 السادس أنه سيتناول القربان المقدس • لم يسبق له أن تناول القربان منذ
 ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن • سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة • وأصبحوا
 فى البيت لا يحضرون من الطعام الا أطباقا بغير دسم ، ولكنها أطباق غالية
 الثمن فاخرة الصنف • وقد سمعته فى الفرقة المجاورة ، يومى الاثنين
 والأحد ، يفنى أغنية « هاهو ذا العريس يأتى » ، متحمسا للحن والكلمات
 جميعا • وقد اتفق له فى ذينك اليومين أن انطلق يتكلم فى الدين فقال
 كلاما رائعا • غير أن كل شىء انقطع يوم الأربعاء • اذ اتابه حنق مفاجئ •
 أو « تناقض مضحك » كما قال ضاحكا • ان شيئا ما فى أفعال الكاهن
 وحر كائه وإشاراته قد بدا له غليظا • فلما عاد فى ذات يوم من الكنيسة
 قال وهو يتبسم ابتسامة لطيفة : « يا أصدقائى ، اننى أحب الله كثيرا ، لكن
 هناك أشياء تضايقنى ، لذلك لست مستعدا •• » وفى مساء ذلك اليوم كان
 طعام العشاء يضم شرائح لحم مقلى • ولكننى أعرف أن ماما تجلس الى
 جانبه فى كثير من الأحيان حتى اليوم ، فتحدثه بصوت عذب وابتسامة
 حلوة فى موضوعات مجردة جدا • انها الآن جريئة معه • لا أدرى كيف
 حدث هذا • تجلس الى جانبه وتكلمه ، ويجرى الحديث فى أكثر الأحيان

بصوت خافت • انه يصغى اليها مبتسما ، ويلاعب شعرها ، ويقبل يديها ،
وتسطح على وجهه أكبر سعادة • وقد تعثره في بعض الأحيان نوبات
تكاد تكون هسترية ، فيتناول صورتها الفوتوغرافية ، تلك التى قبلها فى
ذلك المساء المشهود ، فينظر اليها دامع العينين ، ويقبلها ، ويتذكر ، ويدعونا
اليه جميعا • ولكنه فى مثل هذه اللحظات لا يتكلم الا قليلا ! • • • ويدو
أنه نسي يقولايانا نسيانا تاما ، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة • أما عن
زواجه بما ، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث • وكانوا يريدون
أن يسافروا به فى الصيف الى الخارج ، ولكن تاتيانا بافلوفا ألحت على
ألا يفعلوا ، وهو نفسه لم يشأ على كل حال • فسوف يقضون الصيف فى
الريف بمكان ما من مقاطعة بطرسبرج • يجب أن أذكر فى هذه المناسبة
أن تاتيانا بافلوفا هى التى تتفق الآن على معيشتنا جميعا • ويجب أن أضيف
شيئا آخر هو أنني حزين أشد الحزن من أنني ، طوال هذه المذكرات ،
قد أبحث لنفسي أن أعامل هذه الانسانة بغير احترام ، وأن أنظر اليها من
على • ولكننى كتبت ما كتبه وأنا أتصور تصورا مسرفا فى الدقة كيف
كانت حالتى فى كل لحظة من اللحظات التى وصفتها • وبعد أن فرغت
من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أنني بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل
لذكرياتى قد ربيت نفسى تربية جديدة • صحيح أنني أنكر كثيرا ممسا
كتبت ، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات ، ولكننى لا أريد أن
أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة •

قلت انه أصبح لا يتكلم عن كاترين نيقولايفنا البتة • بل انى لأعتقد
أنه شفى شفاء تاما • عن كاترين نيقولايفنا أصبحنا وحدنا ، أنا وتاتيانا
بافلوفنا ، تتكلم فى بعض الأحيان ، وتتكلم خفية • ان كاترين نيقولايفنا هى
الآن فى الخارج • رأيتها قبل سفرها ، وزرتها فى بيتها عدة مرات ، ومن
الخارج بعث لى حتى الآن رسالتين أجبت عنهما • لن أقول شيئا عن مضمون
الرسالتين ولا عن الموضوعات التى عالجتها حين تركتنا قبل سفرها : فهذه

قصة أخرى ، قصة « جديدة » كل الجدة ، لعلها لا تزال قائمة كلها في المستقبل . حتى مع تاتيانا بأفلوفنا هناك موضوعات معينة لا أأاربها . ولكن كفى هذا . أريد أن أضيف فقط أن كاترين نيقولايفنا لم تتزوج ، وهى مسافرة الآن مع بلشتشيف . لقد مات أبوها ، فهى أغنى الأراميل . انها الآن بباريس . لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنيج بسرعة ، وكأنما تمت من تلقاء نفسها ، على نحو طبيعى جدا . وسأحكى هذا على كل حال .

ففى الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب ، استطاع المجدور ، أعنى ذلك الذى انتقل تريشاتوف وصديقه الى خدمته ، أن يبلغ بيورنيج بالمؤامرة التى تحاك . اليكم كيف حدث ذلك : كان لامير قد جعل المجدور يقرر الاشتراك فى المؤامرة ، وأطلعه بعد أن صارت الوثيقة فى حوزته ، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه ، وأطلعه أخيرا على الخطة الأخيرة ، أى الخطة التى تخيلها فرسيلوف لخداع تاتيانا بأفلوفنا . ولكن المجدور أثر فى اللحظة الحاسمة أن يخون لامير ، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعا ، اذ تخيل فى هذه المشروعات كلها امكان حدوث جريمة ، ورأى خاصة أن الخطوة بعرفان بيورنيج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامير ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف . ذلك كله علمته بعدئذ من تريشاتوف . يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أننى أجهل ولا أفهم العلاقات التى كانت قائمة بين لامير والمجدور ، ولماذا كان لامير لا يستطيع الاستغناء عن المجدور . ولكن المسألة التى كانت تثير عجبى أكثر من سائر ما عداها هى التالية : ما كانت حاجة لامير الى فرسيلوف ، مع أنه بعد حصوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاما ؟ ولقد أصبح الجواب واضحا الآن : كان لامير فى حاجة الى فرسيلوف أولا لأن فرسيلوف عالم بالظروف ، وثانيا لأنه يستطيع فى حالة الخطر أو فى حالة

وقوع مصيبة أن يلتقى على فرسيلوف جميع التبعات • ولما كان فرسيلوف فى غير حاجة الى المال ، فقد رأى لاميير أن مشاركته مفيدة الى أقصى حد •

ولكن بيورنج لم يصل فى اللحظة المطلوبة • وانما وصل بعد اطلاق النار بساعة ، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً • فبعد خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه ، نهض لاميير ، وكنا نظنه ميتاً ، فأجال بصره فيما حوله ، فأدرك فى الحال كل شئ • ومضى الى المطبخ بدون أن يقول كلمة ، فارتدى معطفه واختفى الى الأبد • وبقيت « الوثيقة » على المائدة • وقد سمعت أنه لم يصب حتى بمرض ، ولم يعان الا شيئاً من أوجاع طفيفة • لقد جندلته الضربة ، وأنزفت دمه ، ولكنها لم تله بأذى •

وفى أثناء ذلك ركض تريشاتوف يستدعى الطبيب • ولكن فرسيلوف أفاق من غيبوبته قبل وصول الطبيب ، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترين نيقولايفنا الى الحياة وأن تعيدها الى منزلها • وهكذا ••• حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن هناك أحد الا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التى كانت لا تزال مريضة ولكنها هرعت الى فرسيلوف كالمجنونة اذ أنبأها تريشاتوف ذاك نفسه • نظر بيورنج مدهوشاً • وما ان عرف أن كاترين نيقولايفنا قد مضت حتى ذهب الى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة •

كان مضطرباً ، اذ رأى رؤية واضحة أن الفضيحة وذبوع النبأ أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما • ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى ، وكل ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتها الألسن • صحيح أن طليقة المسدس قد استحال اخفاء أمرها ، ولكن الجزء الأساسى من القصة كلها ظلَّ شبه مجهول • ولم يقرر التحقيق الا أن رجلاً عاشقاً اسمه « ف • • • » وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمر ، قد أطلق

النار على نفسه من مسدس فى نوبة جنون ، بينما كان يعلن غرامه لسيده
جديرة بأعظم الاحترام ، لكنها لا تبادله عواطفه . لم 'يعلم شيء أكثر من
هذا . وفى هذه الصورة انما انتقل الخبر الى الجرائد غامضاً ، بدون ذكر
الأسماء ، الا أحرفها الأولى . أعلم مثلاً أن لامبير لم يقلق أبداً . ولكن
بيورنج الذى كان يعرف الحقيقة خاف خوفاً شديداً . ولقد علم فجأة ،
بما يشبه المصادفة ، أن لقاءً تم قبل الكارثة بيومين بين كاترين نيقولايفنا
وفرسيلوف الذى يحبها . فأحرقه ذلك حنقاً قوياً ، فأباح لنفسه بغير ترو
ولا حذر أن يقول لكاترين نيقولايفنا انه لا يدهشه أن تقع لها أحداث
فظيعة كهذه . فلم تلبث كاترين نيقولايفنا أن صرفته فوراً ، بدون غضب ،
ولكن بدون تردد ؟ ان ما كانت تقدره من أن زواجها يمثل هذا الرجل
زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار . ولعلها كانت
قد كشفتها وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة . ولعلها أيضاً ، بعد الهزة
القوية التى أصابها ، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بقتة . يجب
أن أضيف أن لامبير فرّ الى موسكو ، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك فى
قضية أخرى . أما تريشاتوف فأننى منذ مدة طويلة ، بل منذ وقوع تلك
الأحداث تقريباً ، قد غاب عن بصرى فلم أراه رغم جميع الجهود التى
لا أزال أبذلها لأقع على آثاره . لقد اختفى بعد موت صديقه « الأبله
الطويل » الذى أطلق على رأسه الرصاص .

ذكرت موت الأمير العجوز نيقولا ايغانوفتش • ان هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة • بعد نحو شهر • فى الليل • على سريره • من سكتة قلبية • ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذى قضاه فى بيتي • وقد روى عنه فى أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً • وأنه صار امرأ جاداً كثير الجد • فهو لا يخاف • ولا يبكي • حتى انه لم يقل كلمة واحدة عن آنا أندريفنا طوال تلك المدة • وقد انصب حبه كله على ابنته • وقبل وفاته بأسبوع • اقترحت عليه كاترين نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأمرئى عنه • ولكنه قطب حاجبيه • اننى أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها • وكانت أطيانه مزدهرة • وكان بملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال • وقد أمر فى وصيته بأن يوزع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالمعمودية وما أكثرهم ! ولكن الأمر الذى أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر الى آنا أندريفنا • وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً • اليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين : ان الشيخ • قبل وفاته ببضعة أيام فقط • استدعى ابنته وصديقيه بلشتسيف والأمير « ف • • • » • فأمر كاترين نيقولايفنا بأن تقطع من هذا المال عند وفاته القرية مبلغ ستين ألف روبل تخصص بها آنا أندريفنا • لقد عبر الشيخ عن ارادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضياً دقيقاً • دون أن يسبح لنفسه أى تعليق أو تعقيب • وبعد وفاته • حين أضحى كل شئ واضحاً • عهدت كاترين نيقولايفنا الى مصرف أعمالها بابلاغ آنا أندريفنا أن فى وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت • ولكن

آنا أندريفنا رفضت العرض بعجاء وبغير كلام زائد : رفضت قبض المبلغ رغم كل ما 'أكد' لها من أن هذه هي ارادة الأمير فعلاً . ولا يزال المبلغ موقوفاً ينتظر أن تقضيه آنا أندريفنا، ولا تزال كاترين نيقولايفنا تأمل أن تغير آنا أندريفنا رأيها . ولكن آنا أندريفنا لن تغير رأيها . فهذا ما أعلمه يقيناً ، لأننى اليوم من أقرب أصدقاء آنا أندريفنا اليها . وقد أثار رفضها ضجة ، وتحدث عنه الناس . وكان من شأن هذا أن خالتها فانارياتوفا التي ساءتها منها فضيحتها مع الأمير فى البداية ، قد غيرت رأيها فيها بعد رفضها المال ، فأعربت لها عن احترامها جهاراً . ولا كذلك أخوها ، فقد شاجرها بسبب هذا الرفض شجاراً شديداً . على أننى لا أستطيع أن أقول ، رغم كثرة ترددى على آنا أندريفنا ، هل العلاقة التي بنى وبينها علاقة حميمة وثيقة . عن الماضى نحن لا نتحدث اليوم أبداً . انها 'تسر' باستقبالى ، ولكن حديثها معى حديث مجرد . ولقد قالت لى فيما قالت انها مصصمة على دخول الدير حتماً . قالت لى هذا منذ مدة غير طويلة . ولكننى لا أصدق أن تفعل ، ولا أرى فى قولها هذا الا تعبيراً عن مرارة .

على أن المرارة الكبرى انما هى فى حديثى الآن عن أختى ليزا . ذلكم هو الشقاء الحقيقى ! ما أهون أنواع الاخفاق التي منيت بها اذا هى قيست بمصيرها الحزين ! أولاً : لم يشف الأمير سرجى بتروفنش ، ومات فى المستشفى قبل صدور الحكم . مات قبل الأمير نيقولا ايغانوفنش . وبقيت ليزا وحيدة مع جنيها . كانت لا تبكى . حتى لقد كانت تبدو هادئة . وصارت لينة دمة عذبة طيبة . غير أن ما كان يزخر به قلبها فى الماضى من حرارة كان كأنه 'دفن' فى أعماق نفسها . كانت تساعد ما بمذلة ، وتعنى بآندره بتروفنش المريض . ولكنها أصبحت صموتا صمتاً رهيباً ، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر الى شئ . ولا أن ترى أحداً ، فكأن جميع الأمور عندها سواء ، وكأنها لا تكثر بشئ من الأشياء . وقد هزلت هزلاً مخيفاً . كنت لا أجرو أن أواسيها ، رغم أننى

كثيراً ما جئت إليها عاقداً نيتي على ذلك • فما ان ألقها حتى أجندني عاجزاً عن مقاربتها ، وحتى تعوزني الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع • وامتد ذلك الى أن وقع حادث رهيب : زلت قدمها على السلم فسقطت ، لا من أعلى السلم ، بل من ثلاث درجات فقط ، لكنها أجهضت واستمر مرضها الشتاء كله تقريباً • وقد نهضت الآن ، ولكنها في أعقاب ضربة كهذه الضربة لن تسترد صحتها الا بعد مدة طويلة • ولا تزال معنا شديدة الصمت كثيرة الوجوم والتفكير ، ولكنها مع ماما عادت تتكلم قليلاً • وقد طلعت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة ، عالية راتقة ؛ ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الحريف الماضي حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبنا كلانا بالفرح والأمل ، وأحب كل منا الآخر حباً كبيراً ! يا حسرتاه ! ماذا وقع من بعد ؟ لست أتسكى • فأنا قد بدأت حياة جديدة • ولكن هي ؟ ان مستقبلها لنز • ولا أستطيع أن أراها الا ويمصر قلبي الألم •

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أنير اهتمامها اذ حدثتها عن فاسين • لقد أطلق سراحه أخيراً ، وأفرج عنه افراجاً نهائياً • وروى أن هذا الرجل الزاخر برجاجة العقل وحصافة الرأي قد استطاع أن يقدم أدق الايضاحات وأهم المعلومات ، فبرأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره رهناً برأيهم فيه • وقد تبين على كل حال أن المخطوطة التي أثار ذلك اللفظ كله لم تكن الا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده ، على نية أن يعتمد عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل • وقد سافر الآن الى اقليم « • • • » ؛ أما زوج أمه ستيلاكوف فلا يزال في السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تنفك تكبر وتوسع • لقد أصغت ليذا الى حديثي هذا عن فاسين وهي تبسّم ابتسامة غريبة ، وقالت ان ذلك هو ما كان لابد أن يقع له • ولكن كان واضحاً أنها 'سرت' بما رويته لها ، وأغلب الظن أن مردّ سرورها الى أن المرحوم الأمير سرجي بتروفتش لم 'يلحق' تدخله ضرراً بفاسين ، ولم يصبه

بأذى • أما درجات شيف والآخرين ، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا •
 انتهيت • لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث
 فأقول لهم ماذا صارت اليه « فكرتى » ، وما هى تلك الحياة الجديدة التى
 بدأتها والتى أشرت اليها اشارة ملفعة بالسر ؟ فأقول ان هذه الحياة الجديدة
 التى تنفتح أمامى هى بعينها « فكرتى » ، هى « فكرتى » السابقة نفسها ،
 ولكن فى صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفها •
 ذلك كله لا يدخل فى نطاق هذه المذكرات لأنه شئ آخر • انتهت الحياة
 القديمة ، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت • ومع ذلك سأضيف
 ما لا غنى عن اضافته • ان صديقتى المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضنى
 كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً ، وتقول : « فمتى
 أتممت دراستك رايت ماذا يجب أن تفعل • أما الآن فأتمم دراستك • » •
 أعترف بأن هذا العرض يحملنى على التفكير ، لكنى أجهل القرار الذى
 سأأخذ به كل الجهل • وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً انى الآن لا يجوز
 لى أن أتابع دراستى ، اذ يجب على أن أعمل لأعول ماما وليزا • ولكنها
 تعرض على ثروتها مؤكدة أنها تكفى لمدة دراستى كلها • وقد قررت
 أخيراً أن ألتبس نصيحة أحد الناس • فبعد أن استعرضت من حولى وقع
 اختيارى على هذا الرجل ، يقولوا سيمونوفتش ، معلمى السابق بموسكو ،
 زوج ماريا ايفانوفنا ؛ لا لأننى فى حاجة شديدة الى نصائح ، الا أن رغبة
 قوية لا سبيل الى مغالبتها قد دفعتنى الى معرفة رأى هذا الرجل الأنانى ،
 الغريب كل الغرابة عن الأحداث التى وصفها ، ذى القلب الذى يتصف
 بالبرود ، ولكنه ذكى ذكاء لا يمكن جحوده • فأرسلت اليه مخطوطتى ،
 طالباً منه أن يبقى أمرها سراً مكتوماً ، لأننى لم أطلع عليها أحداً بعد ،
 ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة • وقد عادت الى المخطوطة بعد
 خمسة عشر يوماً ، مصحوبة برسالة طويلة • وهأنذا أسرد فيما يلى
 مقتطفات من تلك الرسالة ، لأننى أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تحليلية • اليكم
 هذه المقتطفات :

« عزيزى آرКАДى ماكاروفتش الذى لا يُنسى ، انك لم تستطع فى يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات ! لقد حصلت لنفسك على ادراك واعٍ لحطائك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر فى درب الحياة • وانى لأعتقد جازماً بأن هذا الامتعاض قد أتاح لك فعلاً ، فى كثير من النقاط ، أن « تربي نفسك تربية جديدة » كما تقول أنت نفسك • لن أسمع لنفسى بأى نقد حقيقى ، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعى ملاحظات • من ذلك أن حرصك الشديد العنيد المصر على الاحتفاظ « بالوثيقة » طول تلك المدة شئ • بارز الى أبعد حد • على أن هذه الملاحظة التى أبهتها لنفسى ليست الا واحدة من ألف • وانى لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبسح لى - أنا وحدى فى أغلب الظن - بسرّ « فكرتك » ، على حد تعبيرك • ولكن حين تسألنى أن أعرب لك عن رأيى فى هذه الفكرة ، فأننى أكون مضطراً الى الامتناع عن ذلك قطعاً • أولاً لأن الاعراب عن هذا الرأى يحتل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة • وثانياً لأننى غير متأهب للإجابة فما زلت فى حاجة الى هضم هذا كله • ولكنى أقول ان « فكرتك » تتميز بأصالتها ، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالى ينفادون فى أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تتبع من أنفسهم ، وعددها محدود جداً ، وكثيراً ما تكون خطيرة • ان « فكرتك » قد حمتك مثلاً ، خلال زمنٍ على الأقل ، من أفكار السادة درجاشيف وشركاء ، التى هى أقل أصالةً ولا شك • وأخيراً فأننى موافق كل الموافقة على رأى المحترمة

تأنيباً بافلوفنا التي عرفتها شخصياً ، ولكن لم يتح لى حتى الآن أن اقدرها
 القدر الذى تستحقه • ان رأيها فى ادخالك الجامعة سيعود عليك بخير
 كثير • فلا شك أن العلم والحياة ، خلال ثلاث سنين أو أربع ، سوف
 يوسّان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك ، فاذا أردت بعد الجامعة
 أن تعود الى « فكرتك » فلن يمنعك عن ذلك شيء •

« واسمح لى الآن ، رغم أنك لم تطلب منى هذا ، أن أعرض لك
 بصراحة بعض آرائى أو انطباعاتى التى كوّنتها فى نفس قراءة هذه
 المذكرات الصادقة جداً • نعم ، اننى أوافق آندره بتروفتش على أن هناك
 ما يدعو حقاً الى الخوف عليك وعلى شبابك « المعتزل » • ما أكثر أمثالك
 من الشبان الذين تتعرض مواهبهم فصلاً لأن تنمو فى الاتجاه السيئ :
 فاما عبودية على طريقة مولتسالين ، واما رغبة خبيثة فى الفوضى • وهذه
 الرغبة فى الفوضى انما تنشأ - ربما فى أكثر الأحيان - عن ظمأ خفى الى
 النظام ، « الجمال » (اننى أستعمل كلمتك) • ان الشباب طاهر نقى لمجرد
 أنه شباب • ولعل تلك الاندفاعات المبكرة الى الجنون انما تشتمل على ذلك
 الظمأ الى النظام وعلى ذلك البحث عن الحقيقة • فمن المذنب اذا كان
 بعض الشباب فى عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام فى نظريات تبلغ
 من الحماسة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها ! أحب أن أقول
 فى هذه المناسبة ان المرء كان يمكن فى الماضى - فى عصر ليس بعيداً ، فى
 عهد لا يبعد عنا أكثر من جيل واحد - ألا يأخذ به أمثال هؤلاء الشبان
 ما يأخذ بهم الآن من شفقة ورحمة ، لأن أمثالهم فى ذلك كانوا ينتهون
 فى جميع الأحيان تقريباً الى الانضمام الى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف
 انضماماً ناجحاً ، وأن يصبحوا جزءاً من تلك الطبقة • فاذا شعروا مثلاً ،
 فى بداية الطريق ، بما فى بيئتهم العائلية من فوضى وعبث وافتقاد النبالة
 وغياب التقاليد والأشكال الجميلة ، كان فى هذا خير لهم ، لأنهم بعد ذلك
 يتوقون الى هذه الأمور كلها توقفاً واعياً ، ويألفون بهذا نفسه أن يقدروها •

أما الآن فإن الأمور تجري مجرى مختلفاً بمض الاختلاف ، لأنهم أصبحوا لا يعرفون الى من ينضمون !

« سأوضح رأيي بمقارنة أو قل بمشابهة • لو كنت روائياً روسياً وكانت لي موهبة ، لما اخترت أبطال رواياتي الا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة ، لأن هذه البيئة التي تضم أفراداً مثقفين هي البيئة الوحيدة التي يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والاحساس الجميل اللذين لاغنى عنهما لرواية تريد أن تحدث في القارىء شعوراً بالروعة • لا أقول هذا الكلام مازحاً ، رغم اننى لا أنتمى الى الطبقة النبيلة كما تعلم • لقد سبق أن أشار في « تقاليد أسرة روسية » الى موضوعات الروايات التي حال الموت بينه وبين كتابتها • فهناك انما تقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الآن من جمال • هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا اليه من توازن وكمال • واذا قلت هذا فليس معناه اننى أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب ، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً • غير أن ثمة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجددها مكتملة بل لا تجددها البيئة فى أى مكان بروسيا خارج النبالة • اننى أتكلم كما يتكلم انسان هادىء يبحث عن الهدوء •

فاذا سألتني عن ذلك الشرف هل هو أصيل ، وعن ذلك الواجب هل هو حق ، قلت لك ان هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها • ولكن الشيء الهام في نظري هو أن تلك الأشكال مكتملة ، وأن ثمة نظاماً لم يفرض فرضاً وانما هو نابع من حياة تلك النبالة • ألا وان ما يهمنا أكثر من أى شيء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام ، أيأ كان هذا النظام ، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن ! ذلك هو الأمل ، وتلك هي الراحة ان صبح التعبير : شيء مكتمل البناء أخيراً ، لا هذا التقويض الأبدى ، وهذه النشارات التي تتطاير في كل مكان ، وهذه

النفايات وهذه القاذورات التي لا يخرج منها شيء منذ ما يقرب من مائتي سنة .

« لا تهمني بالتعصب السلافي ، فانما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر ، وأصبح مشغل القلب حزناً ؛ اننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أثبت على وصفه الآن كل المعارضة . فالآن أصبحت القذارة لا تصمد الى الطبقة العليا من المجتمع ، وانما يحدث نقیض هذا ، فنرى أجزاء بل كتلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج في أناس الفوضى والكره . ليست حالات فريدة معزولة تلك الحالات التي ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان أبناؤهم لا يزالون يرغبون في الايمان بها . أكثر من ذلك أنهم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق في التخلي عن الشرف فجأة ، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة لا أدري كيف ! لست أتكلم عن التقدمين الحقيقيين ، يا صديقي العزيز جداً أركادي مكاروفتش ، وانما أتكلم عن تلك الجمهرة الكبيرة التي لا يهوى اليوم عددها ، والتي قيل في حقها : « اقشر الروسي فترى الثرى » . صدق أن اللبراليين الحقيقيين ، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للانسانية ليس عددهم بيننا كبيراً الى الحد الذي توهمناه فجأة .

« ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً . فلنعد الى الروائي الذي تخيلناه . ان موقف صاحبنا الروائي هذا سيكون في هذه الحالة موقفاً محدداً : انه لن يستطيع أن يكتب الا روايات من نوع الروايات التاريخية ، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود في عصرنا هذا ، واذا كان لا يزال منه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم ، فان هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها . ولاشك أن الكاتب سيستطيع في الروايات التاريخية أيضاً أن يتصور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزى القلب . حتى يمكنه أن يأسر لب القارئ أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارئ اللوحة التاريخية

واقماً لا يزال قادراً على الحياة اليوم • ومثل هذه الرواية ، اذا كانت موهبة الكاتب عظيمة ، سوف تنتمى الى الأدب الروسى اقلّ مما تنتمى الى التاريخ • سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفنى تمثل السراب الروسى الذى وجد فعلاً الى اليوم الذى رثى فيه أنه كان سراباً • ان حفيد أبطال اللوحة التى تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسى ، ان حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره فى نموذج المعاصر الا انساناً مبغضاً للبشر ، معتزلاً الناس ، صموتاً حزيناً • بل لابد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارئ أن يحكم عليه منذ النظرة الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق المسهدة وأن ليس تحت قدميه أرض • وما هى الا فترة حتى يختفى هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً • وتأتى شخصيات جديدة ، لا تزال مجهولة ، ويأتى سراب جديد • ولكن أية شخصيات ؟ اذا لم تكن شخصيات جميلة ، لم يبق ثمة أدب روسى ممكن • ولكن واحسرتاه ! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك ؟

» لا أريد أن أوغل مزيداً من الايغال • ولنعد الى مخطوطتك • انظر مثلاً الى أسرته السيد فرسيلوف (اسمع لى هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة) • لن أسهب فى الكلام عن آندره بتروفتش نفسه • انه رب أسرة على كل حال ، رغم كل شيء • هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو فى الوقت نفسه من أنصار كومون باريس • هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها • هو امرؤ لا دين له ، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً فى سبيل شيء غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به ايماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية فى العهد البطربرجى من التاريخ الروسى • ولكن كفى هذا عنه • لننظر الى أسرته الحقيقية : عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف • ان الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطاشين والى أين يقودون غيرهم • ولكن لننظر الى ابنته آنا آندريفنا • هذه فتاة ذات

شكيمه ، أليس كذلك ؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا ، دون أن أتنبأ لها شيء من الاجرام طبعاً ، والا كنت ظالماً . قل لى الآن يا أركادى ماكاروفتش ان هذه الأسرة استثناء وشذوذ ، فأبتهج اعظم الابتهاج . ولكن الأمر ليس كذلك . الأصح أن نقول ان هناك كثرة من هذه الاسر الروسية التى لا يجحد المرء نبالتها والتى تتحول بقوة لا تقاوم الى اسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه فى السديم الشامل والفوضى العامة . انك فى مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه . نعم يا أركادى ماكاروفتش ، انك « فرد من أفراد أسرة مصادفة » ، فى مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف .

« أتعرف لك بأبنى لا أتمنى أن أكون روائياً يصوّر بطلاً هو فرد فى أسرة مصادفة !

« جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه . ان تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال ، فهى لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية . كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والاغفالات ؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارئ ان يخمن ويسرف فى التخمين . ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية ... وانما تستبد به الرغبة فى الكتابة عما هو واقع حالى ؟ أن يخمن و ... أن يخطئ . »

« غير أن « مذكرات » كالتى كتبها أنت يمكن فى رأى أن تكون مواد لعمل فنى يخلق فى المستقبل ، مواد للوحة ترسم فى المستقبل وتكون فوضى لكنها تصوّر عهداً مضى . نعم ، فبفضل التقهقر فى الزمان الى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضى

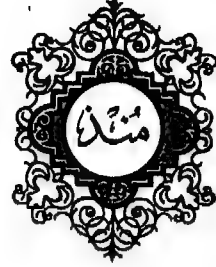
والفوضى الذى انقضى عهدا • فى ذلك الوقت ستكون الحاجة الى مذكرات
كمذكراتك • حسبها أنها صادقة : فهي رغم ما تتصف به من فوضى ،
تشتمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء فى ضوءها أن يدرك
ما كان لابد أن يختبئ فى نفس مراقب ينتمى الى ذلك العصر المضطرب ،
وهذا بحث لا تنمط قيمته ، ما دام المراقبون هم الذين تتألف منهم
الأجيال • • • • •

بوبرک

۱۸۷۳

فى هذه المرة سانشر مذكرات أحد الناس ، ماهى
مذكراتى انا ، بل مذكرات شخص آخر ، ولا حاجة الى
اى تجهيد ،

مذكرات أحمد الناصر



يومين سألني سيميون آرداليونوفتش في وقت
مناسب جدا :

- رحماك ايفان ايفانوفتش ، متى سيتفق لك مرةً ألا تكون
سكران ؟

سؤال غريب ! لن أغتاض بلا داع ، لأننى امرؤ خجول ، ولكن
هاهم أولاء يعدوننى مجنوناً . فى ذات مرة ، رسم أحد الرسامين صورة
لوجهى عرضاً . ثم اذا هو يقول « انك لأديب مع ذلك » . ووافقت على
أن يعرض الصورة على الجمهور . فاليكم ما قرأته : « اذهبوا فانظروا
الى ذلك الشخص المريض الذى يوشك أن يهوى الى قاع الجنون » .

هبنى مجنوناً . ولكن لماذا نشر هذا الكلام فى الجرائد ؟ ان الجرائد
فى حاجة الى موضوعات نبيلة ، فى حاجة الى المثل الأعلى ، أما هنا ...

نمة طريقة للتلميح : فلهذا انما وجد الأسلوب ولكن لا ... ليس
'يسمح لك بالتلميح . اختفت اليوم روح التكنة واختفى الأسلوب
الجميل ، وأصبحت الشتائم 'تعد' رهاقة فكر ولطافة ذوق . ولكننى
لن أستاذ ، فما أنا أديب كالأديب حتى أصدع رأسى . كتبت قصة ،

فلم ينشروها • وكُتبت مقالة فرفضوها • وأُرسلت مقالات الى جرائد مختلفة فلم يقبلوها ، وقالوا لى : « 'يعوزك الظرف ' » • سألتهم ساخراً :

— أى ظرف تنعون ؟ الظرف الأئنيى ؟

لم يفهمونى • وأنا أترجم خاصةً عن اللغة الفرنسية لأصحاب المكتبات • وأحرر اعلانات للتجار : « فرصة نادرة ! ••• اشربوا الشاي الذى تنتجه مزارعنا الخاصة ••• » • وان تأبينى لصاحب المعالي بطرس مافتشس لم يمرّ بغير صدى فى الأوساط العليا من المجتمع • وقد أُلِّقت ، تلبيةً لطلب أصحاب المكتبات ، كتاباً بعنوان : « كيف تحظى باعجاب النساء » • واتفق لى أثناء حياتى أن أُلقيت الى السوق ستة كتيبات من هذا النوع • وفى نيتى أن أجمع باقة من أقوال فولتير يضمها كتاب • لكننى أخشى أن يبدو هذا غير ذى مذاق لأهل زمانى • ان هذا العصر هو للهراوة لا لفولتير ، فليكسّر الناس بعضهم أفواه بعض ! تلکم هى مهنتى الأدبية كلها • هل عن عبثٍ ترانى أغرق ادارات تحرير الجرائد برسائل لا أسمى أن أمهرها بتوقيعى ؟ اننى أقضى وقتى فى اغداق التسيّيات والنصائح • أتقد ، وأدل على الطريق الواجب اتباعها • فى الأسبوع الماضى دبّجت الرسالة الأربعين من رسائل التى أبعثها الى صحيفة من الصحف منذ سنتين • ان طوابع البريد التى استعملتها قد كلفتنى حتى الآن أربعة روبلات • طبعى سىء • هذا هو الأمر •

أعتقد أن الرسام لم يرسم وجهى اهتماماً منه بالأدب ، ولكن بسبب تؤولين متناظرين يزدان بهما جيئنى • هذا حدث ، أليس كذلك ؟ ان الناس يتهاقون اليوم على الأحداث ، لعدم وجود فكرة يهتمون بها • لشدما أحسن هذان التؤلولان الى الصورة ! لكنهما يحيان ! ذلكم ما يسمى بالواقعية •

أما عن الجنون فان عدداً كبيراً من الكتاب عندنا قد وصموا فى

السنة الماضية بالاختلال العقلى .. قيل عنهم : « موهبة أصيلة جداً ...
فانظروا ماذا كانت النتيجة ! ولقد كان ينبغي التنبؤ بهذا منذ مدة طويلة
على كل حال ... » . ليس يخلو هذا الكلام من مكر ، حتى يمكننا أن
نصفق له من وجهة نظر الفن المحض . فبه يصبح الآخرون أذكى
مرتين . ولكن لئن كان سهلاً عندنا افتقاد أحد الناس عقله ، فليس هناك
مثال قيس العقل عليه .

أذكى الناس فى رأى هو ذلك الذى يصف نفسه بالغباء مرة
كل شهر . وما من أحد يقدر أن يفعل ذلك فى هذه الأيام ! فى الماضى
كان الغبى يدرك عند اللزوم مرة فى السنة على الأقل أنه ليس الا غبياً .
أما الآن ، فلا ، لا ، كلا ، كلا ! لقد اختلط الحابل بالنابل حتى صار
الانسان الذكى لا يتميز عن الانسان الغبى . وكان هذا مقصوداً .

تحضرنى نكتة أصلها أسباني . حين بنى الفرنسيون فى بلادهم
أول ملجأ للمجانين منذ نصف قرن ، قيل يومئذ : « لقد حبسوا جميع
مجانينهم فى منزل خاص حتى يصفوا أنفسهم بأنهم هم عقلاء » . القول
صادق . لست تبرهن على أنك عاقل اذا أنت حبست قرينك فى
بیمارستان . « فلان أصبح مجنوناً ... » معنى هذا أننا نتمتع بجميع
قوانا العقلية . لا ، أبداً ، ذلك لا يعنى هذا بعد .

على كل حال ، ليذهب هذا الكلام كله الى الشيطان ! ما بالى
أحدث هذه الجلبة كلها . ما لى ولهذا التذمر ! ما لى ولهذا البرطمة !
لقد أضجرت حتى طباختى . فى مساء أمس جاءنى صديق . قال لى :
« أسلوبك يفسد . صار مفروماً . أنت تفرم أسلوبك ، تهرمه هرماً ...
جعل عارضة ، ثم فى الجمل العارضة جملة أخرى عارضة ، ثم جملة
طارئة تضعها بين قوسين ، وتستأنف الفرم ... » .

صديقى على حق . فى نفسى يحدث شئ غير عادى . طبعى أيضاً
يطراً عليه تغير ، ورأسى يصيبه صداد . أخذت أرى وأسمع أشياء

غريبة ••• ما هي أصوات تماماً ••• كأن أحداً يندندن على مقربة مني :
» بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ! « •

ما » بوبوك « هذه ؟ يجب أن أحاول تسليّة نفسي •

خرجت لأستلي نفسي • فوقعت على جنازة • جنازة شخص يموت
الى بقرابة بعيدة • موظف فى الدرجة السابعة • مات تاركاً زوجته
وخمس بنات يجب تزويجهن • يا للنحس ! كان المتوفى يستطيع أن
يجنى رزقاً • أما الآن فيجب الاكتفاء بمعاش هزيل • يجب شد الحزام على
البطون • كان أفراد هذه الأسرة يستقبلوننى دائماً على مضض • على كل
حال ، ماكنت لأشهد الجنازة فى ذلك اليوم لولا المناسبة الطارئة • صحبت
المركب الى المقبرة • بعجرفة تحوّننى • كان ردتى مفرطاً فى الاهتراء
حقاً • أظن أننى لم أذهب الى المقبرة منذ خمس وعشرين سنة • المكان
غير جذاب كثيراً •

الرائحة أولاً • لقد جئى الى المكان بنحو خمسة عشر ميلاً • أكفان
من درجات متفاوتة • بل ثمة نعشان أحدهما نعش جنرال والآخر نعش
سيدة • عدد من الوجوه الحزينة ، غير قليل من الأسى المتصنع ، كثير من
فرح صريح • أضيف أنه لا داعى الى التشكى من هذا : يجب علينا أن
نحسب حساب الأرباح الصغيرة • ولكن الرائحة ! الرائحة ! ألا اننى
لا أحب أن أكون شحاذاً فى مقبرة •

تفرست فى وجوه الأموات متأنيباً ، غير منقاد لطبعى الشديدة
التأثر • ثمة وجوه لطيفة ، وثمة وجوه لا يحلو النظر اليها • الابتسامات
عامة ليست جميلة ، ولا سيما لدى بعضهم • لا أحب هذا • يحدث
للمرء أن يراه فى منامه •

أثناء القداس خرجت من الكنيسة لأتشفق الهواء • كان النهار
أشهب ، لكنه جاف ، وهو بارد بعض البرودة طبعاً ، فنحن فى شهر

أكتوبر • قمت بجولة بين القبور • القبور طبقات • الطبقة الثالثة تكلف ثلاثين روبلاً • لانتقة وغير باهظة الثمن • الطبقتان الأوليان لهما حق في الكنيسة وحوشها • ولكن ما أبهظ الثمن ! كان في ذلك اليوم ست جنازات من الطبقة الثالثة ، بينهم جنازة الجنرال وجنازة السيدة المذكورة !

ألقيت نظرة على القبور : شيء مقزز • ماء • وأى ماء ! ماء آسن أخضر • نعم • وفي كل لحظة يمتح الحفار الماء لفرغ القبر • خرجت • واذ لم يكن القداس قد انتهى ، جعلت أتجول خارج السور المصنوع من حديد مشبك • غير بعيد عن السور كانت هناك مضيفة • وبعدها بقليل كان هناك مطعم • ليس سيئاً كل السوء ، ذلك المطعم • أكلت قطعة ولوازمها ! ... ولم يلبث المطعم أن امتلأ بالناس الذين شهدوا المأتم • لاحظت كثيراً من الانتعاش والنشاط • أكلت وشربت •

ثم ساعدت يدي في جرجرة التابوت من الكنيسة الى القبر • لماذا يصبح الميت ثقيلاً هذا الثقل كله في التابوت ؟ يقال ان سبب ذلك هو قوة العطل ، وأن الجسم يفقد القدرة على التحكم بنفسه .. أو يقال سخط آخر من هذا القليل • هذا الكلام يناقض الميكانيكا والعقل في آن واحد • أنا لا أحب لامرئ • حصل ثقافة عامة في أكثر تقدير أن يقحم نفسه فيما لا علم له به ، وأن ينصب نفسه اخصائياً • وما أكثر أمثال هذه الحالة في بلادنا ! المديون يعشقون الاهتمام بالشئون العسكرية ، حتى ما تعلق منها بالاستراتيجية العليا ؛ والمهندسون بعشقون أن يهتموا بالفلسفة والاقتصاد السياسى •

لم أحضر « الصلاة » • وأنا امرؤ ذو كبرياء ، فإذا كانوا لا يطيقوننى الا في حالات الضرورة القصوى ، فعلام أجز نفسى الى ولائهم ، حتى تلك التى يقيمونها بعد الجنازات ؟ لا أدري لماذا بقيت في المقبرة على كل حال • جلست على قبر ، وغرقت في أحلام شتى •

فكرت أولاً في معرض موسكو • ثم انتقلت الى مشكلة « الاندهاش »
 التى كانت موضوع تأملى • فاليكم ما خلصت اليه فى أمر « الاندهاش » :
 • لا شك أن الاندهاش من كل شيء غباء وحماقة ، ولا شك أن
 عدم الاندهاش من أى شيء أعظم أناقة ، بل هو علامة رقى • ولكن
 ليس من الجائز كثيراً أن يكون الأمر كذلك فى التحليل الأخير • وعندى
 أن عدم الاندهاش من أى شيء أغبى كثيراً من الاندهاش لكل شيء •
 بل أكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أى شيء يكاد يساوى عدم تقدير
 شيء • والنبى لا يستطيع أن يقدر شيئاً •

منذ بضعة أيام قال لى شخص أعرفه :

– نعم ، اننى أحرص على التقدير أكثر من حرصى على أى شيء •
 الحاجة الى التقدير ! قلت بينى وبين نفسى : هه ! لسوف تعرف
 هذه الحاجة الى التقدير اذا خطر ببالك أن تطبع شيئاً فى يوم
 من الأيام !

عندئذ انقطعت سلسلة أفكارى • اننى لا أحب قراءة ما يكتب
 على شهادات القبور • هذه الكتابات كلها متشابهة • رأيت على بلاطة قبر
 غير بعيدة عنى سندويشة 'أكل نصفها • قلت لنفسى : « هذا غباء • ليست
 السندويشة فى مكانها • » • كنستها الى الأرض ، لأنها ليست خبزاً وانما
 هى سندويشة لا أكثر • ثم ان تفتيت خبز على التراب ليس باللائم
 فيما أظن ، وانما اللائم تفتيته على أرض غرفة • 'يستحسن أن أسأل
 عن هذا الأمر •

لابد أننى مكثت زمناً طويلاً ، بل زمناً طويلاً جداً • أعنى أننى
 اضطجعت على حجر كبير له شكل تابوت من مرمر • كيف حدث أننى
 سمعت أشياء كثيرة على حين فجأة ؟ لم أتبّه الى ذلك فى أول الأمر كان
 موقفى موقف الاستخفاف الكامل • سمعت أصواتاً جشء ، كأنها صادرة

عن أفواه مكبومة بوسائد ، لكنها مع ذلك متميزة وقرينة جداً • فتحت
عينى ، وجلست ، وأخذت أصغى بانتباه •

– صاحب المعالى ، حقاً ليس هذا بالممكن • أعلنت كباً ، فألّفت
الهويست ، فاذا أنت تلعب بالسبعة الدينارى • كان ينبغي لك أن تقول
من قبل ان معك الدينارى •

– ولكن الاعتماد على الذاكرة فى اللعب ليس بالشىء المسلى أيضا •
– صاحب المعالى ، لا يمكن اللعب بغير ضمانات • لابد لنا من
لاعب لا يلعب ؟ يجب منح توزيعه بغير مقابل •
– ولكن أنسى لنا هنا لاعب لا يلعب !

يا لها من أحاديث فى غير محلها ! لا أقل من أن يوصف هذا
بأنه غريب وغير متوقع فى آن واحد • الصوت رصين رزين • والصوت
التانى أميل الى التعاذب • ما كنت لأصدق لولا أن سمعت بأذنى •
ما معنى القمار فى مثل هذا المكان ، ومن هو ذلك الجنرال ؟ أما أن
الجلبة كانت صادرة عن القبور فذلك أمر لا مجال للشك فيه • ملت على
شاهدة القبر لأقرأ : « هنا يرقد جثمان الجنرال ميجر برفويادوف ، حامل
أوسمة كذا وكذا ، • هم ! • • • » توفى فى شهر أغسطس (آب) • •
فى السابعة والخمسين من العمر • ارقد فى سلام ، أيها الرماد الغالى ،
الى طلوع الفجر الفرح ! • •

عجباً ! هو اذن جنرال حقاً ! أما القبر الآخر الذى كان يصدر
عنه الصوت المتعاذب ، فليس له بعد ضريح • لا شىء الا بلاطة موضوعة
عليه ، فلا بد أن نزيله قادم جديد • ان الصوت يدل على أن صاحبه
موظف فى الدرجة السابعة •

قال صوت لم أسمعه من قبل ، على مسافة بضعة أمتار من مكان
الجنرال ، تحت قبر يبدو جديداً :

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

هو صوت رجل من عامة الشعب ، يحاول صاحبه أن يخفف حذته أدباً •

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

فزق صوت عصبى فيه احتقار ، هو صوت سيدة من المجتمع الراقى فيما يبدو ، زق يقول :

- آ... ها هو ذا تأخذه الحازوقة مرةً أخرى ! ألا إنه لقصاص شديد أن أكون بجانب هذا الدكانى !

- ليس بى حازوقة ، ولم أكل شيئاً • ذلك كله يأتى من تلقاء نفسه طبيعةً • ماذا يا سيدتى الجميلة ؟ ألا سبيل اذن الى تخليك عن نزواتك ؟

- ما اضطجاعت هنا ؟

- دسنى فى هذا المكان دساً • أولادى وامراتى هم الذين حشرونى هنا • لم أجدى بارادتى • ذلك هو سر الموت ! لولا الموت ما كنت لأرضى أن أرقد الى جانبك ولو أعطيت ذهب الأرض كله • وقد جئت الى هذا المكان بعد دفع آخر ما كنت أملك من نقود • نحن أيضاً نملك ما ندفعه نفقاتٍ للجنازة من الطبقة الثالثة •

- جمعت ذلك من سرقة أموال الناس ؟

- كيف أسرق وأنت لم تدفعى لى قرشاً واحداً منذ شهر كانون الثانى ، مع أن لدكانى عليك ديناً !

- هه ! ما أشدها بلاهة فى نظرى أن يطالب المرء هنا بديون له ! اذهب الى فوق ، وطالب بدينك بنت أخى التى ورثتى •

- كيف أطالب الآن ، وأين لى أن أذهب ؟ لقد اجتزنا الحفرة
كلانا ، ونحن أمام محكمة الرب متساويان فى خطايانا •
- يالها من لهجة عامية ! لا تسمح لنفسك بأن تكلمنى بعد الآن !
كذلك أجابته المتوفاة باستعلاء وتكبر • فابرى يصيت من
جديد :

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !
- انظر ، انظر ! أطاع الدكانى السيدة يا صاحب المعالى •
- لم لا يطيعها ؟
- ولكنك تعلم يا صاحب المعالى أن نظاماً جديداً يسود هنا •
- ما هو هذا النظام الجديد ؟
- نحن يا صاحب المعالى أموات ان صح التعبير •
ألا انه لعزاء ! اذا كان هذا هو ما يحدث فى مثل هذا المكان ،
فلا داعى أن يتساءل المرء عما ذا يحدث فى الطابق الأعلى ! يالها من
أحاديث سبخيفة ! ومع ذلك ظللت أصغى ، رغم أن غضبى بلغ ذروته •
هذا صوت ينبعث من مكان آخر فى المسافة بين الجنرال والسيدة
الثائرة أعصابها :

- أوه ! وددت لو أعيش زمناً أطول ! لا ، لا ، انسى أود كثيراً
لو أحيا •••

- هل تسمع يا صاحب المعالى ؟ ها هو ذا يستأنف ! ••• يظل
مصرأ على الصمت بعناد شديد ثلاثة أيام ، ثم يعود يهتف فجأة : « وددت
لو أعيش ، أود لو أحيا » • وهو فوق ذلك يلحج الحاحاً شديداً •
ها ها ها ها !

— خفة عقل !

— يعتبره هذا فجأة يا صاحب المعالي ، ويستولى عليه استيلاء تاماً •
انه هنا منذ شهر نيسان (أبريل) ، ثم اذا هو يصيح بقتة : « أود
أن أحيأ ! » •

قال صاحب المعالي :

— هذا مضجر أخيراً !

— مضجر يا صاحب المعالي • ما رأيك في أن نستأنف اغاظة
آفدوتيا اجناتيفنا ؟ ها ها ها !
— لا ، اعفنا من هذا ! لا أستطيع احتمال هذه المرأة السليطة
اللسان ، الفظيمة !

قالت المرأة السليطة باشمشراز :

— أنا أيضاً لا أستطيع احتمال أحد منكما ! انكما تنضحان ضجراً ،
وتعجزان عن اجراء أى حديث رفيع • اياك أخاطب يا صاحب المعالي ،
أؤكد لك أنك لا تملك ما يعجز لك اصطناع الكبرياء • أعرف عنك
قصة صغيرة ، أعرف كيف أن خادماً لوّث وجهك بمقشته ذات صباح ،
حين كنت مخبئاً تحت سرير عشيقتك •••

دمدم الجنراك يقول من بين أسنانه :

— امرأة قذرة •••

وعاد الدكاني يعول فقال :

— عزيزتى الشبهة آفدوتيا اجناتيفنا ، قولى لى : أنا أبتلى الآن
بالمحن الأولى من عذاب الآخرة ، أم هذا شيء آخر •••
— ا ••• عاد الى هوسه ! أوجست ذلك من الرائحة التى تخرج
منه • هو ذا يستدير •

— لست أستدير يا عزيزتى ، وليس فى رائحتى أى شىء خاص ،
لأن جسمى لا يزال محفوظاً ، أما أنت يا جميلة فقد تن لحمك تنحلوا •
لذلك تفوح منك رائحة لا تطاق ، بصرف النظر عن المكان • وإذا
كنت لا أقول شيئاً ، فذلك أدب منى •

— آ ... الوقح ! هو الذى تفوح منه رائحة كريهة ، ثم يدعى
أنتى أنا الذى تفوح منى هذه الرائحة •

— أوه ! أوه ! أوه ! ليت اليوم الأربعين يسرع مجيئه ،
فأسمع فوقى أصواتاً محزونة : أسمع انتحاب زوجتى وتساقط عبرات
أولادى •

— تتكلم عن البكاء ؟ هه ... لسوف يأكلون ثم ينصرفون •

— آه ... ليت أحداً على الأقل يصحو !

قال الصوت المتعذب :

آفدوتيا اجنائيفنا ، انتظرى لحظة ، سوف يتكلم الجدد •

— هل بينهم شبان ؟

— نعم ، بينهم شبان يا آفدوتيا اجنائيفنا ؛ بل بينهم فتية •

— ها ... هذا فى أوانه •

سأل صاحب المعالى :

— لماذا لم يبدأوا حتى الآن ؟

— ... لم يعيقوا يا صاحب المعالى • أنت نفسك تعلم أنهم قد يصمتون
فى بعض الأحيان أسبوعاً كاملاً • من حسن الحظ أننا قد أثينا بأموات
جدد ، أمس الأول ، وأمس ، واليوم • ولولا ذلك لبقيت الدائرة حولنا ،
الى مسافة عشرين متراً ، أمواتاً من السنة الماضية •

- شيء شائق حقاً •

- فاليوم يا صاحب المعالي 'دفن' تاراسفتش ، الموظف في الدرجة الثالثة • أدركت ذلك من أصواتهم • وأنا أعرف ابن أخيه • لقد أنزل تابوت تاراسفتش منذ قليل •

- اين هو ؟

- على مسافة خمس خطوات منك يا صاحب المعالي ، يسرة • يكاد يكون عند قدميك • هذه فرصة لتعرف اليه يا صاحب المعالي •
- ماذا ؟ ليس علىّ أنا أن أخطو الخطوة الأولى •
- بل هو الذي سيبدأ • سيشرفه هذا كثيراً يا صاحب المعالي ؟
نق أنتى •••

حشرج صوت آخر مرتاع على حين فجأة قائلاً :

- آه ! آه ••• آه ! ماذا جرى لي ؟

- هذا قادم جديد يا صاحب المعالي ، قادم جديد • الحمد لله •
سرعان ما أفاق ! الصمت يدوم في بعض الأحيان أسبوعاً •
هتفت أفدوتيا اجناتيفنا تقول :
- آه ••• يبدو لي أنه شاب !
فتمتم الشاب يقول :

- حدث •• حدث الوفاة في أعقاب اختلاط ، بفتة • قال لي الدكتور شولتس أمس : عندك اختلاط ، وفجأة مت في الصباح •
آه ! آه !

قال الجنرال باشا مرحباً ، وقد سرّ هذا الحادث الجديد :
- لا يملك الانسان أن يفعل شيئاً أيها الشاب • يجب علينا أن نسيطر

على أنفسنا ، وأن نغلب العقل في سلوكنا • أهلاً وسهلاً بك عندنا ، في وادي جوزافات • نحن ناس طيبون ، وسترى ذلك بنفسك ، فتعرف كيف تقدرنا • الجنرال ميجر فاسيلي فاسيلفتش بروفادوف ، في خدمتك •

– آه ... لا ، لا ، لن آلف ما حدث أبداً ! ذهبت الى الدكتور شولتس ، أصابني اختلاط : أصيب الصدر أولاً فصرت أسعل ، ثم أصابني برد : الصدر وأنفلونزة ... وفجأة ... وقع ما لم يكن بالمتوقع أبداً ... أسوأ ما في الأمر أنه لم يكن في الحسبان إطلاقاً •

عاد الموظف الصغير يقول بصوت مشفق كأنما هو يريد أن يشجع الشاب المسكين :

– تقول ان الصدر هو الذي أصيب أولاً ...

– نعم ، الصدر • ونشأ بلغم • ثم انقطع البلغم فجأة ! • آه ... الصدر ... أصبحت لا أستطيع التنفس ! • ولعلك تعلم •

– أعلم ، أعلم ؛ ولكن اذا كان المرض في الصدر ، فقد كان ينبغي أن تستشير الدكتور ايك ، بدلاً من الدكتور شولتس •

– لكنني كنت أذهب للذهاب الى الدكتور بوتكين ، وفجأة ...

قال الجنرال :

– عجيب ! ان بوتكين يسلخ سلخاً ...

– لا ، انه لا يسلخ البتة • سمعت أنه يحسن التشخيص بعناية كبيرة ، ويتبأ دائماً بما سيقع •

قال الموظف الصغير مصححاً :

– ملاحظة صاحب المعالي تتناول مسألة السعر •

– ما هذا الكلام ؟ ثلاثة روبلات في أكثر تقدير ... وهو يحسن

الفحص ويعنى به أشد العناية ... ناهيك عن وصفاته ... لقد حرصت عليه حرصاً مطلقاً لأننى 'حدثت عنه ... قولوا لى اذن ياسادة : أأذهب الى ايك أم الى بوتكين ؟

- ماذا ؟ الى من تريد أن تذهب ؟

سأله الجنرال هذا السؤال ، وانفجر ضاحكاً ، فكان جثمانه يهتز من الضحك متلذذاً ، واقتدى به الموظف الصغير .

وهتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

- عزيزى الشاب ، عزيزى الشاب الطيب ، كم أحبك ! ليتهم ، على الأقل ، يضعون بجانبى واحداً مثله !

عندئذ نفد صبرى ! ماذا ؟ أهذا ما يسمى بالميت العصرى ؟ ولكن كان يجب على أن أصغى ، وألا أتسرع كثيراً فى استخلاص النتائج واصدار الآراء . تذكرت اننى قد رأيت هذا الغبى فى تابوته منذ قليل . كانت هيئته هيئة صوص مرتاع ، وكان تعبير وجهه أبشع ما يمكن أن يكون التعبير فى وجه ! ومع ذلك انتظرت التهمة .

غير أن الفوضى التى قامت قد بلغت من الشدة أننى لا أتذكر الآن شيئاً . استيقظ عدد كبير من الأموات فى آن واحد : منهم موظف الدرجة السابعة الذى أسرع يشرح للجنرال مشروعاً يتعلق بـ لجنة جديدة فى الوزارة ، ويحدثه عن ترقية مرتبة لكبار الموظفين ترتبط بذلك المشروع ، فأنار هذا اهتمام الجنرال كثيراً . أعترف أننى بهذا الاصغاء اطلعت على أمور كثيرة ، فعجبت أشد العجب لتلك الطرق العجيبة التى يسلكها أبناء الإدارات الحكومية لتذيع فى العاصمة . ثم صحا مهندس نصف صحو ، وأخذ يجتر خلال مدة طويلة سخافات تبلغ من الحماقة أن أحداً لم يشأ أن يصغى اليه ، فاضطر أن يبقى مهملاً فى ركنه . ثم جاء دور السيدة

المعروفة التي كانت ترقد في الصباح على النعش ، فأخذت تتحرك في
 رسمها وتضطرب • وقد استغرب ليزياتيكوف (اتضح ان اسم موظف
 الدرجة السابعة ذى الصوت المتعذب ، المسجى بجانب الجنرال برفويادوف ،
 كان اسمه ليزياتيكوف) أن يستيقظ الجميع في هذه المرة بهذه السرعة •
 واني لأعترف بأننى استغربت ذلك أنا نفسى • على أن بعضهم كان قد
 'دفن' أمس الأول ، فكذلك شأن تلك الفتاة الشابة التي تبلغ من العمر
 ستة عشر ربيعاً ، والتي كانت لا تنفك تضحك ... بل قل لائى تقهقه
 قهقهة ساخرة ضارية غير لائقة •

رفع ليزياتيكوف صوته يقول معلناً على حين فجأة بلهجة فيها تعجل
 شديد :

— صاحب المعالى ، صحا تاراسفتش ، موظف الدرجة الثالثة •

فقال تاراسفتش باحتقار :

— فماذا ؟

كان فى لهجته شيء من نزوة وتسلط فى آن واحد • أصحخت
 بسمعى منتبهاً ، لأننى قد سمعت فى الآونة الأخيرة عن تاراسفتش هذا
 حكايات مشهية مذهلة معاً •

— هذا أنا يا صاحب المعالى ، أو قل ... •

— ماذا تريد ؟

— لا شيء الا الاستفسار عن صحة معاليك • ان الجميع يشعرون هنا
 فى البداية بشيء من التضايق لعدم التعود • ان الجنرال برفويادوف يود أن
 يتشرف بالتعرف الى معاليك ، ويأمل أن ... •

— لم أسمع بهذا الاسم •

— أرجوك أن تتذكر يا صاحب المعالى ، انه الجنرال برفويادوف ،

فاسيلي فاسيلفتش برفويادوف •

— أنت الجنرال برفويادوف ؟

— لا يا صاحب المعالي ، ما أنا الا لبرياتنيكوف ، موظف فى الدرجة
السابعة ، فى خدمتك ؟ أما الجنرال برفويادوف ...

— كفى سخافات ! أرجوك أن تدعنى وشأنى !

قال الجنرال برفويادوف مقاطعاً من أجل أن يضع حداً لشراسة هذا
النزير الجديد المتكبر :

— دعه !

— انهم لم يفيقوا افاقة تامة يا صاحب المعالي • يجب ألا نغفل
عن هذا الأمر • انهم لم يعودوا بعد • سوف يفيقون ، فينظرون الى الأمور
عندئذ بأعين أخرى •

فكرر الجنرال قوله :

— دعه !

وفجأة هتف صوت بقرب آفدوتيا اجناتيفنا ، صوت حائق لم يسمع
من قبل — صوت فتى من أسرة كريمة ، متهدج اللهجة مرتضى النبرة
كثير التقطع ، هتف يقول مخاطباً الجنرال :

— فاسيلى فاسيلفتش ! صاحب المعالي ! اننى أرقبك منذ ساعتين •
وقد أودعتُ هذا المكان قبل ثلاثة أيام • هل تذكرنى يا فاسيلى فاسيلفتش ؟
أنا كلنيافتش ، التقينا عند آل فولوكونسكى الذين كانوا يستقبلونك أنت
أيضاً ، لا أدري لماذا •

— كيف ؟ الكونت بطرس بتروفتش ... هل يعقل أن تكون
أنت ... فى مقبل العمر ... ما أشد أسفى ! ...

— أنا أيضاً أسف ... وان كان يستوى عندى الأمران • اننى أريد

أن أستفيد أكبر استفادة من كل ما يعرض لى • ثم انتى لست كوتناً بل باروناً ، لست الا باروناً • نحن بارونات صغار لا أكثر ، أحفاد خدم • وهذا كله لا يهمنى فى قليل ولا كثير على كل حال • ما أنا الا نجس من أنجاس المجتمع الراقى المزيف ، يعد نفسه « خليعاً لطيفاً مجيئاً » • كان أبى جنرالاً ، وكانت أمى تستقبل فى « أعلى مجتمع » • وقد قمت فى السنة الماضية ، أنا واليهودى زيفل ، بطرح خمسين ألف ورويه من الأوزاق المالية المزورة فى التداول ، ثم وشيت بزميلى اليهودى ، ولكن جوليت تارباتييه دو لوزجان هى التى مضت بالمال الى بوردو • وتصور أننى كنت قد تعاهدت على الزواج ••• مع شتيفالفسكيا ••• فتاة عمرها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر ، ومهرها تسعون ألف روبل ! ••• يا آفدوتيا اجئانفنا هل تذكرين كيف أفسقتنى منذ خمسة عشر عاماً حين كنت غلاماً فى السنة الرابعة عشرة من العمر ؟

— ها ! ••• هذا أنت اذن يا شيطان ! لقد أحسن الرب بارسالك الى هنا •

— ظلمت جارك التاجر حين ظننت أنه أخرج رائحة كريهة ••• لقد سكنت أنا وأخذت أضحك • الرائحة صادرة عنى • وضعونى فى تابوت مسّمر •

— آه ! ••• يا للخبيث ! لكننى مسرورة مع ذلك • لن تصدقنى اذا وصفت شدة افتقارنا الى الحياة والنشاط يا كلينافتش !

— بلى ! بلى ! أصّدقك • وفى نيّتى أن أهى « هنا شيئاً طريفاً • صاحب المعالى ! لست أخاطبك أنت يا برفويادوف ، بل أخاطبك أنت الآخر يا صاحب المعالى تاراسفتش ! ما بالك لا تجيب ؟ أنا كلينافتش الذى قدتك فى الصوم الكبير الى عند الآسنة فورى ، هل تسمع ؟

— أسمع يا كلينافتش • وانى لسعت بك ، صدقنى •••

- لا أصدق من كلامك شيئاً • كل ما أريده أيها الشيخ اللطيف هو أن أقبلك • ولكنني لا أستطيع ذلك ولله الحمد • هل تعرفون ، يا سادة ، ما فعله هذا « الجد » ؟ لقد مات منذ يومين أو ثلاثة ، مديناً بأربعمائة ألف روبل • وكان هذا المبلغ لأرامل وبييمات ، وكان يتولى وحده - لا أدري لماذا - تصريف شئون هذه الثروة ، فلم ' يسأل أن يؤدي أى حساب خلال ثماني سنين • اننى لأتصور كيف تستطيل وجوه أولئك الذين يدركون الآن حقيقة الرجل الذين وثقوا به • أليس صاحب خيال نرى ؟ كنت منذ سنة أدهش وأتساءل كيف يتاح لهذا الشيخ الذى يبلغ من العمر سبعين عاماً ، ويعانى من داء النقرس فى القدمين واليدين ، أن يملك من القوة ما يؤهله للاسترسال فى الدعارة والفسق ••• فهل عرفتم الآن السر ؟ تكلم الأرامل والبييمات • كان ذلك الحيال وحده يكفيه لشحذ قوته وانعاش حماسه ! ••• علمت بذلك منذ مدة ، فما ان علمته - والآسفة سارباتييه هى التى أعلمتني به - حتى هرعت اليه وأسديت له نصيحة صديق لصديقه ، قلت له : « تدفع خمسة وعشرين ألف روبل فى الحال ، والا تؤدي حساباً فى الغد » • ولكن لم يكن معه الا ثلاثة عشر ألف روبل • فلعل الموت قد وافاه اذن فى الوقت المناسب • هل تسمع ، يا جد ، يا جد ؟

- عزيزى كليفتش ، أنا موافق على رأيك كل الموافقة ، ولم تكن بك حاجة الى الدخول فى هذه التفاصيل • ان الحياة زاخرة بالآلام وتمزقات كثيرة ، وليس فيها الا قليل من التسلية ••• كنت أود لو أهدأ فى النهاية ، وانى لأمل ، فيما أرى ، أن أستمع من هذا المكان كل •••

- أراهن أنه سمَّ وجود كاتيش بيروستوفا !

- وجود من ؟ كاتيش ماذا ؟

كذلك هتف الشيخ سائلاً بصوت يرعشه الهوى •

- آ ••• آ ••• كاتيش ماذا ؟ انها هنا ، على مسافة خمس خطوات

منى الى اليسار ، وعلى مسافة عشر خطوات منك • هى هنا منذ أربعة أيام •
وليتك تعلم ، يا جد ، أية شيطانة صغيرة هى ! انها من أسرة كريمة ،
حسنة التهذيب ••• هى على الجملة شيطانة ، شيطانة الى أقصى حد !
لم أتح لأحد هناك أن يراها • أنا وحدى أعرفها • كاتيش ، أجيبنى !
فأجاب صوت صارخ رنان فيه شىء حاد كأنه ابرة ، هو صوت فتاة
صغيرة :

— هى ، هى ، هى !

تمتم الشيخ يسأل بصوت لاهث :

— هل هى شقة ••• را ••• ؟

— هى ، هى ، هى !

وتمتم الشيخ يقول أيضاً مختنق الأنفاس :

— أحلم منذ مدة طويلة بشقراء صغيرة ••• فى الخامسة عشرة من

عمرها ••• وفى هذا الاطار بعينه •••

صاحت آفدوتيا اجناتفنا تقول :

— يا للشذوذ !

قال كليناقتش بصوت حازم :

— يكفى هذا • أرى أن جملة الأمر حسنة • سندبر شئوننا هنا
على أحسن وجه ، وبغير ابطاء • فانما الشىء الأساسى أن نقضى بقية الوقت
فى متعة ومسرة • ولكن كم بقى لنا من وقت ؟ قل أنت يا ليزياتنيكوف ،
مادام هذا اسمك فيما سمعت •••

— اسمى ليزياتنيكوف ، سيميون افزئتش ليزياتنيكوف ، موظف فى
الدرجة السابعة ، سعيد جداً بأن أنفذ أوامرك •••

- لا يهمنى أن تكون سعيداً أو ألا تكون ، ولكن يبدو أنك هنا الشخص الوحيد الذى يعرف كل شيء • قل لى أولاً (كنت لا أزال دهشاً من الأمر منذ أسس) : كيف يمكن أن تتكلم ونحن فى هذا المكان ؟ ذلك أننا أموات ، ومع ذلك تتكلم ، ويبدو كأننا نتحرك ، لكننا لا نتكلم ولا نتحرك ، فما هذه المهزلة ؟

- هذا أمر ، اذا شئت يا بارون ، يستطيع أن يشرحه لك أفلاطون
يقولاً يفتش خيراً منى •

- من أفلاطون يقولاً يفتش هذا ؟ لننتقل الى الوقائع ، بغير بهرج
ولا زخرف !

- أفلاطون يقولاً يفتش هو فيلسوفنا الرسمى ، يؤمن بالمذهب
الطبيعى ، أستاذ كبير • نشر عدة كتب فلسفية ، ولكنه نائم منذ ثلاثة أشهر ،
فلا سبيل الى هزّه • ينطق مرة واحدة فى الأسبوع ببضع كلمات
لا تمت الى الأمر بصلة من الصلات •

- الى الوقائع ! الى الوقائع !

- هو يشرح ذلك بأننا ، فوق الأرض ، حين كنا أحياء ، كنا نرتكب
خطأ ، فنظن الموت ، تحت الأرض ، موتاً ، والحقيقة خلاف ذلك • فالجسم
هنا يحيا مرة أخرى ان صح التعبير ، لأن تنفأ من الحياة تتجمع وتتركز ،
ولكنها تتجمع وتتركز فى الشعور فحسب • لا أدري كيف أعبرٌ لك •
فل ان شئت ان الحياة تستمر هنا بحكم ما يشبه أن يكون قانون العطالة •
وفى رأى فيلسوفنا أن كل شيء متجمع ومتركز فى الشعور ، وهو يظل
على هذه الحال شهرين أو ثلاثة أشهر ••• وربما ستة أشهر فى بعض
الأحيان • على سبيل المثال ، هنا شخص كاد يتحلل جسمه تحللاً كاملاً ،
ومع ذلك نسمعه ، فى كل ستة أسابيع ، يدمدم فجأة بكلمة ، كلمة واحدة

صغيرة ، لا معنى لها طبعاً ، بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ، • هذا دليل على أنه لا يزال فيه قيس خفى من حياة •

— سحفت ! غباء ! ولكن قل لى : كيف أشم رائحة التبن وقد فقدت حاسة الشم ؟

— مرد ذلك ••• هىء هىء ••• هنا يسبح فيلسوفنا فى ضباب كيف • فيما يتعلق بالشم خاصة ، يرى فيلسوفنا أن التبن الذى تشمه هنا تبن روحى بمعنى من المعانى ••• هىء هىء ! ••• تبن يصدر عن الروح ، من أجل أن يتسع وقت المرء ، خلال هذين الشهرين أو هذه الأشهر الثلاثة ، أن يثوب الى نفسه ••• وفى رأى فيلسوفنا أن هذه آخر نعمة • ولكننى أرى مع ذلك يا بارون أن هذا الكلام هذيان صوفى غيبى يجب أن تغفره لمن كان فى مثل وضعه •••

— كفى •• الباقى معروف •• سخافات ! •• ان الشيء الثابت المحقق أن الحياة ستستمر شهرين أو ثلاثة ، ثم ، بوبوك ، • اقترح عليكم جميعاً أن تقضوا هذين الشهرين على نحو ممتع ما أمكن ذلك ، وأن تنظموا من أجل هذا على أسس جديدة • سيداتى سادتى ! اقترح عليكم أن تتخلوا منذ الآن عن كل حياء أو حشمة •

فرددت أصوات تقول مؤيدة :

— نعم ، نعم ، يجب أن نتخلى عن كل حياء أو حشمة !

والغريب أن أصواتاً جديدة قد اشتركت فى ترديد هذا الكلام ، فهى أصوات أشخاص أفاقوا اذن فى تلك اللحظة نفسها •

وهتفت آفدوتيا اجناتفنا تقول بحماسة :

— آه ••• لشدما أحب أن أمخلص من الحفر !

- هل تسمعون ؟ ... ان آفدوتيا اجناتفنا نفسها تريد أن تتخلص من الحفر !

- لا يا كليناقش ، لا ، لا ، لقد كنت استحي هناك ، فى الماضى ، أما هنا فان رغبة رهيبة فى التخلص من هذا الحياء تضطرم فى نفسى وتلظى .

قال المهندس :

- أفهم من كلامك أنك تقترح أن ننظم لأنفسنا هنا حياة قائمة على أسس جديدة ، أسس عقلية فى هذه المرة .

- لا يهمنى هذا ! بالناسبة ، يجب أن تنتظر كوداياروف الذى جىء به أمس . فمتى صحا شرح لكم كل شىء . وفى الغد سيجيؤنا بعالم من علماء الطبيعة ، وربما جاؤنا بضابط ، وإذا لم يخطىء تقديرى فسوف يجيئوننا بكتاب ينشر مقالات فى احدى الجرائد وسوف يجيئوننا معه بمدير الجريدة فيما أعتقد . على كل حال ، لا يهمنى أمر هؤلاء جميعاً ، فليأخذهم الشيطان ، وحسبنا أن نكون جماعتنا ، فينتظم كل شىء من تلقاء نفسه بيننا . ولكننى أطلب قبل كل شىء بأن لا نكذب . على الأرض تستحيل الحياة بدون كذب ، فالحياة والكذب مترادفان : أما هنا فلن نكذب ، وذلك من أجل أن نضحك قليلاً . لا أقل من أن ينفعنا القبر فى شىء ! سوف يقص كل منا قصة حياته جهاراً بدون أقل تحفظ ! وسأكون أنا أول من يروى قصة حياته . اننى كما تعلمون من صنف الضواري . فوق الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة . أف من الأسلاك . لنقص هذين الشهرين فى رحاب الحقيقة المكشوفة بغير حياء ولا خجل ! لنخلع الأقنعة ، ولنظهر عراة عرياً تاماً .

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

- عرياً تاماً ، عرياً تاماً !

– آه ... لشدما أحب أن أتعري تماماً !

كذلك قالت آفدوتيا اجناقتنا بصوت مزمر •

– آ ... أرى أن الجو سيكون مرحاً هنا • فلا أريد أن أذهب الى
الدكتور ايك !

– أما أنا فأريد أن أحيا أيضاً ، أود لو أعيش مدةً أطول •

وضحكت كاتيش ساخرة :

– هـى هـى هـى !

– الشيء الأساسى هو أن أحداً لا يستطيع أن يمنحنا من أن نفعل
ما عقدنا العزم عليه ؛ ان برفويادوف ، رغم أنه غاضب فيما أرى ، لن
يستطيع أن يبلغنى • هل أنت موافق يا جد ؟

– كل الموافقة ، وبأعظم سرور ، ولكن على شرط أن تكون كاتيش
هى البادئة بقص قصة حياتها •

قال الجنرال برفويادوف :

– أحتج ! أحتج أشد الاحتجاج •

فأسرع ذلك الوغد لبزياتنيكوف يحاول اقناع الجنرال متعجلاً "متعجلاً"
محموماً ، فقال له همساً وهو يخفض صوته :

– صاحب المعالى ، سيكون فى هذا نفع كبير لنا اذا نحن وافقنا •
هناك هذه الفتاة الصغيرة كما تعلم ... ثم هناك تلك القصص الصغيرة
كلها ...

– لنسلم بأن هناك الفتاة الصغيرة ... ولكن ...

– سيكون لنا نفع كبير ، يا صاحب المعالى ، نفع كبير ، أؤكد
لك ! ... فليبدأوا على الأقل ، من باب التجربة ...

- حتى فى القبر لا أتوك مرتاحاً ...

قال كلينافش :

- يا جنرال ، أنت أولاً تلعب هنا بالورق ، ثم اتنا لا يهمنى أمرى ،
ولا نكثر بك •

- أيها السيد العزيز ، أرجوك على الأقل ألا تنسى نفسك فتقول
ما ليس ينبغى أن يقال ...

- هه ؟ ماذا ؟ انك لن تستطيع أن تنالنى على كل حال ... ففى
وسمى أن أغضبك ما شاء لى هواى أن أغضبك • ثم ماذا يجديه هنا أن
يكون له لقب جنرال ؟ هناك كان جنرالاً أما هنا فليس الا جيفة !
- لا ، لست جيفة ... أنا هنا ...

- أنت هنا تتفسخ فى تابوتك ، ولن يبقى منك الا مسنة أزوار
نحاسية •

أعولت الأصوات تصبح :

- مرحى كلينافش ! ها ها ها ! ...

- لقد خدمت قيصرى ... ولى سيف ...

- سيفك لا ينفع الا فى تسفيد فئران ، ثم انك لم تستله فى يوم
من الأيام •

- لا قيمة لهذا ، فلقد كنت جزءاً من كل •

- كثيرون هنا كانوا جزءاً من كل •

- مرحى كلينافش ، مرحى ! ها ها ها ! ...

قال المهندس :

ـ أنا لا أعرف ما السيف •

وصاح من بعيد صوت لا أعرفه لكنه بدا لي في ذروة الحماسة :

ـ سنهرب كالقثران أمام البروسيين ، وسيجعلوننا نظير في
الهواء غباراً •

قال الجنرال بصوت خافت متلعثم لا يكاد يُسمع ولا يفهم :

ـ السيف شرف يا سيد •

ولكنني سمعته وفهمته •

وتعالت جلبة طويلة • كان الجميع يصخبون ويصيحون ، فلا يستطيع
المرء أن يسمع الا عويل التمليل الهستري الذي يصدر عن آفدوتيا
اجناتنا معبراً عن نفاد صبرها :

ـ آه •• أسرعوا •• أسرعوا •• متى نبدأ أخيراً في التخلص من
الحياة ! •••

وقال الدكائي فجأة :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه الحق أن نفسي أخذت تواجه البراهين •••
وفجأة عطست • عطست على حين بغتة دون أن أريد ذلك • ولكن
الأثر كان مذهلاً : أصبح كل شيء هادئاً ساكناً كما يكون في مقبرة •
تبدد كل شيء • أصبح الصمت صمت قبور حقاً • لا أظن أنهم تخرجوا
من حضوري : فلقد قرروا ألا يشعروا من شيء بحياة • لا ولا يمكن أن
أفترض أنهم خافوا أن أشي بهم الى الشرطة • فما مجيء الشرطة الى هذا
المكان وما عساها تفعل هنا ؟ لذلك تراني أستتج ، على غير ارادة مني ،
أنه لا بد أن لهم سرّاً يجهله الأحياء ، وأنهم يحرصون أشد الحرص على
ألا يذيع هذا السر •

قلت لنفسي : « هيا يا أصدقائي ، سأجىء أזורكم مرة أخرى » ،
وغادرت المقبرة •

لا ، لا أستطيع أن أسَّلم بهذا فى الواقع ، لا أستطيع أن أقبله !
ان بوبوك لا يخيفنى ولا يبت الاضطراب والقلق فى نفسى (ذلك اذن
ما كان يريد أن يصل اليه « بوبوك ») •

دعارة فى مثل هذا المكان ! دعارة يسترسل فيها من 'تعقد عليهم أقصى
الآمال ! دعارة تقوم بها جثث متحللة متفسخة تنته ! دعارة لا تعف حتى
فى أواخر لحظات الشعور والضمير ! لقد أتيحت لهم ، أتيحت لهم تلك
اللحظات الأخيرة ، و ... و ... لكن كيف يفعلون هذا فى مثل هذا
المكان خاصة ؟ لا ، لا ، انتى لا أستطيع أن أقبل ذلك وأن أسَّلم به ...

وطفت على الصفوف الأخرى ، وأصغيت الى جهة من الجهات ،
ذلك أنه كان يجب على أن أصغى الى كل جهة من الجهات ، لا الى جهة
واحدة ، حتى أستطيع أن أقطع برأى وأن أقضى بحكم • أترانى ألقى
فى آخر المطاف ما يبعث على عزاء ؟

لكننى سأعود حتماً الى هؤلاء • لقد تعاهدوا على أن يرووا قصص
حياتهم ونوادير شتى • أف • لكننى سأعود ، سأعود حتماً ، فلك أزيمة
ضمير •

وسأحمل مقاتلى الى جريدة « المواطن » • لقد 'نشرت فيها صورة
محرر • فمن الجائز أن ينشروا لى أنا أيضاً •

الطفل عند سدوع
في عهد الميلا
١٨٧٦

« الطفل عند المسيح في عيد الميلاد » ، ظهرت اول مرة
في كراسة كانون الثاني (يناير) ١٨٧٦ من «يوميات
كاتب» (المجلد الثاني ، ٢) .

••• أحلم دائماً أن هذا حدث بمكان ما ، فى زمن غير محدّد ،
 عشية عيد الميلاد تماماً ، فى مدينة كبيرة من المدن ، أثناء جو جليدى فظيع .
 أحلم أن طفلاً لا يزال صغيراً جداً ، طفلاً عمره ست سنين ،
 وربما أقل من ذلك ، قد استيقظ ذات صباح فى قبوٍ ينضح رطوبة • انه
 يرتدى نوعاً من قميص أو مثزر ، ويرتجف من شدة البرد ، وأنفاسه
 تنتشر بخاراً أبيض ، وقد قبع هو فى ركن جالساً على صندوق ، وأخذ
 يرسل هذ البخار عامداً يخادع به ضجره ، ويتسلى عن سأمه بالنظر اليه
 كيف يطير • ولكنه جائع يتمنى لو يصيب شيئاً من طعام • لقد دنا فى هذا
 اليوم عدة مرات من السرير الحقيق الذى ترقد عليه أمه المريضة فوق
 فراش من قش ، متوسدةً صرّة • ما الذى جاء بها الى هذا المكان ؟ أغلب
 الظن أنها وافدة من مدينة أخرى مع ابنها الصغير ، وأنها قد وافاها المرض
 بغتة • وقد اقتادت الشرطة 'أمس صاحبة القبو التى تؤجر غرفه ، وجلا
 السكان عن جميع أركان القبو متفرقين هنا وهناك ، فالיום عيد ، ولم يبق
 فى القبو الا لثام خرقٍ أخذ السكر منه كل مأخذ ، لأنه ظل يشرب منذ
 أربع وعشرين ساعة غير منتظر أن يحلّ يومُ العيد •

وفى الطرف الآخر من الغرفة ثنٌ عجوز صغيرة أقعدها مرض
 الروماتزم ، ولا بد أن عمرها ثمانون سنة • لقد كانت فى أزمنة غير هذه
 الأزمنة وأمكنة غير هذه الأمكنة « مربية أطفال » ، ولكنها تموت الآن
 وحيدة ، ثن وتشهد وتنهر الصبى الصغير • لذلك يخاف الصبى الآن أن
 يدنو كثيراً من ذلك الركن •

ولقد استطاع أن يجد فى الدهليز ما يشربه ، ولكنه لم يتمكن من
 العثور على أية كسرة خبز يأكلها ؟ وهذه هى المرة العاشرة ، على الأقل ،
 التى يقترب فيها من أمه ليوقظها • وقد اعتراه أخيراً شيء من الخوف فى هذا
 الظلام • لقد هبط الليل منذ مدة طويلة • ولكن لم 'يشعل أحد ضوءاً

حتى الآن . وحين جسَّ الصبي وجه أمه أدهشه أن الوجه ظل ساكناً لا يتحرك ، وأنه بارد كبرودة الجدار . قال يحدث نفسه : « البرد شديد حقاً هنا ، وارتاحت يده على كتف المريضة من تلقاء نفسها ، ثم أخذ ينفض على أصابعه ليدفئها . ثم اذا هو ينبش السرير فجأة ليعثر على كسكيتته ، ويخرج من القبو متلبساً طريقه في الظلمة الحالكة بغير ضجة . ولقد كان يمكن أن ينصرف قبل ذلك بمدة طويلة لولا خوفه من أن يلتقي في أعلى السلم بكلب ضخم ظل ينبح أمام باب المنزل المجاور طوال اليوم . ولكن الكلب كان قد بارح مكانه ، ورأى الصبي نفسه في الشارع فجأة .

رباه ! يا لها من مدينة ! انه لم يشهد في حياته شيئاً كالذي يشهده الآن . هناك ، في البلد الذي جاء منه ، يكون الظلام شديداً في الليل ، فالشارع لا ينيره الا مصباح واحد . والمنازل الخشبية الصغيرة مخفية وراء مصاريعها . ومتى هبط الليل لا يرى أحد في الشوارع . فالناس جميعاً يأوون الى بيوتهم . ولا يبقى في الشوارع الا كلاب ، مئات من الكلاب ، ألوف من الكلاب ، أسراب كبيرة من الكلاب تظل تعوى وتتبع طوال الليل . ولكن الجو دافئ جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله ... أما هنا ... يارب ! ليته يستطيع أن يأكل فقط ... ثم ما أشد الجلبة والضجة هنا ! وما أسطع الضياء ! ما أكثر الناس ! وما أوفر الخيل والعربات ! ... وهذا الجليد ! هذا الجليد !

وخرج بخار متجلد من خياشيم الأفراس المسرعة . ورنّت حدوات حوافرها على بلاط الشارع تحت الثلج الهش . وهؤلاء الناس كلهم ما أكثر ما يتصادمون ، و ... رباه ... ما أشد جوعه ... ما أشد رغبته في أن يأكل ولو لقمة من أى شيء . وما أشد الألم الذي يشعر به في أصابعه فجأة ! وممرّ بقرب الصبي رجل من شرطة المدينة ، فسرعان ما أثناح وجهه عنه متظاهراً بأنه لم يلمحه .

هذا شارع آخر . أوه ! ما أعرضه ! هنا سيُداس حتماً . ما أكثر

ما يصيح هؤلاء الناس كلهم ، وما أشد ما يسرعون فى سيرهم ! وما أكثر الضياء ! ما أسطع النور ! ثم ما هذا ؟ آآآ زجاج نافذة واسعة • ووراء الزجاج غرفة ، وفى الغرفة شجرة عالية تبلغ السقف • انها شجرة صنوبر ، شجرة عيد الميلاد • ما أكثر ما تحمل من أنوار ، وأشرطة مذهبة ، وتفاحات • وقد أحيطت بلعب صغيرة ، وأفراس صغيرة • وفى الغرفة أولاد يركضون : انهم يرتدون ثياب العيد • ما أنظفهم ! وهم يضحكون • هذه بنت أخذت تراقص صبياً صغيراً • ما ألطفها ! ما أحلاها ! حتى ان موسيقى تسمع من خلال الزجاج •

ينظر الصبي الصغير ويمعجب ويدهش • ثم هاهو ذا يضحك ، بينما هو يشعر بألم فى أصابع رجلية الصغيرة ، وبينما تحمر أصابع يديه احمراراً شديداً وتأبى أن تتثنى وتوجهه اذا هو حركها • عندئذ تذكر الصبي فجأة أن أصابعه تؤلمه ، فأخذ يبكي ، وركض مبتعداً • ولكن ها هو ذا يرى زجاج نافذة أخرى ، ويرى غرفة أخرى فيها شجرة أيضاً • غير أنه يلمح فى هذه المرة موائد ، ويرى على الموائد أصنافاً من الحلوى ، أصنافاً كثيرة من الحلوى : أقراصاً باللوز ، أقراصاً حمراء وأقراصاً صفراء ؟ ويرى أربع سيدات غنيات قد جلسن يوتعن الحلوى • ويدخل ناس كثير فى أجمل الليل ، آتين من الشارع •

اقترب الصبي خلسته ، وفتح الباب ، ودخل فجأة • آه • • • لكم أخذوا يسبونهم شاهرين أيديهم ! وأسرعت سيدة تدنو منه قدس فى يده قرشاً ثم تفتح له باب الشارع بنفسها • لشدهما خاف ! وسرعان ما تخرج القرش على الدرجات فرن رنيناً واضحاً • لم يستطع الطفل أن يشى أصابعه الصغيرة المحمرة ليقبض على القرش ! وأسرع يركض ماضياً فى سبيله قديماً دون أن يعرف الى أين يذهب • ان به حاجة الى البكاء من جديد ، ولكنه فى هذه المرة خائف • وأخذ يركض وهو ينفخ

على يديه • واستولى عليه قلق وفزع ، اذ أحس فجأة بأنه وحيد جداً •
وفما كان يشد رعبه ، اذا هو ••• ما هذا أيضاً يا رب ؟ ••• هؤلاء
جماعة من الناس قد وقفوا مدهوشين • ان وراء زجاج نافذة من النوافذ
ثلاث دمي • ليست الدمى كبيرة • وقد ألبست فساتين حمراء وخضراء •
ولكنها تشبه أن تكون حبة ، تشبه أن تكون حبة تماماً ! هذا شيخ جالس
كأنه يعزف على كمان ، على كمان كبير • وهذان شيخان آخران يعزفان على
كمانين صغيرين ، صغيرين جداً ، ويرتجان رأسيهما الدقيقين على ايقاع
العزف • وتنتظر الدمى بمضها الى بعض ، بينما تتحرك شفاهها وتتكلم •••
نعم ••• لكنها تتكلم حقاً ••• أليست كمن يتكلم فعلاً ؟ ولكن الزجاج
يحجب صوتها فلا يسمع كلامها •

ظن الصبي في أول الأمر أنها أشخاص أحياء • لكنه حين أدرك أنها
دمى انفجر يضحك فجأة • لم يسبق له أن رأى مثل هذه الدمى
في يوم من الأيام ، بل لم يكن يتصور أن في الامكان أن توجد أمثال
هذه الدمى • صحيح أنه كانت به حاجة الى البكاء • ولكن منظر هذه
الدمى يبعث على الضحك ، يبعث على الضحك جداً •

وبدا له بغتة أن أحداً أمسك قفاه • ان صيياً طويلاً شريراً كان
واقفاً الى جانبه ، فاذا به يضربه على رأسه ، ويخطف كسكيتته ، ثم يشبك
ساقه بساقه فيسقطه على الأرض • تدهرج الصبي الصغير • وأخذ الناس
يصيحون • واعتري الصبي رعب شديد ، فقام وركلى هارباً بخطى عريضة
وهو لا يدري ماذا يفعل ، ودخل بوابة أحد المنازل فصار في فناءه ، ووجد
كومة من خشب فألقى وراءها وهو يقول لنفسه : « هنا ••• على الأقل •••
لن يكتشفوا مخبئي » • فالظلام في هذا المخبأ شديد •

ألقى وطوى بعض جسمه على بعضه وهو لا يستطيع أن يتنفس من
شدة خوفه • ولكنه لم يلبث أن شعر براحة على حين فجأة • نعم على
حين فجأة • أصبحت يداها وقدماه لا توجعه ، وأحس بدفء ، بدفء •

شديد ، كأنه قريب من مدفأة • وارتمش بفتة • آه ••• لقد حرم من النوم مدة طويلة • ما أحلى أن ينام هنا !

قال الصبي الصغير يحدث نفسه : « سوف أمكث هنا لحظة ، ثم أمضى أرى الدمي مرة أخرى » ، وابتمس حين تصوورها من جديد • لكنّها كانت حية !

وبدا له فجأة أنه يسمع صوت أمه تغنى له أغنية صغيرة وهى مائلة عليه •

— ماما ! اننى أنام ! آه ••• ما أحلى النوم هنا !

وفجأة سمع الصبي صوتاً رقيقاً يقول له فوقه :

— تعال انظر الى شجرة عيد الميلاد عندى يا بنى •

فتصوّر الصبي فى أول الأمر أن أمه هى التى تكلمه ، ولكن لا •• ما هى أمه • فمن ذا الذى ناداه اذن ذلك النداء ؟ لم يبصر الصبي شيئاً ، لكن أحداً قد مال عليه مع ذلك ، وضمه بذراعيه فى الظلام • وقد مدّ هو ذراعيه •• وها هو ذا يرى نفسه فجأة فى مكان آخر ••• يا للضياء الساطع ! أوه ،••• ما أروعها شجرة من أشجار عيد الميلاد ! لكنها ليست شجرة صنوبر • ومع ذلك لم ير فى حياته شجرات كهذه الشجرة • أين هو الآن ؟ كل شيء يشع ، كل شيء يتلألأ • وما أكثر الدمي الصغيرة التى تحيط به من كل جهة • ولكن لا ! ما هذه دمي ، بل صبية صفراء ، وصبايا صغيرات • ولكنهم يشعون ويتألقون • وهم يرقصون من حوله وقد تشابكت أيديهم ، وهم يطربون ، وهم يقبلونه ، وهم يحملونه ويأخذونه معهم فيطير هو أيضاً • واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنتظر اليه ، وتبتسم له فرحة • فيصيح الصبي الصغير قائلاً لأمه :

— ماما ! ماما ! آه ••• ما أحلى هذا المكان وما أشهائ !

وعاد يقبّل الأطفال ، واشتهى أن يروى لهم قصة الدمى التى رآها وراء زجاج النافذة ، أن يروى لهم هذه القصة بأقصى سرعة •

قال يسألهم وهو يضحك ويلطفهم :

– من أتم أيها الصبية الصغار ؟ من أتنن أيتها الصبايا الصغيرات ؟
فأجابوه :

– هذه شجرة عيد الميلاد عند يسوع المسيح • ان المسيح ينصب شجرة فى مثل هذا اليوم من كل سنة للأطفال الصغار الذين لم يكن لهم شجرة على الأرض ***

هكذا علم أن جميع هؤلاء الصبية الصغار والبنات الصغيرات كانوا أطفالاً مثله ، ولكن بعضهم ماتوا من البرد فى سلال تركوا فيها على أبواب قصور سان بطرسبرج ، وبعضهم ماتوا رضعاً فى دار حضانة بفنلندة ، وبعضهم ماتوا على أنداء أمهاتهم الناضبة ابان المجاعة التى عمت بلاد سمارا ، وبعضهم ماتوا مختنقين بالهواء المسموم فى حافلات الدرجة الثالثة من القطار • ولكنهم كلهم مجتمعون الآن هنا كالملائكة • انهم عند يسوع المسيح • وان يسوع المسيح هو الآن معهم يمد يديه ليباركهم وليبارك أمهاتهم أيضاً ••• ان الأمهات قد انتحجن جانباً ، وأخذن يبكين • وكل واحدة منهم تعرف ابنها الصغير أو ابنتها الصغرى فتطير الى جانبه أو الى جانبها • والأولاد يقبّلون أمهاتهم ، ويمسحون دموعهن ، ويضرعون اليهن ألا يبكين ، لأنهن الآن سعداء •

فى فناء ذلك المنزل ، عثر البوابون فى الصباح على جثة طفل دخل الفناء مسرعاً وتجلّد وراء كومة من خشب • وأمكن العثور على أمه فى النهاية • كانت قد ماتت قبله •

والتقى الاثنان فى السماء عند الرب •

الفصل عمارتی

۱۸۷۶

« الفلاح ماراي » ! ظهرت اول مرة في كراسة شمسهر
شباط (فبراير) ١٨٧٦ « يوميات كاتب » (الفصل
الثالث ، ٣) .

ولكننى أعتقد أن جميع أنواع هذا « الجهر بالرأى » تبعت قراءتها على الملل والضجر . لذلك سوف أكتفى برواية حكاية ، بل ما هى بحكاية أيضاً ، وإنما هى ذكرى لا أكثر ، ذكرى تحرقنى الرغبة فى بسطها هنا ، هذه اللحظة ، ختاماً لحديثنا عن الشعب . كنت فى التاسعة من عمري ... ولكن لا ... ان من الأفضل أن أبدأ بالعهد الذى كنت أدخل فيه التاسعة والعشرين .

فى يوم الاثنين من عيد الفصح كان الهواء مشبعاً بالرطوبة ، وكانت السماء صافية زرقاء ، وكانت الشمس قوية دافئة ، ولكن نفسى ظلت غارقة فى الظلمات . كنت أطوف وراء التكنات ، أعدُّ أوتاد السياج الضخم الذى كان سوراً للسجن . ولكن لم تكن بى أية رغبة فى عدِّ الأوتاد ، رغم أن هذا كان لى شاغلاً معتاداً مألوفاً . كان السجناء « فى راحة » بمناسبة اليوم الثانى من العيد . وكان كثير منهم قد مكروا مكراً شديداً ، ففى كل لحظة من اللحظات 'تبادل شتائم ولكلمات فى جميع الأركان . وكان آخرون يدندنون أغنيات بذئبة ، أو يلعبون بالورق تحت الحواجز . وكان السجناء الذين صرعههم رفاقهم بضربهم على رؤوسهم لفرط ما أحدثوا من جلبة ، راقيدين على سررهم تنطيطهم فروانهم بانتظار أن يفيقوا من غيبوتهم . وقد لمعت نصال السكاكين مراراً حتى الآن . وكان ذلك كله ، خلال هذا اليومين من العيد ، يمتدبني تعذيباً شديداً الى حدِّ المرض . ثم اننى لم أحتمل فى حياتى أن أرى منظر افراط الشعب فى الشراب والطعام دون أن أشعر من ذلك باشمئزاز ، ولا سيما فى هذا المكان . وكانت المراقبة قد قلَّت أثناء تلك الأيام . كان المراقبون يمتنعون عن التنبش بحثاً عن خمرة يكون السجناء قد أخفوها ، لادراكهم أن من الخير أن يرخوا الحبل على غاربه مرة فى السنة حتى لهؤلاء الأشرار ، والا ازداد الأمر سوءاً . وشعرت بالكراهة والبغض يشتعلان فى قلبى آخر الأمر . لقد صادفت سجيناً سياسياً بولندياً اسمه ... كى ، فرشقنى بنظرة شرراء ،

ملتصع العينين مرتجف الشفتين ، وقال لى بصوت خافت صارفاً بأسنانه :
 « اننى أكره هؤلاء اللصوص » ، ثم مضى . رجعت الى الثكنة التى
 بارحتها منذ ربع ساعة فى أكثر تقدير ، كالمجنون ، حين رأيت ستة فلاحين
 ضخاما يهجمون دفعة واحدة على تترى سكران اسمه جازين ، ليردوه
 الى الصواب ، وينهالون عليه بضرب وحشى لو أصاب جملاً لقتله . ولكنهم
 كانوا يعلمون أنه يصعب أن يموت هذا الهرقل ، فكانوا يضربونه ضرباً
 لا رحمة فيه . فلما عدت الآن الى الثكنة رأيت جازين مسجى على الحاجز
 فى ركن بأخر الغرفة وكأنه جثة هامدة لا حياة فيها ، وقد غطى بفروءة ،
 ورأيت جميع السجناء يعمرون بقربه صامتين . انهم يأملون أن يستيقظ
 فى الندى ، ولكنهم يقولون : « من الجائز مع ذلك أن يفتس » . عدت
 الى مكاني ، ورقدت على ظهري ، واضعاً يديّ وراء رأسي ، مغمضاً
 عينيّ . لقد كنت أحب أن أستلقى هذا الاستلقاء . فلا أحد يضايق من
 ينام ، فأستطيع بذلك أن استرسل فى أحلام اليقظة على ما أحب وأهوى .
 ولكننى لم أسترسل هذه المرة فى الأحلام ؟ لقد كان قلبي يخفق خفقاناً
 قوياً ، وكنت أشعر بغير شديد ، وكانت لا تفارق سمعى كلمات
 .. . كى : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » . ولكن علام وصف
 تلك المشاعر التى اتابنتى فى تلك اللحظة . انها ما زالت توافينى فى
 الحلم ليلاً ، فلا أعرف أن هناك كوابيس أشدّ منها هولاً . لعلكم لاحظتم
 أننى حتى هذا اليوم لم أكد أتكلم عن حياتى فى السجن . أما كتابى
 « ذكريات من منزل الأموات » ، فقد نشرته منذ خمسة عشر عاماً على
 أنه ذكريات شخص خيالى هو رجل قتل زوجته . وأضيف الى ذلك
 أن كثيراً من الناس يعتقدون ويؤكدون حتى الآن أننى نفيت الى سيبيريا
 لأننى قتل زوجتى .

هبطت نيتاً فسيئاً الى نوع من الحذر ، وانقذت لسلسلة ذكرياتى .
 اننى خلال السنين الأربع التى قضيتها فى السجن ، كنت أتذكر الأيام

الماضية بغير انقطاع ، حتى لكأننى عشت حياتى بهذه الذكريات مرتين •
 قلما استحضرت هذه الذكريات عامداً • وانما كان يبدأ التذكر فى
 أكثر الأحيان بأمر تافه من الأمور ، وربما بدأ بأمر لم أكن قد انتبهت
 اليه ولا تلبثت عليه ، ثم اذا هو يتسع شيئاً فشيئاً فيصبح صورة واضحة ،
 أو يغدو احساساً قوياً كاملاً • فكنت أحلل تلك الاحساسات ، ثم أضيف
 لمسات جديدة الى تلك المادة التى عشنا منذ زمن طويل ، بل كنت
 كذلك أصحح فيها ، وأبدل منها بغير انقطاع • وكانت تلك هى لذتى
 ومتعتى فى الأمر كله •

ففى تلك المرة تذكرت ، على حين فجأة ، ساعة من طفولتى
 الصغيرة لا يقف عليها الادراك ، أيام كنت فى السنة التاسعة من عمرى •
 كنت أظن أننى قد نسيت تلك الساعة نسياناً تاماً • ولكن كان يسرنى
 ويبهجنى ويمتحنى فى ذلك الحين أن أستعيد ذكريات طفولتى الأولى •
 تذكرت شهر آب (أغسطس) الذى قضيته فى الريف • كان الجو فى
 ذلك الشهر جافاً مضيئاً ، ولكنه كان بارداً بسبب الريح • كان الصيف
 يشارف على نهايته • وسوف ينبغى أن أعود الى موسكو قريباً ، فأقضى
 شتاءً كاملاً مضجراً فى تعلم اللغة الفرنسية • لذلك أحسست بانقباض
 فى صدرى حين تصورت أننى سأغادر الريف • اجتزت اليدر الذى
 تتكدس عنده مساحق القمح • ثم اجتزت وادياً وصعدت صوب حرجة
 كثيفة اسمها لوسك تمتد وراء الوادى وتبلغ الغابة • وفيما كنت أوغل
 فى الحرجة ، سمعت غير بعيد منى ، على مسافة ثلاثين خطوة من حافة
 الحرجة ، فلاحاً يحرث وحيداً • وكنت أعلم أنه يحرث أرضاً وعرة
 يلقى الحصان عناء شديداً فى جرّ المحراث عليها ، لأننى كنت أسمع
 الفلاح من حين الى حين يصرخ مهيباً بالحصان أن يبذل مزيداً من الجهد :
 هوه ! هوه ! وكنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً ، ولكننى لم أثبتن من
 هذا الذى يحرث الآن • وكان لا يهمنى أن أعرف ذلك على كل حال ،
 لأن العمل الذى كنت عاكفاً عليه كان يشغلنى عن سائر ما عداه • لقد

كنت مشغولاً أنا أيضاً : كنت أقطع لنفسي قضباناً من شجر البندق لأجلد بها الضفادع • ان قضبان شجر البندق جميلة جداً ، وهى أصلب وأمتن من قضبان شجر السندر • وكانت الحنافس والجعلان تشد انتباهي أيضاً ، لأننى كنت مولماً بجمعها لكثرة أنواعها وألوانها • وكنت الى ذلك أحب الجراذين الصغيرة النشطة التى تضرب سمرتها الى حمرة وتزينها ببع صغيرة سود • ولكننى كنت أخاف الثعابين • وكان ما ألقاه من ثعابين أقل كثيراً مما ألقاه من جراذين على كل حال • ولا تقع عين المرء على كثير من الفطر هناك • فمن أجل أن تجنبى فطراً يجب عليك أن تمضى الى جهة أشجار السندر • ولقد كنت أتهياً للذهاب الى تلك الجهة • ما أحببت فى حياتى شيئاً كما أحببت الغابة بأنواع فطورها وثمارها البرية وحشراتنا وطيورها ، وقنافذها وسناجبها ، والرائحة الرطبة التى تفوح من أوراق أشجارها الساقطة المتعفنة • اننى وأنا أكتب هذه الأسطر الآن أشم كل شذى غابتنا هناك فى القرية • ان هذه الاحساسات ستبقى حية ما حييت •

فى وسط ذلك الصمت الشامل سمعت على حين فجأة هذا النداء واضحاً كل الوضوح : « الذئب ! » • فاذا أنا أصرخ وقد 'جنتت رعباً ، وأهروى متجهاً الى حافة الغابة ، وأمضى 'قُدماً الى الفلاح الذى كان يحرق •

انه فلاحنا ماراى • لا أدري هل يسمى أحد بهذا الاسم • ولكن جميع الناس كانوا يدعونه ماراى • هو فلاح فى نحو الخمسين من عمره ، قوى البنية فارغ الطول له لحية حمراء كثيفة وخطها الشيب • كنت أعرفه ، وان لم أكن قد كلمته تقريباً حتى ذلك اليوم • كان حين سمع صراخى قد أوقف حصانه • فلما وصلت اليه فتشبث باحدى يديّ بالمحراث ، وأمسكت يدي الأخرى كمنه ، أدرك مدى ما أنا فيه من

ذعر • وصحت أقول له لاهثاً :

- ذئب !

فرقع رأسه ونظر فيما حوله على غير ارادة منه ، وخيّل اليه خلال لحظة أتنى أو شك أن أكون ...

قال يسألنى :

- أين الذئب ؟

فتمتعت أجيبه :

- صاح أحد ... صاح أحد قائلاً : « الذئب ! » ،

فدمدم يقول ليطمئنى :

- هياً هياً ! لا ذئب هنا • لقد خيل لك • ما مجيء الذئب

الى هذا المكان ؟

ولكننى ظلمت ارتعداً شديداً ، وتمسكت بقميصه مزيداً من التمسك • وأظن أن شحوبى كان شديداً جداً • نظر الى ماراى وهو يتسهم ابتسامة قلقة • كان خائفاً على • وكان واضحاً أنه قلق أشد القلق من الحالة التى كنت فيها •

قال وهو يهز رأسه :

- ما أشد ما اتباك من خوف ! هياً • كفى يا صغيرى ! لا ، لا ،

انك جسور حقاً •

ومدّ يده يلاطف خدى فجأة • وكرر قوله :

- هياً ! كفى ! كان يسوع المسيح معك • ارسم اشارة الصليب •

لكننى لم أرسم اشارة الصليب • كانت شفتاى متقلصتين فى طرفيهما • وأظن أن هذا هو ما شدهه أكثر من أى شىء سواه • فقرب اصبعه الضخمة ذات الظفر الأسود ، المتسخة بالتراب ، ومسّ شفتى

المتشنجين مساً رقيقاً هادئاً • وقال لى وهو يتسسم ابتسامة طويلة تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها :

— ما بالك ؟ ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ هانت ذا ترى أن ليس ههنا ذئب ! آه ••• آه •••

أدركت أخيراً أن ليس ثمة ذئب ، وأن الصرخة التى سمعتها تنادى « الذئب ! » انما كانت وهماً • وكانت الصرخة قد دوّت مع ذلك واضحة أشد الوضوح • غير أن هذه الصرخات (التى لا تتصل بالذئاب وحدها) قد سبق أن سمعت مثلها مرة أو مرتين ، فكنت أعلم أنها نوع من أوهام الخواس (وقد زالت عنى هذه الظاهرة بعد ذلك حين كبرت) •

قلت وأنا ألقى عليه نظرة استفهام خجلى :

— أنا ذاهب •

فأجابنى وهو لا يزال يتسسم تلك الابتسامة التى تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها :

— هياً ، اذهب ، سأتابعك بنظرى • لن أدع للذئب أن يهاجمك •

كان يسوع المسيح معك • اذهب •

ورسم علىّ إشارة الصليب ، ثم رسمها على نفسه •

وانصرفت فكنت ألقى نظرةً الى الحلف كلما سرت عشر خطوات •

وفيما كنت أبتعد بقى ماراى واقفاً هو وحصانه ، متجهاً ببصره الى ناحيتى ، يهزّ لى رأسه كلما التفت نحوه • يجب أن أعترف أنني كنت أشعر بخجل من اظهارى ذلك الرعب كله ، ولكن هذا لا ينفى اننى ظلت خائفاً خوفاً شديداً من الذئب الى أن صعدت الجانب الآخر من الوادى ، وصرت قريباً من أول بيدر • وهناك زال خوفى ولم يبق منه أى أثر ؛ ورأيت كلبى لوبيو يندفع الى فجأة • فأحسست من حضور لوبيو بطمأنينة كاملة وثقة تامة • والتفت نحو ماراى مرةً أخيرة ، فلم أستطع عندئذ أن

أميز وجهه ، ولكننى أحسست أنه لا يزال الى تلك النظرة الرقيقة نفسها ، وأنه يهزُّ لى رأسه مشجعاً • ولوحت له يدي ، فرأيت يده ترتفع فى الهواء ملوَّحة لى ، ورأيتَه يستأنف عمله فى حرث الأرض • وسمعتَه من بعيد يصيح مستحثاً حصانه :

– هوه ! هوه !

ورأيت الحصان يجرُّ العربى على الأرض الوعرة فى غير قليل من العناء •

ذلك كله عاد الى ذاكرتى ، لا أدوى لماذا ، ولكنه عاد بأدق التفاصيل وأوضح الصور • ورأيتنى أفتح عينيَّ فجأةً وأجلس على الحاجز • فألاحظ ان الابتسامة الهادئة الوداعة التى أنبتتها هذه الذكريات على شفتى لا تزال مرسمة عليهما • ولبتت دقيقة كاملة أستعرض صور تلك الذكريات •

بعد أن تركت ماراى ورجعت الى الدار لم أحدثْ أحداً بشئ عن « المغامرة » التى وقعت لى • وهل كانت تلك مغامرة حقاً ؟ ثم لم ألبث أن نسيت ماراى • وحين لقيته بعد ذلك فى مناسبات نادرة ، كنت لا أذكره بحكاية الذئب ، بل كنت لا أخاطبه بشئ البتة ، ثم هأنذا بعد انقضاء عشرين سنة على ذلك اللقاء ، أتذكره وأنا فى سبيرا بأدق التفاصيل وأوضح الصور • فلا بد أن ذلك اللقاء قد نُقش فى نفسى من تلقاء نفسه دون أن أدرك أنا ذلك ، ودون أن أريده ، ثم اذا هو تستيقظ ذكره فى خيالى حين احتجت اليها • تذكرت الابتسامة الرقيقة الحنون يغمرنى بخنائها الفلاح المسكين الذى كان قنّاً من أقناننا • وتذكرت اشارات الصليب التى رسمها فى ورع وتقوى ، وتذكرت كيف كان يهزُّ لى رأسه مشجعاً ، وتذكرت ما قاله لى : « ما أشد الخوف الذى اتابك يا صغيرى ! » • وتذكرت خاصةً تلك الاصبع الضخمة المتسخة بالتراب التى لامس بها طرف فمى ملامسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل • صحيح أن أى انسان ما كان ليفوته

أن يطمئن طفلاً • ولكن ذلك اللقاء في الحلاء قد اكتسب في نظري معنى خاصاً • لا أظن أنه كان سينظر الى نظرة تعبر عن حب يبلغ هذا المبلغ كله من النقاء ، لو أنني كنت ابنه وفلذة كبده ؟ ما الذي أجبره على هذا الحب كله ؟ لقد كان قنأ لنا ، وكنت أنا ابن مولاه • لا أحد كان سيعلم بأنه لاطفنى ولامس خدى ، ولا أحد كان سيكافئه على ذلك أبداً • فهل كان اذن يحب الأطفال الصغار هذا الحب كله ؟ ان لبعض الناس طبيعة كهذه • لقد حدث اللقاء في مكان منعزل ، في البرية ؟ والله وحده رأى من علياء سمائه ما يزخر به قلب فلاح روسي بسيط جاهل متوحش لا يزال مستعبداً للأرض ولا يزال لا يلمح في الأفق فجبر تحرره ، ما يزخر به قلبه من عاطفة انسانية عميقة متألفة ومن حنان يشبه أن يكون حنان امرأة •

قولوا لى : أليس هذا ما كان يعنيه كونستانتان آكسكوف حين تحدث عن التربية الرفيعة فى شعبنا ؟

وأحسست فجأة ، وأنا أغادر سربرى الحقيق وألقى نظرة على ما حولى ، أن فى وسعى بعد الآن أن أرى هؤلاء الأشقياء رؤية جديدة كل الجدة ، ثم اذا بكل كره وكل غضب يزايلان نفسى ويسمحيان منها بفتة بما يشبه السحر • ورحت أفرس فى نظرات رفاق السجن • فأسأل نفسى : هذا الفلاح المحلوق شعر رأسه ، الساقط خلقه ، الممتلىء وجهه بالندبات ، الذى كان فى سكره يعول بأغانٍ بذيثه ، ألا يمكن أن يكون ماراى ثانياً ؟ أين لى أن أعرف فى الواقع ما بنفسه ؟ أعود فأقول اننى فى ذلك المساء صادفت البولندى ••••• كى ! مسكين هذا الرجل ! انه لم يتذكر فلاحاً اسمه ماراى ، فكان كل ما يستطيع أن يقوله عن هؤلاء الناس : « اتنى أكره هؤلاء اللصوص ! » • نعم ، لابد أن البولنديين يقاسون أكثر مما نقاسى •

هجوز تجاوز هرها مائه سنه

۱۸۷۶

« في السنة المائة والرابعة من العمر » ، نشرت اول مرة
في عدد شهر آذار (مارس) ١٨٧٦ من « يوميات كاتب »
(الفصل الاول ، ٣ ،) •

حدثني سيدة فقالت :

« خرجت من منزلي في نحو الظهر • كان عليّ أن أنجز أعمالاً كثيرة ، وكنت متأخرة تأخراً كبيراً • فإذا أنا ألقى على باب أحد المنازل امرأة عجوزاً ، طاعنةً في السن كثيراً ، هرمةً هرمًا شديدًا ، متوكئة على عصا • يستحيل على المرء أن يحزر ما سُنّها • كانت جالسةً بقرب بوابة فناء المنزل ، على الدكة التي يجلس عليها البواب • كانت تستريح من عناء السير • وكنت أنا ذاهبة إلى منزل آخر يبعد عن ذلك المكان بضع خطوات • ودخلت المنزل الذي كنت ذاهبة إليه ، فلمّا خرجت منه رأيت العجوز جالسةً الآن على دكة بواب هذا المنزل الآخر • ونظرت إليّ ، فابتسمت لها ، ودخلتُ متجراً كان عليّ أن أشتري منه حذاءين لابنتي صونيا • وبعد أربع دقائق أو خمس رأيت العجوز مرةً أخرى في شارع نفسكي ، جالسةً هذه المرة لا على دكة ، اذ لا دكة هناك ، بل على حجر بقرب الباب • فرأيتني أقف أمامها رغم ارادتي ، قائلةً لنفسي : « لماذا تجلس هذا الجلوس أمام جميع المنازل ؟ » •

وسألتها :

— أأنت متعبة يا جدة ؟

— نعم يا ابنتي ، متعبة ، متعبة دائماً • قلت لنفسي : « الجودافى » ، والشمس ساطعة ، فسأمتني أتغدى عند أحفادي •

- أنت ذاهبة للغداء اذن يا جدة ؟
- للغداء يا ابنتى ، للغداء •
- ولكنك لن تقطعى بهذا السير مسافة طويلة !
- بلى ! استريح ، ثم انهض ، فأمشى بضع خطوات ، ثم استريح مرة أخرى ، وهكذا دواليك •
- نظرت إليها • بدا لى أمرها عجيباً • انها عجوز قصيرة ، نظيفة المظهر ، بالية الثياب • لملها من البورجوازية الصغيرة • وجهها ذابل ، أصفر ، معروق ؟ شفتاها باهتان ، لا لون لهما • تشبه أن تكون مومياء • ولكن هذه المومياء تبتسم ، والشمس تسطع لها كما تسطع لسائر الأحياء •
- قلت لها مبتسمة :
- لا بد أنك مسنة جداً يا جدة !
- مائة وأربع سنين يا ابنتى ، مائة وأربع سنين ، لا أكثر • وأنت ، الى أين 'تراك ذاهبة ؟
- ألقت علىّ هذا السؤال وهى تنظر الىّ ضاحكةً ، ربما من فرحها بانها تحدث أحداً • ولكننى استغربت من عجوز تجاوزت المائة أن تسأل الى أين أنا ذاهبة ، حتى لكان الأمر يهمها •
- قلت وأنا أضحك أيضاً :
- اشتريت لابنتى حذاءين يا جدة ، وأنا الآن عائدة بهما الى الدار •
- ما أصفرهما ! أرايت ما أصفرهما ؟ لا بد أن ابنتك صغيرة جداً •
- هل لك أولاد آخر ؟
- وعادت تضحك وهى تسألنى بنظرها • ان عينها كابيتان ، باهتان ، ولكن نوعاً من حرارة داخلية تنعشهما أحياناً •

قلت لها :

- هل تأخذين منى هذه الكوبكات الخمسة يا جدة ؟ سوف تشتريين بها رقيقاً صغيراً •

- ماذا ؟ خمسة كوبكات ؟ شكرآ • آخذها •

- خذيهما بدون أن تستائى يا جدة •

أخذتها • كان واضحاً أنها ليست متسولة • هيات أن تكون متسولة • لقد أخذت الكوبكات الخمسة بكثير من اللباقة والكياسة ، لا كما تؤخذ صدقة ، بل كما تؤخذ هدية يقبلها من ' تهدي اليه لطفاً وطيبة • ولعلها كانت الى ذلك مسرورة مقتبلة : من ذا الذى يكلم العجوز المسكينة يوماً ؟ وهى الآن لا 'تكلم فحسب ، وانما 'يهتم بها ، و'يحب عليها ، ويشعر أحد نحوها بماطفة مودة •

قلت لها :

- استودعك الله يا جدة • أتمنى لك أن تصلى بصحة جيدة وعافية تامة •

- سأصل يا ابنتى ، سأصل ... سأصل • واذهبى أنت الى حفيدتك •

كذلك قالت لى العجوز ناسيةً أننى لما أصبح بعد جدةً ، متخيلةً فى أغلب الظن أن جميع النساء جِّدات •

وانصرفت عنها • فلما التفت لأراها مرة أخرى ، كانت تنهض عن مكانها ببطء ومشقة ، ثم تسير بضع خطوات جائرةً نفسها جرأً ، ضاربةً بعصاها الصغيرة الأرض • لعلها ستحتاج الى أن تستريح عشر مرات أخرى قبل أن تصل الى مسكن ذويها الذين ستتغدى عندهم • الى أين عساها ذاهبة ؟ يا لها من عجوز صغيرة غريبة ! • •

ذلكم ما روته لى السيدة •

٢

روت لى السيدة هذه القصة فى ذات صباح • والحق أنها ليست قصة بل هى انطباع لا أكثر • وفى ساعة متأخرة من الليل • بعد أن قرأت مقالة فى احدى المجلات • وكنت قد نسيت ما روته لى السيدة • تذكرت تلك المعجوز الهرمة • فاذا أنا أكمل القصة فى خيالى • فأرى المرأة التى تبلغ من العمر مائة وأربع سنين • تصل الى ذويها للغداء • واذا بما أتخيله يرتسم أمامى لوحة صغيرة تبدو لى مستمدة من الواقع فعلاً •

ان أحفاد المعجوز • وربما أولاد أحفادها - لكنها تسميهم جميعاً أحفادها - هم صناع يعيشون أسرة واحدة فى قبو تحت الأرض • أو يديرون دكان حلاقة • هم أناس فقراء ولكنهم وصلوا الى أن يعيشوا حياة لائقة • وصلت المعجوز اليهم فى نحو الساعة الثانية • وكانوا لا يتوقعون مجيئها • لكنهم استقبلوها مسرورين بقدمها •

- آآآ هأت ذى أيضاً • ماريا مكسيموفنا ! ادخلى • ادخلى • أهلاً وسهلاً بخادمة الرب !

دخلت المعجوز مبتسبة • بعد أن رن جرس الباب مدة طويلة بصوت حاد طنان • ان حفيدتها امرأة الحلاق • لا تزال فى شرخ الشباب كزوجها الذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين • وهو رجل رصين المظهر • رغم خفة المهنة التى يعمل فيها • انه يرتدى رديجتاً يلتمع دسمه كالتماع

الدمسم فى قرص من الحوى ، ربما بسبب ما يستعمله فى مهنته من دهن •
ما عساي أقول ؟ اننى لم أر فى حياتى حلاقاً نظيفاً • وكانت ياقة رديجوتيه
كالمنطوسة فى طحين •

وسرعان ماهرع الى جدة أمهم ثلاثة أظال صغار ، صبي وبتان •
ان العجائز اللواتى بلغن مثل هذا السن يتعاطفن والأطفال : فهن وهم
يتشابهن نفساً ، ويتشابهون فى كل شئ •

جلست العجوز • وكان عند رب البيت ضيف جاء لعمل من
الأعمال • انه فى نحو الأربعين من عمره • وهو يهم الآن ان ينصرف •
وكان عند الحلاق أيضاً ابن أخته : فتى فى السابعة عشرة يعمل فى مطبعة •
رسمت العجوز اشارة الصليب ، ونظرت الى الغريب • قالت :

- آه ... ما أشد ما أحس به من تعب ! وهذا ، من هذا ؟

فانبرى الغريب يقول مبتسماً :

- هذا أنا ، كيف يا ماريما مكسيموفنا ؟ أصبحت لا تعرفيننى ؟ منذ
سنتين كان علينا أن نذهب الى الغابة معاً لقطاف الفطر •

- آ ... أعرفك يا عفريت ! اننى أتذكر • ولكننى نسيت اسمك •
آه ... ما أشد ما أشعر به من اعياء !

قال الغريب مازحاً :

- ماذا يا ماريما مكسيموفنا ، أيتها الجدة المحترمة ؟ ... أرى
أنك أصبحت لا تكبرين •

فأجابته العجوز وهى تضحك :

- دعك من هذا الكلام ، دعك ! ...

كان سرورها بمزاحه واضحاً •

وأردف الرجل يقول :

- أنا يا ماريما مكسيموفنا رجل طيب •

- يحلو الحديث مع رجل طيب ! آه ... انتى لا أكاد أستطيع
التنفس ! أرى أنكم اشترىتم لسيربوجنكا معطفاً جديداً •

قالت ذلك وهى تومىء الى ابن الأخت •

فابتسم ابن الأخت كاشفاً عن كل أسنانه ، وأقبل على العجوز • انه
فتى قوى الجسم يفيض نشاطاً وهو يرتدى معطفاً رمادياً جديداً لا يزال
يزهو به ولا يرتديه بغير اكترات : لابد من أسبوع آخر ، فاذا هو يعتاده
فيلبسه بعد ذلك دون أن يحفل به • أما الآن فهو لا يكف عن الاعجاب
بنفسه ، ولا يميل من النظر الى صورته فى المرآة ؛ وكل حركة من
حركاته تدل على أنه يقدر ذاته قدراً كبيراً •

قالت له زوجة الحلاق مدممة :

- تقدم • استدر !

وأردفت تقول مخاطبةً العجوز :

- انظرى ما صنعنا له يا مكسيموفنا ! لقد كلّفنا المعطف خمسة
روبلات دفناها كأنها كوبك واحد • قالوا لنا عند بروخوروتش : الرخيص
أعلى ، ذلك أن الرخيص ما تكاد تنقضى ثمانية أيام حتى يهترىء فتأسفوا
على ما دفعتم ثمناً له • أما هذا ، فلا يبلى ! انظرى الى قماشه ما أجوده !
استدر قليلاً • وما أحسن بطائه ! ما أمتها ! هلاًّ استدرت ! فانظرى
كيف يذهب المال يا مكسيموفنا • أصبحت جيوبنا خاوية • لا بأس !

- آه يا عزيزتى • صار كل شيء باهظ الثمن فى هذه الأيام •
جئت الأسعار جنوناً • الأفضل ألا تحدثينى عن هذا شيء • فان الحديث
عنه يؤلنى كثيراً •

كذلك عتبت مكسيموفنا على كلام زوجة الحلاق ، وكان في كلامها
عاطفة صادقة وتأثر واضح ، وكانت لا تزال تلهث لهاثاً شديداً حتى لكأنها
تخفق •

قال رب الدار :

- دعونا من هذا ! كفى ! آن لنا أن نأكل • أرى انك متعبة جداً
يا ماريّا مكسيموفنا !

- اه ••• نعم يا عزيزى الشهم ، متعبة ••• رأيت الجو دافئاً ،
والشمس ساطعة •• فقلت لنفسي : « هلمى زوريهم ! علام تبقيين راقدة
فى السرير ؟ » • آه ••• وفى الطريق صادفت سيدة شابة كانت تشتري
للأولادها أحذية ، فقالت لى : « ما بك يا جدة ! أراك متعبة ! خذى هذه
الكوبكات الخمسة ، فنشتري بها رغيفاً صغيراً ••• » • فأخذت الكوبكات
الخمسة فعلاً •••

قال رب الدار وقد اعتراه قلق واضح :

- ارتاحى قليلاً يا جدة • ما بالك تلهثين اليوم هذا اللهات
الشديد ؟

- أخذتها حقاً ••• اشترى الحلوى للأولاد ••• بالكوبكات
الخمس •••

وتوقفت عن الكلام مرةً أخرى • وحاولت من جديد أن تتنفس •
وصمت الجميع خلال خمس ثوان •

وقال رب الدار وهو يميل عليها :

- ماذا يا جدة ؟

ولكن الجدة لم تجب • وخيم الصمت خمس ثوان أخرى • شحب

لون العجوز ، وانقلبت سحتها أكثر فأكثر ، ثبتت عيناها ، وتجمدت
ابتسامتها على شفيتها • انها تنظر ، ولكن المرء يحس أنها أصبحت
لا ترى •

انبرى الغريب يقول فجأة :

- يجب استدعاء الكاهن •

فدمدم رب الدار يقول :

- ولكن ... هل ... ألم يفت الأوان ؟

وهتفت امرأة الحلاق تنادى وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

- يا جدة ! يا جدة !

ولكن الجدة ظلت جامدة وقد مال رأسها الى جانب • وكانت يدها
اليمنى الموضوعة على المائدة مسكة بقطعة النقد ، الكوبكات الخمسة ،
وكانت اليد اليسرى لا تزال على كتف ميشا ، ابن حفيدتها ، وهو طفل
فى السادسة من عمره • كان الطفل واقفاً لا يتحرك ، ينظر الى جدة أمه
بميتين واسمتين مدهوشتين •

قال رب البيت وهو ينحنى لها ويرسم اشارة الصليب ، قال بصوت
رصين مهيب :

- فارقت •

وعقب الرجل الغريب مذهولاً وهو يطوف بهصره على الحضور :

- أمر عجيب • لاحظت فعلاً أنها كانت ما تنفك تميل ثم تميل •

ودمدت ربة البيت مضطربة مرتاعة تقول :

- آه ... رياه ! ما العمل يا ماكاريتش ؟ هل يجب أن نحملها

الى هناك ؟

فَسأَلَهَا رَبُّ الْبَيْتِ :

- هُنَاكَ ؟ أَيْنَ ؟ لَا بَلْ سَوْفَ تَدْبِرُ أَمْرَنَا هُنَا ! أَلَيْسَتْ جَدَّتُكَ ؟
يَجِبُ أَنْ نَبْلُغَ عَنْ وَفَاتِهَا •

قَالَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ وَهُوَ يَرَاوِحُ فِي مَكَانِهِ وَتَزْدَادُ عَاطِفَتُهُ رَقَّةً
وَحَنَاناً ، وَيَشْتَدُّ احْمَرَارُ وَجْهِهِ :

- مِائَةٌ وَأَرْبَعُ سِنِينَ !

وَعَقَّبَ رَبُّ الْبَيْتِ بِرِصَانَةٍ وَهُوَ يَتَنَاوَلُ كَسَكَيْتَهُ وَمَعْطَفَهُ :

- لَقَدْ أَخَذْتُ تَسَى الْحَيَاةِ فِي الْآوَنَةِ الْآخِرَةِ !

- مِنْذُ لَحْظَةٍ لَا أَكْثَرَ ، كَانَتْ لَا تَزَالُ تَضْحَكُ ! انْظُرْ ! إِنَّهَا لَا تَزَالُ
قَابِضَةً عَلَى قِطْعَةِ الْخَمْسَةِ كُوبَكَاتِ • قَالَتْ « اشْتَرُوا لِلْأَوْلَادِ حُلُوى ، •
وَاحْسِرَتَاهُ عَلَى حَيَاتِنَا !

وَقَاطَعَهُ رَبُّ الدَّارِ قَائِلاً :

- هِيَ بَنَاتُ يَا بَطْرُسَ سَتِيَانُوفْتَش •

وَخَرَجَ مَعَ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ •

لَيْسَ يُبْكِي عَلَى مِتْوَفَاتِ كَهْذِهِ • مِائَةٌ وَأَرْبَعُ سِنِينَ ! « مَاتَتْ أَمْنَةٌ
مَطْمَئِنَّةٌ بِغَيْرِ مَرَضٍ » •

وَأَرْسَلَتْ رَبَّةُ الدَّارِ تَدْعُو جَارَاتِهَا لِيَسَاعِدْنَهَا • فَسَرَعَانَ مَا هَرَعْنَ
إِلَيْهَا وَقَدْ أَحْدَثَ النَّبَأُ فِي نَفُوسِهِنَّ مِنَ الْمَسَرَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا أَحْدَثَ فِيهَا مِنَ
الْأَلَمِ • وَطَفَقْنَ يَطْلُقْنَ مِنْ صُدُورِهِنَّ آهَاتٍ وَأَوْهَاتٍ ! وَكَانَ طَبِيعِيّاً أَنْ
'يَبْدَأُ بِغُلَى الْمَاءِ فِي السَّمَاوِرِ قَبْلَ أَنْ 'يَفْعَلَ أَى شَيْءٍ آخَرَ • وَاخْتَبَأَ الْأَطْفَالُ
فِي رُكْنٍ مَدْهُوشِينَ ، وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَيْتَةِ مِنْ بَعِيدٍ • إِنْ مِيشَا لَنْ
يَنْسَى - مَا ظَلَّ حَيّاً - أَنَّ الْعَجُوزَ مَاتَتْ وَهِيَ وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلَى كَتِفِهِ ؟ وَحِينَ

سيموت لن يكون أحد متذكراً أن الجدة المعجزة عاشت مائة وأربع سنين :
لماذا وكيف ؟ لا أحد يعرف • ولا قيمة لهذا على كل حال • ان ملايين
من الناس يموتون هكذا : يعيشون دون أن يفطن اليهم أحد ويموتون على
هذا النحو أيضاً • ثمة شيء واضح : هو أن الانسان ، حين يموت شخص
بلغ من العمر مائة سنة أو تزيد ، يشعر بنوع من الحنان والهدوء والوقار
والعزاء • مائة سنة ان هذا الرقم لا يزال يحدث في نفس الانسان أثراً
غريباً عجيباً •

بارك الله حياة وممات الناس الطيبين السطاء !

العزبة

١٨٧٦

« العذبة » نشرت لأول مرة كتراسة كاملة من « يوميات
كاتب » (تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٧٦ الفصل الأول
والثاني

حكاية خيالية

مقدمة المؤلف

أعتذر الى قرائي عن أننى لا أقدم اليهم « اليوميات » فى صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيالية + صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك اسميهم عذراً وألتمس منهم العفو والتسامح .

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أننى أعدها واقعية قبل كل شيء . ولكن الخيال قائم فيها حقاً بحكم أننى أقدمها فى صورة قصة + فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا منذ البداية .

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات + تخيلوا زوجاً ترفد على مائدته جثة امرأته التى انتحرت منذ بضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة . انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً ، ولماً يستطع أن يثوب الى رشده وأن يسترد صوابه + فهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، محاولاً أن يتصور ما حدث ، وأن يتخيل ما جرى ، وأن « يركّز أفكاره فى نقطة » . ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه ، لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة ، ولا يفتأ يناجى نفسه فى السر ، ويكلمها بغير انقطاع . انه اذن يتحدث الى نفسه ، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية ، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » ، جاهدًا + ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهري وتسلسل طبيعي ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع في تناقضات عاطفية . انه يرى نفسه ويدبها في آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطئة ، والى ذلك يضاف شيء من غلظة في الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة . وقد استطاع شيئاً فشيئاً أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصل الى « تركيز أفكاره على نقطة » ، اذ ساقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوفاً لا سبيل الى مقاومته : فبثت هذه الحقيقة حملة وحشية في فكره وقلبه . فاذا الهجته نفسها تتغير في نهاية القصة اذا قيست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبل . لقد انكشفت الحقيقة واضحة جلية لهذا الشقي البائس ، انكشفت له هو على الأقل . . .

ذلكم هو الموضوع . والقصة تتابع عدة ساعات ، وتتخللها انقطاعات ووقفات ، وتمتورها صدمات : فالرجل تارة يتحدث الى نفسه ، وتارة يخاطب شخصاً لا يرى هو بمثابة قاض .

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أشد وعورة وخشونة مما أروبه أنا . ولكن الحياة النفسية تبقى فيها تلى حالها فيما يغلب على ظني . ان هذا الافتراض الذي افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلني أصف هذه القصة بأنها خيالية . على أن هذا الأسلوب لا يظهر في الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مثلاً ، في رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » . ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايغلاً في البعد عن الواقع والنأي عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلاً محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا في آخر يوم من أيامه فحسب ، بل في آخر ساعة ، بل في آخر دقيقة . فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتبع لهذا الأمر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال الحدوث .

الفصل الأول

من كنت ومن كانت

... هي ذى هنا الآن - فما زال الأمر حسناً . اننى أجيء . فأنظر إليها في كل لحظة . ولكنها ستحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هي الآن في الصالون ، مسجّاة على مائدة 'صنعت من ضمّ طاولتين احدهما الى الأخرى . ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كنفها أبيض . على أن الأمر ليس هو هذا ... اننى ما أنفك أذهب وأجيء محاولاً أن أفسر المسألة لنفسى : ها قد انقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسى ، فلا أفلح في تركيز شتات أفكارى . الحق أننى لا أزيد على أن أذهب وأجيء ، أن أذهب وأجيء ... اليكم كيف جرى الأمر ... سأسرد لكم الحوادث متسلسلةً منظمة (لا بد من النظام !) آه ... رباه ... ما أنا بكاتب ... انكم تلاحظون ذلك ... ولكن لاخير . سأقص الأمر على نحو ما أفهمه . ذلك أن أقطع ما فى القضية فى نظرى هو أننى فهمت كل شيء .

إذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أى إذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها انما جاءت الى لتقترض منى بعض المال برهن بعض الأشياء . كانت تريد أن تدفع أجر اعلان فى جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمة ، أو للمجيء الى البيوت تعطى دروساً ، الخ ، الخ . ذلك فى بداية الأمر . فلم أميزها عن كثيرات

متلها • كانت تأتي كما يأتي سائر الناس ، بل كانت تأتي ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس • وقد لفت انتباهي فيما بعد • كانت نحيفة القامة ، شقراء ، ربة الطول • وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي ، كما تكون امرأة خائفة • (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبيعي أنني لم أكن في نظرها إلا رجلاً كسائر الرجال ، أي لم أكن في نظرها مرابطاً يُقرض برهون ، بل رجلاً كأي رجل آخر) • كانت ما إن تأخذ المال حتى تدبر ظهرها وتنصرف ، دون أن تقول شيئاً في أية مرة • ان بين المقترضات من يناقشن ويلحجن ويساو من للحصول على مبلغ أكبر • أما هذه فلا • لقد كانت تقبل ما يُعطاه • يخيّل الى أنني أهدر هذراً مضطرباً لا يفهم • الخلاصة ••• هناك تفاصيل لفت انتباهي اليها في أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب ، حليتهما الصغيرة التافهة التي لا تساوي قرشاً ، وما الى ذلك • كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوي قروشاً • ولكنني كنت ألاحظ من النظر الى وجهها أنها تعدّها أشياء ثمينة • ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما بقي لها من أبيها وأُمها ، كما عرفت هذا فيما بعد • مرة واحدة أبحت لنفسى أن أبتسم استهزاء بهذه الأشياء • والحق أنني في العادة لا أبيع هذا لنفسى أبداً • اننى أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أُعبرّ عما أريد التعبير عنه الا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، « جافة ، جافة جافة » • غير أنها جاءتني ذات مرة بقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب - فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسى ، فقلت لها كلاماً فيه شيء من التندر • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكان شرراً يخرج منهما ! ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها ، وخرجت » وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة » ، وفكرت فيها • نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً • أجل ، هذا ما حدث • اننى لا أزال أتذكر الاحساس الذى قام فى نفسى ، أو قولوا الاحساس الرئيسى الذى هو مركّب جميع الاحساسات الأخرى : انها فى مبة الصبا فلا يقدّر المرء أن تكون سنّها أكثر من أربعة عشر عاماً • ومع ذلك كانت سنّها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر • على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركّب الاحساسات الذى قام فى نفسى • ولقد عادت فى الغد • وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانوف ، والى موزير ، حاملةً معطفها الخلق البالى ، ولكن هذين المراهبين لا يقبلان الا الذهب رهناً ، فلم يحمّلا نفسيهما حتى عناء اجابتهما • وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد 'يعد' من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له فى الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت دُهِشت من نفسى وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر رهناً ، أنا الذى لا يقبل الا الذهب والفضة أيضاً ؟ تلكم ، فيما أذكر ، هى الفكرة الثانية التى قامت فى ذهنى تجاهها •

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتها من عند موزير ، جاءت تحمل الى " مشرب سيجارة " من خشب العنبر ، وهو شيء قد يحبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ! ولما كان مجيئها الى تلك المرة غداة " العصيان " ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً • والشراسة عندى هى أن أكون خشناً • ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشيء من الحلق والغيط : « انما فعلت هذا اكراماً لك ••• ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه ••• وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين « أتتويه » • كنت شريراً • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلتها • فقلت لنفسى حين خرجت : « هل كان يجوز أن أدّلتها من أجل روبلين ؟ » • ولم ألبث أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين • ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة منى : فقد كنت أخفى فى رأسى نية • ذلكم كان موقفى الثالث منها •

• • • ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر • • طبعى أننى سرعان ما جهدت أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة • وأخذت انتظر مجيئها نافذ الصبر • فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه منى • اننى لا تعوزنى الثقافة ، ولا أجهل آداب السلوك الراقى • لاحظت عندئذ أنها طيبة ، متواضعة ، عذبة • ومن كان طيباً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، وإذا كان لا يستسلم بسهولة ، فإنه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها • صحيح أنه يجب بكلمات مفردة ، ولكنه يجب ، وكلما ازدادت عليه الحاحاً ، ازداد لك ادعائاً • عليك أنت انما يقع عبء منعه من الافلات اذا أنت أحبيت ذلك • على أنها لم تشرح لى شيئاً حينذاك • ومن قراءة جريدة « الصوت » انما عرفت بعد ذلك كل شىء • ان الاعلانات الأخيرة تدل على أن مواردها نضبت نضوباً تاماً • كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة • كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض » ، ثم صارت تقول بعد برهة : « تعمل كل شىء » ، تعلم ، تصحب الأولاد ، تراقب أعمال المنزل ، تعنى بمريض ، تحسن الحياطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو معروف جداً • ولقد نشرت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً ، فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتباً ، تكفى بطعامها أجراً » • ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرةً أخيرة • فأخذت عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلاناً جاء فيه : « فتاة يتيمة ، تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار ، تفضل العمل عند أرملة مسنة قليلاً • وتعنى بأعمال المنزل » • وقلت لها :

— انظرى • هذه نشرت الاعلان فى هذا الصباح وقد تجد عملاً فى المساء • فى هذه الصورة انما يجب على المرء أن يقدم نفسه • فتخضب وجهها بالحمرة من جديد ، واشتعلت عيناها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً • سرى ذلك كثيراً • وكان رأيى فى تلك اللحظة قد
استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادئ البال غير خائف :
لا أحد سيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة » ، حتى أن « مشرب
السيجارة » نفسه لم يبق لها • ولم يخطئ ظنى • فهاهى ذى تأتى غداة
غد وقد لاح فى وجهها شقاء كبير ، واضطراب شديد • فقدّرت أن
شيئاً ما قد حدث لها فى البيت • ولم يخطئ تقديرى • سأحكى لكم بعد
قليل ما حدث • أما الآن فإن همى منصرف الى تجميع ذكرياتى • لقد
بلغت فى معاملتها غاية اللطف والكراسة ، فسرعان ما كبرت فى نظرها •
تلكم هى الحطة التى رسمتها • وكان ذلك بسبب الأيقونة • (لقد عزمت
أمرها أخيراً على أن تجىء بها لترهنها) • • آه • • اسمعوا ! اسمعوا !
الآن يبدأ الأمر • أما قبل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك ارتباكاً
شديداً • الآن أريد أن أتذكر كل شيء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل
وأدقّ الجزئيات • اننى أحاول أن أجمع شتات أفكارى فى نقطة ، ثم • •
ثم لا أفلح فى ذلك ولا أظفر بطائل • هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة !
آه • • • انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً • • •

كانت الأيقونة صورة للعدراء ، العذراء مع ابنها يسوع • هى
أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب • لاحظت أن هذه الأيقونة
عزيزة على نفسها • وهى مع ذلك تجىء بالأيقونة لترهنها كاملة دون أن
تنزع عنها المعدن الذى يغطيها • قلت لها : « الأفضل أن تنزع المعدن ،
وأن تأخذى الأيقونة • ان الأيقونة شيء لطيف سريع العطب » •
قالت :

— هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

— لا ، ليس الأمر أمر حظر • ولكن لعلك تدركين أنت نفسك

أن • • •

- فانزع اذن ***

قلت بعد تفكير :

- لا • اعلمى اننى لن انزع المعدن • بل أضع الأيقونة كلها هناك ،
فى المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت فى كل
صباح أشعل أحسن سراج عندى منذ أن أفتح المكتب) ، وخذى هذه
العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة •

- لست فى حاجة الى عشرة روبلات • أعطنى خمسة • وسوف
أسترد الأيقونة حتماً •

أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شرراً
من جديد :

- لا تريدن العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوى هذا المبلغ •

فلزمت الصمت • ومددت اليها خمسة روبلات • وقلت :

- لا تهتقرى أحداً *** أنا أيضاً كنت فى عسر وضيق ، بل كنت
أسوأ حالاً • وإذا رأيته أراول الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت
فى حياتى من ألم وعذاب ***

فقاطعتنى تقول وهى تبسم ابتسامة ساخرة :

- فأنت تثار لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل فى الحق
على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية ، وهى لا تزيد على أن
تشبهنى بسائر زملائى ، فلا يكاد يكون فى كلامها شئ يسوؤنى أو يجرح
شعورى أو يهين كرامتى • ولكننى قلت محدثاً نفسى : « ها • • • هأت
ذى أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافاً جديداً ! » •

وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تسمية وسر :

- أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً
فيصنع خيراً !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظرت الى " مستطلعة مدهوشة " ،
بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :

- اسمع ... ما هذه الفكرة ؟ من أين أخذتها ؟ يجبل الى " أننى
سمعتها قبل الآن فى مكان ما ...

- لا تجهدى نفسك فى التذكر ، بهذه الكلمات انما زكى
مفتوفيليس نفسه لفلاوست ، هل قرأت قصة " فلاوست " ؟

- لم أقرأها ... بانتباه كبير .

- أى أنك لم تقرئها البتة . يجب الاعتراف بهذا .

ثم اننى مازلت الملح فى طرفى شفيتك تلك البسمة الساخرة .
فأرجوك ألا تحكمى على " بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أفدّم
اليك نفسى فى صورة مفتوفيليس ، ان مرايياً يقرض برهن ، يظل
مرايياً يقرض برهن ، ذلك أمر معروف .

- ما أغرب أمرك ... اننى ما أردت أن أقول لك هذا البتة ...

كانت تريد أن تقول : ما كنت أتوقع أن أجدك رجلاً مثقفاً ، ثم لم
تقله ، ولكن هذا لم يمتنع من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله ، وسررت
منها أعظم السرور ، وقلت :

- فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً . لا أقول هذا
لأمدح نفسى ، فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خير ، وربما كنت
أصنع شراً ... ومع ذلك ...

قالت وهى ترمقنى بنظرة سريعة عميقة :

- لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيراً فى أى ظرف ومن
أى موقع •

ثم أسرعت تردف قولها :

- هذا كلام حق : فى أى ظرف ومن أى موقع •

آه ••• اننى أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات !
ويهمنى أن أضيف الى ذلك أن هذا الشباب ، هذا الشباب الغالى ،
إذا أراد أن يقول شيئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور
هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك قسمات وجهه :
« انظر الى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! » ،
وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل اقراننا ، فان المرء يلاحظ
أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ،
وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه
كما يحترمه • يالها من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر • ما كان
أجمل هذا كله فيها !

اننى أتذكر تذكرًا واضحًا • لم أنس أى شيء ! وحين خرجت
كنت قد عزمت أمرى واتخذت قرارى • ففى ذلك اليوم نفسه مضيت
أتقصي أخبارها ، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتى ذلك الوقت ،
وعرفت خفايا قصتها الراهنة • كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك
من لوكيريا التى كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام •
انها خفايا تبلغ من الهول أننى لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما
ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس ، بينما هى تحيا فريسة
أهوال رهية • ولكنه سن الشباب أيضاً ! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهواً
فرحاً ، لأننى رأيت فى ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها • حتى

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشاعر جوته ! ان الشباب سمح كريم
دائماً ، حتى فى أخطائه • والحق أننى أقصدها هى ، أقصدها وحدها •
والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلّم نفسى عنها منذ ذلك الوقت وكأنها
صارت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى •
انكم تعرفون مدى المتعة التى يذوقها المرء حين لا يشك •

ولكن ما هذا الذى أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات
أفكارى ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع • ليس هذا هو الأمر !

طلب الزوالج

الحفايا التى عرفتھا عنها سأوجزھا فى كلمات قليلة : لقد مات أبواھا منذ مدة طويلة - منذ ثلاث سنين - فبقيت وحيدة عند عمّتين لها شريرتين، بل ان وصفھما بأنھما « شريرتان » لا يفيھما حقھما من الذم . ان احدى ھاتين العمّتين أرملة مثقلة بأسرة فلھما ستة أولاد ؛ والثانية - وهى أقصر من الأولى قليلاً - عانس شرسة الطبع مشاكسة . ھما امرأتان سيّتان خبيّتان كلتھما . ولقد كان أبو الفتاة موظفاً . كان كاتباً فى دائرة من دوائر الدولة ، لا مورد الا راتبه . ان مستواى أنا أعلى من مستواه على كل حال : فأنا كاتب متقاعد ، خدمت فى فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأتمى الى أسرة نبيلة المتحد ، وأعیش حياة ليس فيها عوز . أما أنى أقرض بالربا ، فان العمّتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب . عاشت الفتاة خلال ثلاث سنين عبدة لعمّتيھا ، ومع ذلك نجحت فى امتحاناتھا بفضل ما بذلت من جهد فى الدراسة رغم ضيق الوقت . نجحت فى امتحاناتھا ، رغم قيامھا بأعمال يومية قاسية قسوة لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تتصف بسمو عقلى وثفوق روحى لا سبيل الى الشك فيھما . ولماذا رغبت أنا فى أن أتزوج ؟ دعونا معا حدث لى أنا . سوف نرى ذلك فيما بعد . . . ولكن الأمر هو هذا . كانت الفتاة تعلم أولاد عمّتها القراءة ، وكانت ترّقع الملابس ، وصارت فى المدة الأخيرة لا تفصل الغسيل فحسب ، بل تفصل أرض الغرف أيضاً ، رغم

ضعف صدرها • وشيئاً فشيئاً أخذت المعجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب
 أية لقمة تأكلها • ثم قررنا أن تبيعها • آه • • • لن أدخل في تفاصيل هذا
 الحما • وهى لم تقصص على كل شيء تفصيلاً الا فيما بعد • لقد كان رجل
 سمين بقال ينظر اليها ويطمع فيها منذ سنة • وكان قد « قبر » امرأتين
 حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن ثالثة • لذلك وضعها نصب عينيه ،
 واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه • كان يقول لنفسه : « انها مناسبة
 مريحة ، فقد ولدت فقيرة ؛ واذا كنت أريد أن أتزوج ، فذلك من أجل
 الأولاد • • ذلك أنه كان له أولاد • وأخذ يستعجل الأمر • فباحث
 العمتين • وكان فى نحو الخمسين من العمر • وكرهته الفتاة ونفرت منه
 نفوراً رهيباً • فأخذت تنشر اعلانات فى جريدة « الصوت » • ثم انتهلت
 الى عميتها أن تمهلها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر • فأمهلها مدة
 قصيرة ، مدة قصيرة لا يجوز أن تطول • كاتتا قولان : « نحن نفسنا
 لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطبق أن يشاركنا لقمتنا فم »
 آخر • • جاء البقال الى دار المعجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون
 كويكاً • وكانت الفتاة معه • ناديت لوكيريا من المطبخ ، ورجوتها أن تذهب
 الى الفتاة فتمس فى أذنها اننى أنتظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستجلاً •
 جداً • كنت راضياً عن نفسى كل الرضى مسروراً بها كل السرور • وكنت
 مسروراً طوال النهار على كل حال •

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكيريا ، بينما كانت مدهوشة من
 أننى استدعيتها ، ذكرت لها ما كنت أعدده سعادةً وشرفاً • • • ولا بد أنها
 لم تدهش عندئذ من الطريقة التى عمدت اليها ، ولا من قولى لها : « اننى
 رجل مستقيم ، وقد فكرت فى جميع ظروف القضية ، وقلبت الأمر على
 كل وجوهه • • والحق أننى لم أكذب حين وصفت لها نفسى بأننى رجل
 مستقيم • ولكن لا قيمة لهذا • وانما يجب أن أذكر أن كلامى فى مخاطبتها
 لم يكن مهذباً فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشتمل على أصالة أيضاً • وهذا هو الأمر الأساسي • أهى جريمة أن أعترف ؟ انتى حريص على أن أحكم على نفسى ، وانى لأحكم عليها • فعلىّ اذن أن أقول ما لى وما علىّ • وهذا ما فعلته • ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء • كاستفيتها صراحة حينذاك ، دون أن تحرج ، بأننى أولاً لست صاحب مواهب ، واننى امرؤ أنانى سىء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددتى وأنا فى طريقى الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لى فى أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة • قلت ذلك كله بنوع من الزهو • ولعلكم تتصورون اللهجة التى قلته بها • لكننى بعد أن ذكرت سيئاتى بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناتى ، فقلت لها : « انتى أمتاز بكيت وكيت وكيت . . . » • رأيت أنها مرتاعة جداً • ولكننى لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئاً • بالعكس : فاننى حين رأيت خوفها أخذت أقوى النعمة عامداً • قلت لها بغير تحرج انتى لن أبخل عليها بالطعام ، فستأكل عندى ما تشتهى ، أما الفساتين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شىء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما قد أسمع بها فى المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفى • كانت هذه اللهجة القاسية تفتتنى فتنة كبيرة • وأضفت أقول بغير الحاح كثير انتى اذا كنت قد اخترت هذه المهنة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين • والحق أننى كان من حقى جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذى أشرت اليه قائم فى ذهنى ، والظرف الذى ذكرته قد وقع فصلاً • اسمعوا يا سادتى : ثقوا أننى كنت طوال حياتى أبغض صندوق الاقتراض بالربا أكثر مما يبغضه سائر الناس • لكننى وان يكن مضحكاً وسخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معيّنة تؤكد لكم أننى « أنار لنفسى من المجتمع » ، هذا صحيح • هذا هو الحق • وبذلك يكون تندرنا علىّ فى ذلك الصباح يعوزه الانصاف • حتى أنها كانت مستفجرة ضاحكة كما ضحكت فى المرة الأولى لو عبّرت عما يعتل فى نفسى بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : « نعم انتى أنتقم لنفسى من المجتمع » • ولكن

بدا لي فجأة أنني أستطيع أن أكسب خيالها اذا أنا أشرت اشارة متخفية ،
وقلت جملة سرية معمّاة • ثم اتى كنت قد أصبحت في تلك اللحظة
غير خائف من شيء : كنت أعلم أن البقال الضخم ينفّرهما أكثر مما أنفّرهما
أنا على كل حال ، وأن وجودى على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود
منقذ أو محرّر • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً • آه ••• ان الرجل يدرك
كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أى شيء آخر • ولكن هل كان
ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يجروء المرء أن يحكم على انسان ؟

ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين ؟

انتظروا يا سادة ، اننى لم أشتر بطبيعة الحال أية اشارة الى اننى أحسن
اليها • اننى لم أكن عليها • أبداً • بالعكس ، بالعكس : قلت لها :
« أنا الذى سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت • وأنت التى تطوقين عنقى
بجيبيلك لا أنا » • بل لقد قلت لها هذا كلمة • كلمة • لم أستطع أن أسسك
عن قوله • ولعل ذلك كان منى حماقة ، لأن شيئاً من الانقباض قد ألمّ
عندئذ بوجهها • ولكننى حققت ظفراً حاسماً واتصاراً قاطعاً على
كل حال •

انتظروا • ما دمت قد حرّكت هذا الحما كله ، فاسمحوا لي أن أذكر
لكم آخر حقارة صدرت عنى • فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت
أجتر هذا الكلام محدثاً نفسى : « انك فارغ الطول مونق القامة ، متقف ؟
ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس فى هذا أى ادعاء أو تبجح
أو مباهاة » • ذلك ما كان يدور فى رأسى ويجول فى خاطرى • ولقد
وافقت على طلبى فى ذلك الوقت عند الباب فقالت : « نعم » • وافقت
طبعاً • ولكن ••• يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انها فكرت طويلاً
وملياً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك • حتى لقد
بلغت من طول التفكير أتى أخذت أسماط : « فماذا ؟ » ، لم أستطع أن
أسسك عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة •

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجدل أننى كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكننى شعرت مع ذلك بخيبة الأمل . قلت أحدث نفسى : « هل يمكن أن تتردد فى التخير بينى وبين صاحب الدكان ؟ » آه .. عندئذ لم أفهم . لم أفهم شيئاً البتة . وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئاً . أتذكر أن لوكيريا ركضت ورأى حين انصرفت ، واستوقفتنى فى الطريق وقالت لى : « جزاك الله خيراً يا سيدى على أنك أخذت آستنا الطيبة . ولكن لا تجرح شعورها فانها ذات شسم وكبرياء » .

ذات شسم وكبرياء ؟ اننى أحب أولئك اللواتى يتصفن بالشسم والكبرياء . ان اللواتى يتصفن بالشسم والكبرياء يكنّ طيبات عامة حين .. نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان . أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر ذنابه ، وما أشد خرافته ! هل كنت راضياً رضا كافياً ؟ هل كنت مغتبطاً اغتباطاً كافياً ؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلاً و ملياً لتقول لى « نعم » ، وكنت أنا مدهوشاً من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلى : « شقاء فوق شقاء » أفلا يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أى صاحب الدكان ، ففى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لى الضربات تلو الضربات الى أن أموت ؟ ، آه .. ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هى التى دارت فى خلدنا حينذاك ؟

نعم ، واننى الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئاً . قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختار الأسوأ ، أى أن تختار البقال .. ولكن أينما كان فى نظرها هو الأسوأ ، أنا أم البقال ؟ البقال أم المربى الذى يستطيع أن يستشهد بالشاعر

جوته ؟ ذلكم سؤال آخر • أى سؤال ؟ هيه ، ماذا ؟ أما زلت لا تفهم ؟
انك لتتكلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمرى
أنا على كل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامى منصرف الى نفسى أم هو
منصرف الى آخر ؟ ذلكم ما يستحيل علىَّ أن أقطع فيه برأى جازم • ان
الأفضل أن أضطجع وأنام • اننى أحسن بصداع •

الربل والرجال وهو نفسه الذي يصدق من الله سره

لم أستطع أن أنام • وأين لي أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتي ضرباً • أود لو أستطيع أن أعود هذا كله ، أن آلف هذا الوحل كله • آه • • • الوحل ! يا للوحل الذي أخرجتها منه ! كان ينبغي لها أن تفهم ذلك ، وأن تعرف كيف تقدر على حق قدره ! وكان يحلو لي أن استرسل في بعض الأفكار ، منها هذه الفكرة مثلاً : ان سني واحد وثلاثون عاماً ، ولا تتجاوز سنّها هي ستّ عشرة سنة • ما كان أعظم افتتاني بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شيء لذيذ ، لذيذ جداً •

وقد تمنيت مثلاً أن نحتفل بزفافنا • على الطريقة الانجليزية ، أي ألا يكون في حفلة القران ونحن والشاهدان اللذان لا بد منهما ، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما • ثم نركب القطار فوراً ، فنسافر ولو الى موسكو (وكان لي بموسكو عمل يجب أن أنجزه) ، وننزل أحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين ولكننا اعترضت على هذه الفكرة ، ورفضتها ، واضطرت أن أذهب الى العمتين أحبيهما وأعبر لهما عن احترامي بحجة أنهما الأسرة التي أخذت الفتاة من بين أحضانها • أذعنت لمشيئتهما ، وأديت للعمتين واجب الاجلال والتبجيل • حتى لقد وهبت لهمايتين المخلوقتين مائة روبل ، وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما •

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان ييئتها . وسرعان ما أبدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة . ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشتري ثياباً . ثم أفلحت في أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفى بالثياب البالية التي عندها ، وقلت لها اننى أنا الذى أتولى أمر جهازها ، والا فمن عسى يتولاه غيرى ! على أن الشئ المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعته أفضى إليها بأفكار شتى كانت قد دارت فى خاطرى ، على الأقل لتتأمل إليها بعين الاعتبار بعض النظر ، ولعلنى نجحت فى هذا وبلغت ما أردت . بل أكثر من ذلك أنها فى البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على أقبال فيه حب ، وتستقبلنى حين عودتى فى المساء استقبالاً زاخراً بالحماسة ، وتأخذ تهذر هذوها البرىء ، فتقص على حكاية طفولتها كاملة ، وسنى صباحاً التى فضتها فى دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها . لكننى كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه النشوة وهذا السكر . وتلك كانت فكرتى . كنت أرد على حماسها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً . . . فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الى نظرتها الى لغز مستعلق . وعلى هذه اللغاز انما كنت أبنى أنا حساباتى وأعقد آمالى ! بل لعلنى من أجل أن تحل هى هذا اللغز المستعلق انما اندفعت الى فعل ما هو سخف واستحالة . عمدت فى أول الأمر الى القسوة . أدخلت القسوة الى بيتى نظاماً ثابتاً . وتم هذا من تلقاء نفسه بدون أى جهد . لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل . ولقد تخيلت هذا النظام فى ظرف مستقل عن ارادتى ، فلا يد لى فيه . دعونا ! لماذا أقدم فى نفسى ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً . ولكن اسمعونى : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر اصغوا الى .

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً . متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً . اليكم هذا المثال : ان الشباب يخترق

المال • فسرعان ما ألححت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه •
وبلغت من شدة الإلحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئاً بعد شيء •
كانت تحمليق وتصني وتنظر وتسكت • وهذا مثال آخر : ان الشباب
يجب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدمة
الحماسة شديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر ، فما ان
تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار • وكنت أنا أحب راحة الصدر
وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلمها هذه الراحة وهذه السعة ، أليس
هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثلاً مبتذلاً : ما عساني أفعل من أجل أن أشرح
لطبع قطبعها مسألة الاقراض بالربا على رهن ؟ لم أواجه المسألة رأساً
بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت
الى الزهو ، فتكلمت بما يشبه الصمت • اننى أستاذ بارع فى فن الكلام
بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتى أتكلم صامتاً ، وعشت
فى داخل نفسى كل مأساة صمتى • آه ... ما كان أشقانى ! انفض عني
الجميع ، انفضوا عني وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد فى يوم من
الأيام • وها هي ذى الصية التى تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تتخيل
فجأة ، بعد أن سمعت عني كلاماً من أشخاص ليسوا شرفاء ، ها هي ذى
تخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، فى حين أن سرى
ظل محبوساً فى قرارة نفسى ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً معها
خاصة ، الى أن كان الأمس • فاذا سألتمونى لماذا صمت ، قلت لأننى متكبر
صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ،
ولكن دون أن تعتمد أيضاً على نعمائم دينية وشايات خسيصة ، أردت أن
تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه • حين استقبلتها فى
بنتى أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف منى موقف
الضارع المبتهل بسبب ما قلست من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف
فعلاً • آه ... لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما

ألا أنال شيئاً • ولأنتى كرهت دائماً أنصاف الحلول فى أمور السعادة ،
ولأنتى أردت دائماً أن أبدو صلب المود قوى الارادة ، انما اضطرت فى
ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : « عليك أنت أن تحزرى وأن
تقدرى ! » • ذلك أنتى - ويجب أن نسلّم بهذا - لو أخذت أشرح لها
الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألتمس منها الاحترام ،
لكنت كمن يسألها صدقة • • ولكن • • ولكن • • ما لى ولهذا الكلام
كله ؟

هذا سخف ! سخف وألف سخف ! المهم أنتى شرحت لها فجأة ،
بكلمتين ، من غير رحمة ، نعم من غير رحمة ، (يجب أن ألحّ على ذكر
هذا الحلو من الرحمة) ان المروءة عند الشباب شىء خلىق بالاعجاب ،
ولكنه لا يساوى قرشاً صغيراً • لماذا ؟ لأن اكساب المروءة سهل أشد
السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمور هى
« أولى انطباعات الحياة » ان صبح التعبير • وانما ينبغى أن ننظر الى الانسان
وهو يضطرب فى جنبات الحياة ويعمل • ان هذه المروءة لا تكلف كثيراً •
وهى ان كلّفت المرء شيئاً فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من
أجل هذا الا الى شىء من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظامى ،
الى الجمال أشد الظمأ دائماً ! لا ، ما هذه هى الشجاعة • حاول أن تختار
لنفسك مائرة صعبة ، مائرة لا تحدث جلبة كثيرة ، ولا يكون لها بريق
وتألق ؟ مائرة ترافقها النيمة والشتيمة ، وتتطلب تضحية كبيرة ،
ولا تؤدى الى أى مجد ؟ مائرة تظهر فيها - أنت الرجل اللامع - بمظهر
الجبان الحقيق فى نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ،
حاول أن تحقق هذه المائرة فترى ألا تعدل عنها وتنكص على عقبيك ؟
أما أنا فانتى لم أزد طوال حياتى على أن أحمل نقل أعمال كهذه الأعمال •
كانت فى أول الأمر تناقش ، بل تناقش كثيراً ! ثم قررت أن
تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً • أصبحت تكتفى بأن تحملق حين تسمع

كلامى ، تحملق حمله شديده وهى تنصت الى أقوالى انصاتا فيه انتباه
رهيب ! ... و ... مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجأة ،
ابتسامه تنم عن أنها لا تصدق ، ابتسامه صامته ، ساخرة . وكانت تبسم
هذه الابتسامه حين أدخلتها بيتى .
صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه ...

٤

خطا وخطا الأخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد • لا أنا ولا هى • لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى • قلت قبل الآن اننى أدخلتها بيتى على نية القسوة • ومع ذلك لم أثبت أن رفقت • كنت قد شرحت لها حين كنا خطيبين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقى الأشياء المرهونة وأن تؤدى مبالغ الاقراض ، ولم تعترض فى ذلك الحين (لاحظوا هذا) • وأكثر من ذلك أنها أكبت على العمل بهمة ونشاط • يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقى كما كان فى الماضى • هو بيت يتألف من حجرتين : احدهما صالة كبيرة جعلت هى المكتب ؟ والثانية صالة واسعة هى الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة • وكان أثاث بيتى ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منه • وفى صالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أى فى الصالة التى فيها صندوق الاقراض • وفى غرفة النوم توجد خزائنى ، وهى تضم عدداً من الكتب ، وحقيبة كنت أحمل مفاتيحها دائماً ؟ ويوجد سرير وموائد وكراس • وكنت قد أبلغت خطيبتى أننا سنقف على طعامنا ، أى على طعامى وطعامها وطعام لوكيريا التى استخدمتها ، روبلاً واحداً فى اليوم ، لا أكثر من ذلك • فلم تعترض بشيء • ولكننى زدت المبلغ من تلقاء نفسى ثلاثين كوبكاً للاتفاق على حاجات البيت • وكان هناك المسرح أيضاً • وكنت قد قلت لخطيبتى اننا لن نذهب الى المسرح

أبداً • لكننى مع ذلك سمعت بأن نذهب الى المسرح مرة كل شهر ،
ونتم ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد فى مكان حسن من الصالة •
وكنا نذهب الى المسرح معاً • ذهبنا ثلاث مرات ، فشاهدنا مسرحية
« سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المفردة » فيما أظن • (ولكن
ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام) • كنا نذهب الى المسرح
صامتين ، ونعود منه صامتين • لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول
يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية •

لم نتشاجر فى الآونة الأولى ، ومع ذلك خيم بيننا الصمت • وانى
لأذكر كيف كانت تختلس النظر الى من تجت ، فلما لاحظت ذلك
اشتد صمتى • حقاً اننى أنا الذى ألححت على الصمت • لقد افترجت هى
مرة أو مرتين ، فاندفعت الى تريد أن تعانقنى وتقبلنى ، ولكننى استقبلت
اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هشرية ،
ولأننى كنت فى حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها
وتبجيل • نعم ، وكنت على حق • وكان يعقب الانفجار يوم ملى
بالشجار •

أقصد ••• لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ،
وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد •
« تمرد وعصيان » ، ذلك ما كان يحدث • ولكنها لم تكن تحسن التصرف
فى الأمر والاحتبال عليه • نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة
تزداد تجهماً وشراسة شيئاً بعد شيء • حتى لقد أصبحت تنفر منى
وتكرهنى • هل تصدقون ؟ لقد أتيح لى أن ألاحظ هذا • وكانت تلك
الثوبات تخرجها عن طورها ، لا شك فى ذلك • ولكن حين تخرج
فتاة من وحل كالوحد الذى كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذى
الذى كانت تعانیه اذ كانت تغسل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تشكى
من فقرنا ؟ ولاحتظوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضنُّ على نفسنا بشيء من الترف إذا وجب الترف : مثال ذلك أننى كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجل ترضى المرأة • على أنها لم تكن تفضب من الفقر فى الواقع ، وإنما كانت تفضب من هذا الذى تراه فى من الحرص على التوفير والاقتصاد فى أعقاب الشموع مثلاً • وكانت تقول لنفسها : لابد أن لهذا أسبابه وعلة • انه رجل سيء الطبع ، • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شدة اللذع فى ابتسامتها الساخرة • • • وضاعفت الصمت من جهتى •

ألا يجب علىَّ أن أبرئ نفسي ؟ ان صندوق الاقتراض ذاك هو الذى كان أخطر ما فى الأمر • اسمحوا لى : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما إذا كانت سنُّها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطيع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهة • ومازلت الى اليوم وحتى فى هذه اللحظة أعدها بديهة !

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن فى الصالة • ان الحقيقة هى الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يكون له فى الأمر حيلة ! فالمرأة التى تحب ، نعم ، المرأة التى تحب ، تعشق فيمن تحبه حتى عيوبه وسيئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامح من جانبها فى حق نقائصه • ذلك منها كرم وسماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • ان افتقاد الشخصية هو ما ضيَّع النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن فى الصالة ، أعنى الجثة المسجاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسمعوا • لقد كنت واثقاً بحبها حينذاك • ألم تكن نرتمى علىَّ لتماقنى ؟ اذن كانت تحبني ، أو قولوا كانت تريد أن تحبني • نعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب ، كانت تسعى الى أن تحب • والشئ الاساسى هو أنه لم يكن ثمة عيوب من تلك العيوب التى يجب

عليها ان تحاول تبريرها وتسويها • لعلكم تقولون انى مراب افرض برهن • والناس جميعاً يكررون هذا • ولكن ما شأن أن أكون مراياً يقرض برهن ؟ لا شك فى أن هناك أسباباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصبح مراياً يقرض على رهون • اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباء رهياً حين 'ينطق بها' ، أى حين يعبر عنها بالفاظ ، حتى ليستحى صاحبها نفسه منها ، فهى تقع من النفس موقعاً سيئاً ، ويكون لها رنين ردى يؤذى السمع • ومع ذلك تكون هى الحقيقة ، الحقيقة بعينها ! نعم ، لقد « كان من حقى » أن أخرج من المآزق بفتح مكتب اقراض • « لقد بذتمونى يا معشر البشر ، أى طردتمونى بصمتكم الذى يفيض ازدياء » ، ورددتم على اندفاعانى التى كانت تحملنى اليكم باساة لن أنساها فى يوم من الأيام أبداً • فكان من حقى اذن أن أحمى نفسى منكم بجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضى الى مكان بالقرم على الشاطئ الجنوبي أفضى فيه حياتى على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبغضكم ، واحتفظ بمثل الأعلى فى نفسى ، تصحبنى زوجتى مع أولادى اذا رزقنى الله أولاداً ، وأحاول أن أساعد الفلاحين الذين يجاوروننى • • الحق أن من الأفضل أن اعترف لنفسى بكل هذا فى هذه اللحظة • والا فهل يتخيل المرء شيئاً أشد غباوة وحماقة من قصة كهذه القصة أرويا لها بصوت عال ؟ هذا هو السبب فى ذلك الصمت المتكبر الصلف • هذا هو السبب فى أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام • ثم ما الذى كان يمكن أن تفهمه من الأمر ؟ ان سنّها ستة عشر عاماً ، فهى فى مطلع الصبا • • • نعم ، ما الذى كان يمكن أن تفهمه من تبريراتى ومن تباريحى وعذاباتى ؟ ان طبيعتها بسيطة ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، وان رأسها فوق ذلك كله مترع بالآراء السهلة التى هى من خصائص الشباب ، وهى تتصف بما تتصف به « النفوس الجميلة » من عماوة •

ثم هي ترى صندوق الافراض بالربا ولا ترى سواء ! فأننى لها أن تدرك !
 (ولكن هل كنت مرايياً جشعاً لا يرحم ؟ ألم تر بنفسها أننى لا أغتنى
 كثيراً ؟) • آه • • يا للحقيقة ما أشدها هولاً فى هذا العالم ! الحقيقة
 شيء رهيب ! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ،
 كانت طاغية تسوم نفسى عذاباً لا يطاق • كانت لى جلاداً لا يرحم ! أتظنون
 أننى كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أننى كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية
 القدر والطبيعة ! ان اللعنة تطارد حياة البشر ، حياة البشر عامة ، وحياتى
 أنا خاصة • اننى أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك
 شيئاً لم يحدث كما كان ينبغى أن يحدث • لقد كان كل شيء واضحاً أشد
 الوضوح ، كانت خطئى صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ،
 لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صامتاً » • كذلك كان الأمر •
 أنا لم أكذب ! لم أكذب ! كنت أقول لنفسى : « لسوف ترى بنفسها أننى
 أقدر عن سمو فى النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك • حتى اذا أدركت ،
 قدرتنى عشرة أضعاف قدرها لى الآن ، وارنمت على التراب ضامة ذراعيها
 ضراعةً وابتهالاً » • تلكم كانت خطئى • ولكننى نسيت شيئاً ، أو غاب
 عن بصرى شيء • هناك أمر غفلت عن تليته •

كفى ! كفى ! من أستغفر ، وممن أطلب العفو ؟ لقد انتهى كل
 شيء • انتهى كل شيء • أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست
 أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه :
 انها • هي ، المذنبه • • • هي !

الغزبية تَمِدُّ

بدأت المشاجرات لأنها ارتأت فجأةً أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطى المقترض ضعفى قيمة الرهن ، وقررت أن تعاندنى فى هذا . ولقد خالفتها فى رأى . وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن ...

فى ذات يوم جاءت امرأة عجوز هى زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية مى هدية أهداها إليها المرحوم زوجها ... فهى كما ترون ذكرى . فقدمت إليها قرصاً قدره ثلاثون روبلاً . وقد أخذت المرأة تن بصوت شاك طالبةً النسا أن نحافظ على الحلية . وكنا منحافظ عليها طبعاً ! ثم انقضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود إلينا لتسبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوى قيمته ثمانية روبلات . فرفضت ذلك طبعاً . ولا بد أنها لاحظت فى نظرة زوجتى شيئاً حينذاك ، فجاءت ذات يوم أثناء غيابى فقبلت زوجتى أن ترد إليها الحلية وأن تأخذ منها السوار .

فلما علمت بالأمر فى ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكننى قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردّها الى الصواب . كانت جالسةً على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها) ، وكانت شفتاها تتقلصان بإتسامة ساخرة سيئة . لم أرفع صوتى صائحاً فى تلك المناسبة ، وانما

نَبَهَتْهَا بهدوء الى أن المال « مالى أنا » ، وأن من حقى أن أنظر الى الحياة
 نظرتى الخاصة ، وأنتى حين دعوتها الى بيتى لم أخف عنها شيئاً • فما ان
 سمعت هذا الكلام حتى وثبت واقفة على حين فجأة ، وأخذت ترتجف
 وترتعد ، بل أخذت - مارأيكم ؟ - تضرب الأرض بقدميها غضباً وحقاً •
 وحش كاسر • نوبة عصبية ! وحش كاسر اعثرته نوبة عصبية ! ذهلت •
 لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبداً • ولكنى لم أفقد سيطرتى على
 نفسى ، ولم أقم بأية حركة ، وانما أعلنت لها بذلك الصوت الهادىء نفسه
 اننى أحظر عليها أن تشارك فى عملى منذ اليوم • فانفجرت تضحك ،
 وخرجت من المسكن •

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك بيت الزوجية • ولقد انفق
 رأينا منذ الخطوبة على ألا تذهب الى أى مكان الا بصحبتى •
 وعادت فى المساء • ولم أنطق بكلمة •

وخرجت فى الغد ، وخرجت فى غداة الغد • فأغلقت مكتبى ،
 ومضيت الى بيت عمّتيها • كنت قد قطعت جميع علاقاتى بهما منذ يوم
 زواجنا : فلا هما تأتيان الى ، ولا أنا أذهب اليهما فعلمت هناك أنها لم
 تنجى الى عمّتيها • وقد أصغت العمتان الى مستطعنتين ، بل لم يفتهما أن
 تضحكا على ، وقالتا لى : « مستحق ! » • ولم أكن أتوقع أن تستهزئا بى
 وتتهكما على • ولكننى رشوت احداهما - وهى العانس - بمائة روبل
 دفعت لها منها خمسة وعشرين روبلاً على الحساب • فما انقضى يومان
 حتى جاءتنى العمة العانس تقول لى : « ان لضابط من الضباط هو الليوتان
 يافيموفتش الذى كان أحد رفاقك فى الجيش ضلعاً فى الأمر • • صغتنى
 هذا الكلام صمغاً • ان يافيموف هذا هو الرجل الذى ألقى بى الأذى
 والضرر فى الجيش أكثر من أى شخص آخر • وقد تجاسر منذ شهر
 فجاء الى مكتبى مرتين بحجة أنه يريد ايداع رهن واقتراض مال • وانى
 لأتذكر أيضاً أنه أخذ يمازح زوجتى • فاقتربت منه وأمرته بالألتقاء

قدماء بيتى بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التى بيننا • ولكن لم تساورنى أية شبهة ولم يخامرنى أى ظن ؟ وكل ما انصرف اليه ذهنى أن الرجل سيء الخلق قليل الحياء • ولكن هاهى ذى العمة تتبشى الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت فى الماضى من صاحبات العمتين ، وهى أرملة اسمها جوليا ماسونوفنا كان زوجها كولونيلًا • وقالت لى العمة العانس : « اليها انما تذهب الآن زوجتك » •

لا داعى الى سرد التفاصيل • حسبى أن أذكر أنني ضُيِّعت ثلاثمائة روبل ، ولكننى توصلت بعد يومين الى تدبير كل شيء على النحو الذى يكفل لى أن آكون فى الغرفة المجاورة للغرفة التى سيحتلها فيها يافيموف بامرأتى لأول مرة ، فأنصت عليهما • وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بينى وبين زوجتى شجار قصير كان لابد أن يبدو لى بليغ الدلالة •

لقد رجعت الى البيت فى نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الى « ساخرة » بينما هى تضرب السجادة بنعل حذاءها • فإذا أنا يخطر ببالى على حين فجأة وقد وقع بصرى عليها أنها قد أصبحت فى هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد أصبحت نقيض ذاتها • فهى الآن شديدة الخلق ، وشرسة الخلق كثيرة التعدى ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاخرة بروح التمرد • وكانت هى تحاول أن تستثير فى نفسها روح التمرد هذه • ومع ذلك كانت عنوبتها ورقتها ودمائتها تمنعها من الانقياد للتمرد • ان المرأة العذبة الرقيقة الدثة مهما تتجاوز الحدود فى انتقالها من الدمثة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هى هذه الطبيعة ، وانما هى تكره نفسها على العصيان اكراهاً ، ولا تفلح أبداً فى التغلب على كل خفر وكل تحفظ • وهذا النوع من المزاي هو الذى يحير الخصم ويفل سلاحه أكثر من سائر المزاي ، لأنه يجعله هو نفسه متردداً فى تصديق ما تراه عيناه • ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتدالاً ، وتعرف كيف توغل في الدنائة مستترّة
بمظهر الأدب والحشمة ، فتُضِلُّك بذلك عن نفسها وتخدعك •

كسرت امرأتى الجليد فجأةً فقالت تسألنى ملتمة العينين :

- هل صحيح أنك 'طردت من الجيش لأنك خفت من الاقتال
فى مبارزة ؟

- صحيح • 'رجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أنى
قدمت طلب تسريحى قبل ذلك •

- أطرودك اذن بسبب جبنك ؟

- نعم ، عدّوا ذلك منى جبناً • والواقع انى لم أرفض المبارزة
جبناً ، وانما رفضتها لأننى لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغى المستبد ،
فأدعو الى المبارزة على اعتقادى بأننى لم تنلنى اهانة •

ولم أستطع أن أكظم غيظى فأردفت أقول لها :

- هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغى ورفض ما يترتب
عليه من نتائج دليـل على شجاعة أكبر كثيراً من شجاعة الاقتال فى أية
مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على نفسى فأمسك عن اطلاق هذه الجملة ،
فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكى • وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده :
أعنى هذه المذلة الجديدة من جانبى • فاذا هى تضحك ضحكة كاسرة •
وأردفت تسأل :

- وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد فى شوارع
بطرسبرج ، وتستعطى الصدقات ، وتنام ليلك على موائد البلياردو •

- وكنت أنام أيضاً فى 'سوق العلف' بمنزل فيازمسكى • هذا

صحيح : فبعد خروجى من الجيش عشت فترة طويلة من الحزى والمار ،
والفاقة والبؤس ، ولكن أخلاقى لم تسقط ، لأننى كنت أول من يأسف
لما يصدر عنى من أعمال • لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن
لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد • ولكن
هذا أمر مضى وانقضى •••

- آ ••• طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال
المال !

وكان ذلك اشارةً منها الى أننى مراب طبعاً • ولكننى استطعت أن
أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى • لقد رأيت أنها شديدة الرغبة
فى أن تحصل منى على ايضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى •
لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً • وواتانى الحظ فدقّ الجرس زبون
فمضيت الى الصالة للقاءه • وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة
لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

- ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشىء من هذا كله قبل زواجنا •
فلم أجبها • وخرجت •

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتنصّت عليهما وأنتظر مصرى
واضعاً مسدسى فى جيبى • كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف
يتقنج أمامها • فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشرّفتنى الى أقصى حد) •
لقد حدث ما كنت توقّعتة وافترضتته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع
وذلك الافتراض • لا أدرى هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد
أن أقول •

اليكم ما حدث • لقد ظللت أنصت ساعة كاملة ، فشهدت خلال هذه
الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوق حقير متصنع فاسق
خسيس النفس نذل • قلت أسائل نفسى مدهوشاً مذهولاً ! • كيف تعلمت

هذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التي لا تتكلم الا قليلاً جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية لا يستطيع أن يتفقق خياله عن مشهد فيه مثل هذه السخريات وهذا الضحك ، عن مشهد تعبت فيه الفضيلة أبدع العبث بالرديلة ، وتحقرها أحسن الاحتقار . ما كان أحذقها في حديثها ، وحتى في أيسر ألفاظها ، وما كان أرهف ذكائها في أجوبتها السريسة ، وما كان أصوب أحكامها في آرائها السديدة ! . وكانت في الوقت تدل على براءة بكر وسذاجة عذراء . كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بجهه ، ومن حركانه وإشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض . لقد جاء الى هذا المكان وهو ينتوى أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا بظنونه كلها تذهب ببدأ . كان يمكن أن أقترض في أول الأمر أن ذلك لم يكن منها الا دلالاً هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء في فجورها ولا تنقصها الفكاكة في خلاعتها ، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معترضة بهما . ولكن لا . لقد كانت الحقيقة تسطع سطوع الشمس . فلا سبيل الى الشك فيها . كل ما في الأمر أنها من بغضها لي ، وهو بغض متصنع مرئيه الى الحق والغيظ ، قد أمكنها لقلة خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء . ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور . كانت تريد أن تهينني بجميع الوسائل ، ولكنها رغم أنها قررت أن تتدحرج في الوحل لم تحتمل رؤية مثل هذا الفساد . ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أى شخص سخي فافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهرة التي تسعى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها الضحك . كانت الحقيقة كلها تعصى وتمرد في نفسها ، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهمكة . أعود فأقول ان هذا الشخص السخيف المضحك قد شده من ذلك شدهاً شديداً ، وجلس في آخر الأمر كالح الهية متجههم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ

بشتمها ارضاءً لحقده الدنيء . وأعود فأكرر مرةً أخرى أن رؤيتي هذا
 المشهد بغير دهشة أمرٍ يشرّفتني ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن
 غاب عنه زمناً ، وتعمّد أن يعجىء الآن ليلقاء . لقد جئت وأنا لا أعرف
 شيئاً ، ولا أحمل في نفسي أى اتهام ، رغم تسليحي بمسدس في جيبي .
 تلکم هي الحقيقة . وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟
 لماذا كنت قد أحيتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟
 صحيح أنني كنت مقتنماً أشد الاقتناع بكرهها لي ، ولكنني كنت مقتنماً
 كذلك ببراءتها وطهارتها .

هأنذا أنهى المشهد ، فأفتح الباب فجأة ، وأدخل عليهما . انتفض
 يافيموف . وأمسكت يدها ودعوتها أن تخرج معي . وثاب الى يافيموف
 رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلبلاً متدفقاً ، وقال :

— آ ... خذها ، خذها ، لا اعتراض لي على قداسة الواجبات
 الزوجية .

وصاح يقول ورائي :

— واعلم أنني رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن
 يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمتة ... هذا اذا كان لك من
 الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة ...

قلت لزوجتي وأنا أجبرها على التوقف لحظةً في العتبة :

— سمعت ؟

ثم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا . وكنت
 قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة . حتى لقد كانت مشدوهة
 مذهولة . غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

جلست على كرسى ، وأخذت تحدجنى بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون
شحوباً رهيباً • ورغم أن شفتيها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ،
فإن نظرتها كانت تتحدانى تحدياً يحمل معنى الانتصار ؛ وأظن أنها لبثت
عدة دقائق موقفةً بأننى سأقتلها برصاصة مسدس • ولكننى أخرجت
سلاحى من جيبي بهدوء ، ووضعت على المائدة • (لاحظوا أن هذا المسدس
مألوف لها ، وأنتى لقمته منذ فتحت مكتبى ، اذ كنت قد قررت حين فتحت
هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراسة وعن خادم قوى الجسم شديد
البأس كما يفعل موزير • وكانت الطباخة عندى هى التى تفتح الباب
للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ،
فمن باب الاحتياط لكل طارئ انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً
على الدوام • وقد اهتمت هى نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس فى الآونة
الأولى من دخولها بيتى ، وسألتنى عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أقنعتها
ذات يوم بأن تسدّد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله) •
واستلقيت على سريرى دون أن أخلع الا نصف ثيابى ، ودون ان أنبته
الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هى الحادية عشرة
تقريباً • وظلت فى مكانها ساكنةً جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ،
واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هى أيضاً ، متجهةً بوجهها
الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا
أيضاً •

ذكرى فظيعة

هنا مكان ذكرى فظيعة ***

استيقظت صباحاً في نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً • استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعى صاحباً كل الصحو ، وفتحت عينيّ فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، ممسكةً المسدس بين يديها • لم تترّ أننى استيقظت وأننى كنت أنظر إليها • ورأيتها تقبل على بقتةً والمسدس بيدها • فأغمضت عينيّ فوراً ، وتظاهرت بأننى نائم نوماً عميقاً •

وصلت الى سريري ، ومالت على • وكنت أسمع كل شيء • ورغم أن صمتاً كصمت الموت خيم ، فقد كنت أسمع هذا الصمت • وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتنى أفتح عينيّ مرةً ثانية على حين فجأة • فنظرت محدقةً الى عينيّ بنظرة ثابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدغى • التقى بصرانا • ولكننا لم ننظر أحداً الى الآخر الا لحظة واحدة • وأجبرت نفسى على أن أعود الى الاغماض ، واستجمعت شتات فكري ، فعملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عينيّ مهما يحدث من امر •

انه ليحدث فصلاً أن يكون امرؤ نائماً نوماً عميقاً ، فاذا هو يفتح عينيه فجأة ، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه ، ثم اذا هو

يهوى برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئاً •

اننى بعد أن التقى بصرى ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغى ، قد أغمضت عينيّ فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البتة ، فكأنتى كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان فى إمكانها أن تفترض أننى كنت نائماً بالفعل وأننى لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماضى عينيّ بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع •••

نعم ، لا 'يعقل أن يحدث ، لا يحتمل أن يقع • ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة • خطرت هذه الفكرة فى ذهنى كالبرق • آه ••• يا لزوجة الأفكار والاحساسات التى عصفت فى نفسى ابان لحظة واحدة ! ان علينا أن نعجب أشد الاعجاب بهذه الكهرباء فى فكر الانسان • وأحسست فى تلك اللحظة أنها اذا حزرت الحقيقة وعرفت أننى غير نائم ، فلا بد أن يكون رضى بالموت قد سحقها سحقاً ، ولعل يدها قد أخذت ترتجف • ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الحارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار • يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية • وأحسب أن كثيراً من حوادث الانتحار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان فى اليد • ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة انحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه الا أن ينزلق الى تحت • ان نداءً لا يقاوم ولا يغالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد • ولكن شعورها بأننى رأيت كل شئ ، وأننى أعلم كل شئ ، واننى أنتظر صامتاً أن تأتينى منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق •

وطال الصمت • وأحسست على صدغى وعلى شعرى ببرودة ملمس الحديد • قد تسألوننى هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً فى أن أنجو مرة أخرى • فاعلموا - والله على ما أقول شهيد - أننى كنت قد فقدت

كل أمل ، أو لو يكن أمل يزد على واحد من مائة • فلماذا ارتضيت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صوّبه الىّ انسان أعبد عبادته ؟ ثم اتنى كنت أعرف معرفة لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضنى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لأعراضى عنها جبناً • كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه • هذا اذا صحّ أنها حزرت أننى لم أكن نائماً •

ومن الجائز ألا يكون شيء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينذاك فى ذلك كله ، ولكن أغلب الظن أن يكون هذا هو ما جرى ، لائى منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظة فى ساعة من حياتى •

ولكن قد تسألوننى أيضاً : • لماذا لم تمنعها من اقتراف جرم فظيع ؟ • فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهري رعدة • لقد كانت نفسى ممثلة حينذاك بياس مظلم : كنت أنا نفسى هالكاً ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فعلاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقطاً • ومررت الثوانى ، وراى صمت كصمت الموت • ولا تزال هى ماثلة علىّ • ثم اذا أنا أرتعش أملاً • فأفتح عينى • فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة • نهضت عن سريرى • وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هى منهزمة مغلوبة الى الأبد •

مضيت أجلس بقرب السماور • كان الشاى يشرب عندنا دائماً فى الغرفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصبّه • جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشاى • وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق • كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس .
 وكانت تنظر الىَّ . فلما لاحظت نظرتي اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما
 لونهما تلمُّ بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبرَّان عن سؤال . قلت
 لنفسي : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتساءل : أيعلم أم لا يعلم .
 أراى أم أنه ما راى ؟ » . أشحت نظري مصطنعاً قلة الاهتمام . حتى اذا
 فرغنا من الشاي ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً
 من حديد ، وحاجزاً . ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير فى الصالة
 وراء الحاجز . انه سرير لها ، ولكننى لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة .
 فأدركت هى من وجود هذا السرير « أنتى رأيت كل شيء ، وعلمت كل
 شيء » ، ما فى ذلك ريب . وفى تلك الليلة تركت المسدس على المائدة
 كعادتى فى كل ليلة . ورقدت هى صامتة على سريرها الجديد : لقد انحل
 الزواج . « وغلبت هى لكنها لم ' يغفر لها » . وانتابها فى تلك الليلة
 هذيان . وظهر فى الصباح أنها أصيبت بحمى حارة . فبقيت راقدة ستة
 أسابيع .

الفصل الثاني

١

حلم خيال و صلف

أبليتى لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي ، وأنها ستمضى متى تمّ دفن مولاتها • فركت على ركبتيّ وصليت خمس دقائق • كنت أريد أن أصلى ساعة ، ولكنني لم أزد على أن أفكّر ثم أفكر مريض العقل مريض الرأس ؟ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الائم ؟ والشيء العجيب أنني لم أشعر برغبة في النوم أيضاً • ان المرء حين يعاني حزناً كبيراً ، حين يكابد كرباً هائلاً بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى ، لا يشتهي الا أن ينام • يقال ان المحكوم عليهم بالاعدام ينامون نوماً عميقاً أشد العمق في ليلتهم الأخيرة • ولا بد أن يكون الأمر كذلك ، فهذا يوافق الطبيعة ، والا لما استطاعت قوى الانسان أن تصمد •••

اضطجعت على الديوان ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني •

••• أثناء مرضها الذي دام ستة أسابيع كنا تتناوب القيام عليها نهاراً وليلاً أنا ولوكيريا وممرضة محترفة جئت بها من المستشفى • لم أحفل بالنفقات • حتى لقد كنت لا أئشد الا أن أنفق من أجلها • واستدعيت الدكتور شرودر ، ودفعت له أجراً قدره عشرة روبلات • وحين عاد اليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين • ولكن ما حاجتي الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسة في غرفتي قرب مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسة

بهذوء لا تنطق بكلمة ... نعم ، كنا نصمت . هذا صحيح . بل قل انا قد بدأنا تبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتناول الا أموراً تافهة مبتذلة . وكنت أتعهد طبعاً ألا أبتعد فى كلامى عن هذه الأمور المبتذلة . وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ . كنت أقول لنفسى : « انها مهتزة أشد الاهتزاز ، مهتمة أكبر التهمد ، فيحسن أن أتبع لها الوقت اللازم للنسيان واسترداد قوتها » . فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت . ولكننى كنت فى كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ . وكنت أقدر أن حالها كحالى ، وكان يعصف بى شغف شديد رهيب بأن أسأله : « ترى فى أى شىء تفكر الآن ؟ » .

سأقول لكم شيئاً آخر . لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عانيت من ألم حين كنت أئن وأتجذب أثناء مرضها . ولكننى كنت ألتجذب بينى وبين نفسى ، وأكظم أبنى فى صدرى ، وأخفى شكائى حتى عن لوكيريا . وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون أن تعلم شيئاً . وانى لأتذكر أننى حين زال عنها الخطر وارتدت اليها العافية ، قد هدأت نفسى هذوءاً كاملاً بسرعة . وأكثر من ذلك أتنى قررت « أن أرجىء مسألة مستقبلنا ، ما استطعت ارجاءها ، وأن أدع الأمور على حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلي فى المستقبل الذى أرجو أن يبقى بعيداً . نعم ، ان ما يحدث لى فى ذلك الحين كان شيئاً عجيباً غريباً لا أجد كلمة تصفه الا أن أقول اننى كنت « أتتصر » ، وكان شعورى بهذا الانتصار يبدو لى كافياً كل الكفاية . هكذا انقضى الشتاء كله . آ ... كنت راضياً مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً فى أى يوم من أيام حياتى حتى ذلك الحين ... ودام رضى وسرورى الشتاء كله .

اسمعوا . لقد مرت فى حياتى بظرف أليم كان الى ذلك اليوم ، أى الى يوم تلك المصيبة التى نزلت بزواجى ، جائماً على صدرى يخفئنى خنقاً فى جميع الأيام ، وفى كل ساعة من ساعات اليوم ، ألا وهو -

باختصار - فقدانى سمعتى وطردي من الجيش • وكان ذلك الأمر ظلماً لى ، ظلماً مليئاً بالظلم والابتعاد ، وخالياً من الرأفة والرحمة • هناك حقيقة يجب أن أذكرها ، هى أن رفاقى كانوا لا يحبوننى بسبب طبعى الذى كان صعب المراس ، وربما كان باعثاً على الضحك ، وان كان يحدث فى كثير من الأحيان أن ما يبدو لامرئ من الناس رائعاً سامياً ثميناً مجيداً داعياً الى الفخر مشرفاً يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبية بأسرها من الرفاق ، لا تدري لماذا ولا كيف !

المهم أننى أنا لم أكن محبوباً فى يوم من الأيام ، حتى فى المدرسة • ما أحبنى أحد فى أى مكان ولا أى زمان • لو كبريا أيضاً لا تستطيع أن تحبني • ولكن ما وقع لى فى الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لى رفاقى من عواطف الكرم ، انما كان مرئيه الى مصادفة صرف • ويهمنى كثيراً أن أكرر أنه لا شئ يسىء الى المرء ولا شئ يفوق طاقة المرء على الاحتمال كأن يضيع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا تحدث ، أو بتضافر عدد من الظروف تضافراً مشؤماً ، وهى ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان • ذلك فى نظر الانسان الذكى اذلال لا يضارعه اذلال • واليكم تلك المصادفة :

أثناء حضورى مسرحية من المسرحيات ، وفى فترة الاستراحة بين فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئاً من شراب • فاذا بالضابط « آ • • • وف » ، وهو ضابط فى سلاح الفرسان ، يدخل الى البوفيه بسرعة كسرعة الريح ، ويقول لرفيقي من رفاقه بصوت عالٍ على مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بيزومتسيف قد أثار فضيحة فى دهايز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر منه كل مأخذ » • ولم يتصل الحديث • وكان عدا ذلك خطأ • لأن الكاتب بيزومتسيف لم يكن سكراناً ، ولا كان الأمر الذى حدث خليقاً بأن يُعدَّ فضيحة • وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شئ آخر ،

ووقف الأمر عند هذا الحد • ولكن فوجنا كان فى الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى ، واننى لم أحتج على • آ • • • وف ، حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومتسيف ، ولا اتجهت اليه بأى تقرير لأسكته • وفيم كان ينفج الاحتجاج أو التقرير ؟ اذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لى بها ، ولا داعى الى تدخل فىها • ولكن ضباط فوجى لم يعدوا الأمر أمراً شخصياً ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؛ واذا لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى حينئذ ، فانى بسكوتى قد برهنت للجمهور والضباط الذين كانوا فى البوفيه أنه يمكن أن يضم فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم • وكان لا يمكن أن أسلم بهذا رأى • وأبلغونى أننى مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، اذا أنا ارتضيت ، رغم تأخرى ، أن أدعو الضابط « آ • • • وف » الى المبارزة غسلاً للعار ، فلم أجب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت العرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتي • تلکم هى القصة • لقد خرجت متغطرساً ، ولكن محطماً • وشاعت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون زوج أختى ، الذى يقيم بموسكو ، قد بدد ارتسا المتواضع وحصى من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسى فى الشارع لا أملك قرشاً •

ولقد كان يمكن أن ألتبس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها ، لكننى لم أرفض لنفسى هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف فى السكة الحديدية ، بعد أن كنت أرتدى بزة عسكرية لألاءة متألق • وأخذت أندهور : فمن دناة الى دناة ، ومن خذى الى خذى ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعارى هو : كلما ازددت سوءاً وشرأ ، كان ذلك أفضل وأحسن • قضيت على هذه الحال ثلاث سنين

ما أبشع ذكرها ! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى .
ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هي عرايتى ،
فاذا هي تورتنى فى وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل . ففكرت فى امرى ،
واتخذت قرارى فيما يجب علىّ أن أسلك من سبيل وأن أحترف من
مهنة . عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أستغفر احداً
ولا أطلب من أحد عفواً أو صفحاً . قلت لنفسى : بذلك أجنى مالاً ،
وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضى . تكلم كانت
مشاريعى . ولكن ذلك الماضى المشؤم وتلك السمعة التى نلّمت شرفى الى
الأبد كما لا ينفكان يعذباني فى كل لحظة وفى كل دقيقة . وفى أثناء ذلك
تزوجت . فان سألتومنى هل كان ذلك مصداقة أم لا ، قلت اننى
لا أعرف . ولكننى كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتى أننى أدخل صديقة ،
فما كان أشد حاجتى الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه
الصديقة كان ينبغى لى أن أهيئها وأن أعمل فيها بل أن أنتصر عليها أيضاً .
فهل كان يمكننى أن أشرح الأمور دفعة واحدة ، لهذه المرأة الشابة
التي لا تتجاوز سنّها ستة عشر عاماً ، والتي تزخر نفسها بأفكار مستقرة
راسخة ؟ كيف كان يمكننى مثلاً ، لولا أن أسعفتنى المصادفة التى أدّت
الى الكارثة الرهيبة ، أعنى مصادفة المسدس ، أن أقنعها بأننى لست جباناً
وعديداً ، وأن اتهامى فى الجيش بالجبن كان ظلماً . ولكن الكارثة قد
أوضحت كل شيء . فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغى ، ثارت لكل
ماضى المشؤم . واذا لم يكن أحد قد عرف بذلك فقد عرفته « هي » ،
وكان هذا حسبى ، فقد كانت عندى كل شيء ، وكانت كلّ أمل مستقبلى
على نحو ما كنت أراه فى أحلامي ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما
اخترت غيرها ، فلم أكن فى حاجة الى أحد سواها ، وها هي ذى قد عرفت
كل شيء ، أو عرفت على الأقل أنها أفرطت فى التسرع والتعجل حين
انضمت الى أعدائى . فلا يمكن أن أكون بعد الآن فى نظرها جباناً ، بل
انسان غريب الأطوار فى أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءنى

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النساء فى بعض الأحيان • الخلاصة أننى تعمدت أن أرجىء انتهاء الأمر الى أية خاتمة : فما حدث كان يكفينى ، كان يكفينى فى ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطرى وتطمئن نفسى ، وكان الى ذلك يغذى أحلام يقظتى بصور كثيرة • ان أسوأ صفة مشثومة من صفات طبعى هى أننى امرؤ حالم ، فكانت لا تعوزنى موضوعات تدور عليها أحلامى فى اليقظة • أما هى فأظن أنها « كانت تنتظر » •

على هذه الحال انما انقضى الشتاء كله انتظاراً • وكنت أحب أن أتأملها خلصةً حين تجلس بقرب المائدة • كانت تعمل فى تطريز بعض الأغطية • وكانت فى بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتى • فكان اختيارها كتباً من مكتبتى خليقاً هو أيضاً بأن يشهد لى بالفضل والتميز • وكانت لا تكاد تخرج أبداً • فكنت أصطحبها كل يوم عند الغسق بعد العشاء فى نزهة ، فتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا فى الماضى • كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصمت ، فكان تفاهماً تاماً قد قام بيننا • ولكننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث • وكنت أفعل ذلك عامداً ، لاعتقادى بأن على أن أترك لها « فسحة من الوقت » • ولا شك أنه أمر غريب أننى لم يخطر ببالى مرة واحدة حتى نهاية الشتاء ، أننى ان كنت أحب أن أتأملها خلصة من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى على نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضباً الطرف الى خجلها وحيائها • هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعانى المذلة والدماثة والعذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنة أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أنتظر ، وكنت أقول لنفسى : « لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً » ••

وقد اتفق لى فى ذلك الشتاء أن قمت ببعض الحسنات منعداً • فألغيت دينين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ؛ ولم أذكر

ذلك لزوجتي ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لى صنيعى
وهى تكاد تجثو على ركبتيها تعبيراً عن امتنانها • فشاع الأمر • وبدأ لى أن
امراتى شعرت بسرور صادق حين علمت به •

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل) ،
ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل
غرفتنا الصامتين أشعة دافئة قوية • ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على
فكرى وتبت فيه الاضطراب • غشاوة قاتلة رهيبة ! فكيف حدث أن زالت
تلك الغشاوة فجأة ، فإذا أنا أرى كل شيء وأفهم كل شيء ؟ أكان ذلك
بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذى حُدده القدر ؟ هل جاء شعاع من
شمس فأشعل فى فكرى المخبول تلك الفكرة ، وأثبت ذلك الاكتشاف ؟
لا ، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافاً ، ولا بد أن شرياناً كان ساكناً
فتحرك ، أو أن وترأ كان جامداً فاهتز ، فإذا هو يضيء نفسى كلها على حين
فجأة ، وإذا هو يستثير كل خيالاتى الشيطانية • لقد انتفضت عندئذ
انتفاضة مباغتة ، مفاجئة ، لم تكن فى الحسبان أبداً • وقع الحادث فى
المساء ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء •••

النساء التي سقطت

اليكم أولاً هاتين الكلمتين • كنت قد لاحظت لديها منذ شهر
اكتئاباً غريباً • لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً • ذلك أيضاً قد انكشف
لى فجأة • كانت جالسة تطرّز مائلة على شغلها برأسها ، فلا ترى أنني
أنظر إليها • فما كان أشد استغرابي ، على حين غرة ، حين رأيته مهزولة
ذلك الهزال كله ، نحيلة ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت
شفاتها باهتين لالون لهما • ذلك كله شدهنى بقة الى أقصى حد ،
وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسمى وحزن وكآبة • وكنت قد سمعت
ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن ، ولا سيما فى
الليل • فما ان رأيته هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور
شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة •

وجاء الدكتور شرودر فى الغد • فدهشت هى من مجيئه دهشة
كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه الى تارة أخرى • وقالت
وهى تبسم ابتسامة لا يمكن تحديد معناها :

- ولكننى بخير •

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً فى
التعالى عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لى فى الغرفة الأخرى ان هذا من
نقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسافر فى الربيع الى البحر تستشق

هواه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير • أى انه لم يقل شيئاً ،
سوى أنها تعاني من فقر فى الدم ، أو شيء من هذا القليل •

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجهها جد
شديد صارم :

— أنا بخير وعافية ، لست مريضة •

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل
مردّها الى الحجل ، بل ان مردّها الى الحجل قطعاً ، فقد كان ذلك
واضحاً • آه • • انتى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من أنتى لأزوال
زوجها ، وأنتى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى • ولكننى لم أفهم
من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمرار وجهها الى شعورها بالملذة
(آه من الفشاوة !) •

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، فى نحو الساعة الخامسة من
الأصيل ، فى يوم ساطعة شمس من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كنت
جالساً فى مكتبى أجرى بعض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تدندن فى الغرفة
المجاورة ، أثناء عكوفها على تطريزها ، أغنية من الأغنيات بصوت رقيق
خافت • فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذى لا عهد لى به منها أن هزنى
هزاً قوياً • نعم ، واننى لم أفلح فى فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم •
لم أكن قد سمعتها تنهى قبل ذلك ، اللهم الا فى الأيام الأولى من دخولها
بنتى حين كنا لا نزال تسلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف •
وكان صوتها فى ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليماً ومطرباً رغم ما يدل
عليه من ضعف الثقة بالنفس • أما الآن فان غناءها ضعيف أشد الضعف !
لن أقول انه غناء حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ،
غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم ، وكأنه لا يستطيع أن
يخرج من صدرها ، وكان الأغنية نفسها مريضة • كانت تقضى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة التحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يعبر عن الانتحاب ويثير الاشفاق . واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته ♦♦♦

لسوف تضحكون تهكماً على احتياجي . ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبد بي انفعال شديد ! ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد . وانما كان ، في اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهبة ، دهشة رهبة عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة في الانتقام : « ماذا ؟ أتغنى بحضورى ؟ أنسيت اذن أنني هنا ؟ » .

بقيت في مكاني جامداً مضطرباً متحيراً ، ثم نهضت فجأة ، وخرجت كأنني ثبت الى رشدى . والحق أنني لا أعرف لماذا قمت ولا ماذا أنوى أن أعمل . ومضت الى لوكيريا معطفي .

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

- أهى تغنى ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الى مرتبكة . وكان من حقها ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم ما بى . وأردفت أسأل لوكيريا :

- أهى تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

- بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت .

لا يزال الباقي كله مائلاً في ذاكرتى . نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أى مكان . سرت حتى زاوية الشارع ، وسرحت طرفي . كان يمر ناس فيصدمونى ، فلا أحس بشئ . وناديت حوذاً ، وأردت أن يقودنى الى « جسر الشرطة » لا أدري لماذا . لكننى سرعان

ما عدلت عن هذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كوبكاً وأنا أقول له
مبتسماً ابتسامة بلها : .

ـ جزاء ازعاجك بغير فائدة .

ولكن قلبي ارتعش في تلك اللحظة بنوع من الحماسة .

رجعت الى البيت وأنا أغد الخطي . ان النعمات الحزينة من الأغنية
المحطمة قد ترجعت في نفسي على حين غرة . شعرت بأنفاسي تتقطع .
الغشاوة سقطت أخيراً عن عيني ، سقطت الغشاوة ! ما دامت قد غنت
بحضورى ، فمعنى ذلك أنها نسيت ـ الأمر واضح بقدر ما هو مريع .
أحس قلبي ذلك . ولكن الحماسة التي أشرقت في نفسي غلبت الروع .
يا لسخرية القدر ! هل كان في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك
الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء
غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا في ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسي ؟
صعدت السلم مسرعاً ، فلا أدري هل كان دخولي رزينا . كل ما أتذكره
هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمي ، وأنتى كنت أحس بنفسى
عائماً في نهر . دخلت الغرفة . كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز
مائلة برأسها على شغلها . ولكنها قد انقطعت عن الغناء . ألفت على نظرة
سريمة خالية ، نظرة ليست نظرة ، وإنما هى تلك الحركة الآلية التى
ليس فيها اكتراث ، الحركة التى تجريها حين يدخل أحد الغرفة .

مضيت اليها قدماً ، وجلست بقربها على كرسى كالمجنون .
فاذا هى تنظر الى فجأة مذعورة مرتاعة . تناولت يدها . ولا أتذكر
الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأننى لم أفلح في
أن أرسل كلامى سليماً صحيحاً . وانحبس صوتى ، وعقل لسانى ،
فلم أعد أنطق بحرف . ثم انتى كنت لا أدري ما عسانى أقول لها .
كنت أختق اختناقاً .

وفجأة تمتت أقول لها ببلاهة :

.. هلا تكلمنا .. قليلاً .. فولى لى شيئاً ..

نعم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون فى تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان نظرت الى وجهها لوجه حتى ارتعشت وترنحت من جديد ، واعتراها هلع شديد . ولكن « اندهاشاً قاسياً » لم يلبث أن ارتسم على وجهها . نعم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً . نظرت الى وقد اتسعت حدقتاها . فسرعان ما صعقتنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقتنى ذلك الاندهاش القاسى . كان ذلك الاندهاش كأنه يسألنى رغم صحتها : « أما زلت اذن تطلب حباً ؟ حباً ؟ » قرأت ذلك فى وجهها رغم صحتها : لم تقل شيئاً . فاذا كل شىء فى نفسى يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها . نعم ، تهالكت على قدميها . فنهضت بوئبة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أمسكتها من ذراعيها .

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيه من كرب ويأس ادراكاً كاملاً . آه ... نعم ، كنت أدركه ! ومع ذلك - هل تصدقون ؟ - كانت الحماسة تغلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حينى قد حان ، وأنى أموت . طفقت ألثم قدميها سكرًا ونشوة وسعادة . نعم ، مساعدة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخرج منه . وكنت أبكى ، وأتكلم دون أن أجد الى الكلام سيلاً . فاذا بالارتياح والدهشة يحل محلها عندها قلق وتساؤل ، فتتظر الى وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش . كانت تريد أن تفهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تبسم . ولقد أشعرها بخزى رهيب أن رأيتى أقبل قدميها ، فسحبتهما ، ولكننى قبلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدماها من الأرض . فلما رأت هذا ضحكت شعوراً منها بالهزل والخزى (هل رأيتم أحداً يضحك شعوراً منه بالهزل والخزى ؟) . وأوشكت أن تعزيبها نوبة عصبية . رأيت ذلك . كانت

يذاها ترتجفان • ولم أحترس ، فظلمت أُنتم قائلاً انى أحبها ، وانى
لن أكف عن حبها ؟ وأضفت أقول : « دعينى أقبل نوبك ••• هكذا •••
سأقضى حياتى كلها مصليةً لك ، ضارعاً اليك ••• ، نسيت الآن ما قلته
لها أيضاً • وانى لذلك ، اذا هى تنفجر ناشجةً منتجةً ، وتأخذ ترتعش •
هذه نوبة عصبية تعريها • لقد روَّعتها •

نقلتها الى السرير • فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد
بان فى وجهها ارهاق شديد وإعياء قوى ، وأسكت يدي ، وأخذت
تتوسل الى أن أهدأ ، وتقول لى : « لا تعذب نفسك ، هدىء بالك ، ،
ثم استأنفت بكاءها • لم أتركها طوال المساء • وظلمت أقول لها انى سأخذها
الى بولونى لتستحم فى مياه البحر ، وانى سأفعل هذا الآن ، على الفور ،
بعد خمسة عشر يوماً ؟ وانى قد سمعت فى صوتها بالأمس من التحول
والتكسر والتحطم ما يجعلنى أقصر أن أغلق المكتب ، وأيضمه الى
دوبرونرافوف ؟ وانما سنبداً كل شىء بدءاً جديداً ، وانما سنسافر خاصةً
الى بولونى ، الى بولونى ! فكانت تصغى الى كلامى ولا تكف عن
الارتباع ، وكان الجزع يجتاحها أكثر فأكثر • على أن أهم شىء فى
نظري لم يكن هو هذا ، وانما كانت تستبد بى من جديد رغبة عارمة
قوية ما تفك تشتت وتغنف فلا سبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهى أن
أرتعى على قدمى زوجتى مرةً أخرى ، وأن آخذ بتقييلها من جديد ،
وأن أُلثم الأرض التى وطئتها قدمها ، وأن أرجوها مردداً فى كل لحظة
« لا ألتمس منك الا شيئاً واحداً •• لا تحينى ، لا تلقى بالاً الى » ،
لا تكترئى بى •• ولكن دعى لى أن أنظر اليك من الركن الذى أقبع فيه ،
اجعلينى متاعاً لك ، عهدينى شيئاً من أشيائك ، احسينى كلبك الصغير !
وكانت تبكى • وأقلت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

« كنت أقدر أن تركنى على هذه الحال ••• » •

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته • ولكن

هذا الذى قالته كان أخطر كلامها شأنًا ، وأشدّه شؤمًا ، وأكثره استغلافاً على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت فى قلبى حين سمعته ا لقد أوضحت لى تلك الجملة كل شيء ، كل شيء ولكننى أثناء وجودها بقربى أمام عينيّ ، لم يكن فى وسعى أن أفقد الأمل ، حتى لقد كنت أمتشيق عبر مسعادة لا حدود لها • آه • • • كنت فى ذلك المساء أرهاقها تعبًا ، وكنت أدرك ذلك ، ولكننى لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور ا وحين هبط الليل أخيراً ، خارت قواها وانهارت انهياراً • فأقنعتها بأن تنام ، فسرعان ما نامت نوماً عميقاً • وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفاً • ولبثت الليل كله أقوم فى كل لحظة ، فاقترب منها ببابو حين دون أية ضجة ، لأنظر اليها ، وأأمل وجهها • فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الرافد على ذلك المضجع هناك ، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذى اشتريته لها بثلاثة روبلات ، لا يسعنى الا أن أعقف يديّ أسفاً وحسرة • وكنت أجنو على ركبتى ، دون أن أجرؤ مع ذلك على أن أقبل قدمى النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) • وكنت أحاول أن أصلّى لله ، ولكننى لا ألبث أن أنهض بوثبة • وكانت لوكيديا تنظر الىّ ، ولا تفك تخرج من المطبخ • فمضيت اليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شيء « سيُدارك فى غد وسيُغير » •

وذلك ما كنت أومن بها ايماناً أعمى ، ايماناً مجنوناً • آه • • • كانت الحماسة تغمر قلبى ، تفرق قلبى ا كنت لا أنتظر الا أن يجيء الغد • والأنكى من ذلك أننى كنت لا أنصوّر أن تنزل بنا مصيبة ، لأننى كنت لا أرى شيئاً يندر بذلك • لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الغشاوة تمزقت • ومضى وقت طويل قبل أن أسترده رشدى كاملاً ، وقت طويل امتد الى هذا اليوم ، بل اننى حتى فى هذا اليوم لم أصحّ صحواً تاماً • وأين لى أن أصحو صحواً تاماً فى ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حية ، هي أمامي وأنا أمامها ؟ » غداً تستيقظ ، فاحكي لها كل شيء ، وتكتشف كل شيء . • تلکم كانت خواطري في ذلك الوقت ، واضحة كل الوضوح ، بسيطة أشد البساطة ، ومن ثم كانت تتبع حماسي الغامرة الفياضة ، وكانت فكرة السفر الى بولوني خاصة تؤجج تلك الحماسة تأججاً شديداً ، اذ كنت أتصور - لا أدري لماذا - أن بولوني كل شيء ، وأن في بولوني مستقراً لكل شيء . • الى بولوني ، الى بولوني ! • • • • •

وعلى هذه الحال من الحرف والهديان ، انما كنت أنتظر طلوع الفجر . •

فهمت أصل الفهم

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضي ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريثت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئاً من التمهّل ، اذن لاستطعت أن أبدد جميع الظلمات . ألم تكن قد هدأت ؟ بلى . لقد أصبحت منذ الغد تصغى الى مبتسمة رغم حيرتها وارتباكها . ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الأيام الخمسة ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الحجل والحياء . وكانت خائفة أيضاً ، كانت خائفة خوفاً كبيراً . لا أنكر هذا . لست مجنوناً فأزعم النقيض . كان ذلك خوفاً . ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف ؟ كنا قد عشنا غريبين أحدهما عن الآخر ، بعيدين أحدهما عن الآخر ، مدةً طويلة ، وحدث كل ما حدث مبالغاً أشد المبالغة ولكننى لم أكثر بمخاوفها : ان فجراً جديداً يطلع ! والحق أننى ارتكبت خطأ فاحشاً . ذلك حق لا يمكن أن أمارى فيه . لقد ارتكبت خطأ منذ استيقظنا فى الغد ، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء) : أسرعت أعاملها كما تعامل صديقة . تعجلت . أسرفت فى التعجل . ولكن كان لابد لى من أن أعترف لها ، كان لا غنى لى عن هذا الاعتراف . لا أقلّ من الاعتراف ! وهكذا بحت لها بما أخفيته حتى عن نفسى . بما أخفيته عن نفسى طول حياتى . قلت لها فجأةً أننى خلال هذا الشتاء كله كنت واقفاً بحبها ، وكشفت لها عن

أن مكتب الاقتراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة
ذكائى ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاقة نفسى والمباهاة بها فى الوقت نفسه .
وذكرت لها أن ما 'وصفت' به من جبن لم يكن تجنيا على بل كان حقاً ،
اذ لقد جئنت فعلاً فى بوفيه المسرح ، لأننى رجل خائر العزيمة سىء
الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذى يحيط بى ، والبوفيه ، وكل
ذلك ، قد ملأنى دهشة . ثم هذا الأمر أيضاً : كيف كان يمكن أن
أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيلاً مضحكاً ؟ ان خوفى
لم يكن من المباراة ، بل من أن أظهر للملأ سخيلاً مضحكاً . ثم اننى لم
أشأ أن أوافق على المباراة ، فأخذت أعذب جميع الناس ، فعذبتهامى
أيضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذبها . الخلاصة أن
أكثر كلامى لها كان كالهذيان . فأمسكت يدى ، وضربت الى أن
أسكت ، قائلة : « انك تبالح ، انك تعذب نفسك » . وطفقت تبكى من
جديد ، وأوشكت أن تعثر بها نوبة عصبية أخرى ! وكانت لا تنفك
تترجئنى أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات .

ولكننى أغضبت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدثها عن
الربيع وبولونى قائلاً : هناك مشرق الشمس ... هناك ستلاً شمسنا
الجديدة . وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت
بالعمل الى دوبرناروف . واقترحت عليها فجأة أن نوزّع كل شىء على
الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التى ورتتها من عرأتى ، فهذا المبلغ
نسافر الى بولونى ، ثم نرجع من بولونى لنبدأ حياة عمل جديدة . على
هذا اتفقنا ، لأنها لم تعترض بشىء ، لم تقل شيئاً ، واكتفت بالتبسم . وأظن
أنها كانت تبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلمنى . وكنت أرى رؤية واضحة
أننى أتعبها . لا تظنوا أننى بلغت من الأنانية والحماقة حدّاً يجعلنى
لا ألاحظ ذلك . لقد رأيت هذا كله ، رأيته بأدق التفاصيل . كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم • وكان يأبى كله ماثلاً أمامى
تحت بصرى •

طفقت لا أحدها الا عنها وعنى • وعن لوكريا • قلت لها انتى
بكيت • وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه • حرصت على أن
لا أثير ذكرى بعض الأمور • حتى ان هبتها قد انتمشت مرة أو مرتين •
أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظر فلا أرى
شيئاً ؟ ولو أن « ذلك » على الأقل لم يحدث ، لكان هذا انبعاثاً • ألم
تقصص علىّ فى غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته
أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص علىّ ، وهى تضحك لهذه الذكرى ، مشهد
« جيل بلاس » مع رئيس أساقفة غرناطة ؟ وما كان أروع ضحكها ! كان
كضحك طفلة صغيرة ، ذكرنى بضحكها أيام الخطوبة (مدة لحظة ،
لحظة واحدة) • آه ما كان أسعدنى ! ومع ذلك لم تدهشنى قصتها عن
رئيس الأساقفة • وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت فى خلال هذا
الشتاء أن تسترد كثيراً من هدوء البال والطمأنينة والسعادة ، حتى أخذت
تسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب • معنى ذلك أنها أخذت تألف
الوضع وتلاهم مع الطرف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأننى سوف أتركها
« على تلك الحال » • لقد قالت لى فى يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك
مستركنى على هذه الحال » • تلك فكرة تراود خاطر صبية صغيرة فى
العاشرة من العمر ! كانت تعتقد فعلاً - كانت تعتقد بذلك - بأن كل شيء
سيبقى على تلك الحال • • • • • أجلس أنا الى مائدتى ، وتجلس هى الى
مائدتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين • ثم هأنذا أتدخل تدخل
زوج • والزوج يطلب أن تحبه زوجته • فذلکم كان سوء فهمى • وتلكم
كانت عماوتى ! • • • • •

وكان خطأ آخر هو أننى كنت أتأملها فى حماسة • كان ينبغى لى أن
أكبح زمام نفسى ، لأن حماسى أخافتها • ولكن ألم أكبح زمام نفسى

حين كنت أمتنع عن لثم قدميها ؟ وما من مزة هممت ... هيا ...
فلها ... نعم ... ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج . حتى ان
ذلك لم يخطرلى على بال ؟ وكانت شفتاي لا تتحركان الا بالضراعة
والرجاء .

على أننى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتاً تاماً فما أنطق بكلمة !
لذلك رأيتنى أتعرف لها فجأة بكل المسرة التى أجنيها من حديثها ، وأعبر
عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقى أدباً وثقافة فلا وجه
للمقارنة بينى وبينها فى مضمار الأدب والثقافة . فاصطبغ وجهها بحمرة
شديدة ، وخجلت خجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ . وفقدت عندئذ سيطرتى
على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من
سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتنصت على الهجوم الذى
شنته طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من
لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براءتها الساذجة .
فاذا هى يسرى فى جسمها كله ما يشبه أن يكون رعدة ، واذا هى تهم
أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أسرع
تدفن رأسها فى يديها وتنفجر باكياً ... فلم أستطع عندئذ أن أكبح
جماح نفسى ، فاذا أنا أركع من جديد ، وأهوى على قدميها ألتئمها ، واذا
بهذا كله ينتهى بنوبة عصبية أخرى تعتربها كما اعتربتها نوبة عصبية فى
المررة الأولى . حدث ذلك فى العشية ، حتى اذا طلع الصباح ...

الصباح ؟ يا لى من مجنون ! ... ان ذلك الصباح هو هذا اليوم ،
هو اليوم الذى نحن فيه ، هو منذ برهة ، منذ برهة ...

اصفوا الى ، وتابعوا ما أقوله . منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب
تناول الشاي (حدث هذا بعد النوبة العصبية التى اعتربتها أمس) ،
أدهشنى ما رأيته فيها من هدوء . تلكم كانت حالنا . وكنت من جهتى قد
قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس . ولكنها

اقتربت منى على حين فجأة ، وضمت ذراعيها احدهما الى الأخرى
ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخذت تقول لى انها مجرمة وانها
لا تجهل ذلك ، وان جريمته قد عذبتا طوال الشتاء ولا تزال تعذبها
الى الآن ... وانها تقدر شهامتى ومروئى قدرأ عظيماً ... وأضافت
تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفية ، وسوف أقدسك تقديساً » .
فما ان سمعت هذا الكلام حتى انتفضت ، وهجمت أعانقها بنراعى
كالجنون ! وقبّلتها ، قبّلت وجهها وشفتيها ، تقبيل زوج زوجته ،
لأول مرة منذ انفصالنا الطويل .

لماذا خرجت بعد قليل لأغيب عن البيت ساعتين ؟ خرجت لأنجز
اجراءات جوازى^٥ سفرنا الى الخارج . آه ... يا رب ! لو أننى رجعت
قبل خمس دقائق لا أكثر ... اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حدث !
ولكن هأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنا حشداً كبيراً من الناس ،
وأرى الأبصار كلها تشخص الى ... آه ... ربه !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تتصرف بحال من
الأحوال . انها تعرف كل شىء . بقيت عندنا الشتاء كله ، فسوف تقص
على ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجى من البيت بمشرين
دقيقة فى أكثر تقدير ، دخلت على مولاتها فى غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر
من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن
فى مكانها ، وأن مولاتها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة ،
وأن مولاتها كان يبدو عليها أنها صلت للأيقونة فى تلك اللحظة نفسها .
قالت لى لوكيريا : سألتها : « ما بك يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « لا شىء
يا لوكيريا ، اذهبنى لتسألك ، بل انتظرى يا لوكيريا » . وتقدمت منى
وقبّلتنى . سألتها : « هل أنت سعيدة يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « نعم
يا لوكيريا » . قلت : « كان ينبغى لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة
طويلة ... الحمد لله على أنكما تصالحتما » . قالت : « طيب يا لوكيريا ،

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا . • وابستمت مرة أخرى ، ولكن إبتسامتها كانت غريبة . كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لتري ماذا كانت تفعل . • كانت مكبةً على الحائط بقرب النافذة ، قد أسندت اليه احدى ذراعيها وأسندت الى الذراع رأسها . وبقيت على هذه الحال مستقرقة فى أفكارها ، حتى لقد بلغت من شدة الاستغراق أنها لم تلاحظ أنني لبثت فى الغرفة أنظر اليها . ورأيت فى وجهها ما يشبه الإبتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبسّم . نظرت اليها ملياً ، ثم استدرت فى رفق وهدهوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة . فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتى ، فحذار أن يصيبك برد » ، لكننى رأيتها ترتقى حافة النافذة المفتوحة ، وتقف عليها منتصبه القامة ، مديرةً ظهرها الىّ ، محتضنةً الأيقونة بيديها . فهبط قلبى فزعاً وصرخت : « سيدتى ! سيدتى ! » ، فسمعت صوتى ، وتحركت لتلتفت نحوى ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجحت ، وشدت الأيقونة الى قلبها ، ملقيةً بنفسها من النافذة ! •

أذكر أنني حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً . وأهول ما فى الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الىّ . • سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافةً وتنحوا عن طريقي ليفسحوا لى ممراً . كانت راقدة هناك ، قابضةً على الأيقونة . أذكر ، كما يذكر المرء رؤية فى ظلمات ، أنني تقدمت صامتاً ، وتأملتها ملياً . كان الجمهور قد ابتعد ، وكان يُقال لى شيء ما . وكانت لوكيريا هناك ، لكننى لم أبصرها . يقال لى انها كلمتني . اننى لا أتذكر الا ذلك البائع الذى كان لا ينفك يصيح قائلاً لى : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خيط ، خيط من دم ! ، ، وكان يشير لى الى الدم هناك على
الحجر . وقد لمست الدم فطلبت به أصبعى (أذكر هذا) ، بينما كان
البائع لا يزال يصيح « خيط نجيل من دم ! ، ، فما كان منى الا أن زأرت
زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدى ، وهويت عليه . . .
آه . . . يا للحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شيء لا ' يعقل
حدوثه ! شيء مستحيل !

٤

بسبب محسوسات من السأخ

أأكون واحداً ؟ هل هذا كله 'يعقل' حدوثه ؟ هل يمكن أن يقول
أحد ان مثل هذا الأمر ممكن ؟ لماذا ماتت هذه المرأة ؟

صدقوا اننى أفهم الأمر • ولكن سبب موتها ... يظل سؤالاً قائماً •
لقد خافت من حجبى • تساءلت جادة : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ » • فلما
لم تطلق احتمال هذا السؤال ، آثرت أن تموت • أنا أعرف ذلك ، أعرفه ،
فلا حاجة الى أن أصدّع رأسمى • لقد تورطت فى وعود مسرفة ، وخشيت
ألا تستطيع الوفاء بها ... الأمر واضح • تصافرت ظروف رهبة •
هذا كل شيء •

ذلك أننى أفسد حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى
هذا السؤال • والسؤال قائم تحت جميعتها ينبض ويخفق • لقد كان
يمكننى أن أدعها على « تلك الحال » ، ما دامت هذه هى رغبتها •
ولكنها لم تصدقنى • وتلك هى حقيقة الأمر كله • لا ، لا ، اننى أكذب :
ما هذه هى حقيقة الأمر • بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى
المستقبل أن تحببى حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذى كانت
ستهيه للبقال • ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترضى هذا النوع
من العاطفة التى تلاثم بقالاً ، قد رفضت أن تتشنى وتخدعنى • لم تشأ
أن تشنى وتخدعنى بأن تهب لى نصف حب أو ربع حب فى حلة حب

كامل • كانت شريفة مسرقة في الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية في الاستقامة • ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تذكرون ؟ فكرة غريبة عجيبة !

وهناك نقطة يهمني كثيراً أن تتضح لي : ترى هل كانت تعتبرني ؟ لا أدري أكانت تحقرني أم لا • ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحقرني • شيء غريب ! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحقرني ؟ لقد بقيتُ الى آخر لحظة ، الى اللحظة التي نظرت الى "فيها" بدهشة قاسية ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك • وحينذاك انما أدركت فجأةً أنها تحقرني • فهمت ذلك مرةً الى الأبد • آه ! أي ضير ، أي ضير في أن تظل تحقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية ، أن تبقى حية ؟ انني لا أنهم أن تكون قد ألفت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشي ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالي ما عقدت يديها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا • لن أدع لوكيريا ترحل ، لا ، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال •

أواه ! كان لا يزال في إمكاننا أن نتفاهم • صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحدهما على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية - وكذلك نفسها - فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء ! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تريثت يومين آخرين ، يومين لا أكثر ، لكان يمكن أن تفهم كل شيء •

أنكى ما في الأمر أن هذا كله ثمرة المصادفة ، ثمرة مصادفة عمياء ، قاسية ، وحشية ، غادرة • ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق ، لاقتضت اللحظة المشثومة كما ينقضي حلم ، ولا خطر الأمر ببالها بعد ذلك في يوم من الأيام • كانت ستفهم في النهاية • وبدلاً من ذلك ، هاهي

ذى الغرف تغفر من جديد ، وهأنذا أبقي وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون
دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشيء ولا تتحسر
على شيء . آه . . . ألا يكون للانسان أحد فى هذا العالم . . . يا له
من حزن !

انتى أسير ذاهباً آيباً ، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب . أعلم
ما يدور فى أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو
لكم أمراً سخيفاً مضحكاً أن ترونى أسفا لمصادفة هذه الدقائق الخمس ؟
ولكن ، أسفى شيء يدركه الانسان بداهة . تذكروا أنها لم تترك حتى
ورقة تعلن فيها أنه لا ينبغي اتهام أحد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك
جميع من يتحرون . ألم يكن فى وسعها أن تقدّر أن من الممكن اطلاق
لوكيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : « كنت وحيدة معها ، فلا بد أنك أنت
التي دفعتها » . على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريئة لولا أن كان فى
فناء المنزل أربعة أشخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت
واقفة على النافذة محتضنة الأيقونة ، وكيف ألقت نفسها بنفسها الى تحت .
وانها لمصادفة على كل حال أن كان فى الفناء أشخاص رأوها . لا ، لا ،
ان ذلك كله هو ثمرة لحظة ، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسؤولية .
نزوة مباغته ! لماذا كانت تصلى أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت
تنوي الموت . لعل المدة التي قضتها مكبة على الحائط ، مسندة رأسها
الى يديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقة ، فإذا هى
تتخذ قرارها . انها فكرة برقت فى رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع
أن تقاوم نداء الانتحار .

هو سوء فهم لا أكثر . كان لا يزال فى وسعها أن تعيش معي .
ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مرد الأمر الى الأيميا
وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها ،
فإذا هى . . .

لقد تأخرتُ !!!

ما أشد ما يبدو جسمها ناعلاً في الثابوت ! ما أشد ما يبدو أنها رفيقاً ! وإن أهدابها تبدو أشبه بسهام . حين سقطت على الأرض لم نصب بجرح ولا كسر ! لم يظهر الا ذلك « الحيط النحيل من الدم » ، ان الدم الذي نرف منها يملأ ملعقة قهوة في أكثر تقدير . كانت الاصابة داخلية . فكرة غريبة تخطر ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أنها اذا أخذت منى . . فسوف . . لا ، لا . . انه يستحيل تقريباً أن تؤخذ منى . آه . . اننى أعلم حق العلم مع ذلك أنها لا بد أن تؤخذ . ما أنا بمجنون ، ولست أهذى . بالعكس : ما كان فكرى فى يوم من الأيام صاحباً كصحوه الآن . ولكن ما معنى أن البيت عاد مقفراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرقتان ، وأننى قد عدت وحيداً مع الأشياء المرهونة ؟ كابوس ! كابوس ! هذا هو الكابوس !

ما قيمة قوانينكم عندي بعد الآن ؟ بل فى أى شئ تنفعنى عاداتكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم ودينكم ؟ ما قيمة أن تحكم على محاكمكم ؟ ألا فلأجر للثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله . وسوف يزأر القاضي عندئذ قائلاً لى : « اسكت ، أيها الضابط ، فأصرخ أنا قائلاً له : « من أين لك هذه السلطة التى تجبرنى على طاعتك ؟ لماذا قتل مصادفة عبياء أعز اسان على قلبى ؟ ما فائدة قوانينكم كلها . اننى أُنسحب . نعم ، لا يهمنى . سأعترل »

عماوة ! عماوة ! انها ميتة . انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة فى قلبى ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحلف بك . ولكن كان يمكن ألا تجيبنى ؟ فلنفرض هذا . كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال » . ولكن كنت ستحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شئونك الصغيرة ، وكنا سنبتهج ، وكنا سنبتسم

بينما ينظر كل منا فى عينى صاحبه فرحاً مرحاً • هكذا كان يمكن أن نعيش • وإذا أحببت رجلاً آخر ، ما كنت سأهتم أو أكرث • كنت مستذهين معه ، وكنت ستبسمين ، وكنت أنا سأحوّل بصرى الى جهة أخرى من الشارع ••• آه ••• ما قيمة هذا كله ، بشرط أن تفتح عينها من جديد مرة واحدة ! لحظة واحدة ، لحظة وحيدة ! وتنظر الىّ ، كما كانت تنظر الىّ منذ قليل واقفةً تحلف لتكوننّ لى خلية وفيه • آه ••• ان فعلت أدركت كل شىء بنظرة واحدة !

يا للمقدر ! يا للطبيعة ! ان المرء وحيد على هذه الأرض • ذلكم هو الشقاء • ان المجذوم الروسى الذى تحدثت عنه الأسطورة يهتف سائلاً : « هل هنا أحد حى ؟ » • وائى لأهتف أنا أيضاً ، أنا الذى لست مجذوماً ، فلا يجيبنى أحد • يقال ان الشمس تحيى الطبيعة • ان الشمس تطلع ، انظروا اليها ••• أليست كأنها ميتة ؟ كل شىء ميت • ليس فى كل مكان الا أموات • الانسان وحيد • كل ما حوله صمت • تلكم هى الأرض ! « أيها البشر ، أحبوا بعضكم بعضاً » • من الذى نطق بهذه الكلمات ؟ من أين يأتى هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس ، دقاً رتيباً منفراً • هى الساعة الثانية من الفجر • حذاءها الصغيران تحت السرير • كأنهما ينتظران • أواه ! ما عسانى أصير حين يأخذونها غداً • قولوا : ما عسانى أصير !

حلم رحيل فضائل
١٨٧٧

«حلم رجل مضحك» نشرت هذه القصة أول مرة في كراسة
شهر نيسان (أبريل) ١٨٧٧ من «يوميّات كاتب» (الفصل
الثاني)

١

حكاية عجيبه

أنا رجل مضحك • يقولون الآن انى مجنون • يكون هذا لقباً أعلى
لو أننى مازلت فى نظرهم مضحكاً • لكننى لن أزعج بعد الآن • فجميع
الناس لطاف فى معاملتى ، حتى حين يستهزئون بى ويتهمون على •
بل هم ، حين يستهزئون بى ويتهمون على • كأنهم أطف وأرق •
لولا أننى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم ، لسررتى أن أشاركهم
الضحك ، لا على نفسى ، بل حرصاً على أن أسرهم • اننى أحزن حين
أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة ، الحقيقة التى أعرفها أنا • ما أشق أن يكون
المرء هو الوحيد الذى يعرف • ولكنهم لن يفهموا • لا ، لن يفهموا •

فى الماضى كان يؤمنى كثيراً أن أبدو مضحكاً • وأنا لم أكن أبدو
مضحكاً ، بل كنت مضحكاً • لقد كنت طول حياتى مضحكاً ، وأنا أعلم
أننى وُلدت مضحكاً فى أكبر الظن • لعل ستنى كانت سبع سنين حين
علمت أننى مضحك • ثم درست بعد ذلك فى المدرسة الثانوية ، وفى
الجامعة ، فكنت كلما أوغلت فى الدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً
من العلم أننى مضحك • حتى لكأن علمى الجامعى كله لم يوجد
الا ليبرهن لى ويشرح لى أننى مضحك كلما ازدادت تعمقاً له ، وتوغلاً
فيه • وكان شأن الحياة كشأن العلم فى هذا • فكنت ، سنةً بعد سنة ، أزداد
يقيناً بأننى أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحي • لقد ضحك منى

واستهزأ بى جميع الناس فى كل مكان وكل زمان . ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه اذا وجد فى هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أننى مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال . والذنب فى هذا ذنبى ، لأن خيالى منعتنى دائماً من الاعتراف بسرّى . وكانت هذه الحيلة تزداد مع تقدمى فى السن ، فلو اتفق ان انسقت فى يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، اننى رجل مضحك لهشمت رأسى بطلقة من مسدس فى مساء ذلك اليوم نفسه . لطالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أننى لن أستطيع أن أقوم ، واننى سأساق مرة على حين فجأة ، فأعترف بالأمر لرفاقى . ولكننى حين صرت شاباً هدأ بالى واطمأنت نفسى لسبب أو لآخر ، رغم أنى كنت أزداد اقتناعاً بشذوذى الرهيب سنة بعد سنة ، وما ذلك الا لأننى مازلت الى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف ! لعل مردد ذلك الى تلك الكأبة الواسعة التى استولت على نفسى فى أعقاب ظرف يفوقنى كثيراً ، ألا وهو اقتناعى ، الذى أصبح راسخاً مستقراً ، بأن كل شئ فى هذه الحياة الدنيا « ليس له شأن » . كنت أشبه فى ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكننى اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة . أحسست بغتة أننى لن يهمنى ألا يوجد العالم أو ألا يوجد شئ فى أى مكان ، فلو حدث هذا لما اكترت له ولا حفلت به . وأخذت أدرك وأحس أن لا شئ فى نظرى موجود فى حقيقة الأمر . كان قد لاح لى دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وجدت قبلى . فأدركت فى تلك اللحظة أن لا شئ كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن ثمة الا مظاهر . واقتنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شئ أبداً . فأصبحت عندئذ لا أغتاز من الناس ولا أحق عليهم ، وصرت أخسر الأمر لا أكاد ألظهم . وقد تجلت هذه الحالة النفسية فى ظروف من الحياة هى أتفه الظروف : فكان يتفق لى مثلاً وأنا سائر فى الشارع أن أخطئهم بالناس ؛ ليس معنى هذا أننى أكون مستغرقاً فى فكرة

من الأفكار ، فقد أصبحت فى ذلك الحين لا أفكر فى الأشياء التى ينبغى أن أفكر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت فى نظرى ، فلست أحفل بشيء ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التى تعرض لفكر المرء ، ولم أحل منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكرى مشكلات أصلاً . فمن « قلة اكترائى » ، ذهبت المشكلات أدراج الرياح .

ولكن هأنذا أعلم الحقيقة . لقد انكشفت لى هذه الحقيقة فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) الماضى ، فى اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة ، فأصبحت مائلة فى ذاكرتى منذ ذلك الحين كل لحظة . حدث ذلك فى ليلة مظلمة ، فى ليلة كانت أحلك الليالى ظلاماً . كنت عائداً الى بيتى فى نحو الساعة الحادية عشرة . أذكر ذلك . وكنت أفكر فى أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلة أحلك ظلاماً من هذه الليلة . وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم أذكر ذلك ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجأة ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التى كانت منتشرة أثناء انهمار المطر . كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشوارع ، ومن كل ذقاق ، حين تسرع طرفك فى بعيد ترى الحارة من أولها الى آخرها . وبدا لى فجأة أن المرء يقل احساسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز فى كل جهة من الجهات ، فالى هذا الحد كانت أضواء مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائها الضوء على هذا كله . لم أكن قد تعشيت فى ذلك اليوم . وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحبة رفيقين له . فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلا بد أننى أضجرتهم . وقد تحدثوا فى أمور مثيرة ثم اذا بالغضب يستولى عليهم . ولكنهم كانوا فى الحقيقة غير مكترئين - رأيت ذلك رؤية واضحة - وكانوا لا يتحمسون ذلك التحمس الاشكلاً بغير

مضنون • فاذا أنا أقول لهم فجأة : « يا سادة ، حقيقة الأمر أنكم غير مكرئين ، فلم يفضبوا ، ولم يزيدوا على أن ضحكوا لسماع هذه الكلمات • وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أى معنى من معانى اللوم ، وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لى غير مثير للاهتمام أو الاكرات ، وقد لاحظوا قلة اكترائى ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون •

حين دارت فى رأسى تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا فى الشارع ، رفعت عينيّ نحو السماء • كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمة ظلاماً رهيباً • ولكن المرء يستطيع أن يميّز فيها مزق السحاب تميزاً واضحاً ، وأن يرى فى هذه السحاب بقعاً سوداً عميقة • وبينما كنت أنظر فى هذه السحاب اذ لمحت فى احدى تلك البقع نجمة صغيرة ، فأخذت أتأملها مجدداً • ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت فى نفسى فكرة • قررت أن أتحر فى تلك الليلة نفسها • كنت قد عزمت على الانتحار منذ شهرين ، فاشترت ، رغم شدة فقرى ، مسدساً راثماً لقمته فى ذلك اليوم نفسه • وانقضى شهران والمسدس لا يزال ناثماً فى الدرج • ولكننى بلغت من قلة الاكرات بأى شىء أننى أصبحت أشتى أخيراً أن تأتى الدقيقة التى يبدو لى فيها الانتحار جديراً بالاكرات • لماذا ؟ لا أدرى • وصرت كلما سرت عائداً الى بيتى فى الليل ، يخطر ببالى أن أطلق الرصاص على رأسى • وأخذت انتظر أن تجيء اللحظة الملائمة المناسبة • وها هى النجمة التى أراها فى السماء توحى الىّ بفكرة : أن أنفذ الليلة ما عزمت عليه ، « حتماً » • فاذا سألتنى لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة فى نفسك ، لأجبتك بأننى لا أعرف ذلك معرفة تامة •

وفى تلك الأثناء ، بينما كنت أنظر فى السماء ، انما أمسكت تلك البنت الصغيرة كوعى • كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة ، أو قل انه قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد • كان هناك حودى يغفو على مقعده •

ان البنت الصغيرة هي في نحو الثامنة من العمر • كان رأسها مغطى
بمنديل ، وكانت ترتدى ثوباً رثماً ، وكان الماء يسيل عليها • ولكن بصرى
وقع خاصة على حذاءها المتقوين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها •
مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن • لقد خطف هذان الحذاءان انتباهى
أكثر من أى شىء آخر • وأخذت البنت الصغيرة تشدنى من كوعى
منادية مستنجدة • كانت لا تبكى • وكانت تنادىني متقطعة الصوت ،
موعوعةً بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذى كان يجعلها
ترتجف ارتجافاً شديداً • كانت تبدو مذعورة من شىء ما ، وتصح
يائسة : « أمى ، أمى العزيزة ! » • التفت اليها ، ولكننى لم أقبل لها كلمة
واحدة ، وتابعت سيرى • ركضت ورائى ، وشدتى من ذراعى ، بينما
كان يخرج من حلقها صوت أجش أبج هو ذلك الصوت الذى تسمعه
من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس • اننى أعرف
هذه اللهجة • وفهمت من وعوعتها ، رغم عدم اشتغالها على كلمات
ملفوظة ، أن أمها تحتضر فى مكان ما ، أو أن شيئاً من هذا القبيل قد
حدث لها اللحظة ، فركضت تبحث عن انسان أو شىء يفيت أمها •
ولكننى لم أتبعها • وأكثر من ذلك أتتى خطر ببالي فجأة أن أنهرها
وأطردها • قلت لها فى أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطى • ولكنها
سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احدهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ،
وانفجرت تبكى لاهثة ، وظلت تسير الى جانبى لا تتركنى ، فلم يسعنى
الا أن أشتتها قارعاً الأرض بقدمى • فلم تزد على أن تصيح قائلة :
« سيدى ، سيدى ••• » ، ثم تركنتى فجأة لتقطع الشارع مسرعة
كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها
تركنتى لتركض اليه •

صعدت السلم حتى بلغت مسكنى الذى يقع فى الطابق الرابع •
ان المسكن شقة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون • وغرفتى فى

هذه الشقة صغيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة . انانى ديوان مغطى بقماش مشمع ، ومائدة عليها كتبى ، وكريسيان ، ومقعد قديم متقوس ، لكنه من طراز فولتير . جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت فى التفكير . وكان فجور يملأ الغرفة المجاورة فى الجهة الأخرى من الحاجز . ان هذا الفجور قائم منذ يومين . فالشخص الذى يعيش فى تلك الغرفة كابتن محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب . وقد نشبت بينهم مشاجرة فى الليلة الماضية ، وعرفت أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة . وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يربعها . ولم يكن فى البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضامرة هى أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً . وكان الأولاد وأمههم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلمون يرتجفون ويصلون طوال الليل . حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية . وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شارع نفسكى مستعظياً اياهم صدقة . وما كان لأحد أن يمهّد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل . ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجيء على ذكره) لم يثر فى نفسى أى شعور بالنفور منه والكره له ، وقد انقضى على سكناه فى هذا البيت شهر كامل . صحيح أننى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم ببنى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لشم صحتى على كل حال . وانما أحب أن أذكر أننى كنت لا أكثر ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التى يحدثها هو وصحبه صاخبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً . وقد تعودت ألا أرقط طوال الليل ، وكنت فى حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت فى النهاية وجودهم . اننى

لا أستطيع أن أغمض عينيَّ قبل بزوغ الفجر ، وذلك منذ سنة • لذلك
أقضي الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل شيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا في
النهار) حتى اننى لا أفكر فى شيء ، وانما أدع لأفكارى أن تطوف
متشردة على ما يشاء لها هواها • وتذوب الشمعة الى آخرها • وقد
جلست فى هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعته قريباً
من يدي • وتساءلت حين وضعته قريباً من يدي (أتذكر ذلك واضحاً) :
« أهذا مؤكد محقق ؟ » وسرعان ما أجبت نفسى بأنه مؤكد محقق
طبعاً ، أى بأننى سأنتحر لا محالة • كنت أعلم فى تلك الليلة أننى
سأقتل نفسى يقيناً ، ولكننى كنت أتسائل عن المدة التى يجب أن أبقاها
جالساً الى مائدتى أنتظر اللحظة الأخيرة • ذلك أننى كنت لا أعرف تلك
اللحظة على وجه اليقين • وما من شك عندى فى أننى كنت سأنتحر تلك
الليلة لولا أن لقيت فى الشارع تلك البنت الصغيرة •

رغم اننى صرت لا أكثر بشيء ، فقد بقيت امراً حساساً ،
ولو حساساً بالألم مثلاً . فلو ضربنى أحد لتألمت . وقولوا مثل هذا
عن الألم النفسى . فإذا حدث لى شيء محزن جداً شعرت بحزن كالذى
كنت أشعر به من قبل ، كما أننى لما أفقد بعد كل اكترائى بكل ما فى
الحياة . فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان فى وسعى أن أغيث
تلك البنت الصغيرة طبعاً . فما هو السبب فى أننى لم أغنها ؟ السبب هو
تلك الفكرة التى انبثقت فى ذهنى بينما كانت البنت تشدنى من كوى
منادية مستنجدة ؟ وهناك سبب آخر هو سؤال ألقى نفسه على فجأة
ولم أستطع أن أجده له جواباً . هو سؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه
ولا طائل تحته ، ولكنه أحنقنى وأثار فى نفسى غيظاً شديداً . ولقد جاء
الغيظ من هذا التفكير المنطقى : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة فى
هذه الليلة نفسها ، فإن كل شيء فى هذه الحياة يجب أن يمضى غير مثير
لاكترائى فى هذه الساعة أكثر من أى ساعة مضت . فلماذا أحسست
فجأة بأننى لست غير مكثرت بشيء ، واننى أرئى لحال تلك البنت الصغيرة
وأشفق عليها ؟ أذكر أننى رثيت لحالها وأشفقت عليها اشفاقاً شديداً ،
حتى أننى أسيت لها أسى لا يليق البتة بحالى . اعترف لكم بأننى لا أفصح
فى تصوير الاحساس الذى اجتاحت نفسى حينذاك . ولكن ذلك الاحساس
قد بقى فى نفسى لا يغادرها . فلما جلست الى مائدتى فى غرفتى كنت

فى حالة من الغيظ والحنق أشدّ من سابقتها • وأخذت الاستدلالات المنطقية تتعاقب فى فكرى ويتصل بعضها ببعض ؟ فكنت أقول لنفسى : « من الواضح أنتى انسان ، وأنتى لست صفراً ، وما ظلت انساناً ، وما لم استحل صفراً ، فأننى أحيا ، ويمكن اذن أن أنألم وأن أغتاط وأن أشعر بخزى من أفعالى • طيب • ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين مثلاً ، ففيم يهمنى شأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور بالخزى ، وسائر ما عداه ؟ سأكون قد استحلّت الى صفر ، الى صفر مطلق • فهل ' يعقل ألا يكون لمعرفتى بأننى بعد قليل سأبارح الحياة مبارحة « تامة » ، وأن كل شىء مثلاً لن يكون له وجود فى هذا العالم ، هل ' يعقل ألا يكون لهذا أى تأثير لا فى شعورى بالشفقة على البنت الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحقارة التى ارتكبتها ؟ ذلك أنتى حين قرعت الأرض بقدمى ناهراً زاجراً انما أهنت البنت التيسية • وهذه الحقارة الحالية من الشعور الانسانى قد ارتكبتها • لا لأبرهن على أنتى أمسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شىء سينتهى بعد ساعتين ، • قولوا لى بصراحة : هل تصدقون أنتى لهذا السبب انما صرخت زاجراً ؟ أنتى من جهتى أميل الى الاعتقاد بهذا • لقد كنت أنصور تصوراً واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان على وحدى ؟ حتى ليتمكن أن أقول اننى كنت أنصور فى تلك اللحظة ان العالم لم ' يخلق الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسى برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود ، بالنسبة الىّ على الأقل • ناهيك عن أن من الممكن حقاً ألا يبقى للعالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال شبح متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا • أذكر اننى حين كنت جالساً الى مائدتى كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة وأرى فيها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

جديدة • من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأة • قلت
لنفسى : « هبنى عشت فى الماضى فى القمر أو فى المريخ ، وهبنى ارتكبت
هنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنة البشعة الى أبعد حدود البشاعة ،
هبنى ارتكبت أحقر ذنابة يتمثلها الخيال ، فصرت مجلاً بخرى وعار
رهيبين لا يتصور المرء مثلهما الا حين يصيبه فى نومه جانوم ثقيل ؛ وهبنى
اسيقظت فجأة فاذا أنا أجسد نفسى على الأرض لا فى القمر ، ولا أزال
شاعراً بما ارتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت فى الكوكب الآخر ،
ولكننى موقن يقيناً قاطعاً باننى لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر فى يوم
من الأيام مهما يحدث ، أفلا تستوى فى نظرى « جميع » الأمور فى
القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أشعر عندئذ بالخرى من
ذكرى الجريمة التى اقترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها وليست فى محلها ،
لا سيما وأن المسدس موضوع على المائدة أمامى ، وأننى أعرف بكل
جوانحي أن « الأمر » سينم انفاذه ؛ ولكنها أسئلة تنير فى جسمى حمى ،
وتبعث فى نفسى أقصى الاضطراب • فكان يستحيل على نوعاً من
الاستحالة أن أموت الآن ، اللهم الا أن أهتدى قبل ذلك الى حل
للمسألة • الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتنى من الانتحار • لأننى
بالاتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبت طلقة المسدس • وفى أثناء ذلك
كان كل شئ فى غرفة الكابتن يسكن ويهدأ • فقد انقطعوا عن اللعب
بالورق ، وتجهتوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضغ دمدومات من حين الى
حين ، والا بعض الشنائم يتتابع بها صوت وسان • وحينذاك انما أخذنى
النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لى فى يوم من الأيام قبل الآن ،
أمام المائدة فى المقعد • نمت دون أن أحس باننى نمت • والأحلام ، كما
لا يجهل أحد ذلك ، أمرها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك
بكل ما فيه من حدة رهيبية ، واضحاً مفصلاً دقيقاً كدقة المصوغات حين
تخرج من بين يدي الصائغ ؛ وفى بعضها تتجاز الفضاء ، وتخرق الزمان
دون أن يخطر لك ذلك على بال • فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب • ومع ذلك ما كان أبرع عقلى
فى الأحلام أحياناً ! حتى انه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصى تفسيرها • من
ذلك مثلاً أن أخى ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لى فى الأحلام ،
ويشاركى أعمالى ، فنعكف عليها مهتمين بها أكبر الاهتمام مشغوفين بها
أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالى مرة واحدة أثناء الحلم أن أخى
ميت وأنه مدفون • فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبى
يشاركى عملى ، مع علمى بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلى أن يقبل
هذا كله ؟ ولكن كفى ! فلأحدثكم الآن عن الحلم الذى رأيته • نعم ،
فى تلك الليلة انما رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين
الثانى (نوفمبر) •

بعض الناس يسخرون منى الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً •
ولكن ألا يستوى أن يكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذى
بلّغنى « الحقيقة » • فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك
أننى رأيته فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجاءتنى فى الحلم أم انكشفت
لى فى الحياة الواقعية • فليس يضربنى ألا يكون ذلك الا حلماً • ان
هذه الحياة التى تضعونها فى أعلى منزلة كنت أنا فى تلك الليلة مستعداً
لأنهايتها بطلقة مسدس • أما حلمى ، أما حلمى ، فقد بلّغنى رسالة
حياة جديدة ، رغبة ، منبعثة ، قوية •

اسمعوا •

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أزال
أفكر فى تلك الأمور نفسها • وفجأةً حلمت بأننى تناولت المسدس ،
وسددته الى قلبى مع بقائى جالساً ؛ سددته الى قلبى لا الى رأسى ،
وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر • فبعد
أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثابيتين ، ثم اذا
بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنج جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت
أطلق الرصاصة فى قلبى •

يحدث أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عال شديد
العلو ، أو أن ترى أنك تُطعن أو تضرب • ولكنك لا تحس بألم أبداً ،
اللهم الا أن تكون قد لکمت بيدك حديد السرير مثلاً ، فتحس عندئذ
بألم فتستيقظ • وكذلك حدث لى فى هذا الحلم ؛ لم أشعر بأى ألم من
اطلاق الرصاصة فى قلبى ، ولكن خيّل الى اننى أحس بنوع من
صدمة ، ثم زال كل شيء فجأةً ، ولبثت غارقاً فى ظلمات رهيبة ؛ وكأننى
قد صرت أعمى وأخرس ثم هأنذا مسجى تحت شيء صلب ، قد امتددت
مقلوباً ، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتى بأيسر حركة ، والناس من حولى
تسير وتصرخ ، والكابتن يُرعد ، والمؤجرة تُعول • وهؤلاء نفر يدهامون
غرفتى من جديد ، وينقلوننى مكشوفاً فى تابوت ، فأحس بالتابوت يترجح

تحتى ويهتز ، فأفكر فى هذه الواقعة ، ويدهشنى لأول مرة أن أتصور
أنى مت ، أننى مت حقاً . وصرت عالماً بموتى كل العلم ، لا يساورنى
فيه شك ولا ريب . اننى لا أبصر ولا أتحرك . وإن كنت أحس وأفكر .
على أننى سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع
بنير مناقشة ولا جدال .

وهاهم أولاء ينزلوننى فى الأرض ثم ينصرفون ، فأبقى وحيداً ، وحيداً
كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحرّك من أعضائى عضواً . اننى قبل ذلك ،
أثناء سهرى الليل ، حين كنت أطلق لخيالى العنان فأتصور كيف ستكون
حالى فى القبر ، كنت لا أربط بهذا التصور على وجه الاجمال الا الاحساس
بالرطوبة والبرد . لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما فى أقصى
أصابع رجلى ، ولكننى لا أحس بشئ عدا هذا .

كنت مضجعاً . ومن غريب الأمر أننى كنت لا أنتظر شيئاً ،
فأنا مسلم دون اعتراض بأن على الميت ألا يتوقع حدوث شئ . ولكن
الرطوبة شديدة . لا أدرى كم انقضى من الوقت . لعل ما انقضى من
الوقت ساعة ، أو لعله عدة أيام ، أو لعله أيام كثيرة . ثم اذا بقطرة كبيرة
من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء تابوت على عيني اليسرى التى كانت
مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخرى تسقط ، وهكذا دواليك ؛ فى كل دقيقة
تسقط قطرة . فأحس بغيط عميق يكوى قلبى ، ثم لا ألبث أن أشعر
فجأة بألم جسمى فى قلبى . قلت لنفسى : « هذا جرحى ، هذه هى
الرصاصه التى أطلقتها فى صدرى . » انها ثاوية فى قلبى وكانت
قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة ، وتقع على عيني المغمضة رأساً .
فلم يسعنى عندئذ الا أن أنادى ، ولكن ندائى لم يكن بصوت ، لأننى
جامد لا أتحرك ، وانما كان ندائى بكيانى كله ، ناديت الحكم الذى
يتصرف فى كل ما كنت ألعبه بيده . قلت له أياً كنت أنت - هذا اذا
سلمنا بأنك كائن ، وبأنه يوجد أى شئ . يمكن أن يعقل وجوده سوى

ما أنا ألعوبة بيده - ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تنتقم منى بسبب اتجارى الاحمق ، فتوقع فى هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقار الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! » ♦

كذلك قلت' ثم سكت ♦ وانقضت قرابة دقيقة فى صمت عميق ، حتى ان قطرة ماء قد سقطت ، ولكننى كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً فويأ راسخاً لا يتزعزع أن كل شيء لابد ان يتغير فى هذه اللحظة نفسها ولا ريب ♦ وها هو ذا قبرى ينفث فجأة ، أو قل لا أدري اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكننى أعلم أن كائناً غامضاً لا اعرفه قد أمسكنى ، ثم اذا نحن كلانا نطير فى الفضاء ♦ و'رداً الى بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الخالك قبل ذلك ابداً ، أبداً ♦ لم أسأل ذلك الذى كان ينقلنى ♦ وانما انتظرت لانذار بكبريائى منطوياً على خيلائى ♦ كنت مقتنعاً بأننى غير خائف ، وكنت فى نشوة من حماسى لعدم خوفى ♦ لا أذكر الآن كم طال طيراننا ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً فى الحلم حين يجتاز الحالم تخوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل ، وحين لا تلبث الا على النقاط التى يرنو اليها قلبه ♦ أذكر أننى أبصرت فى الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة ♦ فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبي الذى كان يطير بى : « أهذا كوكب سيرايوس » ، مع اننى كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجابنى بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذى لمحته بين السحاب حين كنت عائداً الى بيتك ♦ ♦ ♦ »

كنت أعلم أن هذا الكائن الذى يطير بى له مظهر انسان ♦ ومن غريب الأمر أننى لم أحب هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقظ فى نفسى كرهاً عميقاً له ♦ لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصه في قلبي ، فما بالي أجد نفسي بين ذراعي
كائن ليس هو بالإنسان حتماً ، ولكنه « موجود » قطعاً . قلت لنفسي :
« فلا بد أن هناك حياة اخرة تلي القبر ! » ، قلت لنفسي ذلك مدفوعاً
بما في الحلم من خفة غريبة وطيش عجيب ، ولكن هذا لا ينفي أنني
احتفظت في قرارة قلبي بميزتي الأساسية ، فقلت لنفسي : « اذا كان
المقصود هو أن « أوجد » من جديد ، وأن تحيى ارادة لا مفرّ منها
حياةً أخرى ، فأنى لا أريد أن أكون مغلوباً ولا أريد أن أُذلَّ » . فقلت
لصاحبي فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذي يشتمل
على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجبن باهرة تنقب قلبي نقباً :
« أنت تعلم أنني أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب في أنك تحقرني . »
فلم يجب ، ولكنني أحسست على الفور أنه لا يحقرني ، وأنه لا يسخر
منى ، وحتى أنه لا يشفق عليّ ، وأن رحلتنا تمتد الى غاية مجهولة
سرية لا شأن لأحد بها غيرى ، ولا تتعلق الا بى . فازداد الرعب في
قلبي . وانتقل سكوت صاحبي الىّ ، ونفذ فيّ حضوره الصامت مؤلماً بعض
الألم . كنا قد توغلنا في ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التي ألفناها
عيناي قد غابت عني منذ مدة طويلة . وكنت أعلم أن في آخر السماء
نجوماً لن تصل أشعتها الى الأرض الا بعد ألوف السنين وملايين السنين .
فلعلنا قد قطعنا تلك الفضاءات كلها . كنت أنتظر شيئاً ما ، وكانت نفسي
زاحرة بحنين أليم يطعن القلب . واني لكذلك اذا بعاطفة أعرفها كل
المعرفة ، عاطفة توقف الماضي ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كياني كله على حين
فجأة . لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التي أراها
لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن » التي ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا
قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له ، ولكنني كنت أدرك بيني وبين
نفسى أنها شمس تماثل شمسنا معانلة مطلقة ، فهي منها بمثابة الصدى
أو هي لها نظير . فتمر نفسى حنان كبير بثّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء

الذى خلقنى قد ترَجَّعت فى قلبى وأحيتى ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر •
وهتفت أقول لصاحبى سائلاً :

– ولكن اذا كانت هذه هى الشمس ، اذا كانت هذه شمسنا نفسها ، فاين هى الأرض ؟

فأرأى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براققة فى ظلام الليل • وكنا نتجه فى طيراننا الى ذلك الكوكب •

– ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن فى هذا الكون ، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هى أرضنا نفسها ••• أو أن تكون مثلها تماماً فى الشقاء والفقر ، وفيما نضمرة فى أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها الى الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبب بها أبناءها ، حتى أجحدهم وأشدهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها • ومرت فى خاطرى بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المهانة المعذبة • قال لى صاحبى :

– ستعرف كل شئ •

وكان فى كلماته ما يشبه أن يكون نبذة أسى •

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؟ فلما أخذت أُمَيِّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغيرة غريبة تشتعل فى قلبى ، غيرة نبيلة مقدسة • قلت لنفسى : « كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادرتها • ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيت عليها لطخات من

دمى حين عمدت ، أنا الابين العتوق ، الى انهاء حياتى برصاصه أطلقتها
فى قلبى • وما كفت فى يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى
فى تلك الليله التى ودعتها فيها ، بل لعلنى كنت أحبها عندئذ حباً أقوى
استثارة بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبنى لها فى أى وقت مضى •
هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هناك فى أرضنا
لا نستطيع أن نحب الا بالأم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم •
فنحن لا نحب أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حباً آخر • فأننا نطلب
الألم لأستطيع أن أحب • ما أقوى شهوتى وما أشد ظمئى الى أن أعانق
تلك الأرض وحدها باكياً ، تلك الأرض التى أحببتها وهجرتها ، ولا أريد
أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ، بل أرفض أن أعيش فى أى
أرض أخرى غيرها ! • • • • •

ولكن صاحبى كان قد تركنى • واذا أنا أجدنى فجأة على تلك
الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالى ذلك ، غارقاً فى الضياء الساطع من
يوم شمس جميل كجمال الجنة • فخيّل الى أننى هبطت الى واحدة من
تلك الجزر الصغيرة التى يتألف منها على أرضنا أرخبيل اليونان ، أو هبطت
فى مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخبيل • كان كل شىء فى تلك
الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبيهاً تاماً • ومع ذلك كان كل شىء يشع منه نوع
من الجبور والجلد والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة • وكانت مياه بحر
كالزمرد تتكسر تكسراً خفيفاً على الشاطئ • فلاعبه ملاعبة فيها حب
ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً • وكانت تنتصب فى الفضاء أشجار
باسقة فارعة الأغصان تتألق بغزارة نسفها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؛
ولا شك أنها كانت تحينى بحفيفها الرفيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لى
بكلمات حب • وكان المرج يزدهى بنبت دافىء عذب لذيد • وكانت
الطيور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى بلا خوف فتخط على كنفى ويدى
وهى تصفق بأجنحتها الرائشة صفقاً فرحاً • وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاءوا إلى من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بي ، وعانقوني
 وقبلوني • أبناء الشمس ، أبناء شمسهم ... ألا ما كان أجملهم !
 ما رأيت في يوم من الأيام مثل هذا الجمال في الإنسان على أرضنا ! قد
 تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندما ، في السنين الأولى من حياتهم ،
 شيئاً يشبه أن يكون صورة باهتة ضعيفة لهذا الجمال الذي رأيته في
 سكان ذلك الكوكب من البشر • إن أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف
 وضاء • وإن وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمال
 هدوئه وتمام رصانه • ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح
 الأطفال يرنّ في أقوال هؤلاء البشر وفي أصواتهم ! آ ... فهمت كل
 شيء ، كل شيء ، من أول نظرة • هنا كانت الأرض قبل أن تدّسها
 الخطيئة الأصلية : إن سكانها الذين لا يعرفون الشر يعيشون في هذه
 الجنة نفسها التى تتناقل الإنسانية كلها أن أجدادنا الجنة قد عاشوا فيها ،
 مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها في كل ركن من
 أركانها وكل جهة من جهاتها • ازدحم حولى هؤلاء البشر الذين يضحكون
 ضحكة جدلى ، وغمرونى بملاطفاتهم ، ومضوا بي الى منازلهم ، فكانوا
 جميعاً يريدون أن يفدقوا على الراحة اغداً ، وأن يسكبوها لى سكباً •
 ولم يلقوا على أسئلة فكأنهم كانوا يعرفون كل شيء ، وكان نفوسهم
 لا تجيش فيها الا رغبة واحدة : هى أن يمحوا بأقصى سرعة ما كان
 منقوشاً على وجهى من علائم العذاب والألم •

٤

هأتتم أولاء ترون مرةً أخرى : أى ضير فى أن يكون الأمر حليماً ؟
ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث فى نفسى أثراً باقياً
لا يفنى ، وانى لأحس أن حبهم لا يزال يغسل روحى بمياهه النقية من
هناك الى الأبد . ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتألمت لهم
بعد ذلك ! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أننى فى كثير من الأمور
لا أفهمهم : لم أفصح مثلاً فى أن أفهم ، أنا التقدمى الروسى الحديث ،
أنا البطرسبرجى العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل
ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلمنا نحن . ولكننى لم أثبت أن
أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على ادراكات تختلف
عن ادراكاتنا كل الاختلاف ، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل
الاختلاف أيضاً . انهم بلا رغبة ، وهم فى هدوء نفوسهم وسكيتهم ،
لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعاتنا نحن الى معرفتها ، ما داموا قد بلغوا
حالة الكمال . ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا ، لأن
علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس
كيف يحيون . أما هم فليسوا فى حاجة الى علمٍ ليعرفوا كيف يجب
عليهم أن يحيوا . ذلكم ما أدركته بدون أن أفصح فى فهم معرفتهم . لقد
أرونى أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون اليها بحب يبلغ هذا
المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم .

كانوا يكلمون الأشجار فعلاً : اعلّموا اننى لا أعتقد أن الأمر مشبه على
حين أقول انهم كانوا يكلمونها . نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار . وانى
لوانق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون . تلك كانت نظرهم الى
الطبيعة . ومع الحيوانات كانوا يعيشون فى سلام فلا يلحقون بالحيوان أى
أذى ، ولا يصيرونه بأى ضرر ؟ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالحب
انما روّضوها وأنسّوها . وقد أدرونى النجوم وحدثنونى عنها ، فقالوا
لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم
السماء تواصل وتقام ، لا بالفكر والخيال ، بل بواسطة حية . نعم ،
لم يفلح أولئك الناس فى أن يجعلونى أفهمهم . وكانوا يجبرونى بدون أن
أفهمهم . ولكننى كنت أعلم فى مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهمونى ،
ولذلك لم أكد أحدهم عن أرضنا . كنت أكفى فى حضورهم بأن
أقبل الأرض التى يعيشون عليها ، وكنت أنا نفسى أعشقهم عشقاً دون
أن أنطق بكلمة . وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ،
لا يشعرون من هيامى بهم وإخلاصى لهم بخرج أو عار ، لأنهم كانوا هم
أنفسهم يزخرون حباً . وكانوا لا يتألمون لى ، حتى حين أقبل أقدامهم
بأنهم يستجيبون لى بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم . وكنت أسأله
فى بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيثوا مرة
واحدة الى انسان مثلى ، ولا أن يوقفوا فى نفسى شيئاً من عواطف الغيرة
والحسد مرة واحدة أيضاً ؟ سألت نفسى مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل
المباهى الكذاب ، ألا أحدهم فى يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت
تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تساورنى رغبة فى
ادهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين يمرحون ويطربون
كالأطفال ، مطوّقين فى أرجاء أحراجهم الرائحة وغباباتهم ، صادحين
بأغانيهم الجميلة . وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاباتهم ولبن نعاجمهم الوديعه • كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل
 لتأمين طعامهم وكسائهم • وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ،
 ولكنى لم أر عندهم فى يوم من الأيام سوررات تلك اللذنه « القاسية »
 التى يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً ، جميعهم وكل واحد منهم ،
 والتى هى ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريباً • كانوا يتهجون لميلاد
 الأطفال ابتهاجهم بضيوف 'جدد' وفدوا يشاركون فى عيد المسرات هذا •
 لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم الفيرة أبداً ، حتى انهم
 لا يعرفون معنى هذه الكلمة • كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم
 كانوا أسرة واحدة • وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهم
 يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه يغفو وينام وقد
 أحاط به ذووه يباركونه ويسمون له ، وهم أنفسهم يسمون هذه البسمة
 المضيئة حين 'يحتضرون' • لم يتفق لى مرة واحدة أن رأيت لديهم عند
 الموت لا حزناً ولا دموعاً ؟ وانما رأيت الديداء فى الحب يبلغ به حد
 الوجد ، وهو وجد هادئ رصين فيه كمال وفيه تأمل • حتى ليقدر المرء
 أنهم يظلمون على صلة بموتاهم بعد رجل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم
 يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض • انهم لم يكادوا يفهمون
 عنى حين سألتهم عن الحياة الأبدية • ولكن كان واضحاً أنهم - على غير
 شعور منهم - كانوا يبلغون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أنهم
 لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال • ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون
 فى تواصل دائم مع « الكل » العظيم • ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا
 يعلمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود
 الطبيعة الأرضية ، فإن الاتصال بين البشر - الأحياء منهم والأموات - وبين
 « الكل » العظيم سيكون أوسع وأرحب ، فهم ينتظرون تلك اللحظة
 مبتهجين ، بغير تمجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ
 الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات •

وهم فى المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غناء جوقات كاملة ؛ والأغنيات التى يسمعونها تعبر عن جميع الاحساسات التى عمرت قلوبهم فى النهار الذى انقضى ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه . وانهم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات . ويحلون لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتغنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؛ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر فى القلوب . ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً فى أغانيهم فحسب ، بل فى جميع ظروف الحياة فيما يبدو . ان نوعاً من حماسة ولهى شاملة متبادلة تجعل كلاً منهم ممتلئاً بالآخر معجباً به معجلاً به . لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التى تشيع فيها الأبهة ، وتترقق فيها معانى الانتصار . كنت أدرك ألفاظها ، ولكننى لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها . كان فكرى لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ان صح التعبير . ولكن قلبى كان يتشبع به شيئاً بعد شيء دون أن ينتبه الى ذلك . كنت أقول لهم فى كثير من الأحيان اننى قد سبق لى أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؛ وأن هذا الجبور وهذا الفرح قد انكشفوا لى منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك فى صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحياناً حد الألم ؛ واننى قد تصورتهم جميعاً ، هم وما هم فيه من مجد ، فى أحلام قلبى وأحلام فكرى ؛ واننى كثيراً ما عجزت أثناء حياتى على أرضنا عن أن أأمل غروب الشمس بدون أن أبكى وان كرهى لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبيء . لماذا لم أستطع أن أبغضهم رغم أنى لم أحبهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن فى حبى لهم ؟ لماذا كنت لا أحبهم بدون أن أكرهم ؟ فكانوا يصغون الىّ ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن يفنوا الى معنى كلمائى . ولكننى كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأننى كنت أعلم أنهم يفهمون حزنى الذى يوقظه فى نفسى فراق من فارقتهم ! لا ، لا ،

حين كانوا يرمقوننى بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس فى صحتهم بأن قلبى يصبح برئياً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا أسف على أننى لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تقطع أنفاسى ، وأخذ أصلى لهم فى صمت •

آه ••• لا شك فى أن جميع الناس سيضحكون الآن منى ، ويقولون انه يستحيل على المرء أن يرى فى الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التى أسجلها الآن ، واننى أثناء نومي ما رأيت ولا أحسست الا ما كان يبعثه فى قلبى هذيانى • أما التفاصيل فانما تخيلتها أما تخيلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أعتزف أن كل شئ لعله جرى على هذا النحو أيضاً ، فيالله ما كان أشد الضحك الذى كنت أثيرة فيه ، وما كان أشد المرح الذى كنت ألقيه اليه ! ••• اذا صدق رأيهم ، فان الأمر لا يعدو أننى كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثير هو الذى بقى فى قلبى الجريح الدامى ؛ أما الصور والأشكال التى رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من انساق الكمال ، وقوة السحر ، وبراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أننى حين استيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها فى أقوالى الضعيفة الهزيلة ، فلم يسعها الا أن تمسحى من فكرى ، فعم الجائز جداً والحالة هذه أننى اضطررت على غير شعور منى الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة فى أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أصدق أن ذلك كله قد وقع فصلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أننى سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما رأيته لم يكن حلاً • ذلك أنه قد حدث شئ ، شئ فيه حقيقة تبلغ من الهول والفضاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رثى فى حلم • لنسلم أن هذا الحلم منشؤه قلبى ، فهل كان فى امكان قلبى أن يلقى الضوء على حقيقة ما حدث لى بعد ذلك ، وهى حقيقة مريعة رهيبة • كيف كان يمكننى أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل يُعقل أن يستطيع
قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه
النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم •
لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن • ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى
هذه اللحظة : اننى ... قد أفسدتهم جميعاً •

٥

نعم ، نعم ، انتهيت الى افسادهم جميعاً ! كيف حدث ذلك ؟
لا أدري . ولكننى أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح . ان حلمى الذى
قطع ألوف السنين يترك فى نفسى احساساً بشيء متصل غير منقطع .
ولكننى أعلم أنى أنا كنت سبب الخطيئة الأصلية . ومثل دودة خنزير
معدية ، أو مثل ذرة طاعون سارية تستطيع أن تنشر الوباء فى مملكة
بأسرها ، كذلك أفسد حضورى بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت
قبل بريئة طاهرة . تعلموا أن يكذبوا ، واستطابوا الكذب ، وعرفوا جمال
الكذب . لعل ذلك كله قد بدأ « بريئاً » كل البراءة ، لعله بدأ مزاحاً
أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية ، ولعله قد حدث يفعل
ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم
فبدت لهم محببة . وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة ، وولدت اللذة الغيرة ،
وبعثت الغيرة على القسوة . آه . . . لا أعلم ! لم أعد أتذكر ! ولكننى
أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطلخة أولى ، فدهنوا ، وارتاعوا ،
وأخذوا يناون بعضهم عن بعض ، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ،
وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تعادى أحلافاً أخرى . وأخذت
الملامات والمآخذ والتقريعات تسمع . وعرفوا الخجل . وصار الخجل لهم
فضيلة . ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رموس

أفراد • وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات • فصارت الحيوانات تهرب منهم إلى أعماق الغابة ، وتناصبهم العداء • وبدأ عهد جديد يمجّد في الإنسان • الخصوصية • و « الفردية » و « الشخصية » ، ويعلم الناس أن يفرّقوا بين ما هو لي وما هو لك • وتتوعد اللغات • وتعلموا الألم ، وأحبوا الألم ، وتاقوا إلى الألم ، وقالوا ان الحقيقة لا ' تكتسب الا بالألم • وظهر فيهم العلم • وغدوا أشراراً ، فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والانسانية ، وأدركوا تلك المعاني • وأسموا مجرمين ، فابتدعوا عندئذ العدالة ، وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة • ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن ' تحترم ، أوجدوا المفصلة • ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة ، حتى انهم لم يشعروا أن يصدقوا أنهم كانوا في الماضي بريئين سعداء • وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة ، وسموا تلك السعادة حلماء ، بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها في أشكال محسوسة ، ولا أن يتصورها بأخيلة • ومن أغرب الأمور وأعجبها ، أنهم مع ذلك ، رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة ، ورغم أنهم سمّوها حكاية مربية ، ظلّ توقهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم ، وآلّوها ذلك التوق ، وشادوا معابد ، ووجّهوا الصلوات الى فكرتهم ، الى « رغبتهم » ، وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً ، ولكنهم لا يكفون عن عبادتها بالصلوات والدموع • ومع ذلك لو كان في الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والسعادة تلك التي فقدوها ، وأتيح لهم أن يستشفوها فجأةً ، وسئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا اليها ، فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون • وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون ، أشرار ، ظالمون • ليكن • نحن نعرف ذلك • ونحن بسبب هذا نبكي وتألّم وتنزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التي سينزلها فينا الديان الرحيم الذي سيحاسبنا والذي لا نعرف حتى اسمه • ولكننا نملك العلم ، وبالعلم

سنتدى الى الحقيقة ، فنقبلها فى هذه المرة واعين • ان المعرفة شئ يفوق العقل ، وان وعى الحياة يفوق الحياة • العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة هى فوق السعادة • • •

ذلكم ما صاروا يقولونه • وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانية لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير ذلك • هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل • أصبحت المسألة فى نظره مسألة وجود وبقاء • وظهرت العبودية • حتى لقد وجدت عبودية متطوعة تطوعاً • فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طوعية ورضى ، بشرط أن يساعدهم الأقوياء فى سحق من هم أضعف منهم • وجاء الى هؤلاء الناس رجال عادلون صالحون ، فكلموهم عن صلتهم وكبرياتهم ذارفين الدموع ، وعابوا عليهم أنهم فقدوا القصد والاعتدال والاتساق ، وأنهم ضيعوا الحجل والحفر والحياه • فسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة • وانسكب دم القديسين على رحبات المعابد • وظهر فى مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يعيدوا الانسجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يحب غيره ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً ، وبذلك يشترك الأفراد جميعاً فى تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافة فى وفاق • وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ • ولكن هذا لا ينفى أن المقاتلين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى ستجبر البشر أخيراً على أن يتفقوا على ارساء قواعد مجتمع يسوده العقل ، وهم لذلك - أعنى « الحكماء » - يحاولون بانتظار أن تتحقق اقامة ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبة تقف فى طريق انتصارهم • ولكن عاطفة البقاء الشخصى ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ، المزهوين بصفاتهم ، الحريصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل

أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء . ومن أجل أن يحصلوا على كل شيء ، وجب عليهم أن يلجئوا الى الوحشية ، فإذا لم تفلح الوحشية لجئوا الى الانتحار . ووجدت ديانات تدعو الى عبادة اللاوجود ، وتتادى بتدمير الانسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضان العدم . وتعب هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسمور ، فحملت وجوههم آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؟ وأخذوا يمجدون الألم في أغانيهم . وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يدي حسرة عليهم وأذرف العبرات حزناً لهم ، ولكن لعلني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل ذلك ، أيام كانت وجوههم خالية من الألم ، وكانوا بريئين وكانوا على ذلك الجانب كله من الجمال . وعدت أحب الأرض التي دسوها أكثر مما كنت أحبها أيام كانت جنة ، لا شيء الا لأن الألم ظهر فيها ! واأسفاه ! كنت قد أحببت العذاب والحزن دائماً ، ولكنني أحبتهما لنفسى ، لنفسى وحدها ، فكنت أبكي عليهم وأرثي لحالهم . وصرت أمدد اليهم ذراعى مكرهاً يائساً ، أنهم نفسى وأدينها وألعنها وأحتقرها . قلت لهم اننى أنا الذى صنعت هذا الشر كله ، أنا وحدى ، واننى أنا الذى جلبت لهم الفساد والعدوى والكذب ! وتضرعت اليهم أن يصلبوني ، وعلمتهم كيف يصنع صليب . كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسى ، ولكننى أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم . كنت أثوق الى الألم . كنت أتطلع الى أن أسكب في هذا الألم حتى آخر قطرة من دمي . ولكنهم كانوا لا يزيدون على أن يضحكوا مقهقهين ، ولم يفتهم فى النهاية أن يعدوني مجنوناً مجنوناً الى عالم الغيب ، مجنوناً صوفياً . وأعلنوا لى أخيراً أنني أخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيحبسوننى فى ملجأ للمجانين اذا أنا لم أسكت . فاجتاح نفسى عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبى انقبض انقباضاً شديداً وأحسست أنني أموت وحينذاك ، استيقظت من نومي .

كان الفجر قد بدأ يتنفس ، ولمّا يطلع النهار بعد ، ولكن الساعة تقارب السادسة . فتحت عينيّ فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفسه ، وكانت شمعتي قد ذابت الى آخرها ، وكان كل شيء نائماً فى غرفة جارى الكاتبين . وكان الصمت مخيماً حولي رغم ندرة الصمت فى بيتنا .

ان أول شيء بدر منى هو أننى وثبت من مكانى وقد اعترتني دهشة شديدة أقصى الشدة . لم يسبق أن حدث لى أمر كهذا فى يوم من الأيام . ولا حدث لى (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد . وبينما أنا أهبّ واقفاً وأنوب الى رشدى ، اذا بالمسدس الملقوم الميأ لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصرى ، ولكننى سرعان ما أقصيته عنى . آ . . . الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعىّ أبتهل الى « الحقيقة » الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخذت أبكى وقد أخذت حميماً شديدة ، حميماً لا حدود لها ، ترفع وجودى كله ، وتسمو به . نعم ، يجب أن أحيأ وأن أبشر ! ونذرت نفسى فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً . سأضئ أبشّر . أريد أبشّر . . . بماذا ؟ « بالحقيقة » ، ما دمت قد رأيتها ، رأيتها بعينى رأسى ، رأيتها فى كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحت أبشّر ! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون منى ! لعلنى أحبهم أكثر مما أحب غيرهم . لماذا ؟ لا أدرى ، ولا أستطيع أن أجدها لهذا تعليلاً أو تفسيراً . ولكن ليس لهذا من شأن . المهم أنهم يدعون الآن أننى أسير فى طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير اليه وقد سرت فى طريق خطأ . هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً . لا شك فى أننى سأغلط مراراً قبل أن اكشف كيف يجب علىّ أن أبشّر ، أن ما هى الأقوال وما هى الأفعال التى ينبغى أن تكون سبيلى الى التبشير ، لأن رسالة التبشير ليست بالامر السهل . هذا كله أراه أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن . ولكن اسمعوا : من ذا الذى لا يضل الطريق ؟ من ذا الذى لا يسير فى

طريق خطأ ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بعينها ، من أحكم حكيم الى شر شرير . كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة . تلك حقيقة قديمة . ولكن اليكم على الأقل هذا الأمر الجديد : اننى لن أستطيع أن أُخدع عن نفسى كثيراً ، لأننى رأيت الحقيقة . رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسمادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحيا على هذه الأرض . لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوى العادى لأفراد البشر . ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحده انما يسخرون منى ويتحكمون على . ولكن كيف يمكن أن لا يصدقنى الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة . رأيتها رؤية ، ولم أتحيلها تخيلاً بالفكر . رأيتها رؤية ، وغمرتني « صورتها الحية » وملأت نفسى الى الأبد . رأيتها فى كمال مطلق يبلغ من التمام اننى لا أستطيع أن أصدق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضل الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة . ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة فى نفسى على الدوام ، فتعرف كيف تقوم عوجى وتسدّد خطاى وتوجه سيرى . وانى امرؤ شجاع وان لى قوى نضرة ، فلأضيق مبشراً ولو ألف سنة . أرايتم ؟ لقد أردت أن أخفى عنكم فى أول الأمر اننى أفسدت الجميع . وكان هذا الكتمان منى خطأ أول . ولكن « الحقيقة » همست تقول لى اننى أكذب ، فصاننى من الاتزلاق ووجهت مسيرى . ماذا يجب أن نعمل لاقامة الجنة ؟ - لا أدرى ، لأننى لا أستطيع أن أعبر عن هذا بالفاظ . اننى منذ رأيت حلمى قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التى لا بد منها ولا غنى عنها . ولكن لن يهمنى هذا . لسوف أمضى ، ولسوف أقول كل شئ بغير كلال ، لأننى قد رأيت بعينى رأسى ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو

كابوس ، هو هلوسة • • • هيه • • هيه • • ليس فى هذا الكلام كله
 نبطارة • وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؟ حياتنا كلها ،
 أليست حلمًا ؟ بل اننى لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمنى
 ألا تعود تلك الجنة بعد الآن أبدًا ، وليس يهمنى أنها لم تعد موجودة
 (وأنا أدرك ذلك) ، ولكننى سأمضى أبشرًا بالجنة رغم كل شئ •
 وما أبسط الأمر مع ذلك • ان من الممكن أن يعاد بناء كل شئ فى يوم
 واحد ، فى « ساعة واحدة » • وانما المهم أن يحب الانسان قرينه الانسان
 كما يحب نفسه • ذلك هو الشئ الأساسى الذى هو كل شئ ولا حاجة
 بنا الى شئ آخر سواء : فمتى وفترتموه عرقتم على الفور كيف تبون
 الجنة • على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرروها
 مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تفرس جنورها فى النفوس ،
 انها لم ترسخ فى القلوب • لا يزال الناس يتصورون أن « وعى الحياة
 أعلى من الحياة • وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة » • وهذا
 بعينه ما يجب أن نكافحه • ولسوف أكافح • يكفى أن يريد كل الناس
 حتى يتم بناء كل شئ •

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتها • وسأمضى الى أمام •
 سأمضى •

خطاب عن بوشكين
١٨٨٠

نشر هذا الخطاب عن بوشكين، أول مرة في كراسه شهر
آب (أغسطس) ١٨٨٠ «من يوميات كاتب» (الفصل الثاني)

خطاب ألقى في ٨ حزيران - يونية أمام « جمعية اصداقاء الادب الروسى »

بوشكين ظاهرة من الظاهرات الحارقة ، ولعل النفس الروسية قد تجلت به تجلياً فريداً . كذلك قال جوجول (١) . وانى لأضيف الى قوله أن بوشكين كان كذلك ظاهرة نبوة . نعم ، ان ظهوره يكشف لنا نحن الروس عن شيء لا شك أن فيه نبوة . لقد ظهر بوشكين حين أخذنا نعى أنفسنا حقاً ، وحين ساهم هذا الوعى الذى كان فى مجتمعنا لايزال بذرة بعد الاصلاح الذى قام به بطرس الأكبر ، حين أسهم بظهوره فى انارة طريقنا المظلمة ، وفى توجيه سيرنا . بهذا المعنى يكون بوشكين عرافاً ومرشداً . اننى أقسم حياة بوشكين الأدبية الى ثلاث مراحل . وليس ناقداً أدبياً من يتحدث فى هذه الساعة : اننى فى نظرتى الى أدب بوشكين الآن لا أريد الا أن أشرح فكرتى عن معنى النبوة الذى لبوشكين عندنا وعمماً أقصده بكلمة النبوة . ومع ذلك أحب أن ألفت الانتباه ، عابراً ، الى أن مراحل الانتاج عند بوشكين لا يبدو أن بينها حدوداً تفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً . ان بداية « أونيجين » مثلاً تنمى فى رأى الى المرحلة الأولى ، ولكن « أونيجين » تنتهى فى المرحلة الثانية ، بينما كان بوشكين قد اهتدى الى اكتشاف مثله الأعلى على تراب الوطن ، وتشبع

(١) هذه كلمات جوجول نفسها . فى مقالته « يضع كلمات عن بوشكين » التى نشرت سنة ١٨٣٥ (فى زخارف عربية) وكان الشاعر الكبير لا يزال حياً . وفى مقالة أخرى عنوانها «عاجوز الشعر الروسى» اشار جوجول الى «الترجيع الخلاق» الذى اثارته فى نفس بوشكين قراءة شعراء مختلف الامم ومختلف العصور! وهذه فكرة سيمود الهيا دوستوفسكى فى هذا المقال ويتحدث عنها .

بهذا المثل الأعلى مجدداً اياه تجديدًا كاملاً بكل ما تملكه نفسه المحبة البصيرة من قوة . وقد اصطلح الناس أيضاً على أن يقولوا ان بوشكين فى المرحلة الأولى من مراحل ابداعه قلّد الشعراء الأوربيين من أمثال باني ، وآندره شينيه وغيرهما ، ولا سيما بايرون . نعم ، لا شك أن شعراء أوروبا قد أثروا تأثيراً كبيراً فى تفتح عبقريته ، وقد احتفظوا بهذا التأثير فيه الى الأبد . ولكن ذلك لا ينفي أن القصائد الأولى التى نظمها بوشكين لم تكن تقليداً فحسب ، بل كانت تكشف منذ ذلك الحين عن تمتع عبقريته بأكبر الاستقلال . انكم لن تقعوا يوماً ، فى أى تقليد أو محاكاة ، على ما تجدونه من أصالة الألم وعمق الوعي فى قصيدة « الفجر » مثلاً ، وهى قصيدة أنسبها الى المرحلة الاولى من مراحل انتاجه ، ناهيك عن ذلك التدفق العارم فى الابداع ، وهو تدفق ما كان ليتجلى على هذا النحو لو كان الشاعر لا يزيد على أن يقلّد . ان نموذج آليكو ، بطل قصيدة « الفجر » لهو رسة أولى لتلك الفكرة القوية ، الروسية تماماً ، التى مستجلى بعد ذلك فى رواية « أوجين أو نيجين ، منسقة أعظم الانساق ، منسجمة أكبر الانسجام ؛ وفى هذه الرواية نرى آليكو ذاك نفسه لا يبقّى صورة شبه خيالية ، بل يصبح له وجه يمكن لمسه وفهمه فعلاً . لقد اكتشف بوشكين فى آليكو ذلك المتشرد الشقى فى بلادنا ، ذلك الجوّاب التاريخى الروسى ، الذى يشكل وجوده فى هذا المجتمع المنفصل عن الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصوى . اكتشف بوشكين نموذج آليكو وصوّره . ومن نافل القول أن تشير الى أنه لم يكتشفه عند لورد بايرون فحسب . ان هذا النموذج نموذج حقيقى ، وقد رآه بوشكين بدقة لا يأتىها الباطل ، ووضوح مصوم من الزلزال . وهو نموذج سيظل يوجد دائماً ، وسيبقى على الأرض الروسية زمناً طويلاً . ان هؤلاء الجوّابين الذين ليس لهم نارٌ بها يستدفئون ولا مكان اليه يأوون لا يزالون حتى أيامنا هذه يجوبون ، ولا يبدو أنهم سيختفون قبل انقضاء وقت طويل .

وإذا صاروا فى زماننا هذا لا يذهبون الى الفجر ملتسمين فى عاداتهم
وتقاليدهم المتوحشة مثلاً عليا عامة شاملة ، ولا يذهبون اليهم ناشدين
أن يرتاحوا فى أحضان الطبيعة من الحياة السخيفة المضطربة العكرة التى
يعيشها الناس فى مجتمعنا الروسى المثقف ، فانهم يندفعون الآن الى
الاشتراكية التى لم يكن لها وجود فى زمان آليكو ، ويأخذون على عاتقهم
مهمة جديدة ، مؤمنين كما كان يؤمن آليكو بأنهم بهذه الوسيلة الوهمية
سيصلون لا الى أهدافهم الخاصة وحدها ، بل الى أهداف البشر أجمعين .
ذلك أن الجواب الروسى لا يرضى بأقل من سعادة البشر كافةً ليهداً باله
وتطمئن نفسه : انه لا يمكن أن يقبل بأقل من هذا - ما ظل الأمر على
صعيد النظرية طبعاً . اتنا فى الحالين ازاء ذلك الروسى نفسه ظهر فى
فترتين مختلفتين . أعود فأقول ان هذا الرجل انما ظهر فى مجتمعنا المثقف
المنفصل عن الشعب ، المنفصل عن القوى الشعبية ، فى بداية القرن الثانى
الذى أعقب اصلاح بطرس الأكبر . لا شك أن عدداً كبيراً من المثقفين
الروس ، سواء فى زمان بوشكين وفى زماننا ، كانوا يعملون ولا يزالون
يعملون بهدوء وسكينة ، موظفين فى المحاكم وفى السكك الحديدية وفى
البنوك . وان بينهم كذلك أناساً يحصلون على مالٍ بجميع الوسائل ، حتى
ان بينهم من يهتمون بالعلوم ، ويقرءون محاضرات ، وذلك كله على نحو
مطرده هادىء وان . وانهم ليقبضون رواتب ، ويلعبون بالورق ، دون
أن تراودهم أية نزوة تحض على الهروب الى مخيمات الفجر أو الى أماكن
أخرى ألصق بزماننا . وان هناك عدداً كبيراً من الناس يصطفون لأنفسهم
صفة البراليين ويضيفون الى هذه المبرالية « مسحة اشتراكية أوروبية »
ترفع الدماعة الروسية من شأنها قليلاً . ولكن المسألة مسألة وقت
لا أكثر . فلبس يغير من حقيقة الأمر شيئاً ألا يكون فلان قد بدأ
يحس القلق ، وأن يكون فلان الآخر قد اتسع وقته منذ الآن لأن يمضى
الى الباب المغلق فينطح به رأسه . ان مصيراً واحداً ينتظرهما كليهما متى

حان الحين ، اذا هما لم يسيرا فى طريق السلامة ، الذى هو طريق المصالحة مع الشعب . وهبْ ان هذا المصير لن يشارك فيه جميع الناس ، فانه ليكفى أن تشارك فيه « نخبة » ، يكفى أن يظهر « عشر » الناس استيائهم واستنكارهم حتى يقوم السواد الأعظم بفضل ذلك ، فلا يهدأ له بال ولا يعرف الى الراحة سيلاً . صحيح أن أليكو لا يعرف بعدُ أن يعبرَ لنا على وجه الدقة عن موضوع حينه . ان ذلك كله لا يزال فيه أمراً مجرداً بعض التجريد . وهو لا يحنُّ الآن الا الى الطبيعة . انه لا يحسن الا الشكوى من المجتمع الراقى ، والبكاء على حقيقة ضائعة ، ولا يعرف أين يجد هذه الحقيقة ولا كيف ، ولا يفلح فى الاهتمام اليها . ان فيه شيئاً عن جان جاك روسو انه لا يقول لنا ما هذه الحقيقة ، ولا أين يمكن أن تظهر ، ولا كيف يمكن أن تظهر ، ولا يحدد لنا الزمان الذى ضاعت فيه . هو لا يذكر لنا شيئاً من ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن أله صادق . ان الانسان غريب الأطوار نافذ الصبر ، لا ينتظر الآن أن يأتيه الخلاص وتأتيه السلامة الا من الأحداث الخارجية . ولا بد أن يكون الأمر كذلك . هو يقول : « لا بد أن تكون الحقيقة موجودة فى مكان غير نفسى ، لا بد أن تكون موجودة فى البلاد الأخرى ، عند الشعوب الأوروبية مثلاً ، تلك الشعوب التى لها بنيان تاريخي متين ، والتى تتصف فيها الحياة الاجتماعية والمدنية بأنها منظمة . . . » انه لن يدرك أبداً أن الحقيقة قائمة فى ذاته قبل كل شئ . وأنتى له أن يدرك ذلك بينما هو كفٌّ على أرضه عن أن يكون عين ذاته ؟ انه منذ قرن طويل قد فقد عادة العمل . انه غير ذى ثقافة . لقد شبَّ كما تشب فتاة فى مدرسة داخلية ، بين جدران عالية وأسوار سامقة ، خاضعاً لالتزامات غريبة لا حصر لعددها ، تتصل بارتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التى ينقسم اليها المجتمع المتقف فى روسيا . هو الآن زغبة متوفة تتموج على ما تشاء لها الريح . وانه

ليحس بذلك ، وانه يتألم منه ، بل انه ليتألم منه تألماً حاداً جداً في كثير من الأحيان . وما ذا يهمه بعد ذلك ، أن يكون ، باتتمائه الى اسرة نبيلة كما 'يحتمل هذا ، مالكاً لأقنان ، وأن يكون قد انساق مع نزوة تستبد بنفس نيسل من نسل الريف ، فيح لنفسه ذلك الاقياد لغواية أناس « خارجين عن القانون » ، ويتبع جماعة من الفجر. ويصير صاحب دب يتفَرَّج عليه المتفَرِّجون ؟ وطبيعى أن تستطيع المرأة ، « المرأة المتوحشة » على حد تعبير الشاعر ، أقدر من سائر الأشياء على أن تهب له الأمل في أن تشفيه من حنينه الأليم ، ولذلك نراه يرتضى على زمفيرا بإيمان طائش لكنه مسبب الهوى ، قائلاً لنفسه : « هنا يمكن أن تكون سعادتي ، هنا في أحضان الطبيعة بعيداً عن المجتمع بين هؤلاء الذين ليس لهم لا مدنية ولا قوانين ! » . وماذا يحدث ؟ انه منذ أول احتكاك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة ، يعجز عن السيطرة على نفسه ، ويلطخ بالدم يديه . ان هذا الحالم الشقى ليس عاجزاً عن الانسجام الشامل فحسب ، بل هو عاجز حتى عن الانسجام والتوافق مع الفجر ، وهامهم أولاء يطردونه ، بلا رغبة في الانتقام ، وبلا كره أو ضغينة ، وقد امتلأت نفوسهم جلالاً وحلماً ودمامة .

اتركنا ايها الرجل الصلف
نحن متوحشون ليس لنا قوانين
نحن لانعذب ولانعاقب

ذلك كله خيال طبعاً ، ولكن هذا « الرجل الصلف » انما هو انسان مستمد من الواقع وقد أحسن الشاعر رسمه . وان بوشكين هو أول من أدركه ، وذلك ما لا ينبغي لنا أن ننساه . وبحماسة عارمة وحشية سيمزق هذا الانسان نفسه ، وسيعاقب نفسه للاساءة التي ارتكبتها ، أو هو - وذلك سيكاد يكون أسهل عليه أيضاً ، بعد أن تذكر أنه يتسنى الى واحدة من الطبقات الأربع عشرة - سيتوق طبعاً (لأن ذلك هو

ما حدث) الى قانون قاسٍ يفرض العقاب ، وسيحرّض على اقامة هذا القانون ، ولو لمعاقبة الاساءة التي ارتكبتها هو . لا ، ان هذه القصيدة العبقريّة ليست تقليداً ومحاكاة ! اتنا نرى فيها منذ الآن بزوغ الجواب عن ذلك السؤال ، « السؤال المحتوم » الذى يلقى الايمان وتلقيه الحقيقة الشعبية : « أبها الانسان الصلف أذلّ نفسك أولاً وحطّم خيالك . أذلّ نفسك أيها الانسان الضعيف المغرور . وعلى هذه الأرض التي ولدت فيها اتعب واجهد قبل كل شيء . » ♦

ذلكم هو الجواب الذى يطابق الحقيقة ويطابق عقل الشعب . ♦
« ليست الحقيقة فى خارجك ، بل هى فى داخلك . اهتد الى نفسك فى نفسك . أخضع نفسك لنفسك . املك نفسك بنفسك . فترى الحقيقة .
ليست هذه الحقيقة فى الأشياء ، ولا هى فى خارج ذاتك ، ولا هى فى أى مكان بعيد ، وانما هى قبل كل شيء فيما تحدثه من تأثير فى نفسك .
فاذا تغلبت على نفسك ، اذا انتصرت على نفسك فوجدت السلام والطمأنينة أصبحت حراً حرية لم تتخيل أنك فى يوم من الأيام أنك ستملكها . سوف تقوم بعمل عظيم ، سوف تحرر الآخرين ، وسوف ترى السعادة ، لأن حياتك ستكون مملوءة ، وستفهم عندئذ شعبك وحقيقته . ليست الحقيقة فى مكان آخر ، كما لم تكن عند الفجر ، وانما أنت أنت الذى لا تستحقها ولا تكون بها جديراً ، اذا كنت شريراً ومزهاواً ، واذا طالبت بما لك على الحياة من حقوق دون أن تؤدى ما للحياة عليك ، دون أن تعطى فى مقابل هذه الحقوق أىّ عطاء ، وحتى دون أن يخطر ببالك أن عليك أن تعطى شيئاً . » ♦
ان هذا الجواب عن السؤال ، ان هذا الحل للمشكلة قد أشارت اليه قصيدة بوشكين اشارة قوية . ثم جاءت قصيدة « أوجين أونيجين » فعبّرت عنه تعبيراً أوضح . وهى قصيدة ليست خيالاً كقصيدة الفجر ، وانما هى واقع محسوس ملموس تجسّدت فيها الحياة الروسية الحقيقية تجسّداً فيه من القوة والكمال ما لم يشاهد مثله قبل بوشكين ، وربما بعده .

ان أونيجين يصل من بطرسبرج ، ولا بد حتماً أن تكون بطرسبرج
هى التى يصل منها ، ولا شك أن هذا لا غنى عنه للقصيدة : فما كان
لبوشكين أن يدع لأية سمة من واقع يبلغ هذا المبلغ من الكثافة أن تفوته
فى قص سيرة بطله . أعود فأقول مرة أخرى انه صاحبنا أليكو نفسه ،
ولا سيما حين يهتف وقد استبد به الحزن كما سئرى بعد قليل :

لماذا لم يشلى الكساح
كما شل الكحل فى ثولا ؟

ولكنه هنا ، فى مستهل القصيدة ، لا يزال مزهوا بعض الزهو
ولا يزال من أبناء المجتمع الراقى . ان الحياة التى عاشها أقصر من أن
يكون وقته قد اتسع لأن يتخلص تخلصاً تاماً من وهم الحياة . غير
أنه قد بدأ يزوره ويحاصره

شيطان نبيل هو شيطان شجر مستتر على

وهو فى هذا الركن المنزوى من الريف ، فى قلب وطنه ، لا يحس
طبعاً أنه فى داره . انه لا يدرى ما عساه فاعلاً هنا ، وانه يشعر ، على
كونه فى مسكنه ، أنه فى هذا المسكن نزير ، أنه فيه ضيف . وبعد ذلك ،
حين سيطوَّف مكتشِباً أسيان فى الأرض التى ولد فيها ، وفى الأرض
الأجنبية ، هو الرجل الذى لا شك فى أنه ذكى وأنه صادق ، سوف
يشعر ، حتى فى الخارج ، أنه غريب عن نفسه مزيداً من الغربة . هو
يجب أرضه التى ولد فيها حقاً ، ولكنه لا يؤمن بها . صحيح أنه سمع فى
تلك الأرض مثلاً علياً ، لكنه لا يصدق هذه المثل العليا . انه لا يؤمن
الابشء واحد : هو أن كل عمل يحاول الشروع فيه من أجل بلاده
التي ولد فيها ، مستحيل استحالة مطلقة . أما الذين يؤمنون بإمكان
تحقيق هذا العمل والنهوض بهذه المهمة ، والذين كان عددهم فى ذلك
الزمان قليلاً كقلته فى هذا الزمان ، فهو ينظر اليهم بسخرية حزينة .
لعله لم يقتل لنسكى الا سأمًا ، من يدرى ؟ لعل نوعاً من السأم الذى

يؤكد الحنين الى مثل أعلى شامل هو الذى جعله يقتل لنسكى . أما تاتيانا فانها لا تشبهه : انها انسانية متينة ، قوية الاستناد الى الأرض . ان لها جوهرآ لا يملك أونيجين مثله ، وهى تبعاً لذلك أذكى منه . انها بنبل غرائزها وحده تحس أين هى الحقيقة ، وتدرك ما الحقيقة - وذلك ما سيعبر عنه ختام القصيدة . ولعل بوشكين كان يحسن احساناً أكبر لو أنه جعل عنوان قصيدته « تاتيانا » بدلاً من أن يجعله « أونيجين » ، لأنها هى بطلة القصيدة بلا مراء . نحن هنا ازاء نموذج ايجابى لا سلبى ، بل نحن هنا ازاء نموذج الجمال الايجابى بعينه ؟ ان الشاعر هنا يمجّد المرأة الروسية ، ويهيئها لأن تنطق بفكرة قصيدته فى المشهد الذى يصوّر اللقاء بين أونيجين وتاتيانا . ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان نموذج الجمال هذا الذى يعترف به للمرأة الروسية ليس له فى أدبنا نظير يساويه ، اللهم الا أن نقول ان ليزا التى صورها تورجنيف فى روايته « عش سادة » ، ربما كانت له نظيراً . ولكن طريقة أونيجين فى النظر من أعلى جعلت أونيجين لا يتعرف تاتيانا حين رآها أول مرة فى ذلك الركن من الريف ، فبانت له صورة مسكينة للفتاة الطاهرة البريئة التى تخجل أند الحجل حين يراها هو أول مرة : انه لم يستطع أن يدرك لدى الفتاة المسكينة ما تشتمل عليه نفسها من كمال وتمام ، ولعلّهُ عدّها « نطفة روح » ان صح التعبير . ماذا ؟ نطفة ؟ هى ، نطفة ؟ هى ، بعد الرسالة التى كتبتها الى أونيجين منذ قليل ؟ ألا أنه لو الذى يمكن أن يوصف بأنه نطفة روح ، هو أونيجين ، اذا كان فى هذه القصيدة نطفة روح . هو أولاً ما كان فى وسعه أن يتعرفها بحال من الحال . أهو يعرف النفس الانسانية ؟ انه رجل يعيش فى عالم مجرد ، انه حالم قلق طول حياته . وبعد ذلك لم يتعرفها أكثر من هذا فى بطرسبرج ، رغم زعمه فى رسالته الى تاتيانا أنه اكتشف « جميع ما تتحلى به من ألوان الكمال » . ولكن هذه الكلمات ليست الا كلمات : لقد مرت تاتيانا بحياة أونيجين مرورآ ،

مرت بجانبه دون أن يعرفها وأن يقدرها حق قدرها • وتلكم هي مأساة روايتها • آ • • • لو قد وصل من انجلترا الى تلك القرية في ذلك الأوان • حين رآها أول مرة • لو قد وصل رجل اسمه تشايلد هارولد • أو وصل بايرون نفسه • فلاحظ ما في تاتيانا من سحر خفى نفاذ • فدلّ أوينجين عليه • وأشار له اليه • اذن لحطف هذا السحر اتباعه حتماً • ولأذهله اذهالاً • لأن لدى شهداء « ألم المجتمع » هؤلاء عبودية روحية تبلغ مبلغاً كبيراً من الاحتياط ! ولكن هذا لم يحدث • وقد رأينا صاحبنا الباحث عن الاسجام الكلي الشامل • بعد أن يلقي عليها موعظته وبعد أن يتصرف تصرفاً شريفاً على وجه الاجمال • يمضي مصطحباً أله من المجتمع والدم الذي سفحته يده بحماقته الشريرة • يمضي يطوف في البلد الذي ولد فيه • ولكنه يطوف في هذا البلد دون أن يرى منه شيئاً • ويهتف قائلاً في سيل من اللغات وهو يفيض صحة وعافية :

الا في ريعان الشباب • والحياة قوية في نفسي
فماذا انتظر ؟ انه السام ثم السام !

وذلك ما كانت قد أدركته تاتيانا • وفي الأبيات الخالدة من هذه الرواية الشعرية يصوّر الشاعر بطلته تاتيانا وهي تزور منزل ذلك الرجل الذي لا يزال غريباً كل الغرابة ولا يزال لغزاً خفياً وسمراً عجيباً في نظرها • ها هي ذى في مكتب أوينجين • تلقي نظرة على كبه وأشياءه وتحفه • وتحاول أن تنفذ الى نفس مالكها من خلالها • وأن تدرك السر وتحل اللغز من النظر اليها • وتلتبث « النطفة الروحية » أخيراً على فكرة وهي تبسم ابتسامة غريبة مع احساس بأنها حلت اللغز • ودمدمت شفتاها تقولان :

الايمن ان يكون نوعا من محاكاة مضحكة ؟

نعم • كان لا يمكنها الا أن تنطق بهذا الكلام • لقد أدركت

الحقيقة • وبعد ذلك بمدة طويلة ، أنشاء لقائهما الجديد فى بطرسبرج ، كانت تعرفه منذئذ معرفة تامة • وبالناسبة ، من ذا الذى زعم أن حياة البلاط ، حياة المجتمع الراقى ، قد أحدثت فى نفسها أثراً وبلاءً ، وأن صفتها كسيدة من سيدات المجتمع الراقى والآراء الجديدة التى فى ذهنها عن منزلتها ومكاتها كانت من أسباب الرفض الذى واجهت به أونيجين ؟ لا ، ان الأمر لم يكن كذلك • لا • انها لا تزال تانيا نفسها ، تانيا القروية كما كانت فى الماضى • انها لم تفسد • بالعكس • ان بذخ الحياة البطربرجية يرهقها وبضيها ، وانها لتألم من ترف هذه الحياة ببطرسبرج • انها تكره مكاتها هذه كسيدة من سيدات المجتمع الراقى • ومن يحكم عليها غير هذا الحكم يكن جاهلاً بما أراد أن يقوله بوشكين • ها هى تكلم أونيجين فنقول له بلهجة جازمة :

لكنى وهبت نفسى لآخر
وسابقى وفيه له الى الابد

لقد نطقت بهذه الكلمات نطق امرأة روسية تماماً • وذلك هو تمجيدها • انها تعبر عن حقيقة القصيدة • لن أقول شيئاً عن اعتقادها الدينية ، لن أقول شيئاً عن الرأى الذى تراه فى رباط الزواج المقدس • لا • هذه نقطة لن أمسّها • ولكن ماذا ؟ هل لهذا رفضت أن تتزوجه ، مع أنها قالت له هى نفسها : « أحبك » ؟ هل لهذا ، من حيث أنها امرأة روسية (لا امرأة من الجنوب ، لا فرنسية ما) تعجز عن القيام بخطوة جريئة ، ولا تقوى على كسر القيد الذى يكبلها ، والنضحية بمفان الأمجاد والثراء والمكانة العالية فى المجتمع الراقى والآراء السائدة عن الفضيلة ؟ لا ، ان المرأة الروسية جريئة • المرأة الروسية تتبع الرجل الذى تؤمن

به ، تتبعه ببسالة وجسارة ، ولقد برهنت على ذلك • ولكنها • وهبت نفسها لآخر وستبقى وفية له الى الأبد • • فمن الذى ستبقى وفية له ؟ وباسم أية واجبات تبقى وفية له ؟ أهى وفية لذلك الجنرال الذى لا تستطيع أن تحبه لأنها تحب أونيجين ، وانما هى تزوجه لا لئىء الا لأن أمها توسلت اليها أن تتزوجه « دامعة ضارعة » ، ولأن نفسها التى أهنت وُجِرت لم يكن فيها حينذاك شىء الا اليأس ، ولم يكن ثمة أى دليل على أن جديداً سيحدث ؟ نعم ، لهذا الجنرال انما ستكون وفية ، لزوجه ، للرجل الشريف الذى يحبها ويحترمها ويبجلها ويدو فخوراً بها • لا قيمة للاحاحات أمها • انها هى التى وافقت لا غيرها : هى التى حلفت لتكونين له الزوجة الوفية • ليس أمراً هاماً أنها تزوجه بعد يأس • هو الآن زوجها • فلو خاتته لجللها العار والندس ، ولقتلها قتلاً • ثم هل يستطيع الانسان أن يبنى سعادته على شقاء غيره ؟ ليست السعادة كل شىء فى مباحج الحب ، بل السعادة فى الانسجام الأعلى الذى يتحقق للروح والفكر • وأنسى للفكر أن يجد الراحة اذا كان يحاصره شبح عمل غير شريف ، عمل شرير ، عمل ليس انسانياً • أيجب عليها أن تهرب لا لشيء الا لأن الأمر أمر سعادتها ؟ أية سعادة يمكن أن يتمتع بها المرء اذا كانت قائمة على شقاء غيره ؟ تصوروا أنكم مكلفون أنتم أنفسكم ببناء صرح المصائر الانسانية لهدف أخير هو أن تجعلوا جميع الناس سعداء ، وأن تهبوا لهم السلام والراحة آخر الأمر • وتخلوا عندئذ أيضاً أنكم فى سبيل تحقيق ذلك لا غنى لكم عن تعذيب انسان واحد ، واحد لا أكثر ، بل انسان ليس له قيمة كبيرة ، انسان يمكن أن يعد مضحكاً ، فليس هو رجلاً عبقرياً مثل شكسبير ، وانما هو شيخ طيب شريف لا أكثر له زوجة شابة يؤمن بحبها ايماناً أعمى ، زوجة لا يعرف قلبها ، ولكنه فخور بها مرتاح اليها واثق بها • تخلوا أن هذا الرجل هو الذى يجب عليكم أن تهينوه وأن تخزوه وتلطخوا شرفه وأن تعذبوه •

تخيّلوا أن سعادتنا لا بد أن 'تبنى على دموع هذا الشيخ الذى لا حول له ولا قوة ولا يملك عن نفسه دفاعاً • فهل قبلون أن تشيدوا ذلك الصرح بهذا الثمن ؟ وهل يمكنكم أن تسلموا ، ولو دقيقة واحدة ، أن أولئك الذين 'بنى لهم هذا الصرح يرضون هم أنفسهم أن يقبلوا منكم تلك السعادة إذا كانت قد شيدت على آلام مخلوق هو أهون المخلوقات شأنًا ، مخلوق عذّب لهذه الغاية ظلمًا بغير شفقة ولا رحمة ؟ وهل تقدرون ، إذا أنتم قبلتم هذه السعادة ، أن تبقوا سعداء الى الأبد ؟ قولوا لى : هل كانت تاتيانا تستطيع أن تعمد عزمها على غير ما عقدته عليه ، وأن تتخذ قراراً غير القرار الذى اتخذته ، هى التى 'وهبت لها نفس تبلغ هذا المبلغ من النبل ، وأوتيت قلباً يبلغ هذا المبلغ من الرحمة ؟ لا ، لم يكن فى وسعها أن تفعل غير ما فعلت • هكذا يكون القرار الذى تتخذه نفس روسية نقية • « ألا فلأحرم وحدى من السعادة ، ألا فليكن شقائى أكبر من شقاء هذا الشيخ الى غير حدٍ ولا نهاية ، ألا فليجهل جميع الناس وهذا الشيخ نفسه تضحيتى ، ولا يقدروها حق قدرها الى الأبد ! اننى أؤثر ذلك على أن تقوم سعادتى على شقاء غيرى • اننى أرفض أن يكون شقاء غيرى ثمن سعادتى ! » • فى هذا تكمن المأساة ، وسوف تحدث المأساة ، سوف يفوت أوان تجاوز الحاجز • ذلكم هو السبب الذى جعل تاتيانا تطرد أوينجين • رب قائل يقول : « ولكن أوينجين شقى أيضاً • فهى قد أنقذت واحداً وأهلكت آخر ! » • اسمحو لى ! هذه مسألة ، ولعلها أخطر مسألة فى القصيدة • يجب أن أشير فى هذه المناسبة الى أن امتناع تاتيانا عن الذهاب مع أوينجين هو عندنا ، فى أدبنا على الأقل ، قصة فريدة جداً فى نوعها • لذلك أبحث لنفسى أن أفيض فى الكلام على هذا الموضوع افاضة طويلة • ان أغرب ما فى الأمر هو أن الحل الأخلاقى لهذه المسألة قد كان موضع شك فى كثير من الأحيان عندنا • فاليكم ما أراه فى الأمر من رأى • اننى أتصور أن تاتيانا ما كان لها أن تذهب مع أوينجين

ولو حدث أن أصبحت حرة طليقة ، أن مات عنها زوجها ، أن أصبحت أرملة . أنحن فى حاجة حقاً الى أن نتمعق طبيعة هذا الزواج ؟ انها تعلم حق العلم من هو أونيجين : هو جَوَّابُ أبدي حدث أن رأى ، على حين فجأة ، المرأة التى سبق أن ازدراها ؛ رآها فى البذخ والترف الذى تتم به بيثة لا يقدر هو أن يبلغها . هنا جوهر القضية كلها . هذه البيثة هى جوهر القضية كلها . ان تلك البنت الصغيرة التى أوشك فى الماضى أن يحتقرها احتقاراً ، تحظى اليوم بتبجيل المجتمع الراقى - هذا المجتمع الذى له على رجل مثل أونيجين سطوة وسلطان ، رغم جميع ميول أونيجين الى الشمول - ومن أجل هذا انما هرع اليها مبهوراً ! لقد هتف يقول : « هذا مثلى الأعلى ، هذا خلاصى ، هذا ما يروى ظمئى ، ويشفى غليلى ، ويروى حنينى ! لم أقدر أن أرى السعادة حين كانت فى متناول يدى ، حين كانت قريبة كل القرب منى ! » . وكما يتوق أليكو الى زفيرا ، يتطلع أونيجين الى تاتيانا . أليست تعرفه تاتيانا وتقرأ ما فى نفسه قراءة واضحة ؟ ألم تكتشف سرّه ، وتفك لغزه منذ مدة طويلة ؟ انها لتعلم الآن علم اليقين أنه لا يحب فى الواقع الا وهمه الجديد ، فهو لا يحبها هى ، هى التى لا تزال كما كانت فى الماضى تاتيانا الهادئة . انها تعلم أنه يعدّها شيئاً آخر غير ما هى . انها تعلم أنه لا يحبها هى ، وأنه ربما كان لا يحب أحداً ، بل أنه قد يكون عاجزاً عن أن يحب أحداً رغم كل ما يقاسيه من تباريح شديدة ! انه يحب وهمه الخاص ، وهو نفسه ليس الا وهماً ! فلو تبعته لصحت من الفتنة وأفادت من السحر منذ الغد ، ولسخرت مما اندفعت فيه وانفادت له من حماسة . ان أونيجين لا أرض له ، لا تراب له . انه زغبة فى مهب الريح . أما هى فتختلف عن هذا كل الاختلاف . انها حتى فى اليأس والألم اللذين يستبدان بهما حين ترى تهدم حياتها ، يبقى لها شيء ثابت لا يتزعزع ، شيء متين راسخ تستند اليه روحها ، وتعتمد عليه نفسها : وهو ذكريات طفولتها ، ذكريات البلد

الذى ولدت فيه ، ذكريات الركن الصغير من الريف ، الذى فيه بدأت حياتها الهادئة النقية • هو « الصليب وظل الأنصان على قبر مرضعتها المسكينة » • ان هذه الذكريات وهذه الصور الباقية من الماضى لهى أغلى فى نفسها من كل شئ • ان هذه الصور هى كل ما بقى لها ، وهى هى التى تنقذ روحها من يأس لا مخرج منه • وهذا وحده ليس قليلاً ، بل انه لكثير ، لأنه أساس راسخ ، فيه شئ لا يتزعزع ولا يتهدم • بهذا انما يتم اتصال الانسان بالوطن ، وارتباطه بالشعب ، وتعلقه بما يحمله ويقده • فما الذى يملكه أوينجين ، ومن هو ؟ انها لا تستطيع أن تتزوجه من باب الرأفة والشفقة ، ملهامة يزجى بها وقته لا أكثر • انها لا تملك أن تبدد هذا الكنز من الشفقة المحبة ، من أجل أن تخلق له شبح سعادة ، لأنها تعلم حق العلم أنه سيستهزىء فى غد بهذه السعادة • لا • ان من النفوس نفوساً عميقة قوية لا تستطيع ، عامدة واعية ، أن تسلم للعار شيئاً تحترمه وتقده ، ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها • لا • ما كان فى وسع تاتيانا أن تتزوج أوينجين •

هكذا يتجلى بوشكين ، فى قصة « أوينجين » ، فى هذه القصيدة الخالدة التى لاتضاهى ، يتجلى كاتباً قومياً لم نعرف مثله قبله • لقد استطاع بنظرة ثابتة تبلغ غاية الدقة والحدة أن يرى أعماق أعماق كياناته ، وأن يبصر قرارة هذا المجتمع الذى ينزل عندنا منزلة فوق طبقة الشعب • ان بوشكين ، بتصويره الجوّاب الروسى ، بتصويره المتشردّ فى هذا الزمان والمتشرد الذى وجد حتى الآن ، وبإدراكه بحدس العبرى طبيعة هذا المتشرد ومصيره التاريخى وما يكتسبه من شأن ضخم فى مصائر روسيا فى المستقبل ؛ وبوضعه نموذج الجمال الروسى الحق الى جانب ذلك المتشرد متمثلاً فى المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، أن يعرض أمام أبصارنا فى سائر الآثار التى ألفها فى تلك المرحلة من مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ،

التي اكتشفها في الشعب الروسي • وأبرز سمات هذا الجمال أن هذه النماذج حقيقة صادقة ، فهو جمال لا يمكن جحوده ، جمال محسوس ملموس ، فلا يستطيع المرء أن ينكر هذه النماذج ، لأنها قائمة أمام بصره كأنها مقدودة من صخر • أعود فأقول مرة أخرى اننى لا أتكلم كلام ناقد من نقاد الأدب • لذلك سأجنب أن أشرح رأيي فأصدر حكماً مفصلاً على ما تركه شاعرنا من آثار عبقرية • ان المرء ليستطيع مثلاً أن يؤلف كتاباً كاملاً عن نموذج الراهب العالم بالأخبار ، فيبين ما لهذا الوجه المهيّب عندنا من شأن كبير ودلالة غنية ، وهو الوجه الروسي الذي اكتشفه بوشكين على الأرض الروسية ، واستخرجه ، ونحت صورته ، ووضعه أمام أبصارنا فأصبحنا نراه الى الأبد بجماله الروحي الهادي الفخم شاهداً على ما للشعب من روح قوية قادرة على أن تستخرج من قرارة ذاتها وجوهاً لا سبيل الى جحود جمالها أيضاً • ان بوشكين قد استمد هذا الوجه من الواقع ، فهو وجه موجود ، لا يمكن انكاره ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه مبتكر ابتكاراً ، وأنه ثمرة من ثمرات الخيال أو التصور عند شاعر • انكم لتأملونه أنتم أنفسكم وتسلمون به : نعم ، هو اذن موجود ، وان روح الشعب الذي خلقته لموجودة أيضاً • ويتبع ذلك أن ما تملكه هذه الروح من قوة حية نشيطة موجودة كذلك ، وكبيرة ورجبة • اننا لنحس في جميع أعمال بوشكين ايماناً بالطبع الروسي ، ايماناً بطاقته الروحية • واذا وجد الايمان فقد وجد الأمل أيضاً ، وهو أمل كبير في الانسان الروسي :

مؤملاً مجدداً وخيراً

ارنو امامي خير خائف

كذلك قال الشاعر نفسه فى مناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات يمكن أن تصدق على جميع آثاره القومية • وما من كاتب روسى ، لا قبله ولا بعده ، بقى فى يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً يبلغ هذا المبلغ من العمق ، ويصل الى هذه الدرجة من ارتباط الابن بأبيه وأمه • صحيح أن عندنا كتاباً كثيرين يعرفون الشعب ويتكلمون عنه بموهبة ومقدرة ومجبة • ولكن كل ما تستطيع أن تقوله عن هؤلاء الكتاب ، اذا أنت قستهم ببوشكين (عدا مستشرين اثنين بين أواخر مقلدى الشاعر) هو أنهم « سادة » يتكلمون عن الشعب • وحتى بين أقواهم موهبة ، حتى لدى المستشرين الاثنين اللذين ألمت اليهما ، نحس على حين فجأة بظهور شيء أعلى ، شيء يتحدر من طراز آخر من المعيشة والحياة ، شيء يشبه أن يكون رغبة لدى الكاتب فى رفع الشعب اليه ، ونفعه بتصوره • أما بوشكين فانه يملك شيئاً لا أدري ما هو ، شيئاً يقرّبه من الشعب « نهائياً » ، ويكتسب لديه نوعاً من طبيعة بسيطة ساذجة • انظروا فى أسطورة « الدب » ، اقرأوا كيف قتل فلاح « صاحب المعالى الدب » ، أو تذكروا ذلك البيت من الشعر عن « العراب ايفان » ، افعلوا هذا فتدركوا ماذا أريد أن أقول •

ان جميع هذه الكنوز من الفن والحدس التى خلفها لنا شاعرنا الكبير هى نوع من الهدى للفنانين الذين سيخلفونه ، للفنانين الذين سيحققون رسالتهم بعد الآن على هذا الدرب الذى شقه لهم • حقاً اننا نستطيع أن نقول : لولا أن وجد بوشكين ، لما وجدت المواهب التى أعقبته • أو قولوا على الأقل ان هذه المواهب ، مهما تكن عظمتها ، ما كان لها لولاه أن تظهر قوية هذه القوة التى نراها لها اليوم ، ولا واضحة هذا الوضوح الذى تتجلى به فى هذا الوقت • ولكن الأمر ليس أمر شعر فحسب ، ليس أمر عمل فنى فحسب : ان الشيء الذى كان يمكن ألا يتجلى تجلياً قوياً هذه القوة التى لا تقاوم، لولا أن وجد بوشكين

(وهذا ما رثى بعد ذلك لدى بعضهم ان لم يكن لديهم جميعاً) انما هو ايماننا باستقلالنا الروسى ، وهذا الأمل الذى أصبح اليوم واعياً كل الوعى ، أعنى أملنا فى شعبنا ، وايماننا بالرسالة التى سيكون علينا ذات يوم أن نحققها فى أسرة الشعوب الأوروبية . وان مأثرة بوشكين هذه تتضح اتضاحاً خاصاً اذا نحن نفذنا الآن الى ما سوف أسميه بالمرحلة الثالثة من حياته الفنية .

أكرر أن هذه المراحل ليس لها تخوم محدّدة تحديداً واضحاً . فبعض أعمال بوشكين ، حتى بين تلك التى تنتمى الى المرحلة الثالثة ، كان يمكن أن تظهر فى بداية حياة شاعرنا الفنية ، لأن بوشكين كان فى جميع الأوقات كاتباً حياً مكتملاً ان صح التعبير ، كاتباً حياً يشتمل منذ البداية على بذور جميع تطوره ، فهو لم يتلق هذه البذور من خارجه . فالعالم الخارجى لم يزد فى أكثر تقدير على أن حرك ما كان ثاوياً فى أعماق نفس الشاعر . ولكن هذا الكائن العضوى كان يتطور ، ونحن نستطيع أن نميز مراحل هذا التطور ، فنرى فى كل مرحلة منها طابعها الخاص ، وسلك النمو من طور الى طور . وعلى هذا الأساس نستطيع أن ننسب الى المرحلة الثالثة من تطوره ، تلك السلسلة من الأعمال التى تتألق فيها الأفكار العالية خاصة ، والتى تنشر أمام أبصارنا الصور الشعرية عند الشعوب الأخرى ، وتجسّد لنا عبقرية هذه الشعوب . ان عدداً من هذه الأعمال لم يظهر الا بعد موت بوشكين . وفى هذه المرحلة من حياته الفنية انما يمثل الشاعر شيئاً معجزاً ، شيئاً لا عهد بمثله من قبل ، شيئاً لم يلاحظ فى أى مكان الى أن جاء بوشكين . صحيح أن فى الآداب الأوروبية عبقریات فنية تحفل مرتبة أولى فى العظمة ، أمثال : شكسبير ، وسرفانتس ، وشيلر . ولكن أرونى عبقرية واحدة من تلك العبقریات الكبرى ملكت من القدرة على الترجيع العالمى ما ملكته عبقرية بوشكين . وهذه القدرة التى هى وقف على أمثا ، هى

بمعناها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا ، وهى ما تجعل منه شاعراً قومياً . ان أكبر الشعراء الأوروبيين لم يستطيعوا فى يوم من الأيام أن يجسد أحدهم عبقرية شعب آخر ، ولو كانت عبقرية الشعب الذى يجاور شعبه ، وأن يفصح عن كل العمق الحبقى فى روحه ، وعن كل الحنين الى تحقيق رسالته ، بمثل القوة التى برهن عليها بوشكين فى هذا كله . بل ان الشعراء الأوروبيين حين كانوا يرجعون الى الشعوب الأخرى ، فانما كانوا فى أغلب الأحيان يفعلون ذلك لادخال هذه الشعوب فى شبههم ، وفهمها على طريقتهم . لو نظرت الى شكسبير نفسه لرأيت جميع الايطاليين تقريباً يشبهون فى آثاره الانجليز . ان بوشكين ينفرد بين سائر الشعراء العالمين بالقدرة على التجسد فى شعب آخر . انظروا الى مشاهد « فاوست » ، انظروا الى « الفارس البخيل » ، انظروا الى أغنية « الخامر الفقير » . انكم اذا أعدتم قراءة « دون خوان » ، لما كان فى وسعكم أن تعرفوا أن الانسان الذى كتب هذه القصيدة ليس اسبانياً ، الا أن تروا اسم بوشكين . ما أعمق وما أهول الصور فى هذه القصيدة : « المأدبة فى زمان الطاعون » ! ألا يحس المرء فى هذه الصور الحارقة عبقرية انجلترا ؟ ان هذه الأغنية العجيبة عن الطاعون ، التى يغنيها بطل القصيدة ، وهذه الأغنية التى تغنيها مبرى وتقول فيها هذين البيتين :

من صلاتنا فى المدرسة الصاخبة

ترجمت الاصوات

لهما أغان انجليزية . انهما سأم الروح البريطانية ، وأسلوب العبقرية البريطانية فى البكاء ، واحساسها الأليم بما توقعه من مستقبل . وتذكروا تلك الأبيات الغريبة التى جاء فيها :

فى ذات يوم ، أثناء اجتياز واد مغفر

ان هذا ليكاد يكون نقلاً حرفياً للمصفحات الثلاث الأولى من كتاب غيبى صوفى غريب ، كتبه نثراً متشيعاً دينى انجليزى قديم ، ولكن أهو نقل فحسب ؟ انك من خلال الموسيقى الحزينة المنتحمة التى تسمعها فى هذه الأشعار لتحس روح البروتستانتية الشمالية نفسها ، روح مهرطق انجليزى غيبى صوفى سأمأن قد امتلأت نفسه احتقاراً ، وتحس ميوله الغامضة البهيمية ، العارمة التى لا تقاوم وتحس أحلامه الغيبية الصوفية الجامحة المتطرفة . انك حين تقرأ هذه الأشعار ليخيل اليك أنك تسمع روح عصور « الإصلاح » ، فاذا أنت تدرك تلك الشعلة المحاربة ، شعلة البروتستانتية ، وهى فى فجرها ، واذا أنت أخيراً تفهم التاريخ نفسه ، تفهمه لا بالفكر وحده ، وانما تفهمه كما لو كنت أنت هناك ، كما لو كنت تمر بمعسكر أصحاب هذه الملة ، وتتلو معهم أناشيدهم ، وتشاركهم ذرف الدموع فى حماساتهم الصوفية ، وتشاطرهم ايمانهم بما هم به مؤمنون . وفى موازاة هذه الصوفية الدينية ، انظروا الآن الى تلك الأبيات الدينية الأخرى المستمدة من روح القرآن ، أعنى « اقتباسات من القرآن » . ألا تحسون حين تقرعونها أن مسلماً هو الذى يتكلم ؟ ألا تحسون روح القرآن ؟ ألا ترون حسامه ؟ ألا تحسون تلك العظمة البريئة فى عقيدته ، وتلك القوة الهائلة الرهيبة فى تعاليمه ؟ وعودوا بنا الى العالم القديم . اقرعوا قصيدة « لبالى مصر » . ألا ترون آلهة الأرض هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم حكم آلهة ، ويزددون عبقرية شعوبهم وأشواقها ، ولا يؤمنون بها ، والذين يصدق عليهم أنهم آلهة منزلون ،

أطاشت العزلة عقولهم واحتضروا من الضجر وهم يهددون حزنهم
 بميول حيوانية عجيبة رهيبة ، وشبق كشبق الحشرات ، ولذة كلذة اثني
 العنكبوت التي تلتهم ذكرها • انى لأقول غير هيّاب : ما عرفت الانسانية
 شاعراً يضارع بوشكين فى قدرته على الترجيع العالمى الشامل • وليس
 الأمر أمر ترجيع فحسب ، وانما هو أيضاً ذلك العمق المدهش فى هذا
 الترجيع ، وتلك القدرة التي تملكها روح بوشكين على أن تتقمص روح
 شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً فهو معجزة ، لأن هذه الظاهرة
 لم تتجدد لدى أى شاعر فى العالم بأسره من أقصاه الى أقصاه • ان هذا
 لم يحدث الا عند بوشكين • وبهذا المعنى يكون بوشكين - كما سبق أن
 قلت - ظاهرة ليس لها سابقة ، وهو فى رأينا ظاهرة نبوة ! ذلك ...
 ذلك لأن ما هو رومى أكثر من كل ما عداه فى بوشكين انما يتجلى فى
 هذا ، أعنى العبقريّة القوميّة فى شعره ، أعنى روح شعبنا فى الصورة
 التي ستصير اليها فى المستقبل ، أى روح مستقبلنا التي عرفت كيف
 يستخرجها من بين شوائب الحاضر ، وكيف يعبر عنها تعبيراً نبوياً حقاً •
 وهل قوة روحنا القوميّة الا ميلها - من خلال الأهداف المحدودة التي
 تستهدفها - الى العالمية الشاملة ، الى التكامل الانسانى ؟ ان بوشكين الذي
 أصبح شاعراً قومياً ، ما ان اتصل بالشعب حتى أحسّ سلفاً بما لهذه
 القوة الشعبية من دلالة واسعة • فهو من هذه الجهة قد أدرك المستقبل
 وكان نبياً •

• ان فى وسعنا أن نسأل فى الواقع : ما اصلاح بطرس بالنسبة
 لنا ، لا من جهة المستقبل فحسب ، بل من جهة ما كان ، من جهة
 الماضى ، من جهة ما حدث ووقع ؟ ما ذا كانت دلالة هذا الاصلاح بالنسبة
 لنا ؟ ذلك أن هذا الاصلاح ، فى حقيقة الأمر ، لا يقتصر بالنسبة لنا
 على أننا استعنا بالعادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب •
 يجب أن تتعمق تعمقاً أشد ، فنرى كيف حدث هذا الاصلاح • من

الجازر جداً ألا يكون بطرس الأكبر نفسه قد خطرت بباله في أول الأمر الا هذه الفكرة ، فجهد في تطبيقها ، أى ألا يكون قد استهدف في البداية الا منافع مباشرة . ولكن ما يملكه بطرس الأكبر من رفاقة في الفكر توجهه في عمله لا بد أنها دفعت به بعد ذلك ، أثناء مضى فكرته في تطورها ، الى أهداف بعيدة المدى لا شك في أنها أرحب من تلك المنافع المباشرة . فنستطيع أن نقول ان الشعب الروسى قد قبل ذلك الاصلاح لا باسم المنفعة المباشرة وانما هو قبلها حتماً لأنه أحسن سلفاً يهدف بعيد أعلى كثيراً من تلك المنفعة المباشرة . وأعود فأقول ان هذا الاحساس قد يكون لا شعورياً ، ولكن ذلك لا ينفى أنه كان قوياً وأنه كان راسخاً رسوخاً عميقاً في نفس الشعب الروسى . لقد كنا جميعاً في ذلك الأوان نميل الى اعادة بناء وحدة الحياة ، الى اعادة بناء وحدة النوع الانسانى . اننا بالصدفة لا بالعداوة (كما قد يُظن) ، وبالحبة كلها انما قبلنا في أنفسنا عبقریات الأمم الأجنبية ، وقبلناها جميعها ، دون أن نفرق بينها ونجعل بعضها فوق بعض طبقات مختلفة باختلاف الأجناس ، لأننا علمنا بالفطرة ومنذ أول خطوة تقريباً كيف نزيل التناقضات وكيف نعدر ونغفر ، وكيف نحقق المصالحة بين الاختلافات . وبذلك كنا نؤكد منذ ذلك الحين ما نملك من استعداد وميل لأن نعيد بناء الوحدة العالمية ، والوحدة الانسانية بين أسر الجنس الأرى الكبير كلها منذ أن انكشفت هذه الوحدة لأبصارنا . نعم ، ان دلالة الانسان الروسى هي أنه أوروبى وأنه عالمى ، ما فى ذلك ريب . فأن يكون المرء روسياً حقيقياً ، أن يكون روسياً كاملاً ، فذلك انما ينشئ (احفظوا هذا) أنه أخو البشر جميعاً ، أنه مؤمن بالوحدة الانسانية اذا شتم هذا التعبير . ان كل ما ذهبنا اليه من دعوة الى السلافية ومن دعوة الى التشبه بالغرب ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن ضرورياً من الناحية التاريخية . فالروسى الحقيقى يرى أن أوروبا ومصائر الجنس الأرى العظيم كله غالية على نفسه كروسيا نفسها

ومصائر أرضه التي ولد عليها : ذلك أن مصيرنا انما هو العالمية الشاملة ، التي لا تتحقق بالسيف ، بل بالأخوة ، بجهدنا الأخوى فى سبيل أن نردّ البشر الى الأخوة . فلو تمعقتم تاريخنا الروسى الذى تلا اصلاح بطرس الأكبر ، لوجدتم فيه منذ ذلك الحين أثرًا من هذا التفكير وقرائن تدل عليه ، أو قولوا ان شئتم أن تستبدلوا بكلمة التفكير كلمة أخرى ، انكم واجدون فيه آثارًا وقرائن تدل على تلك الأحلام التي عبرت عنها منذ قليل حين تحدثت عما هو مشترك بيننا وبين الشعوب الأوروبية ، حتى فيما يتعلق بسياسة حكومتنا ؟ اذا ما الذى فعلته روسيا فى مضمار السياسة خلال هذين القرنين ؟ أليس واضحًا أنها خدمت مصالح أوروبا أكثر مما خدمت مصالحها الخاصة ؟ لا أظن أن مردّ ذلك الى جهل رجال السياسة عندنا . لا . ان شعوب أوروبا لا تدرى كم هى عزيزة فى قلوبنا ، غالية فى نفوسنا ! انى لعلى يقين بأن الروس فى المستقبل ، أعنى الروس الذين سيخلفوننا سوف يدركون جميعاً - ولا أستثنى منهم أحداً - أن انتماء الفرد الى الشعب الروسى ، أى أن يكون الفرد روسياً حقيقياً ، انما معناه أن يقوم بمصالحة - هى فى هذه المرة مصالحة نهائية - بين التناقضات الأوروبية ، وأن يبتنّ للحنين الى أوروبا كيف أن هذا الحنين يمكن أن يرتوى من نفسنا الروسية التواقّة الى الشمول الانسانى والى الوحدة بين البشر ؟ وأن يجعل جميع اخوتنا فى العالم ينضمون الينا بالحب حتى لقد تكون روسيا هى التى تنطق بالقول الفصل فى الاتساق الشامل والانسجام الكبير والاتفاق النهائى الأخوى بين جميع الشعوب تحت لواء المسيح . انى لأعلم حق العلم أن كلمائى هذه لابد أن تبدو شديدة الحماسة كبيرة الغلو وأن تبدو أوهاماً يتعلق بها الخيال . لا ضير . لست نادماً على أننى قلتها . لقد كان يجب أن يقال ، فى هذا الأوان خاصة ، فى هذه الساعة الجليلة عندنا ، هذه الساعة التى نحتفل فيها بذكرى شاعرنا العظيم الذى جسّد هو نفسه هذه الفكرة وحققها فى

فنه • ثم انتهى لا أعلن هذا الرأي أول مرة • ان هذا الرأي ليس
 بجديد • ولكن الشيء الخطير هو أن يظن بما أقول الضرور • فإذا
 بمعترض يعترض : « ماذا ؟ أليكون هذا قدر وطننا الجلف البائس ؟
 أنكون نحن الذين هيأنا القدر بين سائر الانسانية لأن نطق بالقول
 الجديد ؟ » • أى غرابة فى هذا ؟ أنا أتكلم عن مجد اقتصادى ، عن
 مجد السيف أو العلوم ؟ لا ! فانما أنا أتكلم عن الأخوة بين البشر ،
 فأقول ان القلب الروسى ربما كان هو المهيأ أكثر من سائر الشعوب
 لأن يحقق الوحدة الشاملة الأخوية بين جميع البشر • وقد استقيت
 علامات ذلك من تاريخنا ، ورأيها فى نبغاتها ، وشهدتها فى عبقرية
 بوشكين الفنية • لا يضيرنا أن أرضنا فقيرة بائسة • ان هذه الأرض
 الفقيرة قد « طاف بها المسيح وباركها فى صورة فن من الأفاض » • فلماذا
 تستبعدون أن تنطوى نفوسنا نحن على آخر كلمة قالها المسيح ؟ ألم يولد
 هو نفسه فى مذود ؟ أعود فأقول : اننا على الأقل نستطيع منذ الآن أن
 نطلع على العالم بشاعرنا بوشكين ، وبالروح العالمية الشاملة التى عبر
 عنها ، وبعبريته التى تتصف بأنها انسانية كاملة • لقد استطاع بوشكين
 أن يضم فى نفسه العبقريات الأجنبية الأخرى كأنها من ذوى قرابه •
 لقد برهن فى الفن ، أو فى خلقه الفنى على الأقل ، برهاناً لا مسيل
 الى جحوده ، على توق الروح الروسية الى العالمية الشاملة ، وذلك وحده
 دليل كبير • اذا كان رأينا وهماً ، فاننا نقع عند بوشكين على ما يصلح
 أساساً وقاعدة لهذا الوهم يقوم عليها وطبداً راسخاً • لو أن بوشكين
 عاش عمراً أطول ، فلربما كشف عن جوانب خالدة رائسة من النفس
 الروسية كان اخوتنا الأوروبيون سيفهمونها فتجذبهم اليها أكثر مما هم
 منجذبون اليها الآن • لعله كان سيستطيع ، لو عاش عمراً أطول ، أن
 يشرح لهم أشواقنا الحقيقية ، ولعلمهم كانوا سيدركون عندئذ من نحن ،
 فيكفون عن النظر اليها بالريرة والاحتقار اللذين لا يزالان يظهر وهما

لنا • لو عاش بوشكين عمراً أطول ، فلربما قلَّ ما يقوم بيننا وبينهم الآن
من سوء التفاهم ، وما ينشعب بيننا وبينهم من مشاجرات • ولكن الله أراد
غير ذلك • فمات بوشكين وهو في عنفوان تفتح قواه ، ولا شك أنه حمل
معه الى قبره سرا كبيرا • فهذا السر هو ما يجب علينا منذ الان أن
نحاول النفاذ اليه بعد غيابه عنا •

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المراقق -٢-	٥

قصص

٤٨٣	١	بوبوك
٥١١	٢	الطفل عند يسوع في عيد الميلاد
٥١٩	٣	الفلاح ماراي
٥٢٩	٤	عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
٥٤١	٥	العذبة
٦٠٩	٦	حلم رجل مضحك
٦٤٣	٧	خطاب عن بوشكين

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الشافيف</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيوتشكا نزنوفنا	الأبلة - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخار تشين	الأبلة - ٢.
الجارة	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهرج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في سبع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	الرامق - ١.
زوجة آخر، وزجل تحت السور	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	الرامق - ٢.
قرية ستيبان تشيكوفوسكانها	قصص
حلم العم	<u>المجلد السادس عشر</u>
<u>المجلد الرابع</u>	الأخوة كارامازوف - ١.
مذلولون مهانوف	<u>المجلد السابع عشر</u>
<u>المجلد الخامس</u>	الأخوة كارامازوف - ٢.
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الأخوة كارامازوف - ٣.
في قبوي	
قصة اليمية	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدي	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدفع عن "الفقراء" والمذللين الميائين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر ف. سرلوفيف